المجلس الأعلى للثقافة

أحمد شوقى

(الأعمال النثرية)

طبعة خاصة بمناسبة احتفال المجلس الأعلى للثقافة
بالذكرى الخامسة والسبعين لرحيل حافظ وشوقى (١٩٣٢ : ٢٠٠٧)

تقديم : أحمد درويش

المجلس الأعلى للثقافة
٢٠٠٧

المجلس الأعلى للثقافة

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

شوقى ، أحمد شوقى بن على (١٨٦٨ - ١٩٣٢)
أحمد شوقى ، الأعمال النثرية - القاهرة ، المجلس الأعلى للثقافة ، ٢٠٠٧ .
٩٢٠ ص ، ٢٤ سم .
طبعة خاصة بمناسبة احتفال المجلس الأعلى للثقافة بالذكرى الخامسة والسبعين لرحيل حافظ وشوقى (١٩٣٢ - ٢٠٠٧)
١ - النثر العربى - مصر
(أ) العنوان ٩١٨,٩٦٢

رقم الإيداع ٢٠٠٧/٢٣٩٥٨
الترقيم الدولى I.S.BN. 977 - 437 - 530 - 0
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

حقوق النشر محفوظة للمجلس الأعلى للثقافة

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٢٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٢٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St., Opera House, El Gezira, Cairo
Tel. : 27352396 **Fax :** 27358084.

المحتـــويات

- بين يدى الكتاب .. مدخل لقراءة نثر شوقى - أحمد درويش 5

*** رباعية استلهام التراث الفرعونى**

- رواية عذراء الهند أو تمدن الفراعنة 23
- رواية لادياس 165
- رواية دل وتيمان أو آخر الفراعنة 265
- شيطان بنتاءور أو لبد لقمان وهدهد سليمان 431

*** استلهام التراث العربى**

- ورقة الآس - قصة تاريخية 559

*** تأملات الشاعر الناثر**

- أسواق الذهب 647

*** المسرح النثرى**

- مسرحية أميرة الأندلس 805

بين يدى الكتاب :

مدخل لقراءة نثر شوقى

أحمد درويش

عُرف أحمد شوقى (١٨٦٨ - ١٩٣٢) شاعراً كبيراً فى الأدب العربى الحديث لا تخفى شهرته على من لديه أدنى إلمام بتاريخ هذا الأدب ، بل واشتهر بلقب أمير الشعراء منذ عقدت له البيعة به سنة ١٩٢٧ . وظل اللقب مرتبطًا به رغم تعدد المحاولات لنسبته إلى غيره من الشعراء بعد رحيله . وتجمع ميراثه الشعرى الغنائى والمسرحى فى شوقياته التى طبعت فى حياته ، أو تدارك الدارسون المجهول منها بعد وفاته . وفى مسرحياته التى حظيت بالطباعة والتمثيل فى غالب الأحايين . أو فى قصائده التى تناولها أهل التلحين والغناء فساهمت فى إثراء الثقافة والوجدان لأبناء العربية على مدى أجيال متعاقبة .

ولقد حظى هذا الميراث الشعرى لأحمد شوقى بقدر كبير من عناية الدارسين ، على اختلاف درجات الاتفاق أو الاختلاف مع جودة الشعر والشاعر على امتداد القرن العشرين فى سائر أرجاء الوطن العربى .

لكن أحمد شوقى ناثراً لم يعرف نفس القدر من الذيوع والشهرة ، والاعتراف على المستوى الثقافى العام ، ولا من الاهتمام والنقد والتحليل على المستوى الثقافى الخاص ، فيما عدا بعض الجهود القليلة التى دفعت بالتراث النثرى لشوقى خارج دائرة العدم والنسيان ، ويأتى فى مقدمتها جهود الأستاذ محمد سعيد العريان . وقد ساعدت هذه الجهود ، فى مجملها ، على طبع وإعادة طبع وتقديم سبعة أعمال نثرية

لشوقى هى : عذراء الهند ، ولادياس ، ودل وتيمان ، وشيطان بنتاءور ، وورقة الآس ، وأسواق الذهب ، وأميرة الأندلس . وهى أعمال صالحة لأن تثير كثيراً من التساؤلات فى مجالات متعددة مثل الأدب المقارن – وأحادية الموهبة أو ازدواجها بين الشاعر والناثر ، وتاريخ الرواية العربية – وتطور أساليب النثر العربى ، ودرجات استلهام التاريخ ، أو استخدام الرمز ، أو بناء الاستعارة الكلية فى تشكيل رؤية الأديب لنبض العصر الذى يعيشه ، واستشراف آفاق المستقبل الذى يحلم به والتعبير عنها ، شعراً أو نثراً أو مزجا بينهما بوسائل فنية راقية .

وهذه هى المرة الأولى التى تجتمع فيها أعمال شوقى النثرية ، فى مجلد واحد بعد أن كانت قد ظهرت منجمة فى صحف أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين أو فى ملاحقها الأدبية المستقلة (وبخاصة مجلة الموسوعات) أو فى طبعات متفرقة تناثرت منذ أواخر القرن التاسع عشر ، حتى أواخر القرن العشرين ، وحظى بعضها بمقدمات تعريفية مثل مقدمات العريان ، وقد اختار إصدار للمجلس الأعلى للثقافة سنة ٢٠٠٧ ثلاثة من هذه الأعمال (عذراء الهند ، ولادياس ، ودل وتيمان) وأعاد إصدارها تحت عنوان "روايات شوقى المجهولة" وقدم لها محمود على .

وقد حظيت هذه الأعمال فى مجملها بإشارات من الدارسين الذين تعرضوا لتاريخ النثر أو تاريخ الرواية فى القرن العشرين ، وقدمت حولها أطروحة بكلية الآداب – جامعة القاهرة سنة ١٩٧٦ ، وتحمل عنوان : "أحمد شوقى ناثرا" وهو نفس العنوان الذى اختاره كاتبها إبراهيم حسين الفيومى عندما أعاد إصدارها فى كتاب بالأردن سنة ١٩٩١ .

* * *

تواكب هذه الأعمال النثرية لشوقى – مسيرة إبداعه شاعراً – وتكاد تغطى تواريخ تأليفها أو نشرها – مرحلة الإبداع عنده التى تمتد نحو خمسة وثلاثين عاماً (١٨٩٧ – ١٩٣٢) مع تحمس وتدفق فى البداية ، وتريث وندرة فى الوسط ، وعودة هادئة فى النهاية . فالسنوات الست الأولى للأعمال النثرية صدر فيها خمسة أعمال

قصصية ، أربعة منها تتصل باستلهام التراث الفرعونى : عذراء الهند (١٨٩٧) ولادياس (١٨٩٨) ودل وتيمان (١٨٩٩) وشيطان بنتاءور (١٩٠١) ، وعمل خامس يستلهم التراث العربى : "ورقة الآس" ١٩٠٢ . ولا يكاد يشهد العقدان الأول والثانى من القرن العشرين تجميعا من شوقى لمقالاته أو خواطره النثرية المتفرقة ، أو عكوفا منه على عمل أو أعمال نثرية ، تماثل فورة البداية . حتى ظهر كتاب "أسواق الذهب" فى أواخر حياته سنة ١٩٣٢ ، بعد أن كان قد نُشر كثير منه منجما خلال العقدين السابقين ، وتظهر مسرحية "أميرة الأندلس" فى فترات نهاية الإنتاج الإبداعى لدى شوقى كذلك .

ما الذى جعل شوقى – يبدو متحمسًا فى البداية – لازدواج مهمته شاعرًا وروائيًا ؟ وما الذى جعله على نحو خاص يختار حقل التراث الفرعونى ليصدر منه الرباعية الأولى فى إنتاجه النثرى فى خمس سنوات متلاحقة ، ويتبعها بعمل آخر يستلهم فيه التراث العربى ، قبل أن تفتر همته بدرجة أو بأخرى ؟

إن العودة إلى المقدمة التى كتبها شوقى بنفسه لديوانه عندما صدر سنة ١٨٩٨ ، تلقى بعضا من الضوء على بعض المفاهيم التى كان يحتفى بها شوقى فى ذلك الوقت ويود أن يجسدها فى نتاج أدبى تتعاون فيه أدوات الشعر والحكاية وفق المقام الأدبى . فعندما عدد شوقى أسرار الخلود فى بعض روائع الشعر العربى بدأ بامرئ القيس وثنَّى بأبى فراس وجعل ميزته لعود جانب منها إلى "حسن الحكاية" ، الذى يقترب بالقصيدة الجيدة من "الرواية" حين قال : "ونظمه أبو فراس فخرًا عاليًا ، ونسيبًا غاليًا ، وحكما باهرة ، وأمثالا سائرة . لكنه لم يقله فوضى ، ولا قرب فى نظمه الخلط ، فإن قصيدته المشهورة التى يقول فى مطلعها :

أراك عصى الدمع شيمتك الصبر أما للهوى نهى عليك ولا أمرَ

ليست إلا عقدا توحد سلكه – وتشابهت جواهره – ودقّ نظامه ، تعاونت فيه ملكة العربى ، وسليقة الشاعر على حسن الحكاية ، فإذا فرغت من قراءتها ، فكأنك قرأت أحسن رواية ، وهذا وكونها أشبه وشى بالشعر فى شعور الأنفس ، هما سر بقائها متلوّة إلى الأبد" .

وهذه النظرة "النقدية" فى التركيز على أهمية حسن الحكاية ، فى التقريب بين الشعر والرواية ، واكبتها نظرة أخرى ، نابعة من تجربة شوقى فى تعدد الثقافات واستقراء تاريخ الآداب ، تحاول أن تصحح - ما ظنه البعض حاجزاً يصدّ بالضرورة الشاعر عن مجالات النثر كالرواية والقصة والمسرحية والمقال ، كما يصدّ الناثر غير المؤهل بملكة الشعر عن مجالات القصيدة ، ولقد لاحظ شوقى من شدة معايشته للثقافة الفرنسية ، التى كان عائداً للتو من بلادها - بعد أربع سنوات قضاها فى ربوعها . مهدت له ألفة طويلة باللغة الفرنسية وآدابها قبل سفره ، لاحظ أن كبار الأدباء يجمعون فى سهولة بين كونهم شعراء كبار وناثرين كبار أيضا ، يبدعون فى مجال الرواية والمسرحية وغيرها من المجالات ، وضرب أمثلة ببعض هؤلاء الأدباء الفرنسيين حين قال : "بقى استدراك لا بد من إيراده - وذلك أنّ بعضهم يستنتج من كون الناثر لا ينظم أن الشاعر لا ينثر كذلك ، ولا ينبغى له ، وهذا وهم يدانى اليقين عندهم . وقد جاوز الشعراء فى الانخداع به حدا أضرّ بهم مع أنه يكفى للخروج منه أن نعلم أن أكثر ما أعجز به أدباء الفرنج اليوم فى القصص والإنشاد ، وما يُمثّل على أكبر ملاعبهم (من مسرحيات) وتتداوله ألسنتهم من مرسل الكلم ومنثور الحكم - وما كتب فى هذا القرن والذى قبله (التاسع عشر والثامن عشر) فى الفلسفة العليا - والسياسة الكبرى ، إنما هو من قلم مشاهير الشعراء ، حتى لنسمع عن أحدهم أنه مات عن عشرات من المؤلفات ثم نرى المنظوم منها أقلها بل إن بعضهم يقدم الأشقياء (البؤساء) وهو كتاب لفكتور هيجو - على سائر مؤلفاته - وفيها الشعر ، كما يرون "اعتراف ابن العصر" لألفريد دى موسيه ، أجل أثرٍ له بين كثير من الآثار ، وفيها الروايات المنظومة والأشعار - وكلا الشاعرين مطبوع لم يختلف فى سليقته اثنان" .

شوقى إذن يطمح فى هذه المرحلة أن يتجاوز هذا الوهم وأن يكون له فى العربية إنتاج قصصى وشعرى ، كما هو الشأن عند كبار أدباء الفرنسية الذين ذكر من بينهم فكتور هيجو (١٨٠٢ - ١٨٨٥) وألفريد دى موسيه (١٨١٠ - ١٨٥٧) الشاعرين الناثرين الكبيرين فى القرن التاسع عشر ، واللذين تأثر بهما شوقى بين أدباء فرنسين آخرين ذكر منهم فى مقدمته اسم "لافوتين" (١٦٢١ - ١٦٩٥) الذى نظم شوقى على

أسلوبه فى قصص الحيوان والأطفال – وهو لا يزال فى بعثته ولامرتين الذى ترجم له البحيرة (٧٩٠ – ١٨٦٩) ، كما كان أيضا قد شرع فى كتابة المسرح الشعرى الذى يجمع بين الشعر والقصص والتاريخ عندما أرسل من فرنسا ، مسودة مسرحيته "على بك الكبير" فتفكه الجناب العالى بقراءتها ، وكان أيضا قد كتب سنة ١٨٩٦ عندما مثل مصر فى مؤتمر المستشرقين بجنيف قصيدة تاريخية طويلة تزيد على ثلاثمائة بيت سماها "كبار الحوادث فى وادى النيل" ، وظهر فيها تأثره بقصيدة فكتور هيجو التاريخية الطويلة "أساطير القرون" .

وإذا كان شوقى قد أشار فى مقدمته إلى هؤلاء الشعراء الفرنسيين الكبار فى القرنين السابع عشر والتاسع عشر ، وأعلن أنه متأثر بهم ، فهو لم يكن يهدف بالتأكيد إلى الاستقصاء والحصر لأن شاعراً وناثراً فرنسيًا كبيراً آخر فى القرن التاسع عشر وهو تيوفيل جوتييه (١٨١١ – ١٨٧٢) تبدو تجربة شوقى فى مجال الرواية التاريخية الفرعونية على نحو خاص شديدة القرب من تجربته وشديدة احتمال التأثر بها فى ضوء ولع شوقى بالثقافة الفرنسية، وولع جوتييه بمصر فى تراثها الفرعونى البعيد، وفى حاضرها الذى كان يلامس بداية حياة شوقى حيث حضر جوتييه احتفالات افتتاح قناة السويس فى طفولة شوقى المبكرة ، وكانت رواياته عن مصر الفرعونية ملء السمع والبصر فى الفترة التى عاشها شوقى فى فرنسا .

كان تيوفيل جوتييه . قد عكس فى كتاباته الأدبية جانبًا من ظاهرة "الولع الفرنسى بمصر" التى اجتاحت أدباء وعلماء ورحالة فرنسيين خلال القرن التاسع عشر ، وعلى نحو خاص بعد صدور كتاب "وصف مصر" لعلماء الحملة الفرنسية ، واكتشافات شامبليون لحجر رشيد ، ونشره لكتابه "رسائل من مصر والنوبة" ، ونشر أعمال جيرار دى ثرڤال ، وفلوبير ، وماكسيم دى كوم ورينان وغيرهم ممن زاروا مصر فى هذه الفترة . وكان جوتييه ، يكتب فى رسائل لأصدقائه : "نحن لا ننتمى إلى البلد الذى نولد فيه وإنما إلى البلد الذى نجد أنفسنا فيه، ولقد وجدت نفسى فى مصر، فأنا مصرى" مع أنه لم يكن قد أتيح له أن يزور مصر الحاضر ، حتى كتابته لهذه السطور ولكنه لدى أدباء عصره كان يُعَدّ أبرز من حاول أن يرسم الحياة فى مصر الفرعونية من خلال

سلسلة أعمال روائية وشعرية ، ساعده فى إتقانها أنه قادم إلى الأدب من مجال الرسم بارز فى مجال الكتابة الشعرية والنثرية على سواء ، وفى هذا الإطار أصدر مجموعة من الأعمال الفرعونية الأدبية المتميزة مثل رواية une nuit de cleopotre (ليلة من ليالى كليوباترا سنة ١٨٣٨) ونهج فيها نهجًا يخالف المنظور التاريخى اليونانى والرومانى ، مركزًا على محور الحب بين الجندى والملكة ، ورسم مناخ الحياة فى مصر ، على نحو جدير بالمقارنة مع مسرحية شوقى اللاحقة حول "مصرع كليوباترا" .

ثم أصدر جوتييه رواية "قدم المومياء" Le Pied de Momié سنة ١٨٤٠ منطلقًا من تجربة واقعية طريفة يحكيها عالم الآثار الفرنسى ، فيفون دى نان ، الذى اكتشف فى إحدى المقابر بوادى الملوك – قدم مومياء صغيرة ، فأعجب بها كثيراً ، وحملها معه إلى فرنسا ، ونشر عنها عشرات الصور وعلق عليها وعلى دقة جمالها قائلاً :

"إن الإبهام المرفوع ، والأصبع الأولى الممددة ، والأصبع الصغيرة المتجهة إلى أعلى والانحناءة الأنيقة لعنق القدم ، وأسلوب حفظها البكر ، واستقامة أظافرها ، كل ذلك يدل على أن من كانت له هذه القدم ، هى إنسانة راقية ، لم ترهق قدمها أبدا بالسير لمسافات طويلة ، ولم تهنها داخل أى حذاء" ، وقد التقط تيوفيل جوتييه ، هذا الخيط وحاول أن يتخيّل فى روايته : مَنْ هى الأميرة صاحبة القدم ؟ والتى أطلق عليها "هيرمونتيس" وكيف يمكن تصور مسيرة حياتها . وحياة العصر الفرعونى الذى تنتمى إليه ؟ وكانت تلك واحدة من أوائل الروايات النثرية ، التى تتخذ من مصر الفرعونية ، ميدان حركة لها ، وفى نفس المناخ الفرعونى أصدر جوتييه سنة ١٨٥١ ديوانه "حنين المسلات" Nostalgie d'Obélisques وكتب فيه قصيدة طويلة عن حنين المسلة المصرية فى ميدان الكونكورد بباريس إلى أختها التى فارقتها فى الأقصر ، وإلى شمس مصر الصافية ، مقارنة بشمس باريس الملبدة بالغيوم ، وإلى نهر النيل المقدس الذى كان يقبل أقدامها عند الفيضان ، مقارنا بنهر السين الذى تصب فيه بالوعات الشوارع والذى يلوث قدميها ، ثم كتب جوتييه بعد ذلك رواية فرعونية أخرى أطلق عليها "حكاية المومياء" سنة ١٨٥٧ Le Romon de la momie ، وكانت فكرتها قائمة فى الأصل على محاولة ربط سفر الخروج فى الكتاب المقدس بالبلاط الملكى الفرعونى فى طيبة

وهى المحاولة التى كان قد طرحها من قبل فى مسرحية له بعنوان "موسى فى مصر" ولكن المعالجة الفنية فى كلا العملين شدته إلى مناخ مصر الفرعونية وآثارها وأطال الوقوف أمام الممرات التى تحدها تماثيل أبو الهول المتربعة والطرق المملوءة بالمسلات وتماثيلها المقدسة الهائلة ذات رءوس الحيوانات ومعابدها التى تمتلئ بلوحات ذات نقوش هيروغليفية وأعمدة ضخمة كالأبراج وأحجار مبرقشة ومقابر ملكية تغوص فى جبال الجرانيت الوردى ، ومدافن موجودة تحت الأرض ، وكهنة يطوفون يرتدون الشعور المستعارة الملكية ويحملون على أكتافهم الأدوات التى يؤدون بها الطقوس الكهنوتية الجنائزية المعقدة .

كان جوتييه قد استند وهو يعيد تركيب فسيفساء الحياة فى مصر الفرعونية فى عمله الروائى ، على عمل قدمه صديقه الأثرى الرسام إرنست فيدو حول "تاريخ العادات المأتمية والجنائزية عند قدماء المصريين" ، وكتب له وهو يهديه الرواية : "أهدى إليك هذا الكتاب الذى هو حق لك ، إنك قد جعلتنى أعتقد أننى عالم وأن معرفتى بمصر القديمة هى معرفة كافية تسمح لى بوصفها وذلك بأن فتحت أمامى أبواب علمك ومكتبتك ، فقد تنزهت داخل المعابد والقصور والمقابر ومدن الأحياء والأموات متبعًا خطاك.. لقد كشفت أمامى غموض إيزيس ، وأحييت حضارة ضخمة كانت قد اختفت . القصة ملك لك ، والرواية لى ، لم أحتج سوى أسلوبى فى تجميع الأحجار الكريمة التى أحضرتها لى" .

* * *

تيوفيل جوتييه إذن ، كان يمثل نغمة بارزة فى معزوفة الولع الفرنسى بمصر فى القرن التاسع عشر بعد الحملة الفرنسية وصدور كتاب وصف مصر ، واكتشافات شمبليون ، وكانت جهود جوتييه الأدبية تتجه نحو "الرواية النثرية الفرعونية" فى محاولة لإعادة إنطاق التاريخ الصامت فى شفراته على التماثيل وجدران المعابد وأوراق البردى ، وقد أنتج فى هذا الاتجاه روايات جيدة ذاعت شهرتها لدى القارئ الفرنسى بعامة ، والقارئ المهتم بأخبار مصر على نحو خاص ويبعد أن لا يكون شوقى قد قرأها

أو سمع بها خلال مقامه فى فرنسا أو حواره مع المثقفين والمسئولين المصريين الذين كان يلتف معظمهم حول الثقافة الفرنسية فى ذلك الوقت . وشوقى نفسه يذكر فى مقدمة ديوانه أنه لما أرسل مسرحيته على بك الكبير إلى رشدى باشا ليعرضها على جناب الخديوى ، ورد إليه كتاب من رشدى باشا باللغة الفرنساوية يقول فيه "أما روايتك فقد تفكه الجناب العالى بقراءتها ، وهو يود... أن تأتينا من مدينة النور (باريز) بقبس تستضىء به الآداب العربية ، إلخ" وإذا كانت الفرنسية على هذا القدر من الشيوع فى الأوساط الثقافية المحيطة بشوقى ، وكان هو فى موقع من أرسله الجناب العالى ليقتبس شيئًا من أنوار الآداب الفرنسية ، فإن من الصعب أن تكون الروايات الفرنسية المتصلة بحب مصر وتراثها الفرعونى بعيدة عن مجال اهتمامه .

على أن فرضية اطلاع شوقى على روايات تيوفيل جوتييه التى تستلهم التراث الفرعونى لا تقلل من قيمة إنجاز شوقى وريادته لهذا الفن الروائى النثرى فى الأدب العربى الحديث الذى كان فى مرحلة التلاقح مع الآداب الغربية الحديثة، بعد غفوة طويلة، والذى وجد كثير من رواده ، ومنهم شوقى ، إغراء بالتجديد من خلال محاكاة وتمثل طرائق الآداب الأخرى فى التواصل وأنماط التعبير . وقد صنع محمد حسين هيكل شيئًا مماثلاً . بعد نحو عشرين عامًا من محاولة شوقى عندما احتذى خطوات أديب فرنسى آخر هو جان جاك روسو فى روايته "جولى أوهلويز الجديدة" وهو يكتب رواية "زينب" مبتدئًا بها نمطًا من الرواية الاجتماعية المعاصرة .

وشوقى نفسه ناقش فرضية سبق الأدباء الغربيين له فى نسج روايات من التراث الفرعونى . وأبدى وجهة نظره ، أو دفعه التهم التى وجهها إليه معاصروه فى هذا الصدد عندما لا حظوا وجود رواية ألمانية ترجمت إلى العربية ، تشابه كثيراً رواية دل وتيمان التى كتبها شوقى . فى سلسلة رواياته التى استلهم فيها التراث الفرعونى .

كانت الرواية التى أثارت هذه القضية فى حياة شوقى هى رواية "الأميرة المصرية" التى كتبها عالم الآثار الألمانى جورج إيبرس ، ونشرتها مجلة المقتطف سنة ١٨٩٨ فى ترجمة لها عن الإنجليزية كان قد بدأها إلياس صالح ، وتوفى فأكملها أسعد داغر وكان إيبرس نفسه قد اطلع على الترجمة ورضى عنها ، وكتب مقدمة للترجمة العربية وجاءت رواية "دل وتيمان" لشوقى تحمل بعضا من أوجه الشبه مع الرواية الألمانية ،

فاضطر شوقى ، أن يكتب مقدمة – على غير عادته – يناقش فيها مبدأ استلهام أكثر من أديب لموقف تاريخى واحد ، ومشروعية العودة إلى النبع التاريخى المتاح وعزف ألحان مختلفة على أوتاره ، ويشتم من مقدمة شوقى الموجزة ، وجود لون من المنافسة والتنازع حول التاريخ الفرعونى بين المصريين والغرباء ، فالرواية التى يدور الحوار حولها ، كتبها ألمانى وترجمها سورى . ولم يشر شوقى إلى اسميهما اكتفاء بتحديد صفتيهما الدّالتين فى مجال المنافسة : "ألقيت أساس هذه الرواية ، وأنا لا أعلم أن كاتبًا مجيدًا من أفاضل الألمان ، عتب قبلى هذا الباب من تاريخ قومى القديم حتى قرأت روايته "أميرة مصرية ، مُعرّبة بقلم أديب فاضل من إخواننا السوريين ، فما رجعت إلى الوراء ، ولا نفضت يدى من البناء ، لعلمى من جهة أن التاريخ ليس إلا مقابر وخرائب – كلمة الفيلسوف الفرنسى تين – وأن أولى الأقلام بأن يزور مقابر الوطن، ويقف على خرائبه قلم عربى تمسكه يد مصرى"، وهذه النزعة القومية فى أحقية تناول تراث الوطن أدبيا على يد أبنائه ، يؤكدها بدليل فنى آخر فى نفس المقدمة الوجيزة حين يقول : "إن التاريخ المنشئ للروايات – كالبحر للغواصين ، لا يضيق الموضع الغزير منه بالخلق الكثير ، فإذا رزقوا فعلى قدر الاجتهاد والتيسير" .

ويشف شوقى فى نفس المقدمة عن خطة طموح كان يود من خلالها أن يمد عالم الرواية النثرية بسلسلة من الروايات تنطلق من تاريخ وادى النيل ابتداء من عصره الفرعونى: "إنى أحاول أن أجعل ما همَّ وجلّ من حوادث وادى النيل ماضيها وحاضرها . وما بينهما من الفترات ، فى عقد من الروايات ، واسطته الحقيقة ، ونظامه الخلق والتخييل" . وهو تخطيط لم يتح لشوقى أن ينجز منه إلا أربع روايات ، ثم صدَّته أو شغلته أمور أخرى، وينبغى أن نسجل هنا ظاهرة ذات دلالة وهى أن نجيب محفوظ ، بعد نحو أربعين عامًا من هذا التاريخ ، وضع لنفسه نفس الخطة الطموح : أن يصوغ تراث مصر التاريخى ، بدءًا من التاريخ الفرعونى ، فى أربعين رواية . ولكنه لم يتح له أن ينجز منها إلا ثلاث روايات : "عبث الأقدار" و "رادوبيس" و "كفاح طيبة" ثم صدته أو شغلته أمور أخرى ! فضلا عن أن هيكل قد أشار فى مقدمة زينب إلى تردده بين الكتابة عن مصر الفرعونية أو المعاصرة .

* * *

هل كان للاستقبال النقدى لروايات شوقى أثره فى هبوط موجة تحمسه لمشروعه الروائى النثرى الكبير وهو على أعتاب القرن العشرين ؟

ربما يحسن التأكيد أولا على أن الحوار النقدى حول الإبداع الأدبى لشوقى دار معظمه حول شعره أيا كانت درجة الانتصار له أو عليه ودار القليل منه حول رواياته ونثره دون أن يتجاوز الحوار – حتى فى حالاته القليلة تلك – درجة السطح الخارجى للثوب التعبيرى إلى ما وراءه من جنس أدبى ، وحتى عند أكثر أصدقاء شوقى قربًا وتعاطفًا ، تظل المفاضلة بين نثر شوقى وشعر شوقى ، وليس بين نثر شوقى ونثر العصر ومكانه فيه من التجديد ، يقول شكيب أرسلان فى كتابه "شوقى أو صداقة أربعين عامًا" : "إن شعر شوقى قتل نثره ، فبينما هو فى الشعر ، الفذ الذى يَجْرى ولا يُجْرَى معه ، إذا هو فى النثر أحد جماعة يجرى معه الناس مثنى وثلاث ورباع ... فى حين نرى له نثرًا رائعًا وترسلاً دافقًا وفصولاً شائقة ، كانت تخلد فى عالم الأدب لو لم تفتك بها قصائده" .

إن عبارة شكيب أرسلان ، الذى يعد من أصدقاء شوقى ، وهو الذى اقترح عليه كلمة "الشوقيات" عنوانًا لديوانه ، كما يقول شوقى ، تكاد تلتقى مع عبارة إبراهيم اليازجى الذى يعد من منافسيه ، على الأقل فى مجال النثر ، وقد انتهى بعد مناقشة رواية لادياس فى مجلة البيان سنة ١٨٩٧ إلى قوله : "يشهد الله أنّا كنا نود للمؤلف لو لم يجد بهذا التأليف ، فإن الرجل معروف بالشعر من الطبقة العالية ، مشهود له فيه بأنه من الطراز الأول – وحقيق بمن بلغ فى أمر من الأمور منزلة يكون فيها من رؤساء أربابه أن لا يتعدى للدخول فى فئة ينزل فيها عن رتبته ، ويعد بينهم آخر ، فإن إهمال بعض الأمر لا عيب فيه ، أولا يتعين على المرء الاشتغال بالأمور كلها ؟ ، ولكن العيب على من انتحل أمرًا وقعد فيه" .

هذا الاعتراض أو الفتور فى الترحيب بشوقى فى "مملكة النثر" لم يعادله اهتمام بما يحمله ذلك النثر من جنس روائى وليد ، حرص شوقى فى ردوده على أن يبين طموحه ، وجديته فى تناوله ، وعودته إلى المصادر التاريخية الموثوق بها قبل أن يعمل

خياله فى نسج روايته ، وبث النبض فى مشاهدها وشخصياتها . ومن بين المصادر التاريخية التى كان يحرص على أن يذكرها لعلماء مصريين معاصرين له ليؤكد عدم تبعيته للغربيين فى رؤيتهم لتاريخ مصر ، كتاب كان يطرح على طلاب مدرسة دار العلوم العليا وهو كتاب "الأثر الجليل لقدماء وادى النيل لأحمد نجيب وقد ألف سنة ١٨٩٥ وكان شوقى يعتصم به فى أثناء الدفاع عن ما يوجه إليه بأنه لجأ إلى الترهات والخرافات وخرج عن نصوص التاريخ الموثوق بها .

هذا الموقف النقدى الذى قد تخالطه بعض النزعات العنصرية ، ودوافع التنافس ربما كان وراء الفتور الذى جعل شوقى يُهدئ من فورة حماسه لمواصلة كتابة الرواية . ويكاد يتوقف بعد الانتهاء من الرباعية الفرعونية وورقة الآس المستلهمة للتراث العربى ، ولكنه يستمر فى نثرياته المقطرة ، التى كانت قد بدأت فى نهاية الرباعية الفرعونية ، مع شيطان بنتاءور وسوف تستمر فى نظراته المتفرقة والتى سوف يجمعها فى "أسواق الذهب" .

* * *

كانت عين شوقى مركزة على حاضر مصر ، وهو يغمس قلمه فى مداد ماضيها ، وكان كما يقول خليل مطران فى تقديمه لمحاورات بنتاءور: "يؤاخذ غضاضة مصر الآن، برفعتها فيما تقدم من الزمان – معاقبا بالرفق – محاسبا بالصدق" . يريد (بذكر مجد الفراعنة) تحريك وَتَر جَمُد فى فؤاد الأمة عن التأثر للحال – فضلاً عن الحقب الأُول – وإحياء عاطفة فى النفوس ، جفت لعدم تعهدها من بدء الأزل" كان شوقى يعيش عقود ما بعد إخفاق حلم الإمبراطورية المصرية على يد محمد على وإبراهيم – والتى صارت قبل منتصف القرن التاسع عشر ممتدة الأطراف من الشام إلى منابع النيل وأطراف الجزيرة العربية ، وتحالف عليها كل القوى الكبرى فى العصر على ما بينها من اختلاف فحطمت أسطولها وأجهضت أحلامها، وتدخلت فى شئونها خطوة بعد خطوة . حتى كانت أحداث الاحتلال الإنجليزى ، والثورة العرابية والخديوى الضعيف ، ومطاردة الضباط الوطنيين ، وضعف شأن الأمة بصفة عامة ، وكان موقف شوقى غاية

فى الدقة والحرج ، فهو ربيب القصر ، ومن ولد على باب إسماعيل ، كما يقول ، وهو يقدم بطاقة التعريف به فى الرواية الأولى "عذراء الهند" من هذا المنطلق ، حين يكتب على غلافها "عذراء الهند ، لمنشئها الضعيف . أحمد شوقى ، أحد موظفى الديوان الخديوى" وهو ينطلق من كونه شاعر القصر إلى سعيه إلى لقب شاعر مصر وهو لا يخفى هذا وهو يقدم بطاقة التعريف به فى الروايتين الثانية والثالثة "لادياس ، ودلّ وتيمان" حين يكتب على غلافهما "أحمد شوقى شاعر مصر فى هذا العصر" وحين تتتابع قصائدة فى مدح الخديوى ورصد المناسبات السعيدة له ، وهجاء أعدائه بما فى ذلك ضباط الثورة العرابية ، وعلى رأسهم أحمد عرابى ، الذى حظى بقصائد مشهورة من شوقى فى تقريعه ولومه بعد فشل الثورة العرابية، وبعد عودته من المنفى ، وهو بهذا كله يترجم فى شعره الغنائى ، ما يمكن أن يسمى ، وجهة النظر الرسمية فى مسار الأحداث .

ولكن الذى يقرأ روايات شوقى ، لا بد أن يلحظ كما لاحظ خليل مطران فى فترة مبكرة ، أن ولعه بالماضى ، انعكاس على الحاضر ولوم وتقريع له ، ولا بد أن يثور لديه من التساؤلات ما ثار عند محمد سعيد العريان بدرجة أو بأخرى من أن أبطال قصص شوقى الذين يمجدهم ويحتفى بهم ، هم فى الواقع ضباط وطنيون يثورون على فرعون ضعيف ، ينقص من شأن العناصر الوطنية فى جيشه ، ويمنح الفرصة للتدخلات الأجنبية، ويؤازر عناصرها. وتكون النتيجة التاريخية التى يحلم أن تنعكس على الواقع، هى انتفاضة الشعب ومناصرته لأبنائه الوطنيين وضباطه المخلصين. إن شوقى يستعيد الرجولة المصرية المفتقدة فى عصره ، عندما يلجأ إلى العصور السابقة ، ويحرص على أن يتخذ مجالا لروايته إطار العلاقات مع القوى الكبرى فى هذه العصور : اليونان والفرس والهنود ، ويحرص على أن تكون سطوة مصر ممتدة إلى هذه المناطق ، وهيبتها يُحْسب حسابُها ، فقوات مصر البحرية تتحرك بُحريَّة حتى بحر العرب لتلامس شواطئ الهند ، وأبطالها يقهرون منافسيهم فى جزر اليونان ، وشبابها فى كل الحالات – وهم غالبًا من الضباط – هم الذين تهفو إليهم قلوب الأميرات الجميلات فى الممالك والجزر المجاورة أو البعيدة ، ويقومون بأجرأ المغامرات للاحتفاظ بهن ، وإحلالهن فى مصر زوجات لأمرائها تُشَيّد لَهُنّ القصور والمعابد .

وتلك الصورة العامة ، يمكن تتبع تجلياتها الروائيـة فى عذراء الهند ، ولادياس ، ودل وتيمان – وتجلياتها الحوارية القصصية فى "شيطان بنتاءور" ومشاهد من أسواق الذهب ، ويبقى التركيز على الجانب الخلقى وفساده وغلبة الخداع والخيانة عليه فى قصور الحكام مجسداً فى "ورقة الآس" .

لقد كان شوقى – فيما يبدو – يتعادل مع نفسه من خلال تقنية "القناع الأدبى" . وهى تقنية لم يكن مناخ "القصيدة الغنائية" ، ولا موقعه فى حياته من القصر يسمح له باللجوء إليها ، ولكن مناخ "الأدب القصصى" كان يساعده على التعبير عما يريد الإلماح إليه من خلاله ، ولم يكن يقتصر فى ذلك على الروايات النثرية ، بل إن تقنية "القناع" امتدت فى وضوح كذلك ، إلى قصائد القصص على ألسنة الحيوانات ، والتى تأثر فيها بلافونتين ، الذى كان بدوره يتخذها قناعا من أقنعة الأدب السياسى فى عصره ، فجاء شوقى واقتبس الفكرة، وتحرك تحت ردائها بحرية ، لكى يعبر شعرياً عن أصحاب المكر والخديعة والدهاء والتسلط فى عالم الحيوان مستخدما قناعا له درجة كبيرة من الشفافية يكاد يرى المتلقى من خلاله الجانب الآخر، الذى يرمز إليه الشاعر ، وهو أيضا يستخدم نفس القناع فى الأدب الروائى الموضوعى هنا مع رواياته النثرية ، فيعتذر لوطنيته عما يمكن أن يكون قد لحق بها من سوء ظن ، تحت وطأة تقاليد القصيدة الغنائية وموقع الشاعر فى القصر .

ومن أجل هذا كان شوقى يشير إلى هذه الروايات ويعددها فى مجال الدفاع عن وطنيته فى وجه من ينتقصون منها – كما فعل فى الرسالة التى وجهها إلى الزعيم محمد فريد الذى شكك فى وطنيته قائلاً : "وطنيتى أيها الرئيس الكريم فى الشوقيات وفى عذراء الهند ، ودل وتيمان ، ولادياس ، وبنتاءور" .

ونحن إذن مع أديب صاحب رؤية ، وصاحب رسالة ، وصاحب ثقافة واسعة ، ومعرفة بطرق التأتّى الأدبية لتبليغ رسالته .

* * *

يمكن لنثر شوقى وقد تجمع للمرة الأولى ، أن يثير كثيراً من التساؤلات أمام الدرس الأدبى والنقدى ، حول تطور الأجناس والأساليب فى الأدب العربى خلال القرن العشرين، وتطور وسائل التوصيل وشرائح المتلقين ، وتأثير ذلك كله على عملية التطور ، ولا شك أن الصحافة وظهورها باعتبارها وسيلة توصيل مرتبطة بميقات زمنى محدد يقاس باليوم أو الأسبوع قد شكلت ما سماه شوقى نفسه "آية الزمان" حين قال فى بيته المشهور :

لكل زمـــان مـــضى آيـــة وآيـــة هـــذا الزمـــان الصـــحف

هذه الصحافة – كانت وسيلة شوقى فى بث رواياته منجمة إلى الناس – وفى تقسيمها إلى فصول بحسب مواقيت صدور الصحيفة ، وفى إنهاء كل فصل بعنصر تشويقى أو بمخاطبة للقارئ يعده فيها باستئناف الحديث فى المرة القادمة ، وكل هذه الخصائص "الصحفية" لها تأثيرها دون شك فى الهيكل العام الذى اتخذته الروايات النثرية وهى تتشكل ، ثم تجمع فصولها وتنشر بين دفتى كتاب ، ولكنها متأثرة بتقسيمات أعداد الصحيفة المتتالية .

ولأن الصحافة توسع من مجال انتشار المادة الأدبية ، فإن عنصر التلقى ، لم يعد محصوراً فى طلاب العلم ولا شداة الأدب، الذين كانت تكتب لهم الأعمال الأدبية فى السابق ، ولكن الدائرة اتسعت ليدخل معها عنصر هام هو عنصر "ربات البيوت" اللائى بدأن فى التعود على قراءة الصحف ، وقد رصد شوقى هذه الظاهرة فى فترة مبكرة ، حين أشار إلى أهمية أن يلتفت الأدباء إلى شريحة الأطفال والنساء فهو يقول : "وأتمنى لو وفقنى الله لأجعل لأطفال المصريين مثلما جعل الشعراء للأطفال فى البلاد المتمدنة منظومات قريبة التناول ، يأخذون الحكمة والأدب من خلالها على قدر عقولهم" ويضيف فى موضع آخر من نفس المقدمة : "على أنى لا أستصعب فى مصر اليوم صعبا بعد ما علمت أن كثيراً من المخدرات فى العاصمة ، أصبحن يرقبن ساعة ظهور الجرائد بصبر نافد ، وأن إحداهن طردت خادما لها أرسلته يشترى نسخة من جريدة فأبطأ" .

يمكن لنثر شوقى وقد تجمع للمرة الأولى ، أن يثير كثيراً من التساؤلات أمام الدرس الأدبى والنقدى ، حول تطور الأجناس والأساليب فى الأدب العربى خلال القرن العشرين، وتطور وسائل التوصيل وشرائح المتلقين ، وتأثير ذلك كله على عملية التطور ، ولا شك أن الصحافة وظهورها باعتبارها وسيلة توصيل مرتبطة بميقات زمنى محدد يقاس باليوم أو الأسبوع قد شكلت ما سماه شوقى نفسه "آية الزمان" حين قال فى بيته المشهور :

لكل زمـــان مـــضى آيـــة وآيـــة هـــذا الزمـــان الصـــحف

هذه الصحافة - كانت وسيلة شوقى فى بث رواياته منجمة إلى الناس - وفى تقسيمها إلى فصول بحسب مواقيت صدور الصحيفة ، وفى إنهاء كل فصل بعنصر تشويقى أو بمخاطبة للقارئ يعده فيها باستئناف الحديث فى المرة القادمة ، وكل هذه الخصائص "الصحفية" لها تأثيرها دون شك فى الهيكل العام الذى اتخذته الروايات النثرية وهى تتشكل ، ثم تجمع فصولها وتنشر بين دفتى كتاب ، ولكنها متأثرة بتقسيمات أعداد الصحيفة المتتالية .

ولأن الصحافة توسع من مجال انتشار المادة الأدبية ، فإن عنصر التلقى ، لم يعد محصوراً فى طلاب العلم ولا شداة الأدب، الذين كانت تكتب لهم الأعمال الأدبية فى السابق ، ولكن الدائرة اتسعت ليدخل معها عنصر هام هو عنصر "ربات البيوت" اللائى بدأن فى التعود على قراءة الصحف ، وقد رصد شوقى هذه الظاهرة فى فترة مبكرة ، حين أشار إلى أهمية أن يلتفت الأدباء إلى شريحة الأطفال والنساء فهو يقول : "وأتمنى لو وفقنى الله لأجعل لأطفال المصريين مثلما جعل الشعراء للأطفال فى البلاد المتمدنة منظومات قريبة التناول ، يأخذون الحكمة والأدب من خلالها على قدر عقولهم" ويضيف فى موضع آخر من نفس المقدمة : "على أنى لا أستصعب فى مصر اليوم صعبا بعد ما علمت أن كثيراً من المخدرات فى العاصمة ، أصبحن يرقبن ساعة ظهور الجرائد بصبر نافد ، وأن إحداهن طردت خادما لها أرسلته يشترى نسخة من جريدة فأبطأ" .

وتلك الصورة العامة ، يمكن تتبع تجلياتها الروائيـة فى عذراء الهند ، ولادياس ، ودل وتيمان – وتجلياتها الحوارية القصصية فى "شيطان بنتاءور" ومشاهد من أسواق الذهب ، ويبقى التركيز على الجانب الخلقى وفساده وغلبة الخداع والخيانة عليه فى قصور الحكام مجسداً فى "ورقة الآس" .

لقد كان شوقى – فيما يبدو – يتعادل مع نفسه من خلال تقنية "القناع الأدبى" . وهى تقنية لم يكن مناخ "القصيدة الغنائية" ، ولا موقعه فى حياته من القصر يسمح له باللجوء إليها ، ولكن مناخ "الأدب القصصى" كان يساعده على التعبير عما يريد الإلماح إليه من خلاله ، ولم يكن يقتصر فى ذلك على الروايات النثرية ، بل إن تقنية "القناع" امتدت فى وضوح كذلك ، إلى قصائد القصص على ألسنة الحيوانات ، والتى تأثر فيها بلافونتين ، الذى كان بدوره يتخذها قناعا من أقنعة الأدب السياسى فى عصره ، فجاء شوقى واقتبس الفكرة، وتحرك تحت ردائها بحرية ، لكى يعبر شعرياً عن أصحاب المكر والخديعة والدهاء والتسلط فى عالم الحيوان مستخدما قناعا له درجة كبيرة من الشفافية يكاد يرى المتلقى من خلاله الجانب الآخر، الذى يرمز إليه الشاعر ، وهو أيضا يستخدم نفس القناع فى الأدب الروائى الموضوعى هنا مع رواياته النثرية ، فيعتذر لوطنيته عما يمكن أن يكون قد لحق بها من سوء ظن ، تحت وطأة تقاليد القصيدة الغنائية وموقع الشاعر فى القصر .

ومن أجل هذا كان شوقى يشير إلى هذه الروايات ويعددها فى مجال الدفاع عن وطنيته فى وجه من ينتقصون منها – كما فعل فى الرسالة التى وجهها إلى الزعيم محمد فريد الذى شكك فى وطنيته قائلاً : "وطنيتى أيها الرئيس الكريم فى الشوقيات وفى عذراء الهند ، ودل وتيمان ، ولادياس ، وبنتاءور" .

ونحن إذن مع أديب صاحب رؤية ، وصاحب رسالة ، وصاحب ثقافة واسعة ، ومعرفة بطرق التأتّى الأدبية لتبليغ رسالته .

* * *

هذا التطور فى الصحافة وسيلة للأداء ، وفى ظهور شرائح الأطفال والنساء بين طبقات القراء ، كان له نفس الأثر فى الآداب الأوروبية فى فترة نشأة الأدب القصصى والروائى . وها هو شوقى يلتقطه ويحاول أن يستجيب لمتطلباته ، وأن يطور وسائل الأداء الأدبى وفقًا لها ، ويأتى ميلاد الرواية النثرية عنده فى هذا السياق .

على أن هذا التطور والنمو - سوف يصاحبه بالضرورة ، تطور فى أسلوب النثر ذاته ، الذى كان شديد القرب من لغة المقامات ، شديد الاهتمام بالمحسنات ، وصناعة الجمل القصيرة ، ذات الفواصل المتشابهة ، واللجوء إلى السجع الذى ظل شوقى يعجب به ويدافع عنه نظريا ولديه فقرات حول السجع فى "أسواق الذهب" وهى من آخر ما صدر له من كتابات نثرية ، مع أنه على المستوى التطبيقى تخفف منه فى كثير من مراحله ، وقد يكون من الشائق متابعة تطور لغة شوقى النثرية فى هذا الإطار ، ومن خلالها متابعة تشكل ملامح "اللغة العصرية" من بين أحضان "اللغة التراثية" والخطوات التى مرت بها فى سبيل هذا التخلق الجديد ، مع المحافظة على الحبل السرى المتصل باللغة التراثية ، وذلك على مستويات متعددة لا تقف عند قضية السجع والفقرات ، وإنما تمتد إلى المعجمى والمجاز وغيرها من مكونات التعبير اللغوى .

ونثر شوقى صالح لأن يشكل مادة ملائمة لإثارة هذه التساؤلات جميعًا كما أنه صالح كذلك لقياس درجة اتساع أو ضيق المسافة التى قطعها كل من النثر والشعر فى الثلث الأول من القرن العشرين ، بالقياس إلى اللغة التراثية ، وقياس درجة المسافة بين هذين الفنين الكبيرين فى ذاتهما : الشعر والنثر، وقد صدرا عن نفس مبدع واحد . ولكن احتفظ كل منهما بملامحه الخاصة فظلا كالبحرين يلتقيان ، بينهما برزخ لا يبغيان .

رباعية استلهام التراث الفرعونى

رفيق غلاف ابتدائي للمستأجرين

رواية
عذراء الهند
أو
تمدن الفراعنة

تنبيـــه

أشخاص الحقيقة فى هذه الرواية أربعة وما سواهم فمن وضع الخيال :

- " رمسيس الثانى " ، " سيزوستريس " ملك مصرَ ، وهو أكبر ملوك الزمن الأول نصيباً من مدحة الأحاديث ، وقد كان معظم اعتمادى فيما وصفت من مفاخر أيامه وعرفت من أحوال البلاد تحت أحكامه على كتاب نفيس مرصد لسيرة رمسيس عنوانه : " رمسيس الأكبر أو مصر منذ ٣٣٠٠ سنة" لجامعه العالم المحقق " فرديناند دى لانوا " . وعلى مؤَلف ظهر فى هذه الأيام هو خير المصادر فى هذا المقام أُريد " الأثر الجليل " لواضعه الأستاذ الفاضل والعالم العامل أحمد نجيب بك مفتش عموم الآثار المصرية .

- والأمير " كميوم " أو " شميوم " المحرف اسمه فى الرواية آشيم أكبر أولاد هذا الملك . ومبلغ العلم فى أمره أنه كان حاكم منفيس وولى عهد رمسيس ، وأنه مات فى السنة الخامسة والخمسين من حُكم والده عن ثلاثين سنة ، وكان فى أواخرها أحب إخوته الكثيرين ، إلى الأمم والشعوب ، وأجذبهم بأَزمَّة الرأى العام ، وأمتنهم إعلاقًا فى القلوب ؛ وإن لهذا الموت المعجَّل أسبابًا لا يزال علمها فى جانب الغيوب .

- والأميرة " آثرت " كريمة الملك ، وجملة الخبر عنها أنها كانت ساحرة ماهرة ، وأن الملك مدين لنصحها الثمين بفتوحاته الأربعين .

- و " بنتؤُر : ونصيبنا من أنبائه أنه كان صاحب الملك وشاعره ، وإن له فيه مدائح وأشعارًا قالها على لسانه فى خطاب الآلهة والضراعة إليهم عند كل أزمة .

وجملة القول أن التاريخ المصرى القديم لا يزال فى عهد الطفولية الأُولى ، إذا نحن قسناه بمعاصرات العلوم والفنون وما صارت إليه من تمام الوضوح وكمال الثبوت ؛ وإن الحقيقة معه لا يستقر بها خبر ، فهى عين تارة وأثر . تحيا بحجر وتموت بحجر . فالمستند إليه فيما هو قائل ، إنما يستند إلى ظلام زائل ، أو جدار مائل ، وهذا ما أُنبه إليه المؤَرخ الذى أعوذ باللّـه بين يديه أن أكون من الجاهلين .

شـوقى

الباب الأول

الحوادث فى الهند

الفصـــل الأول

جـــزيرة العـــذارى

كم لنـا مـن عـجـيـبـةٍ ... طـى هـذى الـبـسـيـطـةِ
أُمـمٌ قـد تـغـيـرت ... وبـلادٌ تـحـولـت
وبـحـارٌ تحـولـت ... مـن مكان لـبـقـعـةِ
ثـم نـابـت جـزيـرة ... عـنـدهـا عـن جـزيـرةِ
أيـهـا الأرض خـبـرى ... عـن شـبـاب الخليـقـةِ
حـدثـيـنـا حـديـثـهـم ... وصـفـى القـوم وانـعـتـى
دولٌ قـد تـصـرمـت ... دولـةٌ إثـر دولـةِ
وقـرون تـلاحـقـت ... وعـصـور تـقـضـتِ
ذهـب الـدهـر كـلـهُ ... بـيـن يـوم ولـيـلـةِ

كانت إلى جنُوب الهند الشرقيَّة وعلى مسيرة أيام من تلك الشواطئ القديمة الأزليَّة ، جزائرُ شتى صغار منتشرة ههنا وهناك ، كما عامت اللآلئ أو طفت على الماء الشباك . تنهض بالجلال والجمال خلال زرق الماء نهوض نجوم الجوزاء فى القبة الزرقاء .

وكانت كلها أبكاراً ولم تأو من قبل نزيلاً ولا ديارًا إلا واحدة وكان يقال لها جزيرة العذارى ، وكانت يتيمة ذلك العقد المأنوس المنتثر بالمنظر الضاحى على لباث

الأُقيانوس ، وهى التى نلقى عليها المراسى الآن فى ابتداء قصتنا التى وقعت حوادثها من نحو خمسين قرنًا من الزمان .

وكان يسكن هذه الجزيرة مائة فتاة وفتاة كلهنَّ ملك كريم ، ومثال عالٍ غالٍ لنعيم الجمال وجمال النعيم . وكنَّ كلهنَّ أبكارًا بين الرابعة عشر والخامسة عشر أعمارًا ، إذا رأيتهنَّ حسبتهنَّ أقمارًا طالعة ليلاً ونهارًا ، تملأُ المكان والزمان أنوارًا . وكن يأْوينَ جمعاء إلى قصرٍ هنالك مشيد على الماء ، يضمهنَّ مثلما ضمت نجومها الجوزاء ، وذاك القصر مبنى بالبلور والمرمر مفروش بصنوف الجوهر مترب بالند والعنبر ، وكان يحمل مفاتيحه ويحرس أشياءَه رجل شيخ كاهن ، لا عمل له إلا تطبيب البنات إن مرضت واحدة منهنَّ ، والصلاة بهنَّ فى الميقات ، وتعليمهنَّ ما تجب معرفته من أصول العبادات . وكان الزاد يُحمل إلى البنات فى كل ثلاثة أشهر مرة فتأْتى سفينة كبيرة مملوءة من الذخيرة ، فتودع ذلك كله فى الجزيرة بدون أن ينزل أحد من رجالها إلى البر ، ثم تنثنى آخذة عريض البحر .

أما حراسة الجزيرة شرقها وغربها وشمالها وجنوبها فكان يقوم بها مائة نمر ونمر من أندر ما أخرجت هاتيك الأصقاع من هذا النوع من السباع . كلها من حجم واحد وشكل واحد ، كأنما دفعها رحم واحد . صُفر الأحداق بازرقاق ، صُفر الجلود بيسير بياض فيما دون الأطواق ، مخططة الظهور بمخطاط قدرة الخلاق . خفاف رشاق مطلقة الوثاق ، لها هنالك على سائر الحيوان الحكم ذو الإطلاق .

وكان فى عنق كل واحد منها طوق من الذهب منقوش عليه بالمينا اسم الفتاة التى هو لها خاصةً دون سائر البنات .

وكان بين هاته النمورة واحد وكان أبيض نقى البياض ، ياقوتى الحدقتين ، عقيقى حواشى الفكين . دقيق الرأْس مستديره غليظ العنق قصيره ، رشيق القامة النضيرة ، له سيقان الغزال وإخفاف الجمال وإلى مجموع خلقته ينتهى الجلال والجمال . وكانت فى عنقه قلادة من الياقوت الأحمر ، بقفل من ذهب منقوش عليه بالجواهر هذه العبارة وهى " ذو الفك العقيقى خادم عذراء الهند ".

وعذراء الهند هذه هى إحدى الفتيات ولكنها فى الحقيقة مولاتهنَّ ، والسبب فى وجودهنَّ فى الجزيرة على تلك الحال . وهى بنت الملك دهنش ملك ملوك الهند الشرقيَّة . جعلها أبوها هنالك فى مائة عذراء من أترابها ، كريمات الملوك والأمراء وبنات الوزراء والكبراء ، وضرب لإقامة الجميع بالجزيرة أجلاً سبع سنوات كوامل ، مضى منها ست وبقيت السابعة التى نحن بصدد حوادثها الآن ، وكان فعل الملك هذا صادراً عن نصيحة أحد كبار المنجِّمين له وإشارته عليه ؛ ولذلك حديث عجيب نسوقه للقارئ مجملاً فى هذا الفصل ليعلم أسباب الغرام المبنيَّة عليه الرواية كيف نشأت ؟ وأسرار حوادثه كيف بدأت ؟ فنقول :

كان لدهنش مُلك الهندين يسوسه وينهض به جميعًا ، وكانت أعلام سيادته منشورة على ملوك القطرين أجمعين ، إلى أن ارتاح رمسيس الثانى سيزوستريس ملك مصر فيما كانت ترتاح إليه همته العليَّة من كبار المشروعات الفتحيَّة إلى الاستيلاء على هاتيك الأقاليم واتخاذها أسواقًا لتجارات وطنه الفخيم ، ومستعمرة جسيمة يُعز بها ملكه الجسيم ، فغشيها بالجحافل برًا والأساطيل بحرًا ، حتى تملكها قسرًا ، وأخذ " دهنش " فى جملة الأسرى .

غير أن فرعون لم يلبث أن شاور فى الأمر عقله ، ونظر فى العواقب نظر حكمته ، فرأى أن مُلكًا كمُلك الهندين محتاج إلى مَلك يتفرغ لتدبيره ، أو يكون سريره على الأقل قريبًا من سريره ؛ وإن بقاء الهندين فى قبضة مصر واستمرار تبعيتهما لملوكها العالين أمران لا يمكن أن يكونا إلا إلى حين . فانتهج تلقاء هذه التأملات سياسة حسنة بأن جعل الهند الغربيَّة التى هى أقرب إلى البلاد المصريَّة وأيسر منالاً على سفنها حربيَّة كانت أو تجاريَّة ، ممالك شتى صغيرة من نظام واحد بملوك مستقلين بعضهم بإزاءِ بعض ، ومستظلين تحت لوائه يقدمون له الجزية ويمهدون السبيل لمتاجر النيل ، ثم أنعم على " دهنش " بالهند الشرقيَّة جمعاء يستقل بملكها ويحكم بلادها كيف شاء .

وكان رمسيس قد استصحب معه فى تلك الحملة الكبرى ابنه وولى عهده الأمير "آشيم" وكان فى بداية صباه ، وكانت مع " دهنش " فتاته عذراء الهند ، وكانت طفلة كذلك ، فلما رد فرعون عليه ملكه وأعاد إليه بلاده دخل عليه فى آله ورجاله يؤدون شكر إحسانه الذى لا يؤدى . فكان أول من ابتدر لثم نعاله عذراء الهند على صغر سنها وقصور إدراكها فأعجبه ذلك منها واستلطف روحها ومنظرها فطلب إلى والدها أن تبقى مع آشيم تؤنسه ويؤنسها مدة إقامته القصيرة بالهند .

فكان من عواقب هذا الاجتماع أن الطفلين انجذب أحدهما إلى الآخر انجذابًا شديدًا . وصادف الهوى فؤادين ناشئين خاليين فدب .. فدرج .. فتمكن . فلما افترقا لم يفترق ، بل وجد حافظًا من مزاج الفتى والفتاة ، فراح ينمو فى فؤاديهما مع الحياة . وهكذا الحب بعضه من المهد إلى اللحد ومنه ما يلبث يومًا أو بعض يوم .

نظرةٌ فابتسامة فسلامٌ ... فكلام فموعد فلقاءُ
فافتراق يكون منه دواءٌ ... أو فراق يكون فيه الداءُ

نعم كان من الفراق لذينك العاشقين داء ، ومن ملحقاته ألف داء .. خصوصًا عذراء الهند ، فلقد كان يزيدها ألف هَم على همومها أن والدها لما ذهبت السيئات عنه ، وعاد فاطمأن بالملك والأحباب والوطن بدأ يقتنى لرمسيس الموجِدَة والعداوة ويذخر له الضغائن والأحقاد . فكان كلما تجدد تذكار ذلك العار ، عار الهزيمة والانكسار ، تجدد فى نفسه الأمل بأخذ الثار ، ثم يدرك أنه يروم المستحيل فيركن للحقد مطيَّة غير الراكبين ، وسلاح العُزْل المغلوبين .

رأيت الجنون جديرًا به ... حريًّا أخو المهجة الحاقدة
سلاح ثقيل بلا مضربٍ ... وحمل ثقيل بلا فائدة

وكانت الفتاة تلحظ ذلك من أبيها ، وكلما ألفته مملوءًا من البغضاء نحو والد الحبيب راحت مملوءة القلب من اليأس تخفى فى نفسها وتكتم فى صدرها ، وتضغط على سرائرها فى هوى الأمير أن تتهتك ، ولكن النفس البشريَّة وإن كان دونها

فى كثير من قواها الأدبيَّة تلك القوة الهائلة السارية بالوجود ، المتدفقة بالبروق والرعود ، فإنها تصطدم باليأس فتنخذل كما تصطدم بالمرض فتموت .

شيئان فوق قوى النفوس كلاهما ردعٌ لها ووقًى من الطغيانِ
اليأس وهو لهنَّ موت أولٌ والداءُ وهو لها الحسام الثانى

وفى الحقيقة فإن عذراء الهند لم تلبث أن غلبتها بوادر اليأس على كل ذلك الثبات فذهب الصبر عنها وبان ، والجَلَد المدخور ولى وخان ، فمرضت فطالت أيام المرض وخفيت أسبابه واشتكلت أعراضه . وشاع الخبر وأراب الأمر وتكلم الناس .

وكانت الأميرة واحدة " دهنش " التى لم يكن يُعطى عنها صبرًا ، ولا يقبل فيها ولا مُلك النيل مهرًا فكيف إذا عَلمَ أنه ابن عدوه الظافر وخصمه القوى القاهر ، الذى لا يدرى إن هو خطبها لفتاه أُعطيها عفوًا أم أخذها قسرًا ؟

فكانت كل هاته التأملات تملأُ قلب الفتاة مهابة من الأمر وتُجَسم بعينيها العواقب، فتستصعب الإقرار وتُشفق من تبعاته ولا تقدم عليه تاركة والدها الأسيف يشقى ويعذب ، ويذهب من مداواتها فى غير مذهب ، فكلما عرضها على أطباء الهندين ، حار الأطباء وخانتهم العقاقير ، فيلوى على السحرة فيستفتيهم فيحيلون على أصحاب الجن وهؤُلاء يبرئون الجِنّ ويتهمون الأفلاك ، فيُجاءُ بالمنجِّمين فلا يزيدون الملك بالأمر علمًا .

ثم ما زالت الأيام تتعاقب والليالى تختلف سودًا على ذاك الوالد المحزون والمرض ما زال ، والبنت بحالتها غادية على خطرين من موت وجنون ، إلى أن أخطر بعض الناس على بال الملك " شنو " أكبر أطباءِ الصين وإمام منجميها الراسخين ، وكان مغضوبًا عليه من ملكه مودعًا فى السجن من سنين . فتذكر دهنش أن " شنو " هذا كثر ما صدقه الرواية فى جسيمات المسائل ، وقام له فى المهمات بالخدمات الجلائل . فأنفذ إلى صاحبه ملك الصين رسالة يقول فيها :

" من دهنش سلطان القطرين وملك ملوك الهندين .. إلى ابن السماء وسلالة الخواقين العظماء ذى الملك الواسع والعرش المكين الملك تيتو ملك ملوك الصين ..

أما بعد فإن الملوك بالملوك ، وإن العلماء نجوم الإشراق التى لا تختص بها آفاق دون آفاق . وقد علمت أن "شنو" إمام منجمى الصين مغضوب عليه منك مودع فى السجن من سنين ، فجئتك شافعًا له وطالبًا أن تسيره إلىَّ فإنى مستفتيه فى عِلَّة عذراء الهند التى تشتد بها وتتهدد أيامها والسلام" .

التوقيع

دهنش ملك ملوك الهندين

فحين وردت هذه الرسالة على ملك الصين عفا عن طبيبه ومنجمه "شنو" ، ثم حمَّله الجواب على ذلك الكتاب ، ورحَّله معززًا مكرمًا إلى عاصمة المملكة الهندية ، حيث بولغ له فى الحفاوة ، وقوبل بمجالى الاحتفال اللائق بمقام العلماء ، وأُنزل فى قصر الملك ضيفًا كريمًا عليه فعكف أيامًا يَخْبرُ أحوال الداء ، ويسبر أغوار تلك العِلَّة العسراء ، بدون أن يدرك غايتها علمه ، أو يصل إلى كنهها فهمه . وهو كلما خلا إلى الأميرة احتال ، وأكثر السؤال عسى أن تُقر أو لعلها تبوح بالسر . والفتاة لا تزداد إلا تماديًا فى الجحود وتصميمًا على الكتمان .

فلم يجد "شنو" بُدًا من الركون للتنويم الذى كان أبرع أهل آسيا فى معرفته وأخْذُ سرائر الأميرة غصبًا . فلم يزل بها يُنَوِّمها المرة بعد المرة وهو يجدها أشد عنادًا فى حال النوم منها فى حال اليقظة ، حتى كلت روحها وخارت أعصابها وأذعن للقوة عضىُّ العنان فتحركت الشفتان وانطلق اللسان . وصادف دخول دهنش فى تلك اللحظة المكان ففاجأ ابنته إذ هى منومة إذ تقول بأفصح بيان :

آشـــيم يا من بحـــبه نعـلو ... ومن أديم الســـــهى له نعلُ
عَزَّتْ مع الشوق نحوك السُّبل ... وبات صعبًا لقاؤك السهلُ
يا ليت شعرى والبعد مجلبةٌ ... للتَّرْكِ والعيش كله شغلُ
أذاكـــر أنت أم نســـيت لنا ... إذ نحن طفلان والهوى طفلُ

إذ تعجب الهند والديار بنا ... ويعجبُ الناظرون والأهلُ

وإذ يدب الغرامُ مجتهداً ... ونحن لا فكرة ولا عقلُ

ما نحن قلنا فالحب قائله ... وما فعلنا فللهوى الفعلُ

وإن نقلنا لبقعة قدمًا ... فللهوى لا البقعة النقلُ

فإن تكن يا أمير ناسينا ... فنحن ما ننسى وما نسلو

تلك سماء الهند شاهدةٌ ... وأرضها والجبال والسهلُ

وأنجم الهند ما طلعن لنا ... وما رعتنا عيونها النجلُ

إنى على العهد ما حييت فإن ... خلوت تبقى العهود لا تخلو

فكان الملك يسمع هذا الإقرار الصريح وهو حنق هائج لذكر اسم "آشيم" ، ابن الخصم الأشد والعدو الألد الذى ما من صداقته بد ، وكلما همَّ أن يقطع على النائمة كلامها ، ويكدر عليها أحلامها ، منعه الطبيب مخافة أن يعجل ذلك للفتاة حِمَامها إلى أن باحت بسرائرها من أولها إلى آخرها ، ولم يبقَ سوى تنبيهها ورد الإرادة إليها ، فالتفت "شنو" إلى الملك قائلاً : إن كنت يا مولاى تريد حياة الأميرة ولا تريد قتلها فى هذا الشباب الغض والعمر النضير ، فاكتم عنها خبر ما رأيت وما سمعت ، لأنها إن علمت أن أحداً وقف على سيرتها ، أو اطَّلع فى الغرام على سريرتها راحت بِشَرّ حالة ثم هَلكت لا محالة . قال : ولكننى يا "شنو" لا أُطيق أن تعيش ابنتى على عشق ابن عدوِّى ، ولا أن تموت عليه ، فصف لى بحقك حيلة ، فحيلتى اليوم قليلة . قال : إن الغرام المتمكن يا مولاى لا ينفع فيه إلا العزلة وجوار البحر . قال : إذن فاختر لى مكانًا أجعلها فيه ، ينفع صحتها ويعصمها من يد آشيم إلى حين . فأطرق المنجم برهة ثم قال : قد وجدت يا مولاى المكان الذى تكون فيه كالشمس فى سماءِ الوجود لا تستطيع إلى معشوقها النزول ، ولا يستطيع معشوقها إليها الصعود . قال : أين ؟ وكيف ؟ قال : يوجد يا مولاى على مسيرة أيام من

الساحل الجنوبى الشرقى لهذه المملكة أرخبيل منعزل خشن الملمس من جميع الجهات ، لكثرة الحجر فى مياهه . عزيز منال المداخل على السفن ولو أنها من حديد . فلتنقل الأميرة إلى إحدى جزره ، ولتقم هناك سبعة أعوام كاملة ، وليرافقها فى كل هذه المدة طبيب ماهر ممن نعهد فيهم العلم وتعرف لهم الإخلاص ، لأنى أرى الداء متمكنًا من هذا الجسم الناعم ، محتاجًا إلى عناية فائقة وسهر من طبيب حكيم . فأطرق الملك برهة ثم قال : وأنا يا شنو لا أجد من أتكل عليه فى هذه المهمة سواك . قال : أعفنى يا مولاى بفضلك ، وانظر فى أمرى بعين عدلك . إننى خرجت من السجن إلى بلادك لم ألوِ على أهلى وأولادى . ولم أتمتع من شميم نسيم بلادى . قال : كل هذا مضمون لك فى المستقبل مأمون ميسور مع الزمن يهون ؛ وأما الآن فلن يكون إلا ما شئت أن يكون . قال الطبيب واحتد بالغضب : إن مولاى وسيدى "تيتو" أولى بى منك أيها الملك ، وإنه سوف يعوزه منجمه وطبيبه فيسأل عن أمرى . فبماذا أنت مُجيبه ؟ قال : ولكنه سامح بك يا شنو إذ وهب لى عقوبة ذنبك ، وإن كنت فى ريب مما أقول فهذه رسالته اقرأها تخرج من ريبك . فلما اطَّلع الطبيب على الرسالة ، أطرق امتثالاً ، وانحنى خشوعًا وإجلالاً ، ثم قال : الآن أنا لك وإليك ووقفٌ يا مولاى عليك . قال : إذن فإنى ناظر فى أمر السفر وتهيئتكم له ، تارك لك أنت تدبير الخروج من مياه المملكة وقيادة الأسطول الذى يسير بكم ، واختيار الجزيرة الصالحة للمقام .

ثم إن الملك أخذ فى العمل بكل خفاء وتستر ، ومداراة وتنكر ، بحيث لم يمض أُسبوع حتى صار الأُسطول على قدم الاستعداد التام ، لا ينتظر إلا الإشارة بالقيام ، حتى إذا صدرت إليه خفية خرج ، فأدى المأُمورية ثم رجع بسلام .

* * *

الفصـــل الثانى

الببغـــاءُ الأسـود

كان الفصل شتاءً ، وكانت أقطار الهند تقطر ماءً ، أرضًا وسماءً ، وأكنافًا وأرجاءً . وقد تملك الضباب الآفاق فأدجت إدجاءً . وتلاه الليل فأضفى عليها من ظلامه رداءً . وكانت على بعض النواحى الشماليَّة من أطراف الهند الشرقيَّة غابة عذراء . ممددة شماء . يضيق عن دائرتها الفضاء . وهى مظلمة الأرجاء أبديَّة الإدجاء . لا تغشاها الشمس بصبح ، ولا يزورها النجم فى مساء .

وكان عند مدخل هذه الغابة رجلان ليس ثمَّ غيرهما إنسان . أحدهما عظيم كتلة الجسد فى صورة الأسد ذى الأظفار واللبد . مكشوف الرأس والصدر ، غائبهما فى الشعر ، وعليه سربال من كتان بالٍ ممسك بحبال ، وفى خاصرته اليمنى خزانة سلاح مستكملة أدوات الكفاح ، وفى اليسرى خزانة أخرى فيها عِدَدٌ وآلات ، ومواد للاستعمال وأدوات . وهو كأنه سارية من اعتدال قامته الوافية . وكان شيخًا يناهز الستين وإن يكن يراه الرائى فلا يزيده على الأربعين . والآخر فتى شاب فى الثلاثين . له أجمل صور الإنسان ، وعليه كذلك ثوب من كتان . وهو قد تقلَّد سلاحه . وحمل جرابًا مملوءًا طعامًا وشرابًا . وكانا يتمشيان على المكان والشيخ يقول للفتى : ها نحن قد بلغنا الغابة يا هاموس غابة الببغاء الأسود الذى يحج إليه ويعبد ، فصفحًا للسفر عن إساءاته إذ كان هذا اليوم من حسناته . قال : حقًا يا مولاى إن كان كنز لا يفنى فالسفر كتاب لا يفرغ من قراءته فى هذه الأرض . وإنى لأعجب للإنسان كيف يُخْلَق كل هذا المُلْك لأجله ، ويعيش فيه بعقله ، ثم يموت وهو لم يجس أديمه برجله .

ولم يعرف وعره من سهله . قال : هذا يا بنىَّ أكبر عيوب الأنام ، أو هو نقص القادرين على التمام . فإن أكثرهم يفنون أيامهم بالحضر ، ثم يتهمون الأعمار بالقصر ، وهيهات هيهات ما سدًى قُدرت أيام الحياة . وإنما نتوهمها قليلة من سوءِ استعمال الأوقات . وإنهم يابنىَّ ثلاثة لا تجتمع المفاخر لأمةٍ حتى يجتمعوا لها : الكرام والعلماء ورجال الأسفار . قال : وأنت هى جملة يا مولاى . فأنت إذن أمة فى المفاخر وحدك . فأجاب الشيخ مبتسمًا : ولكنى الشقى طوس . قال : إنه من كيد الكهنة يا مولاى . إن كيدهم عظيم . قال : خلّنا الآن من هذا يا هاموس وانظر هل طلع النجم بعد ؟ فارتجل الفتى نظرة فى الأفلاك ، ثم قال : نعم ظهر يا مولاى وبان . قال : إذن فهلمَّ على اسمه وببركة مطلعه السعيد . ثم تقدم نحو المدخل فتبعه الفتى يحمل شريطًا من المعدن مشعل الذبال حثيث الاشتعال يضيءُ لهم خلال الثرى ، ويكشف من الغابة الجوانب والذرى . وكان يديره للشيخ حيث دار ، ويسير به بين يديه أينما سار . وقد مسك هذا ورقة صفراء من البلى مخرقة وهو منهمك يقرأُ فيها . فلما فرغ منها طواها بصيانة وألقاها فى الخزانة . ثم أخذ فى سيره اليمين ، والتفت إلى الفتى يقول : سندخل من حيث دخل يوقو الصينى يا هاموس . قال : وهل لذلك أثر حى على المكان ؟ أم أنت يا مولاى تعتمد على الورقة لا غير ؟ قال : تأَدب يا هاموس . إن "يوقو" كان عالمًا وإن الزمن الذى يفشو فيه الكذب بين العلماء لم يأتِ بعد ، وإن كنت فى ريب مما أقول فانظر إلى هذا الجذع وهذا الساق كيف يتفاوتان لدى السنين . فهذا له آلاف من السنين ، وهذا لا يتجاوز عمره المئين . فهنا لا شك نزل يوقو بالبُلَط . وهشَّم وقطع وحطَّم ليفتح له طريقًا بين الأشجار . قال : وكم كانت أيامه فى غابة الببغاءِ الأسود يا مولاى ؟ قال تسعون شهرًا وشهرًا . قال : إنها لمدة طويلة يا مولاى . ونحن لنا شأن غير هذا الشأن ، يضطرنا إلى أن نختصر من الزمان . قال : ليطمئن قلبك يا بنىَّ فورأْس آشيم لا يكونن الشهر عندى إلا يومًا فنلبث ثلاثة أشهر فى هذه الغابة التى لو كانت واحدة لسهل الأمر وهان . ولكنها غابات ثمانٍ ، فيها من كل موبقة زوجان . وبعد ذلك لنا إلى مياه الشمال طريق مختصر بين الرمال نقطعه فى سبعة

أيام بليال ، حتى نبلغ البحر حيث المركب والصيادون على الشاطئ ينتظرون ، ثم نقلع قاصدين جزيرة العذارى مطلبنا الصعب الذى سوف يهون .

ثم إنه ابتدر الدخول من ذلك الموضع فتبعه الفتى يحمل الشريط ، واندفعا يصلان السرى حثيثًا بين شجر ألفافا ، وأعشاب تختلف أشكالها وألوانها اختلافًا ، إلى أن مضت تلك الليلة وانقضت بدون أن يعترى تعويق ، أو يعترض شىء فى الطريق .

فلما أقبل النهار ، ولم تكن ظهرت له فى الغابة آثار ، غير تحول النبات من السواد الشديد إلى الاخضرار ، التفت الشيخ إلى هاموس فقال: أطفئ يا بنىَّ الشريط ، وخذ هذا السائل فادهن به أطرافك . واعلم أننا قادمان بعد لحظة على مواطن الثعبان الأخضر . وسنصادفه فى الطريق جماعات على أبعاد ، منتصبًا على أطراف ذنبه فى صورة أمهات الموز . فإياك أن تحتك به فى مسيرك فتقيم علينا قيامة لا طاقة لنا بها . قال : وهل لأجله صنع هذا العطر ؟ قال : نعم . وإن نكهته تحدث به من الطرب ما يشغله عن أمرنا .

وفى الحقيقة لم يكن غير يسير زمان حتى قدم الرجلان على أمثال جماعات الموز وكانت فى أتم سكون . فلما تخللاها وسرى فى جوها طيب ما كانا يحملان ، راحت تموج بالمنظر العجب كأنما أخذها من تلك الروائح طرب . فاستمرا فى سيرهما آمنين قريرين ببدائع ما يجتليان ؛ والشيخ يقول لتلميذه : تمتع يا هاموس من رؤية هذه المناظر التى لم يشهد الأوائل لها نظائر ، ولا أظن أنْ سيرى الأواخر . ومدَّ معى لقدمك الخطو ، واحتمل للسفر واحمل مشاقه . واعلم أن المروءة منه ، والصبر منه ، والشجاعة منه ، وهى الثلاثة القائمة بمكارم الأخلاق .

فتشجع الفتى بهذا الكلام وازداد إقدامًا على إقدام ، إلا أنه استأذن أستاذه فى تناول بعض الطعام فأذن له . وطلب هو أيضًا شيئًا من الزاد فأكل ، ثم عاودا السير يوغلان فيه إلى أن أخذ النهار فى الإدبار . وكانا قد بدءا يبتعدان عن أماكن الثعبان ، فأشعل الفتى الشريط واندفعا يُتبعان السير سرى موصولاً . فلم يكن نصف الليل إلا وهما بعيدان كل البعد عنها وبأمان تام منها . ثم إذا هما بأرض

خضراء نقية العُشْب كأنما أُمطرت أمطاراً أو غسلت مراراً . فلما غشياها أعجب الشيخ مرآها ، فنظر إلى الفتى قائلاً : توسد يا بنيَّ هذا المهاد الوطيء وخذ لبدنك حصته من النوم وأنا ساهر عليك أحميك وأشتغل بمطالعاتى . قال : سمعًا وطاعة . ثم اضطجع فأخذه النوم فنام . وجلس الشيخ عند رأسه ساهراً ينظر فى بعض أوراقه على ضوء الشريط ، حتى طلع النهار ، فانتبه الفتى من رقاده ناشطًا خفيفًا . وقام الشيخ فمشيا يومهما كله بين أكل وشرب وحديث ، يسيران فى أرض كبسط الخز تأخذ القدم منها ولا تأخذ من القدم .

فلما كان المساء عادت الأشجار فتنكرت دلالة على زوال النهار ، فأراد الفتى أن يشعل الشريط ليسريا بهداه وفى سناه ، فمنعه الشيخ ونهاه قائلاً : لقد أوشكنا أن نلج الغابة الثانية غابة الثعبان الوضاء . قال : وهل فى الثعابين كما فى الدود ذو النور المشهود . قال : ولِمَ لا وليست هذه إلا أصغر عجائب الوجود . قال : وما ذلك الثعبان ذو اللمعان ؟ قال : شيءٌ يا بنيَّ فى حجم الثعبان الأخضر أو هو أكبر ، وأما لونه فأصفر . ويقول "يوقو" الصينى : إنه بالنهار جُهنمى ثوَّار ، وثاب صفار ، جواره شر جوار ، وإلى لقائه تنتهى الأخطار ، حتى إذا بدا له الليل عانق الأشجار يتدفق خلالها بالأنوار ، ثم نام نومة العاشق المتع بالأسحار . فلو قامت القيامة عند رأسه ما انتبه حتى مطلع النهار .

وما استتم الشيخ حتى قدم الصاحبان على منازل ذلك الثعبان . فإذا نوره التام المحيط خير من ألف شريط . وهو على الأشجار يرتجل الأنوار مختلف الصور والأشكال ، آخذاً من كل فلك فى السماءِ بمثال ، وقد انجلت الغابة فى رواءِ فتان لم يرَ مثله حالم ولا يقظان . فاندفع الرجلان يسريان فى كلاءَة الليل وبذمة من ساكن الغاب وأمان ، والشيخ يقول للفتى : انظر يا بنيَّ إلى هذا المكان كيف يتغير من شان إلى شان . فبينما هو بالنهار مسبعة بغير قرار أو كمساكن الجان ، إذا هو كما تجتليه الآن أفق منير الأهلَّة مزدان يجتازه الطفل على قدم السكينة والاطمئنان . قال : وهل سُرى ليلة يا مولاى يكفى للابتعاد عن مواطن هذا الثعبان . قال : لا بل هما ليلة ونهار

لمن سُرى وسار . قال : فما عندنا له من عُدد التوقى . فتبسَّم الشيخ ضاحكًا . ثم قال : سر يا بنىَّ ولا تخف ، فمن كان مليك الوجود لن تغلبه هذه الدود ، وقد أعددت لذلك مسحوقًا يشمه الثعبان فلا يستطيع إلينا دنوًا ولا يملك سببًا . حتى إذا مضى الليل ، هب ساكن الغاب من نومته ، فسمعت لذلك ضجة ، راحت بها الأرض مرتجة . وماج الجوُّ واضطرب الغاب وسالت بالمزاحف الأعشاب ، فالتفت الفتى إلى شيخه كالمذعور ، فوجده ينثر من ذلك المسحوق فى الطريق والثعابين تنفر عنه نفارًا ، وتولى من تلك الرائحة فرارًا ، إلا أنها كانت تجتمع من بعيد عن اليمين وعن الشمال وتسايرهما هائجة حنقة وهى تموج كالجبال ، فجد بالفتى القلق وزاد به الفَرق ، ورأى الشيخ عليه ذلك فزجره قائلاً : ما هذا الجزع يا هاموس أتشفق من هذه الديدان وأنت لو فتشت عن أفئدتها لوجدت أن بها منك فوق ما بك منها . فمهلاً رويداً بعض هذا الخوف ، واعلم أن بالعقل قام هذا الوجود فمهابته منذ البداية سارية فى الأشياء ممتزجة بالغرائز عند سباع الأرض والسماء . يحملها الحى الذى يرزق وتنشر بها النطف التى لم تخلق . فلما سمع الفتى هذا الكلام تقوَّى جنانه ، وثبتت الأقدام على الأقدام ، ومسخت الثعابين بعينيه حبالاً وكانت جبالاً ، فراح متنشطًا فى السير لا يلقى لجمعها بالاً . واستمر الرجلان كذلك يسيران إلى أن ولى النهار وبان ، وهجر أكوانًا إلى أكوان ، وعندئذٍ انقلبت الثعابين على الأعقاب ، آيبة إلى مساكنها من الغاب . فكف الشيخ عن إلقاء المسحوق ووقف مبتسمًا يقول لفتاه : الآن لا خوف علينا ولا نحن نضجر يا هاموس . فأشعل شريطك وسر بنا فى ظلام الغابة الثالثة غابة الفيل الكسلان . قال : وما ذلك الكسلان أيضًا يا مولاى ؟ قال : إنها يا بنىَّ أفيال عراض طوال فى أجرام الجبال ولكن الكسل منها بمكان ، فتراها تقضى الأشهر والأيام فى مراكزها ثابتة لا تتحرك ، بل قد تتخذ الطير فى آذانها وظهورها أوكارًا فلا تحرك خرطومها لتذُودها ، أو لتمنع الحشرات أن تدمى جلودها . قال : إذًا فتلك غابة سهلة المجاز مأمونة المذاهب على السالكين . قال : نعم كذلك هى ... إلا أنها طويلة مظلمة ثقيلة . قال : ذلك لنا فيه يا مولاى ألف حيلة ، أما فى جبال الثعابين فالحيلة قليلة . فتبسم الشيخ ضاحكًا ثم قال : صدقت يا هاموس إن الأمان ألزم حوائج الإنسان ،

وأطيب المكان حيث كان . فإن بان لا أهل ولا أوطان ولا حياة ولا وجدان ، وهو فى الحضر منة وفى السفر منة وإحسان .

وما هى إلا برهة زمان حتى بدت لهما أشباح الفيلة من بُعد ، تموج بها قباب الظلماء ، فهزت رؤْية ذلك من الشيخ فقال : ألا تبصرهُ يا هاموس ؟ قال : بلى يا مولاى وإنه لعلى جرم كما تقول عظيم . قال : إذن فعجل بنا فورأس آشيم لا بتنا ليلتنا هذه إلا على ظهر هذا الكسلان . قال : وما لنا وله يا مولاى وهذا وجه الأرض يغنينا عن متون السباع ؟ قال : إنه يا بنىَّ جبان ، والجبان مضيع الجانب ومطيَّة كل راكب ، فلا تنظر إليه عن صفة السباع ، وعد هذه الكتلة الهائلة من سقط المتاع . فلما قابلا بعضها وكان فى معزل ، تأملاه فى ضوء الشريط فإذا شىءٌ كالجبل فى الضخامة والثقل ، تزدحم الحشرات عليه وتحوم صغار الوحش حواليه مما لم يريا له أثرًا فى الغابة الأولى ولا الثانية ، فنظر إليه الشيخ نظرة المستزرى الحاقر وهو يقول : يا ضيعة الغابة التى أنت حاميها يا جبل الشحم .. ثم إنه أخرج ذلك المسحوق فنثر منه فى الأرض فطارت كتائب الحشرات عن جلد الفيل ، وانفضت جموع الوحش من حوله فرارًا من كريهات الروائح . وعمد الشيخ بعد ذلك للخرطوم فتعلَّق ، ثم ما زال يتسلَّق حتى بلغ ذروة الرأس فانحدر منها إلى العريض الطويل من ظهر الفيل . وهناك نادى صاحبه فلبى يصعد على عجل ويفعل مثلما فعل ، حتى إذا اطمأن بهما المرتقى جلسا فشعرا بذلك الجبل يميد . فسأل هاموس شيخه : ألا تحس بحركة يا مولاى ؟ قال : بلى يا بنىَّ ولكنها حركة الجسم بعد الموت فإنى لا أحسب هذا الكسلان إلا أغضبه سوء صنيعنا به فخطا خطوة .

ولما كان النهار نزل الرجلان من حيث صعدا فانطلقا يجدَّان فى المسير والفيلة تبدو لهما من كل جانب . كتائب دونها كتائب ، إلى أن وافى الظلام فقابلاه بمثل ما فعلا فى الليلة الماضية ، واستمرا على هذا الحال ثلاثة أيام بلياال حتى خرجا من غابة الأفيال ، ودخلا الغابة الرابعة غابة النمال ، فالتفت الشيخ عندئذ إلى هاموس وقال : الآن نحن يا بنىَّ فى غابة النمل فلا تنظر إليه عن صغر فما كل صغير يحتقر ، وانظر

إليه كيف يأخذ القوت ويحمى البيوت ويثبت أمام العدو حتى يتم له الظفر أو يموت . قال : وهل هو يا مولاى من النوع المعتاد المألوف فى سائر البلاد ؟ قال : لا بل هو الأبيض ذو المنشار ، الذى لو سلطت كتائبه على جبل لأصبح هباءً منثوراً ، وهو فى حجم الخنفساء . ويذكر "يوقو" الصينى أن فيلاً عظيماً مما خلَّفنا وراءنا طوح به أجله إلى هذه الغابة . وكان "يوقو" على شجرة ينظر ، قال : فلم أشعر إلا بالملايين من هذا النمل قد خرجت إلى لقاء العدو ، ثم لم أدر إلا بالفيل قد قضم قضماً لحماً وعظماً ، وانصرف النمل من حيث أتى فنزلت لأنظر ، فلم أجد للحيوان أثراً على المكان . قال الفتى : وما عندنا يا مولاى من السلاح لهذا الأبيض ذى المنشار ؟ قال : النار ذات الدخان ؛ وإن "يوقو" الصينى لم يلق فى غابة من الغابات عُشر معشار ما لقى فى هذه الغابة من الصعوبات ، فلقد عمل تجارب شتى أخفق فى جميعها ولو لم تساعفه الصدفة بإخطار ذكر النار على باله لأقام بهذه الأرض عمراً متنقلاً من شجرة إلى شجرة ، أو منحبساً فى صندوقه الحديدى من خشية الأبيض ذى المنشار . قال : إذن ففيمَ التأخير الآن وهذا الحطب بين أيدينا حاضر وافٍ بالحاجة ؟ قال : إننا لم ندنُ بعد من معسكرات النمل ، ولا نبلغها إلا قبيل المساءِ . أما الحطب ففوق حاجة الطلب ، وسنجده أين التمسناه .

وفى الحقيقة لم تكن أواخر النهار حتى أبصر الشيخ عشرات من النمل تعدو فارة أمامه . فصاح بالفتى قائلاً : أوقد " يا هاموس " أوقد ، فهذا المخبر قد سبقنا لينذر ، فشرع الفتى فى الإيقاد . وما هو إلا أن أشعل الحَطَب أو كاد ، حتى أحدق بهما ذلك البلاء الأبيض من كل جانب كتائب تنهال ، غير مكترث بالنار ذات الاشتعال ، ولا مبالٍ بضوءِ لهيبها المتعال ، فأدرك الشيخ من فوره أن النمل لا يرهب النار ولكن يكره الدخان ، فأخرج المسحوق بسرعة وألقى بشىءٍ منه فى النار ، فذهب دخاناً كثيفاً يتدجى . فلما شمت النمل منه ولت الأدبار واختفت فى مثل لمح البصر عن الأنظار ، فخلا الطريق للشيخ وتبعه الفتى يحمل فى كلتا يديه النار . واستمرا كذلك يسريان إلى أن بدا لهما النهار فأتبعا السرى سيراً غير ذى قرار ، حتى تقضى ذلك اليوم أيضاً ، وكان آخر العهد بالأبيض ذى المنشار ، فألقيا عندئذٍ العصا وعمدا لمكان فجلسا

يستريحان من عناءِ ما كان . وهنالك خاطب الشيخ الفتى فقال : اعلم يا هاموس أننى ناوأت الحكومات والممالك وقطعت على الجحافل الطرق والمسالك ، ودبرت للملوك كما دبروا لى المهالك ، ودخلت على الأسود غابها ، ولقيت سباع الأرض وكلابها ، وحملت الأمراض لم أحسب حسابها ، وجبت وحيداً كل قفر ، ورفعت شراع كل بحر ، فلا أذكر أننى عرفت لشيءٍ مهابة قبل عرفانى هذه الغابة ، وذلك لا لأن النمل سلطان الحيوانات أو أقوى كل هاتيك المخلوقات ، ولكن لكونه أمة التعاون والاتحاد والثبات ، وكل واحد من هاته الثلاث كافية لتهز الأرض وتقيم قيامة السماوات .

ثم إنهما رقدا على ذلك المكان فلم ينتبها إلا وقد ظهر الصبح وبان فتناولا بعض الزاد ، ثم خفا يسيران والشيخ يقول للفتى : اليوم نَفِدُ يا هاموس على الغاب الأسعد غاب الببغاء الأسود ، فاستعد لذلك ، فكل العجائب هنالك . قال : وهل بلغناه بعد يا مولاى ؟ قال : بل ندخله والضحى . قال : وما عليه من الحيوان ؟ قال : بل قل من الإنسان . فالتفت الفتى كالمستغرب الدهش ، فعاد الشيخ فقال : نعم يا بنىَّ من الإنسان ... فإن غابة الببغاء الأسود تأويها من عهد مجهول للعلم عائلة بشريَّة متوحشة أورثها أبواها الأولان عبادة الببغاء . ويذكر "يوقو" الصينى أنها كانت من ستمائة سنة – أى على عهده – نحو ألف ، ولكنها كانت مبتلاة فى زمن وجوده فى الغابة بنوع من الأوبئة خاص بالقردة . وكان يفتك فيها مسرفًا . وهذا أغرب ما سمعت للآن ، حتى لقد حرت فما أدرى هل الإنسان من القرد أم القرد من الإنسان ؟ قال : لعلها يا مولاى خطرة من وساوس ذلك العالم . قال : إن العلماء لا ينطقون عن الهوى ، ولا ينبغى لهم ، ولا لك أن تتهجم على مقاماتهم يا هاموس .

وما هى إلا ساعتان من الزمان ، حتى غشى الرجلان المكان . فإذا هما بقبة واحدة عظيمة من الشجر المتشعب الأغصان ، المتكاثف الأفنان ، غائبة الجوانب فى الأفلاك ، لاحقة الذرى بالسماك . فلما صارا تحتها واطمأن بهما فضاؤُها، سأل الفتى شيخه قائلاً : أين يا مولاى ذلك الإنسان ، إنى لا أجد ريحه على المكان ؟ قال : لعله يا بنىَّ لم يحفظ من خلائقه الأولى سوى الجبن ، فلما تنشق نسيمًا غريبًا أخذ لنفسه

الحذر فتوارى خلف هذا الشجر . قال : والآن كيف السبيل إلى الببغاء الأسود ونحن بين خلق من الطير لا يُحصى . ومساكن فى هذه الذرى الشم لا ترام . قال : لقد سألت يا بنىَّ عن الأمر العظيم ، فاعلم أن أول من وصل إلى هذه القبة واقتنص الببغاء هو أبو السياح العالم الشهير "تيحو" المصرى المنفيسى المتوفى من نحو عشرين قرنًا . وقد فصل رحلته الفاخرة وبين علمه العظيم فى كراسة من ورق البردى ، فوقع النصف الأول منها فى قبضة "يوقو" الصينى ، وكان كذلك عالمًا مولعًا بالأسفار ، فسافر خلف دليل من ذلك السفر الجليل ، حتى بلغ هذه الغابة التى كان من شقاء "يوقو" أن الكلام ينتهى إليها فيما بيده من الكراسة ، فاضطر إلى الرجوع خائبًا بعد أن كاد يأتى بالمستحيل لاستنزال الببغاء من أيكه المنيع فلم ينجح فيما حاول .

أما النصف الأخير من الكراسة فقد عثرت أنا عليه فى مكتبة معبد طيبة الأكبر أيام قيامى بتوكيل هذا المعبد ، فأخذته لنفسى وشرعت من ذلك العهد فى البحث عن النصف الأول ، ولكن بحث اليائس العارف أنه يروم المستحيل . إلى أن كان ما هو معلوم مشهور من شرائى لتركة "يوقو" الصينى التى نقدْتُ فيها ملك الصين الجاهل ثلاثين ألف حلقة من الذهب دفعتها من مالى الخاص ، فكان من تمام سعدى أننى وجدت بين أشيائها النصف الأول من الكراسة ، ومعه كراسة أخرى من قلم "يوقو" يشرح فيها رحلته ويذكر خيبته ويودع الحياة . ويزعم أنه لما وصل الصين آيبًا من سفره ذاك شعر على الأثر بانحطاط القوى ودبيب الفناء ويختم بالدعاء لمن يقصد بعده غابة الببغاء الأسود أن ينقلب أسعد منه حالاً ، وأحسن منهُ مآلا . فلما صار ذلك كله فى يدى ، ودون بعضه يا بنىَّ ملك الدنيا ، رحت أحلم ليلى والنهار بالرحلة إلى هذه الأقطار ، واقتفاء آثار أولئك الرجال الكبار . إلا أن الفرص لم تكن تسنح ولا الصدف كانت تسمح ، إلى أن كان ما كان من اعتزالى الكهانة وانفصالى عن خدمة الديانة . ودفعت بى الحماسة فى ولاء الأمير "آشيم" ولىّ عهد بلادنا المحبوبة إلى أن آتى هذه الديار لأسرق عشيقته الأميرة عذراء الهند ، ثم أحملها إليه هديَّة من عبده "طوس"، مصحوبة بالثناء عليه . فرأيت أن نغتنم فرصة استظلالنا بسماوات الهند لنقتنص ذلك الأسود الذى يلقبه "تيحو" المصرى بالمغنى عن سؤال الأفلاك .

وما فرغ الشيخ من عبارته ، حتى أخذ أولئك البشر المتوحشون ينهالون عليهما من كل ناحية ومكان وهم فى صورة القردة ولهم خفة المردة . فلما رآهم الفتى تفزع لرؤيتهم ، واهتز إشفاقًا من كثرتهم ، فالتفت إليه الشيخ قائلاً : تشجع يا هاموس والصق ظهرك بظهرى ثم در معى كيفما أدور فإننى منيمهم جميعًا فى لحظة . فأسند الفتى ظهره إلى ظهر الشيخ وجعل هذا يدور ويكثر الصراخ كالليث الزءور . وكلما وقعت عيناه على جماعة من ذلك الإنسان المتوحش راحت نائمة وهى قائمة ، كأنما سُمرت فى الهوى أو كأن بها سحرًا . فلم تكن لحظة حتى صار أكثرهم فى أسر الشيخ وفتاه ، وفر الباقون مختفين فى جوانب الغاب وزواياه .

وبعد ذلك عمد الشيخ لثلاثة من الأسرى فأطار أعناقهم بضربة واحدة من سيفه المسلول ، ثم التفت إلى الفتى يقول : الآن ينزل ساكن السماء يا هاموس . قال : وما يُنزله يا مولاى ؟ قال : رؤْية الدماء .. دماء البشر ، فإن له بها من الكلف والغرام فوق ما بالفراش من النار ذات الضرام ، وفى الحقيقة ما أتم الشيخ هذا الكلام حتى نزل طائر صغير كأضأل العصافير ، أسود بإنارة ، كفحم الحجارة ، فجعل يدنو طورًا ، وينأى تارة ، ثم غمس فى الدماء منقاره فشرب ما شرب حتى انتشى وطرب ، فتقدم الشيخ عندئذٍ نحوه وهو لا يكاد يملك من السرور خطوه ، فقبض على الأسود متلبسًا بالنشوة . وكان قد أعد لذلك سلسلة من الذهب طويلة خفيفة ، محكمة ظريفة ، فشد بأحد طرفيها لحم ساعده ، وقيد بالآخر الببغاء ثم حمله على كفه وجعل يتأمله ويخاطبه قائلاً :

أهلاً بعاشق الدماء . المغنى عن استشارة السماء . الطويل البقاء . المنبئ بالرياح والأنواء . المشير أبدًا نحو المشرق بجبهته السوداء . الزاجر عن نزول الدءْماء إذا كان فى ركوبها بلاء . الحافظ الكلم المعيدها لمن شاء متى شاء . المبشر بالضحك المنذر بالبكاء . الناتف ريشه إذا أحس من أجل حامله الانقضاء .

* * *

الفصـــل الثالث

الاستعداد فى الهند لاستقدام الأميرة

لقد مضى على إقامة الأميرة فى الجزيرة ستة أعوام وبعض عام ، قضاها الملك فى أسر القلق والأوهام ، لا يعرف الراحة ولا يهنأُ المنام ، من الفكر فيها وفى أحوال ذلك الغرام ، وتوقعًا أن يتم بأَخذها لعدوه المرام .

وكأَنما كان "شنو" يتمثل مكان الأسى من الوالد ويرى جيئة الهواجس وذهابها فى فؤَاده المشوق الواجد ، فلم يكن يدع سفينة الزاد تعود إلا ويحملها من البريد إلى الملك ما يخفف من كربه ، ويعيد السكينة إلى ربوعها من قلبه . حتى ولت السنة السادسة وهلَّت السابعة ، فبلغ مسامع الملك أن رجلين غريبين متنكرى الزى مريبين ، قد رؤيا على نقط من المملكة ثم فى العاصمة حيث كانا يجتمعان بأحد بحارة الأساطيل . فلما بلغ "دهنش" الخبر قام له وقعد وأحدق به الوسواس بعد ما كان ابتعد ، فأقام حكومة العاصمة وسائر قوات الأقاليم فى طلب ذينك الرجلين ، طلب قوىّ قادر مطلق فى الأحكام ، حتى تَفَرغَ الأهالى وضاقت البلاد بالعيون والإرصاد ، بدون أن يقبض على الغريبين أو يبلغ "دهنش" منهما المراد ، فتحول عندئذٍ غضب الملك كلهُ نحو ذلك البحَّار المسكين فلم يغادر صنفًا من العذاب إلا عذبه به لحمله على الاعتراف بعلائقه مع الأجنبيين . وكان قد أمر أن يفتش عن منزله . فلما فتش فيه وجد نحو ألف حلقة ذهبية من العملة المصريَّة وعدد كثير من أوانى النبيذ ، بين ملأَى وفوارغ . وكانت كذلك من صناعة المصريين . فجلت عندئذٍ التهمة وهالت . وبولغ للرجل فى التعذيب ، ولكنه كان خائنًا شريفًا ، فلم يزل مصرا على الجحود حتى قُتل كخائن

مرتشٍ . وهكذا اشتريت ذمة الإنسان فى الزمان الأول بالمال محمولاً من أحد طرفى الأرض إلى الطرف الآخر .

إلا أن بريد الجزيرة كان لا يزال يَردَ كالعادة منبئًا باستمرار استقامة الأحوال هنالك ، ومبشراً بمصير صحة الأميرة من حسن إلى أحسن . فكان الملك يطمئن بهذه الأخبار بعض الاطمئنان ، ويتكل فيما سوى ذلك على السفن العديدة التى كان بادر من تخوفه فبثها فى مداخل المحيط ومخارجه ، لتحمى الموارد والمصادر ، وتكون بالمرصاد لكل فلك عابر ، قادم أو مسافر ، ثم على مستيقظة الجنود الساهرة كذلك للمراقبة على الحدود بين مملكته وبين الهند الغربيَّة من جهة ، وبين الأولى والصين من جهة أُخرى . حتى إذا كان ما بعد النصف من العام السابع موعد الإياب ، وأوان تشريف ذاك الركاب ، أسرع الملك يستعد لاستقدام الأميرة ويهتم لها بأمر ترحيلها من الجزيرة . فاختار لهذا الشأن الجليل أُسطولاً من أحسن الأساطيل ، ثم انتقى له أخاير الرجال من بين صفوف البحارة الأبطال ، وشحنه بعد ذلك بالذخائر والمهمات ، وما يستلزمه حسن الدفاع من العدد والآلات ، حتى تم أمره واكتمل ، وصار صالحًا للعمل ، ولم يبقَ غير انتخاب القائد الذى يحقق الأمل .

وكان لعذراء الهند قريب من خيرة أُمراءِ العائلة يدعى "ثرثر" ، وكان ابن أحد الملوك المستظلين تحت لواء "دهنش" . وكان "ثرثر" يحب الأميرة حبًا شديداً ويُؤَانس من والدها الملك الارتياح لمصاهرته ، ويطمع منه بالقبول التام إن هو خطبها إليه ، نظراً من جهة لما كان له من المكانة الخاصة فى الحب عند الملك ، ومن جهة أُخرى لكون نسبه العالى يرشحه لهذا الشرف الرفيع ويجعل له التفضيل على الجميع .

وكان حُبّ ثرثر لعذراء الهند صادقًا ثابتًا جنونيا ، إلى حد أنه لم يتأثر مثقال ذرة بسوءِ حال الفتاة ، ولا بما شاع وذاع وطرق جميع الأسماع من غرامها الهوسى بآشيم ، وغضب الملك عليها بسبب ذلك ونفيه إياها إلى مكان بعيد . كما أنه لم يسلهِ بُعد الأميرة عن عينه كل هاتيك السنين بجزيرة العذارى .

وإذ كان الملك مطلعًا على سرائر الفتى فى الحب من أول يوم ، واقفًا تمام الوقوف على حركات هذا الغرام وسكناته فى كل تلك المدة ، فقد رأى أن يغتنم فرصة قرب عودِ الأميرة ليظهر له ما طالما عقد عليه النيَّة من تشريفه بالمصاهرة ، فطلبه من أبيه ثم سلمه أزمة الأسطول ، ووعده أنه إن عاد بعذراء الهند سالمة زوجه بها قادمة ، بحيث تكون الليلة الأربعون من عودها الميمون ليلة الزفاف والمهرجان ، التى يتم له فيها بالحبيبة القران . فقَبَّل "ثرثر" الأرض وبالغ للملك فى الخطاب حامداً شاكرًا ، ومحدثًا بالنعمة وذاكرًا . واستأذن بعد ذلك فى السفر فأذن له فخرج فقبض من فوره على أزمة الأسطول . وكان مؤلفًا من سبع سفن كبار ومن ثامنة فيها المهمات والذخائر ، وعليها الأدلاء العارفون بمداخل هاتيك الجزائر ، ثم صدرت الإشارة للأسطول بالإقلاع فتحرك فاندفع يشق العباب والتيار ، وهو يقف بالليل وينساب بالنهار إلى أن شارف فى اليوم العاشر أرخبيل الجزر الأبكار . وكان الظلام قد هجم يحول دون الاستمرار ، فلم تجد السفن بدا من الإرساء والانتظار فلوت على أول جزيرة منه فألقت عصا التسيار .

* * *

الفصـــل الرابع

عود للصاحبين فى الغابة

لمَّا فرغَ الشيخ من خطاب الببغاء التفت إلى الفتى فقال : لم يبقَ إلا أن ننظر فى الخروج يا هاموس . قال : فليكن ذاك يا مولاى . قال : ولكنى لا أحب أن نكون "لتيحو" و "يوقو" كلبى صيد نصبر على فضلاتهما ، ولا نخرج عن مدى خطواتهما ، بل أُحب أن نبنى مثل بنائهما ، فإن الجد فى الدنيا اجتهاد ، وإن الكريم إذا ورث شيئًا أضاف عليه من عنده وزاد . قال : وما وراء هذه المقدمات يا مولاى ؟ فتبسَّم الشيخ ضاحكًا ثم قال : أُريد يا بنىَّ أننا نحذو حذو ذينك البطلين ، فكما أن الأول أنشأ طريقًا تلك التى جئنا منها ، وكما أن الثانى اكتشف لرجوعه طريق الغابات الثلاث نحو الشمال فخرج منه آيبًا إلى وطنه الصين ، كذلك أصبح دينًا علينا نحن المقتفين لآثارهما أن نبحث لنا عن طريق نخرج منه لا يكون هذا ولا ذاك ، ليبقى أثرًا طيبًا بعدنا وبرهانًا ساطعًا على إقدام المصريين . قال : وإنى لا أكره يا مولاى أن أكون من العاملين النافعين . قال : إذن فاتبعنى . ثم إنه نظر إلى اتجاه منقار الببغاء ، وكان موليه شطر المشرق ، فتعين عنده الشمال الشرقى . فسار والفتى يتبعه حتى خرجا من غابة الببغاء الأسود ، فإذا هما على أرض ذات شجر ونبات لا تخرج عن صفات ما مر عليهما من الغابات ، إلا أنها عطل من الحيوانات ، نقية من الحشرات . فمشيا فيها بقية نهارهما حتى جاءَ الليل فأبرز الفتى الشريط ليوقده كالعادة فمنعه الشيخ قائلاً : إن النور كما يهديك يهدى إليك ؛ وإن الخمول خير ما ارتدى الجاهل المجهول . فلا تظهر يا بنىَّ لساكن الغاب قبل أن يظهر لك واحتجب ، فإن تسعة أعشار الهيبة فى الحجاب .

وفى الحقيقة ما أتم الشيخ كلامه حتى أخذت سماء الغاب تتنكر لناظرها ، وتتدجى قليلاً قليلاً فإذا هى كتلة هائلة سوداء قائمة فى الهواء . ثم إذا بهذه الكتلة تهبط بمقدار حتى انكفأت على الأرض فتركتها بغير قرار . فقال الشيخ عندئذٍ للفتى همسًا : لا يلبث هذا الصخر الهابط أن ينام النومة التى ما بعدها قيام . قال : لعلك تريد قتله يا مولاى ؟ قال : ولِمَ لا وليس هو إن صدق زعمى إلا غواص المحيط الأكبر ، فبطنه المحيط الأصغر ، الحامل لمدهشات الجوهر، وإن لنا لجولة فيه نعلم بها ما يخفيه. وكان الطائر فى أثناء ذلك قد نام وعلا له شَخير شديد كادت له الغابة أن تميد . فبادر الشيخ إليه بآنية صغيرة فيها شىءٌ من السوائل . فلم يزل يصب منها فى منقاره المنفغر حتى مال رأسه وانطبق فمه وارتخى جناحاه ثم انقض يخب على الأرض . فالتفت الشيخ إلى هاموس وكان خلفه قائمًا ينظر فقال له : الآن نشرع فى العمل . فخذ لك سكينًا وساعدنى على فتح هذا البطن الجسام . فجرد الفتى سكينه وانكبا على العمل . فما زالا يعالجان ذاك البطن حتى انفتح ، فإذا هو كالشكول أو كبطن النعام ، يحتوى على المعدن وغير المعدن ، ويحمل ما يهضم من الأشياء وما لا يهضم . فأنزلا كل ذلك إلى الأرض . ثم ابتدراه بالأيدى يقلبان ويفتشان ، فعثرا بين تلك المواد على شىءٍ كثير من الحجارة المختلفة المقامات المتفاوتة الدرجات . وكان الفتى يغسل والشيخ ينقد فإما إلى الخزانة ، وإما إلى الأرض ، حتى حصلا على كنز من أنفس الكنوز . ولم يكن بقى سوى الفضلات فنهضا للرواح ولكنهما ما همَّا حتى عادت السماء فتنكرت ثانية ، وشوهدت تلك الظواهر بعينها . فصاح الشيخ حينئذ بالفتى قائلاً : هذا الذكر يتنزل يا هاموس ، فاستل أكبر خناجرك وأمضاها وقف بجانبى ، فإذا رأيته وقد مست مخالبه الأرض وجناحاه مبسوطان من قوة الهبوط يخفقان فاطعنه تحت أحدهما ، وخلّ الآخر فإنى مُمكن منه خنجرى قبل أن يتمكن من النظر إلى رفيقه ، ورؤية ما حل به فيهيج ، فنقع معه فى حرب وكرب .

وما فاه الشيخ بهذه الكلمات حتى بلغ الطائر الأرض . فما كاد يطمئن بحيزه العظيم منها حتى سأل الشيخ الفتى : كيف طعنتك يا هاموس ؟ قال : من المذيبات

الحديد يا مولاى . قال : إذن فتقدم ، فقد هلك هذا الآخر أيضاً وآل إلينا كنز جديد . ثم إنهما انبريا يفعلان به كفعلهما بالأول . فبينما الفتى يلتقط وينقى ثم يناول الشيخ وهذا يأخذ أو ينبذ ، دفع إليه هاموس بلؤلؤة صفراءَ بلمعان الذهب ولها شكل البيضة الصغيرة وحجمها . فحين وقع نظره عليها لم يتمالك من فرحه أن صرخ قائلاً : أتدرى قدر ما ناولتنى يا هاموس ؟ قال : وما عساى ناولتك مما فات التفاتى قدره يا مولاى . قال : يتيمة الصين المحتجبة منذ آلاف من السنين . قال : وأين كانت قبل طول احتجابها ؟ قال : فى صدور الملوك والسلاطين يحملونها فتكسو وجوههم أزين اللون وأجمله . كما أنها تكسب الثياب لمعانًا لطيفًا ، فإذا رأيتها حسبتها مزرَّة على النجم الساطع ، وكذلك هى تداوى من عشق الحسان ، فإذا حملها إنسان وكان مصاباً بهذا الداءِ القتَّال انصرف عنه مع الزمن وزال ، فكأنما يتسلى بجمال عن جمال ، ويتعوض باشتغال عن اشتغال . ويزعمون أيضًا أنها كانت حجاب هيبة وجلال وسعادة وإقبال لبيت من البيوت المالكة فى الصين قديم خال . فلما فُقدت أخذ ملك الصين فى الاضمحلال ، ووقعت البلاد من ذلك الحين فى شر حال . فأنا لو حملتها اليوم إلى ملك الصين لأعطانى بها الجبال الشم من المال . فإن استزدت شاطرنى مُلْكه الواسع مرتاحاً غير قال . فمرحبًا بكِ يا يتيمة الصين ، وأهلاً وسهلاً بهذا الحباءِ السماوى الثمين . ثم إنه لف الدرة بصيانة ، ووضعها فى جانب خاص من الخزانة ، ونهض بعد ذلك فسار . ومشى الفتى يحمد مع شيخه الأسفار . وقد ثبت عنده أنها خير الحبائل لصيد محاسن الصدف ، واقتناص عجائب الأقدار . إلى أن راح الليل وجاء النهار ، وإذا الغابة خالية الجو لهما صفر من الوحوش والأطيار . فاستمرا فى سيرهما آمنين ناشطى الأقدام . فقضيا نهارهما ذاك فى طعام ومدام ، ومشى وكلام ، حتى وافى الظلام فقابلاه على ذلك الغاب الأمين بطيب المنام .

فلما أصبح الصبح انتبها من رقادهما وكانت الغابة قد أخذت لتبدى لهما فى مظاهر غير تلك المظاهر ، ولتبدل أمامهما مناظر من مناظر . فأدرك الشيخ حينئذٍ أنهما يفدان على غابة جديدة . فنبَّه الفتى لذلك ثم قال : لم يبق ما لم نصادف غير النمر مع كونه حيوان الناحية وطامة الهند والداهية . قال : لعل هذه غابته يا مولاى ؟

قال : لعلها يا هاموس . وإنى أكاد أحس سره فى المكان . قال : وهب أنها غابته وأنه خرج إلينا فبماذا نحن ملاقوه يا مولاى ؟ قال : بالخناجر الماضية يا هاموس .

وبينما هما كذلك فى ذكر النمر يتوقعان ظهوره تقضى الشيخ نظره الحديد فرأى حيوانين صغيرى الحجم أسودين ، يقْبلان من جوف الغابة . فأشار للفتى أن يستعد قائلاً : هذا هو النمر الرهيب يا هاموس . لُقب بذلك لأن النمورة على اختلاف أنواعها وأجرامها ترهبه على قلة حجمه ، وتجفل عن لقائه ، ولا تملك لمفاصلها شدا أمام نظراته الجاذبة المؤثرة . ولا أحسب هذين إلا ذكرًا وأنثى ، فتكفَّل أنت بأصغرهما جسمًا وهى الأنثى ، وخلّ لى الآخر . والآن دعنى أطعنهما بالرعب قبل طعن الخناجر . ثم إنه انبرى هائلاً كالصخرة فجعل يهدر يمنة مرة ويسرة ويبعث الزائرة بعد الزائرة ، والخنجر بيمينه يتوقد كالجمرة ، حتى إذا ظهر الأسودان ، وبان كلاهما للعيان صرخ الشيخ قائلاً : ألق كلبتك يا هاموس . فطار الفتى نحو الأنثى ، وابتدر هو لقاء الذكر فبلغه فى وثبة ، وكان كأنه الثعبان النافر استجماعًا وقيامًا يلحظ الشيخ شزرًا بعينين تتدفقان جمرا ، وبين فَكَّيْه جهنم الحمرا ، وهو حنق ثائر يزأر زأرا . فما زال الشيخ به يزائره ويشابّه ويداوره حتى تمكن من ظهره ، فأنشب فيه خنجره ، فخر الحيوان على الأرض هدا ، فتركه كذلك شيئًا ليس بالحى ومشى سريعًا نحو "هاموس" لينظر كيف حاله مع الأنثى . فإذا هو لا يزال معها فى عنيف قتال وقد ظهر على ساعديه الكلال ، فأومأ إليه أن يَكُفّ فَكَفّ ، وأخذ هو محله فى الصف . وكانت الخبيثة قد وهنت قواها وأوشكت أن يخذلها ساعداها . فلم يقتلها الشيخ ولكن أسرها . فاستغرب هاموس فعله وسأله قائلاً : ما نفعها يا مولاى حتى تكلفنا عناء سحبها وحبسها ؟ قال : إننا سنطلقها يا هاموس إذا حققنا أن لها صغارًا ينتظرون أوبتها انتظارًا . قال : ومتى رئى أو سمع أن السباع تؤْسر ثم تُطلق ؟ قال : ليس الجبن منى بهذا المكان حتى أرهب فريستى أو أهاب أسيرى ، وليست المروءة بضائعة عندى إلى هذا الحد حتى أظلم صغار هذا الحيوان .

إن تكن ظافراً فكنه برفق فشجاع بغير رفق جبان
إن عندى لكل شىء تمامًا وتمام الشجاعة الإحسان

ثم إنه سار يسوق أسيره بين يديه وهاموس خلفهما يكثر التعجب من الأمر ، حتى إذا قطعا مسافة عظيمة من الطريق شعر الشيخ بالنمرة تجاذبه الحبل بقوة نحو اليمين . فنبه هاموس لذلك ثم أطلقها فإذا هى قد أخذت اليسار تعدو عدواً حتى توارت عن نظريهما . فتركاها وشأنها واستمرا فى سيرهما فسأل هاموس عندئذٍ شيخه قائلاً : ما بالها يا مولاى أخذت اليسار وقد كانت تجاذبك الحبل نحو اليمين ؟ قال: إنها كانت تصرفنا عن مناخ صغارها وهذا يا بنىَّ من غريب الحنان عند الحيوان، فالشفقة عنده مبصرة بقدر ما هى عمياء عند الإنسان . وكان النهار قد فنى أو كاد ووجوه الغاب قد أخذت تتصور صوراً جديدة ، فصارت الأرض رمليَّة صفراء وكانت طينة سوداء ، وتحول الشجر من الطول للقصر ، وظهر فى الصغر بعد مظهر الكبر ، وأخذ يقل بعد الكثرة ويتعوض عن لون الأخضر بالصفرة . وانكشفت لناظرها السماءُ. وسرى نسيم الدنيا فى ذلك الفضاء . فالتفت الشيخ عندئذٍ يقول للفتى : لقد أوشكنا نستقبل سماء الدنيا يا "هاموس" . ولو شئت وشاءت لك القوى فوافقتنى على متابعة التقدم لأصبحنا وليس قدامنا إلا فضاءُ البحر طويله وعريضه . قال : هذا ما أبغى يا مولاى ، فسر بنا على اسم السلامة ، ثم إنه أشعل الشريط وسار يتبع مولاه ، ولكنهما ما كادا يحوزهما الفضاء حتى سمعا زئيراً يردد من بعيد فتَفَزَّع الفتى ، والتفت الشيخ فأجهد أُذنيه ورمى فى فحمة الظلماء بشرر حدقتيه ثم قال : تلك أسيرتنا التى منَنَّا عليها بالإطلاق قد زكا عندها المعروف فأتت تحذرنا من محذور ، وتُنَبِّئُنَا أن الطريق معمور . قال : وما عسى يا ترى أن يكون على هذه الأرض العراء ؟ قال : ليكن ما هو كائن يا "هاموس" فورأس آشيم لا تزعزعنا ولا تزحزحنا ولا امتنعنا عن السرى ، ولا استرحنا أو نرى النهار طالعًا ، ثم إنه مد لقدمه الخطو يصل السرى ، وتبعه هاموس مطيعًا ممتثلاً . فما زالا يعتسفان فى بوادى الظلام وبين جيوشه والخيام ، حتى انتصف الليل فلم يدريا إلا بشىءٍ هائل كالتل قد أقبل من بُعد يسعى . فقال الشيخ عندئذٍ للفتى : " عَجِّل يا هاموس فأنل بطنك ظهر الأرض واعتنقها ثم

لا تتحرك وأنا أيضًا فاعل ذلك ، حتى نرى لنا مع هذا التل الزاحف أمرًا . وما هو إلا أن انطرح الرجلان بتلك الصورة على الأرض حتى مر بهما حيوان هائل الجثة فى عرض الفيل الكبير وطول أربعة من الفيلة مقطورات ، وهو يمر مرَّ الريح فيسيل بمزاحفه الغاب ، وعلى بشرته الحجريَّة خَلْق لا يحصى من حشرات البر والبحر ، وهو لا يحس منها بشيءٍ ولا يستشعر لحملها ثقلاً ، حتى إذا صار بعيدًا عنهما نهضا فقال الشيخ لهاموس : إن هذا الوحش بحرى برى فى آن وهو لا شك قادم من البحر ولعل له بيضًا على هذا المكان . فهو يغشاه ليتعهد بيضه ثم يعود إلى عالم الماء . والآن إذ قد صرنا ولا مقصد لنا إلا البحر ، فهذه خير فرصة تغتنم للاختصار من الزمن وتقريب المسافات ؛ لأن ما نسيره نحن منها فى أيام يقطعه هذا الفلك البرى فى ساعات . قال : لعلك ترى لنا يا مولاى أن نمتطى ذاك الجبل المتحرك . قال : ولِمَ لا وقد ساقته لنا السعادة مطيَّة لم يركبها قبلنا أحد . قال : أنت يا مولاى كالقائد الجرىء السعيد يراه الجند أولى بالطاعة وإن ضرت منه بالمخالفة وإن نفعت ، فاقضِ ما أنت قاض فإشارتك مطاعة فى كل مقترح . قال : إذن فاستعد لما أشرت به . فإذا رأيت الوحش وقد دنا منا عائدًا من مبيته فثب فتعلق فاركب ، ثم يكون لنا نظر فى الطريق التى يأخذها نحو البحر . فإن كانت شماليَّة غربيَّة بقينا على ظهره وإلا نزلنا نمشى ولم نكن خاسرين .

وفى الواقع لم يكن الفجر حتى ظَهَر الوحش آيبًا من مبيته وكأنما يقصد إلى البحر ، فابتدر الرجلان لقاءه ، فنالا ظهره فى وثبة . فاستمر يجرى بهما فى رمال حالية بلألاء الفجر وضَّاءَة الخلال . منحدرًا فى جريه نحو الشمال . حتى إذا كان الصبح فالضحى فالظهر ، لم يشعرا إلا بموج المحيط يتعالى من بعد كالجبال ، فترجل عندئذٍ الشيخ ونزل هاموس على أثره . وهنالك افترقا ، فأخذ أحدهما يمين الساحل وذهب الآخر يسرة ، وكلاهما غادٍ يجد فى طلب المركب والصيادين . ولكنهما ما اندفعا يسيران حتى أبصرا معًا شبحًا يتقدم تحت سماء البحر ، فوقفا كلاهما يجهدان النظر حتى إذا حققا أنها ذات شراع تنشطت الماء ووافت تحتال على الإرساء ، انثنيا عائدين أحدهما للآخر فأقاما ينتظران ما يكون من أمرها ، إلى أن نالت الشاطئ ،

فنزل منها رجل أسمر اللون ، أجرودى ضيق العينين بحياة فيهما ، عظيم الرأس قصير القامة ، عبل الساعد ممتلئ الأكتاف ، وعليه ثوب من الكتان يبتدئُ من مرفقيه وينتهى إلى ركبتيه ، فلما رآه الشيخ يتقدم تبسَّم ضاحكًا ثم قال لهاموس : هذا صاحبنا "بلباص" يسعى إلينا فدعنا نلقاه بشيءٍ من المزح . وكان الرجل قد دنا فخاطبه الشيخ قائلاً : ما هذا الإبطاء يا "بلباص" ؟ قال : لم أبطئ ولكن تعجل حضوركما يا مولاى . قال : وكيف حالك وما يصنع رجالك ؟ قال : لا أكاتمك الحقيقة يا مولاى لقد لقيت من سفرى نصبًا ، وأُقسم لولا أننى أخافك حتى فى أعماق هذا البحر لفضلت الهلاك بتياره ، والثواء بقراره على البقاء ساعة واحدة فى هذا الفلك وبين هؤُلاء الهنود . قال : وما صنعوا بك مما أغضبك إلى هذا الحد ؟ قال : بل أنا أشكو من قذارتهم لا غير يا مولاى ، فإنهم كالسمك المنتن البائت الذى يصبح فوق ما يمسى . فراح الشيخ مغربًا فى الضحك ، ثم قال : أنزل أولئك المقاذر إلى البر ، فإنى مداويهم لك يا بلباص . قال : سمعًا وطاعة يا مولاى ، ثم نفخ فى بوقه فأقبل أربعة من المصريين أعوانه الخصوصيين ، واثنا عشر آخرون من هنود الشمال ، لهم جسوم الأطفال وعليهم ثياب واسعة بأكمام طوال ، وهم يثبون كالعفاريت ، ويضطربون كالظلال . فمشى الشيخ حينئذٍ نحو الماء والجميع يتبعونه ثم تجرَّد عن ثيابه ، ونزل فنزل هاموس وبلباص والهنود على أثره ، لبثوا برهة يغتسلون ، ثم خرجوا من الماء فارتدوا ثيابهم . وسار الشيخ بعد ذلك بهم إلى السفينة فاندفع يأخذ من الماء ويغسل وأيدى القوم إلى يده بالمساعدة حتى نظفت تمام النظافة . فالتفت الشيخ عندئذٍ إلى "بلباص" قائلاً : ها قد أرحتك من تلك الروائح يا بلباص . فهل أنت مجازينى بشيءٍ تطبخه لنا يلذ طعمه ويسهل هضمه ، فإن عهدى بالطيبات من طبخ يدك عهد طويل . قال : قريبًا وسهلاً يا مولاى . ثم أسرع إلى مخزن السفينة فأخرج منه سلة سمك من صيده فشوى منه شيئًا وسلق شيئًا ، وأخرج كذلك شيئًا من النبيذ ، ثم قدم ذلك كله للشيخ ، فدعا هذا أصحابه وجلس الجميع يتعشون . حتى إذا فرغوا من أكلهم وشربهم توسدوا الرمال فباتوا ليلتهم تلك ناعمى البال وقد ضربوا الفجر موعدًا للإقلاع على كل حال .

الفصـــل الخامس

فيما كان من أمر الأسطول

تركنا الأسطول وقد ألقى المراسى ينتظر النهار على الجزيرة الأولى من أرخبيل الجزر الأبكار ، والآن نذكر ما كان من أمره فنقول :

كان قد مضى من الليل نحو ثلثه فأخذ النـوم يطمئن بمقاعده من الأجفان ، ولم يبق من ناس الأسطول من لم ينم إلا جماعة الأدلاء . وكانوا فى البحر على ظهر السفينة .. سفينة الذخائر ، وكانت فى معزل ، فاتفق أن أحدهم ارتجل نظرة فى الأفق فلاح له ضوء نار يخفق من بُعد على فضاءِ الجزيرة ، فاستلفت أنظار أصحابه إلى ذلك ، فلم يهزهم الأمر بادئ بدء ، بل استمـروا فى مجلسهم يتسامرون . إلا أن كبيرهم ما لبث أن استحوذ عليه القلق فخاطبهم قائلاً : ماذا علينا يا قوم إن نحن مشينا إلى هذا الضوء لنكشف ما وراءه . فإن كان خيراً كانت رياضة لا بأْس بها . وإن كان شراً نبهنا إخواننا رجال الأسطول لموضعه فنكون قد أدينا واجبًا من ألزم واجبات الجند بعضهم نحو بعض . قالوا : حسنًا ، ثم بدروا إلى البر من لوح مدوه للنزول عليه ، وكانوا أربعة فمشوا قاصدين وجهة الضوء حتى إذا صاروا على قريب مسافة منه سمعوا غناءً ورأَوا على المكان ناسًا فى لهو وطرب وشرب راح ، فأكثروا التعجب لذلك واستأْخروا يتهامسون فقال أحدهم : لا أرى هؤُلاءِ إلا صيادين أضلهم البحر . فقال آخر : نعم من متوحشة الصيادين الشماليين ، فهذا الزى زيهم وأنا أعرفه . قال الثالث : ولكنهم سكارى لا يؤْذون . فقال الرابع : إذن فلنتقدم إليهم لننظر ، فتقدم البحارة الأربعة حتى شارفوا حلقة القوم فحيوهم فردوا التحية هادئين

مطمئنين ، لا نافرين ولا وجلين . فسألهم أحد البحارة : مَنْ القوم ؟ ومن أين ؟ وإلى أين ؟ قالوا : صيادون أضلنا الليل ، فاتخذنا هذا الساحل مبيتًا وسنقلع والصبح قاصدين الشمال . قال : إذن فواصلوا أنسكم وتمتعوا مما أنتم فيه من اللذات . قالوا : وهل لك وإخوانك فى مشاطرتنا صفو ما نحن فيه . فالتفت البحار إلى أصحابه فآنس من لحظاتهم الموافقة فلبى الدعوة عن نفسه وعنهم ، ففسح لهم الصيادون من مجلسهم فجلسوا وجعلت بين أيديهم قدور ملأى من النبيذ المصرى . وكان فى بلادهم يساوى وزنه ذهبًا فلا يقتنيه إلا الملوك والأمراءُ ، ولا يسرف فى شربه إلا الخليعون من كبار الأغنياء ، فلا تسل عن فرح البحارة بما أُوتوا ، ومهد عذرهم إذا هم باعوا الوظيفة والأسطول ومن فيه بلذيذ ما فى القدور .

وطفق الصيادون يُجزلون للأدلاء من بنت العنب وما يقتضيه مجلسها من اللهو والطرب حتى ارتفع الحجاب من نفسه ، وزالت الكلفة وذهب الوقار وغلبت الخمر البحارة على شعورهم فباحوا للصيادين بسر المأمورية بعد أن حدَّثوهم بحديث عذراء الهند من أوله إلى آخره . وعرَّفوهم بوظيفتهم فى الأسطول وأنهم أدلاؤُه الذين بهم فى البحر اهتداؤُه ، وأن بأيديهم وحدهم مفاتيح الأرخبيل ، وعندهم دون سواهم أسرار مداخله التى فيها من الصخر الغائص فى البحر الغائب تحت صفحات الماء ، ما يجعل جزيرة العذارى أبعد منالاً من الشمس فى كبد السماء . فلما أخذ الصيادون السر جميعه ، انفصل اثنان منهم فابتعدا قليلاً يتساران . فقال أحدهما للآخر : ما بال الرئيس أبطأ فى العود فإن له يومًا وليلة متغيب يكشف المواقع وينظر له طريقة نحو الجزيرة . قال : وما عسى أن يكشف أو ينظر ، وقد سمعت ما قال الأدلاء ، وهو لو حضر الآن لتركنا الأسطول فى نومةٍ تكون طويلة ثم سرنا مهتدين بهؤُلاءِ البحارة ، فلا يمضى يومان إلا ونكون فى الجزيرة . قال : نعم حضوره الليلة ضرورى لنجاح المشروع ؛ لأن قدوم هذا الأسطول لم يكن منتظراً ، ويخشى أن يسبقنا إلى الجزيرة فيفسد علينا أمرنا وتذهب كل هاتيك المشاق أدراج الرياح .

وبينما الرجلان فى الكلام أبصرا شبحًا يتقدم تحت سماءِ الليل ، ثم سمعا حركة فلك تمخر ، فقالا : هذا لا شك الرئيس ، فلنبادر إليه بالبشرى . ثم توجها اتجاه الفلك من الساحل . وكان أصحابها قد لحظوهما من بُعد . فما هى إلا هنيهة حتى جمع البر الجميع . وكان أول من نزل إليه الرئيس ، فأقبل على الرجلين حنقًا هائجًا يقول : ما خطب هذه السفن يا بلباص ؟ وهل خطر ببالك أن تكشف حالها أم أنت لا تدرى من الأمر سوى الغناء وشرب الخمر ، ولا تأتى من العمل غير النوم الطويل والكسل ؟ فأجابه : عفوًا يا مولاى فإننا ما خففنا إليك إلا لنكلمك فى هذا ، ولنبشرك بقُرْب الحصول على المأمول . قال : وما ذاك ؟ فأخذ يقص عليه الخبر ، وما كان من أمر الأدلاء ومجيئهم من تلقاءِ أنفسهم وشربهم معهم ، وإذاعتهم بعد ذلك سر المأمورية القادم من أجلها الأسطول .

فحين سمع الرئيس هذا الكلام تحول عبوسه بشرًا وبشاشة ، وقال : الآن نجحنا فيما نحاول ، فلقد كنت أختبر المواقع ، وأنظر فى كيفية اجتياز الأرخبيل ، ووجدت أن لا غنى عن الدليل ، وإلا لزمنا أن نطوف حول هذه الجزائر كلها وأن نأخذ فى مسيرنا عريض البحر ، فلا ندنو من الأرض تجنبًا للأخطار واتقاء كامنة الصخور والأحجار ، وهذا سفر طويل شاق يستغرق نصف عام على الأقل . أما الآن وقد وقع هؤُلاءِ الأدلاء فى قبضتنا فقد فسد الأمر على رجال الأسطول وخابت مساعيهم ، فاذهبا توًا فأوعزا إلى إخوانكم بالقبض على البحارة قبل أن يميتهم السكر ، وشد وثاقهم ، واحملهم إلى هذه السفينة، وليركب فيها جماعة منكم معى أما الباقون فتذهب بهم أنت يا "بلباص" إلى السفينة التى كان فيها الأدلاء ، لأن فيها عادة تكون المؤَن والذخائر ؛ وإن نحن أخذناها أيضًا تركنا الأسطول بغير قوتٍ ، فلا يجد حينئذٍ بدًا من الإسراع فى الرجوع ، فخذوها فاسحبوها سحبًا بطيئًا خفيفًا بدون أن تسمع لها حركة تنبه ناس الأسطول لما نحن فيه من العمل ، ثم نبتعد بالسفينتين حتى نجىء بعض الصخور العالية مما كشف اليوم ، فنتوارى منتظرين النهار ولا نبرح مكاننا حتى نرى الأسطول

وقد سار منقلبًا على أعقابه بالخيبة والخسارة . قال : سمعًا وطاعة يا مولاى . وأخذ بيد صاحبه فذهبا فأبلغا أوامر الرئيس إلى سائر الجماعة فقبض للحين على الأدلاء وشد وثاقهم وسيقوا إلى سفينة الرئيس ، ثم جيء بسفينة المؤن والذخائر مسحوبة ، فركب الجميع وسارت السفينتان حتى بلغتا صخرة صالحة للكمون ، فكمنتا ترقبان الصبح أن يطلع لتكشفا ما سيكون من أمر الأسطول .

فلما أقبل الصبح استيقظ رجال السفن الهندية فلم يجدوا سفينة الأدلاء ، ولا لهؤُلاء أثرًا على الماء ، فهالهم الأمر وتنكر لهم الموقف وتمثل لهم اليأس بكل سبيل . ولم يرَ الأمير "ثرثر" بدًا من العود لعرض الأمر على مسامع الملك ، فأصدر إشارته للسفن بالإقلاع ، فأقلعت راجعة من حيث جاءَت بالذل والصغار .

فلما رآها الصيادون وقد انقلبت آيبة خرجوا من مكمنهم ، وكان الأدلاء قد اندمجوا فى سلكهم وآثروا البقاء معهم بتلك الصفة على الهلاك ، فمخرت السفينتان تؤُمان جزيرة العذارى من أقصر الطرق إليها بفضل صحبة الأربعة البحارة الأدلاء .

* * *

الفصـــل السـادس

الشـقـى طـوس فـى جـزيـرة الـعـذارى

كـان مـن عـادة الكاهـن منذ قـدوم الأمـيـرة فـى أترابهـا إلـى الجـزيـرة ، أن يـخـرج بالبنات مـرات فى اليـوم إلى الصـلاة على مكان هنـالك مـألوف ، خـالص الجـهـات مكشوف . وكان البنات إذا فرغن من هذه الصخرة تركن الكاهـن عاكفًا على عبادته مشـغولاً بأدعيته ، ثم ينـثنين لاهيات ناعمات رائعات فى ذلك الفضـاء ، لاعبات حتى مغيب الشمس ، وعندئذٍ يدعوهنَّ للمبيت صوت مزمار يترنم به الكاهن روحانى التحنان ، هندى الألحان ، موزون المقـادير ، مقـدور الأوزان ، فـترى الفتيـات ينهلن من كل مكان والنمـور فى أقـدامـهـن هـائمـة على الوجـوه ، تثـيـر الغبـار منجـذبة كـذلك مـأخـوذة بنغمات المزمار .

فبينما البنات ذات يوم فى العبادة على مـألوف تلك العادة يقمن مع الكاهن صلاة الأصيل ويقلن هذا الدعاء بترتيل :

" بودا يا سمـاء هذه الأقطار ويا سـورها المغنى على الأسـوار ، ندعـوك بوادى الأنوار الذى كرمته بالنمورة السبعة الكبار ، الظاهرة الأنياب والأظفار ، المحجوبة عن الأبصـار ، السارية بالليل الكامنة بالنهـار . كمـا نتوسل إليك بغـابة الأسرار الخـالدة الأشـجار ، المشرفة بثعبان الديار ، الأصفر الصـفار ، الوثاب الثوار ، أن تقى الأميرة ما وقيت وأن تسهر عليها وعلى بناتك العذارى الأبكار".

سمعنَ صيحة عظيمة آخذة كادت لها كتلة الجزيرة أن تتمزق ، فتهوى أجزاؤُها فى أسفل أعمـاق البحر ، فالتفت البنات متفزعات ، وإذا هى النمور تزْأَر جملة وقد انحدرت كذلك جملة ، تترامى جانبًا واحـدًا من السـاحل ، فكأنما تجرى هنالك أُمور

مما لا يستطيع الحارس الأمين السكوت عنه ، فأخذ البنات القلق ونالهنَّ من ذلك فرق ، لا سيما إذ كانت تلك أول نفرة للنمور فى المدة الطويلة التى أقامتها بالجزيرة ، حتى لقد كانت عرفت سفينة الزاد توهمًا فاعتادتها فلم تكن تنبحها لا قادمة ولا آيبة .

فلم يكن من حيلة البنات ساعتئذٍ إلا أن تهافتن على الكاهن يجاذبنه ثيابه من الفزع ، ولو استطعن لدخلن فيها . فإذا هو كإحداهنَّ طيران فؤاد ، وارتخاء مفاصل ، لا يملك لهنَّ ولا لنفسه عصمة من الخوف . فنحن تاركوه والبنات على هاته الحال لننظر فيما كان يجرى مما أطار طائر النمورة فنقول :

كانت السفينتان قد وصلتا الجزيرة بعد يومى مسير ، وبعد عناء كبير وجهد كثير، تقلان جماعة الصيادين وأصحابهم الأربعة الملاحين ، فلما رسيتا ، وكان زئير النمور قد دوى فى آذان القوم ، وغبار هجومها قد سد الفضاء فى وجوههم ، لم يتمالك الهنود من صيادين وبحارة أن وقعوا فى مثل ما تركنا البنات عليه من خوف مانع للفكاك ، ورعب مفقد للحراك ، وبالجملة وقعوا من الفزع فى أضيق من الشراك .

وإذ رأى الرئيس ما حل برجاله ، إلا أصحابه المصريين الذين ثبتوا حافظين لوعيهم أمام هذا البلاء المحدق ، عمد لجرابه فأخرج منه ست بيضات من الحجر من طبخ يده ، شديدة التوقد قوية اللمعان ، تحسبها نارًا وليست من النار فى شىءٍ . فمسك اثنتين منها فى يديه وجعل ينقلهما من يد إلى أُخرى بسرعة غريبة بحيث كانتا تتعددان فى رأى العين ، ثم قال لصاحبيه هاموس وبلباص : خذا هذه البيضات الأربع فاصنعا بها كما أصنع ، وأنزلا بنا إلى البر غير حاسبين لكلاب الهند هذه حسابًا ، فبدر الثلاثة إلى البر يلعبون بالبيضات فى وجوه الوحوش ، وهى تستأخر بين أيديهم وتتقهقر أمامهم . وكان الرئيس كلما قابل واحدًا منها نظر إليه نظرة منوّم مقتدر ، فتركه مكانه مأخوذًا مسحورًا . وهكذا حتى أتى على النمور جميعًا ، فكنت إذا رأيتها حسبتها لوحًا متقنًا بديعًا .

ثم صاح بالهنود : انزلوا أيها الأصحاب ، فانظروا ما أصاب هذه الكلاب . فنزل الهنود فى الحال مكثرى التعجب مما يرون ، خصوصًا بحارة الأسطول ، إذ كانوا يستغربون الحادثة ويكلمون فيها الصيادين ، فيقول هؤلاء لهم : ليس ما ترون إلا من لعب الرئيس ، وإلا فإن له فى حال الجد جراب سحر لا ينفد ، وكنز علم لا يفنى .

كيف لا وهو الشقى طوس الذى لا يعرف الغنى من لا يخدمه ، ولا يدرى السعد من لا يلزمه ، والجواد الغنى الذى فوق أنعم الملوك أنعمه . وحسبكم أنه استخدمنا نحن صعاليك الصيادين فى هذه المهمة التى لا تستغرق أكثر من سنة ، وفقدنا سلفًا جزاء إتمام هذه الخدمة خمسمائة ألف حلقة ذهبية من العملة المصريَّة ، هذا عدا الزاد والثياب والنبيذ الغالى الذى نشربه بغير حساب ، وإنه لمال لا يتسنى لملك من ملوك العصر دفعه ، ولو أنه رمسيس الثانى سيزوستريس ملك مصر .

ثم إن الرئيس تقدم بين رجاله متوغلاً فى الجزيرة يفتش عن مسكن الأميرة بها إلا أن الظلام كان يعاكس بصره ويقف له بجدارة الأسود دون المعالم والأشباح . فلم يكن منه إلا أن أخرج من الجراب أربعة عيدان صغيرة فأشعل أطرافها ثم رمى بها فى جوانب الفضاء الأربعة ووقف بعد ذلك ينظر ، فبدا له من الجانب الأيسر شىءٌ عالٍ كالبنيان ، فحول إليه مشيه موغلاً فى السير . وهو من وقت إلى آخر يقذف بواحد من العيدان المعهودة فيضىء له دجى الليل ، حتى انكشف له القصر تمامًا . ولكنه لم يكد يبلغه حتى عاد فاحتجب تحت قبة من شبه الضباب الكثيف . فالتفت الرئيس عندئذٍ إلى رجاله متبسمًا يقول : لا يهلكم الأمر يا قوم . فإن عندى ما أمزق به هذه القبة الخيالية التى لا أحسبها إلا من عمل بعض كهنة الصين الدخيلين فى العلم . وفى الحال تناول من الجراب ربطة عصى كانت فيه ، فدهنها بدهان من عنده ، وتربها بتراب أصفر من تركيبه أيضًا ، ثم أدناها من النار فاتقدت أطرافها ، فقذف بها تلك القبة الوهمية فتبددت للحين . واستمر القوم سائرين حتى وصلوا إلى القصر وهنالك استقبل الرئيس الباب وقال بصوت عالٍ تميد له الجبال : يا من حاول أن يعمينا بسحره عن قصره فغلبناه على أمره . إن كنت كاهنًا فانزل إلينا آمنًا إنى أنا "طوس" ولىّ السعود والنحوس ، المنتقم للنفوس من طائفة القسوس ، ولكنى أكرمك لأجل من معك ، فأطعنى عسى الطاعة أن تنفعك . فلم يكد طوس يستتم حتى فتح الباب وأقبل الكاهن يمشى على عجل من الوجل انسياقًا بجاذبية ذلك الاسم ، كما تنساق الحملان بجاذبية بعض الثعابين الكبيرة ، حتى صار بين يديه فانحنى ثم خاطبه قائلاً : الأمان يا أبا هاموس الأمان . فسأله الشيخ مستغربًا : من أين لك أيها الكاهن عرفان كنيتىَّ حتى دعوتنى بهما ؟ فاندفع الكاهن يقول :

عـرفـتـنى بك يا طوس الـنجـوم ... مـثلمـا أعلمـتـنى هـذا القـدومْ
إنمـا أنـت قـــضـــاءٌ واقـــعٌ ... قـــصـــرت عـن رده منى العـلـوم
هذه الأفـــلاك ســـعـــدًا جـــريهـــا ... لك مـقـضـيًـا لديهـا مـا تروم
فلك الـبـحـر سـلامًـا تحـتـهـا ... ولك الـبلـدان تطوى والـتـخـوم
ولـك الغـــابـات دانـت كلـهـــا ... وعلـيك الـبـبـغـا حـطّ يـحـوم
فـابـلغ القـصـد ومـا تسـعى له ... واحـمل العـذراء فى الفلك المشـوم
ليس فـى مـسـعـاك من بأسٍ سـوى ... أن مـــا تســـعـى إليـــه لـن يدوم

قال الشيخ وانذهل انذهالاً : وأنا أيضًا تحدثنى خواطرى أنك "شنو" الصينى . قال : وهى صادقة فيما تحدث ، فمد الشيخ حينئذٍ يده إلى محاوره فصافحه ثم قال : كيف تصف الفلك بالمشـئُوم أيها الأستاذ وهو الذى يجمع بين الشتيتين ويدانى بين العاشقين ، ويحمل بنت رب آسيا إلى ابن رب إفريقيا برغم هذين الملكين ؟ قال : مهلاً رويدًا يا طوس ولا تجنِ على عذراء الهند كما جنيت أنا عليها ، فلقد ركبنى التسرع والطيش حتى هدمت ركنًا من هرم حياتها ؛ وأنت بهذه النقلة تهدم الركن الثانى ، ثم يعيش الهرم بركن واحد معرضًا للخطر وشيك الزوال ؛ وإن كنت فى ريب مما أقول فهذا نجم الفتاة ، وهذه غلالتها الأولى غلالة الولادة فاجمع بينهما وانظر ، فأخذ الشيخ الغلالة وجعل يقلبها ويتأملها والنجم معًا ، وقد أخذ بشر وجهه يغيض وصفو حاله يتكدر ، فأطرق برهة وجبينه يفيض من العرق ، ثم التفت إلى "شنو" فقال : صدقت أيها الأستاذ ولكنى سأغلب هذا النجم على أمره وأرد كيده فى نحره :

أنا طوس مـــحـــصى الكواكـب عـدًّا ... أنا فـوق الـنجـــوم أخـــذًا وردًّا
أنا إن شـئت بـدَّل الســعـد نحسًـا ... وإذا شـئـت بـدَّل النحس ســعـدا

ثم إنه دخل فى مثل الجنون من التحمس ، فاستقبل القصر واندفع يشيد بصوت كادت له الجزيرة تميد ، فدان للأميرة أن تبرح الجزيرة إلى فضاءِ النيل الباسم

الجميل ، حيث ابن مولى الأرض فى طولها والعرض ، من الوجود عبده والهند طُرا هنده ، ومن على الأيدى يده ، ومن غد الدنيا غده . السيد ابن السيد آشيم رمسيس الغد .

وما فرغ الشيخ من إنشاده حتى نزلت الأميرة هائمة على وجهها والبنات ينهلن على أثرها ولسان حالها ينشد :

يا حامل البُشرى إلىَّ بقربهم ... من لى إليك بريشة فأطيرُ
كيما أرى فى طيب لفظك شخصهم ... فيهمُ على فمك الكريم حضورُ

ثم وقعت على صدر الشيخ فحملها . ومشى والملأُ يسيرون خلفه ، حتى جاء إلى حيث ترك السفينتين راسيتين ، وكانت النمور ما برحت فى أسر النوم ، فجدد لها التنويم ، إلا النمر الأبيض الذى ميزه بطوقه ، فنبهه ثم ساقه مشدود الوثاق إلى سفينة الصيادين ، وركب هو ورجاله والأميرة فيها ، ثم أشار إلى سائر القوم أن ينزلوا فى سفينة الذخائر فنزلوا . وكان الفجر قد بدا ملتمع الضياء ، يضىءُ لراكبها الدأماء . فبوشر عندئذٍ بنشر القلوع ، فخفقت فيها الرياح تملأُها ، وتحركت بعد ذلك السفينتان فاندفعتا تشقان العباب .

* * *

الفصـــل السابع

تلاقٍ ولا تلاق

أنـا فـي تـطـلابـه وهـو لـدىّ ... مـطـلـبٌ مـــــرٌّ ولم يـلـوِ عـلـىّ
قـــد تركـت الهـند أطـويهـــا لـه ... وهو يـطويـهـــا ومـــا يـدرى إلىّ
والتـــقـــينا مـــا خـطا لى خـطوةً ... لا ولـم أنقـل إلـيـــه قـــدمـىّ
يـا لمـلـك راح عـنـى نـائـيًـــــا ... كـــان لـو فـتـــشـت عنه فـى يدىّ

كانت مياه الهند من يوم رجع الأمير الغائب بأسطوله الخاسر الخائب ، محشراً للسفن من كل طراز ولكل صاحب . فمن حربيَّة بثتها المملكة للمراقبة ، وأهلية جمعت كذلك لهذه المناسبة . وبين قديمة بلا عدد ، وجدد منشأة لهذا الصدد . وكانت كلها منتشرة منتبهة حذرة ، وعلى الأخص الأسطول المنقاد للأمير "ثرثر" . فلقد ظل جوالاً فى ذلك المجال الفسيح ، وهو كالريشة الساقطة فى مهب الريح ، لا يعرف له مرسى ولا يستريح . وبالجملة كانت قيامة أقامها الملك فى البحار ، كاد العجب لها أن يقوم وأن يسكن التيار .

واستمرت السفن كذلك أياماً طويلة ، لا تهمل فى البحث وسيلة ، ولا تغفل فى التفتيش حيلة ، بدون أن تأتى بخبر ، وتقف للأميرة على أثر . ولم تكن رأت فى كل تلك المدة شيئًا يذكر ، سوى حوتين عظيمين كانا يتطاردان . فكانت تتنحى لهما بكل مكان ، فيمران فى ذمة وأمان . حتى خرجا من المياه الهنديَّة ودخلا فى المياه العربيَّة ، المشرقة يومئذٍ بالتبعيَّة للدولة المصرية . وهناك افترقا فانقلب أحدهما آيبًا إلى بلاد

الهند ولكن بعد ما مسخ فلكًا يحمل الكاهن والأدلاء ويقل المائة عذراء ، واستمر الآخر سائرًا وكان أيضًا قد عاد فتصور سفينة صيد فيها طوس وهاموس والراكب المحروس .

فبينما هذا الفلك ذات يوم سائر يؤُم مصر بالقوم مر به أسطول فاخر ، لا أول له ولا آخر ، وهو يجرى زاخرًا فى زاخر ، وكان قادمًا من مصر وحاملاً لرايتها الخفاقة بالنصر . فلما استعرضه طوس قال لفتاه : ويل للهنود من هذه الأبراج التى ليست سفنهم بجنبها إلا أقفاص الدجاج ، فأنا لا أظنهم إلا ثائرين ، وهذا الأسطول خارج إليهم ليعيدهم إلى الطاعة صاغرين . قال : ومن يا ترى الماسك لدفته القابض على أزمته ؟ قال : إن أمراء البحر فى مصر بغير حصر وكلهم أبطال مكللون بالنصر . قال : وهل يبعد يا مولاى أن يكون الأمير هو قائد الحال ، الخارج إلى الهنود بهذه الجبال ؟ قال : إن الأمير مطمئن بالولاية فى منفيس وإخوته كثيرون حول عرش أبيهم الملك ، فلو أحب هذا أن يجعل على السفن أحد بنيه لما عدم من يوليه .

ثم إن السفينة استمرت سائرة حتى شارفت سماءَ النيل ، فألقت المراسى وانقضى ذلك السفر الطويل .

* * *

الباب الثانى

الحوادث فى منفيس

سبحانه وتعالى

الفصل الأول

عذراء الهند فى قصر الأمير

أَلا هل لى بلقياه يدانِ ... حبيب شأنه عجب وشانى
إذا دنت الديار به فناء ... وإن نأت الديار به فدانى
يود الليل لو ندنو كلانا ... ويدَّخر النهار لنا التهانى
وتأبى شقوتى فالذنب عندى ... لها لا للزمان ولا المكانِ

كان الليل فى أُخرياته ، وكان سكون الجو عند غاياته ، والوجود لم ينتبه بعدُ من عميق سباته . وكانت منفيس لم تزل فى أسر الليل وتحت رق إحكامه ، ساهرة المحارس والمخافر ، مغلقة المداخل والأبواب . لا يخرج منها خارج ولا يدخلها داخل إلا بإذن . وهى كأنها الهالة المستقلة ، المنيرة الآهلة أضواء ولا ضوضاء وسنًا للناظر وسناء ، وسكون فى الأرض وسكينة فى السماء . وكانت الطرق إليها شتى . وقد أخذت مع ذلك تزدحم بناقلى الأقدام ، الآتين من أقاصى القوى تحت مدارع الظلام . وفى كلاءة الحى الذى لا ينام ينهالون على المدينة من فوق الجسور وتحتها وعابرى الأنهار . ومن بين المزارع والديار وحوالى المحارس والأسوار ، متنافسين فى الرزق متسابقين إلى الكسب مسارعين إلى المغنم كما ينبغى للأمم فى أيام حياتها وأزمنة مجدها وتمدنها .

فكانت هاته الجماعات والزمر تموج وتزحف سيرًا نحو منفيس ، وبين أيديها ما لا يعلم عدده إلا اللّه من محصولات القرى ومتاجر البلاد ، وعلى الأخص الدواب

حيث كان لأسواقها الشأن الأعظم فى المدينة . وكانت هى زخرف أغنيائها والزينة . وهم قد ملأوا الدروب وملكوا جميع الطرق ، إلا واحدة كان يقال لها طريق الخفاء . وكان الأهالى يجتنبونها لأجل ذلك . ويذكرونها فيتفزعون لذكرى المهالك . وقد أكثروا فى أمرها الكلام وذهبوا المذاهب مع الأوهام .

وكان يجتاز طريق الخفاء فى تلك الساعة شرذمة من الفرسان لهم زىٌّ غير مألوف ؛ وكانوا ملتثمين ، متدارين فى السلاح ، متمكنين من صهوات الجياد وأعنتها المستوصية الشداد . وقد جعلوا فيها بينهم هودجًا محجبًا محمولاً لا يعلم إلا اللّه بما فيه ، وهو يسير حيث يسيرون ، وهم به دائرون . حتى إذا صاروا فى آخر الطريق من جهة المدينة ، انفصل عنهم أربعة فظهروا للوجود وخرجوا إلى العالم المشهود ، تاركين رفاقهم والهودج ومن أقل فى الطريق الخفاء ينتظرون . ثم ساروا يقصدون "منفيس" . وكأنما عرف الأهالى من هم ، فغضوا الطرف عنهم . لا يدنون منهم ولا ينظرون . وكانوا كلما مروا على محرس ميَّزهم خفراء النقطة بزيِّهم فلا يتعرضون لهم ولا يسألون ، إلى أن بلغوا باب الشمس (أكبر أبواب المدينة يومئذٍ) . وهنالك أخرج أحدهم جرسًا فضرب به ثلاثًا . فلم يكد صدى الضربات ينقطع ، حتى انفتح لهم الباب فدخلوا . وكان الحراس قد عرفوهم بجرسهم فلبثوا فى مراكزهم لا يتعرضون لهم ولا يسألون .

واستمر الفرسان الأربعة كذلك سائرين لا يخشون من تعويق . ولا يقف لهم واقف فى طريق ، حتى لاحت لهم دار الأمير وجهتهم التى كانوا يقصدون .

وكان الفجر قد لاحت تباشيره تهز الوجود ، كما هز من والديه المولود . وهى الساعة التى يكاد صالحو الملوك والأمراء أن يسبقوا بها إلى العمل النساك والعلماء . فخرج الأمير إلى حديقته الخاصة يلتمس لنفسه كعادتها نزهة الصبح . ويتمتع من رؤية الطبيعة وروائها فى خير ساعات انجلائها ، وأطيب أوقات بهجتها وازدهائها . أما الحديقة فكانت مثالاً لصنعة الصانع أجلّ مثال . طرازًا بديعًا فردًا فى البهاء

والرونق والجمال . ظل وماء وطبيعة سمحاء . وسكينة فى السماء . كما تحب الطير ويهوى العاشقون والشعراء .

وكان مع الأمير فيها ساعتئذٍ الأستاذ "بنتؤُر" شاعر البيت حكيم المملكة ومؤدب ولى العهد فى الصغر ، ومشيره الأمين فى الكبر . والبطل "رادريس" الملقب بعفريت الحبشة حارسه الأول ، وأمين سلاحه الذى عليه المعول . ثم العالم الكبير "تيحو" طبيبه الخاص . وهؤُلاء الثلاثة من أصحاب رمسيس الثانى وكانوا فى معيته . فلما استعمل ابنه الأمير على منفيس والأقاليم الوسطى سيرهم فى ركابه حاشية جديراً بها ولى عهد المملكة الرمسيسية . فكان الأمير يتمشى متريضاً ، وليس البدر بين نجومه برجل منه بين رجاله . وقد جعل يده فى يد "بنتؤُر" وهو يقول له : كتبت إلىَّ سيبًا تنبئنى أن ضغط الكهنة على الملك غير وانٍ لحمله على تزويج أخى "بآرا" . وإن كبير الحرس قد استمال إليه المؤثرين من رجال الحاشية، حتى أصبحوا يجدُّون مع الكهنة فى إتمام أمله الذى يحاول أن يرفع بنته إلى مقامٍ تحسدها عليه كريمات الملوك والخواقين ، وأن الملك أوشك أن يتأثر بمساعى القوم ، وإن أختى "آثرت" وهى كما تعلم لسان الكهنة فى القصر متكلفة لهم ولصاحبتها " آرا" باجتذاب والدتنا العزيزة . فكيف العمل الآن يا بنتؤُر ؟ وما الحيلة فى الخلاص إذا الملك والوالدة انقادا بقوة ذلك التيار ، فأصبحا علينا مع جماعة المتحالفين . قال : نعم يا مولاى ضغط الجنادل والقبور ، ولا ضغط الوالدين فى أمثال هذه الأمور ، وإن الذى أعلم أنا من الأمر لأعظم قال : وما ذلك ؟ قال : إن أبويك الفخيمين لم يوشكا فقط أن يذعنا لاقتراح الكهنة بل هما من بضعة أيام نصال تلك السهام ، وساعد الأقوام ، والمساعد على تحقيق ذاك المرام . فإن كنت فى ريب مما أقول فهذا كتاب من أبيك الملك إلىَّ ، فاقرأه ففيه الكفاية ، ثم دفع إليه كتابًا من قلم رمسيس يقول فيه ما معناه :

" عزيزى الأستاذ .. لقد آن لآشيم أن يعدل عن غرامه الهوسى بعذراء الهند ، لا سيما بعد ما ثبت لديه من إخبار رسلى ورسله العديدين من اختفاء الفتاة واستحالة بقائها على قيد الحياة . هذا والأمير اليوم يناهز الثلاثين وأنا شيخ ضعيف . وقد

مرَّ لى فى الملك خمسون عامًا فلا أحب أن أفارقه قبل أن أرى ولىّ عهدى أبًا . وهذا أمل حلال طاهر الخلال . لا أحسبك إلا موافقنى عليه . فإن امتثل آشيم إرادتى زوجته بربيبتى وبنت كبير حرسى السيدة آرا التى لم يقع اختيارى ولن يقع إلا عليها . وإلا عددت الإباء منهُ عقوقًا بينًا وربما أفضى ذلك إلى انتقال العهد عنهُ إلى أخته البارة "آثرت" . والآن فانظر فى مصلحة أميرك واختر لتلميذك ما يحلو والسلام .

كتبه

رمسيس الثانى

فما فرغ الأمير من قراءَته إلا وقد ملكت الحيرة جهاته . ووقف له اليأْس فى السبل والمذاهب . فأطرق برهة لا يملك كلامًا ، وبنتؤُر يلاطفه ويسليه ويعلله ويمنيه ويدعوه ليترك الأمر حتى ينظرا فيه . حتى إذا هبَّ من إطراقته قال : إن الموقف لحرج يا بنتؤُر . قال : نعم ... شر موقف يا مولاى . ولكن :

غالب الأمر بالتوكل غالب ... واطلب العون فى جميع المطالب

ربَّ أمر به تضيق المساعى ... لك منه إلى الفضاءِ مذاهب

قال : ألا تذكر أن أخى وضع يده وهو فى الخامسة عشرة فى يد عذراء الهند على أن لا يقترن بسواها ما داما كلاهما على قيد الحياة . قال : أذكر ذلك يا مولاى . قال : إذن فقبيح بابن رمسيس أن ينكث العهد . قال : قبيح ثم قبيح . قال : وتذكر أيضًا أننا كلانا وضعنا يدنا فى يد هذا الشعب البائس المحتقر المملوك لفرقة الكهنة أننا ننقذه من يدهم ونرد عليه حقوقه المسلوبة . قال : أعرف ذلك حق المعرفة يا مولاى. وأعلم أن اقتران ولىّ العهد بآرا لو حصل يثنيه لا محالة عن العمل ويحل جميل نظام هذا الأمل . قال : إذن فعار على ابن رمسيس أن ينقض الميثاق . قال : نعم عار عليه إذا فعل عظيم . قال : ولكنه الأب يقترح والملك يريد وعار على ابن رمسيس أن يعق أباه ، ثم عار عليه أن يعصى ملكه . قال : نعم عاران لا ينمحيان . قال : فكيف العمل إذن ؟ وما وجوه الحيل وأخى فوق هذا وذاك عاشق والعشق أكبر ملكًا وأعز سلطانًا

من أبينا على فخامة عرشه . فلابد لآشيم أن يذعن لأحكامه كما أذعن لها الأولون وسيذعن الآخرون . قال : كل هذا يا مولاى معقول وأخوك وأنت كلاكما جدير بما تقول . ولكن الرأى عندى أن نبادر فنغتنم فرصة تَغَيُّب الأمير فنجيب الملك بأنه ما زال ولده البار الخاضع المطيع فى الإعلان والإسرار ، وأنه أبوه أولى به فليدبر له ما يشاء ويختار . حتى إذا خرج الملك من حالة الغضب وعادت عواطف الأُبوة فاطمأنت بمكانها من فؤَاده الرحيم - وما أسرع ما تعود هذه العواطف - شرعنا ، حينئذٍ نتلاطف له فى الاستمهال ونذهب معه فى كل مذهب من المطال ، حتى نستقر والحوادث على حال . قال : قد رأيت فى الأمر رأْى حكمتك يا مؤَدبنا العزيز . فاكتب إذن إلى الملك بهذا المعنى وعَجِّل . ثم إن الأمير التفت فوقع نظره على الحاجب وكان قد حضر ليعرض أمرًا فسأله : هل حاجة ؟ قال : حاجة الجميع سلامة الأمير ، بالباب يا مولاى أربعة من الفرسان يزعمون أنهم رسل الشقى "طوس" إلى مولانا فى أمر ذى بال . فاستبشر الأمير لذكر هذا الاسم وتهلل وقال : يا مرحبًا بطوس وأهلاً وسهلاً برسله فليدخلوا . ثم أقبل على "رادريس" يقول : ليس كذلك يا حارسى الهمام . قال : بلى يا مولاى ونعم الصاحب على البعد طوس . أما شخصه فلم نره وأما أفعاله فلم نبلُ منها إلا الخير خصوصًا مولاى آشيم فإنه مدين له بالحياة مرتين منذ قدومنا لمنفيس . قال : وأنا لأجل أخى أحبه ولا أحب أن يتعرض له ولا لرجاله أحد ما دمت مكان أخى فى هذا البلد . قال : وهبك عاديته يا مولاى ، فلن تَجْنى إلا كما جَنَى الولاة من قبل أخيك ثم تكون قد أرجعت البلاء للسكان وأعدت الحال أسوأَ مما كان .

وعند ذلك أقبل الحاجب وفى أثره الفرسان الأربعة وقد تجردوا عن سلاحهم بالباب ، وجعلوا يدهم اليمنى على الكتف الأيسر وأرسلوا اليسرى خافضى الرأْس منحنين إشارة إلى الخشوع والإجلال ، وعلامة على تمام الطاعة وكمال الامتثال . فلما رآهم الأمير أقبل عليهم وتلطف . وبالغ لهم فى الخطاب ، ثم شرع يسألهم عن طوس ويستخبرهم عن أحواله . حتى إذا اطمأَن بهم الموقف واستأْنسوا طلب إليهم أن يعرضوا حاجتهم ، فأخرج أحدهم كتابًا مختومًا ودفعه إليه فتناوله ففضه ثم دفع به إلى بنتؤُر ليقرأَ فقرأ :

" من الشقى طوس صاحب الشياطين وحليف المردة الجهنميين إلى سيده ومولاه سليل الشمس وجار الآلهة فى مهده ابن رمسيس الثانى وولىّ عهده ووارث التاجين والعرش من بعده الأمير أشيم حاكم منفيس والأقاليم الوسطى . مولاى فتاة الهودج التى يتقدم بها رجالى بين يدى جناحك العالى هى عذراء الهند . "فعند سماع هذا الاسم أجفل الأمير واضطرب وعلا وجهه الاصفرار ، فدنا بنتؤُر عندئذٍ منه وقال همسًا : تجلَّد يا مولاى وقم لأخيك فى هذه الحادثة مقام شَخْصه وصن له عشيقته فيما تصون من معالى هذا المركز الذى خصَّك بثقته يوم رحيله فلم يأتمن سواك عليه". ثم عاد فقرأ :

" بنت الملك دهنش ملك ملوك الهندين أوقعها الشقاء فى قبضة عبدك فاستكثرتها لنفسى ولم أجدها تصلح لسواك ؛ أو تليق إلا لعلاك . فآثرتك بها على نفسى وأولادى ، مع علمى علمًا حقيقيًا أنها أجمل كريمات الملوك ، بل أفتن نساء الأرض فى الطول والعرض . وإن أربعين ملكًا من ملوك آسيا ماتوا بوجدهم فى سبيلها كما يموت عشاق الدنيا بِهَمّ اليأس من تحصيلها . ولكن لعذراء الهند هذه يا مولاى سرًا يختص بحياتها ويتعلق بأيامها وإنى أستودعك إياه . واسأل آلهتك أن يجعلوك منه أبدًا على ذكره وما ذاك إلا أن الفتاة محرم عليها أن تركب البحر فى عمرها مرتين لا متتاليتين ولا متعاقبتين وقد فعلت . فصارت عرضة للغرق بحكم نجمها النحيس وإلا يسهر مولاى عليها يكن وحده المسئول على حياتها النفيسة أمام فؤَاده الطيب الرحيم".

كتبه

طوس

وقد كان الأمير وأصحابه يصيخون لمدهش ما يتلو عليهم بنتؤُر . وهم يشهدون أحوالاً أعجب ويبصرون أدهى مما يسمعون وأغرب ، ذلك أن الفرسان الأربعة كانت أشخاصهم ترق وتنطوى وتضمحل وتتلاشى متوارية ، ثم تتوارى متلاشية وهذا كله بدون أن تتحرك الأقدام أو تخرج عن مراكزها الأجسام إلى أن زالت تمامًا . وعندئذٍ سمع من جوف الحديقة صوت يقول : لتخلُ الطريق إلى قصر النزهة بالضواحى وليخلُ القصر أيضًا إلا من الأمير حيث يقيم وحده فى انتظار عذراءِ الهند فإنها ستحمل إليه فى منتصف الليل تمامًا .

الفصـــل الثانى

الأمير آشـــيم

عرف القارئُ مَنْ آشيم ، وابن من فى ملوك الزمن وما ألقابه وشأنه وكيف منزلته من باذخ المجد ومكانه . ولكن ربما تسرع فعامله كما أصبحنا نعامل المتوجين الجالسين وسائر أبناء المالكين . فلا تُعَد وجودهم إلا ضربًا من لعب السعادة . لا ينيل التفضيل الحقيقى ولا يوجب السيادة . فنحن ندعوك أيها القارئُ لتستثنى معنا الملك وابنه . أما رمسيس الثانى فلأنه رمسيس الثانى وكفى ، وأما ابنه الأمير فإن منفيس تشهد مزكاةً بالذكر والأحاديث أنه كان فتى ولا كالفتيان . كامل أدوات الإمارة والسيادة . آهلاً لما ترشحه له السعادة وزيادة . مخالطًا للأمة سريعًا إلى حاجاتها ، آخذًا بنصيب من جميع حالاتها . يحبها وتحبه . ويتألف على الهوى قلبها وقلبه ، حتى لكانت تكاد تتمنى أن تراه اليوم قبل الغد على العرش ، عرش والده الذى أقام جدها وأنشأ مجدها وصير الوجود بأسره عبدها . هنا يستغرب الأمر من لا يعرف السبب . ويعجب القارئُ بحق كيف أن ملكًا كهلاً خدم الأمة نحو نصف قرن لم يألها صبرًا حتى أنالها أزمة الوجود برًا وبحرًا ، وخلَّد لها فى العالمين ذكرًا ، يفضله مع ذلك فى اعتبارها ويقدم عليه فى اختيارها أمير شاب لا يزال فى ولاية العهد ، وعلى أبواب العمل لم ترَ له البلاد خيرًا ولا شرًا ، ولم تبلُ من ثمره حلوًا ولا مرًا ، فالجواب : أن للأمة ما دامت فى الحياة كرامة من الخلقة وإباءً من الوجدان يذكرانها على الدوام حق المساواة ، ويورثانها أبدًا كراهية الطاعة لكل حكومة ينتفع بها فريق من الشعب دون فريق ، وتكون نعماء أيامها لطبقة من الأفراد دون طبقة . وتلك الكرامة

وهذا الإباء لم يرعهما الفراعنة فى دولة من دولهم ، ولم يلقوا لهما بالاً فى زمن من الأزمان . فلما ولى "آشيم" الحكم على منفيس والأقاليم الوسطى ، كان طرازًا وحده فى الفراعنة وأبنائهم من حيث العناية بمصالح العامة والسهر على حقوقها ، وتسوية الرعاية بينها وبين الخاصة . وقد سار سيرته هذه من أول يوم ، حتى فزَّع الطبقات العليا من الشعب وعلى الأخص الكهنة فباءوا له بالعداوة وباتوا يرقبون من أمر فرعون الغد ما سيكون .

هذا ولم يكن رمسيس الثانى كغيره من محبى العظائم بين ملوك الأنام ، الذين يكاد حب الذات لا يجوزهم ، وقسوة القلب أن لا تتعداهم ، ويتولد من الطمع عندهم الحسد فى غاية شدته فتعم شروره البلاد والعباد ، وتتناول غوائله حتى الأهل والأولاد . بل كان يرى فى اهتمامه للمملكة بصاحب عهدها والسهر على عظيم مستقبله الذى هو مستقبلها تتويجًا لحياته العالية الكبيرة ، وإتمامًا لنعمته على الأمة والبلاد . حيث رباه التربية اللائقة بنسبته العالية وبما له من الشأن المستقبل فى سياسة دول الوجود . وكان كثيرًا ما يستصحبه معه صغيرًا فى أسفاره المتعددة المتوالية إلى إفريقيا وآسيا . وفى هذه القارة اجتمع والد الفتى بوالد الفتاة على أثر صلح بعد قتال كما تقدم لنا ذكره ، وكان الولدان يومئذٍ ناعمين صغيرين ، يستقبلان الحياة ، فكان أول ما وقعت عينهما من أشيائها على الحب .

فبينما الأمير ذات يوم مطمئن بالولاية فى "منفيس"، يسوس الأمور وينظر فى شئون الجمهور، وردت عليه أوامر والده الملك بتوليته قيادة الأسطول الخارج إلى تأديب الهند الثائرة وإعادة السكون إليها . وأن يتخذ له نائبًا من مواضع ثقته يَكِلُ إليه حكومة منفيس إلى حين أوبته ، فوقع اختيار الأمير على أخيه لأمه وأبيه وكان فى طيبة ، فاستقدمه منها وألقى إليه مقاليد الولاية . ثم برح منفيس إلى السواحل حيث الأسطول بانتظار قائده الهمام . وكانت الأوامر قد صدرت له بالقيام فقام إلى بلد فيه العدو والحبيب كلاهما ، هذا ثائر العداوة والبغضاء ، وهذا ثائر الوجد والغرام .

* * *

الفصـــل الثالث

قصر النزهة بالضواحى

تركنا الأمير وأصحابه مأخوذين متأثرين بالمشهد السحرى الذى جرى أمامهم وكان موضوعهُ الفرسان الأربعة رسل "طوس" . وإن يكن السحر وعمله ومشاهده مما كان المصريون الأولون يعرفون تمام المعرفة ويألفون .

أما ما كان من أمرهم بعد ذلك فإن الأمير ما مكث أن استكتب بنتؤُر كتابًا إلى الملك بالمعنى المتفق عليه بينهما أولاً ، وبتفصيل الحادثة المفاجئة ثانيًا ، ثم استصدارًا لأوامره بشأن عذراءِ الهند . وبعد ذلك جمع إليه رجاله فشوَّرهم فى كيفية المسير إلى قصر النزهة بالضواحى الذى كان دار إقامة لعظماء الضيوف ، فأجمعت الآراء أن الأمير يخرج فى العصر إلى المعبد الأكبر فيقرب للآلهة القربانات الجديرة بهم شكرانًا لنعمتهم على أخيه بقدوم حبيبتهِ للديار المصرية ، ثم يبرح المعبد قبيل الغروب فيخرج من باب الظلام (أحد أبواب المدينة كذلك وكان خاصًا بالكهنة بأيديهم مفاتيحه وعندهم أسراره وطلاسمه) ويأخذ جانب السور الغربى فيستمر سائرًا حتى يبلغ باب "طيبة" . وهنالك يتنحى من يكون معه من الحاشية والحرس فيقفلون راجعين ، وتكون الإشارة قد سبقت إلى ضباط النقط بإخلاء الطريق من باب طيبة فقرية "البشنين" فعزبة "البقرة" فقصر النزهة بالضواحى . وهذا الطريق الطويل يقطعه الأمير وحيداً ليس معه إلا رجاءُ الآلهة ووفاؤُه لأخيه النازح الدار .

فلما كان الأصيل هيئت الركائب واستعدت . فأقبل الأمير فى حلته العسكرية وعلى رأسه شعار الإمارة الرمسيسية وهو يزهو بالحسام المجوهر ومنطقة الذهب

والطيلسان . وقد اتخذ لصدره زينة من أبيض الخز المحلى بالذهب المطرز بالياقوت والمرجان . وكان الفتى طويلاً معتدل القامة ، أشم ، ظاهر الشهامة ، واسع الجبين ، أسود الشعر خفيفه ، أسمر اللون باخضرار ، أسود العينين وسيعهما ، ممتلئ النظرات من الحياة ، حلو اقتبال السنين ، يراه الرائى فيستكثر له العشرين . وكان له جواد مارد من المرَّاد ، أدهم غائب فى السواد ، وكان سرجه من جلد النمر . فركب وسار وبنتؤُر إلى اليمين و "رادريس" إلى اليسار ، يدور بهم فيلق من الحرس جرار . وكان للأمير عبد أسود يقال إنه أحد أبناء ملوك النوبة ، وأنه وقع لرمسيس أسيراً ، فبعث به إلى ابنه مقترحاً عليه أن يُسَيِّره أمام فرسه أينما سار. فكان الأمير ينظر إلى الأسير إذ يَسير ويقول لبنتؤُر : أنت الذى عَلَّمْت أبى الكِبْر بأشعارك يا مؤدبنا العزيز . حتى أصبح لا يحسب الملوك وأبناءَ الملوك خلقوا إلا ليرْكَبَهم أو يُركِبْهم أولاده ، كأن فى إيماننا صكًا من الدهر بدوام الحال . وهيهات دوامها من المحال . فما الواحد منا فوق عرش جلاله وعظمته إلا مثلى فوق متن جوادى هذا ، لا آمنه لحظة أن يكبو فأكبو معه فيصيبنى ما يصيب . قال : صدقت يا مولاى . ولكن هل ترانى علَّمْت والدك البخل وهو الذى لهُ خزائن الأرض فى الطول والعرض . تمدها المستعمرات بالمال فتنمو فإذا هى شم الجبال . فلا تلمنى إذن ولا تظلم الشعر ، وإنما هى طباع فى أبيك يسرنى أنى لا أجدها فى الأمير أخيك ولا فيك . قال : وهبها كانت أو لا تزال موجودة . أليس فى صحبة مثلك ما يمزقها وأمثالها من قبيح الطباع . قال : عشت يا مولاى ولا زلت من يذكر الفضل فيشكره ، فما نسى الفضل إلا غبى ولا جحد الفضل إلا لئيم :

إن كنت ذا فضل فكنه على ذكىٍّ أو كريم
فالفضل ينساه الغبىُّ وليس يحفظه اللئيم

فعاد الأمير فقال : حقيقة إن أبى عجيب فى بعض أحواله وهذا منها . وإنى لا أعلم له عطية عندى غير خمسين لؤْلؤَة من أعز اللؤْلؤِ ، هى الآن فى جيبى وسأُقربها لأمون . وإنى لأرجو أن سينفعنى القربان ؛ لأنها أعظم ما جاد به بخيل إلى الآن .

ثم إنه حوَّل الحديث إلى "رادريس" فقال : لا أذكرك يا رادريس أن غداً فجراً تبتدئ حراسة قصر النزهة بالضواحى . قال : هذا ما كنت مشتغلاً بتدبيره الساعة وأنتما فى الحديث يا مولاى . ولكن من أى الفرق تأمر أن نستعير الجند اللازم لذلك ، فإن الحرس أصبح مشغولاً كله بحيث لم يعد الأخذ منه ممكناً . قال : فليكن من فرقة "فتاح" . قال : وكذلك مخفر القصر يا مولاى ، فلقد مررت به من أيام فوجدت غالب أخشاب مربعة متكسرة والأوتار بالية متغيرة والمعالف متهدمة خربة . فإن أمرت كتبنا إلى ديوان الجيوش ندعوه لترميم ذلك كله بمعرفته وعلى نفقته . قال : ذلك من عمل وظيفتك فتصرف كيف شئت ، وليتكفل الديوان أيضاً بمئونة الجند أربعين يوماً ريثما تستريح الأميرة ، ثم نشرع فى ترحيلها إلى بلاد طيبة ، ومنها إلى بلاد أبيها لتخطب بالصورة اللائقة . وكان بنتؤُر منصتًا يسمع فقال : ما هذا الكلام يا مولاى وكيف تسمح ببراح الأميرة منفيس ؟ قال : إن كريمات الملوك يا بنتؤُر لا يؤخذن من أيدى اللصوص الأشقياء ، ولكن من قصور عزهن وعن أيدى آبائهن الفخام . ولهذا صار لا بد من ترحيل الفتاة إلى طيبة مبجلة معظمة معززة مكرمة ، واستئناف الخطبة بعد ذلك على الوجه اللائق بنا وبها ، وبمقتضى ما تقف عنده المخابرات بين حكومة جلالة الملك وبين حكومة الملك أبيها . قال : هذا ما كدت أسبقك إلى القول به لولا أننى أخاف بغتات الأمور ، وأخشى تقلبات الحوادث والأحوال . قال : ليحدث ما عساه يحدث ولتنصبَّ المصائب جملة ، فأما عن الشرف فلا يحول بنو رمسيس . قال : ولكن لا تنس لأخيك أنهُ محب عاشق صب يا مولاى . قال : ليس الحب إلا قطعة من الشرف ومن يضيع الكل ليحفظ الجزءَ فذلك عين السَّرفُ . قال : بنفسى أنتم يا أولاد رمسيس .

سيـــر الكبـــار كـــبيـــرةٌ وأجـلـهـــــا هـذا الـسـلـوكْ
إن الشـــهـــامـــة خيـــر مـــا حـــملـت مع الـتـــاج المـلـوكْ

وكان المعبد قد لاح للقوم فامتنعوا عن الكلام . وخرجوا من مقام ليدخلوا فى مقام حتى إذا وصلوا استأْخر الحرس ينتظر على بعد وترجل الأمير وصاحباه . وكان رئيس الكهنة قد خف فى جماعته لاستقباله . فبالغوا له فى التحية ووفوه إكباره

وإجلاله ، ثم دخلوا به ، فما زالوا يتنقلون بين أفنية المعبد وإيواناته وصحونه وطرقاته ودهاليزه ورواقاته ومقاصيره وحجره حتى جاءُوا المحل الأقدس للمعبد ، وهى الحجرة الخاصة بالأمير ، لا يطرقها سواه ، ولا يدخلها على آمون إلاَّه . وهنالك استأخر الكهنة ينتظرون . ودخل الأمير فاستقبل مثال الإله آمون ، ثم خرَّ جاثيًا ويقول فى دعائه :

" أمون يا محبوب الرماسسة ومحبهم . ويا أباهم وربهم ولواءهم وحزبهم . أنت العلوم والأسماء ، وأنت الحقيقة الزهراء ، الواحدة الشماء . منك الأرض ومنك السماءُ . وإليك العوالم والأشياء . هذه خمسون من اللؤْلؤِ المكنون الذى أخرج بحر علمك الزخار قبل أن تخلق البحار ، وجاورك قبل جوار الماء والتيار فاستعار فاستنار واستدار وصار إلى ما إليه صار ، أُزلفها لك قربانًا وأقربها شكرانًا ورضى وامتنانًا وأسأَلك القبول يا خير مسئول".

ثم لما فرغ من دعائه تقدم إلى المثال العالى ، فوضع ذلك العقد الغالى على صدره الحالى المتلالى المغشى باليواقيت واللآلى . وبعد ذلك وقف كالمريب يجيل طرفه فى جوانب الغرفة . وإذ أيقن أنه محجوب عن العيون وأن لا رائى ثم إلا أمون عمد إلى أحد الصناديق السرية وكانت ثلاثة ، وكانت خاصة بالأمير ففتحه ونظر فإذا فى درجهِ الأسفل ورقة وكانت مكتوبة بقلم سرى مصطلح عليه فأخذها فقرأ

أخبار اليوم :

" ليأخذ الأهبة والعدة مائة من أبطال الحرس . وليكونوا من أول الليل فى الصحراء بالقرب من مدخل طريق الخفاء . وليقيموا هناك إلى ما بعد منتصف الليل . فإن سمعوا فى هذه المدة ضرب نفير يردد من جانب الطريق ، فليتحركوا من فورهم لنجدة رجال طوس .

- بعث الكهنة إلى إخوانهم فى طيبة بالشكوى من استمرار بقاء بنتؤُر ورادريس فى معية الأميرين ، وبخبر ظهور عذراءِ الهند ، وبأنهم اتخذوا التدابير اللازمة لمنع وصولها إلى الأمير ، فلم يبقَ عندى شبه ريب فى خيانة الحاجب والخادم الخصوصى فليقبض على أوراقهما وليعدما الليلة .

- أصبح من المحتم المستعجل أن يسعى الأمير فى تغيير قائد الفرق الاستعمارية . فإن القوم أوشكوا أن يميلوا رأسه ولا يخفى ما فى ذلك من الخطر على حزبنا والسلام".

فأخفى الأمير الورقة فى جيبه وخرج وهو لا يكاد يملك حركاته من الغضب ، فمشى والكهنة وأولادهم صفان له فى الطريق عن اليمين وعن الشمال . حتى إذا صار خارج المعبد أمر أن يفتح له ولبعض رجاله باب الظلام . فقيل له إنه مفتوح . فزاده ذلك غضبًا وأيقن كل اليقين أن الحاجب والخادم هما السبب . فدنا عندئذٍ من رادريس وناوله الورقة خفية . وقال : هذه أخبار اليوم فانظر ما يتعلق منها بوظيفتك ، فسارع إلى إنفاذه بالحرف الواحد وعلى الأخص أمر الحاجب والخادم . قال : سمعًا وطاعة يا مولاى . قال : والآن خذ الحرس فارجعا ، وأنا يكفينى بنتؤُر والعبد . وكان الليل قد دخل فى ساعته الأولى فركض الحرس خيلهم خلف قائدهم الهمام "رادريس" آيبين إلى المدينة . ومشى جماعة من الكهنة فى ركاب الأمير حتى اجتاز باب الظلام ، فانطلق يسير وليس معه إلا مؤَدبه وعبده وهناك استأْذن الكهنة فأذن لهم فانثنوا راجعين .

* * *

الفصـــل الرابع

ما كان يجرى فى طريق الخفاء

كان الفصل نيلاً . والليل خفيفًا ثقيلاً ، جفيفًا بليلاً ، صدئًا ثقيلاً ، لا قصيراً ولا طويلاً . وكان الليل فى طفولته الأولى لا ينفع الضال ولا يغنى عن السارى فتيلاً . والأرض يبدو عليها الزرع ويتخللها الماء ، فهى سوداء للناظر خضراء حمراء . وكان على الجانب المهجور من الصحراء وهو المعروف بطريق الخفاء نحو عشرين فارسا من الخفاف الأقوياء متوسدين الثرى ينتظرون على الظلماء ، وخيلهم على البعد بعضها رابض يجذب بالغبراء ، ومنها الناهض المنيف بأنفه فى السماء ، وبين الخيل والفوارس هودج معمور بربته "آنس" وهى فتاة حلوة المحيا فى مجموعه ، نضرة القوام الرشيق سوداء العينين بقليل ضيق :

إذا برزت أبدى النهار قميصها ... يغير به شمس الضحى فتغارُ

وإن نهضت للمشى ودَّ قوامها ... نساءٌ طوالٌ حولها وقصارُ

وهى قد جلست خلف الهودج مطرقة أسيفة . تنظر تارةً إلى السماء كالضارعة ، وطوراً تنظر فى يدها اللطيفة . وكان لدى الفتاة هنالك نمرٌ بديع فى شكله عزيز فى نوعه ، وقد ربض بجنبها آنسًا بها مطمئنًا بقربها وحدقتاه الحمراوان لا تشتغلان لحظة عن شخصها الفتان ، ولسان حاله يخاطبها بهذا المقال : أنا يا مولاتى الخدم والحشم . وأنا الوطن والأهل والنعم ، وأنا سيوف أبيكِ المجردة تحميك . وستبدى لكِ خطوب الزمان كيف يخلص ويفى الحيوان .

فبينما الفرسان فى السمر ينتظرون على المكان . وكان الليل قد ذهب ثلثه الأول أو كاد ، لم يدروا إلا بخيل تنهال من كل جانب وتحوش عليهم السُّبل والمذاهب ، فنفروا عن مجلسهم منذعرين ثائرين ، كما أطلقت إبلاً صعاباً أو هيجت "آساد" إغضاباً ، يصيح بعضهم ببعض أنهم يا قوم .. متطوعة المعبد هاجمونا ليخطفوا عذراءَ الهند . فويل لنا من "طوس" إن هى أُخذت منا . وما هو إلا كلمح البصر حتى تلاقى الرجال واشتبك القتال ، وزاد اختلاف السلاح فى الأهوال فضرباً بالسيوف ورمياً بالنبال ونزلا بالبلط الثقال ، وحملاً بالمزاريق الدقاق الطوال . ولم يمض يسير زمان حتى سقط ثمانية من رجال طوس بين قتيل وجريح وأُسرَ منهم ثلاثة ، وأوشك الباقون أن تخونهم الأقدام وتخذلهم السواعد فيخروا حول الهودج - رايتهم - هالكين . وعندئذ سمع ضرب نفير يردد ولم يشعر العدو الكثير العدد الفرح بالظفر إلا ونحو مائة من ليوث الأبطال يتضاغطون عليه كما تتضاغط الجبال فلقيهم حق لقائهم حملاً ووثباً وطعناً وضرباً كأنما يأبى إلا عذراء الهند يأخذها غصباً . فعاد القتال أشد وطال السيف وامتد ولكن المتطوعين كانوا قد تمكنوا من أخذ الهودج ومن فيه فسار به أربعة منهم خلف حصن حصين من ظهور إخوانهم المقاتلين وعذراء الهند تستجير ولا مجير . وتستصرخ ولا نصير . وتصيح حارس حارس إلىَّ يا حارس أين وفاؤُك هذا وقته . أتخذل مولاتك وابنة مولاك وهى لم يبقَ لها من ملك الدنيا سواك. أما حارس فكان قد نفر بادئَ بدءٍ كما هى طبيعة السباع ثم زاده نفوراً أنه كان خارج المعركة يرأرئُ بحدقتيه كالمفتش عن مكان مولاته فلا يراها . فما صدق أن وصل صراخها إلى خروق المسامع حتى طار إلى الصوت وثباً كأنه الأفعوان النافر . فرمى بكتلة جسمه الجهنمية فى صدور الرجال الأربعة فمزقها شر ممزق ، ثم إنه وقف بجانب مولاته رافع الرأس بارز اللسان من شدة الخفقان ولسان حاله يقول : هل من مزيد . هذا ما أصاب عذراء الهند . أما ما كان من أمر المقاتلين فإن استئناف القتال بينهم لم يلبث أن انجلى عن انتصار رجال "طوس" وأبطال الحرس ، وقتل أكثر المتطوعين . غير أن هؤُلاء لم يتقهقروا خطوة ولم ييأسوا حتى كأن هناك سلاحاً آخر وعلى هذا السلاح كانوا يتكلون . وفى الحقيقة كان وراء صفهم كاهن وكان

كامنًا يتربص . ثم تبين أن السلاح قد خان وأن الثبات أمام العدو لم يعد فى الإمكان ، فأخرج آلة تقذف مسحوقًا أبيض كريه الرائحة ، فسلطها على الأعداء فكان كل من علقت ثيابه شيئًا من هذا المسحوق من القوم يصفر لونه ويضطرب جسمه ويميل رأسه ثم يسقط مغشيا عليه . فحين بصر رجال "طوس" ذلك أخرج أحدهم صفارة فضرب بها ثلاثًا فأقبل على القوم رجل جهنمى مهول يهدر كأنه الأسد الإفريقى أو هو الغول ، وكان كذلك كامنًا خلف هضبة يتربص . فلما رأى ما حل برجاله وإخوانهم أبطال الحرس أخرج من صدره شريطًا طويلاً من ورق أخضر فأشعل طرفه فتصاعد منه دخان متكاثف طيب الرائحة ، فكان من يتنشقه من المصابين بالمسحوق يستفيق فى الحال ثم يخف نشطًا سريعًا إلى القتال ، وإذ رأى الكاهن ذاك أبرز شبه مرآة صغيرة شديدة الضوء مستديرة ، ومد بها يده من بين الصف ثم أدارها فى وجوه المقاتلين فكان من تأثيرها الوقتى فى أعصابهم الارتعاش والارتعاد واضطراب الأجساد ، حتى لقد كان السلاح يسقط من أيديهم فلا يملكون له من منع ولا استرداد . فلم يكن من الرجل الجهنمى إلا أنه صرخ صرخة تميد لها جبال الحديد ويقصر عن مثلها الأسد الفتى الشديد ، فزالت تلك الحالة الاضطرابيَّة ورجع القوم إلى حالتهم الطبيعيَّة ، وبعد ذلك تقدم نحو الكاهن محتدًا بالغضب يقول : مالى ولهؤُلاء المساكين أعذبهم فَوَربى الذى أعبد لا أخذت سواك يا كاهن النفاق ولا أخذتك إلا بنظرة كما يؤخذ صغار السحرة . ثم نظر إليه نظرة فراح الكاهن مأخوذًا مسحورًا لا يملك لنفسه حسًا ولا شعورًا . وأُسِرَ من كان باقيًا من المتطوعين فخلا المكان للرجل الجهنمى وحينئذٍ ارتجل نظرة إلى الأفلاك ثم قال : لم يبقَ من النصف الأول من الليل إلا مسافة الذهاب إلى القصر فليرجع إذن أبطال الحرس بسلام مشكورين . وليحملوا معهم أسرى المتطوعين إلا هذا الكاهن ، فإن لى ولهُ شغلاً، ثم جعل رجاله قسمين وكانوا اثنى عشر فسار ستة منهم بالهودج قاصدين وجهة القصر ورجع معهُ الباقون يسوقون أمامهم الكاهن إلى عذاب مستمر .

* * *

الفصـــل الخامس

الأمير فـى الطريق

تركنا الأمير ومؤدبه وعبده آخذين يمين السور الغربى يسيرون فى حماية السور وتحت مدارع الظلماء ، آتين باب طيبة ومنه إلى قصر النزهة بالضواحى . والآن نرجع إليهم فنقول : كان الأمير يقول لصاحبه وهما فى المسير يتحدثان : أرى يا بنتؤُر أن فى الوقت ما يكفى لنذهب فنؤدى الواجب نحو دعوتنا المقدسة ، ثم لنثنى فنستقبل الأميرة . قال : لعل مولاى يشير إلى الجمعيَّة فإنها تنعقد فى هذا المساء . قال : نعم إلى ذلك أشير . قال : وهَبْ أن الوقت لك يمكنك من حضورها هذه الليلة ، فإن الأحرار يعذرونك يا مولاى . وحاشاهم أن ينالوك بفكرة سوء . أو يظنوا بك إلا الخير فيما يظنون . قال : ولكنى وأخى لم نُعَودهم التقصير من قبل . ولا أحب أن نعتاده معهم . فالنفس مع العادة بنت مرة . قال : ذلك أحب إلىَّ يا مولاى .. بل أنت إن فعلت زدت مكانة فى نفوس القوم إلى مكانتك ، وأصبحت منزلتك فى القلوب منازل . قال : ولكن الوقت إن سمح بالذهاب إلى الجمعيَّة فهو لا يحتمل لنا أن نرجع إلى المدينة فنغير خيلنا ولباسنا فما العمل إذن ؟ وماذا ترى ؟ قال : لا يفكر مولاى ولا يضجر فإن "رادريس" لا يفوته فى أمر الحزب صغيرة ولا كبيرة ، وهو لا شك عالم أن الجمعيَّة تلتئم فى هذا المساء فلا يقصر عن المبادرة إلينا بما نحتاج من خيل ولباس . قال : هذا إن وجد سعة فى الوقت وما أظنه واجداً . قال : بل سيجد يا مولاى ، إذ حيث الأمر كما قدمت لك يتناول مصلحة الحزب ويهم الأحرار ، و "رادريس" هو ذلك الغيور . ألم يكن القائل للملك إذ هو فى مقابلاته الرسمية إذ تُحيط به حاشيته ووزراؤُه : أيها الملك ، إن عفريت الحبشة ومدوخ إفريقيا لا يقبل أن يتقدم عليه صغار أولاد الكهنة

فى شرف الدخول عليك للتبريك ، حتى نشأ عن ذلك تركه الأمور واعتزاله الخدمة حولين كاملين :

رأيت ملكًا بلا استقامة ... لا صدق فيه ولا سلامة
فعفتُ باب الأمور حتى ... خرجت بالعز والكرامة
والحر فى حيثما تولى ... يقوم للخلق بالخدامة

قال : نعم هو ذاك الشهم بعينه . وإنى ليعجبنى له قوله فى خطبته المشهورة التى ألقاها على جيوشنا المظفرة بالحبشة : "أيها الجند أنتم منذ كنتم آباءَ التاريخ وأصحابه وإليكم ينتهى كتابه . فإياكم أن تعطوا العدو منه سطرًا واحدًا ، فما خلق الذل إلا لأُمة ذات مجد غابر لا تستحى من تاريخها ".

ثم ما زال الأمير وصاحبه يمجدان الحارس الأول فى غيبته ويتذكران الكثير الطيب من سيرته وقد خدعهما الحديث كعادته فلم يدريا إلاَّ بباب طيبة يلوح لهما كأنه الطود الشامخ ، أو البرج المشيَّد الباذخ . وهنالك انتحيا طريقًا مختصرًا إلى قرية "البشنين" فاندفعا يسيران . وكانت على ذلك المكان شجرة ملتفة الأغصان متكاثفة الأفنان كأنما أُرضعت الزمان . فلما صارا على خطوات منها ألفياها تموج . وآنسا عندها حركة فارتابا لأول وهلةٍ . وارتاعا لما عسى يكون وراءَ الظلام . ولكن العبد كان قد بلغها قبلهما ، فوقف ثم التفت وراءه ينادى : ليقبل مولاى فى أَمان فإنهم رجاله ينتظرون قدومه . فأقبل الأمير وإذا "رادريس" يتقدم للقائه فقبَّل يده . ثم دعاه وبنتوُر ليترجلا ففعلا . وانثنى الأصحاب الثلاثة إلى الشجرة فلبثوا فيها برهة من الزمان . ثم برزوا فى زىّ غير السابق المعتاد ، وعلى جياد غير تلك الجياد . وعندئذٍ مشى العبد وسائر الرجال بالثياب والخيل راجعين إلى المدينة . وسار الأمير وصاحباه لما هم إليه قاصدون .

* * *

الفصـــل السادس

عذراءُ الهند فى الطريق

تركنا عذراء الهند تسير إلى قصر النزهة المأنوس فى ستة من رجال "طوس" . والكل بالحارس محروس . والآن نعود فنلوى عليها بالحديث فنقول : كان من أمر الفتاة أنها لما اجتازت طريق الخفاءِ واستقبلت الآهل المسكون من الأرض لأول مرة فى أيامها تحت سماءِ مصر ، لم تلبث أن ثاب إليها بعض الأمل بالنجاة ، والاستبشار بعودة أيام الحياة . إذ شعرت أنها تمشى على أرض الاطمئنان ، وتحت سماءِ العمار والأمان ، وبمرأى ومسمعٍ من بنى الإنسان ، حتى لقد شغلها الأنس بالمكان وفرط السرور بما كان عن حارسها العزيز ، الذى عاشت وعاش معها عمرا لا هى تتلهى عنه لحظة ، ولا هو يعطى عنها صبرا ، غير أنها ما لبثت أن مر خيال النمر بفكرها وتمثلت لها صورتهُ بكل سبيل ، فأبصرت قدامها تتفقده والتفتت حواليها تتعهده ، ثم طالعت خلفها لعلها تجده . وإذا الحيوان لا أثر له على المكان . فظنت بادىء بدء أن لا شىء ؛ وأنه ربما كان متغيباً فى بولة ، أو مبتعداً يجول له جولة . حتى إذا طال أمد الغياب وأبطأ النمر فى الإياب ، أخذ الفتاة القلق وحق لها أن ترتاب . فنظرت وإذا هى لم يبق معها إلا ثلاثة من الجماعة وكانوا ستة من قبل ساعة ، فزادها ذلك جزعًا وقلقًا . وامتلأت من الأمر فزعًا وفرقًا ، لا سيما إذ كانت ترى الظلام يمتد كثيفًا ، وتشعر بالطريق كأنه يعود كما كان موحشًا مخيفًا ، ثم لم يكن كلحظة عين حتى صار الثلاثة اثنين ، ثم صار الاثنان رجلاً واحداً فرداً . وحينئذٍ أدركت الفتاة دخيلة الأمر ، وعرفت من أين مأتى الشر . فتملكها اليأس . ومن ييأس لا يخف . فقصرت لجوادها العنان

فوقف . ثم نظرت إلى الرجل عن ريبة فيه ، وأمرٍ تحت اللثام يخفيه . فقالت بصوت يقطعه الغضب : إن ما يجرى من ساعة لم يدع بنفسى شكًا أيها الغلام . إنك ذاك الخاسر الفاجر الوغد اللئيم الغادر الشقى ابن الشقى . فإن حسبت أن قد أصابت المصيدة . وتمت لك المكيدة لأنت إذن فى وهم طويل . فإن الأمانى والأحلام تضليل ، وإن العنقاء ما إليها سبيل . فعند هذا الكلام لم يكن من الغلام إلا أن نزع اللثام وقد عيل صبره لعناد الفتاة كما طالما عيل لعناد الغرام . فقال : نعم يا مولاتى أنا ذاك الخاسر فى تأميلكِ فأسعفيه ، الفاجر تهتكًا بكِ فبرريه . الوغد ذلاً لكِ فارفعيه . اللئيم الغادر اضطرارًا فاعذريه ، ولا تلوميه . قال هذا وتأوه واشتكى ، ثم ما تمالك أن بكى ، فقطع الدمع عليه الكلام ، فخر مترامياً على الأقدام ولسان حاله يقول فى الاسترحام :

وسألتهم فتمنعوا استعطفتهم ... فترفعوا فهويت للأقدام

طوراً أقبلها وطوراً أشتكى ... فعرفت كيف إجابة الأصنام

وفى الواقع كانت الفتاة تتلقى هذه التضرعات وهى معرضة نافرة كأنها المقدور إذا ضرب ، أو القضاء فى حال الغضب ، يرميان على الباكى دمعتهُ فيعيدانها إلى القلب جمرة لتلظى . ثم إن الفتى رفع رأسه لينظر هل شفعت له الدموع ، أم أهل نفعت الذلة والخضوع . فلما لم يجد لأمرهِ نجاحًا ورأى الفتاة لا تزداد إلا نفرةً وجماحًا :

بثثت شكواى فذاب الجليد ... واشّقق الصخر ولان الحديد

وقلبك القاسى على حالهِ ... هيهات بل قسوته لى تزيد

وثار الدم فى رأسه وغلبهُ جنون الغضب على حسه ، فنفر كالأسد المجروح عند غايات يأسه . يصول كل مصالٍ فى الوعيد ، ويجول فى كل مجال من التهديد وهى لا ترجو لغضبه وقاراً ، ولا تزيده إلا جفوة واحتقاراً . فلم يكن منه حينئذٍ إلا أن جذب إليه الهودج بعنف فمال . ومالت معه الأميرة فسقطت على وجهها متعفرة مهانة . ونفر الجواد الذى كانت تركبه فلم يكن أشد منها جماحًا فى وجه هذا المغتصب ولا نفاراً

عن كفه ، وهو قد انقض عليها مستلاً خنجره يخبرها بين أن تبذل العرض أو تسامح فى الروح . فبينما الفتاة على هذا الحال الأنكد الأسوأ تحت أحد الخطرين العار أو الموت وهى تستغيث وتضرع وتسأل أن يسبق الثانى الأول ، لم تشعر إلا بجواد قد وقف بغتة عند رأسها ، ثم بفارس قد نزل عن الجواد وهو يصرخ قائلاً : من هذا المتهجم على الأمن المستبيح الجرعة تحت سماء منفيس . فاضطرب لصرخته الغلام وسقط الخنجر من يده ثم خار لا يبدى حراكًا ولا يملك عن الأرض فكاكًا . فتقدم الفارس عندئذٍ إليه يسأله من أنت؟ تكلَّم يا فتى لا تخف. ثب إلى نفسك . والغلام واقف وقفته لا يرفع العين ولا يأتى جواباً . فتركه الفارس وتقدم نحو الفتاة يسألها قائلاً : أنا الأمير .. فمن ربة الهودج التى أنقذناها من يد هذا الباغى ؟ فنهضت الأميرة وقد تأثرت بسماع لفظة الأمير ثم ضاعف تأثرها أنها عرفت الصوت الذى لم يكن تغير ، ولكن شب كما شب صاحبه . فرفعت عينيها تنظر وكان الفارس قد زحزح اللثام ، فإذا هى بأعطاف "آشيم" ومناكبه فدنت تزيده نظراً . فإذا الوجه ذاك الوجه بعينه وصفاته ولونه حتى إذ لم يبق فى نفسها شك مريب .. إنه الأمير وإنه الحبيب ، هاج الموقف لها وجدها فمالت ، فألقت بغصن قوامها الناعم بين ذراعيه فتلقاها الأمير ولكن ببطن راحتيه وهو مفضٍ حياء يلعثم قائلاً : لقد أخذتنى أيتها الأميرة مكان شقيقى آشيم فغضى عليك قناع الحشمة . واعلمى أننى كما أمثل آشيم خلقة إلى هذا الحد فقد أحكيه كرم أعراق وعظم أخلاق . وأحفظ له فى القلب كما تحفظين الأعلاق وهو الآن غائب ثم تكون له إليك أوبة مشتاق ما بعدها بإذن الآلهة فراق . فاستأخرت الأميرة عندئذٍ مجفلة ثم قالت بصوت يقطعه البكاء وترققه الاستغاثة والاشتكاء : يا للسماء لهذه الخالدة الشقاء الأبديَّة الإقصاء . وأين آشيم الآن أيها الأمير وبأى مكان ؟ قال : بالهند يا مولاتى يطفئُ نار الثورة فيها . قالت : لقد رأينا فى مجيئنا سفنًا تحمل أعلام جلالة الملك ، وهى تترامى بجنودها آفاق الهند فعسى "آشيم" فيها ولعله هو حاميها . قال : نعم يا مولاتى فإن الأسطول الذى عارضته قادمة هو أُسطول "فتاح" الذى ليس على المياه الأجنبيَّة فى هذه الأيام غيره ، وآشيم هو

أميره الذى بيده زمامه . فعادت الفتاة حينئذٍ فبكت واستغاثت واشتكت ، ثم رددت يا للسماء لهذه الخالدة الشقاء الأبديَّة الإقصاء .

وفى هذه الأثناء أقبل ثلاثة من الفرسان متلثمون وعليهم أردية حمر وسلاح فترجلوا دون الأمير . ثم تقدم أحدهم فقبل مواطئه فسأله الأمير قائلاً : من الرجال وما حاجتكم ؟ قال : من أصحاب الرئيس "طوس" يا مولاى أرسلنا لنأخذ هاموس ابنه هذا المسحور . قال : ومن سحره ومتى وأنا قد عهدته من لحظة خالصًا سليمًا يشرع فى الجناية وكنت أحسبه مأخوذًا بهيبتى . قال : لا .. بل بإرادة من الرئيس خفيَّة يا مولاى . ولعله كان ينظر إليه فى تلك اللحظة بمنظارٍ من روحانياته كشاف . فلما رآه وقد هم بهذا الملك المطهر حبسه كما يرى مولاى ثم أرسلنا لنأتى به . قال : ولكن طوس رجل قاس . وأخاف إن أنا أذنت لكم بأَخذ غريمى أن يقتله أو أن يسومه من العذاب ما هو أشد من القتل . قال : ليطمئن قلب مولاى من هذه الجهة فليست عقوبة "هاموس" عند أبيه فى كل مقترف إلا كلمة يقولها له همسًا هى أشد عليه مضضًا من وقع الحسام المهند . فأطرق الأمير عندئذ برهة ثم رفع رأسه فسأل الرجل قائلاً : ألهذا الفتى أمّ ؟ . قال : لا يا مولاى . قال : إذن فقد ماتت فمن كانت ؟ قال : هذا ما أجهل يا مولاى ويجهله سائر أصحاب طوس . قال : إذن فخذوا ابن الزناء فقد فهمت .

* * *

الفصل السابع

حـــزب الأحـــرار

كان أول من ألقى أساس هذا البناء المعارض لبناءِ الكهانة ، السور المناهض لأسوار الديانة ، فى أوائل حكم رمسيس الثانى "سيزوستريس" فرعون ملك مصر . وكان الملك نفسه هو روح ذلك العصر الجديد الذى به قام ونظم عقد هاتيك المبادئ الحديثة . وهل عقد بغير نظام وإن كان لم يصدر منه بدلاً بعمل أو اشتراك أو ارتياح لإتمام . وإنما أصاب به عقلاءُ الأمة يومئذ ملكًا فتى ذكيًا جريئًا مربى كما يربى أبناءُ الأفراد بين حياة الشعب العامة وبين الحوادث والأحوال . فاستقبلوا دولته حق استقبالها وعلقوا بأيامه الآمال وكان ضغط الكهنة على خاصة الأمة وعامتها وبالأخص رجال الحكومة على اختلاف درجاتهم وتنوع وظائفهم شديدًا متواصلاً زائدًا عن حده . فكان العقلاءُ الأحرار ينكرون عليهم كل هذا التوسع فى النفوذ ، وتناول حقوق الملك المقدسة والاختصاص بالأمر والنهى فى البلاد . أما الملك فقد لاحظ الأمر من أول يوم بعين مُبصرة . وارتاح لنشأة هذا العدو المستتر المهدد للكهنة شركائه فى الملك بغير حق شركة ، والمنازعيه الحكم بغير حق نزاع . إلا أن ولعهُ الزائد بالحروب وشغفه الجم بالفتوحات كانا يمنعانه من تأليب عناصر الحكومة بعضها على بعض وفتح حقبة للمشاكل الداخليَّة ربما تطول ، فتحول دون ما هو مشغوف به مشغول ، فكان يتغابى عن أعداءِ الكهنة ويواصل هؤُلاءِ المعاملة الحسنة ولهذا بقيت النهضة أدبية محضة لا تجوز النفوس ولا تتعدى الخواطر والأفهام ، إلى أن أخذ رادريس وبنتؤُر كلاهما حقه فى التَّرقى فى خدمة المملكة . فعهدت إلى الأول قيادة الجيوش الاستعمارية العامة ، وعُيِّن الثانى أستاذًا عامًا للأدب والفلسفة فى العاصمة ومؤدبًا

للأميرين الشقيقين "آشيم" و "بسمتوس" ابنى الملك من الملكة زوجته الشرعية . وكان ذانك الرجلان من أكبر خصوم الكهنة فى السِّر والجَهْر ، وكانا واحدى عصرهما فى عالمى السيف والقلم . نافذى السلطان الأدبى على أبناء طائفتيهما . فهذا تنجذب إليه الجيوش كما تنجذب إلى النصر . وهذا فعول بيانه بالألباب ما تفعل الخمر . فلما تقلدا منصبيهما الجديدين ، تقلداهما على الفور سلاحًا ماضيًا لمناهضة الكهنة والسعى فى رفع نير ذلك الاستبداد على العباد والبلاد .

ثم كان من سعدهما أن العدو مُنى بفقد دعامة من أرفع الدعام وركن من أركان بنائه الجسام ألا وهو "طوس" الكاهن الأعظم لطيبة ، أى رئيس الديانة فى القطر كله . ولم يكن مات ، ولكن فر من خدمة الديانة لأسباب سنوردها بعد ، وعلى وجه كَدَّر صفو القوم تكديرًا وانسحب على أثر طوس كثيرون من أذكياء الكهنة انضموا إليه فتكوَّن من جميعهم حزب مناوئٌ للديانة شديد على رجالها رهيب .

وكان الملك قد فرغ من فتح الأرض ، ولكن بعد أن أصبح كهلاً غير قادر المشيب . وكان لم يزل فى موقف النظارة تلقاء هذه الحرب الخفية وهو يشكو مع الشعب من عتو الكهنة وعبثهم بحقوقه موروثها والمكسوب . ولكن كان يغدو على مداجاتهم مغلول اليد ، قليل الحيلة ، ليس له عن الأمر معاث . إلى أن شب "آشيم" وكان أذكى أولاده وأنبلهم وأشجعهم قلبًا . فاغتنم الملك هذه الفرصة لينذر الكهنة . فقرع لهم بفتاه العصا لأول مرة ، حيث استعمله على منفيس والأقاليم الوسطى وجعل فى خدمته "رادريس" ، و"بنتؤُر" بالرغم من معارضة الكهنة وقيامهم فى وجهه لمنع هذا التعيين .

ومن ذلك العهد بدا حزب الأحرار للوجود يمتد من منفيس إلى طيبة فأقصى أطراف المملكة . وظهر الأمير فوق الكهنة كرمًا وجودًا وتواضعًا ورحمةً ، وإدناء للأمة ومخالطة لها واشتغالاً بها إلى غير ذلك من الصفات التى كانت أضدادها فى أبيه . فتهافتت القلوب على كلمته ، وتسابقت الخواطر إلى تلبية دعوته . كل هذا والحزب خلف الحجاب والعمل مستتر والنار كامنة فى أغوار الرماد .

والآن إذ وقف القارئ على هذا البيان المجمل عن سيرة الحزب فلينتقل معنا إلى مركز قرية "البشنين" ، حيث فيما وراء الجانب العامر الآهل منه منزل متوسط بطبقة واحدة مبنى بالآجر (الطوب الأحمر) ، مبيض بالجير ، ظهره إلى المساكن ، ووجهته خالصة إلى الخلاء ، ولهُ مدخل معتم حقير . وهذا المدخل عبارة عن خمارة فيها بعض أرائك للجلوس وبها منصة عليها كثير من أدنان الخمر وسلل الفاكهة . وكان المنزل والخمارة لشاب من أهالى القرية . وكان عزبًا منفردًا ، ليس معه إلا خادمان وصحبانه من قديم زمان . وكان لا يقبل فى خمارته إلا طلاَّب الراحة من المسافرين أو الآيبين من الصيد والقنص التعبين . وقد جعل الأسعار فادحة حتى تجافت عن محله الأقدام ، وصار كل من دخله مرة خرج مكويًا بغلائه فلا يثنى . فكان أهل القرية وعلى الأخص أُلاَّف الخمر منهم يرمقون الشاب بعين المقت ويسلقونه بألسنة حداد . فيزعمون أن والده ترك له ثروة واسعة ، كان قد أسسها من تجارته العظيمة فى ورق البردى ، فلم يحافظ الفتى عليها ، بل بددها فى أقصر زمان . ولم يستبق من العقار إلا ذلك المنزل ، فاتخذ فيه حانة وراح يعيش ببيع الخمر . ثم كان السكيرون من بينهم يزيدون فيقولون : وليته ناجح فى عمله فإنه يرفع الأسعار ، ويعطى بمقدار ، يصرف الزوار ، فلا الليل يبيع ولا النهار .

وكانت الخمارة فى الليلة التى نحن بصدد حوادثها مفتوحة مشتغلة . وكان فى جوفها مصباح ضعيف الضوء عنده أريكة . وعلى هذه الأريكة رجلان يتحادثان وبين أيديهما شيءٌ من الخمر والفاكهة . فكان أحدهما يقول للآخر: إن الأمير فى شغل الليلة يدبر لعذراء الهند مبيتها فى قصر النزهة . قال : نعم وأى شغل ؟ قال : فهل تظنه يُشَرف الجمعية بحضوره كالعادة ؟ قال : ومتى عهدنا فى الأمير قلة الوفاء حتى ندأنا نظن به الظنون ؟ قال : حاشاه وتعالت مروءته . وإنما أنا أنظر إلى كثرة أشغاله وخطارة ما يباشر من الأمر . فالتفت الأول حينئذ إلى رب الحان وكان عند منصته مشتغلاً بترتيب الدنان .. فسألهُ : أيها الرئيس كم عندك الآن من الإخوان ؟ قال : تَمُّوا خمسين ، ولم يبق من لم يحضر ممن عليهم الحضور سوى الأمير وصاحبيه . قال : هل اعتذر الأمير برسول أو رسالة ؟ قال : لا ولعله وصاحبيه فى الطريق . قال : فكم

بقى من الوقت لنبتدئ ؟ قال : ضربة الجرس الثالثة . ثم ارتجل نظرة إلى الأفلاك فقال: بل أرى قد جاء ولم يبقَ إلا أن أستعد. وانحدر من فوره إلى المخدع فى الحان ، فعالج بابه فانفتح فدخله وخرج منه على أثر ذلك الخادمان . فدعوا الرجلين للحاق بالرئيس ففعلا كما فعل . ثم عمدا إلى باب الحان ليغلقاه . وعند ذلك أقبل الأمير وصاحباه ، فتنحى لهما الخادمان . حتى إذا دخلوا أغلق الباب وابتدر الجميع دخول المخدع . وكان خلف بابه مباشرة سلم من حبال . فنزلوا منه إلى دهليز ضيق مظلم طويل ، فمشوا فيه حتى إذا اجتازوه خرجوا إلى مكان مشيد الأركان ، وافى العظم والاتساع ، لا يضيق بألفين من النفوس يجتمعون فيه . وكان منارًا بمصابيح قوية الأشعة ، إن لم يكن ضوؤُها من الكهرباء فهو لا ريب ما يلى ذلك مباشرة من الأضواءِ .

وكان على الجدار الذى يستقبله الوافد على هذه القاعة صورتان : إحداهما أسد شاب بيِّن الفتاء بادى مخايل الحميَّة والقوة . وهو مطلق يهيم ولكن على عينيه رباطًا يحجب نورهما ، وهو لا يملك للرباط فكا وتحت هذه الصورة مكتوب " الوطن محجوب مدى المستقبل بالكهنة " ، والثانية صورة ذلك الأسد وقد دنا منه طفل صغير فنزع الرباط عن عينيه فأبصر فربض عند قدمى الطفل رافعًا رأسه يتأمله بهيئة الشاكر الممتن ، وتحت هذه الصورة مكتوب " شكر الوطن لحزب الأحرار " . وكانت على الجدار الأيمن أيضًا صورتان : إحداهما فرعون وقد جثا على فخامة جاهه أمام كاهن . وخلف فرعون فتاة وهو ينزع عنها بيده ما عليها من الحلى والحلل ثم يجعله على الكاهن الذى قد ناء حمله وتحت هذه الصورة مكتوب " فرعون يبذل أشياء الأمة للكهنة " ، والثانية صورة تلك الفتاة وقد وقف أمامها طفل صغير وهو يسمو إليها بيديه الناعمتين مملوءتين من أنواع الحلى وصنوف الجواهر وتحت هذه الصورة مكتوب "حزب الأحرار يرد إلى الأمة أشياءَها" . أما الجدار الأيسر فكانت عليه صورة فتاة تحمل على رأسها تاجًا ، وقد جعلت فى يدها اليسرى بضعة تيجان وأمامها فتاة أيضًا ، وهى تتوجها بيدها اليمنى . ووراء هذه الفتاة الثانية مَلأٌ من الفتيات مزدحمات ينتظرن . وتحت هذه الصورة مكتوب "منفيس تتوج مدائن النيل بتاج الحرية مبتدئة بطيبة " . وكان صدر القاعة عرش . وكان الرئيس يستوى عليه فيملك بإشارته وأقواله

إصغاء الحاضرين . أما سائر القوم فكانت لهم أرائك بعضها عند بعض ، وكانت درجات للجالسين ، فلما اطمأن بالأحرار المجلس قام الرئيس – صاحب الحان – وفى يده ورقة فقال :

هذه أيها الإخوان رسالة وردت على كاتم الأسرار من الكاهن "شاين" أحد أبناء الجمعيَّة وجاسوسها ومراسلها فى المعبد يقول فيها ثم قرأ :

" وقف الكهنة على أمرى معهم فألقونى فى سجن الخائنين المارقين من الدين إلى أن يصدر مجلسهم الأعلى بطيبة حكمه الذى لا يكون إلا الإعدام على أفظع وجوهه . وإنى مستعد للقاء الموت مدخر آخر أنفاسى فى جوّ هذه الدنيا لأجود به قائلاً : لتحيَا جمعية الأحرار ".

فلما اطلعت الجمعيَّة على هذه الرسالة الوداعية قامت لها وقعدت . وأبرقت وأرعدت . ولم تمكث أن اقترعت فأصابت القرعة الأمير وحُرَّين آخرين من كبار الضباط فى منفيس . فنهض المندوبون على الفور يصيحون نحن لها ولنأتينكم "بشاين" قبل أن ينفض مجلسكم هذا . وللحين لووا على خزانة السلاح فتسلحوا ثم خرجوا وهم لا يدرون أين يتوجهون . ولا كيف يصلون إلى صاحبهم المسجون . ومما زادهم حيرة وأضعف أملهم بالنجاح أن الليل كان مقمراً مكشوف السماء يتهدد بالفضيحة كل دباب مريب . هذا فضلاً عن منعة المعبد واستحالة الوصول إليه وزحمة الحراس والخفراء عليه . فكانت هذه الفكرة تتملك كلا من الرجال الثلاثة وتسعى بقدمه فيوغل فى السير إلى أن بلغوا باب طيبة . وهنالك وقفوا برهة يستريحون ويدبرون لهم أمراً فقال أحد الضابطين : الآن أدركت خطارة المأمورية وخطر المسعى . فقال الآخر : بل هى الخطوة الموبقة والمنيَّة المحدقة . فقال الأمير : ولكنا حملنا الأمر العظيم فلنصطبر له ولنقم فيه بما يوجب الشرف وتقتضى الشهامة ، غير ناسين أن بين ظلمات المعبد فى هذه الساعة صاحبًا لنا من أعز الأصحاب ، يعانى عظيم الأسر ويسام أليم العذاب . مهدداً بين لحظة وأُخرى بأقصى العقاب . فعند سماع هذه العبارة امتلأ الضابطان حماسة من الرأس إلى القدم وتنصلاً مما كانا أبديًا ، فقالا : إنما قلنا

ما قلنا من أجلك يا مولاى وخوفًا عليك . فأما وقد صممت على المخاطرة فهيا فنحن ساعداك . بل نحن وذوونا والعالمون بأسرهم فداك .

كانت اللصوصيَّة عند المصريين الأقدمين حرفة من حرف الشعب ، وكان اللصوص طائفة ولها رئيس . وكان كل من سرق شيئًا يحمله إلى هذا الرئيس . فيأتيه صاحب الشيء فيطلبه منه فيرده إليه بعد أن يحجز الربع . ولعل القوم كانوا يذهبون فى تحليل هذا السلوك الغريب مع السُّرَّاق أولاً : إلى أن اللصوصيَّة مستحيل إفراغها من الدنيا مهما كان من شدة المراقبة وصرامة القوانين ، ثانيًا : إن المسروق منه لا تنفعه معاقبة السارق إذا هو لم يسترد أشياءه ، بل الذى ينفعه ويهمه رد الشيء المسروق إليه ولو ناقصًا ، ثالثًا : إن حجز الرُّبع عقوبة كافية لصاحب الشيءِ المسروق على إهماله وعدم السهر على ماله .

وكان للصوص زيّ خاص بهم ولكن لا يعرفه إلا الخبيرون بأحوالهم والأكثرون رؤية لهم واعتيادًا للقائهم وهم الحكام .

فبينما الأمير وصاحباه كما تركناهم يتفاوضون فى ذلك الشأن كان بالقرب منهم على المكان رجل ملتف بإزار من الكتان الأبيض ، وعلى رأسه قلنسوة بيضاء كذلك ، وهو منكمش فى موضعه ولكن قريب بحيث يرى ويسمع . فاتفق أن الأمير التفت فوقعت عينه عليه فطرده فانسل من المكان كما ينسل الثعبان من حضرة الإنسان . وعاد الأمير فقال لصاحبيه : لا تلقيا له بالاً فإنه لص وقد عرفته بثيابه البيض التى يلبسها مهرة اللصوص فى ليالى القمر تخلُّصًا من الظل التمام . وليتنا نقتدى بالقوم فى ليلتنا هذه فنخفف من ثيابنا بحيث لا يبقى علينا منها إلا البيض . فاستحسن الضابطان هذا الاقتراح ، وتجرد الرجال الثلاثة إلا عن أبيض اللباس . ثم استأنفوا السير آخذين جانب السور الغربى وقد عقدوا العزم على أن يأتوا المعبد من باب الظلام تسلقًا ، كأن هذا الباب متروك بلا حراس ، مباح لكل من شاء أن يتسلق من الناس ، إلا أنهم ما نصفوا الطريق الطويل الذى بين البابين طيبة والظلام حتى لمحوا لصًا يتسنم السور من نقطة سهلة المصعد وهو يراهم ولا يوارى

عنهم عيانه ، كأنما لا يعنيه أن يعلموا شأنه . فحدثتهم أنفسهم بالصعود على آثاره واقتفاء خطاه لعله من معتادى هذا المعبد وقد اتخذ السور مسلكًا إليه . فابتدروا الصعود من حيث رأوا اللص يصعد وكانت نقطة سهلة المرقى فى الحقيقة ، ولكن ليس فى ظاهرها شيءٌ يدل على أنها مصعد معتاد ، أو سلَّم عامة للأفراد . وما هو إلا يسير زمان حتى بلغوا على السور . وهناك رأوا اللص وقد اندفع ينساب زحفًا على الأربع فى مستوٍ من سطح السور ففعلوا مثله ، ومَثَّلوا من فورهم فعله ، واستمروا كذلك سائرين حتى لاح لهم باب الظلام ، باذخ الذرى بين العماد والدعام ، فتذكروا أنه محفوظ الذروة بالأقوام ، محفوف من كل مكان بحراس لا تنام . فأَجفلوا وكادت تخونهم الأقدام ، لولا أنهم رأوا اللص وقد عمد فى طريقه لحجر كبير فأَزاله عن موضعه ، ثم نزل من ذلك الموضع مختفيًا ، فأسرعوا نازلين على آثاره . وإذا هم بسرداب ضيق أسود حالك تشفق الحشرات منه أن تتخذه مسالك . فما زالوا يزحفون حتى عبروه . وكانت فى آخره نافذة ضيقة ، فوثب اللص منها ووثب الأمير وصاحباه على أثره ، فإذا هم على قمة عامود ضخم عظيم الارتفاع . فأشرف الأمير من ذروته ينظر ، فرأى اللص وقد بلغ أسفل العمود مستعينًا فى النزول بحفر كانت فى الحجر فأرشد صاحبيه إلى ذلك ثم نزل وهما يتبعانه حتى إذا استقرت الأرض بأقدامهم وقفوا ينظرون . وإذا إلى اليمين باب هائل من حديد وقد عمد اللص لعتبته فقلعها ثم ولج فتبعوه والجين . فحازهم دهليز شديد الضيق يكاد أن لا يجاوز . وكانت أرضه من نحاس رقيق مائج مهزوز ، فاجتازه ثابتى الأقدام ، متشجعين بذلك اللص المقدام . وهنالك اعترضهم باب آخر عالٍ من سلاسل الحديد العراض الطوال ، وعليه حارسان بطلان ضخمان قويان متسلحان . وخلف هذا الباب صوت أنين ينبعث من كل مكان . فاستأخر الأمير عندئذٍ ينظر ماذا يأتى اللص مع الحارسين . وكيف يمرق من أيديهما . أما اللص فلم يزد على أن نظر إلى الرجلين نظرة واحدة متوزعة تأثر كل منهما بقوة سحرها ، فانقلب مدار الوجه نحو الحائط وظهره إلى ظهر أخيه . وعالج اللص بعد ذلك عتبة الباب حتى قلعها ثم دخل فتبعه الأحرار الثلاثة . وإذا هم بقاعة عظيمة تدور بها حجر كثيرة ، على كل واحدة منها باب صغير من حديد ،

وهنالك انكمش الأمير وصاحباه بانتظار ما يأتى اللص ولكنه كان قد توارى واستتر . ففتشوا عن مكانه فلم يظهروا له على عيان ولم يقفوا على أثر ، فتقدموا حينئذٍ يطوفون بالحجر ويجعلون آذانهم على كل بابٍ لعلهم يعرفون صاحبهم بأنينه . وقد كان .. واهتدوا للحجرة التى هو فيها فناداه الأمير : "شاين" .. "شاين" اجمع إليك قواك وساعدنا على كسر هذا الباب فإننا نحن الأحرار قد جئنا ننقذك . إلا أن الكاهن لم يستطع الإجابة من ألم العذاب وفقدان القوى . وأدرك أصحابه ذلك فعالجوا الباب فاستعصى عليهم . فوقفوا حائرين لا يستطيعون عملاً ، وقد أخذ منهم اليأس وتمثلت لهم الخيبة شائهة الوجه . وعندئذٍ شعر الأمير كأن جسمًا صلبًا سقط بالقرب منهُ ، فتناوله فإذا هو مبرد كبير حديد الأسنان ففرح بذلك وبشر صاحبيه . ثم تواكل الثلاثة بالباب فلم يزالوا به حتى كسروه فدخلوا ، فوجدوا صاحبهم "شاين" ملقى على بطنه مشدود اليدين والرجلين على هيئة صليب إلى الأرض بأوتاد من حديد مسمرة فيها ، وعليه من السلاسل ما يُثقل الجبال حمله فكيف بالإنسان الضعيف . فحملوا بالمبرد على كل تلك الحدائد حتى كسروها وأنهضوا صاحبهم . فنهض واهن الجسم واهى القوى . وكان فى زاوية من الحجرة عقاب كاسر فى سلسلة وبين يديه لحم مشوى وماء . فأخذ الأمير ذلك كله وقدمه لصاحبه "شاين" قائلاً : أنت يا عزيزى أولى به من هذا المؤذى الضارّ . فلما طعم "شاين" وشرب بدأ يسترد قواه قليلاً قليلاً حتى ملك الكلام فقال : هذا يا مولاى وأشار للعقاب هو قاتلى المنتظر . يدخره القوم ليوم يصدر الحكم فيشق يومئذٍ بطنى فيأكل هذا الكاسر من أحشائى . فأجابه الأمير ملاطفًا : ولكن ها أنت ماضٍ وتاركه بلا غذاء ولا ماء وربما نُسى فهلك ظمأً وجوعًا فينقلب الأمر إذ تصير أنت القاتل له . قال "شاين" : ولكن كيف وصلتم يا مولاى إلى هنا ؟ ومن أى باب دخلتم ؟ قال : الحقيقة يا شاين أننا لا ندرى كيف دخلنا باطن المعبد . ولكن لهذا حديثًا عجيبًا يضيق الوقت عن إيراده . فالآن دبر لنا أمر الخروج فذلك شأنك . قال : أمر ممكن فاتبعونى . وحاذروا أن تصدر من أحدكم حركة تنبه الشياطين النائمة . ثم مشى أمامهم فاتبعوه حتى جاء بهم إحدى الحُجَر التى فى القاعة . **وكان** بابها من خشب . وكان مفتوحًا فقال لأصحابه همسًا : داخل

هذه الحُجرة ثلاث أُخر فى الثالثة منها الكاهن الموكل بتعذيب المسجونين . وهو لا شك نائم الساعة فليدخل أحدكم فيقتله . ثم يأتى بأربعة أطقم كاملة مما يجده فى صندوقه . وكان للأمير عبد أسود يدعى "شقشاق" . وكان عزيزًا عليه فقتله الكهنة يومًا وهو سائر بالبريد إلى بعض الجهات ثم تركوا جثته بعد ما أخذوا ما كان عليه من الأوراق . فحلف الأمير يومئذٍ لا أقتل به أقل من عشرة من القوم . وإذ تذكره فى تلك اللحظة قال فى نفسه هذا أول العشرة يا شقشاق . ثم استل خنجره ودخل وما هى إلا هنيهة حتى عاد والأطقم الأربعة على كتفيه والخنجر فى يده يقطر من دم الكاهن . فأخذ "شاين" أحدها فلبسه وأشار إلى أصحابه أن يرتدوا الثلاثة الباقية ففعلوا . ثم مشى بهم حتى جاءَ باب السلاسل الذى كان اللص قلع عتبته . فلما وجدها بهاته الحال دنا من الحارسين كأنه يريد أن يسألهما عن السبب ، فإذا هما مسحوران لا يريان ولا يسمعان . فالتفت إلى أصحابه مندهشًا فابتدره الأمير قائلاً : هذا شىءٌ حصل من أجلنا ولنصل إليك . قال : الآن اطمأن قلبى فانزوى ورائى. ثم اندفع فى بئر كانت هنالك عن يمين العتبة وأصحابه خلفه يزحفون زحفه ، حتى انتهوا إلى سرداب مستوٍ طويل ، معلق فى سقفه بين مسافة وأُخرى قنديل ، فهنالك قال "شاين" لأصحابه : عند القنديل الثالث وإلى اليمين حجرة خاصة لثلاثة من الكهنة عليهم ملاحظة الحراس بالليل ولكنهم من السكيرين فلا يؤَدون وظيفتهم إلا نادرًا . وسنجدهم إما فى السكر وإما نائمين من السكر ، ولكن الحزم يقضى بقتلهم على كل حال . فوافقه الأمير على ذلك وهو يقول فى نفسه صاروا أربعة يا شقشاق وبخنجرٍ واحد وفى ليلة واحدة . ثم أسرع فدخل على الكهنة الحجرة فوجدهم كوصف "شاين" لهم هالكين من السكر أو كهالكين ، وقد أخذ اثنين منهما النوم والثالث مستمر ما ينتهى ، فرغت الزجاجات ولم يفرغ من الشرب . فبدأ الأمير به فقتله ولوى بعد ذلك على صاحبيه فألحقهما به . ثم خرج والخنجر فى يده حديدة حمراء من كثرة الدماء فلقيه "شاين" فسأله : هل قضى الأمر ؟ قال : لا تسألنى وسل هذا الخنجر . قال : الآن فانتظرونى لحظة فإن لى عملاً فى الحجرة آتيه . ودخل مسرعًا وفى الحقيقة ما هى إلا لحظة حتى عاد وفى يده

مخلاة صغيرة فناولها أحد الضابطين قائلاً : خذ هذه فاخفها فى ثيابك وليستحضر كل منا حرف الراء على لسانه ، إذ هو إشارة الليلة نلقيها على الحراس إذا جئنا الأبواب فنجتازها بسلام آمنين .

واستمر الأربعة و "شاين" يحصى القناديل ، حتى إذا عد السابع منها وكان الأخير نبه أصحابه فاستعدوا فدق بابًا صغيرًا كان خاتمه ذلك السرداب مرددًا إشارة الليلة ففتح لهم ، فخرجوا إلى الفناءِ الأول للمعبد فاندفعوا فيه يسيرون حتى بلغوا أول الأبواب السبعة الكبار فوقف "شاين" فدق مرددًا إشارة الليلة فانفتح لهم الباب . فاجتازوه فحازهم الفناء الثانى وهكذا حتى جاءوا الباب الأخير للمعبد أو المدخل وكان لا يفتح ولا يقفل ، ولكن كان يقوم بحراسته ليلاً مائة رجل من المتطوعين جنود الديانة ، وهنالك لم يشعر الأحرار الأربعة إلا وهؤُلاءِ الحراس يموج بعضهم فى بعض متهافتين على السلاح يأخذونه وهم يصيحون : الفارين الفارين .. اقبضوا عليهم .. اقتلوهم .. فتفزع الأحرار لأول وهلة ثم استحضروا ثباتهم واستجمعوا للمقاومة . فكانوا كلما حملت هاتيك الجنود دفعوها بمثل ثبات الأسود ، حتى إذا ضاق الشرك واستحكم المعترك وتناهى الموقف ودنت الساعة وآن للكثرة أن تظهر على الشجاعة ، وقع الفشل على بغتة فى صفوف العدو وتلاه سيف خفى يخطف الهام ويطير الأعناق . فما هى إلا هنيهة حتى هلك فريق وهرب فريق . ولم يبق على أبواب المعبد إلا الأمير وأصحابه . فالتفت "شاين" حينئذٍ إلى الأمير قائلاً : أتدرى يا مولاى من أين جاءنا البلاء ؟ قال : لا . قال : من هذه الغرفة ، وأشار لها وكانت على الباب ، فإن فيها كاهنًا ساحرًا وهو الذى نبه القوم لخروجنا . قال : وهل يكره أن يلحق بأصحابه . ثم ابتدر باب الغرفة فكسره ودخل فقتل الكاهن وخرج بعد ذلك فمشى فى رفقائه ، حتى إذا صاروا بعيدًا عن المعبد وبمأْمَنْ من غوائل جواره رأوا ذلك اللص بعينه وقد انصب أمامهم كأنما يُعرفِّهم من هو ، ثم اختفى من حيث ظهر وتركهم مبهوتين يتساءَلون : هل انشقت لهُ الأرض فنزل ، أم ملك جناحًا فطار للسماء .

ثم إنهم استمروا سائرين إلى أن وصلوا الخمارة ففتح لهم فدخلوا . وكان المجلس منعقداً لا يزال ، فلما رآهم الأحرار وقد آبوا بشاين حيًا سالمًا قابلوهم بضجة تعجب واستحسان ثم لاقوهم بصيحة اعتراف وامتنان . ونظرت الجمعيَّة بعد ذلك فى أمر من الخطارة بمكان وهو السعى فى إبعاد قائد الفرق الاستعماريَّة عن منفيس واستبداله بغيره من القواد المحالفين ، فأخذ الأمير نجاز ذلك على همته وتدبيره وختمت الجلسة بتسجيل هذا الوعد . ثم تفرق الأحرار وليس بما دار فى تلك الدار قط دار .

* * *

الفصـــل الثامن

حـــادث باغـت

كان قد مضى على نزول عذراء الهند فى قصر النزهة بالضواحى نحو شهر ، والأميرة متقلبة فى صنوف الكرامة موفورة الخفارة والحراسة . يحمى قصرها وساحاته نحو ألفين من الجند عليهم ضابط عظيم . وكانوا متوزعين بين جهات القصر وبين معسكره الناهض دونه كالسور ، يحيط به ويدور ويعصمه من طوارق الأمور .

وكانت عذراء الهند قد بُشرت بسرور الملك بقدومها وإظهار مزيد الارتياح لرؤْيتها فى طيبة عاصمة مملكة الآلهة . فكان العزم معقوداً على أنها لا تطيل بمنفيس المقام أكثر من بضعة أيام ثم تلبى دعوة ملك الأنام .

وفى الواقع لم تلبث الأوامر أن وردت على الضابط من ديوان الجيوش ، بمضاعفة الانتباه ودوام السهر على حفظ الأميرة أولاً ، وبالاستعداد لمرافقة ركابها فى سفرها القريب إلى طيبة ثانيًا . فأُبلغ مضمون ذلك إلى الأميرة فسُرَّت كثيراً . وباتت تنتظر بصبرٍ نافد ساعة القدوم على الملك الأعظم ملك طيبة ومنفيس .

إلا أنه لم يمضِ يوم أو يومان على ورود هذه الأوامر حتى جاءت من القائد "رادريس" رئيسه الحقيقى فى هذا المركز رسالة بتوقيعه يقول فيها : "بناءً على الأوامر الخصوصية أدعوك لتخلى القصر والمعسكر توًا فتنتقل بكل جندك إلى النمرة الثالثة حيث تقيم بانتظار أوامر جديدة".

رادريس

فتلقى الضابط هذه الإشارة بواجب الطاعة الجندية ، فأخلى للحين القصر والمعسكر وسار يؤم بفرقته النمرة الثالثة التى هى نقطة فى الخلاء تبعد عن القصر مسيرة نحو سبع ساعات . وكان ذلك فى أول دخول الليل ، فما هو إلا أن ساد الظلام واطمأن بملك الدنى والعوالم جائرًا مباحة فى حماه الجرائم حتى تلبس القصر بشر حال فامتلأت ساحته بالرجال . وكانت الأميرة خلف نافذة تنظر وكانت لا تزال بها روع من رواح الجنود فضاعفه هذا الاحتلال . فاستغاثت عندئذٍ قائلة : يا للسماء لهذه الخالدة الشقاء ، الأبدية الإقصاء . ثم ترامت السلم فنزلت هائمة متكسرة على درجه وكان له باب فقامت خلف هذا الباب واستندت كالمختبئة . فلم تدر إلا بالجدار قد تزحزح ودخلت غير عالمة من أين ولا كيف . وأخذ الحائط على الأثر شكله الأصلى فعاد بنيانًا مرصوصًا مستويًا لا سبيل للريب إليه . ولم يعد ممكنًا للفتاة أن تزحزحه من خلف فتظهر من حيث اختفت لأن للخروج كما للدخول سرًا كانت تجهله ولا تطمع من الصدفة أن تهديها إليه . وفى الواقع كان تخوف عذراء الهند فى موضعه ، فإن الرجال ما مكثوا أن صعدوا إلى القصر فأوسعوه بحثًا وتنقيبًا وعاثوه جسًا وتقليبًا ، معاينين جهاته ونواحيه ، مُعْرِضين عن كل ثمين فيه ، لا طلبة لهم إلا الأميرة يريدون ليأخذوها أسيرة . فلما لم يلقوا لها عيانًا ولا كشفوا لها مكانًا هموا بالخروج من حيث دخلوا . وكان فيهم ذلك اللص ، لص ليلة المعبد ، ولم يكن منهم ولكن رآهم يدخلون فدخل فى زمرتهم فعرف من هم ووقف على حقيقة مشروعهم وما جاءوا يرومون . وإذ تحقق عدم وجود الأميرة بالقصر سبق القوم إلى الأبواب فغلقها ثم أضرم النار فى الدار حتى إذا لحقها ومن فيها الدمار تركها فحمة تتوقد وسار وهو يردد بملء شدقيه قائلاً : أنا طوس ولىّ السعود والنحوس .. المنتقم للنفوس .. من طائفة القسوس .

* * *

الفصل التاسع

بيـــداءُ الذئاب

كان على بعض الدروب المفضية إلى طيبة ببيداء يقال لها "بيداء الذئاب" ، نُزل صغير بطبقة واحدة ، يديره رجل وامرأته . وكانا متوسطين فى العمر لا يتجاوزان كلاهما الخمسين . وكانا ربعتين ممتلئين ، وكانت السذاجة منهما بمكان لطول ما عاشا فى الوحدة ولزما البيت وسكنا الخلاء . وكان درب الذئاب قليل الطراق من الأفراد فلا يسير عليه إلا الجند شراذم ، أو القوافل قدداً . ولهذا كان النزل قليل العمل قليل أسباب الكسب . ولم يكن صاحباه أخوى دنيا فيبكيان من تغيُّض موارد الرزق أو يشكوان من صعوبة المحيا ، بل كان مضى الدنيا ونضرتها عندهما أنهما لا يعدمان القوت .

ففى ذات ليلة طرق النزل عشاءً رجل مسافر ، فخرج إليه رب الخان وكان الطارق فتى هندياً حسن المنظر ظريفهُ غالى اللباس نظيفه . يحكم رائيه لأول وهلة أنه ذو نعمة ومن عائلة شريفة . فحين وقعت عين الرجل عليه ضحك ارتجالاً كأبسط الأطفال ثم صاح بامرأته قائلاً : حقًا إن السماء تمطرنا هنوداً يا برية ، حيث لم تكفها ممسوخة الصبح فبعثت لنا بهذا الممسوخ الآخر . وكان للفتى يسير إلمام باللغة المصرية وكأنما تعلَّم مبادئها فى المدرسة ، ثم زادها على المبادئ فى سياحته بمصر ففهم عبارة الرجل وتأثر بها فى بادئ بدءٍ غير أنه لم يلبث أن استقل عقله واتهمهُ بالبساطة . وإذا كانت الراحة ضالته الوحيدة ركن إلى المداراة فخاطب الرجل قائلاً : إنما أنا طالب راحة أيها الرجل . فإن كان هذا البيت نزلاً عموميًا فأنزلنى وخذ الأجرة وزيادة ؛

وإن كان منزلاً لك خاصًا ولأهلك فاقبلنى ضيفًا شريفًا يرعى الحرمة ويذكر الجميل . قال : نحن أيها الفتى لا نضيف الناس ولا يضيفنا أحد . وإنما هذا خان مستعد لنزول أمثالك ، فادخل فخذ راحتك . ثم إنه دخل ودخل الفتى على أثره فحضرت عندئذٍ المرأة فعرضت على المسافر ما كان خاليًا من غرف الخان ، فاختار واحدة منها لمبيته ، ثم طلب شيئًا من الطعام واستعجل فقدم له من الحاضر المتهيئ وشرب ودخل بعد ذلك غرفته ونام .

فلما كان قبيل الفجر استيقظ الفتى من نفسه كما هى عادة سكان البوادى والخلوات فلم يكد يخلص حواسه من آثار تخدير النوم حتى سمع شبه أنين ، وكان مصدره الغرفة الملاصقة لغرفة نومه ، فجعل أُذنه على الحائط المشترك ، ثم استند إليه ينصت فإذا هو بصوت أنثى وهى تصل البكاء والأنين وتقول بلسان هندى مبين :

ماذا تريد بإبعادى وإيعادى ... يا دهر ما أنت إلا جائرٌ عادى
لم يكفك الرزء فى ملكى وفى وطنى ... وفى شبابى وفى صفوى وأعيادى
فرحت تبعد أحبابى وتقذف بى ... مع المخاوف من وادٍ إلى وادِ
حتى مررت على الأيدى يد فيد ... وطال فى عالم الأحوالِ ترادى
فمن شقىٍّ إلى لص إلى نفقٍ ... إلى ظلام بروعى رائحٍ غادِ
إلى قفار إلى سهل إلى جبلٍ ... إلى غلام من الفجار مصطادِ
أروح فى سر سلطان الهوى وأجى ... ولا أبى لى ولا سلطانه فادى

فكان الفتى يصيخ لما يقوله الصوت وهو يكاد يخرج من رشده ويود لو خرق الحائط لينظر ، فلا يمنعه إلا الشك فى كونه يقظان ، وإن ذلك ربما كان حلم وسنان . وكان نجم الصبح قد بان ينير سماء الأكوان ، فشغل الفتى عندئذٍ عما كان فيه أنه نظر إلى الفضاء فبدت له من بُعد خيام على البيداء . ولم يكن رأى من ذلك شيئًا حين وفوده فى المساء . فاستغرب الأمر وأحب أن يعرف من المخيم فخرج من غرفته

يبحث عن رب النزل ليسأله . فألفاه وامرأته فى المطبخ منكبين على لبن يغليانه وفطير يهيئانه . فتقدم فحياهما فلم ينبسا بجواب . فدنا حينئذٍ من المرأة وبيده عقد من اللؤلؤ فأراها إياه قائلاً : هذا يا سيدتى لكِ إن عرفتنى من الفتاة التى بجانبى ولمن الخيام التى دون النزل على البيداء . فاشتغلت لحظة بما رأت عما كانت تباشر من العمل ، فزجرها الرجل قائلاً : ما لكِ ولهذا الهندى الحقير ؟ التفتى إلى اللبن والفطير ، فما كل يوم يمر الأمير . فضربت المرأة الفتى بكوعها ، ثم عادت لما كانت فيه من العمل . أما هو فلم يجد بدًا من الانصراف فَانثنى خارجًا وقد صار عنده نصف الخبر . ولكنه ما بلغ باب المطبخ حتى أبصر الفتاة مقبلة فابتدر لقاءَها قائلاً : ليس ذا وقت خطاب الزوجين فقد وجدتهما يا سيدتى مشغولين بتهيئة بعض اللبن والفطير لكاهن عظيم مخيم فى رجاله دون النزل . قالت : هذا ما كنت أُريد معرفته فشكرًا لك يا سيدى .

ثم انثنت عائدة إلى غرفتها وتركت الفتى بلا حراك ولا وجدان ، إذ كان قد عرفها من أول نظرة . غير أنه خاف على حيلته أن تفسد فاستجمع وتقوى ودخل غرفته وكانت مفتوحة . فتركها كما هى وجعل يتمشى فيها وهو تعب النظر حيران بين باب الفتاة وبين باب المطبخ ، حذرًا وخوفًا أن تجتمع بصاحبى النزل أو أحدهما فتعلم أن الأمير مخيم تحت شباكها مقيم وقد صمم على أن يحول دون هذا الاجتماع كائنًا ما كان .

ولقد كان من سعد الفتى الهندى أن الزوجين خرجا بعد قليل يحملان بعض الأوانى والقدور وأغلقا خلفهما باب النزل . فاطمأن بذلك قلبه ورأى أن تمام الحيلة وكمال التدبير يقتضيان الصبر والكمون حتى يرحل الأمير . وكذلك كان . حيث لم تمضِ ساعة من الزمان حتى زالت الخيام عن المكان وعاد الزوجان مسرورين يلعبان بالأصفر الرنان . وكانت الفتاة قد خرجت تتمشى فى فناء الخان فرآها الرجل فى دخوله فصاح بها قائلاً ، والذهب يلمع على بطن راحته : تعالى أيتها الهندية انظرى هل فى أُمرائكم من يجود بمثل هذا القدر من النقود ؟ فأضحكت بساطة الرجل الفتاة

غصبًا فمشت نحوه والفتى لفها وهى لا تراه . فلما صارت أمامه ورأت ما فى يده قالت : حقًا أيها الرجل لقد أعطاك الكاهن فأجزل . قال : لا تقولى الكاهن يا ممسوخة الهند وقولى الأمير . فاضطرب وجدان الفتاة لذكر هذا اللقب وسألت الرجل قائلة : وأى الأمراء ذاك فهم كثيرون . قال : رب منفيس الأمير "آشيم" ، ولىّ عهد جلالة الملك . فعند سماع ذلك لم تزد الفتاة على أن صرخت قائلة : يا للسماء لهذه الخالدة الشقاء الأبديَّة الإقصاء . ثم غشيها إغماء طويل فأوقعت الرجل وامرأته فى حيرة شر حيرة لا يدريان ماذا يصنعان . فلما رآهما الفتى خائفين يتعوثان ، دنا منهما فقال : لا تخافا يا سيدىَّ ولا تقلقا فلا أحسب هذه إلا صرعة عصبيَّة تقوم منها الفتاة بعد لحظة . قالا : وإن هى لم تقم أقامت علينا قيامة الحكومة . قال : فسلماها إلىَّ وأنا المسئول عنها . قالا : خذها ولا تعودا وأنتما مسامحان فى الأجرة . قال : بل هذا العقد من اللؤلؤ لكما عن الفتاة وعنى فخذاه مباركًا لكما فيه . ودفع إليهما العقد ثم إنه حمل الفتاة على ظهره وانطلق ذاهبًا .

* * *

الفصل العاشر

هاموس فى القفار يهيم

لمَّا حمل الفرسان الثلاثة "هاموس" إلى أبيه وكان غضب الشيخ فى غايته جذب إلى شفتيه بأذن الغلام ، وهمس ثلاثًا : يا ابن الزناء .. يا ابن الزناء .. يا ابن الزناء . وكان إلى هذه الصيغة ينتهى السباب عند المصريين الأولين آباء الأخلاق . فلما قذف بها من أبيه شرُّ قاذف فى هذا المقام أقسم لا جاور بعد ذلك بلداً ولا عاشر من الناس أحداً ، ولا عاش إلا فى الصحارى والقفار ، ولا مات إلا ممزقًا بالأنياب والأظفار . فرحل من فوره عن منفيس وخرج هائمًا يترامى الخلوات ، ويتنقل من فلاةٍ إلى فلاة ، وكأنما خرج من الحياة . فبينما هو ذات يوم فى هيامه يسير على بيداء الذئاب بدا له من بُعد شخصان . وكانا ثابتين لا يتحركان . فأخذ وجهتهما حتى تمكن نظره منهما . وإذا هو بجريمة من مثل ما كان بدأ فيه وشرع . وقد أوشكت هذه الجريمة أن تقع . فتشمر الغلام يعدو وهو يقول فى نفسه : أما وأبى الذى لا أعرف سواه ليكوننَّ عند ابن الزناء كما عند سائر المصريين نجدة . حتى إذا صار ثالث ثلاثة رأى قاتلاً وما قتل . ولكن هم فمسك يده المطمئنة بالخنجر ، ثم نزعه منها فتركه أعزل لا يملك للجناية إتمامًا . والتفت بعد ذلك إلى الفريسة فأجفل بغتة وابتعد واضطرب وارتعد . فنظرت إليه الفتاة نظرة ردت إليه الجلد . فدنا إليها فأخذ بيديها ثم جثا لديها فقال : الآن يا مولاتى محا الإساءة الإحسان . ولم يبق إلا التجاوز والغفران . قالت : لقد غفر لك ما سلف يا هاموس فلا تقتل غريمنا . ولكن عجزه أنه ليس بعيداً إنه .. ابن عمى . قال : سمعًا وطاعة يا مولاتى فمريه أن يسير بين أيدينا أسيراً أو كأسير ، حتى أتمم توبتى بإيصالك إلى الأمير . فأشارت الأميرة حينئذٍ لثرثر أن يمشى فمشى واندفع الثلاثة يسيرون .

الفصل الحادى عشر

ظهور النمر حارس بعد الخفاء

كان قد بلغ "آشيم" فى بداية قدومه للهند أن عشيقته اختطفت . وأن أباها يتهم رجلين من مصر رُؤيا تحت سماء مملكته قبل اختفاء الأميرة بأيام . وأنه حانق من أجل ذلك على مصر وملكها وصاحب عهدها ، ولا يبرئ هذا الأخير أن له يداً فى الشر وباعًا ووقوفًا على دخيلة الأمر واطلاعًا ، إلى غير ذلك ، مما كاد الأمير يجن به سماعًا . إذ كان أول ما قام فى ذهنه أن ذينك الرجلين لا يمكن أن يكونا إلا من عمال الكهنة أو مأجوريهم ؛ وإن والد الفتاة معذور فى ظنونه التى يحللها جهله بمجارى الأمور فى مصر ومصير أحوال الأحزاب فيها . فزادته هذه التأملات غضبًا على غضب من جهة الكهنة ، بقدر ما بعثت من رحمة فؤاده نحو والد الحبيبة . ففتح الحرب برسالة خصوصية بعث بها إليه يقول له فيها ما معناه : تعلم أيها الملك ما أنا آتٍ فى بعض قواتنا البحرية من أجله . وتعلم كذلك أن الرماسسة إذا قالوا قالوا صادقين . فإن كان الحامل لك على إغرائك الممالك المتطوعة إلى حد خروج أكثرها من طاعة جلالة مولاى ووالدى الملك هو حسبانك أن لجلالته أو لنا يداً خفية فى مصيبتك بالأميرة عذراء الهند فتحقق أنك مخطئ فى حسابك . واهم فى ارتيابك . وثق أننى سأكون معك على الأيام فى هذه الحادثة التى لها بقلبى كما بقلبك إيلام . والآن إذ قد صدقتك الكلام فإنى أدعوك لتكف يد المساعدة عن الولايات الثائرة ، وإلا عددتك عدواً لمصر ولجلالة الملك ، فلا أبرح الهند قبل إنزالك عن سرير ملكك والسلام .

التوقيع

آشيم

فحين وردت هذه الرسالة على "دهنش" أمعن النظر فيها فخرج من جنونه ورجع عن سوءِ ظنونه . فكف للحين عن مؤازرة الثائرين فكفوا صاغرين . ودخل "آشيم" الولايات فاقتص من كبار الثوار وأقر فيها الأمن وكان بغير قرار . ثم بارح على الفور الهند آيبًا بالأسطول إلى مصر ينهب البحار نهبًا ويقرب بعيدها غصبًا وهو يكاد يفقد السلامة جزعًا وكربًا حتى عاد لمصر . وهنالك حدثه أصحابه حديث عذراءِ الهند من أوله وإلى آخره، وأن الكهنة لم يكتفوا بهذه الضربة القاسية ، بل نالوا "رادريس" أيضًا حتى اتهمه الملك بكونه هو محدث الحادثة ومضيع الأميرة بسبب الأوامر المزورة منه إلى الضابط حارس القصر . وإنه من ذلك اليوم فى السجن الخصوصى بطيبة حتى ينظر مجلس القضاء الأعلى فى قضيته فيحكم له أو عليه .

فلم تزد "آشيم" هذه الأخبار إلا بلاءً وكربًا وحيرة وجنونًا . وبدت عليه آثار ذلك كله بغتة تتهدد سلامته وتنازعه قوى الحياة ، حتى أمسى خواص الأمير يتوقعون إصابة السهم . ويتخوفون من حلول الفناء المتعجل . واشتغل الأطباءُ بهذا الأمر الجلل فتداعوا وتراعوا . فقرروا العلاج اللازم ثم أجمعوا أن الأمير يكثر الخروج إلى بعيدات البيد وأقاصى الفلوات للصيد بنفسه . فإن لم يستطع فبرجالهِ ، وأن يكون للبدو من أوقاته الشطر على الأقل وللحضر الشطر .

فكان الأمير يرحل فى خيامه وخيله فيقضى اليومين والثلاثة على بعض البيد فى الصيد والتمتع من شميم هوائها النقى الخالص بعضه إلى بعض . وهذا وإن كان لا ينفع إلا القلوب الخالصة كذلك ، إلا أن صحة "آشيم" كانت تأخذ منه غصبًا بقدر ما كانت تعطى الهم والكدر ، وتنيل الكآبة والفكر ، وموصول الوجد والسهر بحيث كان العليل يظل وهو لا له ولا عليه ، ولا من ثمرات التداوى بالطبيعة شيءٌ فى يديه .

فبينما هو ذات يوم على مألوف تلك العادة فى الصيد بعيدًا عن رجاله . وكان يومًا من أيام قوته ونشاطه عنَّ لهُ حيوان غريب الشكل تنكره عين المصرى لأول وهلة فطرده فجرى فقفاه بجواد ينهب الثرى . أما الحيوان فاندفع رخىَّ العنان يعدو كأنه شيطان ماضٍ فى حاجة لسليمان . فبينما هو كذلك فى غايات جريه عرفه عارف

فناداه مردداً : يا حارس .. يا حارس . فاستوقف الوحش هذا النداء وأنساه البلاءَ الذى وراء ، فالتفت فبدا له أشخاص من بعد فقصد وجهتهم فإذا هو بمولاته عذراء الهند تناديه وتخف للقائه وتحييه ، فأكب على ساعديه دون أقدامها كالمتنصل المعتذر عن شيءٍ جنى أو المذنب المستوهب العفو عن ذنبه ، ثم ما هى إلا لحظة حتى أدركه الأمير فأدرك حارس الغرام ، بل أدرك القصد وكل المرام حيث جمعت العناية الشتيتين ودانت الصدفة بين المحبين بعد أعوام فراق وبين ، فوقفت الفتاة وهى بعظم منة الأقدار عليها أشد منها تأثراً بحضور الحبيب لديها ولسان حالها المعقود بنشوة بلوغ المرام ينشد فى المقام :

يا آنة جمعتنى بالحبيب فدًى ... لصفوك الطيب الآنات والزمنُ
بمن هو الملك لى من بعد ملك أبى ... ومن هو الأهل والأتراب والوطنُ

فبعد أن تهادى العاشقان تحيَّة اللقاء وتشاكيا الجوى والحرق بقدر ما مكنهما الموقف من الاشتكاء ، وكان "هاموس" قد اختفى فلم يبقَ على المكان غريباً سوى ثرثر. تقدم الأمير الهندى فخاطب "آشيم" قائلا : أنا أيها الأمير ثرثر ابن عم عذراء الهند وخاطبها ومخطوب الملك أبيها وسائر آلها وذويها فأنا إذن أولى بها منك من كل الوجوه . قال : غير الطبيعى المقدم منها وهو أن تحبك التى تدعى أنها خطيبتك . قال : ليس هذا لنا فى عرف معاشر الهنديين ولا فى قانون ولا فى دين . قال : وهل أنت ناسٍ أيها الأمير فأُذكرك أنك على أرضٍ رمسيسيَّة محضة طالما رأت ملوككم مكان الخيل فى المركبات فكيف تتغلب لكم فيها أحكام أو عادات ؟ قال : إذن فليحكم بيننا السلاح وليقض العذراء لمن شاء . قال : وهذا أيضاً أمر يحول دونه بُعد شانك عن شانى ونزول مكانك فى المجد عن مكانى ، إلا أننى أتنازل مرة فى العمر واحدة فأُبارزك كرامة لقرابتك من عذراء الهند . ثم إن الأمير استل خنجرين توأمين وأشار لثرثر أن يختار. فأخذ أحدهما ، وانبرى الخصمان على الفور يتطاعنان على مشهدٍ من الفتاة ومسمع ، وكانت هى قد رأت لابن عمها حركات مريبة فنبهت آشيم لذلك قائلة : إن للهنود يا آشيم بغتات غدر وخيانة فى مواقف الشرف والأمانة فحاذر فرب غادر قاتل

فى ثياب شريف مقاتل . فحفظ الأمير هذه النصيحة ووعاها كما أنه لم يمهل خصمه حتى يتمكن من حركة تدليس وخيانة ، بل طعنه فى خاصرته اليمنى طعنة تركته ملقى على الأرض يسبح فى دمائه .

وبعد ذلك انثنى "آشيم" وعذراءُ الهند عائدين إلى حيث خيمة الأمير وخيله فكان للحشم والعبيد برؤية الأميرة السرور الذى ما فوقه مزيد . وأرسل الأمير للحين إلى خواصه بمنفيس يبشرهم بالملتقى ويستنهض هممهم لإعداد زينة أجلَّ زينة تشمل الضواحى والمدينة ، وأن تسير المواكب فجراً حافلة تترى لاستقبال الركاب على الأبواب ، وأن يعلن استمرار الاحتفاءِ والاحتفال أربعة أيام بلياليها .

* * *

الفصل الثانى عشر

أفراح منفيس

ما طلع الفجر الأسعد موعد تشريف الركَاب القادم بالأحباب حتى تجلت منفيس وضواحيها وقد تحلت ببهيج المناظر وضاحيها ، فأخذت المنازل زخرفها وازينت دور الحكومة واحتفل الأهالى وبهر العيد ، وتنظم موكبان فاخران خرج أحدهما للقاء العروسين والعودة فى ركابهما ، ومد بالآخر من دار الإمارة إلى باب طيبة لتحيَّة الركاب فى الطريق . فلم يكن قبيل الضحى حتى أقبل الموكب بالجلال والجمال يتقدمه قفص من فضة محمول على عواتق الرجال وفيه النمر حارس يبدو فى حلة عجب ، وتنوء لباته بقلائد الذهب . وعلى إثر هذا القفص نحو ألف جندى من كل سلاح ، ثم يأتى هودج محمول كذلك على الأعناق وقد جُعل مكان الشجر منه شجر مصنوع من الفضة والذهب مكلل بالأحجار الكريمة ، وهذا الهودج يقل الأميرة الهنديَّة وهو يتهادى فى أكمل رونق وأتم بهاء بين هالة من الكبراءِ والعظماءِ محدقة مشرفة ببيدر الإمارة مشرقة، وهو يختال على متن جواد عالٍ غالٍ مذخور ليوم عيد وصبيحة احتفال ، وخلف هذه الكوكبة السنية ألف آخرون من الجند متمِّمين للحرس الكريم ، ثم يلى جحفل زاخر لا أول له ولا آخر هو مختتم ذلك الموكب الفاخر .

واستمر الموكب كذلك سائرًا بين شعب بأسره على قدم الإخلاص فى سره وجهره لأميره الساعى فى خيره ، حتى بلغ دار الإمارة وهناك أُطلقت السجناء ووزعت الصدقات على الفقراء . وقام "آشيم" بعد ذلك فى ركن الإمارة فاستقبل وفود المهنئين ، حتى إذا انقضت هذه الحفلة أيضًا انتقل الأمير والأميرة إلى غرفة مجاورة فأقاما يتلقيان

التحف والهدايا وهى تقدم بين أيديهما بكثرة وتزلف من كل صناعة وكل صانع حتى ضاقت الحضرة عما حضر . وكان فى أُخريات المهدين رجل ملتثم فلما لم يبقَ من لم يتقدم سواه دنا فرفع إلى الأميرة درة اهتزت لها الفتاة والتفت الناظرون ، ثم أسرع فناول الأمير مرآة صغيرة نظر فيها فرأى صورته وهو محمول على تابوت يخرج من قصر أبيه الملك بطيبة ، فارتاع "آشيم" لهذا المنظر المشئوم ودفع بالمرآة إلى عذراء الهند قائلاً : خذى يا عزيزتى فانظرى هذا المضحك المبكى ، فأَخذت الفتاة فنظرت فلم تر شيئًا فردتها إليه قائلة : وما فيها يا مولاى ؟ إنى لا أرى شيئًا ، فأعاد الأمير نظرًا فرأى ثم أعاد نظرًا فرأى ، وانقطعت بعد ذلك الرؤْية فصارت المرآة بغير صورة فهدأ حينئذٍ روع الأمير وراح يتهم أعصابه بالاضطراب طورًا ويظن بالمرآة السحر تارة . ثم التمس العروسان المهدى ليشكراه فلم يجداه فسألا عن أمره فلم يجدهما السؤال ، حتى كأن السقف انفتح للرجل فصعد أو أن الأرض انشقت له واختفى .

ومرت هذه الحادثة منسيَّة بين ذلك الصفو الموفور وبين كثرة أسباب الأنس والسرور ، بل لم يكن اليوم التالى حتى أرسل الملك إلى "آشيم" يستقدمه هو وعذراء الهند ، فلم يجد الأمير بدًا من التلبية فترك منفيس فى أعيادها تمرح هانئة محتفلة ورحل إلى العاصمة مستصحبًا خطيبته الكريمة تشيعهما القلوب أو هى فى رحالهما التى ليس فيها إلا محب ومحبوب. فسار الموكب كذلك يؤُم مدينة شمس القويَّة ، إلا أنه لم يكد يجتاز أبوابها حتى تقدم رجل من أفراد الرعيَّة التى كان الأمير عودها رفع كل حجاب فقبل الركاب ، ثم رفع إلى "آشيم" طائرًا صغيرًا أسود واشتهى عليه أن يحمله لحظة على بطن راحته ، فأجابه الأمير إلى التماسه وأخذ الطائر فتساقط على الفور منه ريش ، فاستغرب آشيم الأمر والتفت إلى الرجل كالمستفهم فكان جوابه : أتدرى يا مولاى ما يقول الببغاء ؟ قال : وما عساه يقول ؟ قال : إنهُ يا مولاى يكره لك أن تسير إلى طيبة . فأَغضب الأمير الذى رأى وسمع فرمى بالطائر فى وجه الرجل قائلاً : ولكنى أسير إلى أبى بالرغم من سحركم يا ختالى الكهنة . فانصرف الرجل من حضرته منهورًا خائبًا واستمر الركاب سائرًا . فلندعه الآن فى الطريق نحو

طيبة ولنختم هذا الباب بذكر ما كان من أمر ذلك الرجل العجيب بعد رواحه عن وجه آشيم فنقول :

أخذ الرجل أول طريق صادفه كأنه ابن سبيل أو هو من أهل الهيام فلا وجهة ولا دليل ، وفى الواقع فإن "طوس" كان قد أوحشه ابنه وواحده "هاموس" وندم على ما كان من سوء تصرفه معه . فلما لاقى من عناد الأمير وعماه وصَممِه ذاك الذى لاقى حزن حزنًا كبيراً ، وإذ كان من شأن الأحزان إمالة الحقد والأضغان تذكر الرجل ابنه فتاق والذكرى مجلبة الأشواق فحلف لا رجع إلى مغناه أو يرجع إليه فتاه ، ثم اندفع بهذه النية يهيم فى البوادى والقفار حتى قطع معظم النهار ، وقد عقد العزم على الاستمرار لولا أنه استمع بأنين كاد يطير له فؤاده الحزين ، فوقف يبعث بالنظرات إلى جميع الجهات فلاح له من جانب الصوت شخص بين الحياة والموت ، فقصد نحوه حتى بلغه فإذا هو فتى مجروح يحاول القيام فلا تطاوعه الأقدام ، فسأله طوس قائلا : من الفتى وما شكواك ؟ قال : غريب يا مولاى جرحنى اللصوص وأنا ماضٍ فى سبيلى أقصد إلى طيبة . فدنا طوس وكشف عن جرح الفتى وكان موضعه الخاصرة اليمنى فتأمله وجسه ثم قال وقد أخذته من حال الغلام رأفة :

لا خطر عليك يا بنىَّ من هذا الجرح الذى لولا نزول الخنجر بهذه المنطقة أولاً لكان القاضى لا محالة . ثم إنه صب على الجرح شيئًا من ماءٍ شربه ورشه بمسحوق من عنده وربطه بعد ذلك رباطًا محكمًا ثم أخذ بيد الغلام فنهض قادرًا على القيام . فقال له طوس : الآن يمكنك يا بنىَّ أن تستأنف المسير إلى طيبة وإن لك إليها طرقًا ثلاثة أدلك عليها . ووصفها له جميعًا ليختار ثم ودعه مشكوراً وسار، وقد بدا يبنى على الحادثة الظنون ، فكان يقول فى نفسه غريب مجروح جرحه اللصوص وهو ماضٍ فى سبيله يقصد طيبة . ما هذا الكلام ، بل ما هذه الأحلام أين علومك يا طوس ؟ أين اقتدارك ؟ أين نجومك ؟ أين أنظارك ؟ هل سُلبت كل ذلك النور جزاء استعلائك والغرور أم هو المقدور بنحسك يدور ؟ وظل الشيخ سائراً على تلك الحال بين تراكم أوجال وتعاظم بلبال وهموم من كل نوع تنهال ، وهو من مجموع ذلك فى أسر رؤْيا

مزعجة مسيئة لم ينتبه منها إلا على ريش الببغاء المتساقط على كتفيه فعندئذٍ استقبل السماء فقال : "يا من نموت ولا يموت ومن لهُ وحده الثبوت ، يا من لا أول لعلمه ولا آخر ، ومن إليه الأوائل ثم إليه الأواخر ، زنيت فى العمر مرة والزناء سبة ومعرة ، وأذًى لخلقك ومضرة ، فامحُ بعظيم عفوك ذنبى العظيم واغفر لى ولأُم هاموس إنك أنت الغفور الرحيم".

ثم إن الشيخ تقدم خطوات فى ذلك الفضاءِ وكانت الظلماء قد ملكت جهات البيداء وأضفت حلتها السوداء على مناكل الغبراء حتى استعد الأحياء لليلة ليلاء وحتى قال كل راء :

ظـلامٌ أناخ بـلا كـوكـب ينـيـر ولا بـارق يـلـمـعُ
سل الليل هل أضـمـر الغـدر أمْ لأمـر سـوى الـغـدر يسـتـجـمعُ

ثم ما هى إلا ساعة زمان حتى انقلب الحال انقلابًا فتحول سكون الجو اضطرابًا وتهاوت الكواكب انحدارًا وانسيابًا . فحيث التفتَّ رأيت شهابًا لا يألُو جيئة ولا ذهابًا . وانصبت البروق والرعود على الأثر انصبابًا . ثم كان مطر لم يعهد مثله انهمالاً وانسكابًا . فوقف طوس لا يتقدم وقد رأى التسليم أسلم فلعثم من كلمات الاستغفار ما لعثم ، وفى هذه الأثناء اصطدم به إنسان سارٍ أعمته حوادث الجو فاستأجر الشيخ مجفلاً وقال : من هذا الأعمى الضال ؟ قال : ابنك وطريدك هاموس يا مولاى . ثم وقع الفتى على صدر أبيه فاعتنقا وعندئذٍ نزلت صاعقةٌ من السماء فأهلكتهما وطار الببغاء . فسبحانه نحن إليه ما لحى بقاء وقصارى سوى الإله فناء .

* * *

الباب الثالث

الحوادث فى طيبة

الفصـــل الأول

رادريس فـى السـجـن

كان لجنود الحرس الرمسيسى معسكر فيه ألفان من الجند يغيرون فى آخر كل عام فيردون إلى الجيش العام ويؤْخذ مكانهم عدد المثل من أهل الشجاعة والإقدام . وكان للحرس كبير ثابت لا يقبل التغيير وكان يسكن هو وعائلته المعسكر له منه جانب وطرف وحجر خاصة وغرف ، وخدم من الجند وحشم كثير .

أما المعسكر فكان طبقات لا طبقة واحدة مبنيًا بالحجر لا بالخشب خلافًا للقاعدة. وكان بمرأى من ميدان رمسيس ومشرفًا من بعض جهاته على الشارع الملوكى ومقابلاً من جهة ثالثة لدار الملك وخالص الجهة الرابعة إلى النيل تغمر مياهه أسفلها وينظر من نوافذها إليه . وفى الجملة كان له الموقع الجميل الخطير وكان الجانب المطل على النيل من المعسكر قسمين مفصولين تمام الانفصال أحدهما خاص بكبير الحرس مُرصد لسكناه والآخر خلو من الجند مجعول مخازن وحواصل ، إلاَّ غرفة واحدة كان يقيم بها رجل من عظماء الضباط وكأنما حرم عليه براحها فلم يكن يخرج منها ولا يدخلها عليه إنسان . وقد قام على بابها جنديان يحافظان عليه أن يبرح المكان . وكان هذا الضابط متقدم الميلاد قد بلغ الستين أو كاد وهو مع ذلك صحيح البنية قوى الجسم مرجو السواعد ليوم كفاح وجلاد ، غير أنه كان يعلو وجهه الاصفرار وتبدو عليه للضعف آثار حتى كأَن آلامًا أدبية كانت تتملك نفسه العالية الأبيَّة ، وهو متكئٌ على بعض النوافذ يريد ليتسلى برؤْية النيل ومائه وأفقه وفضائه ووواديه وسمائه ويأْبى الفكر إلا خوض بحار أشغاله وعنائه .

وكان الوقت الأصيل وهى خير ساعات النيل فما زال الضابط كذلك يستجلى بدائع ما هنالك حتى هجم الظلام يسد دون جمال الطبيعة المسالك . وعندئذٍ لم يدرِ إلاَّ بالباب يدق دقًا خفيفًا فقام من فوره إلى المصباح فأشعله ثم التفت نحو الباب يقول : ليدخل الطارق . فانفتح الباب وأقبلت فتاة من أجمل النساء وأفتن بنات حواء تميس فى حلة بيضاء من حرير اللطف والبهاء ، وفى أثرها تمساح صغير يرنو بحدقتى خنزير ، وفى أُذنه قرط من الذهب منقوش بالمينة النادرة الثمينة ، وفى كلتا يديه سوار من خالص النضار مرصع بكريمات الأحجار، وهو مستأْنس يسير مع ذلك الملك الكريم أينما سار . وكان الضابط قد عرف الفتاة حال ظهورها فتغير لرؤْيتها وجهه وانقطب ونفر وجدانه من الغضب . أما هى فلم تلقِ لتغيره بالاً ، بل كانت تتكلف الهدوء والسكينة وتتظاهر بكمال الطمأنينة وتتقدم هاشة باشة وهى تقول : أنا يا قرين أبى العزيز "آرا" وهذا تمساحى "نجاة" رأَيت أن يزورك معى ليكون اسمه لك فألاً ولتلقى بدعائه شر ما تخبئُ للناس الأيام . قال : الزيارة مشكورة يا آرا ولكن ما لكِ الآن ومالى . فما أراكِ جئتِ إلا لتسخرى من حالى ولتزيدى فى أوجاعى وأوجالى . قالت : وما الذى يريك ذلك ؟ قال : الذى أرانى السجن من غير ذنب جنيت . قالت : فلأَنت إذن فى عذاب أليم . قال : هل بلغ من استبدادكم يا أصحاب الكهنة أن تنكروا على النفوس البريئة أن تمج السجن ؟ قالت : دعنا من هذا كله ولندخل فى جد الموضوع . فإنى ما أتيت إلا لأذكرك أن من وراء التهمة غداة تثبت زلزالاً لحياتك العالية وهدمًا لبنيان أعمالك الباذخ بالمجد والفخار . قال : ومتى احتجت إلى مثلكِ من يذكرنى عواقب الأمور ؟ قالت وهى تبتسم : ولكنك محتاج إلى من يقيلك من تهمة الخيانة التى من ورائها الفضيحة والتجريد والنفى المديد إلى مكان بعيد . قال : وماذا تريدين بكل هاته الإشارات . صرحى وأوجزى ؟ قالت : أريد أن تعلم أنى قادرة على فك أسرك ، وإنقاذك من مضيق أمرك . ومستعدة للسعى فى ذلك غير سائلة عليه إلا أَيسر الأجر . قال : وما ذاك ؟ قالت : أن تحلف لى برأس الملك أنك إن عدت إلى مناصبك ووظائفك ، التى منها العضويَّة فى مجلس المملكة الأعلى ، وعُرض على المجلس أمر النظر

فى جواز خطبة عذراء الهند أو عدمه تلزم جانب الحياد عند المناقشة ، ثم تحتال على الانسحاب فلا تكون موجوداً فى ساعة أخذ الآراء . قال : السجن أحب إلىَّ يا آرا فارجعى بسلام ولا تعاودى إن كان ليس عندكِ غير هذا الكلام . قالت : إذن فالذنب لنفسك لا لغيرها والعتب عليها وحدها فى أمرها وإنى أدعك تراجعها الآن وسأعود غداً لآخذ جوابك البات فى الأمر . ثم إنها مالت قليلاً تخلص ذيل ثوبها من يدى نجاة الذى كان يجاذبها إياه كالمداعب حتى إذا تخلص مشت نحو الباب مسرعة وتبعها رادريس فأغلقه وراءها ثم عاد وهو لا يكاد يبصر قدامه من ضغط الهموم وزحمة الأفكار . ولكنه ما نصف الغرفة حتى صادفت رجله جسماً صلباً دفعته أمامها فأخذه من الأرض وتأمله فإذا هى مجموعة أوراق واردة على تلك الشقية من كثيرين من كهنة طيبة وأعضاء مجلس المملكة الأعلى . وهى صنفان منها ما يختص بقضيته ويشير إلى تلفيق تهمته وبعضها يتعلق بخطبة عذراء الهند ويتناول الدسائس التمهيدية لحمل المجلس الأعلى على الحكم برفضها . فلما رآها "رادريس" قد فرجت من كل الجهات ورحبت بعد أن كانت ضيقة مستحكمة الحلقات ، لم يتمالك أن خر ساجداً لتلك القدرة التى تجر الظالم للقصاص بقدمه وتوقعه فى شر أعماله بخط قلمه ، ثم رفع عينيه إلى السماء ولسان حاله ينطق مفصحاً بهذا الدعاء :

رب إن شئت فالفضاءُ مضيقٌ وإذا شئت فالمضيق فضاءُ

وقام بعد ذلك فحمل الأوراق على عظم صدره من شدة الظن بها ثم أطفأ المصباح وجاء سريره فرقد على فراش وطيءٍ من الراحة والأمان والصفو والاطمئنان . وكانت له ليال لم يعرف الغمض ولم يذق الراحة فما صدق تلك الليلة أن دخل السرير حتى راح فى العريض الطويل من النوم :

كم ساهر خائف والدهر فى سنةٍ وراقد آمن والدهر فى سهرِ
فلا تبيتنَّ محتالاً ولا ضجراً إن التدابير لا تغنى من القدرِ

هذا ما كان من أمر "رادريس" . أما ما كان من أمر "آرا" فإنها لما برحت غرفة ن انثنت عائدة إلى مسكنها فى المعسكر ، وكانت العائلة فى انتظارها للعشاء كبير الحرس الذى لم يكن يعرف غير مائدة الملك فجلست فتعشت وما هو إلا أن لت يدها من الطعام حتى جاءَها رسول من الملك ، يدعوها للتوجه إلى القصر .

فقامت من فورها فدخلت غرفتها الخاصة فبدلت ثوب الكتان الذى كان عليها بثوب ر من التيل الأرجوانى المزركش كانت الملكة أهدته إليها . وكان لها مشط من العاج صنوع من نحو ألف سنة حتى اكتسب صفرة الذهب ونعومة الحرير ، وكان أيضًا خارجًا من خزانة الملك هديَّة إليها لمناسبة دخولها فى العشرين ، فحملته فى رأسها بعد أن مسحت شعرها أحسن مسح وزيَّنته تزيينًا ، ثم اتخذت لصدرها زينة قلادة من اللؤلؤ ذات سلوك سبعة فى كل سلك خمس عشرة حبة من أكبر وأجمل ما تنبت الأصداف . وكانت هذه القلادة مشهورة فى عصرها تضرب بها الأمثال إذا ذكر الغنى والمال . وكانت لها أيضًا مروحة من ريش النعام الأبيض العوام بيد عاجيَّة بيضاء نقيَّة ، وسلوك دقاق من الذهب الخالص البراق ، مرصعة باليواقيت المستطيلات الرقاق . فأخذتها فى يدها ثم التفتت نحو خادمتها الخصوصيَّة فلقنتها بعض الأوامر ، وبعد ذلك خرجت مستعجلة الخطو تطوى المعسكر فالميدان فالشارع الملوكى إلى القصر العامر .

* * *

الفصـــل الثانى

ليلة أنس فى قصر الملك

كان الشارع الملوكى المتقدم ذكره عبارة عن طريق طويل مستقيم مرصف الجانبين بأحسن تنظيم منحصر بين خطين متوازيين من الشجر المعرش العظيم . وكانت فى نهايته سلسلتان من تماثيل أبو الهول البديعة النحت والتصوير كلها مُكب على الساعدين فوق سرير من حجر واحد كبير . وهى متقابلة متناقصة الأحجام تدريجيًا فأولها كبير كبير ، وآخرها صغير صغير . ثم يعترض باب عظيم عالٍ ناهض بالعظم والجلال ، يمسكه عمودان من العُمد العراض الطوال . وخلف هذا الباب فضاء عجب وسوح ورحب . ثم يلوح بستان تأخذه العينان وما بهما يدان ، وهو يموج بالحيوانات المقدسة والطيور المعبودة المستأنسة سوارب هنالك سوارح تأوى الظل وتجىءُ الماء وتهنأ مهجاتها النعيم والنعماء ، ووسط هذا البستان قصر رفيع العمدان مشيد البنيان لهُ دوران كلاهما فى الوضع سيان ، وله مداخل توصل إليه من كل مكان وكان ظهره إلى النيل التصاقًا .

وكان القصر فى تلك الليلة هالة تتوقد بكل فرقد من المصابيح عند فرقد . وكان الدور الأسفل على الأخص آنس المقاصير، مزدحم الغرف بالجماهير. والملك فى حجرته الخاصة يدعو إليها من يشاء من ضيفانه فيحادثه ما شاء ثم ينطلق لشأنه . أما الحجرة فكانت غاية فى الجلال والجمال مفروشة ببساط واحد غالٍ من جلد النمر النادر المثال العزيز المنال ، ومغشاة جدرانه من الفضة الممهدة الصقيلة المتخذة مرآة واحدة عريضة طويلة . وفى الصدر عرش عالٍ مصنوع من العاج النقى البياض ، وكان

للملك وكان جالساً عليه، ثم تشاهد أسرة منثورة ههنا وهنا بين كبير وصغير ومستطيل وقصير ومربع ومستدير بعضها من الخشب المطعم بالعاج المصحف بالذهب والفضة والبعض من الحجر المجوف المنقوش ، ومنها ما هو للجلوس وبعضها لحمل ثريات التنوير وباقات الأزهار وأوانى الفاكهة والمرطبات وقوارير الماء والمباخر. وكان بين يدى الملك ساعتئذٍ فى الحجرة والد "آرا" كبير الحرس القائد "ندور"، وكان فى عمر رمسيس تقريباً بين الخمسين والستين ، وكان أشبه الناس به فى الخلقة والحركات والنطق والإشارات ، حتى لولا الشعر القصير الذى على رأس الملك والثعبان الذهبى الذى على جبهته واختلاف الزيين فى الزخرف والزينة لتشابها وتشاكل الأمر وكان بجنب ندور وعن يمين الملك الكاهن الأعظم للديار ومعهُ ابنه الشاب "هوتر" وكان من أجمل فتيان المملكة ، بل ممالك ذلك العصر جمعاء ، وقد جعله الملك على خزينته الخاصة لشهرته بالمهارة فى الأشغال المالية ، ثم ثلاثة من أُمراء العائلة وكانوا عن يسار الملك . فما زال الحديث يجر بعضه بعضاً بين رمسيس وجلسائه حتى تناول أحوال المعابد وشئون العبادة فى البلاد فسأل الملك الكاهن الأعظم : هل ما يزال الشعب على مألوف عادته من التمسك بديانته والاجتهاد فى عبادته ؟ قال : إنه يا مولاى على حالة ترضيك من التمسك بالدين الذى هو رأس الأخلاق . قال : فى الحقيقة وإنى لا أجد أمتى بلغت ما بلغت إلا بالأخلاق :

وإنما الأمم الأخـــلاق مـــا بقـــيت فـــإن هُم ذهبت أخـــلاقـــهم ذهبـــوا

قال : ولكنى يا مولاى أُبصر بأُمور تجرى وأخشى من عواقبها . قال : وماذا عسى يجرى الآن مما لا أعلم ؟ قال : إننى أشم يا مولاى من أشعار بنتـؤُر وكتاباته وخطبه ودروسه العامة رائحة الميل إلى تجريد العبادة من صفتها المادية القائمة بها الآن ، والذهاب بها فى مذهب روحانى محض لم يألفه الشعب من قبل ، حتى أصبحنا نخشى أن تتـأثر الأفكار بمبادئه الجديدة فينشأ عن ذلك تمزيق الحجاب بيننا وبين العامة . وجلالتكم سيد العارفين بأن الدين فى مصر كالملك لا حياة له بدون الحجاب ، وأننا معاشر الكهنة دعائم سلطتكم فى البلاد والساهرون على حفظ المهابة لكم فى نفوس

العباد فمن تهجم علينا فقد تهجم عليكم ومن أساءَ إلينا أساءَ فى آن واحد إليكم . قال الملك : وعلام كل هذا الاشتكاء يا إمامنا العزيز وأنت تعلم أن القوانين عندى تعلو ولا يُعلى عليها وأن لا مسىء إلا آيل يومًا إليها ولو أنه ابنى آشيم ، فإن كان فيما يقوله بنتؤُر ويكتبه شىءٌ يؤْذى النظام أو يخالف الأحكام فاطلبوا محاكمته فإن للقانون لا لنا الانتقام . قال : وكيف يا مولاى وإنى لأجده أبعد منالاً من لصوص منفيس الذين يسرقون سلاسل الحق الذهبية من صدور القضاة وهم على كراسى هيبتهم يحكمون ؟ قال : إذن فهو بذمة من القانون وأمان وليس لأحد عليه سلطان . فدخل عندئذٍ كبير الحرس فى الحديث غير مندفع ، فقال يخاطب الملك : لعل رئيس الديانة يا مولاى يقصد بما أبدى أن تكون النصيحة من جلالتك مباشرة لبنتؤُر بأن لا يهيم وأن يرجع إلى هداه القديم ، وإلا فإن رئيس الديانة أكبر أدبًا وأرفع أخلاقًا من أن يبغى الضرر والفضيحة لقرين صبا الملك وشاعره اللهج بمفاخره بين أبناء الزمان المتفنن بمحاسن أيامه فى كل أين وآن . قال : حسنًا يا ندور وإنى فاعل ذلك . قال : ولكنى أشتهى على مكارمك يا مولاى أن لا تبالغ لبنتؤُر فى الزجر وأن تقول لهُ قولاً كريمًا ، كما أنى أُخطر على فكرك السامى التماس حكومة اليونان إلى جلالتك أن يسير إليها حكيم من رعاياك لينوب عن حكومتك السنية فى مؤتمر الفلسفة والآداب الذى ينعقد فى هذا العام بتلك البلاد ، وإذ كان بنتؤُر رجل هاته المهمة الوحيد الذى لا أحسب اختيار الملك واقعًا إلا عليه فمن العدل إذن أن لا يزجر ولا يهان ، بل من المروءة أن لا يخاطب قبل سفره فى مثل هذا الشأن . قال : صدقت يا ندور وقد أحسنت بتذكيرى التماس اليونان .

ثم إن الملك خف خارجًا إلى جمهور ضيفانه وخف جلساؤُه على أثره . فمشى ندور بجانب رئيس الديانة يقول لهُ همسًا : كيف ترى حيلة أخيك ؟ قال : نعمت الحيلة ونعم المحتالون أنتم يا أصحاب الملوك وإنه لسفر بعيد وغياب مديد يكفياننا شر ذلك المهوس إلى أجل ، كما ستكفينا المحكمة الكبرى بعد أيام بأُس الملعون رادريس فنصبح وقد خلا لنا الجو واتسع فضاء العمل ، ثم لنا بعد ذلك ولعذراءِ الهند شأن .

وكان الملك قد بلغ القاعة الكبرى فلما دخلها اشتغل القوم بلقائه وتحيته عما كانوا فيه من اللذات فى ظل ساحته . وكان أول ما التقى وجهه بوجه "آرا" فتقدمت فمثلت لديه ثم دنت فقبلت يديه فوقف معها برهة يتحادثان فى بعض شئون القصر . ثم إن الملك ارتجل نظرة إلى الملأ فلمح "هوتر" ماراً يتمشى فأومأ إليه أن يدنو فدنا فقال له ممازحًا : ماذا تقول فى مرافقة آرا يا هوتر ؟ قال : وهل السعادة يا مولاى والنعيم إلا مرافقة مثل هذا الملك الكريم ؟ قال : فخذها إذن فتمشيا فلأنت أحق بذلك منى والحق فوق كل عظيم . فأخذها هوتر وانثنيا يخترقان الزحام إلى أن اهتديا لمكان فى مأمن من الأسماع والأبصار فجلسا ثم شرعا يتحادثان ، فقال هوتر بصوت يشف عن الوجد والحقد : لعل سعيك يا مليكة الغد مصادف بعض النجاح فى مشروعك الخطير الذى أوشكت أن تقلبى المملكة من أجله . قالت : علىَّ أن أسعى وأبذل جهدى وليس علىَّ أن يساعدنى الدهرُ . قال : ولكن آشيم يروح ويغدو كارهًا للقائك . قالت وتبسمت : وما ضرنى وأنا عندى الذى يبيت ويغدو مغرمًا بى حبًا . قال : ومن أين لك نبأُ هذا؟ إنك واهمةٌ يا آرا أو أنت تمزحين . قالت : إنه ليس بالوهم. إنه عين اليقين وإنى لأعجب لك يا هوتر كيف تغلب الآلام وأسألك مندهشة بأىّ قلب تكتم الغرام . فلبث الفتى برهة حليف الصموت عصىَّ النطق كالمبهوت، وقد كاد الموقف يغلبه على أمره فلا يملك كتمانًا لسره ، وآنست آرا منه ذلك فعادت فقالت: تكلم يا هوتر تكلم وصرح ولا تتكتم وبح بهواك الذى أضناك وكاشف آرا ولا تخف الوجد عنها إنها بها منك فوق ما بك منها . فلم يكن من جواب هوتر على هذا الإقرار الصريح إلا أن نظر إلى الفتاة نظرة مسىء الظن مرتاب ثم قال مستنكرًا: وآشيم . قالت : قُبح من اسم وقبح حاملهُ . قال : ولكنى أراك تفعلين ما لا يفعل فى سبيله . قالت : بل فى سبيل الملك يا هوتر ولو أن أمرى فى دفع الطمع بيدى ما بت إلا أنعم الناس ، ولكنه داء المطامع تمنى به نفوس وتعفى نفوس وما منى بهِ أحدٌ إلا عاش فى نكد ومات بالكمد .

تحت التـــــــراب خـــلائقٌ ... مـــــا كلهم قـــــتلى المرض

النصف مـــــات بجـــــهله ... والنصف مـــاتوا بالغـــرض

قال : إذن فأنا أرمى عليكِ هواكِ ولا أقبل منك هذا الحب المشوب بالسفالة الدنس من اللؤم . قالت : ارحمنى يا هوتر. إنك بمهجة وفؤاد ولا تأخذنى بما يزين إلىَّ الطمع أنه من جناية الميلاد . قالت هذا وأخذت يد الفتى غصبًا تتأملها طورًا أو حينًا تقبلها، وتارة تمرها على صدرها ومرة تبللها بالدموع وآونة تجففها بالأنفاس . أما هو فكان يجمع فمهُ ليقبل الجبين الذى تيمه وكلما هم شعر بأنفة تمسكه عن ذلك فيمتنع .

وبينما هما على هذا الحال سمعت آرا كأن مناديًا يناديها فالتفتت وراءَها وإذا هى "آثرت" بنت الملك ، وكانت خارجة من غرفة الاستراحة تؤُم القاعة الكبرى، فتوجهت نحوها مسرعة وتركت هوتر فى شر حالة ، فابتدرتها الأميرة قائلة : ما هذه الخيانة يا آرا وأين الشرط ما بيننا ، وهل هكذا جزاء الإحسان ؟ قالت : عفوًا يا مولاتى ، واعتقدى أن جاريتكِ على قدم الإخلاص سرًا وعلانية وعلى ذاك العهد غيبًا ومشهدًا ، وإنما نحن نقطع الوقت بالكلام كما يجىء وما هوتر عندى إلا كبعض الناس ، بل لولا أن جلالة الملك هو الذى وكله بى ليسايرنى ويسامرنى لما ضمنى وإياه مكان تحت سماء هذا البنيان . قالت : حسنًا يا آرا وما زلتِ الخليلة الوفية ولكن هل ذكرنى لكِ هوتر بأمر حلو أو مر.. خير أو شر ؟ قالت : لا يا مولاتى . قالت وتنهدت : إذن فهو لا يلقى لوجودى بالاً ، ألا وهو مشغول بغرام ذى سر لم أطلع بعد عليه ، فمن يا ترى تلك التى تزاحمنى على حبيبى ولا ترجو لأبى وقارًا فى مكايدتى وتعذيبى . قالت : هونى عليك يا مولاتى فورأس الملك ما قضى هوتر إلا لك ولن يقترن إلا بكِ .

وعند ذلك لمحت آرا خادمتها الخصوصية مقبلة من بعد تخترق الجموع نحوها فاستغربت الأمر وأنكرتهُ فى نفسها ومشت إلى لقائها ، فلما التقتا قالت لها الخادمة همسًا : إن الملف الذى أمرتِ يا مولاتى أن يؤْخذ من الثوب الأبيض ليوضع فى صندوق المصوغات لم أجده على الثوب فلعلكِ جعلته فى مكان ثم نسيتِ فما تذكرين . فأطرقت الفتاة برهة تذكر نفسها فلم تذكر من الأمر غير كونها أمضت برهة فى غرفة رادريس ، وأن الملف لابد أن يكون قد سقط منها هنالك عندما كانت تخلص ذيل ثوبها من يدى التمساح ، وما زالت هذه الفكرة تؤثر فى الفتاة ويشتد تأثيرها فتتمثل لها

العواقب سيئة وخيمة والفضيحة هائلة جسيمة حتى زاد بها الاضطراب وتزلزل مجموع الأعصاب فسقطت بين ذراعى الخادمة مغشيًا عليها .

فلما رأى الحضور ما حل بآرا تكأكأوا جموعًا يسألون عن أمرها ويستفهمون بصحتها ، وانتدب الأطباء من بينهم لتنبيهها ، ثم نقلت إلى بعض الغرف لتأخذ راحتها ، وكان فى بعض الزوايا هنالك أربعة شبان من أبناءِ الكبار وكانوا من الأحرار فحين نظروا ما أصاب الفتاة لم تثر لهم عاطفة ولم ينبعث حنان ، بل استمروا يتهامسون فقال أحدهم : إن للأمر لدخيلة فلقد كنا نراها قبيل حضور الخادمة فى أتم صحة . قال آخر : وما أدرانا أن تكون قد سمعت شيئًا كدرها . فقطع الثالث عليهِ قائلاً : وما عسى يكدرها إلى هذا الحد من الأشياء اللهمَّ إلا أن تكون قد علمت بخيبة المسعى فى بعض أعمالها الشيطانيَّة . قال الرابع : إن كان هذا أو ذاك فليس فى الأمر ما يشغلنا عما نحن فيه من تدبير نزهة البحر فى سحر هذه الليلة ، والآن فأخبرونى كم يكفينا من النبيذ وأى أنواع الفاكهة تختارون ، وهل لكم فى الصيد حتى أُوعز إلى تابعى بتهيئة ذلك كله وجعله فى الزورق وانتظارنا به على المرسى الذى بالقرب من القصر؟ قالوا : عشر زجاجات ، وشيءٌ من العنب ، واثنتان من أمهر راقصات المدينة تختارهما أنت ومغنيك الخصوصى الذى ملأت سمعته الآفاق . قال : ذلك إليكم وإنى ذاهب إلى حيث الخادم لألقى عليه أوامرى بالاستعداد .

حتى إذا كان نصف الليل برح الملك المجلس فصعد إلى الطبقة العليا من القصر لينام . وكان المدعون قد أخذوا قسطهم من أُنس تلك الليلة الشائقة ولم يبق غير الانصراف ، فكنت تراهم ينهالون على الأبواب زمرًا بين فرادى ومثنى وكلهم ألسنة تلهج بالثناءِ على مكارم الملك والدعاء لذاته المقدسة بدوام العز والبقاء .

أما "آرا" فقد كانت أفاقت تمامًا فلما رأت المجلس ينفض تأخرت فى جماعة من الكهنة حتى انصرف الناس جميعًا ، فخرج الكهنة وبينهم بنت كبير الحرس وما زالوا يمدون لأقدامهم الخطو مسرعين إلى أن وصلوا المعبد الأكبر ، وهنالك قصدت توًا إلى

مبيت وكيل المعبد وكان نائمًا فنبهته فانتبه فقصت عليه الخبر وما كان من أمر الملف وقوعه فى قبضة رادريس . فلما سمع الكاهن ذلك منها تغير وجهه بادئ بدءٍ وظهرت عليه آثار الارتباك ، وأطرق قليلاً يفكر ويدبر ، غير أنه لم يلبث أن أقبل على الفتاة فبالغ لها فى الملاطفة وتسكين الجأش ثم أشار لها أن تجلس فجلست وانثنى هو فأوصد الباب ثم عاد فلبس لباسًا خاصًا وأوقد نوعًا من البخور معلومًا لهُ ، وجاء بعد ذلك وسط الغرفة فتربع جالسًا ولبث كذلك نحو ساعتين من الزمان صامتًا ثابتًا لا يتحرك منهُ إلا شفتاه وعيناه وأحيانًا يداه . كل ذلك وآرا ذاهبة الصبر تنظر منتظرة وتتأمل مؤَملة حتى نطق الكاهن فقال : ها هو قد انتبه من نفسه على غناء وطرب الناس فى زورق يتنزهون فى النيل . ها هو قد صار فى قبضتى وطوع إرادتى . ها هو يحاول المكث فى السرير فلا يستطيع . ها هو يجهد أشد الجهد من تسلطى على أعصابه . ها هو يمزق ثوبه . ها هو ينزع الملف من صدره . ها هو يفتح النافذة . ها هو قد مد يدهُ بالملف . ها قد ألقاه فى النيل .

* * *

الفصل الثالث

الأحرار فى طيبة

كان بطرف من شارع الصناعة مخزن صغير يبيع الأسلحة . وكان يتردد على هذا المخزن ويطيل الجلوس فيه كثيرون من الفتيان معارف التاجر ، الذى كان فتى شابًا كذلك ، وكان فى جملة أُلاَّف المخزن وزواره العديدين بيسمتوس ثانى أنجال الملك وشقيق آشيم الوحيد ، غير أنه كان يغشاه متنكرًا كما هى عادة الملوك والأمراء فى كل أين وآن .

فبينما الأمير ذات يوم جالس فى زاوية مستترة من المخزن وحوله أربعة فتيان من معارفه وهم يتذاكرون الحوادث والأحوال دخل شاب هندى فسأل التاجر قائلاً : أرنى ما عندك من صنف الخناجر وابدأ بأصغر ما تبيع منها . قال : إن كان لك فى الخناجر الصغيرة فإن عندى منها ما تستسهل حمله وتأخذه لأول وهلة، ثم أتاه بخنجر فى قبضته سلسلة فى طرفها سوار وقال : هذا الخنجر ذو السلسلة وهو آخر اختراع ، بل أنت لهُ أول مبتاع ، والذى يُذكر من مزايا هذا الخنجر التى لا تحصر أنهُ يريح حامليه كثيرًا والمسافرين من بينهم أكثر . قال : كفى فقد أعجبنى وأنا مشتريه . ثم التفت حوله فرأى جماعة فى زاوية من المخزن وهم شاخصون إليه وكأنما أرابهم أمره، فلم يجد بدا من اتقاء ظنونهم فقال للتاجر : وما عندك أيضًا مما يليق أن يحمله الغريب هديَّة لأهله وإخوانه . قال : عندى السلاح قديمهُ وحديثهُ وجيدهُ وغثيثهُ فانظر وتخير ، فجعل الهندى يتأمل ويختار حتى أخذ شيئًا فأعطى التاجر أضعاف القيمة من الأحجار

الكريمة ثم حيَّاه وانطلق . فقال عندئذٍ أحد أصحاب الأمير: من عسى يكون هذا الهندى يا ترى ؟ فقال التاجر : علمى كعلمك فى أمره ، ولكن القيمة التى بذلها لى تدل على أنه رجل غنى واسع الثروة . قال الأمير : لعلهُ أحد الوفد الذين قدموا اليوم برسالة خصوصية من الملك دهنش إلى أبى . قال الصاحب : وهل فى المدينة وفد هندى الآن يا مولاى ؟ قال : نعم وأنا فى عداد المدعوين لحفلة مقابلة الملك لهم . قال : ومتى تجرى هذه الحفلة يا مولاى ؟ قال : اليوم قبيل الغروب . قال : وما بال الأمير آشيم لا يصل مع أن الذى نعلمه أن الأمير برح منفيس أول أمس والمسافة بينها وبين العاصمة لا تحتاج إلى أطول من هذه المدة . قال : إن أخى يريد ليجعل يوم قدومه موافقًا ليوم صدور حكمنا فى قضية رادريس، فإن كان الحكم الإدانة اغتنم الفرصة ليستوهب الملك العفو عنه لمناسبة تشريف عذراء الهند لعاصمة البلاد، وإن كان البراءَة كان ذلك زيادة فى رونق اليوم وبهائه . قال : نعم الرأى وأنها لأريحية جدير بها مولانا الأمير آشيم ، وهل حقيقى يا مولاى أن جلالة الملك عهد إلى سعادتك رئاسة المجلس الأعلى الذى ينظر فى هذه القضيَّة ؟ قال : نعم . قال : إن رادريس إذن لسعيد . قال : إلى هذا الحد فلتقف أسئلتك يا منحب ، فورأس أبى لن يكون رادريس بين يدى على علو مكانته إلا كبعض الناس حتى تنطق قوانين رمسيس ، فإن قالت بإدانته عوقب لا محالة وإن فاهت ببراءته برئَ ثم لقى من مساعداتى ومساعفاتى ما ينسيه ما كان من سجن وهوان . قال : وهذه أيضًا أريحية أنت بها يا مولاى خليق . ثم أمسك الصاحب عن هذا الموضوع وطرق غيره فقال : ماذا تم يا مولاى فى مشروع إنشاء المدارس الحرة ؟ قال : صدَّق الملك عليه فى هذا الصباح ، وصدرت بذلك الأوامر العالية لأُولى الأمر فى طيبة ومنفيس . قال : بُشرت بكل ما تحب يا مولاى ، ففى هذا اليوم لا ريب تقوض نفوذ الكهنة وانتزع منهم السلاح الرهيب ، ولكن كيف خاطر الملك إلى هذا الحد وعلى من اعتمد فى هذه العظيمة ؟ قال : تدرع بأخى آشيم ليتقى سهام الكهنة، فما زال يهددهم بالاعتزال والتنازل لولى العهد فى الحال حتى أذعنوا راضين بأخف الضررين . قال : إذن فإن لنا أن نرجو أن سيكون لمشروع إنشاء المكتبات العمومية هذا الحظ عينه .

قال : هذا عزم الملك أيضًا يا منحب ولكنه يرجئ الفصل فيه وفى غيره من مقترحات أخى إلى ما بعد قدوم الأمير والفراغ من حفلات قرانه . والآن أترككم وأذهب لأرتدى ملابسى الرسمية وأستعد . ثم إن الأمير ودع أصحابه وانطلق ذاهبًا .

وفى هذه الأثناء دخل شرطىٌّ فطلب من التاجر بيانًا عما ابتاع ذاك الهندى الغريب من مخزنه ، واستقصه جميع ما دار بينهما من الكلام ، فأعاده عليه فانصرف مكتفيًا بما علم من الخبر .

وخرج الأحرار بعد ذلك فمضى ثلاثة منهم لحالهم، وخطر للرابع أمر مهم يجب أن يعلمهُ الأمير قبل ذهابه إلى الحفلة ، فركب جواده وسار خببًا يؤم قصر النجل الثانى حتى وصله وكان الوقت الأصيل فترجل ودخل فجلس ينتظر فراغ الأمير من لبس ملابسه التشريفية . ولم تكن هنيهة حتى أقبل النجل الثانى يختال فى حلة عزه وفخاره فبدر الفتى إليه وقال همسًا : لا يبعد أن يُجرى الملك ذكر والدى بحضورك يا مولاى ، وأن ينكر عليه استعفاءه من العضويَّة فى مجلس الحكومة الأعلى ، فأنا أشتهى على مكارمك أن تبذل المجهود لتحمل جلالته على قبول هذا الاستعفاء الذى كنت أنا الباعث عليه بلطف احتيالى وكثرة إلحاحى وسؤالى . قال : وهل تحققت بعد تمكن الكهنة من إرادته ؟ قال : كل التحقق يا مولاى ، بل هو كأحدهم فى جميع أحواله، ولولا ما تفرض النواميس من برهِ ووجوب كرامته وسترهِ لأطلعتك على العجيب الغريب من أمره ، ولكنى أسألك يا مولاى أن تكتفى بهذا . قال : إذن فثق أن استقالتهُ مقبولة وأننا غنمنا كرسيًا جديداً فى مجلس الحكومة الأعلى . فقَبَّل الفتى يده وانصرف . وركب الأمير على الفور فسار إلى دعوة أبيه .

* * *

الفصـــل الرابع

الوفد الهندى فى قصر الملك

برح الوفد الهندى دار الضيافة الرمسيسية قاصداً قصر الملك يسعى على الأقدام . وكان مؤلفًا من نحو عشرين مندوبًا ليس منهم إلا أمير أو وزير ، وهم يسوقون بين أيديهم هدايا الملك "دهنش" إلى "رمسيس" من نمورة وجلود وطيور نادرة الوجود وذهب كثير بين سبائك ونقود وأحجار كريمة فوق كل قيمة وغير ذلك من ثمين أشياء الهند القديمة ، وكان القوم يسيرون خافضى الرأس وأيمانُهم على صدورهم وأشملهم مرسلة نحو الأرض علامة على التناهى فى إجلال مزورهم العالى ومقصودهم الفخيم ، حتى بلغوا القصر وهنالك استقبلهم الحجاب وأجلسوهم فى محل الانتظار ، ثم استصدروا الإذن الكريم بدخولهم فدخلوا على الملك . وكانت الحفلة قد تم تمامها وتكامل بعظماء الدولة نظامها فتقدَّم حامل الرسالة من بين القوم فسجد طويلاً لدى قوائم العرش ثم قام فرفع الرسالة إلى رمسيس فأخذها الملك ودفع بها إلى كبير تراجمة القصر ليقرأ فقرأ :

من دهنش ملك ملوك الهندين إلى ملك ملوك القارتين ورب العرش والتاجين المهيب الجيوش والأساطيل مولانا رمسيس الثانى سيزوستريس صاحب النيل

أما بعد ، فقد سلف من جليل إحسان الملك إلينا وسبق من جزيل منته علينا ما يجرئنا على الالتجاء فى حمى قوائم عرش عظمته وشوكته مستجيرين به من الدهر الغادر حيث فجعنا فى جارية الملك كريمتنا عذراء الهند فساق لها يداً عادية اختطفتها

من خدر عزها وصيانها ، فإن تفضل جلالة الملك ومد لنا يد المساعدة العليَّة فى سبيل إيجادها كانت جارية مملوكة يهبها لجلالته والدها المخلص الداعى التوقيع

"دهنش"

فلما فرغ الترجمان من التلاوة كانت من الملك ابتسامة ثم أومأ إلى الوفد أن يبرحوا الحضرة فرجع بهم الحجاب من حيث جاءُوا ، والتفت رمسيس عندئذٍ إلى أصحابه فقال : أتدرون ما يريد الخبيث دهنش بتمليكى عذراء الهند ؟ قالوا : العلم لمولانا الملك . قال : يريد أن يفرق بينى وبين ابنى بهذه الدسيسة التى كم لهُ قبلها دسائس فى علائقه معنا ، وإنها لمن أعجب ما خلق دهاء الهنود للآن ، ولكن دسائسهم قد كشفت من طول ما أُلفت وعرفت من كثرة ما وصفت حتى أمسى دهاؤُهم المشهور ولا انتفاع بسيفه المشهور ، وهكذا الأمم إذا صغرت عندها الأخلاق صغرت العقول وصغر ما تفعل وما تقول ، والآن فليذهب واحد من هؤُلاء الحجاب فيدعو الهنود إلى حضور ليلة قران آشيم . قال الملأُ بدهشة : وهل تعينت الليلة بعد يا مولاى ؟ قال : نعم وهى الليلة التالية ليوم فصل المجلس الأعلى فى مشكل جواز الخطبة أو عدمه . وأنت يا كاتم الأسرار اذهب فاكتب إلى ناس هذا المجلس بالاجتماع يوم الخميس المقبل أى بعد ثلاثة أيام للنظر فى مسألة الخطبة وإنهائها فى ذلك اليوم نفسه . قال : سمعًا وطاعة يا مولاى ، ولكن ما أوامر جلالتكم بشأن استعفاء العضو الموقر رمايس ؟ قال : ليقبل وليعين مكانه صاحبنا بنتؤُر فقام عندئذٍ كبير الحرس فقال : ولكن جلالتكم عقدتم العزم على إرسال الأستاذ بنتؤُر إلى بلاد اليونان مندوبًا ساميًا من قبل المملكة المحروسة فى مؤْتمر الفلسفة والآداب . قال : قد أُنسيت ذكر هذه النيَّة يا ندور . ولكنى أمرت فليمضِ الآن أمرى ، ومتى قدم بنتؤُر فى ركاب الأمير عهدنا إليه باختيار من يعهد به الكفاءَة لهذه المهمة الجليلة من بين تلامذته الكثيرين . فأخرس هذا الجواب كبير الحرس . وكان هوتر حاضراً فوصل حبل الحديث قائلاً : بقى الآن كرسى خال فى مجلس الحكومة الأعلى يا مولاى . قال : وأى كرسى ؟ قال : كرسى القائد رادريس .

قال : وهل صدر الحكم فى قضيته بعد ؟ قال : لا بل يصدر غداً يا مولاى . قال : وإن غداً لناظره قريب ، فما علينا إذا أرجأنا النطق بهذا العزل المهين حتى تنطق به القوانين فخرس هوتر لهذا الجواب كما خرس صاحبه كبير الحرس من قبل . ثم إن الملك أشار للملأ أن ينفضوا من حوله فتفرقوا وهم قسمان : نكد ذليل ، تتمثل لهُ الخيبة بكل سبيل، وهم أعوان الكهنة ، وآخر فرح بما لديه فخور يستقبل الآمال ويستبشر لمساعفة الأمور، وهؤُلاءِ هم الأحرار الذين لم يعد ينقصهم إلا كرسيان لتكون الأغلبية فى مجلس الحكومة لحزبهم الظافر المنصور ، بل هم قد رأوا وسمعوا فى ذلك اليوم المشهور ما صير هناءَهم عند غاياته وجعل سرورهم فوق كل سرور ، رأوا ملكًا لا يستصعب الصعب ولا يحذر المحذور ، وكان بالأمس قطبًا لرحى أغراض الكهنة عليه تدور، وسمعوا ولكن وحيًا ومن وراء ألف حجاب أن هذا الملك الشيخ الجسور ما أتى الذى أتاه إلا وهو قد صمم على النزول عن عرش النيل واعتزال الأمور فكان حساب الأحرار ، بل يقينهم أن رمسيس سيغتنم فرصة قران ولىّ العهد ليتنازل له عن الملك فيصبحون والأمر أمرهم ولهم وحدهم سياسة الجمهور .

* * *

الفصل الخامس

محاكمة رادريس

لمَّا أصبح صُبح اليوم المضروب لمحاكمة "رادريس" عقدت محكمة طيبة الكبرى جلسة مخصوصة للنظر فى تهمة الاشتراك فى اختطاف عذراء الهند الموجهة ضد رادريس والحكم فيها .

وكانت المطالب بحقوق الهيئة ضد المتهم فى تلك الجلسة القائد "ندور" كبير حرس الملك ، والمدافع عن رادريس أحد مشاهير الكتاب فى طيبة وكان من كبار تلاميذه بنتؤُر .

أما المحكمة فكانت متشكلة من ثلاثين قاضيًا نصفهم كهنة ، والنصف الآخر قواد من الدرجة الأولى – درجة رادريس – . وكانت مشمولة برئاسة النجل الثانى للملك بصفة استثنائية إكرامًا للمتهم ومبالغة من مولاه الملك فى قيمته .

وكان الجميع لابسين ثياب القضاء النظيفة البيضاء . وقد حمل الرئيس فى عنقه سلسلة الحق الذهبية ، بها صورة المعبودة "ساتا" متخذة من الأحجار الكريمة وعلى رأسها شبه ريشة مجعولة رمزًا على الحق . وهذه الصورة كان الرؤَساء يديرونها فى وجه صاحب الحق بدون أن يتكلموا ، ثم يُسلَّم إليه الحُكْم مكتوبًا لينفذه على الخصم ، حتى إذا أخذت الجلسة نظامها على ما وصفنا من تمام الأُبهة وكمال الوقار ، شرع الرئيس يتلقى شهادات الإثبات فالنفى شفاهية وبالكتابة إلى أن أتى عليها جمعاء .

ثم إنه عرضها على نائب الملك ووكيل المتهم ليطلعا عليها ، فأخذ كل واحد منهما يزيف شهود الآخر ويبطل شهادتهم شفاهًا وبالكتابة . وبعد ذلك عرضت عليهما

القوانين ليستعينا بها . فعمل كل منهما نتيجته وعرضها على صاحبه ليطلع عليها ويبدى ملاحظاته الأخيرة بشأن ما جاءَ فيها، ثم وقَّع على الأوراق ووقَّع الشهود معهم ورفعاها بعد ذلك إلى هيئة المحكمة لتصدر حكمها فى القضيَّة . فلبثت المحكمة فى المداولة نحو ساعة من الزمان حتى إذا درست القضية حق دراستها ولم يبقَ غير الحكم ، زحزح الرئيس كرسيه قليلاً ، ثم قبض على صورة الحق المعلقة فى عنقه ، والتفت نحو نائب الملك ، فأيقن الحاضرون عندئذٍ أنه صاحب الحق وأن التهمة قد ثبتت على "رادريس"، ولكنه ما همَّ أن يصوِّب الصورة إلى "ندور" حتى سُمع من جوف القاعة صوت كادت تنكفئُ لهُ سماء البنيان على أرضه وهو يصيح : لا تصوب الصورة أيها الرئيس وخذ هذا الملف فانظره ، فإن فيه وحده الحقيقة كل الحقيقة . فتفرغ لذلك القضاة . والتفت الناس وطالت أعناق ، وقصرت أعناق ، وابيضت وجوه ، وأسودت وجوه . ثم لم يدر الرئيس إلا بشيءٍ قد سقط بين يديه مقذوفًا به من جهة الصوت ، فالتقفه وإذا هو ملف كما أخبر الصوت ومعه ورقة موقَّع عليها من أربعة من أبناء الكبراء وهذه الورقة مكتوب فيها :

"بينما كنا نحن أصحاب التواقيع نتنزه فى النيل فى سحر ليلة كذا صادف مرورنا سقوط هذا الملف من بعض نوافذ الجهة المطلة على النيل من معسكر الحرس ، فتلقفه الزورق ، فنحن نقدمه لهيئة المحكمة خدمة للحق . ونتكل على عدالة أحكامها فى جميع الأسرار التى يهدى هذا الملف لمواضعها من قضية البطل الشريف رادريس".

"التوقيع"

فلما قرأ الأمير الرئيس ما فى الورقة ، وكان يعرف تلك الأسماء ويعهد فى أصحابها الصدق والنزاهة ، [.....] فَضَّ الملف . وكان يشتمل على نحو خمس عشرة ورقة . فقرأها ثم أعاد قراءتها ، حتى إذا لم يبقَ عنده أدنى شك فى صحتها وصدورها من أصحابها الموقعين عليها ، وقف والبشر ، ملء جبينه وجلال الحق يحف به من كل الجهات فقال : نحن النجل الثانى بصفتنا رئيسًا لهذه الجلسة المخصوصة المنعقدة بأمر جلالة مولانا ووالدنا الملك وبناء على ما وُفقنا للوقوف عليه من الأسرار

فى هذا الملف الذى لا ينبغى أن يسبق الجمهور جلالة الملك إلى العلم بمشتملاته . واتباعًا لنصوص قوانين جلالة الملك المؤسسة على الحكمة والعدالة حكمنا :

أولاً – بإلغاء التحقيق السابق برمته .

ثانيًا – بتبرئة ساحة البطل الموقر قرين صبا الملك وعفريت الحبشة ، ومدوخ إفريقيا القائد "رادريس" الحارس الأول لسعادة الأمير "آشيم" ولىّ عهد جلالة الملك ، مع تفويض الرأى فى التعويضات المستحقة للقائد المشار إليه إلى عدالة ومكارم حكومة الملك .

ثالثًا – بإلقاء القبض فورًا على أصحاب الأسماء والألقاب الآتية وهم : القائد "منما" رئيس الفرق الاستعمارية بمنفيس ، والضباط "كعكا" ، و "شرم" ، و "مشتاك" النابعون للفرق المذكورة ، والكهنة "بربايس" ، و "مشنا" و "سيساين" التابعون لمعبد منفيس الأكبر ، والأميرة "آثرت" كريمة جلالة الملك ، والقائد "ندور" كبير الحرس ، وكريمته السيدة "آرا" ، و "هوتر" مدير الخزينة الخاصة ، والقاضيان "برام" و "أتيون" الجالسان فى هذه الجلسة ، والأمير "مكارس" ابن أخى جلالة الملك ورئيس مجلس الحكومة الأعلى ، و "نيناى" من أعضاء المجلس المذكور ، والكهنة "فيرموس" ، و "كركة" ، و"خرايم" التابعون لمعبد طيبة الأكبر .

ثم إن الأمير أعلن انفضاض الجلسة فانفضت بين تصفيق من الشعب وتهليل وهتاف متعالٍ طويل ، أن ليحىَ الملك ، ليحىَ الأمير ، لتحىَ العدالة ، ليحىَ رادريس . ونزل النجل الثانى عن كرسى الرئاسة فتقدم نحو رادريس فعانقه طويلاً ثم خاطبه بصوت عالٍ ، فقال : الشعب أيها القائد العزيز بين منفذ ما ارتجل فى تهنئتك ومنفد ما كان ذخر لتبرئتك وطيبة لسان واحد حوالى هذه الجدران يهتف أن الحمد للّه خير الحاكمين على أن شرف العظماء والعظم منك أيها القائد العزيز بمكان كورد الحدائق إن نزعت منهُ ورقة انحل وانتثر وانتقض جميعه على الأثر . وهذه الورقة قد تنزعها يد العدالة ، فإن كان ذلك عن خطل منها أو جهالة قيل "ضلالة قضاء" ، وإن كان عن

طغيان من السلطة ودوس للقانون قيل "قضاء بغى وضلالة" . فالحمد للّـه ثانية على أن حاط هذه الوردة الزاهية الزاهرة بعين عنايته الساهرة ، بما تولى القضاء فى أمرك واللّـه خير الحاكمين .

وإنى لا أجد مثلاً لموقف الاتهام المهين الذى كنت فيه ، وكانت الريب عن الشمال والحق الأبلج عن اليمين ، إلا ساحة القتال إذ تجمع بين الجبان الغادر القاتل ، وبين الشجاع البطل الشريف المقاتل ، فلا تنفع الأول كمالات محاذيه . كما لا تضر الثانى صفات قرينه فى الصف وأخيه ، حتى يعجل اللّـه الحكم أو يؤَجل واللّـه خير الحاكمين .

ثم الحمد له سبحانه أَبد الآبدين على أن أثابك عن ذلك الموقف خير ما يثيب العبد الصادق الأمين ، حيث أبى إلا أن ينجلى بهذه التهمة داجى تلك الغمة عن سماءِ كرامة الأمة ، فتبين الأمين من الخائن . وعرف الصادق من المائن . وهى خدمة للوطن العزيز يقلُّ لهادم الحياة ثمنًا . فكيف تستكثر لها وقفة بين يدى القضاء ، لا سيما من بطل مثلك كم لهُ قبل هذه من يد عند الوطن بيضاء .

ولم يكد الأمير يستتم حتى سُمعت ضجة أعظم ضجة تلاها ترديد أبواق ، وصوت مزامير يملأُ الآفاق . فسأل الأمير قائلاً : ما هذه القيامة ؟ فقيل لهُ : إنهُ موكب ولىّ العهد يسير فى البلد وقد شارف دار المحكمة . وفى هذه الأثناء دخل أحد حراس "آشيم" فحيا "رادريس" ثم ناولهُ سيفًا من أفخر سيوف الأمير وخاطبه قائلاً : بأَمر سعادة ولىّ العهد أدعوك أيها القائد الموقر لتخرج فتأخذ محلك فى الموكب ، حيث مركبتك الخصوصية مستعدة لتشرق بك فى هذا اليوم السعيد . فتقلد رادريس السيف وبرح دار الحكمة محمولاً على الأكف من تحمس الناس فى حبه ، وبرحها الأمير على أثره فسبق مركب أخيه إلى قصر الملك . وهنالك عرض الملف على أبيه وأخبرهُ بتفصيل الحال جملة . فكان من وراء بلاغه هذا دهش عظيم للملك وقيامة استغراب وحيرة بين أُناس القصر . وما هى إلا هنيهة حتى أقبل الموكب عريضًا طويلاً فاخرًا جليلاً . فخف ملأُ القصر لاستقبال الأمير على الأبواب . وانتقل الملك إلى قاعة التشريفات الكبرى ، فوقف يحف به الأُمراء والوزراء والقوَّاد وكبار الحاشية . وعندئذٍ أقبل "آشيم"

خافض الرأس من الخشوع له عند كل خطوة انحناء وإلى يساره عذراء الهند تفعل كما يفعل . فابتدر الملك لقاءه فقبَّله على جبينه ، ثم لوى على عذراء الهند فقبَّلها على رأسها ، وانثنى بهما بعد ذلك فجلس وأجلسهما إلى جانبيه . ثم أجال الملك نظراً فى الحاضرين وقال : أين كبير الحرس ؟ فتقدم "ندور" فغضب لرؤيته وطردهُ من حضرته قائلاً : لم أدعُ كبير المجرمين يا خائن ، بل دعوت رادريس كبير حرسى من اليوم . فتقدم عندئذٍ رادريس فقبَّل سدة العرش . فبالغ له الملك فى المجاملة والإيناس وأكثر من الاعتذار لهُ عما مر من ضيمه وضيره فى السجن وغيره . ثم التفت إلى آشيم وقال لهُ : وحق عينيك لا يصحبنى رادريس إلا يومين ثم يجمعكما هذا القصر إلى ما شاءت الآلهة . فأحدثت هذه الإشارة هرجًا ومرجًا بين الحاضرين إذ عدها أكثرهم شروعًا فى التنازل ووعداً مؤكداً لولىّ العهد بملك البلاد . وبينا هم كذلك دخل مأمور الضابطة فى العاصمة وبيده أوراق ليعرضها على الملك ، ومن جملتها أوامر المحكمة بالقبض على القوم الذين لوثهم الملف . فاستصدر المأمور نطق الملك بشأن خمسة من بينهم أمرهم إلى جلالته مباشرة وهم : الأمير ابن أخيه ، والأميرة كريمة جلالته ، وكبير حرسه ، وكريمته ، وهوتر مدير خزينته، فصدرت الأوامر بنفى الأمير والأميرة إلى بلاد اليونان ، وبأن تسوى المعاملة بين الثلاثة الباقين وبين سائر المتهمين فلا يعلى فى أمرهم على القوانين . ثم التفت إلى كاتم أسراره فأمره بأن يعين اثنين من تلامذة بنتؤُر ينتخبهما الأستاذ نفسهُ مكان القاضيين الساقطين من المحكمة المخصوصة ، لتلوثهما بالملف ، وأن تنعقد هذه المحكمة غداً للنظر فى القضية الباغتة والحكم فيها بالسرعة الممكنة . وبعد ذلك طلب جلالته حامل مفاتيح القصر وكانت تلك عادة لهُ فى صرف الزائرين . فاستأذن عندئذٍ الأجانب عن القصر من الحاضرين ، وخلا الملك إلى بنيه وخواصه فلبث بينهم حيناً طويلاً ، إلى أن أقبل الليل فحل نظام هذا العقد الثمين .

* * *

الفصل السادس

طيبـــات طيبـــة

لمَّا كان الغد وقد اطمأنت الآفاق بشمس النيل ذات الإشراق ، قامت طيبة على قدم وساق شأن العواصم الكبيرة عندما تحدث أُمور خطيرة ، فكانت عوالم الموظفين ، ونوادى المحترفين ، وهياكل الدين ، ومجالس الأعالى والمتوسطين ، ولا حديث لها إلا حوادث الأمس فى القصر ، ولا تساؤُل إلا عن نبأ التنازل هذا ، عدا المالكين الشوارع المحتلين للميادين والغادين فى الطرق العمومية الرائحين من أهل الفراغ من الخاصة وأُناس البطالة بين العامة . وكان أكثر انهيال هذه الجماهير على النقط القريبة من القصر والمدانية لدار المحكمة وللبناء المنعقد فيه مجلس الحكومة الأعلى .

وكانت الضابطة قد بثت الشرطة فلم تخلُ منها نقطة . وقد قامت بجنب أعوان السلطة شرطة أُخرى متطوعة منتظمة خفيَّة أنشأَها الأحرار للسهر على حفظ نظام اليوم وتحمى صفوه أن يكدره القوم .

فبينما المدينة على هذا الحال من تواصل الزحام واستمرار انهيال الأقدام ، خرج الأمير وشقيقه ضحى على جوادين كريمين وبينهما هودج الخطيبة السنية محمولاً على الأعناق ، تحيط بهذا الثالوث الكريم كوكبة من نخبة رجال الحرس الرمسيسى وهو يسير قاصداً إلى المعبد بين إكبار الشعب وإجلاله ، وبين ابتهاجه وابتهاله ، حتى وصلهُ ، وهنالك استقر بالأميرة الهودج [.....] عن الدخول ودخل الأخوان على أمون حجرته فصليا ثم قربا له القرابين من كل غال ثمين ، وانثنيا بعد ذلك خارجين فشيعا كما استقبلا بمزيد الحفاوة والتوقير . فركبا وأعاد الموكب المسير يؤُم معرض الصناعة

المستديم . وكان إنشاءُ هذا المعرض فى العاصمة باقتراح من الأمير . فلهذا كان كثير الاهتمام بإصلاحه والسعى فى نجاحه وفلاحه . وتلك شيمة للنفس الكريمة ، أنها تحب آثارها وتبالغ لأعمالها فى القيمة . فلما بلغه الموكب ترجل الأميران ونزلت الأميرة عن الهودج ، ثم دخلوا جميعًا . وهنالك أخذ آشيم يذكر لخطيبته ويصف ويشرح ويعرّف ، وهى ترى من حسن الصناعة وجمالها ، وتؤانس من معانى لطفها وجلالها ما يبهر البصر ويحير الفكر ، والأمير يقول لها : جملة القول يا عزيزتى عن تقدم الصناعة ومبلغها من الإتقان فى عهد أبى السعيد ، أنكِ إذا أخذتِ مثلاً عشرة من هذه الجعالى وتمعنتِ فيها تبادر إلى ذهنك أن الصانع لها جميعًا واحد مع كون الأمر بخلاف ، والجعالى لم تصنعها يد واحدة بل أيدٍ عشر ، وإنما هو الإتقان فى طباع كل صانع مصرى وتعلمين أن الإتقان أعظم أسباب العمران وأكبر دواعى الحضارة والتمدن .

حتى إذا فرغت الأميرة من هذه الزيارة المفيدة رفع إليها أحد الصناع أُولى الآثار فى تلك الدار هدية ، خاتمًا من ذهب ذا فص من العقيق الأبيض النقى فى حجم العدسة، منقوش عليه صورة بحر وأمواج بينها فتاة تعالج الغرق وكانت هذه الصورة آيةً فى الإتقان ، بل غاية ينتهى إليها فى فن النقش الإمكان ، فتقبلتها الأميرة [.....] بالامتنان ، تشاءَمت فى نفسها ، إذ كانت كثيرًا ما ترى فى منامها مناظر فظيعة من هذا القبيل تكون هى فيها محل الغرق . ثم برح الجماعة دار الصناعة فساروا ميممين دار التحف الرمسيسية وكانت تشتمل على ثمين الأشياءِ وغاليها ، مما أُهدى إلى الملك فى مدة حكمه الطويلة . فرأَت عذراءُ الهند فى هذه الدار من العجائب والغرائب ما أنساها ذكر الخاتم وما عليه وتلك الأحلام التى طالما بغضت إليها طيب المنام ، حتى لقد بلغ منها البشر والإيناس أنها أخرجت يتيمة الصين التى كان طوس أهداها إليها يوم قدومها بالصفة الرسمية لمنفيس ، فناولتها آشيم قائلة : وأنا أيضًا أودع هذه اليتيمة فى هذه الدار هديَّة منى لمولانا الملك ، وتذكارًا لزيارتى أنفس تذكار . فأخذها الأمير وتأملها فإذا هو بتلك الصورة عينها صورة الشؤْم

المنطبعة على المرآة ، فاغتاظ وتهيج ودفعت به الحدة إلى أن ألقى سيدة الدرر فى الأرض بقوة فذهبت ألف كسر . ثم أخذ الأمير بيد خطيبته فخرجا والنجل الثانى يتبعهما . فركب الثلاثة وساروا فى موكبهم قاصدين حقول الملك فى الضواحى . وهى بساتين واسعة تجرى فيها الأنهار وتتخللها العيون ، وقد أرصدها الملك لتربية سوائمه الخصوصية ، واقتناء كثير من أجناس الحيوانات الأهليَّة وغير الأهليَّة . فكانت دليلاً محسوساً على شدة عناية الملك بتربية المواشى ، ومزيد اهتمامه بأمر صلاحها ونمائها . وهذا عن علم راسخ عنده بأن مصر وادٍ لا حياة لهُ بدون النبات والحيوان . فلما وصل الركاب الشريف إلى هذه الحقول التى كانت من الآثار الحريَّة بأن يسعى لها وتُزار ، دخل الأمراء الثلاثة فلبثوا فيها نحو ساعة بين تنزه وتفرج وتمش وتريض . وقد أُعجبت الأميرة بها كثيراً وكان على بعض تلك البساتين ذكر وأنثى من الظباء يافعان أبدعت الطبيعة شكلهما ووفتهما من الظرف قسطهما . وكانا فى معزل يتداعبان ويتلاعبان فقر لعيْن العاشقين هذا المنظر الغرامى اللذيذ وسأل آشيم عن زمن جلب ذينك الظبيين فأُجيب بأن الذكر ابن المحل بخلاف الأنثى ، فإنها لم يؤْت بها إلا أمس . وبأنهما ائتلفا لأول وهلة فلا يمشيان إلا معًا ولا يرعيان إلا من حشيشة واحدة ، ثم إن الأمير دعا إليه واحداً من البارعين فى الصيد والقنص وأمرهُ بأن يطارد بعض الوحش بين يدى الأميرة زيادة فى تسلية خاطرها العالى . فانبرى الرجل يفعل . إلا أن آشيم وعذراءَ الهند اشتغلا عنه بالحديث فى أول الأمر ، ثم تفرغا له ينظران فتكدر صفوهما بغتة إذ رأيا ذاك الفظ الغليظ يطارد الذكر والأنثى المتقدم ذكرهما فصاح به الأمير : كفَّ أيها الرجل . كف أيها الظالم . ولكن صدى الزجر لم يصل إلى الغشوم إلا وهو قد رمى فأصاب الذكر ، وانذعرت الأنثى لمصرع أليفها فاستمرت تعدو طائشةً نافرة ، حتى صدها نهرٌ واسع شديد التيار فسقطت فيه مندفعة بقوة العدو . وكانت أنفاسها قد انقطعت من شدة التعب والنصب فلما بلغ الماء خيشومها حتى اختنقت للحين .

فأثر هذا المشهد المحزن فى نفس الأميرة والأمير أشد التأثير ، وضاعف عندهما التشاؤم حتى اضطرا إلى الإسراع فى العودة فراراً من هذه الخيالات المزعجة . فسار

الموكب آيبًا إلى القصر تهفو له القلوب والأرواح أينما مر وأينما لاح ، إلى أن وصل إلى القصر . وهنالك استقبل الأمراء الثلاثة بلائق الإكبار والإعظام . وكان الوجوه والأعيان قد أخذوا يتوافدون آتين من أطراف المملكة وأقاصى البلاد لحضور حفلة القران ، حتى ازدحمت أبواب القصر بالناس وغصت ساحاته ورحابه .

وما هو إلا أن فرغ الملك وأبناؤُه وأصحابه من تناول طعام الغداء ، حتى بدأ الوزراءُ والرؤَساءُ يتواردون على القصر منصرفين من مصالح الحكومة ودواوينها ليعرضوا حوادث اليوم وأحواله على صاحب الحكومة . فأنهى وزير الخارجية فيما أنهى أن ملك الصين قتل وأن هذه الدولة آلت إلى شعوب الشمال المتبربرة ، فلم يعد يرجى أن تقوم لها قائمة بعد . وأخبر مأُمور الأقاليم أن الشقى "طوس" وابنه "هاموس" وجدا مصعوقين ميتين على بعض البيد المتاخمة لبيداء الذئاب ، وأن قد وجدت على طوس وصيته ثم تلا هذه الوصية على مسامع الملك وهى :

" إذا زالت يتيمة الصين زالت هذه الدولة للحين ، وآلت إلى متوحشة الشماليين . وإذا بلغ من رمسيس الوهن وابيضت عيناه من الحزن ، ومات فى أرذل السن غمًا بابنه خير ابن ، فسد أمر هذه الأمة فلا تزال تتغلب عليها دول الزمان وتتقلب الأديان ويمحو اللسان عندها اللسان ، حتى يعمل عالمها ويقتصد فلاحها ويرجع صانعها لشيمته الإتقان ..

وبعد ، فإن صاحب هذه الوصيَّة يتبرع بعد موته بكتبه من كل صنف وعدتها ألف ألف لجامعة الآداب والفلسفة فى طيبة عاصمة المملكة المصريَّة .

وبأمواله الطائلة من مكسوبة وآيلة للأمير آشيم ولىّ عهد جلالة الملك ومن بعده للأمير بيسمتوس ثانى أنجال جلالة الملك ، ومن بعده لجلالة الملك نفسه أى رمسيس الثانى سيزوستريس ملك مصر العليا والسفلى الذى اخترتهُ منفذًا لوصيتى هذه ، مسئولاً عن إجرائها أمام ذمته وأمام الآلهة والناس ".

طوس

الكاهن الأعظم

للديار المصريَّة سابقًا

التوقيع

فحين استوعب الملك وأصحابه فقرات هذه الوصيَّة راحوا مبغوتين مبهوتين ، كأن بهم سحراً . وكان أكثر ما اندهشوا للترتيب غير الطبيعى الذى جرى عليه طوس فى الفقرة الأخيرة عند ذكر المال . وفى الواقع فإن طوس لم يكن ليخرق البديهيات لولا أن أحس شيئًا مما كانت روحه اللطيفة تتنوره فى عالم الغيب والخيال .

ولم يلبث الملك أن خرج من دهشته فأخذ الوصيَّة ودفع بها إلى كاتم أسراره لينفذها فى الحال ، ثم التفت إلى مأمور الأقاليم فأمره أن يعمل اللازم لتحنيط جثة الفقيد ونقلها بعد ذلك إلى العاصمة لتدفن بلائق الاحتفال فى أضرحة الآباء والأجداد .

ثم إنه صرف الحضور إلاَّ خواصه الذين لبث معهم بقيَّة النهار ومعظم الليل مشتغلين بتدبير يوم المهرجان وليلته .

* * *

الفصل السابع

ليلة القران

هى عيد الدهر ، بل ليلة القدر ، لا بل هى العمر ، لمحبين كثر ما أساءَت إليهما الأيام ، وعاشقين طالما روعهما البين وضربتهما النوى بحسام . فلا عجب إذا ولدت الطرب ، وأنالت طيبة الأُنس متين السبب ، بأفراح فتاها الأبر ومجدها المنتظر وعلائها المدخر الأمير أشيم .

فإنهُ لم يكن صبح اليوم التالى حتى أظهرت عاصمة النيل عزها الباهر الأثيل ، بما لبست من حلل الزينة . وتردت من ثياب البهاء الثمينة ، وأضفت على مناكبها من مطارف الجلال والجمال مما لا تحلم بمثله مدينة . فلا تسل عن تلك المشيدات الفخام ، كيف تجلت وتحلت بالأزاهير والأعلام . ولا عن عقد هاتيك الشوارع الجلائل الفخام ، كيف تولاهُ الذوق السليم ، فانجلى باهر السلك باهر الزينة باهر النظام . ولا عن ذلك الشعب العامل الحى ، كيف نهض وقام واستقبل أسعد المواسم فى أكبر العواصم بصنوف الحفاوة والتجلة والإكرام . وبالجملة كانت طيبة معابدها وهياكلها وحصونها ومعاقلها وقصورها ومنازلها ، وسماؤُها وأرضها ، وطولها وعرضها ، منظرًا واحدًا فردًا بديعًا هو جلال الزمان ، بل جمال الأيام .

فلما كان العصر خلص ميدان رمسيس من الزحام ، وأُخلى من الأقدام ، فخرج إليه الملك وولىّ العهد وخطيبة العلاء والمجد يحيط بهم سائر الأمراء ويتبعهم الوزراء والكبراء ، حتى بلغوا سرة فضائه الوسيع فوقفوا يحفهم الوقار الأكمل وهنالك استهلت الأبواق متجاوبة ، وارتجلت المزامير متناوبة ، وتعالى تهليل الجموع ، وتواصل هتافهم

أن ليحيَ الملك ، ليحيَ الأمير ، لتحيَ الأميرة . ثم سرى السكون وساد الكون وقام على الفور كاتم أسرار الملك فألقى على الجماهير هذا الخطاب الرسمى وهو :

أيها الشعب الموقر

بأمر جلالة الملك أتلو عليكم قرار مجلس الحكومة الأعلى بشأن خطبة الأميرة عذراء الهند لسعادة ولىّ عهد المملكة المصريَّة وهذا هو نصه :

أُبلغ إلى مجلس الحكومة الأعلى ما توجهت إليه رغبة جلالة الملك من تزويج سعادة الأمير أشيم ولىّ عهد المملكة المصريَّة بالأميرة عذراء الهند كريمة الملك دهنش ملك الهند الشرقيَّة . ودعى المجلس المشار إليه للنظر فى أمر هذا الزواج من حيث كونه موافقًا لتقاليد المملكة ونظاماتها أولاً . فقرر المجلس بعد الاطلاع على القوانين الأساسيَّة للمملكة الرمسيسية أن اقتران سعادة ولىّ العهد بالأميرة المشار إليها جائز لا تحرمه القوانين ، ولكنها تشترط معه أمورا ثلاثة : أولاً : قبول الملك والد العروس به . ثانيًا : أن تُذكر الأميرة فى عقد الزواج باسم مصرى . ثالثًا : أن تتعهد الأميرة فى عقد الزواج أنها إذا آل الملك إلى بعلها الموقر تطرح ديانة الآباء والأجداد وتعانق ديانة البلاد .

هذا أيها الرعية المخلصة ما قرره مجلس الحكومة الأعلى بنصه . وإننى بأمر جلالة الملك كذلك أُعلن خاصكم والعام أن الشروط الثلاثة الواردة فى قرار المجلس قد توفرت ، وأن جلالة الملك يسره كثيرًا أن يبشركم أيها الرعية المخلصة بحصول القران المشار إليه فى هذه الليلة السعيدة ، وأن يدعوكم فردًا فردًا إلى مشاطرته الفرح بهذا القران الميمون المحفوف ببركات أمون .

وما انتهى الخطيب حتى استرسلت الأمة فى التصفيق . متوجة عمل الملك ذاك بالتصديق . والتفت جلالته بعد ذلك فانثنى فى نفر من خواصه ، عائدين إلى القصر . أما العروسان فتحرك بهما الموكب السامى ليجولا فى المدينة جولتهما الأولى . فاجتاز بهما شارع سيتى ، فشارع أنيس (اسم لأشهر وقائع الملك) ، فميدان فتاح ، فشارع

الصناعة ، حتى بلغ المعبد الأكبر . وهناك استقبل العروسان بما يليق لمقامهما السامى من مظاهر الإجلال والإكبار . ودخلا فصليا الصلاة الرسمية . ولم تمتنع عذراء الهند فى هذه المرة مبالغة منها فى مجاملة الأمة ، والتماساً لرضى المتمسكين فى استرضاء رجال الدين . ثم رُسم لعودة الموكب طريق آخر . فمضى يخترق شارع المعبد ، فشارع الدواوين ، فميدان أمون ، فباب الأربعين نصرة (انتصارات رمسيس) ، فشارع الخيانة (لأن فيه همَّ "أراميس" أخو الملك أن يفتك بأخيه) .. فميدان رمسيس ، فشارع رمسيس ، حتى دخل القصر بسلام .

وكان الوقت الغروب وهو الموعد المضروب لحضور ألوف المدعوين لتناول طعام الفرح على الموائد الرمسيسيَّة . فأخذت المركبات تتطارد والخيل تتوارد ، والجماهير تتوافد بين تحايا الطبول والأبواق ، وتسليمات المزامير الذاهبة فى الآفاق . وكان عند كل سلم من سلالم القصر ، وعلى كل باب من أبوابه الكثر ، حجاب من الوجهاء الغر لاستقبال الضيفان وإزلافهم إلى رب المهرجان . حتى إذا انتظمت الحفلة ولم يبقَ من لم يحضر من أصحاب الليلة ، نودى فى الأقوام أن اتبعوا الملك إلى قاعات الطعام . فابتدر الملأُ دخول هاته القاعات . وكانت سبعًا عريضات طويلات . فى كل واحدة منها سبعة خوانات . على كل خوان سبعة من ذوى المقامات . فجلس الكل يتناولون أثمن الطعام وأفخره ، ويذوقون أعز الشراب وأندره . والملك يذيقهم فوق مذاق الكاس من لذيذ البشر والإيناس . حتى إذا نفد حول البطون قبل أن ينفد ما فى الصحون ، خف الملك إلى قاعة الاستقبال الكبرى ، فابتدرت الزمر دخولها خلفه . وهنالك كان للناس دهشًا إذ رأوا عرش الجلوس فى صدر القاعة محمولاً على رفرف ذى درج . وهو كأنه الفرقد . فى هالة من الأنوار تتوقد . وإذ كان من شأن هذا العرش أن لا يظهر للكون إلا يوم يموت فرعون ويقوم فرعون فقد حق للناس أن يتساءلوا فى حفلة عروس هم أم تلقاءَ يوم جلوس ؟

ثم لم يكن ثلث الليل حتى نهض الملك دون العرش ودعا إليه العروسين فنهضا إلى جانبيه . وكان الركن الذى قاموا فيه مطلاً على النيل وبنافذتين ينظر منهما إليه .

وبعد ذلك أشار الملك لرئيس الديانة وأعوانه أن يتقدموا فمثلوا لديه . فخاطب الكاهن الأعظم للديار قائلاً : تفضل يا إمامنا العزيز . واعقد لولدى على الأميرة عذراء الهند . ثم عقب وهو يتبسم بأن قال : ومتى فرغت من عملك هذا أتيت أنا أيضًا العمل الذى فيه لآشيم إتمام الأمل . فأحدثت هذه العبارة هرجًا ومرجًا فى المحفل . ولم يبق لنفس ريبة فى كون العرش إنما نصب للحبيب والحبيبة . وبينما القوم يتبادلون هذه التأملات والكاهن الأعظم ينتظر سكوتهم ليشرع فى عمله مرق من بعض النوافذ طائر صغير أسود فارتفعت الأعين ترمقه . وهاج الملأُ وماج المكان . أما الطائر فبعد أن دار دورته قصد نحو العروسين فصفق يحوم عليهما وينتف ريشه لديهما . وفى هذه اللحظة لم يدر الناس إلا بالأمير قد سقط طعينًا يتخبط بدمائه . ثم بظهور "ثرثر" من ورائه وقد صرخ قائلاً : ليمت كلانا بدائه . ثم طعن نفسه بالخنجر فسقط كذلك يتعثر بردائه . فتفزع الجمع لهذا المشهد المذيب . وجُنت عذراءُ الهند بإزائه . فقامت لدى النافذة تنتظر كلمة الأطباء . حتى إذا أيقنت أن لا أمل ولا رجاء ، وأن آشيم خرج من سلك الأحياء ، لم تزد على أن صرخت قائلة : يا للسماء لهذه الخالدة الشقاء ، الأبدية الإقصاء . ثم ألقت بنفسها من أعلى القصر إلى العريض الطويل من عالم الماء .

تمت

* * *

المحتويات الرواية

الباب الأول
الحوادث فى الهند

الفصل الأول : جزيرة العذارى 29
الفصل الثانى : الببغاء الأسود 37
الفصل الثالث : الاستعداد فى الهند لاستقدام الأميرة 47
الفصل الرابع : عود للصاحبين فى الغابة 51
الفصل الخامس : فيما كان من أمر الأسطول 59
الفصل السادس : الشقى طوس فى جزيرة العذارى 63
الفصل السابع : تلاقٍ ولا تلاق 69

الباب الثانى
الحوادث فى منفيس

الفصل الأول : عذراء الهند فى قصر الأمير 73
الفصل الثانى : الأمير آشيم 79
الفصل الثالث : قصر النزهة بالضواحى 81
الفصل الرابع : ما كان يجرى فى طريق الخفاء 87
الفصل الخامس : الأمير فى الطريق 91
الفصل السادس : عذراء الهند فى الطريق 93

الفصل السابع : حزب الأحرار 97
الفصل الثامن : حادث باغت 109
الفصل التاسع : بيداءُ الذئاب 111
الفصل العاشر : هاموس فى القفار يهيم 115
الفصل الحادى عشر : ظهور النمر حارس بعد الخفاء 117
الفصل الثانى عشر : أفراح منفيس 121

الباب الثالث
الحوادث فى طيبة

الفصل الأول : رادريس فى السجن 127
الفصل الثانى : ليلة أنس فى قصر الملك 131
الفصل الثالث : الأحرار فى طيبة 139
الفصل الرابع : الوفد الهندى فى قصر الملك 143
الفصل الخامس : محاكمة رادريس 147
الفصل السادس : طيبات طيبة 153
الفصل السابع : ليلة القران 159

روايـــــة

لادياس

الباب الأول

الحوادث فى بلاد اليونان

الفصل الأول

نزهة على شاطئ البحر

فلك الممالك أنت فيه ذكاء ... يا ملكة فى ظلها الأمراء
خلع الجمال عليك حلة عزه ... وكستك ثوب جلالها النعماء
يا زينة اليونان أنت لأفقها ... نجم وأنت لنجمها أضواء
حواء أمك أم كل مليحة ... لكن مثلك لم تلد حواء

كانت "لادياس" (*) بنت الملك بوليقراط صاحب " ساموس "، إحدى ممالك اليونان فى غابر الأزمان ، تتمشى فى طريق نزهتها على البحر تحت الأزين الأنضر ، من ألفاف الشجر الأخضر ، وعند رمل أزهر ، كأنه دينار واحد أصفر ، والبحر فيما يلى ينجلى ما ينجلى ، وللريح نقر فى صفحات الماء ، كنقر الغزال فى الحصباء ، وقد قابل الأصيل مرآتى البحر والفضاء . فسالتا بنضاره الموهوم وسالت العوالم والأشياء .

وكانت "لادياس" فتنة الناس ، بالبدر الطالع فى الغصن المياس ، لا من طينة البشر ، ولا من أديم الشمس والقمر ، ولكن صورة آية فى الصور ، فوق مبلغ الخواطر ومنال الفكر ، وكانت لابسة حلة بيضاء ، هى فيها حرير تحت حرير وضياء فى ضياء ، وعليها من عاطر الورق وبديع الزهر ، فى الرأس وفوق النحر . ومكان المنطقة من الخصر ، ما يتجمع منه باقة زاهرة ، لادياس فيها الزهرة النادرة . وقد اتحدت بهذه الحلة الباهرة ، حتى تشابه المجموع وتشاكل الأمر ، فكأنما زهر ولا "لادياس" ولا زهر.

(*) الاسم التاريخى لها " لاريكى " .

وكان يساير الأميرة . فى نزهتها القصيرة . أتراب لها كريمات عليها . وقرينات من أحب الناس إليها . ربين معها فى الصغر . ودمن على لزامها فى الكبر . فكانت تحادثهن لاهية ناعمة . وهى تقول : ماذا تقلن يا صاحبات لادياس فى شروط القران ؟ فسألتها إحداهن بسرعة :

– قران من يا مولاتى ؟

فأجابت الأميرة مازحة : قرانى لا قرانك يا فاجرة .

– وأى شروط يا مولاتى إلا أن يخطبك حبيبك . ويحبك خطيبك .

– صدقت لكن هذا يجوز على بعض بنات الناس . ولا يجوز على بنت الملك . إنى أراك تجهلين الأمر . ولا تدرين ما يجرى من الأحوال فى القصر . فاعلمى أنه لا يكون من زواجى إلا ما أرضى أنا ويأذن الملك وتصادق المملكة بعد ذلك عليه . فأنا أقترح أن يكون المتعرض لخطبتى . الراغب فى صحبتى . فتى بين العشرين إلى الثلاثين . فائق النظراء والأمثال . فى الشجاعة والحكمة والجمال ، والملك يشترط أن يكون صهره ملكًا سواء نال الملك بكده وجده أو توارثه عن أبيه بعد جده . والمملكة تريد أن يرفع بعلى لآلهة اليونان أربعين هيكلاً مشيدة البنيان . فى البلاد التى له فيها الملك والسلطان .

فلعب هذا الجواب برأس الفتاة وساء موقعًا عند سائر البنات فصحن جميعًا قائلات : حقًا إن هذه لهى الثلاث مستحيلات . فإن صح ما تقول الأميرة فلا هى متزوجة ولا نحن متزوجات .

فقالت لادياس وقد أضحكها غضب أترابها :

– وهل تكرهن أن تأخذن من حالاتى بنصيب . فإن تزوجت تزوجتن وإلا عشتن أبكارًا ما عشتن . فسألتها فتاة :

– وكيف الطريقة يا مولاتى فى معرفة من يفوق النظراء والأمثال فى الشجاعة والحكمة والجمال . أترجعون فى ذلك إلى امتحان أم عندكم أن الشهرة تغنى الإنسان؟

– بل إلى الامتحان حيث يكون المرء أو يهان . فأما الشجاعة والحكمة فينظر الملك فيهما ويختار لى من يستوفيهما . وأما الجمال فيعرض على عينى وقلبى . فلا يختاران منه إلا ما يصبى .

قالت : سبحان المنعم وجلت أيادى السماء . فلو لم تكن مولاتى أسعد النساء وأنعم بنات حواء لما أتيح لها أن تتزوج من الرجال ما تشاء . بل عندى أن جميع ما سبق من إحسان السعادة إليك فى كفة ميزان . وهذه المنة بمفردها فى الكفة ذات الرجحان . ولكن هل اقتصرتم يا مولاتى على شبان أبناء الديار . أم بلغتم ذلك إلى غيرهم من بنى الممالك والأمصار ؟

قالت : بل إن الملك بعث منشوراً بذلك إلى أمراء الجوار وإلى فرعون وكسرى وصاحب الهند ملوك الوقت الثلاثة الكبار . وعما قريب تتوافد المراكب حاملة الملوك والأمراء من الأجانب مقلة الشجعان متعاطرين من كل جانب وحينئذ ينظر فيمن يليق . ولا يفوز بى إلا الجدير الخليق . قالت فتاة : إن جماعة القصر يا مولاتى يتساءلون عن نبأ عظيم . وأمر يقع الآن جسيم ، إلا أنهم يذهبون فى التكتم على خط مستقيم . كأنما يتجاهلون أو كأن ليس منهم رجل عظيم .

قالت : وعم يتساءلون ؟

– عن أمر أولئك القوم الذين يقبض عليهم فى كل يوم ويزجون فى السجن ، سجن القصر ، حتى كأن هناك عصياناً يتلافى الملك وقوعه . أو حزباً خفياً هو يحل نظامه ويفكك مجموعه .

قالت : لا عصيان ولا حزب مع ملك حكيم عادل مثل أبى . ولكن ربما كان للملك فى ذلك مراد لم يطلع عليه أحداً من العباد .

– حسبت يا مولاتى أن للأمر علاقة بالأمير ابن عمك .

فأجابتها لادياس مغضبة محتدة : لا تقولى الأمير وقولى الشقى النذل الحقير . وماذا بقى من أمر هذا الخائن الغدار مما يشغل بال الملك من جهته أو يهمه إلى هذا

المقدار . فهو قد كفانى شره حتى لأنا أتمثله من مكانى هذا سوقة ضائعًا فى مدينة من مدن اليونان يمدّ يد السؤال إلى كل إنسان .

وما زال حديث الزواج يسرق البنات خطواتهن والأوقات حتى نبههن هجوم المساء . واشتمال الوجود بحلته السوداء حدادًا على الشمس الغريقة فى الماء . وعندئذ ارتجلت الأميرة حركة إلى الوراء . كالراغبة فى الانثناء . فعارضتها الفتاة قائلة : إن وقت الرواح لم يجىء بعد يا مولاتى . ونحن قد صرنا من حدبة البحر بحيث تراها أعيننا ، وهى الغابة العجيبة الشأن التى لم نرها إلى الآن . فماذا علينا لو مددنا لأرجلنا الخطى فجئناها فتمتعنا منها بنظرة ثم نعطى الرجوع من السرعة ما تأخذ منا زيارتها من الوقت .

فصادفت هذه الدعوة أسرع ملب من طيش البنات . فما زلن بالأميرة يؤيدن عندها هذا الاقتراح . ويذهبن كل مذهب من الإلحاح . حتى أذعنت فسار هذا الملأ الكريم من الملاح . وما هى إلا ساعة مسير بحساب تلك الخطى الخفيفة وهاتيك الأقدام الناعمة اللطيفة . حتى انفتحت حدبة البحر للبنات . فدخلنها بسلام آمنات . وهى غابة كثيفة متسعة . محدبة كاسمها مرتفعة . وليس فيها ما يبعث العجب . سوى شكلها المائل إلى الحدب . وكانت من أماكن الأمان والاطمئنان . التى لا يخاف من وجودها على إنسان . فلبث الفتيات فيها برهة من الزمان . فى لهو ولعب واغتباط وامتنان . فلندعهن وما هن فيه الآن . ولنخض فى شان غير هذا الشان .

* * *

الفصل الثانى

رجـــال الزورق

كان فى ساموس جانب من الجزيرة مهجور . بعيد عما حوله من المعمور . وكانت فيه كتلة من الصخر هائلة . منحنية على البحر مائلة . وهذه الكتلة فيها غار . سحيق القرار . مظلم بالليل والنهار . مرتفع مدخله عن سطح الماء نحو خمسة أمتار . وكان الأهالى يسيئون به الظنون . ويخلقون فى أمره ما يخلقون . ففريق يزعم أنه من مكامن الأشقياء . أشقياء الماء . وفريق يحسبه مبيتًا لسبع جهنمى من سباع السماء . وعلى كل حال فقد طال ما تهيبوه . وحرمتهم الأوهام أن يقربوه .

ففى ذات يوم أقبل زورق فجراً من طراز زوارق الإمارة . أو هو واحد منها وعليه كما عليها الشارة . فرسا هنالك متوارياً فى الحجارة . ثم صدرت منه بالبوق إشارة .

فأشرف إنسان من الغار ينظر فخاطبه رجل من الزورق قائلاً : خذ ثوبك يا بيروس فألبسه كما لبسنا نحن ثيابنا . ثم إنه شد الثوب بحبل أرسل من الغار فرفعه بيروس إليه ولم يكن إلا كلمح البصر . حتى ترك بيته وانحدر . بكل سرعة وحذر كما تنزل القردة من أعالى الشجر . فتلقاه أصحابه وفسحوا له فركب فجلس . ثم حوَّل الجميع المجاذيف إلى الطريق التى رسموا للزورق أن يسير فيها فاندفع بهم ينساب . فى بحر راقد العباب . مأمون المركب على الركاب . وكانوا سبعة رجالاً . عراضًا طوالاً . بهمًا أبطالاً . كلهم قد غير شعاره . ولبس للحالة حليتها المستعارة . حتى صار رائيهم يقول هذا من زوارق الملك وهؤلاء من البحارة . فلما جدَّ بهم المضىّ مع الماء . واحتجب بهم الزورق إلا عن العين التى فى السماء . قال أحدهم :

ألا تعلمون يا إخوان ما يجرى الآن فى مياه اليونان ؟ قالوا : بلى فخبرنا أنت بالخبر .. ولا تطل كعادتك فليس ذا وقت الهذى والهذر . ولا مقام الحكايات والسير . التى تصيرها مملولة بكثرة الأمثال والعبر .

قال : علمت يا إخوان واللبيب يعلم . ومن لا يستفهم لا يفهم ، أن بوليقراط ذاك الطاغية . السياسى الداهية . يعمل الآن . عملاً يحتذى فيه مثال كثيرين . من ملوك اليونان الغابرين . الذين خالفوا الشرف والآباء . وحالفوا لصوص الماء . فاستراحوا وأراحوا الرعية من أذى هؤلاء الأشقياء . وإنها وأيم الحق لمقدرة من بوليقراط القادر . وآية من آيات دهائه النادر . بل ما بال سائر الملوك لا يسلكون مثل هذا السلوك . فيحتالون ليتخذوا لصوص البحر قوة . مأمولة النفع بعد الضُّر مرجوة .

قال البحارة : ما لنا يا كلكاس ولتواريخ الأولين والآخرين . وانتقاد أفعال الملوك الحاضرين منهم والغابرين . ألم ندعك لتوجز وتبين .

قال : إذن فخذوا الخبر . واسمعوا القول المختصر : إن بوليقراط يعمل الآن . عملاً من الحكمة بمكان . سوف يكون له شان . ويبقى ذكره على ممر الأزمان .

قالوا : وماذا تراه يعمل فهذا الذى نريد أن نعرفه ولا نريد أن نعرف غيره ؟

قال كلكاس وقد أغضبه مقاطعة أصحابه : إن كان ولا بد من الاختصار ، المذهب لطلاوة الأخبار ، فإنى أنقل إليكم الخبر على علاته ، وأدع لعقولكم السخيفة علم مفصلاته . سمعت من صاحب أثق به . ولا أشك فى عقله وأدبه . أن مياه اليونان . يجرى فيها أمور الآن . لا يعلم بها إلا الملك وزعيم الأشقياء أورستان .

قال البحارة : أهذا كل الخبر يا كلكاس ؟

– نعم وإنه لو تعقلون لعظيم ولكنى عهدتكم منذ صحبتكم تحتقرون الأمر الجليل . وتسخرون من كل قال وقيل . وهذا لعمرى منتهى السفه .

– وأية فلسفة تريد أيها المهووس أن نستنبط من روايتك التى لا تقبل الزيادة . ولا تشير إلى وقوع حادثة فوق العادة .

قال : وما يدريكم يا أغبى الناس . أن يكون لفعل الملك هذا مساس بنا أو بعروس اليونان لادياس . فقال بيروس :

– أما بنا فلا لأننى أعْلَم عِلْم اليقين أن الملك أمسك عن مطاردتى من نحو ثلاث سنين . أى بعد أن اضطرنى إلى الاختفاء . وصيرنى فى زعم ميت الأحياء . العاجز عن كل عداء . وأما كون الحادثة قد تكون واقعة من أجل لادياس فهذا يكذبه كتاب عنها . حديث العهد بخط أقرب الناس إليها .

وبينما القوم فى هذا الذى نصفهم عليه يسخرون من "كلكاس" . وكلكاس يسخر منهم إذا بفلك أربعة . خفاقة الأشرعة . قد ملكت جهات الزورق . حتى كاد من شدة ضغطها يغرق . ثم وقفت وأطل من أحدها رجل فصاح يقول : من القوم ؟ ومن أين ؟ وإلى أين ؟

فوقع البحارة من أمرهم فى معيص . ولم يجدوا لأنفسهم من الغرق من محيص . إلا كلكاس فإنه لم يمهل الرجل ريثما يستتم ، بل وثب من مكانه وقال :

– نحن بحارة الملك أيها الرجل ولولا أنك تغالط عقلك لكان الزى وحده دلك . والآن فمن أنت حتى تسىء الأدب على هذه الشارة . وتهاجم الزورق وتستبيح حصاره . كأنك لا ترجو وقاراً لزوارق الإمارة . وحتى تقف لبحارة الملك فى الطريق . وهم فى الخدمة الشريفة التى لا يليق أن يعتريهم فيها تعويق . أليس هذا انتهاكًا لحرمة الملك وعقوقًا . وخروجًا من واجب الطاعة ومروقًا . ألا تقضى القوانين بالقتل . على مرتكب مثل هذا الفعل ؟ فيا قوم ما أسماؤكم ؟ وإلى من انتماؤكم ؟ حتى نرفع ضدكم الشكوى . ونقيم عليكم حال وصولنا الدعوى ؟

وكان أصحاب كلكاس حوله لسانًا واحداً يدعوه ليختصر فى قوله وهو لا يريد الإجابة . ولا يزيد إلا إهذاراً فى الخطابة . حتى قام فى اعتقاد المهاجمين أن رجال الزورق حقيقة من البحارة التابعين . فحولوا عنهم المراكب للحين . ومضوا لسبيلهم

تاركين كلكاس . يهذى وحده كالخاطب فى ناسٍ ولا ناس حتى أسكته أصحابه فسكت . ثم التفت فقال : إن مع العى لغبنًا . وإن من السكوت لجبنًا . أعلمتم بعد مكانى . أرأيتم كيف نفعتكم فلسفتى وأغنى عنكم بيانى .

قالوا : وهل جهلنا مقدرتك وإمكانك . حتى تعرفنا يا كلكاس مكانك . إنك لأعظمنا إقدامًا وبسالة . وأفصحنا منطقًا ومقالة . وأصلحنا لبوسًا لكل حالة . أليس هذا الزى الذى نفع من مواليد رأيك المتبع . وتدبير فكرك الذى يسع من الحيل ما يسع ؟

ثم إن الزورق استمر سائرًا . دائبًا على بغيته رائدًا . حتى ذهب معظم النهار . وتحفزت الشمس لتحتجب عن الأبصار . فالتفت بيروس عندئذٍ إلى أصحابه وقال :

– لم يبق يا إخوان إلا أن ننحدر جهة الشاطئ فنسير بحيث نحاذيه .

قالوا : أوتدرى أننا دنونا بعد ؟

قال : نعم .

قالوا : إذن فإنا فاعلون .

ثم وجهوا السواعد بالمجاذيف جهة البر . وظلوا يتقدمون . وبيروس يرشدهم أين يتوجهون . وقد غلب الغرام الفتى على أمره . وحل الإلمام عقدة صبره . فأجرى من الدمع ما لم يزد أصحابه علمًا بسره . واندفع ينشد من أعمال صدره :

يـــا ابـــنـــة الـــعـــم رويـــدا ... كـــدت لـلـمـفـتـون كـــيـــدا
أنـت لـلـعـين ســـــــواد ... أنـت لـلـقـلـب ســـــــويـدا
كـــــــان لـى فـى الـدهـر تـاج ... صـــار ذاك التـــاج قـــيـــدا
كنـت مـــولـى صـــرت عـــبـــدا ... كنـت عَـــمـــرًا صـــرت زيدا
أنـا إن نـالـت شـــــبـــــاكـى ... ظـبـيـــة جـــيـــداء غـــيـــدا
لـــــم أكـــــن أول صـــــب ... أخـــذ الغـــزلان صـــيـــدا

حتى إذا تكامل للشمس الغروب وآن للنهار أن يتنحى والليل أن ينوب . دخل الزورق فى ظل أشجار . متكاثفة هنالك مرتفعة كبار . فتقصى بيروس النظر . فوجد البقعة صالحة للمستقر . فأعلم أصحابه أنهم قد وصلوا . وأشار لهم أن يلقوا المراسى ففعلوا .

ثم نزلوا فتوارى الكل واستتر . بين الحجر والشجر . يتربصون للموعد المنتظر . فلندعهم وشأنهم الآن . يتربصون على ذلك المكان . إلى أن نعود فنذكر من أمرهم ما كان .

* * *

الفصل الثالث

لصوص المـــاء

لم يكن يمضى يوم على الملك بوليقراط بدون أن يفد عليه أورستان زعيم أشقياء اليونان . أو من ينيبه عنه من أعوانه الشجعان . فيلبث فى حضرته برهة من الزمان . ثم يأمر الملك من يذهب معه إلى حيث يريد . فلا يأتى الليل إلا ويعود الرسول ومعه أسير مكبل بالحديد . فتصدر الإشارة بإضافته إلى ما فى السجن من عديد .

وظل الأمر كذلك تسعة وثلاثين يومًا بغير انقطاع . وقع فيها بين مخالب أولئك السباع ، تسعة وثلاثون أسيرًا من بنى الأمصار والأصقاع . ليس فيهم إلا ملك مطاع . أو أمير له الأمراء أتباع . أو بطل شجاع . شاع ذكره وذاع . وملأ الأسماع . ثم مرت سبعة أيام بدون أن يقبض على أحد أو يزاد السجن على ذلك العدد . وفى اليوم الثامن حضر أورستان يضرب الأرض برجليه كأنه شيطان وعيناه جمرتان . من الغضب متقدتان . فدخل على الملك فحياه ثم قال :

– لقد كدت أيها الملك أظفر بالبطل الشجاع . الذى لا من البشر ولا من السباع . لولا أن نفسه العالية الأبية . فضلت ورود المنية . فآثر الثواء بقرار البحر . على الوقوع فى هوان الأسر . قال : ومن ذاك يا أورستان ؟ وما حديثه ؟

قال : يا مولاى فتى من مصر رفيع الرتبة فى الضباط . تدل زخارف حلته على أنه من حرس البلاط . وكان على ذات شراع . ومعه ثلاثة من الاتباع . فدعوناه كعادتنا للاستسلام . فأبت نفس عصام . فزدناه حصارًا فزاد تأبيًا واستكبارًا . حتى بلغ من حيرتى ويأسى أن مارسته بنفسى . فظهرت بسالة الفتى على قوتى وبأسى .

حتى لو لم ينجدنى رجالى لصير البحر رمسى . إلى أن خانه على مراسنا الجلد . وكان أن أذعنت البسالة للعدد . فصرخ الفتى صرخة تذيب الأسد .. قام لها البحر وقعد . وسمعته يقول : مكانك يا حماس إن الجندى المصرى لا يعرف التسليم للملوك . فكيف يسلم للص صعلوك . ثم لم أبصر يا مولاى إلا بالسفينة تحترق . ثم إذا بها قد غرقت وإذا بالفتى قد غرق . فشق علىّ أن يموت وأن يفوت ساحة الوغى من عناقه ما يفوت . لكونه إنما خلق لها لا لبطن الحوت . فقفيته برجالى يغوصون عليه القرار . وينشدونه بين العبب والتيار . وما زلنا نفعل حتى مغيب النهار . فلما لم يجد الالتماس . ونفضنا أيدى اليأس . رجعنا نبكى فقده . ونبكى الإقدام والثبات بعده .

فقال الملك واغرورقت عيناه بالدمع : إن كانت ذاكرتى صادقة يا أورستان . فهذا اسم شاب مصرى كان لنا وله فيما مضى شأن .

قال أورستان : وما ذلك يا مولاى ؟

– كنت عرضت على فلاسفة اليونان . وحكماء سائر البلدان هذا السؤال وهو : "لقد بلغت الزيادة قصاراها حتى أصبحت أتوقع النقصان . وطال أنسى بهذا الحال مع الزمان . حتى خفت تحول الحال ونفار الزمان . فهل من يصف لى ما يخرجنى من هذا الوجل . وأمن به الدهر أن يأتى على عجل" فانهال علىّ من الأجوبة . ما ظهر فساد جميعه بالتجربة . حتى كتب إلى فتى من مصر بهذا الاسم يقول : "إن الحوادث أيها الملك لا يعرفن ليلاً ولا نهاراً . بل إنهن قد يطرقن أسحاراً . وإنى لا أرى للملك ما يدرج به النفس على احتمالهن قبل ارتجالهن إلا أن يعمد لأعز ما يحب ويكرم من الأشياء فيبيده إبادة . بقوة الإرادة ويحرم منه النفس وهى صاغرة منقادة . وهكذا تفعل بين الحين والآخر حتى يصير الصبر لك عادة ، فكان هذا جواب الحكمة والصواب بإجماع أهل الخبرة . من أعظم الحكماء شهرة . وأبعد الفلاسفة صيتًا وذكرة . وإذ كانت الجائزة المجعولة لمن يفيد . ويُجيب الجواب السديد أن يشتهى علىّ ما يشاء إلا الملك . فقد كتبت إلى ذلك الشاب بالتمنى ولكنه لم يجب حتى الآن . فإن كان ذاك "حماس" هو الذى تبالغ فى وصف بسالته وإقدامه فنعم الصهر كنا نعتز به لو

عاش يا أورستان . وهل لمحته عيناك . وقت الاشتباك . قال : نعم يا مولاى أبصرته فأبصرت البدر عند التمام . وألفيته جميلاً بقدر ما هو باسل مقدام .

قال كذلك مصر ما زالت مرزوقة على ممر السنين . ميمونة مباركًا لأهلها فى البنين ؛ وإن لأهلها لعذرًا إذا ألّهوا بعض الناس منهم، فقد يجتمع للمصرى من عظيم الخصال . ويتم على يده من جلائل الأعمال ما يضيق عنه الطوق البشرى وتنوء به عزائم الرجال .

قال والآن ما رأى الملك بشأن الأسرى هل يظل ممسكهم أو فى النية فكهم ؟

– بل سأفكهم وأردهم إلى بلادهم خائبين لأننى لم أجد بينهم ضالتى المنشودة .

– ذلك ما أرى أنا أيضًا يا مولاى ولكن أذكر أن بين الأسرى أحد أشقاء الملك كسرى فماذا ترى فيه وما عندك من الترضية لأخيه ؟

– ليس لكسرى أن يحتج . ولا علينا أن نترضاه إذ الأمر شخصى محض . ولا دخل للرسميات فى خصوص المعاملات . وما علينا إلا أن نكتب إلى الملك بتفصيل ما جرى . ونخبره أن الامتحان أسفر عن خيبة أخيه خيبة فاضحة . فلم يعد ممكنًا أن أركن إلى مصاهرته بعد أن ارتبطت بوعودى وعهودى أمام العصر والممالك والناس .

قال : نعم الرأى يا مولاى .

ثم إنه استأذن الملك فى الانصراف فأذن له فانصرف على أن يعود فى الغد مغاديًا .

وكان الليل قد أقبل يواشك فالتمس الملك فتاته ليبلغها ما ظهر وبان . من نتائج الامتحان . فقيل له : إنها متغيبة لم تعد بعد من نزهتها اليومية على شاطئ البحر . فأراب الملك الأمر وشغله هذا الإبطاء ، فجلس إلى نافذة مطلة على طريق رجوع الأميرة ، وأشرف ينظر وإذا الطريق تنكشف لمدى البصر خلوًا من الأقدام . لا دارج عليها إلا الظلام . فجد بالملك الارتياب . واضطرب فؤاد الوالد أى اضطراب . لا سيما

إذ لم يكن من عادة لادياس أن تلبث خارج القصر بعد العشاء . فدعا الملك ثلاثة من غلمانه الأمناء وقال لهم : اذهبوا فاستعجلوا الأميرة وهى عائدة . وقولوا لها : الملك بانتظارك على المائدة . فقالوا : سمعًا وطاعة . وانطلقوا للحين . خفافًا مسرعين . فما زالوا بالطريق يحيطون به طولاً وعرضًا . وتأخذه عيونهم سماء وأرضًا . فلم يأت البحث بفائدة . ولا رأوا الأميرة لا ذاهبة ولا عائدة . وحينئذ ارتأى الغلمان أن يبقى منهم على الطريق اثنان ؛ وأن يتقدم الثالث إلى حدبة البحر . وهى الغابة التى سلف لها فى الفصل الأول ذكر . لعل التلهى فى المشى قد ساق الأميرة إليها ، فلوت هى وأترابها عليها . فاندفع الغلام يجهد فى السير الأقدام . إلى أن أتى مدخل الغابة فدخل يوغل فيها . ويضرب فى جوانبها ونواحيها . لا وجلاً ولا هيابًا ، ولا حاسبًا للظلام حسابًا . حتى بدهت أذناه بصوت أنين . له فى جوف الغابة خفيف رنين . فالتفت وتفزع . ثم استجمع وأنصت يسمع .

فأوجس الظلام أيما إيجاس . وخشى أن تكون صاحبة الأنين هى لادياس . فاندفع حثيث السير . يهب هبوب الطير . لعله يوافيها قبل تناهى الشدة . فينجدها فى كربها قبل فوات النجدة . وهو ينفذ على الصوت المدى . لعل أن يجد عليه هدى . حتى بلغ موضعه . كما يبلغ الصدى مرجعه ، وإذا مصدر التأوهات ومنبعث الأنات . ثلاث من الفتيات . حققهن الحارس فى ضوء النبراس . فعلم أنهن ممن كن مع لادياس . وأن أبدانهن الناعمات فى الحبال موثقات . وبشدة الرباط موهنات . فحل على الفور ذاك الوثاق . ومزق تلك القيود والأطواق . ثم أنهضهن فما استطعن القيام . وخاطبهن فعجزن كذلك عن الكلام . فتركهن على هذه الحال وابتعد قليلاً بحيث لا يفوته حفظهن ثم أخرج صفارة . وبادل رفيقيه الإشارة . فجاوباه فاستمر يصفر وهما يتوجهان وجهة الصفير حتى أقبلا من أقصى الغاب يهرولان . فحين رآهما حدثهما حديث البنات . ثم دعاهما ليعيناه على حملهن حملاً والرجوع بهن إلى القصر . لأنهن من شدة الضعف بحيث لا يمكنهن الحراك ولا الكلام .. فضلاً عن المشى على الأقدام . فوافق الصاحبان على ذلك . وتكفل كل واحد من الفتيان الثلاثة . بواحدة من الفتيات

الثلاث ثم ساروا على هذه الصورة آيبين إلى القصر . فما قطعوا ثلث المسافة حتى التقوا فى طريقهم بثلاثة آخرين من الحراس . أرسلهم الملك للبحث عن الأميرة ومساعدين لمن سبقهم فى هذه المهمة . فحين نظر رجال الوفد الثانى إلى أصحابهم وما يحملون هالهم الأمر وسألوا عن السبب . فأعلموهم بالحادثة وأنهم اضطروا إلى العودة بالبنات إلى القصر . يشرحن واقعة الحال للملك فينظر فى ذلك نظر حكمة أو يدبر لنفسه أمراً . فاستصوبوا عمل رفاقهم هذا ، ثم اتفق الفريقان على أن يستمر الوفد الأول فى ذهابه إلى القصر ، ليرفع الخبر إلى مسامع الملك ، وأن يجدَّ الثانى فى السير لعله يقف للأميرة على أثر . أو يجىء عن أمرها بخبر . على ذلك انطلق الأول آيباً واندفع الثانى ذاهباً .

* * *

الفصل الرابع

أين أصبحت لادياس ؟

كانت لادياس كلما أصبح الصباح طلعت على آفاق ساموس بالجلال والجمال هى والشمس . كلتاهما فى رونق ضحاها . وعند سرير مجدها وعلاها . لكن للادياس من الشمس مصبحها وليس للشمس منها ممساها .

كانت تصبح كل يوم وإذا الملك للّـه ثم لها فى بلاد أبيها والأمر فى القصر أمرها وأهل القصر والملك الوالد فى أولهم على قدم يخدمون إشارتها فى كل مقترح .

كانت عيناها الزرقاوان لا تنفتحان إلا على نعيم الملك وعز السلطان وما بينهما من صنوف السعادات وأنواع الملاهى واللذات .

فإذا لبست للإمارة حلتها وأخذت تجاه المرآة زينتها وافى الشعراء حضرتها وإذا على لسان كل واحد منهم مرآة تنظر فيها الأميرة إلى محاسنها كيف كملت ، وإلى آدابها كيف جملت ، وإلى نسبها كيف شرف وارتفع ، وإلى ملكها كيف عظم واتسع .

فإذا أتم الشعراء كلمات المدح والثناء أقبل العازفون وأهل الغناء فأجزلوا لها من الطرب وكالوا لها من كل لحن عجب .

فإذا خرج هؤلاء دخل الأمراء والوزراء والكبراء والعلماء والحكماء هذا يسجد وهذا ينحنى وهذا يقبل اليد ثم ينثنى ، وهذا يضحكها بنادرة يرويها ، وهذا يهز أعطافها بحكمة يلقيها ، والكل بين المهابة فيها والإعجاب يبالغون لعروس اليونان فى الخطاب .

ثم يؤتى إليها من أقاصى المدينة بالتحف الغالية والهدايا الثمينة برهانًا إثر برهان على ولاء رعيتها الصادقة الأمينة .

وبالجملة كانت لادياس فى كل صبح هى العناية فى ملك والشمس الورود فى فلك . ظل للرعية وعصمة . وسلام فيهم ورحمة . تمنح إذا الدنيا منعت وترفع إذا الأيام وضعت . ولا تستشفع إلا شفعت .

إذا عرفت هذا شق عليك أن تعلم أن عروس اليونان أصبحت فى غد تلك الليلة النحيسة لا تحكيها فى شقائها وبؤسها وبلائها جارية فى مملكة ساموس ، بل فى ممالك الأرض جمعاء . أصبحت فى ظلمات تلك الصخرة الهائلة وسادها الحجر بعد الخز . ورداؤها الذل بعد العز . ونكد الدنيا يتمثل لها فى صورة ابن عمها وهو قائم عند رأسها يقول :

– انظرى أين أصبحت يا لادياس ؟

قالت : فى أسر شيطانك يا باغى . وما أَسَرت إلا الجسم ولن تملكه حتى يصير للدود فلا تطمع منى بحب ولا قبول . ولا ظفر بمأمول . بل اقتلنى فهو خير لك من طلب المحال وأهون لى من عذابى بنحس وجهك المستمر .

قال : أما أنى أقتلك أو أدعك تقتلين نفسك فأمر لا يكون . وأما أنى لا أنال ذاك المرام فهذا يا لادياس كلام فى كلام ، فإن لم يكن لى أن أطمع فإن لى أن أغصب الإرادة كما غصبت المريد .

قالت : إن للفضيلة والطهارة آلهة بهم اليوم اعتصامى ، فإن لم يغنوا فإن غداً بهم انتقامى . والآن أطلب منك يا بيروس الراحة الصغرى بعد ما بخلت علىَّ بالراحة الكبرى .

قال : مرى يا ابنة العم . فشق على الأميرة قبول هذه القرابة وازدادت غضباً على غضب .

فقالت : إننى أحرمك يا بيروس أن تدعونى بيا ابنة العم فقد أخرجك الملك من قرابته ولا يليق ببنت الملك أن تكون أول مخالف لإرادته .

قال وتبسم : ولكنى أنا الملك هنا وأنت لى كل الرعية يا لادياس ، ومع ذلك فإنى عبدك أسألك ماذا تأمرين ؟

قالت : لقد بخلت علىَّ بالقتل فلا أظنك تبخل على بتركى وحدى لعلى أجد بعض الراحة فى الوحدة . قال : ذلك إليك .

وكان حب الفتى لبنت عمه يدانى الجنون وهى بالعكس تبغض ابن عمها بغض الموت فلم يثنه ما رأى منها وما سمع عن رجاء انقيادها ، والوصول يومًا ما إلى اجتذاب فؤادها . وهكذا كبير الغرام . كبير المرام . فتركها وشأنها وما تبتغى من الخلوة ظنًا منه أن ذلك منها نفار ويزول . وصدود عنه ستحول . فنحن نتركه الآن يقضى الأيام . فى الأمانى والأحلام . ويروم من عروس اليونان ما لا يرام .

* * *

الفصل الخامس

الملك بوليقراط

الهم فى الدنيا لنا شامل ... لم يخل لا عال ولا سافل

حِمْلٌ إذا شئنا وإن لم نشأ ... فكلنا يومًا له حامل

إذا حواه الملك فى برده ... أوعاه فى كشكوله السائل

يرقى إلى الصاعد فى عزه ... ويلتقيه دونه النازل

ويعثر الراكب منا به ... ولا يوقى العثرة الراجل

فقل (لبقراط) لقد كان ما ... خفت وجد الزمن الهازل

أمسيت لا دارك مملوءة ... أنسا ولا الصفو بها كامل

قد نام ذو جوع وذو غلة ... ونام حافى الناس والناعل

ونام فى السجن سجين به ... ونام من أبعدت والواصل

وأنت فى قصرك أنت السها ... لا نوم لا إغفاء يا ثاكل

لما بلغ الخبر مسامع الملك بوليقراط كادت لأجله أن تصم من الذهول وشدة الغم . وكان البنات هن اللاتى قصصن عليه قصتهن وما لقين فى حدبة البحر . وكيف وصل البحارة إلى اختطاف الأميرة وصاحبتها هيلانة بعد ما ردوهن جمعاء إلى العجز وفقدان الحراك بقوة الحبال . وما أعدوا لهن من السلاسل والأغلال . فلما سمع الملك ذلك أيقن أن فى الأمر مكيدة وأن فتاته إنما وقعت فى مصيدة .

وكان قد اجتمع بالملك على الفور كل الرجال ذوى الشأن فى القصر فبدأ الأخذ والعطاء . وحمى الحديث وكثرت الظنون . فكان أول ما ذهب إليه الملأ أن ناصب الشرك قد يكون أحد الأجانب القادمين إلى البلاد فى طلب الزواج بالأميرة فلما لم يستطع الوصول إلى ذلك سولت له نفسه أن يأخذها غصبًا ففعل .

ثم تنقلوا من هذا الظن إلى غيره فزعموا أن الكمين لا يكون إلا أحد الرجال ذوى المكانة فى البحرية بدليل أن خاطفى الأميرة هم كما أخبر البنات من جند السفن السلطانية وأنهم يعرفون عادات الأميرة . وأوقات خروجها ودخولها . ولولا ذلك ما جاءوا فى الوقت اللازم . ولا اهتدوا إلى المكان الملائم .

وفى آخر الأمر ذهب قليل منهم إلى أن الفخ لم ينصبه إلا بيروس بدليل أنه ولى الثارات القديمة وصاحب العداوة المستديمة ، وأن الزى الذى أخبر به البنات ليس إلا مستعارًا فهو حيلة انطلت على المخافر البحرية حتى مر بيروس ورجاله فى أمن وسلام .

وفى هذا الأثناء حضر أورستان . وكانت الرسل قد أرسلت تباعًا فى طلبه . وما هو إلا أن وصل حتى خاض فى الحديث مع الخائضين واشتغل بالمحادثة مع المشتغلين .

وكان رئيس السفائن السلطانية فى جملة المتشرفين بمجلس الملك فسأله أورستان : هل كان زورق يسير اليوم فى الخدمة الشريفة ؟ قال : لا اللهم إلا أن يكون جلالة الملك هو المسير له . ولا أدرى . فقال الملك : لا أذكر أنى أخرجت زورقًا اليوم ولكن ما علاقة هذا السؤال بما نحن فيه يا أورستان ؟ قال : ذلك يا مولاى أن رجالى أخبرونى قبيل وصول رسلك إلى أنهم التقوا اليوم بزورق من زوارق الإمارة فيه ثلة من البحارة فدنوا منه وداروا به كالعادة ولكنهم ما لبثوا أن خلوا سبيله كرامة لذكر اسم جلالتك فقد قام منهم رجل مهذار . يبالغ لرجالنا فى الوعيد والإنذار . حتى ضحكوا منه بقية النهار . فإذا كنت يا مولاى لا تذكر أنك سيرت زورقًا والرئيس يقول إنه لم يخرج شيئًا من ذلك فلمن ذلك الزورق إذن ؟ وما ذلك الزى وأين ذهب أولئك

البحارة ؟ إن الأمر لا محالة مريب ولكنى أتكفل لجلالتك بكشف دخيلته ولا أسألك أكثر من ثلاثة أيام ثم آتيك بالخبر اليقين . قال : افعل يا أورستان ولك الشكر . ولكنى قد وجدت الذى ينفعنى فى البحر فمن لى الآن بالساعد المساعد فى البر لأنك تعرف أحوال الجزيرة . وتعلم أن المجاهل فيها كثيرة . فما يدرينا أن تكون لادياس نقلت إلى بعض المكامن حيث هى الساعة مقبورة أو أسيرة . قال ذلك واغرورقت عيناه بالدمع فأمسك عن الكلام . وأطرق أورستان يفكر فى طلبة الملك ثم التفت إليه وقال : قد وجدت الذى ينفعنا فى البر يا مولاى . قال : ومن ذاك ؟ قال : قد وعدت يا مولاى أنك تفك الأسرى فإذا كنت فاعلاً فاجمعهم فى مجلسك هذا وأعلمهم بحقيقة القصد مما عوملوا به وأنك لم ترد بهم الشر ولكن لتبلُوهُم أيهم أثبت جأشًا وأعظم شجاعة وبسالة . ثم أعلمهم بما كان من اختطاف الأميرة على أثر ذلك وأن الفرصة قد تهيأت للشجاع منهم أن يظهر شجاعته فمن وجدها منهم وردها إليك سالمة كان بها أحق فلا يعطاها إلا هو . فوافق الملك على هذا الرأى واستحسنه سائر أهل المجلس فصدر الأمر عندئذ بإطلاق الأسرى والمجىء بهم معززين مكرمين .

ولم تكن هنيهة حتى جىء بالرجال وقد أبدلوا حالاً من حال . فردت إليهم أسلحتهم وعوملوا بعد الحقارة بالإجلال . فلما دخلوا على الملك خف لهم فخف المجلس على أثره ثم وقف فيهم موقف الخطيب فقال :

أيها الأمراء الأقبال والشجعان الأبطال ..

إن ما وصل إليكم فى مياه مملكتى من الأذى وما عانيتم بعد ذلك من السجن لم يكن عن سوء قصد ولا ابتغاء الإضرار بكم ولكن لنبلوكم أيكم أثبت فى ساعة الهول جأشًا وأعظم شجاعة وبسالة . وبالجملة لم نكن فيما عاملناكم به إلا مختبرين .

والآن برغمى أن أخبركم أن الأميرة قد اختطفت وهى كما تعلمون واحدتى التى لا أعطى الصبر عنها فمن وجدها منكم وردها إلىّ سالمة موفورة العرض أعطيته إياها فلا يفوز بها سواه فاخرجوا الآن إلى مباشرة العمل اخرجوا فانظروا ماذا أنتم فاعلون" .

فما أتم الملك كلماته هذه حتى صار الملأ حيارى كأن بهم سحراً أو كأنهم لا يعون حتى إذا استفاقوا من دهشتهم وخرجوا هائمين على الوجوه يخيل لكل أن لادياس بين عينيه وفي يديه ولو كانت في السماء لصعد إليها قبل أن تنزل إليه .

وكان الليل قد انتصف أو كاد فأشار الملك لأصحابه بالانصراف فانصرفوا وانقلب هو إلى مقاصيره الخاصة حيث الملكة حالها كحاله وأوجاعها وأوجالها من جنس أوجاعه وأوجاله . فقضى الوالدان كلاهما تلك الليلة سهاداً هي حتى مطلع الفجر .

* * *

الفصل السادس

حياة ثم موت ثم بعث

إن كـــان عـــمـــر طويـل　　فـــمـــا إليك ســـبـيـل
فـالبـحـر حـرز حـريز　　والـبـــــر ظل ظـلـيـل
ولا المخـــــــاوف إلا　　حـــــــوادث وتـزول
والـبـــــأس لـيس بمـرد　　والجـبن لـيـس يـنـيـل
فكن كـــمـــا شـــئت إلا　　أن الجـــبـــان ذليل

علم القارئ أن " حماس " غرق فى البحر على أثر التقاء مركبه بمراكب أورستان وما وقع بينهما من الحرب العوان ، وأن القوم غاصوا عليه طويلاً فلم يجدوا له أثراً وإذ أخذهم اليأس فى أمره حولوا مراكبهم عن ذلك الموضع من البحر إلى غيره .

والآن نقول : إن "حماس" لما ألقى نفسه فى البحر كان لا يزال فى أجله طول فما صار تحت الماء حتى انسحب بتيار كامن خفيف فلبث فيه هنيهة يجاريه بصدر قوى صحيح حتى تمكن من إخراج رأسه من الماء وإذا به بعيد عن أورستان وجنوده بحيث يرى السفن ولا يراه من فى السفن . فما توانى أن ذهب سبحاً فى عريض الماء يسلك طريقًا غير طريق الأعداء . وكان البحر هادئًا ساكنًا إلا رجَّة فيه خفيفة نشأت عن تلك المعركة العنيفة وخصوصاً عند سقوط السفينة المحترقة فيه . وكان الفتى طويل الباع فى العوم فزاده الأمل بالنجاة طول باع فى ذلك اليوم . فما زال ينساب انسياباً ويذهب فى ثنايا الماء ذهاباً حتى أمسى وإذا هو بليل كموج البحر فى بحر كموج الليل .

وكان الفتى قد وهت قواه وبرئ منه ساعداه بعد أن طالما ساعفاه فوقف وقفة المودع للوجود الساجد للسماء فى الماء لو قدر على السجود ثم تراخت أعضاؤه وانحلت من الكلل أجزاؤه . فنزل قليلاً قليلاً يهوى إلى القبر الأعظم من عالم الدأماء .

ولكنه ما كاد يحتجب رأسه فى الماء حتى اصطدم كتفه بجسم صلب صدمة كادت تترضض بها عظامه فتعلق بهذا الجسم من حيث يدرى ولا يدرى فلم يشعر إلا بحياته قد انبعثت وبجثته قد خرجت من ذلك القبر الهائل ملآنة من روح الأمل بعد اليأس . وقوى الحياة بعد الموت . ثم لم يبصر إلا بلوح عظيم كأنه بقية من بقايا فلك منكسر وهو يتوكأ عليه ويتخذه سنداً ليديه فرفع إلى السماء عيناً شاكرة إلى آلائها ناظرة .

ثم تلا هذا النور نور الوجود بعد العدم أضواء ضعيفة تبدو على بعد كأنها دنانير تهادى فى الفضاء فدب دبيب الرجاء فى "حماس" وفاء إلى الطمأنينة والإيناس إذ رأى البر وأعلامه . وأيقن أنه عن قريب يجتلى وجه السلامة .

فلبث مدة يسيرة لا يجهد أعضاءه ولا يتحرك حتى أخذ لبدنه قسطه من الراحة . وامتلأ من القوة اللازمة لاستئناف السباحة . ثم دفع اللوح أمامه واندفع يتخذه متكأه وزمامه وهو يسرع فى سيره تارة ويتأنى فى مشيته طوراً . ويستريح مرة ويصل العوم أخرى . وما زال كذلك نحو ساعتين من الزمان حتى أشرف على البر بسلام وأمان .

ولكن تلك الأضواء التى وجد عليها الهدى كانت لا تزال تلوح له قصية واهية خفاقة . بل قد رآها وهو على خطوات من البر أضعف كثيراً مما كانت تبدو له وهو فى أحشاء البحر وقد قامت أمامه صخور هائلة لا نور عليها ولا سبيل مع الظلام إليها .

ومع ذلك فلم ير الفتى بُدًّا من الوصول إلى اليبس والمبيت تلك الليلة على الفراش العام الأمين فراش السراة بالليل والمعدمين . فدنا من الشاطئ يدفع اللوح وهو به ضنين . حتى نالت يداه الأرض فأتبعهما الأقدام وهو لا يدرى أفى يقظة أم فى منام . أم هو غريق يختنق وهذه سكرات الحمام . حتى إذا احتوت الأرض قدميه

كان أول ما فعل أن جذب اللوح إليه يحمله بكلتا يديه ولو استطاع حمله فى عينيه ثم قال يناجيه :

"أيها اللوح المنزل رحمة من السماء المخرج عصمة من الماء . المسخر لإنقاذى من لدن الآلهة الكرماء . أقسم لك بأسمائهم العظيمة وآلائهم الجسيمة أنى أحملك وأصحبك وأفى لك كما حملتنى فى اليم وصحبتنى فى الغم . ووفيت لى فيما ألم . وأعدك وعد حر كريم أنى إذا أوتيت ملك مصر آمر بعودك فتصنع منك قوائم عرشها العظيم" .

وبعد ذلك مشى حماس فى ضوء القمر الطالع يرتاد مبيتًا بين كتل الصخر المتشعبة المتكاثفة هنالك وهو لا يكاد يجمع أعضاءه من شدة النصب فهداه حسن الحظ إلى مكان صالح بعض الشىء للمبيت وهو مستوى من الصخر تنحنى فوقه كتلة من الصخر كذلك بحيث يحصل منهما للآوى وطاءً وغطاءً ففرش اللوح أرضًا واضطجع فأخذه النوم للحين .

فلما كان الصبح نبهته الشمس بشعاعها الأول وبشيرها إلى الوجود . فانتبه خفيف الجسم ناشط الأعضاء جاف الثياب من حر الشمس فى الحجر . وكان الجوع والعطش قد أخذا من الفتى كل مأخذ فأخذ يدبر لمعدته أمرًا فلم ير إلا أن يخرج إلى فضاء الأرض يبتغى من فضل اللّه . فتأبط اللوح وَهَمّ بالنزول من مكانه العالى .

ولم يكد يتحرك حتى نظر أمامه شيئًا أدهشه واضطره إلى البقاء بعد ما عزم على الرحيل. وذلك أنه أبصر على البعد زورقًا يلقى المراسى وقد نزل منه رجل قصير القامة كثير اللحم والشحم وله زى الصيادين . فجذب الزورق إلى الشاطئ حتى صار كأنه جزء منه . ثم أخرج منه قدورًا وقربًا مملوءة وأشياء أخرى كثيرة . وجعل ذلك كله على الأرض بعضه بجنب بعض ثم تركه ومشى يسلك طريقًا فى الصخر كثير الاعوجاج . فأمهله حماس ريثما ابتعد . ثم نزل مستعجل الخطو خفيف الحركات يرقب بإحدى عينيه الزورق ويتقى الصياد بالأخرى حتى بلغ المكان والرجل ماض فى طريقه مُجِدّ فى سيره لا يلتفت وراءه إلى أن توارى شخصه .

وعندئذ دنا حماس من الزورق . وتأمل ما بجانبه من المتاع . وإذا هو بكمية وافرة من أنواع السلاح . فسر بذلك كثيراً وقال فى نفسه : الآن رددت على الأسد مخالبه فلنبدأ بها فإنها هى الزاد الباقى لا جوع معها ولا خوف . ثم قلب الأسلحة . فتخير منها خنجراً وسيفًا ورمحًا وترسًا وقوسًا ومقداراً من السهام . فتقلد جميع ذلك حتى صار فيه حصنًا لا يرام وأسداً كل الأرض له آجام . ولوى بعد ذلك على القدور ففتحها واحدة واحدة فإذا فيها من اللحوم والبقول ما يكفى جماعة من الناس مدة من الزمان . ثم فتح القرب فوجد بعضها مملوءًا ماء ، والبعض الآخر يفيض من أنواع النبيذ ، فأكل هنيئًا وشرب مريئًا حتى كاد يؤذى من الرى والشبع . ثم لم يكتف بذلك ، بل أخذ ما قدر على حمله من الزاد والماء والنبيذ وانثنى آيبًا إلى مأواه فأودعه هناك وأقام بعد ذلك يترقب .

وقد كان أول ما خطر على بال حماس أنه يعيد جميع ما على الأرض إلى الزورق ثم يركب فيه فيسير . حتى يبلغ ما خلف تلك الصخور من المعمور . إلا أنه راجع فكره فبدا له أن هذه الكمية الوافرة من الزاد والماء والسلاح لا يمكن أن تكون لذلك الصياد وحده ؛ وأن الرجل ليس صياداً كما توهم لأول وهلة ، بل هو لص من لصوص الماء يأوى إلى تلك الصخور ضمن عصابة من الأشقياء . فخشى الفتى عاقبة التسرع وخاف أن يبصر به القوم وهو فى الزورق يسير به فيرموه بسهامٍ لا طاقة له بها ولا دفاع معها . فاختار أن يرجع إلى جحره فيبقى حتى يظهر من ذلك السر خافيه .

فلم يمض إلا القليل حتى تراءى شخص الصياد عائداً من حيث ذهب ثم ما زال يقترب حتى صار بين الزورق وبين القرب والقدور ، فلما رآها على تلك الصورة من الخراب والنقصان غشيه من الفزع ما غشيه وضاقت الدنيا فى عينيه فوقف حيران لا يدرى ماذا يصنع ثم اندفع يبكى ويتوجع .

وكان حماس قد نزل إليه كأنه الأسد فى فريسته بين يديه . فلم يشعر الرجل إلا بيد قوية قد ضربته على كتفه ضربة قاسية . كادت تكون هى القاضية . فالتفت مذعوراً فرأى شيئًا فى طول النمر إذا النمر انتصب . وله خفة إذا هو وثب . فترامى على

قدمى الفتى يقول الأمان الأمان . أيها الشيطان . فتبسم حماس ضاحكًا وقال : قم أيها الجبان إنى لست شيطانًا . ولو تأملتنى ما وجدتنى إلا إنسانًا . قال : ائذن لى فالأمان أيها البطل الكريم إنى ورأسك لست منهم وإنما أنا رجل تاجر أبيع للص الحقير . كما أبيع للملك الكبير .

قال : وأنا أعطيك الأمان بشرط أن تعرفنى من أنت ؟ ومن أين أتيت ؟ وإلى أين ذهبت ثم عدت ؟ وما هذه الذخائر ؟ ولمن هى ؟ تكلم وحذار من الكذب .

قال : أنا يا مولاى رجل تاجر أعامل عصابات كثيرة من اللصوص ومن جملتها الشرذمة الآوية إلى هذا المكان فأربح منهم المال الطائل . وهذا الزورق مصنوع بحيث يمكننى فى ساعة الخطر أن ألقى جميع ما به فى البحر بدون أن يمس الزورق سوء . ولى زمان أعامل أصحاب هذا المكان ويعاملوننى . وهم لم يأتوا إليه إلا من نحو شهر.

قال : وأين كانوا قبل ؟

– كانوا فى الصخرة الجهنمية ثم انتقلوا إلى صخرة الحدبة فلم يلبثوا فيها إلا يومًا بليلة ثم جاءوا الصخرة الملساء التى هم فيها الآن مقيمون .

– وأين هذه الصخرة الملساء ؟ قال وأشار بيده : هى تلك التى تناغى السماء . ولكنك لا ترى إلا ظهرها وهى قريبة منا ولهذا لا أرى من العقل أن نطيل الوقوف هنا . فإما أن تركب معى فى الزورق فأنجو بك وبنفسى . وإما أن تدعنى أذهب وحدى فإنهم يا مولاى شداد أقوياء لا تنفعك معهم شجاعتك .

قال : هذا لا يعنيك أيها الرجل .

– وهل عمرى لا يعنينى يا مولاى ؟ قال : ثبت جأشك أيها الرجل فلو حضر لصوص الأرض أجمع ما ملكوا لك من دونى أمرًا . لا خيرًا ولا شرًا . والآن قل لى كم عدد أصحابك اللصوص ؟

قال : سبعة بما فيهم رئيسهم يا مولاى .

قال : وكيف أنت ماضٍ وتارك هذا الزاد ؟

– بذلك أمرت يا مولاى . قال : فإن علىّ أن أودع بضاعتى هنا وأذهب بعد ذلك فأخبرهم بحضورها ثم عليهم أن يأتوا متى شاءوا فيأخذوها لأنهم لا يتحركون حركة إلا بحساب .

قال : إن أمرهم إذن لمريب فهل تعلم دخيلته ؟ قال : لا يا مولاى والآن ائذن لى بفضلك أن أمضى لسبيلى فإن لى أطفالاً صغارًا يموتون بموتى . قال : ذلك لك بعد أن تقول لى ما المسافة بيننا وبين المدينة ؟

ثلاثة أيام فى البحر بسير الزورق وأربعة فى البر بمشى الأقدام إلا أن البر أوطأ مركبًا وآمن فى هذه الجهات سبيلاً .

– قد عرفت ما تهمنى معرفته . فخذ زورقك الآن واذهب بسلامة .

فانحنى الصياد إجلالاً ولعثم كلمات فيها شكر ودعاء ، ثم أتى الزورق فركب وأعمل مجذافيه بقوة فصار الزورق فى عريض الماء . وعندئذ لم يدر "حماس" إلا بذلك الخادع قد صفر صفيرًا امتلأت من دويه الآفاق . وعلى أثر ذلك انحدر من الصخرة رجلان يهدران . كأنهما فحلان يتبادران فحين رأى الفتى ذلك لم يلتفت إلى القادمين ، بل بدأ برجل الزورق فسدد نحوه سهمًا كسهم المنون . ثم رمى فأصاب مقاتله . فصرخ صرخة واحدة ثم لم يئن . فأيقن حماس أن سهم الانتقام قد أصاب وأن الكذب قد قتل الكذاب .

ثم إنه استعد للقاء الرجلين وكانا قد تقدما حتى صارا منه وجهًا لوجه فصاح به أحدهما يقول : من الرجل وما يبتغى ؟

– ومن أنت يا لص الخنا حتى تسأل هذا السؤال ؟

ثم لم يزد على أن اندفع يتهادى ذات اليمين وذات الشمال وينشد بهذا النشيد الذى اعتاد أن يقوله فى مثل هذه الحال :

إنى أنا حـــــمـــــاس لى فـى الحـــــروب بـاس
مـن خـــيـــر جنس فى الورى تـــعـــنـــولـــه الأجـــنـــاس
أريـكـتـى مـــا أمـــتـطى وتـاجى الـنـحـــــاس
وصـــولجـــانـى صـارمى والـــرمـــح والأتـــراس

وما استتم حتى بدر إليه أحد الرجلين يلعب بالرمح لعبًا . ثم حاول أن يطعنه فتخلى حماس . فاستجمع الرجل ليطعن الطعنة الثانية . وحماس لم يهم ولم يطعن ، بل اقتصر على خطة الدفاع مع منازله . وكان يلقى معظم باله للرجل الآخر يراقب حركاته وسكناته . فثنى الرجل . فتخلى حماس كذلك إلا أنه عانق منازله فى هذه المرة عناق مغتصب قدير فصرخ اللص صرخة المطعون ثم سقط على الأرض مضرجًا بدمائه . كأنما جاءه الموت من ورائه . فلم يزده حماس على أن قال له بيد صاحبك لا بيدى يا لص الخنا .

وبالحقيقة لم يكن هلاك الرجل إلا على يد صاحبه وهذا السهم الذى قتله إنما سدد نحو حماس مخالسة وغدرًا ولكن الفتى لحظ ذلك فارتقب حتى حان وقت الرمى . فلم يرسل السهم إلا وحماس متدرع بخصمه الأول فكانت الجناية على الدرع وحده .

أما الرجل فإنه لما رأى ما حل بصاحبه هم بالفرار فقفاه حماس بسهم اخترقه من ظهره إلى صدره فألحقه بأخيه جزاء خيانته وغدره .

وبقى الفتى هنيهة كما كان وحيدًا على المكان . وقد دخل فى جنون القتال وأخذه ما يأخذ الأبطال فى ساعة الكر والنزال فوقف يطلب الضرب وحده والطعان طلاب شجاع لا طلاب جبان :

وذى جنون عـــاشق الـقـــتـــال منـفـــرد كـــالأســـد الرئبـــال
لا يـرتوى من مـــهج الـرجـــال يـقـلـب الأرض عـــن الأبـطـال
يســـألهـــا هـل من فـــتى نزال لـه الـردى اليـــوم أو الـردى لـى

إنـــى أنـا بالمـــوت لا أبـــالى

وفى هذا الأثناء أقبل ثلاثة آخرون من اللصوص يتحدرون من أعالى الصخر وكأنما نظروا إلى رفيقيهم وقد أصابهما من بأس حماس ما أصاب . فلم يدر الفتى إلا بالسهام تسَّاقط حوله تباعًا آتية من عل فتزحزح قليلاً قليلاً حتى خرج عن مرماها . ثم تخير لنفسه مرتفعًا من الصخر يحتمى فيه ويرمى منه فصعد إليه . ثم شرع يرسل سهامه التى لا تطيش ولا تخيب . فأصاب واحدًا منهم فى أم فؤاده فسقط ميتًا . فحين رأى الآخران ذلك أيقنا أن جنود الملك على المكان ، وأنهما حيث صار رفاقهم صائران . فألقيا سلاحهما ونزعا ثيابهما ثم انغمسا فى الماء فلم يخرجا منه إلا على الزورق للطيران . وهما لا يصدقان بالنجاة ويظنان أن كل لجة جنديًا من جنود السلطان .

فلما شاهد حماس ذلك ورأى المكان قد عاد فخلا له نزل عن مكمنه مسرعًا يتقدم نحو الصخرة الملساء مستخفًا بمن بقى من الأعداء . حتى إذ صار تحتها رفع عينيه يتأملها فإذا بها كتلة واحدة فى صورة البرج لا تصل الأيدى إليها . ولا تنبت الأقدام عليها فوقف يدعو من فيها للنزول فالنزال متغنيًا بنشيده الذى يقوله فى مثل هذا الحال :

إنى أنا حـــــمـــــاس ... لى فى الحـــــروب بـاس
من خـــيـــر جنس فى الورى ... تـــعـــنـــو لـــه الأجـــنـــاس
أريكتى مـــا أمـــتطى ... وتـاجى الـنـحـــــاس
وصـــولجـــــانًا صـــارمى ... والـــرمـــح والأتـــراس

وعندئذ أشرف من ذروة الصخرة رجل كأنه زنجى لكثافة شعر وجهه . فقال : من الرجل وماذا أتى بك إلى هنا ؟

قال : أنا من أنا أيها الرجل وقد أتيت لألحقك بإخوانك الخمسة ثم لى ولسابعكم شأن .

– وأى ثار لك عندنا يا سيدى « من أنا ؟ » .

– وأى ثأر للناس عند الوحوش غير كونها مضرة يجب إزالتها فإما أن تنزل إلىّ أيها الرجل مُسلِّمًا صاغرًا وإما أن أصعد إليك فأجعل هذه الصخرة قبرك .

قال : أما أن هذه الصخرة تكون قبرى فهذا ما أشتهيه بعد عمر طويل . فإن فرعون على فخامة جاهه لو علم بها ما طلب أن يدفن إلا فيها . وأما أنى أنزل إليك وأزايل هذه الصخرة ولو لحظة فهذا يحول دونه حفظ العهد وأداء الأمانة .

قال : وما هذا العهد وهذه الأمانة أيها الرجل ؟ قال : هذه أسرار أخفيها . وشئون لا دخول لك فيها . فإن شئت فاذهب بسلام وإن شئت فإلى حيث أنت حتى يأتيك حينك فى الظلام . ثم وقف كالمتحمس وراءه وترنم بهذا النشيد :

إنى أنا كلكاس ... البطل الدواس
تنجدنى فطانتى ... والرأى والمراس
لا فى اغتيالى حيلة ... ولا علىّ باس
وصخرتى فى بعدها ... كأنها البرجاس
فإن أردت فانصرف ... أو فابق يا حماس
فلست منها خارجا ... حتى يزول الراس

ثم إنه احتجب فى صخرة كما يمعن الضب فى جحره . وغادر حماس حيران قلقًا ينظر من جهة فيما يكون من أمر تلك الأسرار وما يعانى كلكاس مراسه من الشئون الكبار . ومن جهة أخرى يمعن فى الصعود إلى الصخرة كيف يكون وهى كأنها عمود عالٍ طلى بالصابون .

* * *

الفصل السابع

فى طلب الأميرة

كان فى جملة الأجانب الذين ذهبوا تحت كل كوكب فى طلب الأميرة يفتشون عن مكانها ويعللون النفس بوجدانها شقيق ملك العجم ، وقد تقدم لنا القول بأنه خاب فى الامتحان فكان نصيبه مما أمل نصيب سائر الأقران .

وكان فتى جميلاً جريئًا كما تحب المعالى وتهوى العظائم . فحين قال الملك للقوم ما قال . وكان الأمير معهم يسمع ويرى . شجعته رؤية الأب الحزين وجزع على ذلك الكنز الثمين . فخرج مسرعًا فطلب من أحد الخدم أن يجمعه برئيس الركائب الملوكية . فجاءه الخادم به فنزع الأمير خاتمًا من الياقوت كان فى أصبعه وناوله الرجل قائلاً : هذا الخاتم أيها الرئيس من أنفس ما حمل الملوك والسلاطين . وأنا أودعه لديك على شريطة أن تذهب بى الساعة إلى المرابط العامرة لأختار من خيل الملك جوادًا أركبه . فإذا أنا عدت سالمًا رددت إليك الجواد ولم آخذ الخاتم . وإذا عاجلنى حينى فى سفرى وهلك الجواد لهلاكى كان لك التصرف فى الوديعة لذلك فتبيعها وتشترى من ثمنها ما شئت من بدل لأمانتك .

فأخذ الرجل الخاتم وتأمله فإذا به يسوى دواب الملك جمعاء . فالتفت ينظر هل من مطلع عليهما . ثم أشار للأمير أن يتبعه فتبعه وسارا تحت ستار الظلماء حتى وصلا الإسطبل العامر . وهنالك فتحت له الحجر واحدة واحدة وإذا فى إحداها ثلاث أفراس من أكرم ما اتخذ الملوك للرباط أحدها فارسى والثانى آشورى والثالث مصرى . فأراد الأمير أن يختار فقال له الرئيس : لو أخذت المصرى يا مولاى كان ذلك أخف بلية وأدنى إلى السلامة . قال : ولِمَ ؟ قال : لأنه للأميرة خاصة وما دامت غائبة كما تعلم

فالملك لا يسأل عنه فراراً من ذكراها برؤيته . قال : وأنا قد تفاءلت فلا آخذ إلا هذا المصرى لعل الأميرة أن تعود عليه . قال : هو لك يا مولاى . ثم قرب منه مربط الجواد وهو يحكمه إسراجًا وإلجامًا حتى تهيأ للركوب فركب الأمير وسار يريد أن يسبق إلى لادياس النهار . فما زال يصل السرى فى ليل غاب نجمه وكثف غيمه حتى طلع الصبح عليه وهو خارج المدينة فى أماكن صخرة يستعصى على أرجل الخيل دوسها فيها من غير خطر .

وكانت المدينة لم تغب بعد عن ناظر الأمير الغريب . وإن هو بعد عنها مسيرة ساعتين على الجواد . فحين رأى أنه يسلك طريقًا ليس بالمأمون وأنه قطع كل تلك المسافة ولم يمرر بغياض الحدبة مع علمه أنها لا تبعد كل هذا البعد عن البلد خشى أن يذهب سعيه سدى . فثنى عنان فرسه يريد أن يتخذ له طريقًا غير الذى هو فيه فالتفت فوجد وراءه رجلاً سوقة . لا يرى له شأن وإن بدت مخايل الشجاعة عليه . فعجل الرجل إليه يقول : لعلك ضال أيها البطل فإنما تسير على الدرب الأصفر وهو مملوء من المخاوف والأخطار فقل لى إلى أين تريد الذهاب وأنا أدلك على الطريق . قال بل بغيتى هذا الدرب الأصفر . قال : إذن فأنت من العصابة . قال : نعم .

قال : ولكن هذى أول مرة أراك . قال : وأنا أيضًا لم أرك إلا اليوم فلعل أحدنا قد دخل حديثًا فى العصابة . والآن قل لى : ما مخاوف هذا الطريق ؟ قال : ليس فيه مخاوف وإنما حسبت أنك أجنبى عنا فأردت أن أوهمك كما وهمنا على الناس من قبل فلم يعد أحد يستطيع المسير على الدرب الأصفر . قال : وما وقوفك الآن هنا ؟ قال : ألم ترنى كدت أرجعك من حيث جئت لولا أن علمت أنك من رجالنا . قال : إذن فأنا أشكر لك سعيك وأعدك بناء جميلاً حال التقائى بالإخوان .

ثم إن الأمير اندفع يسير وهو يحمد تلك المصادفة الحسنة . وعلى الخصوص قوله للرجل فى ابتداء المحادثة " بل بغيتى هذا الدرب الأصفر "، إذ لو لم يلهم هذا الجواب ما علم بوجود تلك العصابة التى لا يبعد أن يكون لها شأن فى الحادثة عظيم . وكان قد عرف من كلام الرجل وإشاراته أين يبتدئ الدرب الأصفر فأطلق لجواده العنان فيه حتى احتجب بين صخوره وفيافيه .

الفصل الثامن

ساكن الصخرة

ما زال بيروس منذ وقعت الأميرة فى أسره يلين لها وتخاشن . ويشرح هواه كما يشرح المظلوم شكواه أو السائل فقره وبلواه . وهى عنه فى صمم لا ترثى لحاله . ولا تلقى بالاً لأقواله . حتى انتهى الرجل إلى اليأس فانقلب العاشق فصار أحقد حاقد. واستحال الغرام إلى عداوة وانتقام . فعقد بيروس العزم على الفتك ببنت عمه قبل أن تهتدى حكومة الملك له ولجماعته فترجع لادياس إلى العز القديم وعندئذ يعطاها من تشاء وتختار . ولا يعطى هو إلا عاجل الدمار .

وكان هناك عاملان مهمان يستحثان فى الفتى نية العدوان . جنون اليائس وخصوصاً إن كان من أهل العشق كما هى حال بيروس . ووجود تلك الفتاة الخائنة هيلانة أكبر قرينات الأميرة . وجملة الخبر عنها إلى الآن أنها كانت الشيطان السائق للادياس إلى الشَّرَك المنصوب من أجل ثأر لها عند بنت الملك . وهذا الثأر لا يتعدى شخص بيروس فإن هيلانة كانت تحب هذا الشقى ولا تكتمه حبها إياه وذلك قبل أن ينزل عليه سخط الملك فلما غضب بوليقراط على ابن أخيه وأخذ ماله وجرَّده عن ألقابه فر من العاصمة واختفى تاركًا هيلانة على العهد تزداد وجداً على وجد . فما لبث أن استعملت كل حول وحيلة لمواصلة عشيقها فى الخفاء .

أما بيروس فكان من الغرام ببنت عمه بحيث لا يمكنه أن يملك هيلانة فؤاده بعد ما وقف على لادياس وقفًا لا شرط فيه . ولا حاكم غير الهوى ينفيه .

وكنت إذا التمست لكم بديلا أعاتبكم به عز البديل

إلا أن الفتى لم يكن يبغض التى تحبه ، كما أنه لم ير من الحكمة أن يأتى على هيلانة جمالها وخدماتها المستقبلة وهى أعظم القرينات منزلة فى القصر ولا سيما فى فؤاد الأميرة فبقاء المواصلة ولو سرية بينها وبينه فى منفاه أمر فيه نفع وليس فيه ضرر . وبالاقتصار فإن بيروس خدع هيلانة حتى نال بغيته بحسن مهارتها وجميل سفارتها .

حتى إذا مضت الأيام على وقوع لادياس فى قبضة عدويها بدون أن ينجح بيروس فيما حاول من استمالتها إليه وجدت هيلانة مجال العمل ذا سعة . فعملت بكل دهائها ومكرها حتى أخرجت لادياس من قلبه بسحرها ودخلت هى ظافرة الغرام تتخذ ذلك القلب القُلَّب آلة للانتقام .

فلما كان صبح اليوم الذى دهم الأشقياء فيه ما دهمهم انتبه بيروس من منامه وقد صمم أن يقتص من بنت عمه أشنع قصاص فجمع أصحابه وقال لهم : أيها الأصحاب إنى خارج اليوم فى بعض الشئون فإذا طلع القمر ولم أعد فادخلوا على لادياس فخذوا أنسكم منها بقوة . ثم يتقدم أحدكم فيريق دمها الأثيم . قالوا : سمعًا وطاعة . ثم خرج بيروس وسار تاركًا الفتاة على أعظم الأخطار وهى تستجير بهيلانة فلا تُجار . وتود لو وجدت سبيلاً إلى الانتحار فراراً من هول ذلك العار .

ثم كان ما كان مما ذكرناه ولم يبق فى الصخرة سوى كلكاس وهيلانة وقد أبى الرجل أن ينزل إلى حماس ، بل تركه غضبان حائراً يصول كل مصال ، ويطلب الطعن وحده والنزال ، وانثنى إلى داخل الصخرة فقص على هيلانة الخبر فأشفقت واضطربت . وأوجست خيفة من سوء العقبى . وكان الليل قد أقبل أو كاد فشرعت الخائنة تطلب من كلكاس بإلحاح أن يفعل ما أمره به بيروس ، وأن ينوب عن سائر إخوانه فى إمضاء إشارة الرئيس وهو يتثاقل عن تلبية دعوتها السابقة الأوان . ويخبرها أنه ما دام القمر لم يطلع فإن يديه مغلولتان . ويدخل معها فى أبحاث فلكية ما أنزل اللّه بها من سلطان . وكان القمر حقيقة قد طلع وبدا نوره والتمع . فحينئذ عيل صبر الفتاة فطفقت تتهدد كلكاس وتوعده وتمثل له غضب بيروس وانتقامه

فى أفظع الصور حتى تملكه الخوف . فاستل خنجره ودخل على بنت الملك حجرتها . وهو لا يكاد يمسك قدميه أو تمسكه قداماه إشفاقًا من هول ما هو قادم عليه .. لأن الرجل كان رحيم القلب سليم النية بقدر ما كان جريئًا مهذارًا . إلا أن هيلانة كانت خلفه تدفعه إلى الجريمة كأنها شيطان القاتل المسلط عليه حتى سار أمام لادياس . وكانت الفتاة قد سمعت الحديث كما جرى بين بيروس وأصحابه فى أول النهار وبين كلكاس وهيلانة فى آخره . فحين دهاها الرجل لم يزدها بقصده علما ، بل ألفاها بهيئة قيام وفى خشوع تام تصلى لآلهتها وتسألهم حسن الختام .

* * *

الفصل التاسع

حماس فى الصخرة

كان حماس قد قضى بقية النهار بأسفل الصخرة لم يبرحها لحظة واحدة حتى إذا جاء الليل توارى خلف حجر يعصمه من بغتات العدو فى الظلام . ثم أقام يرقب . فلم تمض ساعتان من الليل حتى طلع القمر يرسل أشعته على الصخور فيضيئها من كل جانب . فاستبشر الفتى لهذا الملاك الهادى والزائر المؤنس . ثم بدت منه التفاتة فإذا هو بظل يقبل من بُعد وكأنما يطير طيرانًا من سرعة السير . فازداد حماس أنسًا على أنسه . وهنأ النفس على حفيد جديد ولكنه دخل فى الجحر كل الدخول بحيث صار منه بالمخبأ الأمين .

وما هى إلا دقائق قليلة حتى تجسد ذلك الظل فصار إنسانًا طويلاً عريضًا يتقدم نحو الصخرة وثبًا كأنه الليث النافر وهى عرينه . ثم إذا هو بأسفلها وقد صفر صفيرًا دوى له الفضاء . فأخرج حماس عندئذ رأسه وخالس الرجل نظره فرأى له هيئة أصحابه الذين عرفهم فى أول النهار . فهمّ بالخروج إليه ليلحقه بهم ولكنه رأى سلم حبل يدلى به من أعلى الصخرة ليصعد الرجل عليه . فخشى إذا هو تحرك أن يتنبه له من فى الصخرة فيرفع الحبل بعد ما أرسله . فأمهل حماس غريمه ريثما نزل الحبل تمامًا . ثم خرج إليه وهو لا يشعر به كما يخرج الذئب إلى الشاة . وكان الرجل قد تعلق بالحبل أو كاد فتعلق حماس معه وقد أمسك الحبل بيد وغرس بالأخرى خنجره المسلول فى أم فؤاد اللص فنزل يهوى جثة لا حراك بها . واستمر حماس صاعدًا حتى بلغ مدخل الصخرة وهناك استقبله كلكاس وهو يحسب أنه بيروس صاحب الإشارة

وحامل الصفارة . فانتصب حماس أمامه كأنه عزريل قد أتى بلا ميعاد . ثم قال له بصوت أنكر من صوت الرعد : من الرجل ؟ وما شأنك ؟

فأخذ كلكاس الزعر شر مأخذ فوقف يتلعثم بكلمات متقطعة وأسنانه يدق بعضها بعضاً من الرعدة وهو يقول :

– عفواً أيها الملك إن الأميرة بخير .

– لا تؤذنى أيها الشيطان .

– لعلك عفريت بيروس ؟

– سامحنى يا سيدى حماس .. إلى غير ذلك من لغو الذهول حتى أضحك الفتى حاله . فتركه وتقدم فى جوف الصخرة فوجد حجرة فيها قليل نور فدخلها . وإذا هو بمنظر هائل إذ رأى فتاتين إحداهما قتيلة لم تجف دماؤها بعد . والأخرى قائمة عند رأسها وفى يدها خنجر تقطر صفحتاه من دماء تلك الفتاة فصرخ حماس بها يقول : من أنت أيتها الشريرة ؟ وما هذا المشهد الفظيع ؟ فألقت الفتاة سلاحها وقالت : حلمك أيها الرجل فليست الشريرة إلا طريدة الحياة هذه (وأشارت للفتاة القتيلة) وأنا إنما قتلتها مدافعة عن عرضى وحياتى . قال : وما حديثكما ؟ قالت : أنا بنت بعض الناس وقد وقعت فى أسر عصابة من الأشقياء يرأسها طريد المملكة بيروس . ثم إنها حدَّثت حماس أخبارها من يوم وقعت فى قبضة العصابة إلى الساعة التى هى فيها . ثم قالت : واعلم أيها البطل أنه لولا بعض رحمة فى قلب الرجل الذى مد لك الحبل لكنت الآن مكان هذه الأثيمة الظالمة . وكانت مكانى أنا البريئة المظلومة . فإنها ما زالت تدفعه إلى الجريمة دفع الأبالسة الناس إلى الشر حتى دخل علىّ ليقتلنى كما هى إشارة بيروس . فجاءنى كسلان متراخياً كأنما يريد أن يمهلنى ما استطاع إمهالى . وفى هذه الأثناء سمع صفير الصفارة . فخطفت هذه الشقية الخنجر من يد الرجل . وخرج هو ليدلى الحبال كما هى العادة . فكان من حسن حظى أن الخنجر سقط من يد كلكاس وهى تحاول أخذه منه فوثبت فسبقتها إلى موضعه من الأرض . ثم حملت عليها

وطعنتها به الطعنة القاضية . وإذ كنت قد سمعت طرفًا من جدالك فى هذا النهار مع كلكاس مما جعلنى أطمئن بعض الشىء فقد وقفت وقفتى التى رأيتنى عليها الخنجر بيدى وأنا مستجمعة لأقتل بيروس فإن لم أتمكن فنفسى .

وكانت الفتاة تتكلم ولباس الجرم ينحل عن جسمها الطاهر . كما تماط الستور عن تمثال بديع فاخر . فما استتمت حتى رفع حماس عينيه فأبصر ولم يكن رأى من قبل شيئًا . فإذا هو بملك يبرئ نفسه وهو البراءة متجسمة . ويتكلم ولو سكت لكان الطهارة متكلمة . وكانت لادياس قد وُصفت من قبل لحماس . فحين تأملها عرفها بتلك الأوصاف . وسبقت فراسته لسانها إلى الاعتراف . فدنا منها وهو يقول بأعذب هتاف:

يا ملكا فوق الثرى ... قد هام فيه الناس
إن صح أخبار الورى ... فأنت لادياس

فلما سمعت الأميرة هذا الكلام وكان قد داخلها من الفتى ما داخل الفتى منها أقبلت نحوه صامتة وعيناها تتكلمان فنظرت إليه نظرة لا يقوى على مثلها جنان . ولئن أطاقها فؤاده فلأنه من حديد أو صوان . ثم قالت مجيبة له بأعذب بيان :

أنت الجميل المفتدى ... والبطل الدواس
وأنت لى من الردى ... وم الخنا لباس
فلست أنساها يدا ... أسديت يا حماس

قال : وهل تعرفين اسمى يا منية حماس ؟ قالت : عرفته منذ النهار إذ أنت تحت الصخرة تنشد نشيدك تدعو كلكاس للنزول . قال : لقد ذكرتنيه فأين هو ؟ قالت : لا ينل كلكاس منك أذى فإنه بالكرامة أحق يا مولاى . ثم إنهما برحا الحجرة ففتشا عن كلكاس فلم يجدا له أثرًا فى الصخرة . وكان الحبل مدلى لا يزال فعلما أنه نزل وفر على عجل . فالتفت حماس عندئذ إلى الأميرة وقال : لم يبق إلا أن نحذو حذوه فننزل نحن أيضًا . قالت : الأمر لبطل الصخرة الملساء .

فمسك حماس الحبل بيمناه وجعل اليسرى سند لادياس . ثم نزل متئداً محترساً كمن ينزل بحمل من زجاج . حتى مس الأرض فاستقر به وبالأميرة النزول . وأول ما نقلت لادياس القدم تعثرت فى جسم بين اللين والصلب فذعرت لأول وهلة . وارتدت مجفلة فدعاها حماس لتطمئن قلبًا وأعلمها أن تلك جثة شقى من الأشقياء . فدنت حينئذ منها وتأملتها فعرفت القتيل فرفعت عينها نحو السماء مبتهلة للعناية ثم قالت ما معناه :

يا سماء اللطف شكراً قتل الباغى وديسا
لك مجرى العدل طراً وعلينا أن نقيسا

فسألها حماس : ومن هذا الباغى يا مولاتى ؟ قالت : هذا بيروس ابن عمى ومختطفى ورئيس العصابة الهالكة . قال : إذن فقد قطع رأس الأفعى وأصبح الطريق مأموناً من هذا الصخر إلى القصر .

وكانت لبيروس ذؤابة يعتنى بها ويبالغ فى تسريحها وتطبيبها . بقدر ما بالغت الخلقة فى تذهيبها . فأعجب حماس بها وأراد أن يتخذها علامة على ما جرى له فى ذلك اليوم مع الأشقياء وذكرى لوقائع الصخرة الملساء . فاستأذن الأميرة فى ذلك فأذنت له . فاستأصل الذؤابة من جذورها ثم تمنطق بها فكفت ووفت . والتفت بعد ذلك إلى لادياس فقال لها : الآن اجعلينى أيتها الأميرة زمامك وثبتى أقدامك ولا تبصرى إلا قدامك . فإن ذلك أمضى سلاح يتقلده الإنسان فى مكان مخوف مثل هذا المكان . قالت : سمعًا وطاعة . ثم مشى البطل المصرى ومشت أميرة ساموس بجنبه كأنها ظله المديد أو رمحه السديد وهو يتوجه بها حيث وصف له ذلك الصياد وينظر فى سهل الطرق ويرتاد . فيهبط الأغوار ويعلو الأنجاد وتسلمه الهضاب إلى الوهاد . حتى أقامه السرى فى طريق مستوية منبسطة يشرف عليها الصخر من الجانبين فكأنها مضيق بين جبلين .

وكان قد ذهب من الليل ثلثاه والقمر لا يزال ملتمع الضياء . وهاج السراج فى الأرض والسماء . فمال بالأميرة السرى . ومالت إلى الكرى . فاشتهت من حماس لو سامحها فى الاضطجاع ولو هنيهة من الزمن . فلم ير من بأس فى تلبية هذا المقترح . وفتش للحين عن جانب من الأرض يصلح لضم ذلك الجسم الناعم . فلما وجده عرضه عليها فاضطجعت واضطجع هو أيضًا دون قدميها فأخذهما كليهما النوم فناما مثقلين بالمتاعب . ثملين من كأس السرى الناصب .

فحين تملك حماسًا المنام . وسرت روحه من دنيا الأوهام إلى عالم الأحلام رأى فى نومه كأن الشعب فى سييس (عاصمة مصر يومئذ) يلبسه تاج البلاد ويجلسه على عرشها . ثم كأن الأمة بأسرها موكب له يسير فيه إلى الهيكل الأعظم . ثم كأنه دخل الهيكل فمثل سدة الآلهة فحمدهم وأثنى عليهم ثم هم بأداء يمين الطاعة والأمانة لهم فسمع عندئذ من وراء الحجاب صوتًا يقول : " ليس للملك يمين وعند اللوح الخبر اليقين " . فتذكر حماس على الفور أقسامه ووعوده للوح فانتبه من نومه مبغوتًا مذعورًا فنظر إلى لادياس فإذا هى لا تزال فى أسر النعاس . فحدثته نفسه المضطربة أن يرجع إلى حيث ترك اللوح فيأتى به قبل أن تهب الأميرة من رقادها . فنظر إليها نظرة معتذر خجل ثم تركها فى حفظ الآلهة . وانطلق يعدو فى طلب اللوح . فلو رأيته حسبته يقظان وهو نائم لم يستفق بعد من النوم وإنما تلك حال كانت تعاوده فى منامه فيبلغ إلى مثل هذا الحد فى أحلامه .

* * *

الفصل العاشر

كيف انتبهت لادياس ؟

بينما كان حماس يخبط فى أحلامه ويأخذ ليقظته من منامه . وقد حل سلطان النوم عقدة من أقدامه . فانطلق مستعجل الخطو حثيث الهدو يكفر عن ذلك السهو . كان فارس آخر لا يقل عنه حسنًا وجمالاً . ولا تكاد العين تفرق بينهما شكلاً واعتدالاً . يطلق لفرسه فى الطريق العنان . ويتقدم بسرعة نحو ذلك المكان . حتى إذا صار على مقربة من مرقد الأميرة جفل فرسه وكاد يكبو به لولا شدة احتراسه فكان ذلك للفارس بمثابة الإنذار . فأخذ لنفسه من الموقف الحذار . ثم أرسل النظرات تباعًا فوقعن على إنسان قد توسد الأرض . فتوهمه لأول وهلة قتيلاً فترجل من فوره ودنا منه ثم حققه فى سنا الفجر . فخيل له بادئ بدء أن المكان للآلهة وهم عليه رقود ؛ وأن الفجر إنما يستمد لآلئه من ذلك العمود الممدود . فواصل التأمل فإذا هو بفتاة ما خلق الجمال إلا لها وعليها من الحلل والحلى ما يمثل الملك وشعاره وتبين عن عز الإمارة فلم يقم بنفسه شك أنها لادياس . تأخذ لعينيها بقسطيهما من النعاس . ففرح أعظم الفرح بقربها وتقدم فاضطجع بجنبها ثم أقام يراقب حركاتها وينتظر انتباهها من طويل سباتها .

وفى هذا الأثناء لمح الفارس عند قدمى الأميرة سيفًا ملقى فتحرك فأخذه وتأمله ثم تقلده ووجد مكان السيف أثر رقاد فعلم أن السلاح سلاح حماس . ولكن لم يعلم أين ذهب منقذ لادياس .

وكانت الأميرة قد هبت من نومها فالتفتت إلى صاحبها وقالت : أين نحن الآن يا سيدى حماس ؟ قال : فى الدرب الأصفر يا مولاتى . وبيننا الآن وبين المدينة مسيرة يوم كامل . فحين سمعت لادياس هذا الصوت أنكرته مسامعها .. كما أنكرت عيناها هيئة الفارس من أول نظرة فنفرت عنه كالمنبغتة . ثم قالت : من أنت أيها الفارس ؟ ومن جعلك مكان البطل حماس ؟ قال : أنا هو ذا يا مولاتى أنا حماس بعينه وما مسخت ولا جعل أحد مكانى ولكن شبه لك . فتأملته الفتاة مليًا وكانت فيه مشابهة من بطل الصخرة الملساء فما ازدادت الأميرة إلا انبغاتًا . وهمت أن تتهم الظلام وأن ترى فى ثياب الفارس منقذها الهمام . فلما آنس الفتى منها ذلك أقبل عليها ملاطفًا يقول : وحماس أيضًا اسم وضعته لى أوهامك يا مولاتى ولا أحسبك إلا قد استفقت مما كنت فيه من الذهول . فكادت هذه العبارة تخرج عقل الفتاة من رأسها . وألفاها الفتى غادية على خطر الجنون فأردف فى الحال بأن قال : ما بالك يا مولاتى باهتة باغتة كأنك تشكين فى أمرى . ألست مبيداً لعصابة الأشقياء ؟ ألست بطل الصخرة الملساء ؟ ألم يكن لى ولأعدائك الشأن العجيب ؟ ألم أدخل عليك الصخرة وكلكاس فيها فحين رآنى لم يملك ليديه حراكًا ولا لقدميه انفكاكًا ؟ ألم أجدك أسيرة ففككت ومهددة فأمنت ؟ ألم نفتقد كلكاس بعد ذلك فما وجدناه ؟ فما بالك وهذه دلائلى وأماراتى لا تزالين لى بالجحود ولا تعودين لأنسك المعهود . فراجعى يا مولاتى عقلك . واعلمى أنك ما كنت إلا فى خيال وما اختبلك إلا رؤية تلك الأهوال . والآن أنت بحمد الآلهة ناجية سالمة . وعن قريب على أبيك الملك قادمة . فلا تجعلى جزائى عما قاسيت بالأمس أن يقال ردها وبها مس .

وكان الفتى يتكلم ولادياس تسمع ولا تكاد تعى من شدة الدهش . إلا أن ما أشار إليه الفارس من حوادث الأمس قد أنزل عليها بعض السكينة كما أن مشابهته لحماس كانت تدعوها للطمأنينة . فما لبثت أن اتهمت ظنونها وأوهامها فرجعت إلى الفتى آمنة مطمئنة تسأله ومن أين لنا هذا الجواد يا سيدى حماس ؟ قال : لقد آن أن يمحى هذا الاسم من لوح خاطرك الشريف . إذ ليس له فى الحقيقة وجود إلا فى وهمك . قالت :

فكيف أسميك إذن ؟ قال : الأمير بهرام شقيق ملك ملوك ميديا وفارس . فاهتزت لادياس لهذا الاسم وهذا اللقب وانحنت فحيت الأمير . ثم قالت : من أين لنا هذا الجواد يا سيدى حماس ؟ قال : لا حول لنا الآن فى هذا الذهول ولا حيلة ، فتأملى الجواد أيتها الأميرة لا تجديه إلا جوادك . فدنت لادياس من الفرس فوجدته حقيقة جوادها المهدى إليها من مصر . فقالت : ومن أعطاك إياه ؟ قال : أخذته من مرابط الملك لهذه الغاية . والآن لم يبق يا مولاتى إلا الركوب لعلنا نختصر من الزمن فلو علمت حال الملك من الوجد عليك لاخترت أن تطيرى إليه مع الريح . قال هذا وأخذ بيد الفتاة فأركبها ووثب بعد ذلك فصار خلفها . ثم أطلق للجواد العنان وهو يهنى النفس على هذه الغنيمة الباردة .

* * *

الفصل الحادى عشر

بوليقراط والدهر

قد بلغ من شقاء الملك بوليقراط على أثر اختفاء فتاته أنه زهد فى الدنيا ولذاتها وتسلى عن الإمارة وطيباتها وأصبحت نفسه على نعيمها الموفور تحسد سائر الأنفس على كافة حالاتها . وبالجملة فقد حقت كلمة الدهر على طاغية ساموس وعلت الحوادث فوق عليائه . فدهمته بضراء أنسته ما كان من سرائه .

إلا أن البحث عن الأميرة فى كل ناحية من نواحى المملكة كان كل يوم فى ازدياد خصوصاً أورستان فقد كادت سفنه تقلب الأمواج . عن تلك الدرة الساقطة من التاج .

وكانت نتيجة البحث تعرض على الملك ومجلسه فى كل يوم بل فى كل ساعة فلا يزداد إلا يأساً على يأس من لقاء فتاته العزيزة ، بل حياته الغالية .

وللوالد العذر فإنه لم يقبض فى خلال ذلك الشهر النحيس إلا على رجلين قليلى الشأن لا يمكن أن يبنى على وجوههما أدنى أمل بكشف الحقيقة . أما أحدهما فأخذ فى البحر وفتش زورقه فوجد بأسفله ثقباً صناعيًا ينفتح لدى الحاجة وينسد لدى الحاجة كذلك فكان ذلك مجلبة للريبة فى أمره فقبض عليه وسيق إلى السجن . وأما الآخر فوقع فى قبضة الشرطة حديثًا وهو وافد على البلد من طريق مهجورة مريبة وبهيئة منكرة مشككة . فلما سُئل تظاهر بالبله والعته . فلم يزد النفس إلا جناية عليها . وكان نصيبه من البلاء نصيب صاحبه الصياد . وقد تعبت الحكومة وتعب رجالها فى بلادة الرجلين وبلاهتهما وتصميمهما على الجحود والإنكار فاكتفت بتركهما فى السجن . وكان منها عليهما نسيان طويل .

فبينما الملك ذات يوم كالعادة يشاور أهل مجلسه ويشاورونه فى خطبه الجلل وقد ظهر الضعف عليه وبان وأخذ يهرم قبل الأوان . لم يدر الجميع إلا بالقيامة قد قامت فى المدينة وكان الوقت الضحى والحركة فى الطرق والأسواق عظيمة فساعد ذلك على نمو تلك الضجة الهائلة حتى بلغ صداها عنان السماء .

فأشرف الملك من نافذته ينظر ماذا طرأ وأشرف من معه من سائر النوافذ . فإذا هم برجال كالرياح أو أسرع جرياً ووجهتهم القصر . فاستبشر "بوليقراط" برؤيتهم ووجد يعقوب ريح يوسف من أول وهلة . ثم ما هى إلا هنيهة حتى اقترب الرجال من القصر كل الاقتراب ثم سبقهم إلى الجدار المشرف منه الملك رجل كأنه سارية . فوقف ثم صاح بصوت كادت تميد له جوانب القصر يترنم بما معناه :

بشراك يا ملك البلاد إن الذى ترجوه عاد

عادت أميرتنا إليك ولم يطل منها البعاد

فحين سرت هذه البشرى فى حزوق المسامع السلطانية لم يكن على الملك ساعتئذ إلا خاتم فى أصبعه من أنفس ما حمل الملوك والسلاطين فرمى به إلى البشير فتلقفه وانقلب شاكراً داعياً .

ثم تلت وفد البشرى وفود من الشعب تترى مهنئة الملك بأناشيد المديح من كل وزن ومعنى مليح .

ثم أقبل رسول من الأمير بهرام يحمل رسالة مختومة منه إلى الملك . فقوبل من باب القصر إلى الحجرة السلطانية بالوجوه الباشة والصدور الرحبة . حتى إذا مثل بين يدى الملك رفع إليه الرسالة فتناولها وقرأها فإذا هى قد جاء فيها ما معناه :

مولاى الملك الموقر

قد توفقت بفضل الآلهة وبمن تضرعاتك الأبوية المستجابة لوجدان الأميرة العزيزة وأنقذتها من يد الشقى بيروس ورجاله بعد شدائد جسيمة وأهوال عظيمة .

والآن نحن عند الباب الثانى للمدينة ننتظر من حكومة جلالتك أن تهيئ لنا موكب الوصول إلى القصر . وهناك أرد إلى الملك فتاته الكريمة كما أخذتها من يد العناية محفوظة بأكمل السلامة وأتم الرعاية .

التوقيع

الأمير بهرام

شقيق ملك ملوك ميديا وفارس

فلم يكتف الملك بقراءة الرسالة فى نفسه بل تلاها على الملأ بلسان تثقله نشوة الطرب . فاشتغل المجلس للحين بتهيئة الموكب المطلوب وحملت إلى الأميرة وإلى منقذها الأمير ملابس الزينة اللائقة بمقامهما الخطير . هذا بعض ما اتخذت الحكومة من التدابير . وما أعدت من الاحتفال لاستقبال الأميرة والأمير . فما بال الشعب وقد عرف القارئ مكان لادياس عنده . وكيف كان يحبها جهده ولا يريد أن يولى سواها عهده فلا تسل عن مجالى أفراحه . ومظاهر سروره وانشراحه . وحدث بما شئت عن معالم الأنس فى المدينة وما أضفى عليها توًا من حلل الزينة .

فلم يكن الأصيل إلا والبلد قد ازين. والموكب قد سار بين أعظام الخلائق والأكبار.

وكان الملك فى انتظار وفود الأميرة بالقصر . فحين أقبل موكبها استقبلها هو وسائر أهل مجلسه كما يستقبل الشحيح كنزه المفقود ، أو العليل الفانى عائد الوجود . وهنأها الجميع على نجاتها من شر الأشقياء . ثم أقبلوا على الأمير بهرام وكان متوجًا بأكاليل الغار . علامة على الفوز والانتصار . وعنوانًا على كسب المجد والفخار . فهنأوه كذلك بخروجه سالمًا غانمًا من تلك المعارك . وشكروا له منَّته العظيمة على الملك والمملكة بإنقاذ الأميرة الفخيمة . ثم خاطبه بوليقراط فقال : أيها البطل المجامل وغدًا أقول أيها الصهر الكريم لقد أعدت للوالد مهجته ورددت على التاج درته . ومثلك يرجى لهذا ولمثله . وهذا الكنز على عظم قيمته سوف يقدم لك برمته . فقد أصبحت آمل أن الحكومة والشعب يوافقاننى على الاكتفاء بما كان لتقرير القران وإن نكن قد حصلنا على شرط واحد وبقى شرطان اثنان ، فقام الأمير على أثر ذلك فقال : أعد من

سعودى أن مولاى الملك قد اختارنى للشرف السامى شرف مصاهرته العلية . وإنى بما نلت من جليل ثقته لأسعد ، إلا أنه برغمى أن يعلم الملك أن ما مرَّ على الأميرة من الحادثات واختلف عليها من الأهوال لا يزال له أثر خفيف فى قواها العقلية فلقد عهدتها تفقد الصواب فى بعض الأحيان فتهذى بوساوس أعجز عن فهمها . وتذكر من الأسماء ما لا وجود له إلا فى وهمها . ولكنى أُبشر الملك بأن هذه الحال وشيكة الزوال . وإنه لا يمضى على الأميرة أيام . حتى تحصل على الشفاء التام . فقد ذهب عنها الآن معظم ما كانت فيه من الذهول المتاخم للجنون وأصبحت تتماثل . وتنبعث قواها وتتكامل . فكيف اليوم وهى موفورة الراحة والهناء . مردود أمرها إلى عناية الأطباء . فما استتم الأمير حتى عاد الكدر فاستولى على الملك بوليقراط واشتغل سائر أهل المجلس بهذه الحادثة الجديدة وأخذ الكل يسألون الأميرة عن أمور حدثت لها فى صباها . فأجابت أحسن جواب ولم تخرج قط عن دائرة الصواب . حتى جاء ذكر الحادثة التى نحن بصددها فأحسنت الوصف ووفت الشرح وما زالت تُفصِّلُها للمجلس تفصيلاً من ساعة أن وقعت فى أسر الأشقياء إلى ساعة أن دخل عليها حماس . فلما نطقت الأميرة بهذا الاسم كاد الملك يجن لذكره . وكان جنون أورستان يكون أشد وأعظم . فصاحا معًا : وهل خرج حماس من بطن الحوت ؟ ثم أردف أورستان بأن قال : أما الأمير فلا يخلو من مشابه من حماس . وأما أن يكون حماس حيًا يرزق فهذا ما لا أصدق ولو لقيته وجهًا لوجه وكلمته فما لفم . وحينئذ فلا أحسب الأميرة إلا ذاكرة ما كنت أقوله للملك عن حماس وهى حاضرة فعلقت اسم ذلك البطل وهى الآن تهذى به فى جملة خطراتها .

ثم انتهت الكلمة الأخيرة من بعد ذلك إلى الطبيب الخاص وكان فى المجلس فلم ير فى أحوال الأميرة ما يدعو إلى القلق والفزع . بل أبدى أن بضعة أيام تكفى لذهاب الروع عنها فلا تلبث أن تعود إلى ما كانت عليه من تمام صحة العقل والجسم . وعلى ذلك انفض المجلس بعد أن أمر الملك للأمير الفارس بالمقر اللائق بمقامه ووكل بخدمته من يعتنون بأمره ويبالغون فى إكرامه .

* * *

الفصل الثانى عشر

قرية الوحش الهائل

لمَّا بلغ حماس الصخرة الصماء وكانت الشمس فى رونق الضحى افتقد اللوح فوجده حيث تركه ووجد عنده ذاك الزاد وذا الماء فتأبط من فوره اللوح وحمل ما يكفيه هو والأميرة من الطعام والشراب . وحينئذ ذهبت السكرة وجاءت الفكرة . وأدرك الفتى أنه أساء إلى لادياس إساءة قد تتناول حياتها بتركه إياها وحيدة فوق طريق اللصوص والوحوش . فندم أعظم الندم ورجع على الفور القهقرى وهو يعدو عدو الظلوم . فلم يكن الظهر حتى وصل المكان المعلوم . وهنالك فتش عن مضجع لادياس فلم يجدها . فكاد الموقف يطير بلبه . ودخل فى أشبه الحالات بالجنون فذهب بالبحث فى غير كنهه . ومضى من بين الصخور يهيم على وجهه . وكان العقل أنه يسلك الطريق الأقصد الأقْصر ؛ طريق الدرب الأصفر .

فبينما هو فى هيامه يوغل فى الصخور إيغالاً . ويذهب فيها يميناً وشمالاً سمع زئيراً مادت له الصخرة الصماء . واهتزت له جوانب الفضاء . فما فزع ولا انذعر . بل وقف يتقصى النظر . فإذا هو بأسد هائل كتلة الجسم وقد قصد نحوه يتخطى له الصخر وهو يهدر كالفحل فثبت حماس فى مكانه . يتراءى للوحش بكل عيانه . ثم اندفع يهتز ويتثنى ويترنم بهذا الكلام ويتغنى :

إنى أنا حـــــمـــــاس ... لى فى الحـــــروب باس

من خـيـــــر جنس فى الورى ... تـعـنـــــو لـــه الأجـنـــاس

أريكتى مـــــا أمـــــتطى ... وتـاجى الـنـحـــــــاس

وصـــولجـــانى صـــارمى والـــرمـــح والأتـــراس
يـــا مـــن يـــريـــد لـــى الـــردى ردت عـــلـــيـــك الـــكـــاس
وأحـــصـــيت مـنـك الخطى وعـــــدت الأنـفـــــاس
مـــا فى حـــمـــاس حـــيلة ولا لـــه مـــــــــراس
قـــــــد تـعـب الـوحـش بـه وحـــار فـــيـــه الـنـاس
ولـسـت مـن أكـــفـــائـه ولا بـــه تـقـــــــاس
فـــطـــأطـــئ الـــرأس لـــه فـــمـــا عـلـيـك بـاس

فكانت هذه الصيحات . وما تقدمها من شدة الثبات . وخفة الحركات كنذير للوحش أن القرن . ممن يقام له وزن . ولا يستخف له شأن . فتباطأ فى مشيته . وتخلى عن كثير من عزته . حتى صار من بطل الصخرة الصماء وجهًا لوجه ولم يبق بينهما إلا دائرة النزال . والبعد اللازم للتناوش والقتال . فبدر حماس إلى الأسد وكان الوحش نادرًا فى نوعه من حيث الجسامة والضخامة وطول السواعد وعظم الهامة . حتى كنت تراه بالثيران الوحشية أشبه منه بالأسود . وكانت له لبد وافية ضافية يحتجب فيها رأسه وتبرز أنيابه من خلالها كأنها المنايا الزرق . وله عينان حمراوان تذيبان الحديد فما بال الإنسان . فحين رأى حماس وقد برز له أناف على ساعديه وزأر زأرةً رجعت صداها الآفاق ثم حمل على الفتى حملة منكرة فتخلى عنها وراغ كالثعلب منه ومنها . فعاد الوحش فثنى وهو يكاد يخرق الأرض ويبلغ عنان السماء طولاً من هول دبدبته وخفته فى وثبته . فمرق حماس هذه المرة من تحت بطن الأسد . وهكذا طفق الحيوان يثب تارة ويحوم أخرى ويجرى يمنة ويصول يسرة ويقوم ويقعد ويرغى ويزبد وحماس يغريه ويجننه . ويطمعه ولا يمكنه . حتى خانته قواه . وخذله ساعداه . فوقف وقد فغر فاه . ولم يبق منه حيًا إلا عيناه . وعند ذلك دنا حماس منه فألقمه اللوح فعضه بأنيابه فنشبت فيه من شدة الغيظ وإذا أيقن الفتى أن الأسد عجز تعجيزًا ؛ وأنه صار كالعير أو أسهل قيادًا أقبل عليه يلاعبه ويداعبه

يتلطف له ويطايبه كالظافر المعتذر . أو المجامل وهو منتصر . وكأنما أثر كل هذا التعطف فى وجدان الليث فأطرق برأسه وجعل يدور حول قاهره ويحتك به ويحتمى به فخطر حينئذ على بال حماس أن يحفظ هذه الهدية الفاخرة ليهديها إلى الملك حال وصوله إلى العاصمة . إلا أنه استنكف عن أن يسحب الأسد ورأى أن ركوبه إياه أسمى له وأجلب للراحة فترك اللوح فى فمه كما هو ورفع رجله فصار فوق ظهر الوحش . وإذا هو لا يتأبى ولا ينفر . ومن عادة الليث أن يتشامخ ويستكبر . ثم حركه فتحرك يمشى به مستعجل الخطو ناشط الأقدام . ولم يكن حماس يعلم أين يؤم دابته فملكها الزمام وسامحها فى اللجام . وأرسلها تروم به كل مرام . فما زالت تطوى الصخر نحو الصخر . وتخرج من قفر وتدخل فى قفر . حتى مر به الليث على دابته وهنالك بدت من بعد أنثاه . وإلى جانبيها شبلاه . وهى كأنها الفرس الكريم فى حسن المنظر وتناسب الأعضاء وكأن صغيريها ليثان كبيران . وما اكتملا حولا من الزمان . فأشفق حماس من هذا العدد . وظنها خدعة من الأسد . فاستل خنجره واستعد للقتال راكبًا وهو لا يشك أنها مسبعة ، وأن فيها أكثر من هذه الأربعة . ثم اقبلت الأم وولداها يتبعانها وهى تواصل الزئير . وتتأهب لتغير . حتى اقتربت من الأسد فلم يكن منه إلا أن أدار نحوها الوجه ونظر إليها نظرة الزاجر الرادع ففهمت الإشارة ومشت أمامه ذلولاً صاغرة وشبلاها فى جانبيها يسيران حيث تسير .

وما هى إلا ساعة على هذه الصورة حتى بدت لحماس من بُعد معالم مدينة تراءى بين المزارع والجبال .

ثم إذا به قد دخل فى المعمور فحين رآه الأهالى ولَّوا منه فراراً ضاجين سائحين متفرقين ذات اليمين وذات الشمال . وهو يدعوهم لتطمئن قلوبهم فلا يزيدهم نداؤه إلا هلعًا وفزعًا . حتى ارتبك فى أمره وخشى أن يعود الحيوان فيثور تلقاء جبن الإنسان . فلم يكن منه إلا أنه ترجل ثم ساق البهائم أمامه وهو يفتش الطرق والأماكن عن محل يودعها فيه إلى حين .

فمر ببعض الملاعب على الطريق مما كان الأهالى يتخذون للمصارعة وكان متين البنيان عالى الجدران فعالج بابه فانفتح وحينئذ تحيل إلى أن أدخل فيه الوحش وجماعته وأغلق الباب بعد ذلك كما كان .

وكان الناس ينظرون إلى فعله هذا من بعيد . فلما أيقنوا أن الوحوش أصبحت فى الأسر بحيث لا يخشى أذاها انهالوا عليه من كل جانب وهم بين الارتياب فيه والاستغراب . وآنس حماس ذلك منهم فوقف فيهم خطيباً فشرح لهم الأمر كما جرى . وأخبرهم كيف تمكن من قهر الوحش ولم يجرد لذلك سلاحًا . وكيف بلغ من هيبة الأسد له أنه حمل أنثاه وولديه على طاعته ، وكيف كان له مطية ودليلاً حتى بلغ به المعمور بعد أن يئس من بلوغه .

فعند ذلك علا تهليل الشعب حتى بلغ عنان السماء ولم يدر حماس إلا بأكاليل الغار تجعل على رأسه وبالأزاهر تنثر فى طريقه وتحت أقدامه . فاستغرب الأمر واستعلم ممن حوله عن السبب فأخبروه أن الحيوان الذى جاء به وبصغاره أسرى ليس بالأسد كما زعم وإنما هو الوحش الهائل وأن تلك القرية قريته المسماة باسمه لكثرة ما فتك فيها وأغار على أهاليها وأن الملك قد أقطعها من يدمر الوحش ونسله تدميراً . فما بال من يأتى به أسيراً ؟ وأن عدداً كثيراً من أبطال اليونان وجند ساموس الشجعان . ذهبوا فريسة هذا الحيوان .

ثم إن الصناع فى قرية الوحش الهائل اجتمعوا فقرروا فيما بينهم أن يصنع قفص من الحديد يسع الحيوانات الأربعة لتجعل فيه . ثم يحمل إلى الملك بوليقراط . وبينما هم يباشرون هذا العمل بما فى الوسع إتيانه من السرعة . كان حماس يشتغل بتعهد الوحوش وإطعامها وسقايتها وهى لا تزداد إلا تعلقًا به وألفة له واحتماء فيه .

فلم يجئ اليوم التالى إلا والقفص قد خرج من أيدى الصناع . ولم يبق إلا نقل السباع إليه ، فأخذ حماس هذه المهمة على نفسه فأدخل فيه الوحش وأنثاه وصغيريه وجعل فيه زادها وماءها ثم اجتمع نحو ألف من أهل القرية فحملوا القفص وساروا به قاصدين نحو العاصمة وكانت المسافة نحوها يومًا كاملاً بالسير الحثيث .

* * *

الفصل الثالث عشر

زفاف لادياس لبهرام

تركنا لادياس شغلاً لوالدها الملك بعد شغل . وهما بفؤاده الرقيق بعد هم . وإن ان الطبيب الخاص قد اجتهد فى التخفيف عليه حتى أقنعه أن الأميرة ليست مهتلسة لعقل ، بل هى كما يقول الأمير بهرام مضطربة الوجدان من شدة ما قاست فى سر اللصوص .

إلا أن مقالة الطبيب لم تصدق . ولا أغنت من حقيقة الحال شيئًا فإن هذيان فتاة كان يزداد من اللحظة إلى الأخرى . وكان اختلال الشعور يظهر عليها كل ظهور وعلى الخصوص كلما وقعت عينها على الأمير بهرام أو دخلت معه فى كلام . ذ تتذكر حينئذ حقيقة الحوادث وتشتاق رؤية منقذها . فلا تجد فى بهرام منه لا مشابه طفيفة لا تأسو جراحها ولا تبل صداها .

وكان الملك يرى ذلك على فتاته فتزداد آلام فؤاده ويود فى نفسه لو كانت هلكت ن أول الأمر ولم ترد إليه كما هى الآن . جسم ولا روح . وروح ولا حياة . وحياة لا شعور .

ولهذا كانت لا تمر ساعة حتى يدخل عليها أو يأمر بها فتخرج إليه . فيمتحنها يجدها فى كل ما تقول وتفعل كما كانت قبل الاختفاء وأعقل .. إلا فى أمر واحد وهو لاعتراف للأمير بهرام بمنته عليها بالإنقاذ .

أما بهرام فقد خشى من أول يوم ظهور صاحب الحق بغتة فيعطى حماس نزه الذى وجده ولا يعطى هو إلا الفضيحة والعار فعمد إلى حيلة من أحسن ما يتخذ

فى مثل هذه الأحوال . ذلك أنه أوعز فى اليوم الثانى إلى الطبيب الخاص بصوت رنين الذهب الفارسى أن يشير على الملك بتزويج الأميرة فى الحال لعل الألفة إذا انعقدت بينها وبين خطيبها بصفة فعلية تخرج أعصابها من أسر الأوهام .

فتوجه الطبيب توًا إلى الملك واستأذن عليه ثم بذل له النصيحة مزخرفة مقبولة . فلم يكن من الملك عندئذ وهو فى موقف الغريق إلا أن أبقى الطبيب فى حضرته . ثم أمر بمجلس الشورى الأعلى للمملكة فانعقد للحين .

فلما تكاملت هيئة المجلس أشار "بوليقراط" لطبيبه أن يتكلم فقام فألقى على الملأ خطابة شرح فيها الداء ووصف الدواء مُلحًا فى طلب الزواج . ووجوب تعجيله حتى أقنع المجلس كل الإقناع فقرر قبول إشارته بالإجماع . ثم ضرب اليوم الخامس من وصول الأمير والأميرة إلى العاصمة موعدًا للاحتفال بعقد النكاح فى الهيكل الأعظم .

وما كاد المجلس ينفض حتى صدرت الإشارة السلطانية لكل ذى شأن بين رجال المملكة بالعمل الذى يرسم له فى مثل هذه الظروف ويفرض عليه .

وانقضى اليومان الباقيان فى تهيئة معدات القران وترتيب حفلات المهرجان . حتى إذا كان صبح اليوم الخامس يوم العقد لبهرام على لادياس تحرك موكب الزفاف بالعروسين حاشدًا فاخرًا رهيبًا . أوله فى أرحاب القصر السلطانى وآخره فى ساحة الهيكل الأعظم .

ثم وصلت المركبة العالية فاستقبلها على أبواب الهيكل الملك "بوليقراط" وكان قد سبقها إليه يحيط به الكهنة العظام وسائر وجوه الدولة الفخام . وهنالك نزل العروسان يختالان فى أبهى الحلل . يغيران بزينتهما الشمس فى رونق الضحى . فمشيا يجتازان سور الهيكل وطرقاته وهى كأنها بيوت النمل من زحمة الشعب عليها .

وكان الملك قد أمر فى مساء الليلة التى أسفر صبحها عن يوم القران السعيد بالإفراج عن المساجين فخرجوا مئات يؤدون شكر هذه المنة بالدعاء لجلالته فى الهيكل وخارج الهيكل . ويتيمنون بطلعة من هى السبب فى هذه الرحمة الكبرى .

حتى إذا بلغت الحفلة تمامها وأخذت الرسوم فيها نظامها ولم يبق إلا صدور الإشارة السلطانية للكهنة بالشروع فى العمل . لم يدر الناس إلا بصوت جهورى مسمع قد خرج من بعض جهات الهيكل . فتفزع الجمع والتفت الملك ومن حوله فحين آنس صاحب الصوت منهم ذلك قام يتراءى لهم بكل عيانه ثم قال :

- أنا الساموسى كلكاس أشهد أمام الآلهة والناس وأعلم أن الشهادة دين ، وأن ليس على الآلهة مين وأن كتمان الشهادة جبن وبلادة ، وجرم كجرم الكذب وزيادة . فيا أيها الناس لا تغتصبوا حقوق الغير . ولا تنالوا السُّوى بضير . وأدوا لكل أمانته . وردوا إلى كل بضاعته .

الناس : تكلم أيها الرجل . قل .. أوجز .. أد الشهادة .

كلكاس : أيها الناس إن العجلة مذمومة . وإن عواقب التسرع مشئومة . فأمهلونى أخبركم اليقين . وآتكم بالعجب بعد حين .

الناس : هذا مجنون .. هذا مهتلس العقل .. خذوه .. أخرجوه .

وكانت الأميرة لما ذكر اسم "كلكاس" عرتها هزة لم تكن بالمعهود وتحنت على أبيها فطلبت منه أن يستمع مقالة الرجل إلى آخرها . وأن يعلى محل شهادته . فحين برز الجند إلى كلكاس ليخرجوه من الهيكل أشار لهم الملك أن يكفوا . ثم أمر بالرجل فقدم بين يديه .

وعندئذ حققته الأميرة ، وعرفه الأمير كذلك فاضطربا . وبدت على الأولى علامات الدهشة والأمل . وعلى الثانى دلائل الحيرة والارتباك .

فسأل الملك كلكاس قائلاً : من الرجل ؟ وما عملك ؟ وما تلك الشهادة ؟

كلكاس : عبد جلالتكم الساموسى كلكاس خادم الأمير بيروس ...

الملك : بيروس ، وكيف أفلت من حبالة الحكومة يا خائن ؟

كلكاس : لأنفعك فى مثل هذا اليوم يا مولاى .

الملك : وأين نفعك .. هات .. أد الشهادة وحذار من الكذب .

كلكاس : اعلم يا مولاى أن هذا الأمير ليس هو منقذ الأميرة كما كذب عليك ويكذب الآن على الآلهة .

الأمير بهرام : أنت الكاذب لا أنا أيها السوقة النذل .

كلكاس : السوقة النذل تعرفه مولاتى الأميرة فأنا أترك لها الكلام .

الأميرة : بل تكلم أنت يا كلكاس فما عليك من باس .

كلكاس : ولكن منقذ الأميرة الحقيقى هو البطل حماس . الجهنمى حماس . المارد حماس . إنى لأذكره يا مولاى إلا وترتعد فرائصى وأكاد أذوب فى ثيابى رعبًا .

الملك : حماس ؟ إذن أنت يا لادياس عاقلة ونحن المجانين . اسمع لما يقول كلكاس يا أورستان .

أورستان : إنى أكاد أجن دهشًا يا مولاتى وأتمنى على الآلهة أن يكون هذا الحديث صدقًا . وفى هذه الأثناء أقبل رجل من أقصى الهيكل يخترق الجمع حتى إذا اقترب من الملك وأورستان دخل فى حديثهما مندفعًا فقال : وأنا يا مولاى عبدك الساموسى "مندراس" أزكى شهادة كلكاس .

الملك : ومن أنت أيضًا ؟

مندراس : أحد أصحاب بيروس يا مولاى . والوحيد الباقى منهم . اضطررت أنا وصاحبان لى من العصابة إلى النجاة يوم الموقعة على زورق مثقوب لبعض الصيادين . فنزل رفيقاى فى الطريق مفضلين المسير برًا إلى بلادهما . وبقيت أنا وحدى فى الزورق إلى أن أسرنى بحارة الملك فزججت فى السجن فلبثت فيه أيامًا ثم أخذت بنصيب من عفو الملك بالأمس عن المسجونين .

الملك : وهل تعرف هذا الأمير . وأشار إلى بهرام . فدنا الرجل من الأمير وحققه . ثم عاد فقال : هذا أول عهدى برؤيته يا مولاى .

الملك : ولكنه يزعم أنه هو منقذ الأميرة ؟

الرجل : أسأل الآلهة أن يسلطوا عليه منقذها الحقيقى فورأسك لو شهد هذا الناعم أهوال ذلك اليوم لشاب قبل أوان المشيب .

وبينما الرجل فى الكلام سمعت ضجة عظيمة خارج الهيكل كادت تقلقل دعائمه . ثم تلا هذه الضجة زحام شديد على أبواب الهيكل فأرسل الملك من يأتيه بخبر ذلك . فاندفع الرسول يشق عباب ذلك الجمع الحاشد ولكنه ما بلغ الباب خارجًا حتى لقيه عليه داخلاً رجل غائب الرأس فى أكاليل الغار كأنه القمر المنير بشرًا وجمالاً . أو الأسد الفتى مهابة وجلالاً . فتنحى الرسول حتى تجرد حماس عن سلاحه وكان الناس قد انشقوا نصفين وانقسموا صفين فتمهد الممر للبطل المصرى فقصد نحو بهرام لا يلوى على أحد سواه حتى إذا صار منه وجهًا لوجه صاح يقول له : هل تم العقد بعد أيها السوقة النذل ؟

كلكاس : لقد قلتها له قبلك فلم يصدقنى يا سيدى حماس . ولكن ليطمئن قلبك فقد حُلتُ دون تمامه ولولا ذلك لجئت فى الزمن الأخير .

وكانت لادياس قد عرفت حبيبها من أول نظرة . فلا تسل عن فرحها به وشدة سكرها من فرط السرور ولكنها تركت كلمة الفصل فى الموقف لوالدها الملك .

وكان أورستان قد عرف حماس أيضًا بمجرد النظر إليه . فهمس فى أذن الملك بذلك . ثم دار بينهما حديث قصير كانت نتيجته أن أورستان تقدم حتى استقبل الأميرة ثم خاطبها بصوت يسمع الملأ فقال :

– باسم مولاى الملك أسألك يا مولاتى الأميرة هل هذا منقذك حماس ؟

الأميرة : نعم هو بعينه .

أورستان : وهل ترضين أن يكون قرينك الكريم ؟

الأميرة : بعد مشيئة جلالة الملك .

أورستان : كذلك شاء الملك فتقدموا أيها الكهنة العظام وأدوا عملكم بيمن وسلام.

بهرام : ولكنى أيها الوزير لا أزال على دعواى بإنقاذ الأميرة . وإنى أنا نجيتها من الغم لا هذا الرجل . وقد وعدنى الملك بالقران فلا يفكه من وعده إلا قرار القضاء إن كان فى البلاد شرائع ولها قضاة . فحين سمع الملك والشعب هذه العبارة حاروا ودهشوا وتحولت أبصارهم إلى حماس ينظرون ما يكون من جوابه فالتفت الفتى إلى منازعه وقال : البلاد أيها الأمير عامرة بعدل الملك . ملآنة من قضاته العادلين . ولكن مسائل الشرف والشهامة يفصل فيها بطريق الشرف والشهامة ، فإن كان ولا بد فإن السيف بيننا وهو خير الحاكمين .

بهرام : وأنا قابل حكمه .

حماس : إذن فاخرج بنا خارج الهيكل وهناك تعطى السعادة من تشاء وتمنع من تشاء .

فاستحسن الجميع عمل حماس هذا . وخرج الرجلان توًا يتبعهما نفر من ضباط الملك وخلق كثير من نُظار الحروب وعُشاق المعارك وبقى الملك والأميرة وسائر وجوه المملكة فى الهيكل ينتظرون نتيجة المبارزة .

المبارزة

لا يجول فى نفس القارئ عند سماع هذا اللفظ ما كان يجول فى أنفس الساموسيين إذ هُم فى الهيكل ينظرون ويسمعون من أن القتال لا بد أن يسفر عن مصرع بهرام وانتصار حماس عليه لأول وهلة وحال الصدمة الأولى . وهذا لأنه لم يعهد فى بهرام أنه بطل شديد . وكمى صنديد ؛ وأن الذى جعل فيه مشابه خلقية من حماس قد خلقه كذلك على مثاله فى ثبات الجأش وشدة البأس بحيث لا يستخف بشأنه ولا ينزل به كثيراً عن قرنه . والآن نصف المبارزة فنقول :

لما صار البطلان خارج الهيكل ولم يعد يؤخذ عليهما حمل السلاح ومراس النزال والكفاح اتفقا على أن يجعلا ميدان الهيكل ساحة الملتقى لقربه من محفل الزفاف .

فحين بلغاه اختارا السلاح لا مصريًا ولا فارسيًا ولكن يونانيًا ليكون أقرب للعدل وأجلب لتكافؤ القوى . فوقع الاختيار على الحسام البتار . ثم التف حولهما الشهود كالحلقة المفرغة من فرط الزحام وشدة الاستحكام . وعندئذ بدأ القتال فترك "حماس" لمبارزه الوثبة الأولى . فحمل عليه "بهرام" بحد الحسام حملة يجفل عن مثلها الحمام . فتنحى حماس فضاعت وطأتها الثقيلة على الهواء . ثم وقف الأمير يلتقى ويتقى وحماس أمامه كالنمر المغضب يروح ويجيء ويصول ويطول وهو لا يتمكن منه فى حركة من الحركات ولا يغنى عنه منه الثبات فى الوثبات . حتى عيل صبره لهذا الحال وظن أنه غير قادر على خصمه ورأى الناس عليه ذلك فأوجست الأنفس خيفة ودب الروع فى القلوب .

وكان بهرام فى أول أمره يبارز براز المستقتل المستميت حتى إذا نظر إلى سواعد الخصم وقد كلت وملت ورأى الخور يأخذ عليه فى القتال مأخذًا عاوده الأمل بالحياة . وثاب إليه الرجاء بالمستقبل . فازداد قوة على قوة واستجمع كالأسد ليعقب الوثبة القاضية .

وفى هذه اللحظة زأرت الأسود فى قفصها فملأ دوى زئيرها الآفاق وجرى ذلك فى خروق مسامع الفتى فنفر كالليث الجريح وترنم يقول بلسان فصيح :

تعـــيـــرنى الأســـود بـأن قلبى ... يخـــور ولا يســـاعـــد ســـاعـــديا
وقـلبى لو رأتـه الأســـد يـومًـــا ... وجـــسـمى فى الـثـرى لرأته حـيـا
يـفـــوز الخـــصم بى فى كـل آن ... وكـنت بـأن أفـــوز بـه حـــريـا
فـمـا فى صـدره مـا عند صـدرى ... ولا فى كـــفـــه مـــا فـى يديا
ولكـن غـــادة أخـــذت فـــؤادى ... لـينـصـــرنى فـــرديـه إليـــا

وعلى أثر هذا النشيد تصادم البطلان والتقى الخصمان فكانت الدائرة فى أول الملتقى على حساميهما إذ تحطما من شدة الصدام . ثم طارا عن أيديهما إلى فضاء بعيد . وكان سكر القتال قد أعماهما وأصمهما فلم يشعرا بما أصاب السيوف ولا طلبا سواها لاستئناف الضراب ، بل اكتفيا بالسواعد . وما هى إلا هنيهة حتى تماسا فتمازجا فاتحدا . وكان حماس فى هذه الأثناء قد شبك يديه من خلف ظهر الأمير فلم يدر الناس إلا بهما كليهما قد سقطا متحدين كما كانا فى حال القتال .

وعندئذ أقبل الملأ عليهما يحركونهما وهم لا يشكون أنهما فارقا الحياة أو أن أحدهما بالأقل قد مات . وفى الواقع ما لبث حماس أن خلص جسمه من ذراعى الأمير. وكان كأنه منهما بين ناب الليث والظفر من قوتهما قبل الموت وجمودهما بعده . فنهض الفتى قائمًا بين تهليل الشعب وهتافه فكان أول ما أتى على أثر هذه الإفاقة أنه جثا عند رأس القتيل ثم قبله من فوق جبينه البارد وهو يبله بعبراته ويقول : "إلى الحياة الأبدية أيها البطل العظيم . فوحرمة الآلهة ما وجدت فى البشر نظيرك ولا عهدت فى السباع مثيلك".

العقد :

وكان نبأ انتصار حماس على الأمير بهرام وقتله إياه بالساعد لا بالحسام قد نقل إلى الهيكل فى حينه . فسر الملك ومن معه به سروراً لا مزيد عليه ، وإن لم يعدل عشر معشار ما استحوذ على الأميرة من الفرح والحبور .

فصدرت الإشارة حينئذ بعودة البطل حماس إلى الهيكل . فعاد بين خلق لا يحصى ممن شهدوا الموقعة . وهو يكاد ينوء بأكاليل الغار . ويختفى فيما ينثر عليه أينما سار من ورق الغصون والأزهار . فلما تراءى شخصه أيبًا قوبل فى الداخل بمثل ما لقى فى الخارج من ثناء الناس وإعجابهم وإشارتهم إليه أينما توجه بالبنان .

حتى إذا اقترب من الملك تقدم "بوليقراط" فصافحه ثم قبَّله وهنأه على ما نال من عظيم الفوز وباهر الانتصار . وحذا عظماء المملكة بعد ذلك حذو سيدهم فتقدموا واحداً بعد واحد فصافحوا بطل اليوم والأمس وهنأوه بما أوتى من صفات الشجاعة الجلائل .

وبعد ذلك أشار الملك إلى الكهنة أن يعملوا عملهم فاعترضه حماس قائلاً : إننى أعد مصاهرة الملك من أشرف النعم وأجل السعادات . ولكنى أتمنى على جلالته أن يجعلنى على وعد منها الآن حتى أستوفى الشروط . الأول شروط القران . أما العقد فلا يكون إلا فى آخر هيكل من الهياكل الأربعين اليونانية التى سأبنيها لعروسى الفخيمة فى بلادى ووطن آبائى وأجدادى .

فلم يبق فى نفس أحد من الحضور تلقاء هذا الشمم العالى شك أن بين جنبى الفتى نفس ملك عظيم . وأن رجلاً يكون بهذه الصفات النادرة وعلى مثل هذا الجانب من شرف الأخلاق يَسيرٌ عليه إذا عقد العزم أن يقول ويفعل . إلا أنه لم يسع الملك على أثر ذلك إلا قبول إشارة حماس على ما فيها من التطوح فى الآمال والتطرف فى الثقة من الحال والمآل . فأجاب صهره بأنه راض بما قضى به ؛ وأن لادياس منذ اليوم وديعة لدى أبيها يطلبها متى شاء .

ثم انفض المجلس وخرج الملك ويده فى يد صهره وهما يتحادثان . ثم صعدا فى المركبة السلطانية . فسارت بهم تشق عباب الجماهير من أهالى ساموس وهم بين المهابة فى حماس والإكبار حتى بلغت القصر . وهنالك هيئت له المقاصير اللائقة بمكانه من نسب الملك وحمل إليها جميع ما تشتهى النفس من دواعى الراحة وفرط النعيم . ثم عرضت من بعد ذلك عليه أن يقيم بها ما شاء ويرحل عنها متى شاء . فرغب الفتى فى أن تكون مدة إقامته فى ضيافة الملك شهراً من الزمان .

كلمة على حماس :

كان المصريون قد فقدوا كرامتهم من زمن فى أعين الأمة الساموسية وسائر الأمم الأجنبية وذلك بسبب ما اشتهر عن فرعون "أبرياس" ملك مصر يومئذ من نقضه عهده مع الملك "سيدياس" ملك يهودا من بلاد فلسطين . وكان قد عاهده أن يمده بجيوشه لحماية مملكته من غارة الملك "بختنصر". حتى إذا أغار الآشوريون على بلاد "سيدياس" لم تكن جنود مصر وصلت لتنجد الضعيف على القوى فوقع بيت المقدس فى قبضة "بختنصر". فنشأ عن ذلك فقدان كرامة المصريين فى أعين الأمم المعاصرة ، بعد أن كانوا إلى ذلك الحين المثال المحتذى بين الشعوب فى كرم العهد ورعاية الذمام .

على أن خيانة الملك هذه كانت أشد تأثيراً فى رؤساء الجنود المصرية أنفسهم منها فى الأجانب لأنها إنما تمس كرامة الجيش مباشرة وتوصل الأذى إلى شرفه الرفيع .

وكان "حماس"من ضباط الطراز الأول فى الجيش وله سطور فى سجل الانتصارات المصرية . وكان قد اتصل أخيراً بخدمة الملك الخصوصية فأتيح له أن يطلع على نوايا "أبرياس" نحو الملك "سيدياس"، وما يضمر من خذلانه والتخلى عنه ساعة الشدة ، فعارض فى ذلك أشد المعارضة وكان وحده فى معية الملك لسان الجيش والمدافع عن شرفه وكرامته حتى إذا أخفق مسعاه لم يجد بداً من الاستقالة فاستقال .

رأيت ملكًا بلا استقامة ... لا صدق فيه ولا سلامة
فعفت باب الأمور حتى ... خرجت بالعز والكرامة

وكانت أحاديث لادياس فى ذلك الحين قد ملأت الآفاق . وأخذ الشجعان فى كل بلاد يشتغلون بأمرها وينظرون إليها عن جوهرة فى صدف الأخطار . لا يغوص عليها إلا كل مخاطر عنيد جبار .

وإذا كان حماس فى جملة من بلغتهم أوصاف الفتاة وما يعترض دون اقتناصها من الصعوبات التى تكاد تكون من المستحيلات . لم يلبث أن زينت له البطالة ركوب هذا المسلك الوعر والتماس المزيد من الشهرة فى اصطياد عنقاء ساموس . فاشترى لهذه الغاية مركبًا ثم سافر عليها قاصدًا الجزيرة فالتقى فى طريقه بمراكب "أورستان" . وكان من أمره المعروف بعد ذلك ما كان .

هذه كلمة نوردها عن حماس وهو على أبواب مصر ليعلم القارئ كيف كانت صفات الفتى وهو فى عنفوان صباه وما كان عليه من قوة العزيمة وثبوت الإرادة وشدة الإقدام إلا أن المدة التى ارتاح إلى أن يقيمها فى قصر الملك ضيفًا كريمًا على "بوليقراط" وأهل بيته ورجال حاشيته كان من شأنها أن تحدث تغيرًا عظيمًا فى أخلاقه وأطواره لا بد تظهر نتيجته فى مستقبل الأيام ؛ فإن التمدن اليونانى وهو أدبى محض كان أجمع لشمل اللذات وأوعى لصنوف الطيبات وأسمى بالقوى العقلية لعلى الدرجات من الحضارة المصرية التى هى بعكس الأولى محض مادية لم توف قسطها من الفنون الجميلة ولم يرزق أصحابها هبة الفكر الجليلة .

فكان حماس من قصر الملك فى معرض جامع لأسمى مظاهر تمدن اليونان القديم . وأبهى مجالى عزهم والنعيم . حيث التفت فوجد حوله عقولاً فى درجة عالية . وأفكارًا فى منزلة عظمى . ولغة مملوءة من الحياة قادرة على الغايات . وفنونًا جاوزت فى الجمال حد الجلال من نقش وتصوير وغناء وموسيقى وشعر وخطابة إلى غير ذلك مما هو الصبغة الخاصة بالمدنية اليونانية القديمة فلا غرو أن يكون للفتى من ذلك كله خير مدرسة متممة لما هو عليه من الأخلاق المصرية القويمة .

حتى إذا أوشك الشهر ينقضى ولم يبق إلا أن يستعد حماس للسفر عائدًا إلى بلاده أمر الملك بثلاث من السفن السلطانية فهيأت ركابًا له تحمله إلى حيث يريد الذهاب .

ولما كان يوم الرحيل ركب فى واحدة منها بين خلق لا يحصى من الشعب الساموسى خاصته وعامته مشيعين ضيفهم العالى بالقلوب والأبصار ثم تحركت الفلك تشق به العباب وتغالب التيار .

* * *

الباب الثانى

الحوادث فى مصر

الفصل الأول

نظـــرة تاريخية

كان الحاكم على الأقاليم المصرية فى الزمن الذى نحن بصدد الكلام عنه ملك من ملوك العائلة الإحدى عشرية يقال له "فرعون أبرياس" .

وكـان قليل المهـابة سـاقط الشـأن فى الداخل مـيت الذكـر فى الخـارج . لا من الفراعنة المحاربين ولا من عشاق السلم الممدنين لكن من فريق يمرون بالعرش مرا وما أجلسهم عليه إلا الميلاد . ولا نالوه إلا بفضل الآباء والأجداد .

وكانت مخايل السعادة حين ذاك لأمة الفرس فبينما إفريقية نائمة بنوم مصر ساكنة بسكونها . كنت ترى آسيا تموج وتتحرك وهى من العناية على وعد . والجوارى يجرين لها بالسعد . وقد شرع الدهر يمثل على مسرحها الهائل رواية مما يخرج للناس بين العصر والآخر علا فيها فوق علياء الفراعنة ودك بغيهم ببغى من مثله واللّـه للباغين بالمرصاد .

وما بطل رواية الدهر فى هذه المرة إلا الملك الأشهر "كيروش" ملك ملوك فارس وميديا وكان فى أول إقباله وبداية فتوحاته مشتغلاً بإخضاع البلاد المجاورة له التى هى طرق جيوشه الجرارة وشعاب عارضها الهطل إلى شاسعات الممالك وبعيدات الأمصار .

إلا أن فارس مع ما هى عليه من سعود الطالع ويمن الأمر والثقة من الدهر . كانت لا تزال تهاب مصر فى ماضيها بقدر ما كان ملكها الأشهر "كيروش" جميل الظن

فى الحضارة المصرية شديد الإعجاب بها مؤملاً منها المنفعة لمملكته الناشئة . والخير لأمته الحديثة العهد بالفخار والمجد . وكل من قرأ تاريخ هذا الملك الحكيم وتأمل معاملته لفرعون مدة حكمه الطويل عرف لأول وهلة أنه إنما كان يريد أن تبقى مصر ولو إلى حين بمثابة مدرسة كبرى للفرس يحذون فى المجد مثالها ويسيرون فيه على نهجها الفاخر الجليل .

إلا أن مثل هذه الحكمة من ملك فاتح مغوار مثل كيروش لم تكن لتبقى سليمة الخلال مأمونة الاتصال إلا إذا قوبلت بأعظم منها من لدن ملوك مصر . وإذ كان فرعون لأبرياس دون هذه المهمة رأيًا وذكاءً وحذقًا فى السياسة ودهاء فقد ظلت مصر فى أول أيامه على خطر الوقوع يومًا ما فى قبضة الفرس .

على أن الدهر وهو قد عود مصر أن يعطيها من حيث يحرم وأن يؤمنها من حيث يخيف كان قد احتاط لملكها فهيأ له من هو أصلح له ومن يقيه السقوط فى الهوة التى كان أبرياس يدحرجه إليها فإن الجند فى مصر ما لبثوا أن سخطوا على الملك وسياسته المبنية على هجر المعالى . معالى الفتح والانتصار والانكماش فى مثل سلو البهائم حتى أوشك الشرف العسكرى المصرى أن يؤذى من دوام هذه الحال .

ولم تكن حركة الخواطر فى الجيش ضد الملك بأقل منها فى سائر جهات الحكومة وعلى الأخص فى دوائر الصناعة التى مات يومئذ بموتها خلق كثير .

إلا أن الفتنة ما زالت نائمة لا يجسر أحد على إيقاظها حتى اشتدت القلاقل الداخلية فظهر فيها جبن الملك فى غاياته . وبدا للناس منه الحمق عند نهاياته . فطمع فيه من طمع . وتجرأ عليه من تجرأ . وأصبح الأمر فوضى . واستعد الجيش والشعب فى مصر لظهور جندى سعيد يأخذ التاج غصبًا . وهذا الجندى هو البطل "حماس" كما سترى بعد .

* * *

الفصل الثانى

الاستعداد فى مصر لاستقبال حماس

كانت شهرة حماس وأنباء شجاعته الفائقة قد سبقته إلى وطنه فكان لها أحسن تمهيد من ماضى الفتى فى خدمة الجيش والصفات العالية التى طالما امتاز بها من بين أقرانه .

وإذ كانت أخبار الشجعان فى كل أين وآن يغالى فيها ويبالغ حتى تبلغ إلى الخرافات . فقد صارت أحاديث حماس فى مصر موضوع اشتغال الأطفال فما بال الرجال . وأصبحت هى الحكايات والأمثال فنشأ عن ذلك تمكن حب الفتى من قلوب الشعب . وسريان المهابة له فى الأنفس قبل أن تطأ قدمه تربة الوطن آيبًا من جزيرة ساموس .

ولم يكن لحماس حاسد على هذه الشهرة الفائقة سوى الملك "أبرياس" إلا أن الغباوة دفعت به إلى تدبير حيلة يبرأ الصبيان منها . وذلك أنه يعيد حماس بمجرد وصوله إلى وظيفته فى البلاط . وكان الفتى قد استقال منها قبل سفره إلى جزر اليونان بلا باعث سوى كونه ضابطًا ذكيًا حرًا يقول الحق ولا يحيد فى حال من الأحوال عن الصدق . وللأسباب التى تقدم ذكرها . فأراد الملك هذه المرة أن يطفئ نور حماس باستخدامه فى القصر حيث الأيدى مغلولة عن الأعمال وحيث مظهر الملك والسلطان فوق كل مظهر وشأن .

فلما وصلت السفينة اليونانية المقلة لخطيب "لادياس" كانت على الشاطئ حوالى نقراطيس (قوة الآن) خلائق لا يحصى لهم عدد قد أتوا من أقاصى البلاد لتحية بطل مصر الشاب حال وصوله وعرفانه بالذات مثل ما عرفوه بالصفات .

وكان الجمع من كثرة العدد وشدة الزحام بحيث لم يكن عسيراً على حماس أن يقوم بعمل عدائى تكون نتيجته وبالاً على البيت المالك وتستحيل شرارته فى أقرب وقت إلى جمرة لا طاقة لأبرياس بإطفائها . إلا أن نشوة الشهرة لم تغلب الفتى على حزمه وقوة عقله . فوقف بالآمال عند حده مكتفيًا بهذه الخطوة الأولى العظمى فى سبيل المجد والفخار .

حتى إذا ألقت السفينة مراسيها ونزل حماس عنها تحوطه السفينتان الأخريان . كأنهما لعقاب فلكه جناحان . ضجت الألوف من الناس بالهتاف الشديد الموصول . وكان أول من تقدم فحياه مصافحة رسول الملك أبرياس . وكانت له أيام على الشاطئ ينتظره مع المنتظرين ويفتش عنه السفين بعد السفين . فحين وقعت عليه عينه خف لاستقباله . وبالغ له فى الخطاب . ثم أخبره أن أنباء شجاعته الفائقة كانت ترد على الملك أولاً بأول وفى حينها ؛ وأن جلالته كان يسر بها ولا يستكثرها على صفاته العالية المعلومة لديه ؛ وأنه من أجل ذلك كله وتذكاراً لخدماته السابقة الجليلة فى الجيش قد قلَّده رتبة القائد ورقَّاه لوظيفة حارس أول لذاته الفخيمة .

فتلقى حماس خبر هذا الإنعام بالقبول الحسن والشكر الوافر . وهو فى نفسه حذر من الملك مرتاب . ثم قدم له الرسول جواداً كان قد أعده لركوبه . فركب الرجلان وسارا من فورهما قاصدين مدينة سايس (صا الحجر الآن) لمقابلة الملك فى قصره بها .

* * *

الفصل الثالث

أين اللـــوح ؟

كان وصول حماس ورفيقه إلى ساييس ليلاً . أى بعد أن نام الملك وهدأت المدينة . فلم يبق بها من ساكن يخشى تحركه . وكأن هذه أيضًا حيلة من أبرياس دبرها فى نفسه ثم أوعز إلى رسوله المرافق لحماس بإنفاذها فأنفذها على ما يرام .

وفى الواقع كان باب المدينة الذى دخل منه الرجلان لا يزال مـفـتـوحًـا . مع أن الأصول المتبعة يومئذ لم تكن تسمح ببقاء أبواب المدينة مُـفَـتَّـحة إلى مثل الساعة التى وصل فيها حماس من الليل .

ثم إن الفتى لما وصل القصر ليقضى بقية الليل فى غرفة منه كما هو من واجبات وظيفته الجديدة وجد أبوابه مفتحة كذلك كأنها تنتظره ريثما يصل ثم تغلق . ولم يكن من الأصول أيضًا أن تبقى أبواب القصر مفتحة بعد انصراف الناس منه ودخول الملك إلى مقاصير الحرم .

فاستنتج حماس من هاتين الحادثتين أن الملك اتفق هو ومندوبه أن يكون وصوله مع حماس فى ساعة متأخرة من الليل لكيلا يشعر أحد بقدومه فتتولد فى المدينة حركة لا تحمد عقباها . إلا أن الفتى لم يعر هذا العمل الصغير كبير اهتمام . بل استمر فى محادثة رفيقه وملاطفته حتى صار على باب الغرفة الخاصة بالحارس الأول فى القصر . وهنالك شكر للضابط حسن قيامه بتلك المأمورية التى يعدها من الملك تشريفًا له لم يستوجبه . ثم تركه ودخل مقصورة نومه لينام وما كادت المضاجع تطمئن بجنبه حتى أخذه الكرى فرأى فى منامه نفس الرؤيا التى رآها وهو على الدرب الأصفر

إذ هو بجانب لادياس وإذ هما يتوسدان الحصى والرمال فهب من نومه بحالة المجنون وهو يصيح أين اللوح ؟ أين اللوح ؟

وعندئذ لم يدر الفتى إلا برجل يتقدم نحوه فى الظلام وهو يقول بصوت منخفض : لا تخف يا سيدى حماس . لا تخف يا سيدى حماس . إننى من أصدق محبيك وأكبر أنصارك ولولا ذلك ما استهدفت بحضورى فى مثل هذه الساعة ودخولى غرفتك على هذه الصورة فانزل عن سرير نومك وأنا أريك أين اللوح ؟

فما استتم الرجل حتى كاد حماس أن يطير لبه دهشًا واستغرابًا ، فقال للرجل بلسان معقود بالحيرة :

– ومن ذا الذى أتى باللوح من ميدان الهيكل وأنا على يقين أننى تركته نسيًا هنالك عندما كنت أبارز بهرام .

الرجل : لا بل هو هنا يا سيدى هنا ... أمامك ... تحت قدميك فانزل وأنا أريك إياه .

حماس : لعلك مجنون أيها الرجل أو أنت آت لتفتك بى غدرًا فإن كان لك فى الحياة فاخرج من فورك وإلا قتلتك شر قتلة .

الرجل : بل أنت المجنون يا حماس إذ ليس اللوح على ميدان الهيكل بل هو أمامك كما قلت لك ... تحت قدميك . وليس عليك إلا أن تنزل عن سرير نومك . ثم تخطو خطوة واحدة لتراه . فانزل هات يدك . إننى ما أتيت لأفتك بك كما زعمت ظلمًا ، بل أنا أريد أن أنقذ حياتك .

ثم إن الرجل أخرج من جيبه فتيلاً فأشعله فلما تأمل حماس صورة مفاجئه فى الضوء اطمأن واستأنس ونزل عن مضجعه قائلاً :

– وأين ذاك اللوح أيها الرجل ؟

الرجل : ها هو بين عينيك تأمل .

فتأمل حماس أرضية الغرفة وإذا بالتحقيق فيها لوح لا تكاد العين تعرف حدوده منها إلا إذا وجدت من يهديها له . وهو عظيم يكاد يشغل نصف مساحة الغرفة وقد دار بسرير النوم من جهاته الأربع فحين حققه حماس رفع عينيه ثم سأل الرجل قائلاً :

- أوتعنى باللوح هذا ؟

الرجل : وأى لوح يهمك أنت أكثر من هذا وهو قبرك الذى حفر لك فبينا أنت عليه فى سبات عميق . إذ أنت تحت الثرى فى قرار سحيق .

حماس : لقد حسبتك تتكلم عن اللوح الإلهى إذ هو وحده يهمنى ولا يهمنى سواه . فانطلق الآن لشأنك . ودعنى ونفسى والأحلام . فقد كفى ما قطعت على المنام .

الرجل : إن الذى أعطاك الإقدام والبسالة . سلب منك عقلك لا محالة. ولو لم أكن أضل منك عقلاً لما سعيت فى إنقاذك . ولا خاطرت بحياتى من أجلك . والآن فاستعد يا حماس للقاء حينك وإنى أستودعك النار . وبئس القرار .

ثم إن الرجل عالج الباب بلطف فانفتح . فخرج ينسل انسلالاً تاركًا حماس وحده فى الغرفة وكأنه لم تجر بينهما تلك المحادثة الطويلة ولا علم حماس من محدثه أنه إنما يضطجع فى فراش المنية . ويقرب نفسه للهلاك كما تقرب الضحية . بل انثنى إلى المضاجع فانغمس فى خزها وكتانها وقد ذكر باللوح لادياس وأيامًا نقضت له فى البؤس بسببها . ثم فى النعيم بقربها . فتهيج ساكن أشجانه وتأجج كامن نيرانه . وأخذ بعض بنان النادم الآسف على ما أفات نفسه من نعمة الحصول عليها . ونعيم المقام لديها . على حين قد تهيأت له المنى . وكان له عن كل ذلك الطمع غنى .

وبينما هو فى هذه الأحلام . بين اليقظة والمنام . لم يدر إلا باللوح كان وطاءً فصار غطاءً ثم بالسرير يهوى به فى ظلمات بعضها فوق بعض . حتى استوى على مثل اللحد الضيق من الأرض فاستقر به الهبوط هنالك فنهض حماس واقفًا حيث ما فى الموت شك لواقف .

ثم التفت فرأى الجند من كل الجهات وقد سددوا نحوه السهام لا ينتظرون إلا الإشارة ليذيقوه كأس الحمام . فصاح عندئذ قائلاً : أخيانة يا قوم ؟ فلم يجبه إلا الكهنة من خلف الجند بنشيد الموت المحزن الرائع . فلم يبق فى نفس الفتى شك ساعتئذ أن الملك قد اغتاله ، وأن منيته قد دنت لا محالة . إلا أنه تجلَّد للشماتة ولبس للموقف لبوسه من الاستجماع والوقار . فقال يخاطب الجلادين : إذن فاعملوا عملكم فإنى مستعد للقاء الدار الأبدية . فلم يجبه فى هذه المرة أيضًا إلا الكهنة من خلف الجند بنشيد الموت المحزن الرائع .

وكانت هذه الهنيهة بين النشيدين كافية لرد العاشق إلى إذكار معشوقته والخاطب إلى الفكر فى خطيبته . وما وعدها من مستقبل بالحب سعيد وعيش فى الهناء مديد . بحيث أصبح دينًا عليه أن يحيا لتحيا منها الآمال ؛ وأن يعيش من أجلها على كل حال .

وعلى أثر هذه الخطرات جبن البطل وخذلته نفسه الأبية لأول مرة فسكبت عيناه الدموع وهو يرفعهما نحو سماء الجب ويقول : أيها الآلهة العظام ثبتوا برحمتكم أقدامى وأعينونى على رؤية هؤلاء الجلادين . فجاء الجواب هذه المرة أيضًا من الكهنة خلف الجند يشيرون بنشيد الموت المحزن الرائع .

وعندئذ أيقن حماس أن الإشارة صادرة للجند لا محالة فأمسك عن الكلام . وسدد صدره نحو السهام . كمن يستحث الحمام . وفى هذا الأثناء تنحى الجندى الذى أمام حماس وقال بصوت جهورى رهيب : الملك .

فحين سمع سائر الجند هذه الكلمة أمالوا الأسلحة وانحنوا بهيئة تعظيم يستعدون لتحية الملك . حتى إذا تراءى شخصه كان حماس أول مؤد للتحية فأشار أبرياس للجند أن يبتعدوا ففعلوا ثم قال يخاطب حماس :

– أعرفت أين أنت الآن يا حماس ؟ أرأيت كيف أمسيت ؟

حماس : أسير احتيالك يا مولاى ورهين اغتيالك فعجّل لعلى أستريح من رؤية هؤلاء الجلادين .

الملك : ولكنى إلى العفو أميل يا حماس .

حماس : وهو منك أحرى يا مولاى .

الملك : لكن العفو معلق بشروط ثلاثة فإن تحققت حصل وإلا فلا سبيل إليه .

حماس : وما هى هذه الشروط يا مولاى ؟

الملك : أن تعترف أولاً أنك استوجبت عقوبة الإعدام بما صرحت به فى ساموس من تعلق آمالك بالملك . وسعيك فى اغتصاب تاجى وعرشى ، وثانيًا : أن تكتب إلى بوليقراط بأنك لم تعد تطمع فى ملك سيدك ومولاك ، بل تكتفى بما بلغت إليه فى حكمه من رفيع الرتب وعظيم المناصب ، وثالثًا : أن تقسم بالآلهة وبالشرف العسكرى أنك لا تخوننى ولا تتصدى لإيذاء عرشى بل تكون له طول حياتك الخادم الأمين والناصر فى الملمات والمعين . وهذا كله بالكتابة وفى هذه الورقة . قال هذا وقدم للفتى طرسًا وقلمًا ودواة . فتردد حماس بادئ بدء بين قبول هذه الشروط ورفضها إلا أن البطل لم يلبث أن انخذل . وناب العاشق فامتثل . فمد حماس يده وأخذ من الملك أدوات الكتابة ثم كتب جميع ما أملى عليه . ووضع اسمه بعد ذلك فى أسفل الورقة ثم دفعها إلى أبرياس فتناولها فرحًا مسروراً وقرأها فألفاها كما طلب وأزيد . فطواها وجعلها فى بعض جيوبه . ثم التفت إلى حماس فقال : الآن عفوت عنك أيها القائد . واعلم أنه لا تمضى أيام قلائل حتى أكون قد نقلت كبير حرسى إلى وظيفة تليق به فى الجيش ثم أجعلك مكانه فتكون قد رقيت فى شهر واحد لرتبتين من أسمى الرتب فى المملكة . ووليت منصبين من أرفع المناصب فيها . قال : وأنا عاجز عن الشكر يا مولاى تلقاء هذا الكرم الباهر . وليس عندى ما أقدمه سوى الدعاء بدوام وجودك . قال : إذن فاطرح نفسك على السرير كما كنت وهو يخف بك صاعداً حتى يبلغك غرفتك . قال : سمعًا وطاعة واضطجع فى السرير كالنائم فتقدم الجند عندئذ وحركوا الآلات فتحرك السرير معها فلم يكن كلمح البصر حتى صار حماس فوق الأرض بعد أن كان تحتها فقضى بقية تلك الليلة فى هواجس وأوهام . ويقظة ملآنة من الأحلام .

* * *

الفصل الرابع

اتفاق غـــريب

أطـاوع فـى لادياس الـزمـــــان فـيـومًـا شـجـاع ويومًـا جبـان
ويـومًـــا أطـاع ويومًـــا أطيع ويـومًـــا أعـــز ويـومًـــا أهـان
ويومًـــا أرانـى رخى القـيـــاد ويـومًـــا أرانى عـــصى العـنان
حلفت لـفـــرعـــون إن خنـتـه وقـد كـــان لى ولفـرعـــون شـان
ولـولاك لم أهـو ملـك البـــلاد ولـولاك لـم أسل قـــبل الأوان
عين لأبـريـس فـى ذمـــــتى وأُخـرى لكم قـبلها فـى الصيـان
وهـذى أتـتكـم بـخـط الـفـــؤاد وتـلـك أتـتـــــه بـخـط البـنـان
فـأصبـحت إن خنـتكم فـى الهـوى وإن لم أخن عـهـدكـم قـيل خـان

كانت الأيام على حماس والأشهر تتعاقب عليه وهو فى أعلى مكانة من رضوان الملك . بل هو الركن الأعظم فى القصر . والواسطة فى عقد الحاشية ترد إلى رأيه الآراء . ولا ترد مشيئته إذا شاء . وهو يزيد طاعة وإمثالاً . كلما زاده الملك قبولاً وإقبالاً .

وكان قائد فرق الحرس وهى يومئذ يونانية مستأجرة وهى تكاد تتفانى فى حبه من دون الملك وهو إنما جذبها إلى محبة ذكرى وقائعه فى بلاد اليونان أولاً وبحسن معاملته لها وسببه فى راحتها ورفاهتها ثانيًا .

وكان الملك قد أنجز حماس ما وعد فى الليلة المشئومة فولى كبير الحراس قيادة الجيش الاستعمارى فى فينيقيا وجعل مكانه على قيادة الحرس العامة بطل هذه الرواية فأصبح له بذلك النهى والأمر على أكثر من ثلاثين ألفًا من جنود الحرس والإشراف العام على سائر المعسكرات السلطانية فى العاصمة .

إلا أن طاعة حماس لمولاه وبلوغه فى الولاء إلى هذا الحد لم يكونا ناشئين عن خوف ولا رجاء . ولا حب ولا استرضاء . ولكن عن محض تقيد باليمين المعلومة فى الليلة المشئومة . بحيث كان يخشى أن تغلبه المطامع على دينه فيصبح له ولأبرياس شأن . وفى الواقع لم يكن يعوز حماس إلا حادثة تحرك من غرامه ما يكن . وتثير من آرائه ما كمن . لا سيما إن هى أتت من ساموس .

فبينما هو ذات يوم فى نزهته بالمدينة يمشى فى الأسواق ويمر بمعالم الصناعة . ومعاملها ومخازن التجارة وحواصلها . وقف به المشى على دكان لرجل ساموسى من باعة الآثار اليونانية . وكان حماس من المولعين بصنائع اليونان وبدائعهم فلبث هنيهة يتأمل فيما احتوته الدكان من ذلك . وكان لابسًا حلته العسكرية اليومية فعرف البائع منها أنه من عظماء الضباط فى الجيش فدنا منه وكلمه همسًا فقال :

– لقد آل إلىّ أثر من أنفس الآثار لا سيما فى نظر عظماء الضباط أمثالك يا مولاى .

حماس : وما ذاك ؟

التاجر : إكليل من الغار مما فضل عن كبير الحرس القائد حماس يوم خرج من مبارزة الأمير بهرام ظافرًا منصورًا .

فما كاد الرجل يستتم حتى اضطرب القائد اضطرابًا بدت عليه دلائله إلا أنه استرد جاشه فسأل الرجل قائلاً : وأين هذا الإكليل ؟

الرجل : فى منزلى بالقرب من الدكان . فإن أذن مولاى فلينتظرنى هنا لحظة ريثما أحضره .

حماس : على أن لا تبطئ عنى .

الرجل : لا تخف يا مولاى وإنى مستبشر بوجودك . ولست أول من أقبل علىّ فى هذه الأيام من الأغنياء والسراة العظام بفضل اللوح .. نعم اللوح .. اللوح الإلهى .. اللوح الرازق اللوح المسعد .. اللوح المنجى .

قال هذا وهمَّ بالذهاب فمسك حماس بيده وسأله بلسان يتعثر من الدهش قائلاً :

– ما هذا اللوح أيها الرجل .. ما حديثه ؟

الرجل : حديثه غريب يا مولاى ولكن لا يهمك . فدعنى أذهب لأحضر لك الإكليل .

حماس : بل أنا أحب سماعه . وربما همنى ذلك فلا تذهب حتى تحدثنى إياه .

الرجل : اعلم يا مولاى أننى قدمت مصر من سنتين . تاركًا امرأتى وولدى هذا ، وأشار لصبيه ، فى ساموس يتعيشان بها من بيع الآثار . كما أفعل أنا فى هذه الديار . حتى إذا اطمأن بى المقام فى سابيس وسكنت إلى طول المعيشة فيها بعثت إليهما أستقدمهما فقدما بعد أن أشرفا على الهلاك غرقًا وكانت نجاتهما على اللوح الميمون . وحديث ذلك أن امرأتى مشت ذات مرة على ميدان الهيكل فى ساموس فوجدت فى طريقها لوحًا من الخشب فحملته وعادت به إلى المنزل لتجعله حطبًا لنار الطبخ . قالت : فلما هممت بكسره أحسست كأن يدى تخوننى . ثم حاولت ذلك مرارًا فلم تطاوعنى يدى عليه فتأملت اللوح فوجدته صالحًا لنوم ابنى وكان يومئذ فى شدة المرض ففرشته له فوجد الراحة والعافية عليه . قال التاجر : ثم أخذ الرزق يتيسر لامرأتى أسبابه والحياة يتسهل محياها حتى استبشرت باللوح فعظم ضنها به . واشتد حرصها عليه حتى إذا استقدمتها حملته معها فى السفينة التى ركبت فيها للمجىء إلى مصر فقدر أن السفينة غرقت فهلك جميع من فيها إلا امرأتى وابنى . وكانت نجاتهما باللوح وعليه . هذا يا مولاى حديث اللوح ولا تسل عما شمل أمرى من اليُمن منذ وجوده فى بيتى فإن الناس يقبلون علىّ أعظم إقبال . والرزق يأتينى فيربى على الآمال .

حماس : وهل تمكننى من رؤية هذا اللوح ؟

الرجل : ولِمَ لا يا مولاى ؟

حماس : إذن فائذن لى أن أذهب معك لأراه ؟

الرجل : على الرحب والسعة فاتبعنى يا مولاى .

فسار التاجر وحماس يتبعه حتى بلغا المنزل وكان فى نهاية الشارع الذى فيه الدكان . فدخلاه وهنالك طلب الرجل من امرأته اللوح ليريه القائد فأحضرته . فتأمله حماس فعرفه من أول وهلة فأخذه متلهفًا وما زال يضمه ويقبله وعيناه تفيضان من الدمع حتى رثى الزوجان لحاله . فسأله الرجل عن السبب ملحًا فالتفت حماس إليه وقال :

– هل تبيعنى هذا اللوح أيها السيد ؟

التاجر : لا أبيعه ولو أعطيت فيه خزائن الأرض .

حماس : ولماذا ؟ وما فائدتك منه فإن كان ما تصيب بسببه من الرزق الواسع فأنا أجريه لك كل يوم كما هو وأزيد وإن كان ...

التاجر مقاطعًا : لا تتعب نفسك يا مولاى فإنى أفى لهذا اللوح كما وفى لزوجتى وابنى فلو كان لحياتهما ثمن عندى ما تأخرت عن مساومتك فيه .

فأطرق حماس برأسه هنيهة وقد اقشعر بدنه واضطرب وجدانه عندما تذكر يمينه للوح . وما شهد من وفاء التاجر له على حين كان الوفاء منه هو أحرى ثم رفع عينيه وقال :

– هب إن كان الراغب فيه صديقكم حماس .

التاجر : لقد أشرق البيت بنورك فأهلا بك يا مولاى وسهلاً ولكننى لا أبيعه أحدًا ولو أنه الملك أبرياس .

حماس : فإن كان فى بيعه خير لبلادك وسعادة لقومك وملك مصر تنهى فيه أميرتكم لادياس وتأمر .

التاجر : إذن فهى حياة أعزّ علىّ من حياة امرأتى وولدى الواحد . وأنا فى هذه الحال لا أبيعه بيعًا ولكن أقدمه تقديمًا .

حماس : وأنا أطلبه منك على هذا الشرط . ولكنى أسألك أولاً : أن تكتم الأمر كل الكتمان ، ثانيًا : أن تقبل منى عشرين ألف قطعة من الذهب تأخذ نصفها لك خاصة . وتنفق النصف الآخر فى عمل عرش يليق لجلوس الملوك وتكون قوائمه مصنوعة من خشب اللوح ، ثالثًا : أن تبقى هذا العرش عندك فلا تقدمه لى إلا إذا علمت أننى فى خطر عظيم أو كرب جسيم . قال هذا وناوله قلادة كانت فى جيبه تربى قيمتها على المبلغ الذى وعد به فتناولها التاجر فرحًا مسرورًا ثم خرج حماس وهو لا يبصر أين يضع القدم من شدة الاندهاش وفرط السرور .

* * *

الفصل الخامس

كلكاس فى مصر

كانت حامية "منفيس" ، وهى يومئذ الحامية الثانية للبلاد ، مؤلفة من الجنود الوطنيين الذين لم يكونوا مع الملك فى جانب وإن هم ظهروا فى طاعته واستمروا على الصدق والأمانة فى خدمته .

وكانوا يحبون "حماس" ملء القلوب ويستعين به قوادهم على قضاء حاجاتهم لدى فرعون وحكومته . وكانت له المراقبة عليهم بمقتضى وظيفته العليا فى القصر السلطانى فكان يذهب إلى منفيس بين الوقت والآخر لإجراء التفتيش العسكرى والنظر فى شئون الحامية وانتقاد أحوالها .

فبينما هو ذات مرة فى منفيس يباشر عمله هذا تقدم إليه رجل متلثم وقال له بصوت لا يجاوزهما سماعه :

– أنا يا مولاى عبدك تاجر الآثار بسييس .

حماس : وفيم حضورك الساعة وماذا تريد ؟

الرجل : أريد يا مولاى أن أقص عليك ما أصابنى بسبب العرش الذى صنعته لك من خشب اللوح المعهود .

حماس : وماذا أصابك ؟

الرجل : اعلم يا مولاى أن النار شبت فى الغرفة التى هو مخبوء فيها مرتين والتهمت جميع ما فيها من متاع وأثاث ولم يبق مما تأكل النار فى المرتين سوى العرش

مع كونه خشبًا فى خشب فهو بذلك أول معرض للعطب . وقد لاحظت أنا وزوجتى أن الحريقين حصلا فى يومى سرار البدر من الشهرين الماضيين وكان حصولهما فى ساعة واحدة وعلى صورة واحدة . وقد رأت زوجتى منذ ليلتين رؤيا هالتها وأقلقنى أنا أيضًا سماعها منها فعجلت إليك لترى فى الأمر رأيك ولتريحنى من وديعتك التى تتهدد بيتى من الأساس إلى السقف . فقد رأت امرأتى أن البيت احترق مرة ثالثة فغادرته النار تلا من رماد . وإذ كنت أعهدها صادقة الأحلام تبعتك إلى هذا البلد فانظر الآن ماذا تأمر ؟

فأطرق حماس برأسه ثم رفع عينيه ليكلم الرجل وإذا هو بكلكاس قد كشف اللثام فحين رآه عرفه أول وهلة فأشفق من رؤيته وصاح يقول :

– كلكاس .. كلكاس هنا .

كلكاس : نعم يا مولاى وإنه رسول الأميرة إليك ليذكرك وعودك وعهودك وليقول لك عن لسانها إن السعادات بنات الهِمم وإن الفرص إذا لم تغتنم يندم تاركها حين لا ينفع الندم .

حماس : وما علاقتك بتاجر الآثار فى سييس ؟

كلكاس : هو أيضًا سفير الأميرة فى شئون الغرام ورسولها من قبلى لتحقيق ذاك المرام . فحين سمع حماس هذه العبارة ازداد دهشًا على دهش . وكاد فؤاده أن تلفظه الضلوع من شدة الحنق لذكر اسم الحبيبة أولاً ولغرابة هذه المفاجأة ثانيًا فقال : اعلم يا كلكاس أنك لا تبرح هذه الديار حتى يكون الأمر قد تم وتكون أنت أول من يحمل البشرى إلى الأميرة باستقدامها ، ولكنى أحذرك من الهذى والهذر كما هو طبعك وأوصيك بالكتمان الذى لا كتمان بعده . والآن أرى أن تبقى فى منفيس تراني ولا أراك فإذا علمت أنى أغادرها آيبًا إلى العاصمة فاحتل على مقابلتى لأطلعك على نتيجة مسعاى . قال : سمعًا وطاعة يا مولاى . وانصرف تاركًا حماس فى تفكير وتدبير واحتيال على المراد العزيز .

* * *

الفصل السادس

توفر الشـــروط

لم يمض يومان على مجيء كبير الحرس إلى منفيس لتعهد حاميتها حتى نشأت حركة بين الجند فى جميع معسكرات المدينة قلق لها القواد كثيراً وأخر حماس من أجلها عودته إلى العاصمة . وبسبب ذلك أنه شاع فى منفيس أن الجنود الاستعمارية فى برقة (غربى الديارالمصرية) شقت عصا الطاعة وأنها غادرت مراكزها فى المستعمرة زاحفة على الوطن لعزل الملك وقلب هيئة الحكم .

وفى الواقع ما سرت هذه الإشاعة حتى وردت على حماس أوامر الملك بتهيئة جيش منفيس للخروج إلى ملاقاة الثائرين وكبح جماحهم وتبديد شملهم قبل توغلهم فى البلاد . وأنه هو أى الملك سيفد على منفيس بجنوده اليونانية ليمده بهم منها إن مست الحاجة وليحفظ له خط الرجوع فيها إن دارت على جيشه الدوائر . فشرع حماس من فوره فى تنفيذ الأوامر السلطانية بهمة هو بها جدير .

إلا أن السبب فى عصيان جيش "تونس" لم يكن مجهولاً لدى سائر العساكر الوطنية فى مصر ، وهو احتقار الملك للعنصر الوطنى فى الجيش وسوء معاملته له وتفضيله اليونان المستأجرين عليه . وإذ كان الجند كلهم سواء فى هذا الشعور لم تكن حركة الخواطر بينهم فى منفيس إلا ناشئة عن مشاركة إخوانهم الثائرين فيما يضمرونه من بغض الملك وما يظهرون .

فلم تمض ثلاثة أيام حتى أخذت جنود حماس أهبتها واستعدت فخرج القائد بها إلى ملاقاة العصاة بين استياء الأهالى وكدر الجند أنفسهم حتى إذا اجتاز بهم أبواب

المدينة أقبل عليه كلكاس فعرفه القائد من لثامه وأنكر عليه فى نفسه هذه الجرأة فركض جواده ليلاقيه حتى إذا اقترب منه سأله قائلاً :

– هذا وقت الكلام يا كلكاس .

كلكاس : نعم وقت العمل يا مولاى فأنت الآن بين طريقين طريق السلامة لك ولقومك وللأميرة عروسك وطريق الندامة لك ولجميع من ذكرت . فأما طريق السلامة فالذى أنت تاركه ، وأما طريق الندامة فالذى أنت الآن مالكه . فارجع من حيث جئت ولا تترك منفيس فإنها حصن حصين وركن أمين .

فأطرق حماس برأسه هنيهة ثم التفت إلى من خلفه من القواد فخاطبهم على مسمع من الجيش قائلاً : أتدرون أيها الصحب ما يقول هذا المفاجئ الروحانى ؟ قالوا : بلى . قال : يزعم أننا إذا قاتلنا إخواننا المصريين أمطرتنا السماء حجارة لا طاقة لنا بها ، ويزعم أيضًا أن ثورة الجيش فى برقة مكيدة دبرها الملك وأصحابه اليونان ليفنونا عن آخرنا وما يفنوننا ولكن نفنى بعضنا بعضًا .

فحين سمع القواد المصريون هذه العبارة فاضت قلوبهم من الحقد على أبرياس . ونقلوها برمتها إلى الصفوف حتى إذا لم يبق جندى سمعها إلا انقلب الجيش للحين عاصيًا ثائرًا وصاح بلسان واحد يقول : حماس يحمينا .. حماس ينتقم لنا ... إلى سييس ... إلى سييس ... فلم يسع حماس عندئذ إلا الرجوع بالجنود والمسير بهم إلى سييس لمقاتلة الملك وجنوده . وكان الجيش اليونانى قد دنا من منفيس فاشتبك القتال بين الفريقين . واستمر من الضحى إلى الأصيل حتى قتل من الجانبين خلق كثير . وكادت النصرة أن تتم لأبرياس وجيشه الجرار ، تراءى على ساحة القتال رجل يحمل عرشًا من أنفس ما (رأى) الملوك ، وهو يصيح قائلاً : هذا عرش السلام سخره الآلهة للملك حماس أمازيس . فما كاد الرجل يستتم حتى ألقى اليونان أسلحتهم خاذلين الملك منفضين من حوله . وأجلس القواد زعيمهم على العرش ثم حملوه على الأعناق وجعلوا يطوفون على الصفوف من أهالى وعسكر . وقبض على أبرياس ثم تحرك الجيش معتزًا بالملك الجديد وهو يسير به إلى العاصمة حتى دخلها ليلاً فإذا هى مفتحة الأبواب

ستقبل الملك القائم بأكمل ترحاب . وعندئذ أمر حماس بالملك الأسير فسيق إلى القصر
راعى مكرمًا حتى ينظر فى أمره .

إلا أن الشعب تجمع حول القصر يلح فى طلب أبرياس ، والملك المعزول يسمع
هديده ووعيده حتى يئس من الحياة ، فأرسل إلى حماس فى الفجر يطلب منه الأمان
نته الوحيدة . ولم يكن له من الأهل سواها . فأجابه حماس إلى طلبه ؛ وأنه يحافظ
لى حياتها ويضمن لها المعيشة اللائقة بها من بعده . فحين ورد هذا الجواب على
برياس أخرج من جيبه ورقة مختومة وناولها الأميرة وقال لها : احفظى وديعتى
دى الآلهة ، هذه الورقة ، فإنها صك منهم بالانتقام لأبيك من الغادرين . ثم قبلها وموج
دمع يحول بينهما وخرج بعد ذلك إلى الشعب فلقى منيته للحين . وما اطمأن السرير
أمازيس حتى أرسل كلكاس إلى ساموس فى وفد من وجوه المملكة وسراتها
ستقدمون لادياس ، حتى إذا قدم موكبها الفاخر زفت إلى الملك زفافًا مشهورًا ألقى
ى يومه أساس أربعين هيكلاً فى الأوطان لمعبودات اليونان فكملت بذلك الشروط
ثلاثة للقران .

فهرست الرواية

الباب الأول (الحوادث فى بلاد اليونان)

الفصل الأول : نزهة على شاطئ البحر 169
الفصل الثانى : رجال الزورق 173
الفصل الثالث : لصوص الماء 179
الفصل الرابع : أين أصبحت لادياس ؟ 185
الفصل الخامس : الملك بوليقراط 189
الفصل السادس : حياة ثم موت ثم بعث 193
الفصل السابع : فى طلب الأميرة 203
الفصل الثامن : ساكن الصخرة 205
الفصل التاسع : حماس فى الصخرة 209
الفصل العاشر : كيف انتبهت لادياس ؟ 215
الفصل الحادى عشر : بوليقراط والدهر 219
الفصل الثانى عشر : قرية الوحش الهائل 223
الفصل الثالث عشر : زفاف لادياس لبهرام 227

الباب الثانى (الحوادث فى مصر)

الفصل الأول : نظرة تاريخية 241
الفصل الثانى : الاستعداد فى مصر لاستقبال (حماس) 243
الفصل الثالث : أين اللوح ؟ 245

الفصـــل الرابع : اتفـاق غـريب 251
الفصل الخامس : كلكاس فى مصر 257
الفصل السادس : توفر الشروط 259

* * *

رواية

دل وتيمان
أو
آخر الفراعنة

قيام
زلميتوراء
ما
كنتا نفاريخ

كلمة

ألقيت أساس هذه الرواية وأنا لا أعلم أن كاتبًا مجيدًا من أفاضل الألمانيين عتب قبلى هذا الباب من تاريخ قومى القديم حتى قرأت روايته « أميرة مصرية » مصرية معربة بقلم أديب فاضل من إخواننا السوريين فما رجعت الوراء ولا نفضت يدى من البناء لعلمى من جهة أن التاريخ ليس إلا « مقابر وخرائب » – كلمة الفيلسوف الفرنساوى تين – وأن أولى الاقلام بأن يزور مقابر الوطن ويقف على خرائبه قلم عربى تمسكه يد مصرى . ومن جهة ثانية لأنى أحاول أن أجعل ما هم وجل من حوادث وادى النيل ماضيها وحاضرها وما بينهما من الفترات فى عقد من الروايات واسطته الحقيقة ونظامه الخلق والتخييل . والزمن ، الذى سبقنى الكاتب الألمانى إلى الكلام عنه حافل بالعجائب مملوء من الخطوب والنوائب فجاءت نحوسه مصر وهى عند ذروة السعد وأوج الكمال ، فكان موتها فيه بموت آخر الفراعنة لا يمكن أن يسمى إلا « فجائيًا » . فهو إذن زمن ليس لى عنه غنى فيما أتوخى من تخليص التاريخ وتلخيصه خصوصًا بعد روايتى « عذراء الهند » و « لادياس » . وثالثًا لأن التاريخ المنشئ « الروايات كالبحر للغواصين لا يضيق الموضع الغزير منه بالخلق الكثير ، فإذا رزقوا فعلى قدر الاجتهاد والتيسير . وهذا ما أسأل الله أن يبلغنى إياه . إنه سبحانه منجح الآمال وعليه وحده الاتكال .

الفصل الأول

الزهر العجيب

أحوم على حسنكم ما أحوم ... وأذكركم بطلوع النجوم
وأصبو إليكم وأشتاقكم ... كما اشتاق طيب الشفاء السقيم
وما بيننا غير هذا الفناء ... وهذا الجدار وهذى الحريم
وهذى الرياض وهذى الحياض ... وهذا النخيل وهذى الكروم
ونحن كمن فرّقت بينهم ... ممالك فى الحرب تحمى التخوم
إذا شئت لقياك خنت المليك ... وإن لم أشأ خنت قلبى الكليم
ويا ليل طلت وطال الأسى ... فما لك حد ولا للهموم
فماذا تريد بهذا السكون ... وماذا تريد بهذا الوجوم
ويا ماء ما تبتغى بالخرير ... ويا نجم بالخفق ماذا تروم
ويا زهر لا حسدتك القلوب ... فشملك فى العاشقين النظيم
ويا طير يهنيك طيب السكارى ... وطول العناق وفرط النعيم
سما بك غصن على كثرة ... وضاق عن اثنين قصر عظيم

بهذى الألفاظ أو بمعانيها كان الجندى « تيمان » رئيس حامية القصر القديم فى "ساييس" يستحث سامر الهوى تحت سماء الليل ، ويحدث النفس خاليًا فى مقصورته من مخفر القصر ، ويناجى كل ما فى الدار (وجنباتها) بسرائر نفسه المشوقة وحوائج فؤاده الولهان ، وهو يتمشى فى غرفة نومه لابسا حلة بيضاء تكسوه إلى ما تحت الركبتين محلاة الحواشى بالحرير المذهب دلالة على الانتظام فى سلك الجند العظام

وعليه درع من نحاس يتقلد فى نهايتها سيفًا شديد اللمعان قصيراً لا يجاوز الركبة . وهو فى هذا اللباس البهى طويل القامة باعتدال مهزورها من الرشاقة ، مشير بالوجه نحو السماء منكشف الجبين بفرق مبين ، أبيض الوجه باخضرار حلو أوائل العذار ، ملآن العينين من دلائل الحياة العالية والوجدان الكبير من رآه لا يزيده على العشرين .

وكان كلما ضاق به المكان جيئة وذهابًا عمد إلى كرسى عال لدى نافذة مفتوحة فجلس ينظر منها إلى معالم القصر وهى محتجبة فى الظلام مسورة بالدوح من كل جانب ويستقبل نسيم ساكن القصر فيزيد مسراه جمراً على جمر .

(فبينما) هو جالس على هذه الصورة وكان الفجر قد طلع أو كاد بصر بشبح إنسان يتقدم نحو النافذة وهو مستعجل الخطو يواريه الشجر وينم به ضوء الفجر ، فوثب تيمان عن كرسيه واستعد للقاء هذا المفاجئ ، حتى إذا صار من النافذة على خطى قلائل حققه فعرفه لأول وهلة وعندئذ صاح به يقول :

– أهلا بك وسهلا يا والدى إحيا . من هذه المنافذ لا من الباب فهى طريق إلىّ مختصر .

فتقدم بستانى القصر وهو شبح يناهز السبعين ولا يزيده الرائى على الخمسين نظراً لقوة بنيته ونضارة شيخوخته ، وهو عارى الرأس حتى عن الشعر ، طويل اللحية بشيب كامل ، ليس عليه من اللباس سوى شىء من القماش يستر عورته فانحنى بين يدى تيمان يحمل عوداً كما الريحان فى أطرافه زهرتان ما رأت قط مثلهما عينان فقدمهما إليه وقال :

– إن الزهر يا سيدى تيمان فاكهة الملوك والسلاطين وتحية الطبيعة للعاشقين ، فهل تمن علىّ بقبول هذا العود النادر الثمين .

– أقبله شاكراً مسروراً معجباً به وبالقدرة الفائقة التى صنعت فأدقت وأبدعت . ولا أكتمك يا والدى إحيا أنى منذ مجيئى هذا القصر أحس من نفسى مزيد الميل إليك لأن فيك مشابه من « فقيد الحقيقة » ميت الجلال شيخى الموقر .

لا ينبغى « للسمك الدتن » أن يشبه لحم الضحايا الزكى وإنما هو حسن حظى أنالنى منك هذا يا مولاى .

– بل أنا أقول الحقيقة يا إحيا وإنى وسره الطاهر لأراك فأذكره بطلعتك وأسمع حديثك فأجد صداه فى صوتك .

– إنى إذن لسعيد يا مولاى . والآن أسترعى نظرك لما ناولتك من الزهر ، وأنتظر أن تهنئنى عليه لكونه نتيجة تشكيلى وتنويعى ، فلا يوجد إلا فى هذا البستان . ومن غريب أوصافه أنك لا تجده فى أغصانه إلا زوجين زوجين كما تشاهده على هذا العود الآن ، ثم هو فى هذا اللون الأصفر لون السقام قصير العمر قليل المقام ، يتفتح قبيل الفجر ويموت لأول شعاع يغشى الوجود من الشمس ، لهذا دعاه جلالة الملك "بالعشاق" وفيه قال شاعره اليونانى :

وزهرتين على عـــود يقلهـــمـــا كـعـاشـقـين اطمـأنا بالـلقـا الهـانى
لما رأيتـهـــمـــا فـى راحـتى ذوتا من فـــوق واه من الأعـــواد خـــوان
أيقنت أن منى العـشـاق مـا جـمـعت إلا إلى مـثل خـيـط العنكب الفـانى

وكـذلك قـال فيـه الشـاعر المـصرى لجـلالـة المـلك :

مـتـعـاشـقـان من الزهـور تبـديا ببـديع مـرأى فى الـغـصـون عـجـيب
يتنسـمـان الحب بينهـمـا فـمًـا لـفم عـلى غـض النبـــات رطيب
عـجل الردى بهـمـا ولا عـجب إذا مـــا أوديا بـين الهـــوى والطـيب

وأحسن من هذا وذاك يا مولاى قول السجينة تصف هذا الزهر وقد حييتها بشىء منه من عهد غير بعيد .

تيمان : (مقاطعًا مضطربًا) الأميرة .

البستانى : احذر يا ابنى ذكر هذا اللقب مرة أخرى إنى أخاف عليك واشيًا ورقيبًا وعينًا لفرعون لا تنام .

تيمان : وأنا يا والدى إحيا أرجو منك أن لا تدعونى بعد هذه بيا ابنى فإن ذلك

يذكرنى بشيخى الذى أنت أشبه الناس به . والآن قل لى من أين للسجينة نظم الشعر .

البستانى : من الطبع أولا ، وعشق الطبيعة ثانيًا . فإنى لم أر أهدى منها لمحاسن الطبيعة ولا أولع منها بأسرارها البديعة ، ومن الشعور الذى يبعث الشعر ثالثًا .

تيمان : لقد أدهشتنى يا إحيا فأنشدنى الآن أبياتها فى وصف هذا الزهر .

فاندفع البستانى ينشد :

فى زهرتى ذا العـــــود من ... أهل الهوى جمعت صفات
كالعاشقين تقابلا ... لكن على سرر النبات
متآنسين يلاقيا ... ن الحب من كل الجهات
هذا على هذا حنا ... ولذا إلى هذا التفات
لكن فى الفجر الحياة ... وفى الضحى لهما الممات
قسما لقد عاشا ولما ... يأملا أملا ففات
من لى بسوق للحيا ... ة يقال فيها خذ وهات
فأبيع عمرًا فى الهمو ... م بساعة فى الطيبات

فما فرغ البستانى من إنشاده حتى اضطرم جمر الغيرة بفؤاد الفتى فالتفت إلى إحيا وقال : مثل هذا الشعر يا إحيا لا يقوله إلا العشاق ، وهذه الخطرات لا تصدر إلا عن قلوبهم الوالهة ، فمتى عرفت السجينة الغرام ؟

البستانى – هذه سريرة لا يعلمها إلا الآلهة وأنت يا سيدى تيمان .

تيمان : أنا !

البستانى : نعم أنت لأن هذا الشعر وهذه الخطرات مما لم يبد للوجود إلا فى هاته السنة والتى قبلها ، أى من يوم لا إنسان فى القصر سواك ولا هوى فى الحقيقة إلا هواك .

فأشفق الفتى بادئ بدء من هذه التهمة الكبيرة بذاتها الصغيرة بمصدرها ، ولم ير بدا من مغالطة البستانى ، فتكلف ابتسامة ثم قال : ما أعجلك يا إحيا

إلى سوء الظن ؛ فلقد قلت لك من قبيل المبالغة فى قيمة الشعر الذى أنشدتنيه أن العشاق أولى بأن يقولوه من السجينة قائلته ، ولم أقل لك إنها عاشقة وإنى قد أكون معشوقها كما توهمت ثم عجلت فاتهمت .

البستانى : عفواً يا مولاى فلقد خدعتنى بكل هذا العطف والتودد حتى وضعت نفسى موضع الخادم القديم فى خطاب السيد المالك القديم فكاشفتك بزعم طالما ضاق صدرى عن كتمانه ، وليشهد الآلهة أنى لم أقل فندا ولا تطوحت فى القول سدى ، ولكنى علمت أنك عما قريب تفارق القصر ثم لا تعود إليه حين فؤادك ضائع فى ترابه وروحك متعلقة بأبوابه فلا يكون لك فى القصر يومئذ من يحمل عنك من متاعب الحب وأشغاله ويعنى عنك فى مضايق الغرام وأهواله . أما وقد جحدتنى ولم ترضنى خادماً لخطير هواك فعلىَّ اللياذ بأذيال المعاذير وعليك يا مولاى التجاوز عن هفوتى وها أنا ذاهب من حيث جئت .

الفصل الثانى

النزهة فى حديقة القصر

قال إحيا ذلك وانحنى مودعا ثم ذهب من حيث أتى . وقد خلف تيمان بين الحيرة والإشفاق حتى إذا أفاق وخرج من الأطراف وقعت عينه مصادفة على الزهرتين فإذا بهما محتضرتين قد تردتا ثياب الموت ثم انتثرتا ورقة إثر ورقة حتى خلت منهما الأوراق ، وفرق الموت بين العشاق ، فراقًا ما بعده تلاق ، فأثرت رؤية ذلك فى الفتى وتطيّر منه فرمى بالعود فى الأرض وهو يلوم فى نفسه من كان السبب .

وبعد ذلك خرج تيمان إلى النقط التابعة للمخفر يباشر تفتيشها كالعادة ويتعهد العسكر . فزار اثنتين منها ولوى على الثالثة وهى الموكلة بحراسة الباب الكبير أو المدخل العام للقصر فزارها . وبينما هو يعمل هناك بصر بفرس مستطار حثيث الغبار يركضه فارس وهو يقصد إلى القصر ، فالتفت يرقب وصوله حتى عرفه فبدر إليه فوقف الفارس وبعد أن تبادلا تحية اللقاء قال لتيمان وهو يخفض صوته : لا بد لنا أن نجتمع الليلة لأن هناك أمورًا ذات بال تهم الجمعية معرفتها ، ويتحتم الاحتياط بإزائها كل الاحتياط .

تيمان : فليكن ذاك ، ولكن كيف السبيل إلى براح المركز وأنت تعلم القوة التى تتهددنى إذا تغيبت عنه .

الفارس : لا تعن بأمر قد دبرناه لك فخذ هذا الكتاب فاقرأه . فأخذ تيمان الكتاب وفضه فإذا هو أمر عسكرى قد جاء فيه :

« إلى خادم الملك الأمين الجندى العظيم تيمان رئيس مخفر القصر القديم ، قد رأينا أن نستصحبكم فى جولتنا بالليل لتعهد مراكز الحامية فسلموا مفاتيح القصر إلى

مساعدكم النشيط فللوس ، وانتظرونا فى أول الليل على الباب المستعصى لتسيروا منه صحبتنا إلى تفتيش النقط والمراكز » .

التوقيع

منهوت

قائد الحماية الشرقية

فلما فرغ تيمان من قراءة الأمر طواه وظل ممسكه ثم قال للفارس :

– إذن فستجدوننى فى انتظاركم حوالى الساعة الثانية من الليل ، إذ أكون قد فرغت من صلواتى .

– لقد بغضت إلينا الآلهة بصلواتك يا تيمان كأن ليس لك عنها غنى فى ليلة لا ننالها إلا مرة فى الشهر

تيمان : صلواتى واجب وما نحن فيه من العمل واجب آخر ، ولست يا خنبو أول من جمع بين واجبين ، فامض لشأنك ولا تسخر من صلواتى بعد هذه فأتهم أدبك وأستقل عقلك .

وأخذ تيمان الغضب فخشى خنبو عاقبة المزح فى هذا المقام فلم يزده على ما قال، بل اعتذر فى الحال ، ثم ودع وانطلق .

فرجع تيمان الوراء والورقة فى يده وكان فللوس اليونانى هو رئيس شرذمة الجند الذين على الباب الكبير فدعا به ورفع اليه أمر القائد ليحيط به علمًا ، فتناوله فللوس وقرأه ثم رده إلى تيمان وأقسم بين يديه أن يكون فى الساعات التى يرأس فيها المخفر بالنيابة عنه خادم الملك الأمين .

ثم بلغت إشارة القائد إلى الجند وسائر رؤسائه فابتهج فريق بذلك واكتأب آخرون، وسر اليونان منهم واستاء المصريون .

وعاد تيمان بعد ذلك إلى حجرته فما زال يستعد للموعد المضروب حتى كان الأصيل وهى الساعة التى تنزل فيها السجينة فى كل نهار إلى جنة القصر ، فلا تزال تتمشى فيها فى حراسة رئيس المخفر حتى يدخل الليل فتنثنى آيبة إلى مقاصيرها .

وكان الفتى يرتقب هذه الساعة كما يرقب الصبيان بشائر العيد ، فخرج من مدخل الحريم فوقف هناك وجوانحه تخفق خفقًا وفؤاده يدق دقًا ، وعندئذ تبدت شمس السجينة تغير شمس النهار بحلاها فتغار، وتتهتك الألباب لرؤيتها فما بال الأبصار . فحين التقت عينها بعين تيمان ابتسمت تحييه ، فضحك اليها قلبه قبل فيه ، وانحنى فى طريقها حتى مرت فمشى خلفها فى الخدمة والحراسة .

أما الفتاة ففى الثامنة عشرة مهزوزة القوام . لها اعتدال الرمح فى رونق الحسام. غضة شقيق الخدين . سوداء العينين بقليل ضيق ممدودة شباك الهدب . صائدة القلوب بالنظرة وضاحة الجبين . شماء العرنين ، كأنها عريقة النسب فى الفراعنة العالين .

وعليها رداء ضاف ، من الكتان الأبيض الشفاف ، ليس من زخرف يجليه ، سوى إن الحسن تحته والجمال فيه . وقد جمعت ذوائبها السود . ثم شكلتها بشكل العنقود . مكان كل حبة منه حجر كريم . يضىء كالنجم فى الليل البهيم . وهى تمشى بين صاحبتين إحداهما مربيتها ، وهى امرأة عجوز تحبو إلى السبعين . والأخرى من سن الفتاة أو تزيد سنتين ، أى لا تتجاوز العشرين . وقد أوتيت من الجمال ملكًا كبيراً كذلك، فكانت أحق أنثى بمصاحبة ذلك الملك الكريم .

وكانت السجينة تمشى الهوينا وهى تكثر من التلفت وراءها وتسارق تيمان اللحظة بعد اللحظة كأنما تحتال على خطابه فلا توفق للكلام ولا تهدى لأسبابه . حتى آنس الفتى ذلك منها للمرة الأولى وتذكر حديث البستانى فدفعه فؤاده إلى الأمام . وحملته النفس على الإقدام ، فدنا من الفتاة وخاطبها بلسان تعقده المهابة فقال :

– لعل سيدتى يهمها أن تعلم أن حراسة المخفر تخرج من يدى فى هذه الليلة .

فالتفتت الفتاه مبهوتة وظهرت عليها دلائل الاضطراب الشديد للحين . ورأت العجوز ذلك عليها فزجرتها بنظرة خفية فازدجرت من فورها وكان جوابها للفتى أن قالت :

– وهل انقضت مدتك بعد أيها الرئيس ؟

تيمان : لا يا سيدتى ولكن دعيت لأتغيب الليلة عن القصر بأمر من رئيس قائد الحامية الشرقية .

السجينة :إذن فستعود إليه غداً .

تيمان : بل قبل غد يا سيدتى ، فإن عملى مع القائد ينتهى حوالى الثلث الثانى من الليل ولكنى لا أسترد الحراسة إلا فى الفجر كما هى الأصول المتبعة فى المخافر السلطانية .

السجينة : ومن يخلفك على حراستنا الليلة ؟

تيمان : مساعدى فللوس

فحين سمعت الفتاة هذا الاسم عبست ونفرت كالمشمئزة ثم قالت :

– إن كان الأمر ما ذكرت فإن الآلهة يتخلون أيضاً عن حراستنا فلا يعودون حتى تعود .

فاستوجبت الفتاه بهذا التهور فى الكلام نظرة ثانية من العجوز أشد مضاعفة وأزجر من الأولى ، فلم يسعها إلا الامتناع عن الكلام ، ومواصلة نزهتها فى حديقة القصر بسلام .

وفى هذه الأثناء كانت " روهبت " ، وهو اسم الفتاه قرينة السجينة ، تتلون ألواناً ويجيش وجدانها بأنواع السرائر ، وتحاول أن تدخل فى الحديث ولو مندفعة فلا تستطيع لاشتغال المتحادثين عنها بالكلية ، خصوصاً تيمان فقد بالغ فى الإعراض عنها حتى خيل لها أنه يتعمد إهانتها ، أو لا يحسب لجمالها النادر حساباً ، إلا أنها كتمت غيظها ولم تملك من الانتقام الوقتى إلا مقابلة الإعراض بالإعراض فمشت تتلهى بقطف الأزهار والعبث بورق الأشجار ، ولم يلحظ أحوالها هذه سوى العجوز ، وكانت طالما اتهمتها فى نفسها بحب تيمان ومزاحمة دلّ على عشق جماله الفتان ، لكنها لم تخرج من ظلمة الشك إلى نور اليقين إلا هذه المرة ، فصممت على الاحتياط لربيبتها والسهر عليها ، والوقوف لمنافستها الطائشة فى كل طريق من الكيد تحملها على سلوكه الأضغان والحقائد .

وكان النهار قد انصرم . والليل قد هجم . فالتفتت العجوز إلى دل وقالت : أرى النـزهة قد امتدت بنـا يا أمـيرتى العزيـزة . فـهل لك فى دخـول القـصر ؟ قـالت : الأمر لمربيـتى الموقرة . قالت : إذن فلنرجع من حيث جئنا . ثم انثنى الكل منصرفين إلى مدخـل الحـريم وهناك انحنى تيمان مـودعًا فشـيعته الفتاتان كلتاهما بالسمع والبصر والفؤاد مستعر .

الفصل الثالث

ناحية الهر الهائم

كان الفرس قد هيئ لركوب تيمان فركب وأطلق العنان يؤم ناحية "الهر الهائم". وكانت شرقى البلد وألصق بخارجه منها بداخله ، وإنما سميت كذلك لأن سكانها من الأجانب ، وعلى الخصوص اليونان ، كانوا لا يخرجون من بين البيوت إلا تعرضت لهم الهرر كبارها وصغارها وصحاحها ومرضاها ، بحيث لا تمضى ليلة بدون أن تقوم قيامة الناحية ويشتغل الأهالى وتهتم السلطة الدينية والحكومة معها بأمر أجنبى أهان هذا الحيوان المقدس ، حتى امتلأت سجون الهياكل من المجرمين من هذا الصنف وأصبحت الإقامة بهذا القسم من المدينة خطرًا قوامًا على الأجانب ، فهجره جميعهم وبيعت الدور فيه بأبخس الأثمان ، فتهافت جماعة الضباط المصريين على الاستئجار والشراء ، بحيث لم يمض إلا الزمن القليل حتى صارت الناحية معمورة بهم خالية الجو لهم لا يصحبهم فيها اليونان بوجوههم البغيضة إليهم ، ولا يلقون فيها أشخاصهم المقوتة لديهم .

ثم تولت الأوهام هذه الحادثة ، فزعم الأهالى أن الناحية يسكنها هر هائم يتعدد ويتشكل ويظهر فيما يشاء من الحالات ، وإنه يغار عليها أن يجاورها الأجانب فيها فهو يعاكسهم ويحرجهم ويخرجهم منها ليطهرها منهم ، ومن ذلك الحين غلبت هذه التسمية عليها فصارت لا تعرف إلا بها .

فلما وصل تيمان الناحية قصد إلى منزله فيها ، وكان فى أقصاها بمعزل عن البيوت ، يحيط به الفضاء من كل الجهات ، وهو عبارة عن طبقة واحدة مربعة الشكل محكمة البناء ، وإن كانت خلوا من البهجة والرواء . من رآها ثم نظر إلى مساكن اليونان وهى ناهضة دونها بالمنظر البهيج والمرأى الشائق ، علم أنها من بناء المصريين

القدماء الذين لم يهتموا بمساكنهم فى الحياة الدنيا عشر معشار اهتمامهم بتشييد القبور. لاعتقادهم أن البيت ليس إلا مأوى يمر به المرء مرًا وأن القبر هو وحده الدار الأبدية .

فنزل تيمان عن جواده . وكان فقيد الحقيقة ميت الجلال شيخه الموقر قد اقترح عليه فى جملة وصاياه أن لا يتخذ فى البيت بعد موته عبداً ولا جارية إذا أحب أن تبقى الدار عامرة بروحه الطاهرة ، فكان الفتى يتولى جميع أمره بنفسه تمسكا بهذا المقترح حتى صار من النشاط فى خدمة نفسه وتدبير شئونه بحيث يغبطه كل جندى حقيقى .

ترك تيمان الفرس فى مربطه من البيت وجاء باب الدخول ففتحه . وكان من عادته أن يضع المصباح هناك فأخذه وأشعله ثم مشى فى ضوئه يطوى ، إلى الحجرة حتى احتوته ردهة عظيمة فاجتازها إلى حجرتين يصل من إحداهما إلى الأخرى ، فلبث فى الأولى ريثما تجرد عن ثيابه العسكرية ، واشتمل برداء أبيض واسع مما يلبس للعبادة ، ثم دخل الحجرة الثانية مستجمعًا من الخشوع والوقار ، وكان فى صدرها ستار من الجدار إلى الجدار ، فأوقد تيمان المصابيح وأشعل المباخر ثم استقبل الستار وفاه بهذه الكلمات :

" أيها الروح الملهم والخيال المتكلم ، والصوت المرشد المعلم . ها قد مثلت فى سدتك وآنست بوحدتى فى حجرتك . فأفض على من حكمتك وأقمنى فيما تراه لى عين برك ورحمتك " قال هذا وأطرق برأسه يصيخ للجواب ، فجاءته هذه الكلمات من وراء الحجاب :

"ولو علم تيمان أن الخير فى الناس كثير ما نسى لإحيا كرامته ، ولا أبى عليه فى هذا الصباح خدامته فإنه نعم الصاحب والمعين ، والخادم الصادق الأمين . ولو علم تيمان كم نهار قضى إحيا . وكم ليلة أحيا . حتى توفق لإيجاد ذلك النبات . زيادة فى عدد المخلوقات ما اشتغل بأحاديث الحبيب عن تأمل مقدرة العقل عند قوة الطبيعة فى الزهر العجيب . لو علم تيمان أن الذكاء لم يخلق مقصوراً على أحد ، وأنه لا يقف فى

الناس عند حد، ما زهى ولا استكبر ، ولا غالى ولا افتخر . بصورة صورها ليست بالأولى ، ولا الأخيرة فى الصور . فياتيمان ثق بالناس إذا شئت أن يثق الناس بك . واعجب بما فى أيدى الناس إذا شئت أن يعجب الناس بما فى يديك . واعلم أن السماء لم ترفع لأجلك . وأن الأرض لم تخلق موطئا لنعلك . فلا تشر بوجهك نحو الأولى من الكبرياء . ولا تمش فى الثانية الخيلاء . وتواضع فى الأرض ترفعك السماء "

ثم انقطع الصوت فعلم تيمان أن ذلك إذن من الروح له فى الانصراف فنهض من جثمته وأعاد الحجرة حالتها الأولى من الإظلام ، ثم انقلب إلى الحجرة الصغرى فطرح رداء العبادة ولبس لباسه المعتاد . ودخل بعد ذلك إلى الردهة فأضاءها وأسرع يهيئها لاستقبال أصحابه ، ويرتب المقاعد لهم . فلندعه الآن فى عمله هذا ولننظر أين أصحابه .

الفصل الرابع

اليونانى أرمنديس

كانت ناحية الهر الهائم إذا تولاها الظلام خلت من حركة الأقدام واستولى عليها السكون التام ، ولم يبق فيها مفتوحًا من بيوت الصناعة والتجارة إلا خمارة يقال لها "حانة الطرب الأبدى"، وكان يديرها فتى . وقد استبد الضباط المصريون فاستأثروا بهذه الحانة واتخذوها محلا لاجتماعهم وطربهم دون سواهم من سكان الناحية .

فلما كانت أوائل الليلة التى نحن بصدد الكلام عنها أخذ جماعة الضباط يتوافدون على حانة الطرب الأبدى فرادى وأزواجًا مشاة وركبانًا . و"مناح "، وهو اسم الخمار، بالباب يستقبلهم ويدخل بهم إلى مأواه الحقير خلف الحانة ، حتى اجتمع فيه منهم نحو العشرين والمارة لا تبصر منهم أحدًا . وعندئذ أغلق مناح باب الخمارة ودخل على القوم ردهة الدار ، وكانوا مجتمعين فيها ، فلما صار بينهم قاموا إليه يجاذبونه ثوبه ويمازحونه ، فهذا يقول : أين نبيذك الذى يبعث الحماسة يا مناح . وهذا يقول : أين دم الأعداء القانى نشربه اليوم قبل غد . وفريق يصيحون : لا تدعوا نبيذ اليونان يعلو على نبيذ المصريين .. لا تشتروا نبيذ الأعداء ولئن [...] أمراؤكم وسراتكم فأمهلوهم فسوف يقيئونه دمًا صبيبًا . أين فاكهتك اللذيذة يا مناح . . إن كانت من بساتين الأمراء والأعيان فلا تقربها لأنهم لا يستخدمون فى بساتينهم إلا اليونان . . فأجابهم مناح : دونكم هذه القرب المعلقة أنزلوها واشربوا حتى تروا فإنها من كروم أبى التى تضرب بجودتها الأمثال . .

خينيو مقاطعًا : إن أباك يعصر الكروم كما يعصر الشعب حال جباية الأموال . ولا يدرى أن الذهب المصرى قد أصبح كله أطواقًا على لبات نساء اليونان ، ويوشك أن يتخطاها إلى أعناق الخنازير .

مناح : (مغضبًا) لا أحتمل لك يا خنبو أن تسخر من أبى إلى هذا الحد .

القائد منهوت : لا عائلة لمن لا وطن له يا مناح . ولا أب لابن خائن الوطن . فأولى لك أيها الصديق العزيز أن تضرب على ذكر أبيك الشيخ الفانى ، وأن تضرع معنا إلى آلهة ساييس أن يطهروها منه فى أقرب حين .

مناح : وأنت أيضا أيها القائد ؟

القائد : وهل تكره أن تصبح على ثروة يغبط أغنياء الأرض بها أباك . وأن نشاطرك كرائمها فتحل محل شرار اليونان الذين لا يفتأ أبوك يقدم لهم الرشى ، ليكونوا أولياءه وناصريه لدى الملك .

وكان بين القوم ضابط قصير القامة ممتلئ عظيم البطن ضيق العينين عالى كراسى الخدود يدعى "مندهور". وكان قد اغتنم فرصة اشتغال أصحابه بسب والد مناح فأنزل قربة نبيذ وسلة من الفاكهة وطفق يأكل ويشرب حتى امتلأ بطنه ، فالتفت إلى القائد وقال :

– أما أنا أيها القائد فعندى أنه لو لم يكن من فضل رئيس الجباة علينا غير هذا النبيذ لكفى ، أما الفاكهة فلا أدرى من أين جاءت صديقنا مناح ، فقد وجدت فى هذه السلة شيئًا جافًا مما يحدث الهرر .

الجميع ضاحكين – الهرر . . هل أكلت منه شيئًا . . إنك إذن لمطهر البطن . . لعل ذلك يشفيك يا مندهور من نهمتك القتالة .

وعندئذ التفت أحد الضباط إلى مناح وسأله :

– إنى أسمع مواء يا مناح فهل فى البيت بقية من تلك الهرر ؟

مناح : بل هى هرة واحدة عمياء وأنا أدخرها للإيقاع بأرمنديس .

الجميع مستضحكين : الحق نقول إنه لم يغلبك على دهائك إلا ذلك الأعمى يا مناح .

مناح : سترون كيف أضربه الضربة القاضية ، وكيف تقتص لنا هذه العمياء من ذاك الأعمى .

ضجيج : متى متى ؟

مناح : الليلة الليلة تسبقوننى أنتم إلى منزل صاحبنا تيمان ، وأتخلف أنا

ومندهور فنعمل عملنا ، ثم نلحق بكم بعد ساعة ونحن ظافرون .

مندهور (مقاطعًا) ولم لا تستصحب سواى ؛ إنى أخاف أن تغلط العمياء فىَّ فأقع فى شر أعمالى .

مناح : لأنك أشبه القوم بذلك اليونانى الشحيح ، فلا تتم الحيلة إلا بك ، وقد فكرت فى هذا قبل الآن فلم يعد التنصل منه فى الإمكان .

مندهور : إذن فأنا أشترط أن يئول نصف ماله إلىّ .

مناح : وأنا راضٍ بهذا الشرط .

ثم قصد القوم منزل تيمان تاركين مناح وصاحبه يعدان المصيدة ويستعدان للمكيدة . فقام مناح إلى صناديقه فأخرج منها ثوبًا أحمر قصيراً من نوع ما يألف أرمنديس من الثياب ويختار فدفعه إلى مندهور ثم ناوله عصا طويلة مدببة الطرفين كالتى اعتاد الأعمى أن يتوكأ عليها . فلبس مندهور الثوب وحمل العصا ثم أغمض عينيه وقال: انظر الآن يا مناح هل ترى من شبه . فحين رآه مناح فى هذه الصورة أغرق فى الضحك ثم قال : وقد كمل الشبه وتمت الحيلة يا مندهور . فاجعل هذه العمياء تحت إبطك ولا تخف منها أذى ولا مواء فى الطريق ، فإنها أضعف من الضعف ، ولم أر بين الهرر المبصرات من لها بعض هذا السكون والاستئناس . والآن لم يبق إلا الخروج لنتم عملنا .

مندهور : وهل نسيت أن الأعمى يكتنفه على الدوام اثنان من القوم بحجة مرافقته وحمايته . والحقيقة أنهما يدخلان علينا الحى يتجسسان ويتحسسان فكيف السبيل إذن إليه ، وأين نجده بالليل مفردا ؟ الحق أقول لك يا مناح إنى غاد على خطر ، فلا يبعد أن يقبض علىَّ حاملاً هذه العمياء فيحسبوننى قد فقأت عينيها وحينئذ يكون لى وللكهنة حساب .

مناح : لأنت يا مندهور جبان بقدر ما أنت نهم مبطن . فاعلم أن لى الإشارة وعليك الإذعان .

فأذعن مندهور . وخرج الرجلان من الخمارة ، فانطلقا يسيران قاصدين منزل أرمنديس ، حتى اقتربا منه وهنالك قال مناح لرفيقه : انظر إلى المنزل كيف لم يوقد به نور . فلعل اليونانى لم يرجع من المدينة . بعد هذا يصير العمل أدنى إلى النجاح فتقدم

الآن ودق الباب فإذا فتح لك غلامه فادخل غير متلفت ولا نابس ببنت شفة فإنى أكون خلفك أتكلم عنك وأصنع كل شيء . قال : لأظنك تدعنى أدخل وحدى منزل هذا الساحلى يا مناح . قال : خلنا الآن من كلمات الجبن والحمق وكن رجلاً مرة واحدة يا مندهور . قال : إذن فأنا أستودع الآلهة حياتى الخالية ، وأقدم معك ولو على الموت . قال : هنا قد وصلنا فادن فدق الباب . قال : وما الذى يمنعك أنت من دقه ؟ قال : أعلى هذا عاهدتنى؟ فورأس « بساماطيق» لئن خالفتنى بعد هذه المرة ما دققت إلا عنقك . فتقدم مندهور ودق الباب ففتح له الغلام فدخل أعمى أخرس ومناح على أثره يضحك من اضطرابه ولا يلومه عليه كأنما يرى ذلك من متمات الحيلة ولوازم الحالة .

فلما التقت عين مناح بعين الغلام ابتدر خطابه فقال : لا توقد نورا أيها الغلام ولا تحرك ساكنا ولا ترفع صوتا . واعلم أن الهلاك يتهدد مولاك ولا ينجيه منه سواك . فاذهب من فورك إلى الشكل الشرقى واطلب المثول لدى الكاهن الأعظم ، ثم قل له إن سيدك برىء . وإنك أنت الذى فقأت عينى الهرة وسجنتها فى الصندوق انتقامًا لسيدك من الهر الهائم الذى يزعم أنه أفقده الإبصار بسحره . قال الغلام : سمعًا وطاعة وانطلق مهرولا وهو لا يكاد يصدق بالنجاة . ولا يعجب لحماقة صاحبنا كيف فاته أن السيد البخيل بالدرهم لا يفتديه خادمه بالروح .

وكان الغلام قد دفع مفاتيح الحجر إلى مناح فعالجها فانفتحت ، حتى إذا صار فى حجرة النوم منها وهى التى يضع البخلاء فى الغالب نقودهم فيها فتش الصناديق عن أموال اليونانى فوجد فى أحدها صررًا وأكياسًا مملوءة من الذهب سبائك وقلائد ، فأخذ جميع ذلك وجعل مكانه الهرة العمياء ثم أغلق الصندوق وخرج تاركا الأبواب وفيها باب المنزل مفتوحة لمن أراد الدخول ، وإن مندهور قد عمل بالإشارة من الأول للآخر فلم يبد حركة ولا فاه بكلمة حتى إذا خرج مناح بذلك الحمل تبعه وهو يكاد يجن اندهاشًا من جراءة صاحبه مرة ومن رؤية الذهب فى الأكياس مرة أخرى ، حتى سأله وإلى أين نذهب الآن يا مناح ؟

مناح : إلى أصحابنا بمنزل تيمان .

مندهور : بهده الأحمال .

مناح : ولم لا وهى من غنائم الجمعية يغنى بها فقيرها وتستقيم أمورها .

مندهور : وهل قاسمتنا الجمعية هموم تلك الساعة وأهوالها حتى تشاطرنا الآن
رائم ما نلنا بفضل البسالة والإقدام ؟

مناح : بذا تقضى مبادئنا يا مندهور. فلا تجادل وسدى تحاول . ويكفينا أننا
حنا الجمعية من عدو أعمى لكن لا يقاس به ألف مبصر ومناوئ يزعجنا تارة بسحره
ونة بدهائه ومكره . ولا أعنى سوى سحر بيانه وقوة تأثير لسانه ، خصوصًا فى
خلاق الملك الذى يفضله على سائر أحبائه وندمائه ، فهو حمى للقوم أمين . وحصن
صين . ونصير ذو قوة عند الملك مكين .

حتى إذا بلغا دار تيمان طرقا الباب ففتح لهما فدخلا بين الضجيج والتهليل
سئلة السائلين عن أرمنديس وما تم فى أمره . فألقى مناح حمله ثم شرع يشرح
صحابه الخبر وفتحت بعد ذلك الصرر والأكياس فابتهج القوم بما فيها من الكنوز
لنفائس وهم يضحكون من اعتراض مندهور واحتجاجه ودعواه أن نصف هذا المبلغ
يمكن أن يئول لسواه . ثم وزعت السبائك والقلائد على الفقراء من الضباط بمعرفة
أغنياء منهم ، وفى أولهم مناح ، فأجزل لمندهور العطاء حتى أسكته وأرضاه .

ونظر القوم بعد ذلك فى أمور تتعلق بأحوال البلاد عمومًا ، وحالة الجيش الوطنى
ها خصوصًا ، فنهض القائد منهوت والتفت إلى تيمان متبسمًا من السرور وقال له :
يمضى يسير زمان يا عزيزى تيمان حتى تحل فى قصر الملك المحل الذى أنت أهله
يعتز بك العنصر الوطنى ، وتكون هناك كالشمس والضباط اليونانيون كواكب ، إذا
لعت لم يبق منهن كوكب .

فعندما سمع الضباط هذا الخبر استبشروا به وفرحوا وطابوا إلا تيمان عبس
كتأب وتملكه الغضب ، حتى دهش رفاقه وتساءلوا عن السبب وأردف القائد أن قال:
بال هذا الخبر السار قد أزعجك يا تيمان ؟ أتكره أن تكون سعادة المئين من إخوانك
ضباط على يديك ؟ قال : لو ملكت ذلك أيها القائد العزيز . ولكنى لا أذكر أن لى

علاقة بأحد ممن لهم سلطان على فؤاد الملك ، أو سبيل على اختياره ، حتى أعلم س
نقلى من القصر القديم إلى القصر الجديد . ومعرفة جلالته إياى بسيطة فما أنا عذ
إلا كبعض الضباط . بل ربما اعتقد فىَّ الرأى والعناد والتعصب لأشياء البلاد . وه
صفات تحول بينى وبين ما زعمت من قرب تشرفى بالخدمة الخصوصية .

خنبو : (داخلاً فى الحديث) إنى أرى فى الأمر يداً لولى العهد فإنه يح
صاحبنا تيمان ويجله ويظهر العطف عليه أينما لقيه .

جماعة من الضباط : أصبت يا خنبو أصبت .

مندهور : (مندفعًا) أما أنا فأرى أن الملك وولىَّ العهد فى كل زمان ومكان عل
طرفى نقيض ، فالذى يراه الأول أبيض يجده الثانى أسود . فلعل اليد التى يز
صاحبنا خنبو أنه رآها فى الأمر هى يد لطيفة ناعمة .

الضابط : صرح يا مندهور قل لا تخف شيئًا .

مندهور : ويحكم هل تستكثرون على هذا القوام المهزوز وهذا الطرف الفاتر وهذ
الوجه الجميل (قال هذا وهو يشير بيده نحو تيمان) أن يفتن بنت اليونانية فتكون هـ
صاحبة اليد البيضاء فى هذا الارتقاء .

الضابط : ومن تريد يا مندهور أبنت لادياس تعنى ؟ تريد الأميرة ؟

مندهور : ولم لا وأنا ما رأيتها فى اجتماع عام أو خاص وكان تيمان حاضراً إ
عرفت من عينيها أنها تميل إليه ، كما أميل أنا إلى سمك نقراتيس أو طيرها اللذي
النفيس ، فباركت الآلهة لك يا تيمان فى هذا الوجه الذى تشهد السماء لو أن لى قطع
منه ما تصديت إلا لمواقع الهوى من قلوب الملكات والأميرات .

تيمان : (مغضبًا) إنك تهذى يا مندهور . فابق فيما تميل إليه من السمك والطير
ولا تتعرض لأشياء لا تعنيك .

مندهور : سوف يعلم الإخوان أن عينىّ الضيقتين لا تنظران إلا النظرة الوسيعة
وسوف تذكرنى أنت يا تيمان إذا نهيت فى القصر وأمرت بفضل بنت اليونانية .

والحق أقول إن السماء لم تعدل إذ أعطتك الجمال كله وأعطتنى القبح كله . فأنت فتن بنات الملوك والسلاطين وأنا لا أكاد أروق لعين امرأتى التى هى أقبح منى خلقة .

فضحك الضباط من مقالة مندهور وهم لا يعلمون السبب الحقيقى فى كدر تيمان غمه الذى لم يستطع مندهور أن يخرجه منه بمزحه وهزله .

وكان الليل قد انتصف أو كاد فأخذ الضباط يستعدون للخروج . وقد اتفقوا فيما بينهم أن يمروا فى انصرافهم على منزل اليونانى لينظروا ماذا حل به وهل أصابت الصيدة .

هذا ما كان من أمرهم . أما حديث أرمنديس فإنه لم يلبث أن أقبل آيبًا إلى منزله يكتنفه اثنان من أصحابه اليونان كالعادة يتقدمهم غلام يحمل سراجًا يضىء لهم السبل على ناحية الهر الهائم اتقاء البغتات بالليل ، حتى إذا بلغوا المنزل تقدم أحد صاحبى الأعمى ليدق الباب فإذا به مفتوح ، فأعلم أرمنديس بذلك ، فاضطرب اليونانى وخشى أن تكون أمواله قد سرقت ودخل المنزل وحده وهو يكاد لا يبصر من شدة الغضب ، فإذا الأبواب فى الداخل كباب المنزل مفتحة لمن أراد الدخول ، فبلغ اضطراب الأعمى عندئذ إلى الجنون ، واندفع يبكى ويستغيث ويصيح : سرقت . نهبت . افتقرت . خزنت للصوص . كنت أجمع للأشقياء . كنت أكنز. أغيثونى . أنصفونى .

وما لبث صدى هذه الصيحات أن ملأ الجهات المجاورة ، فاستوقف المارة فى الطريق ، واستنزل الجيران من بيوتهم ، وازدحم خلق كثير على بيت الحادثة ، ثم جاء رجال فدخل على أثرهم الناس فتأملوا وطافوا وفتشوا فلم يجدوا فى المكان أثر إنسان .

وفى هذه الأثناء سمع من بعض الصناديق مواء متقطع يحكى الأنين فتفزع الحاضرون لأول وهلة ، فإذا أناس الشرطة فتحوا الصندوق فأخرجوا منه هرة عمياء ضعيفة تكاد تهلك من الجوع والظمأ، فصرخ الجمع عند رؤيتها مرددين : الآن اتضحت الحقيقة ، فلا سرقة ولا سارق ، وإنما هم الآلهة انتقموا من هذا الأعمى معذب الحيوان المقدس. أنت أيها الأعمى تنتقم لعينيك من الحيوان المقدس أنت تسجنه وتعذبه أنت تدعه يهلك جوعًا وظمأً إلى السجن الأبدى . إلى الإعدام . العقاب . العقاب .

وكان جماعة الضباط قد دنوا من محل الحادثة فحين رأوا الزحام ادّخلوا فى حلقة ينظرون ماذا أصاب غريمهم الأعمى . فلما رأوه قد وقع فى شراك «مناح» ابتهجوا كثيرًا وامتلأوا سرورًا وحبورًا لعلمهم أنه لم يعد فى وسع أحد ولو كان صديقه الملك أمازيس أن يزحزحه من العذاب أو يعصمه من شر بأس الكهنة وانتقامهم .

وكان رجال الدين فى سايس يبغضون أرمنديس أضعاف كراهة الضباط له ومقتهم إياه ؛ لكونه النديم الأول للملك والآمر الناهى فى مجلس شرابه . فلم يكن له شغل سوى التنديد بهم والحط من قيمة العنصر الوطنى فى الجيش ، وتحويل فؤاد الملك عن رعيته وإسقاط أشيائهم من عينه .

فبينما الأعمى فى مخالب هذه الداهية الفاجئة ، لم يشعر الناس إلا وشرذمة من جند الهيكل قد أحاطوا بالمنزل . ثم دخله جماعة منهم يتقدمهم كاهن من الرؤساء فى الهيكل الشرقى وهو ماسك بيد غلام أرمنديس . فتنحى الناس لهم حتى وصلوا فقال الكاهن لأرمنديس إن غلامك هذا يتهمك بإخفاء الحيوان المقدس فى بيتك ، وأنك أسملت عينيه . ثم جعلت ديدنك سجنه وتعذيبه . فما استتم الكاهن حتى صاح الحاضرون يقولون : نعم . وهذا هو الحيوان وجدناه فى صندوق الأعمى . وقد عاقبه الآلهة على جريمته بفقدان ماله الذى أنفق العمر فى جمعه . فعاقبوه أنتم بالسجن المؤبد . أهلكوه عذابًا . قطعوه إربًا .

فبهت اليونانى عند سماع هذه التهمة التى ألبسه غلامه إياها ، فلم يعد فى

إمكانه الخروج منها . وعندئذ أشار الكاهن للجند فداروا به وهم لا يكادون يقدرون على تخليصه من ذلك الجمع الحنيق المغضب . ثم خرجوا به آيبين إلى الهيكل ليودعوه السجن حتى تحقق تهمته والناس وراءهم يشيعونه باللعن والشتم والضرب واللكم . وتخلف الضباط غانمين فرحين يقول بعضهم لبعض همسًا : لم يبق إلا فانيس، من ذا يفعل به كفعل مناح بالأعمى ؟ أبان يوم متى الانتقام ؟ افتكوا به يخل لكم وجه الملك . أنقذوا الوطن . خلصوا الجيش . . .

الفصل الخامس

ساييس وقصراها

أتى على ساييس حين من الزمن كانت قاعدة المملكتين ودار حكومة القطرين ومقام ملك الوجهين يدبر الأمر فيها من مدب النيل إلى مصبه فمد الشاطئين . تداولت الأيام وانتقل الملك من مهده الأول إليها حتى رأت طيبة مؤتمرة طائعة ومنفيس ذليلة بعد عز خاضعة ، وحتى انتظم حواليها من أقصى إيلفينتين إلى مصاب النيل السبعة نحو أربعين مدينة كلهن عروس النيل ومنية ذلك الجيل ، وهو عدد لم يسبق له فى تاريخ مصر مثيل .

فبينما طيبة حرم أمون المأنوس . وحمى الشمس المحروس . وربيبة الهر ومحضونة البحيرة والبحر . ذات الهياكل الأربعة المأمورات . والأبواب المائة المشهورات. التى يمثل فيها الأمم الأربعون المقهورات . ويسعى لخدمتها الحبشان والنوب وأهالى برقة والمصريون من سائر الجهات . بينما هذه العاصمة الكبرى والمدينة العظمى تنوء بثقل ما حملتها الدول الأولى ، دول العائلات الغابرة من تالد المجد وطارفه. وحلى التمدن وزخارفه . وعلوم الإنسان الكامل فى معارفه . وغير ذلك مما ينتهى ارتقاء الأمم إليه . ويقصر تطاولها لديه . ولو ظلت طيبة باقية إلى الأبد ما زادها الأبد عليه . كانت ساييس تسود وتشيد وتبتدى فى المجد وتعيد . وتفعل فى سبيله ما تريد . وتسمو لمساواة طيبة ومنف بسرعة ما عليها مزيد . كما هو شأن المدائن الفرعونية والعواصم القديمة المصرية . فقد كانت لا يعوز إحداها إلا حكم ملك ذكى عامل . لتحيا بعد طول أندراس . ويجدد إنشاءها من الأساس ، فإذا خير مدينة أخرجت للناس .

هذا ما بلغت إليه ساييس فى أيام الملك أمازيس . حيث وسع نطاق عمارتها . وكثّر أسباب حضارتها ، وشيد هياكلها الأربعين . وأباح فيها صنوف العبادات للعابدين . وجعلها أحياء شتى مقسمة مرتبة . على حدود الأجناس منظمة . حى العامة وحى الخاصة . وحيًّا للجند خاصة وقسمى الحبشان والسودان . وآخر وقفًا على مهاجرة اليونان . وناحية من المدينة معمورة بالآشوريين . وأخرى مقصورة على النزلاء الفينيقيين وبالاختصار كانت ساييس هى الدنيا فى بلد . وكان سكانها هم الخلائق فى جيل .

إلا أن هذه الحالة التى أصبحت القاهرة تنشر من مساوئها اليوم ما انطوى بالأمس ، لم تكن لتخف وقعًا على شعور المصريين القدماء ، نظرًا لما نشأوا فيه من أول الأمر وتوارثوه عن جيل بعد جيل من شدة الكراهة للأجنبى ، ومزيد الاحتقار لشأنه ، واجتناب مخالطته ، والتحرس بقدر الإمكان من معاملته . فكيف يحتملون لحكومة تمكنه من بلادهم تمكن الداء وتبيحه أن يعبد فيها من دون آلهتهم ما يشاء ، وأن تكون له حكومة خاصة به وقضاء خصوصًا اليونان فقد كانت لهم ثغور على السواحل المصرية ، ومدائن مسماة باليونانية ، يتصرفون فيها كأنها أرض هيلينية ، هذا فضلاً عن رسوخ قدمهم فى العاصمة ، واستئثارهم بالرئاسات فيها ورجوع الملك فى جميع أمره إلى شورهم ، حتى جعل بينه وبين الرعية مهواة من الحقد والبغضاء تهوى حسناته فيها إلى قرار سحيق .

إذا عرفت هذا سهل عليك أن تتمثل ساييس مدينة نادرة المثال مختلفة الصور والأشكال متنوعة معانى الجمال ، لكل أمة فيها قدم ، ولكل مملكة صرح وعلم ، وهى تموج بالعباد ، آتين من أقاصى البلاد . لمزاحمة أهاليها على التجارة والصناعة فيها . والتمتع بنعم السلام الكامل الشامل الذى لبثت مصر فيه على عهد أمازيس ثلاثين سنة أو تزيد ، حتى استوجب أن يقال أول من حقن الدماء بين الملوك القدماء .

وكانت المدينة على النهر كأنها القلادة فوق النحر . وكان بها قصران شاهقان ، قد ملكا طرفيها متقابلان ، كأنهما حصنان ، على جبل يتناغمان .

أحدهما فى غرب المدينة ، وكان غض البناء جديد الإنشاء ، من عمل المصريين واليونان قد اشتركت فيه الصناعتان .

والآخر فى شرقها وكان معرقا فى القدم . بادى دلائل الهرم . لكنه ما بين القواعد والعمد يريد أن يبقى على الأبد . قد بالغ بانيه ، فجعل الدنيا فيه من غرف عالية ، وجنات زاهية ، وأنهار جارية .

وكان القصران من التفاوت فى العز والطول . والمنعة والصول . والملك والسلطان والمكان الإمكان . بحيث ينطبق عليهما قول ملك الملوك ﴿ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ .

فالأول يمثل عز الملك فى غاياته . ونعيم الحياة عند تمام حالاته . وكمال أدواته . والثانى يقل الشقاء والبؤس ونكد الأيام كلا فى نهاياته .

هذا الملك قائم يتقلب فى صنوف السعادات . وهذا الملك غابر قد مات . وصار شمل نعيمه إلى شتات .

هذا مهد سعيد فيه حكم وليد وملك جديد . وهذا لحد مشيد . قد غيبت فيه دولة ثابتة ودفن ملك وطيد . فسبحان من لا يزول ملكه ولا يبيد .

هذا رفعه سوقة وكان بغير عماد . وهذا هدمه ملك . . وكان أثبت أساسًا من الأطواد .

ثم يا للثارات من بين القصرين فهذا غالب يتواطد فى الأنام . ويزداد طول دعام . وبشاشة على الأيام . وهذا مغلوب يتداعى . وتنقض دعائمه تباعًا . فيرثها الأول ويحلى بها ويجمل . ثم هذا معمور بالقاتل مأنوس به آهل . وهذا خراب وترب مهيل . ووحشة موالى دم القتيل .

أما القصر الذى فى غرب المدينة فكان لفرعون أمازيس ملك مصر فى ذلك العصر.

وأما القصر الذى فى شرقها فكان لفتاة من بنات الملك والسلطان وثمرات العروش والتيجان قد زالت الدولة عن قومها ، وبعدت النعمة عنها بعد ما بين رأسها

و [...] ولدت فيه شقية بسعدها . ثم نشأت فيه سجينة مهدها ، منه رهينة لحدها ، وهذه الفتاة هى دل الرواية ، وتعرف فى التاريخ باسم تيتيناس .

خرج الشعب على والدها الملك أبرياس فعزلوه ثم قتلوه ومن معه . وكان حماس أمازيس هو زعيم العصاة ، ويدهم التى أنزلت والد الأميرة عن سرير المملكة فوفوه مكانه . وكان من دهاة الأفراد وكبار الأبطال والقواد. فلما تمكن من الأمر ، وامتلأت كلتا يديه من أزمة الشعب ، رجع فى أمر الطفلة الملوكية للرحمة ، وكانت فيه سجينة فاحتفظ بحياتها ، وأبقى لها قصر أبويها ، وأجرى لها رزقًا واسعًا. وأمر بها فربيت أحسن التربية وأليقها. بفضل امرأة من المصريات الزكيات هى العجوز تانه، وكانت من قرينات والدة الأميرة فلما دها البيت ما دهاه التمست من الملك الجديد ان يجعلها مربية لبنت مولاتها، فأجابها إلى ما طلبت . وأن تستبقى معها "هوريت" التى كان أبوا الأميرة قد اختاراها لها منذ الرضاعة لتربى معها فى الصغر ، ولتكون خادمتها الأمينة فى الكبر .

إلا أن الملك رأى من وجه آخر أن صفو أيامه وسلام مملكته يقتضيان بقاء بنت أبرياس محجوبة عن أعين الناس . فأسلمها من أول يوم إلى حراس أولى أمانة وبأس . يتألف منهم مركز من المراكز المهمة الموكولة لنظرة مباشرة . وكان رجال هذا المركز ينتخبون من فرقة الحامية الشرقية . ويستبدلون على رأس كل ثلاثة أعوام مرة .

الفصل السادس

أسباب الهوى

وما برحت هذه حال دل منذ يتّمها الدهر . درة يتيمة فى صدف المقادير. لا ينفذ عليها حجابها إلا الشمس إذا طلعت . أو النسيم إذا سرى . أو النوم إذا غشى من فى الخدور . حتى دبت ومشت وكبرت وشبت فبلغت الثامنة عشرة أو كادت . وهى كأنها الملاك فى عالمه من السماء . لم يحط إلا بقليل ما ورد عليه من الصور والأسماء .

وكأن لم يكف الدهر ما صنعت حوادثه بالفتاة من المهد إلى الشباب ، حتى نبه الحب لها فتنبه لنفس خلقت لتشقى . ووجدان فوق ما لقى وما يلقى ، ومزاج توالد من أسى وكآبة ، فليس صالحًا إلا للوجد والصبابة .

وذلك أن رئاسة المخفر كانت قد آلت فى المرة السادسة إلى شاب تأخذ أعين بشره وجماله وتعشق الأنفس ظرفه وكماله ، له تربية أبناء الملوك والأمراء وأدب المرزوقين الصالحين من بنى الأفراد . وهذا الشاب هو تيمان . كان على وجاهة عند الخاص والعام . يعلقون به آمالهم . ويعظمونه كما يعظمون أبطالهم . ويلقبونه بطل قبرص الصغير .

وحديث هذه التسمية أن الملك أمازيس كان قد أخرج أسطولا لاسترجاع جزيرة قبرص بعد وقوعها فى قبضة الغير وبقائها خارجة عن حكم المصريين مدة طويلة . فركب تيمان فى سفن الملك متطوعًا وكان يومئذ صبيًا لم يجاوز الرابعة عشرة من سنيه .

فلما وطئ الجند الجزيرة أمطرتهم قلعتها حجارة تصوب كأنها الديمة السكوب .

حتى ظنوا عجزًا . وكان تيمان واقفًا ينظر وكأنما يستجمع لوثوب . فلم يدر الجيش إلا واخترق الصبى الصفوف حتى بلغ مركز القائد العام . فحين صار منه وجهًا لوجه خاطبه على مسمع من العسكر فقال :

«إن القلاع أيها القائد أبكار لا يؤخذن إلا غصبًا . فإن لم يكن للجند روح منك اليوم فإن لهم منى» .

ثم إنه وثب نحو الحصن وثبًا . يريد أن يأخذه غصبًا . تحت نار للعدو حامية . وقذائف كالمطر دائبة هامية ، فتدفقت الجنود على أثره متهالكة متفانية . وتم النصر يوم ذاك لراية فرعون العالية .

فلما اطمأن تيمان بمركزه الجديد فى القصر القديم . وخالط أهله وانعقدت بينهما الألفة كما هو مقتضى وظيفته، فضلاً عن توحد المقام . والتقاء العين بالعين على الدوام. لم تلبث نفسه الرحيمة أن شاطرت فتاة السجن الآلام . وأخذت بأوفى نصيب من حالها العجيب مع الأيام ثم ما زال هذا التأثر يشتد وتستوسع أسبابه وتمتد حتى تكشفت له ظلمة المصائب التى كانت الفتاة محتجبة فيها بماضيها . وحاضرها وآتيها . عن ملك كريم . طهر الصبغة والأديم . يدعو الجماد جماله فيهيم . فكيف إذا توجهت الدعوة إلى فتى مثل تيمان . جم الحياة . كبير الوجدان . مملوء القلب من أرق وأشرف عواطف الإنسان .

نعم هذا كان للأميرة عند حارسها الشاب فلننظر الآن ماذا كان له عندها .

وجدت دل من أول يوم فى حارسها الجديد ما لم تجد فى أحد ممن قبله من التأثير والجذب ودواعى رقة القلب للقلب . وجدت حياء يلائم نفارها المكسوب فى السجن . وبساطة تناسب سذاجتها المسببة عن طول العزلة وأدبًا يروق للعزة الفرعونية التى كانت لا تزال تزاحم دم الحياة فى عروقها . وجمالا من الطراز الأول يصبى القلب ويسبى اللب . تألفه جمالها لأول وهلة . وما أقرب ما تتآلف الأشكال . وما أسرع ما تسرى الجاذبية إذا التقى الجمال بالجمال .

إلا أن حب الأميرة لتيمان لبث مدة لا يجاوز حد الميل الشديد والعطف المزيد . يمازجها من حين إلى آخر بعض الاستخفاف بشأن الفتى والريبة فى نسبه . واليأس من سعادة مستقبل يأتى به الغرام . أو هناء بقران يمكن أن تسمح به الأيام . وعما إذا كانت بنت فرعون ترضى ولو هللت فرحًا أن تركن شفتيها إلى جبين لم يسبق له تحلّ بالتيجان . أو أن تضع يدها فى يد لم يملأها من قبل الصولجان .

وكان تيمان يلحظ أحوال الفتاة هذه بعين لا تخطئ الصدق . ويتغالى إلى حد مشاكلة الغباوة . فلا يزيد الأميرة إلا أدبًا وامتثالا . وتلطفًا فى الأمر كله واحتيالا . غير متصنع فى شىء . ولا متكلف حالا . كأن فى يمينه ميثاقًا من الحبيب . أو كأن له فى الهوى أن يسأل وعلى السعادة أن تجيب .

الفصل السابع

الصورة

ما زالت الأيام تمر والليالى تنقضى . والعاشقان على قدم الحذر وفى موقف لهيبة أحدهما بإزاء الآخر . حتى طالت بتيمان المدة فى القصر . وأصبح يخشى أن فاجأ بنقل . أو تنقضى أيامه المعدودة فى هذه الوظيفة . ثم لا يكون إلا أيام التنائى البعاد مضاعفة بليالى الفكر والهم والسهاد .

وتلقاء ذلك لم يجد الفتى بدا أن يرى لنفسه بعض المخرج من هذا الموقف الحرج لذى تهدده به حوادث الغرام فى مستقبل الأيام .

فأول ما أخطر الحب على باله أن يأخذ صورة الأميرة لتبقى عنده ما طال ليل لشتاء و استأخر فجر اللقاء . كتمثال حاضر معبود . لإله من آلهة الجمال حاضر ير مشهود .

وكان تيمان من أبرع شبان زمانه فى فن التصوير ، خصوصًا ما يحتاج إلى لتلوين من ذلك . فقد كان هذا الفرع من الفن موضوع تنافس الأذكياء . ومضمار سابق المهذبين العقلاء . من أبناء الأغنياء والشرفاء . وكان تيمان قد جمع على لخصوص بين الدقة والحذق الموصوف بهما قومه الأشوريون فى هذا الفن . وإيجاز لصور إلى حد حفظ الأجزاء الأصلية والأوصاف الطبيعية . والاعتناء بتطريز الثياب والحرص على كل صغيرة من الشعر أو وتر من الأعصاب . وبين ذوق المصريين القدماء واجتهادهم الفنى فى إيجاد حياة للشكل الكلى . والتماس الروحانية للمجموع . غير شتغلين بالدقائق . ولا آتين إلا ما يكفل للصورة وجود الرونق والنظام وحفظ التناسب لعام .

وإذا كان كلا الأمرين مما يؤخذ على تينك الأمتين العظيمتين الوقوع فى مثله ؛ لكونه من التناهى المخل بالحقيقة المضر بمجموع الصورة ، كان الجمع بين الطريقتين والتوفيق بين الذوقين هو الكمال . وتيمان قد جمع ووفق . فشرع تيمان فى أخذ صورة الحبيبة وهى لا تدرى ما يأخذ منها ، ولو علمت ما بخلت برسم الجسد على من عنده حقيقة الروح .

وكان معظم توجهه فى عمله هذا وغالب رجوعه واستناده فيه إلى مثال لشخصها الكريم حاضر قائم على الدوام فى الخاطر . قاعدته القلب وجهاته السرائر . وإذا احتاج إلى الثبت والتحقيق . أو اضطرته الصناعة إلى النظر والتدقيق . فإن الأصل قريب لا يكلفه إلا خطوة يخطوها فنظرة ينظرها ثم يعود إلى ما هو فيه من العمل .

وظل تيمان عاكفًا على هذه الصورة تسعين يومًا لم يألها مراسًا وتهذيبًا . وتلوينًا وتذهيبًا . وإدناءً من الأصل وتقريبًا . وهو يأتى من التفنن والإتقان والإخلاص فى العمل لإتمام هذه الصورة التى يقربها للمحبوب ما كان الصانعان الإسرائيليان "بيساليل" و " أويالباب " يأتيان فى إنشاء قبة العهد المصنوعة لوجه الله سبحانه وتعالى .

وكان قد اختار لعمل هذا الرسم لوحًا من الخشب الصلب الدقيق من أحسن ما كانت تتخذ التجارة المصرية من قشور الأشجار العظيمة البلدية . وقد جعله فى خزانة خلف غرفة نومه فى القصر لا يدخلها سواه . فكلما وجد برهة فراغ اغتنمها ليزيد فى الصورة خطًا أو خطين ، فيدخل الخزانة ثم يقبل على العمل بنفس راغبة وصدر مشروح . وكانت الشمس تملأها عليه شعاعًا كلما أضاءت فلا تزيده إلا نشاطًا وابتهاجًا .

وكان الفتى كلما أتم ظلا أو فرغ من عضو تأمل الصورة فداخله الخيلاء والزهو فيبالغ لنفسه فى الخطاب ويناجى الرسم بكلمات الاستحسان والإعجاب . وقد نهاه

الروح عن ذلك فلم ينته بل استمر على تيهه وفخره . واستقر لدى خيلائه وكبره إلى أن أتم عمل الصورة فجاءت حاصلة على الشبه التام . لا يعوزها من أوصاف الحياة إلا الحركة والكلام . ولم يبق إلا اختيار المخبأ المأمون . وجعل هذا المثال الكريم المصون . فى جرم بعيد عن الأيدى محجوب عن العيون .

وإذ كانت غرفة الحارس فى القصر ليست لخصوصياته ولا هى بالمكان المأمون على أسرار غرامه . وخبايا صباباته . صمم تيمان على نقل الصورة إلى مأواه فى المدينة . حيث لا واش ولا رقيب . ولا دباب مريب . وأصبح لا يترقب لتحقيق هذا الرأى المصيب إلا فرصة يغتنمها ليذهب إلى مأواه ، فيودع فيه معبوده الذى صورته يداه .

فبينما الفتى ذات ليلة فى الخزانة يتمتع من رؤية الصورة وروائها، وقد أضاء القمر له المكان فأكسب الرسم شيئًا من اللمعان ، لم يشعر إلا بالحائط قد أشرق وازدان وجلا صورة لم تر مثلها عينان فى صورة دل فى الطول والعرض ، وكما هى على هذه الأرض ، وقد نقش المصور تحتها وخطت يداه ما معناه :

هذه الصورة البديعة لا ما ... يدّعى المدعى الفخور سفاها
قل لتيمان كيف خطت وسله ... أى نجم أضاءها فجلاها

فلما رأى تيمان الصورة . وقرأ الأحرف المسطورة . ذهل عن اللوح ، وما فيه . واستقبل الحائط جاثمًا ثم قال يناجيه :

« ويحك يا تيمان . وويح عينيك ماذا تبصران . وما هذا الذى تأخذان . وما لهما يدان . صورة لاحت على البديه . ولم تك من قبل شيئًا . يكاد الحائط يشرق ببهجتها . وتبدو له أنوار . . ارتجلها المكان ارتجالاً . إنى لعهدى بنفسى فيه وحدى . فما هذا الذى أرى ومن هذا الزائر يا ترى .. أهذا ملك الكواكب قد نزل إلى من ملك الغياهب؟

أهذه ملكة الأفلاك غرفتى بها شرقة وأنا أراها جهرة؟ أهذا سر يسرى وأدرى ؟ يا للأمر العجاب ماذا أنظر ؟ ما هذا الذى أرى على الحائط ؟ صورة فتاة إنسية لو تمثلت لى بحياة ما خلتها من ملاء البشر . ولا من عالم الشمس والقمر . بل ذاتا فوق مثال الأوهام والفكر . تتصور للناظر المفتن كيف شاء ، وشاء له النظر .. أبهذا المثال البديع الارتجال القدسى الجلال . الروحانى الجمال . الهابط من أوج عال . عزيز المثال ؟ أى شىء أنت حقيقة أم خيال . أم وهم وشيك الزوال ؟

وأنت يا من خط بقلم النور على لوح الشروق والسفور بدائع هذى النقوش والسطور . من أنت ؟ أين أنت ؟ هل لك فى الظهور . . . لعلك إله خطير . أو عساك كاهن كبير . أو تراك شيطان شرير ، أو أنت ساحر قدير . أو أنا فى رق الأوهام أسير. منى التخييل وإلى التصوير . أو هذا حلم وأنا فى الكرى . أو أنت يا تيمان إلى الجنون تصير ؟

« أشور يا رب نينوى وبابل وإله النهرين . ويا نور السموات وضياء الأفلاك . يا من منه الوجود وبه البقاء ومن بيديه الهلاك . أسألك بأعوانك الخمسة : أدار وأستار ونيبو ونرجال وميروراك وبأعوان أعوانك الذى لا يحصيهم عدداً سواك ، أن تكفينى شر هذا المكان . وأن تجعل فضاء مضيق ما أنا فيه الآن . فإن لم تكن لى فإن لى أمون إله لرئيس والعجل الأقدس أبيس . روح أوزيريس . والحياة الثانية لفتاح رب منفيس . ولى كل إله يسكن الآن ساييس . أسألهم جميعًا بلسان الإجلال والتقديس أن يصرفوا عنى كيد الشياطين والمناجيس » .

وما كاد تيمان يفرغ من هذه الأقوال حتى زاده انذهالا على انذهال أن رأى الصورة تزول بعد ثبوت . وتضمحل قليلاً قليلاً كأنها تموت . فكانت تنحل عضواً إثر عضو وتتلاشى طبقة بعد طبقة . وتنمحى خطا ثم خطا . وهو تجاهها بموقف الحيران

الدهش حتى امتحق الرسم وبان . ولم يبق إلا الحائط كما كان . فكان من فعل ذلك فى وجدان الفتى وتأثيره فى أعصابه أن هم به النوم فاتكأ على منصة شغله ، واهى القوى منسرق المفاصل مثقل الرأس بالنوم وعندئذ طرق أذنه صوت هاتف يقول :

" قد كان لتيمان غناء . عن الكبر والخيلاء . وعظناه فما اعتبر ، ونهيناه فما ازدجر. فهل علم اليوم أن نور السماء الكامل . لا يهدى لفخور متخايل . وأن فوق هذه الأرض من العلماء ، فى زى العواجز الضعفاء . من بيده قلم اللطف والبهاء . يصيب به من دواة الفلك مداد الضياء . فيثبت به ما يشاء ويمحو ما يشاء " .

ثم انقطع الصوت ، فوثب تيمان إلى الحائط مرة أخرى وجثم هنالك ، ثم قال يجيب الهاتف : لبيك أيها الروح لبيك . ها تيمان قد جثم لديك . يعتذر عن عصيانه إليك. فحاسبه حساباً يسيراً . وتوله بالإرشاد كبيراً كما ربيته صغيراً .

وانقلب الفتى بعد ذلك إلى حجرة نومه فنام . حتى إذا كان الصبح وخرج إلى أشغاله ، وردت عليه المكاتيب الرسمية كالعادة ففضها ، وإذا بينها مرسوم سلطانى قد جاء فيه أن إرادة الملك اقتضت نقله إلى القصر برتبة مساعد قائد مع لقب حارس ثان للملك ، وأن يتخلى عن حراسة مخفر القصر القديم لمساعدة "فللوس" ، ويذهب تواً إلى القصر ليباشر وظيفته الجديدة فيه .

فلا تسل عما فعل هذا المرسوم بفؤاد تيمان مع ما فيه من الرقى الباهر والمستقبل الزاهر . فقد كان يقرأه وكأنما يقرأ حكم إعدامه . إلا أنه لم يجد مخالفة الأمر فى الاستطاعة . ولم ير بدا من الطاعة . فاستدعى على الفور مساعده فللوس . فبلغه إشارة الملك . ثم خرج الى جنود المخفر فطاف بهم نقطة نقطة ، يعلمهم بخروج الحراسة من يده وانتقالها إلى رئيسهم الجديد فللوس . فعلت الكآبة وجوه الجميع، وحزنوا حزناً شديداً على فراقه .

الفصل الثامن

الوداع

اليوم ابتداء السجن الحقيقى لدل . سجن النفس فى أحزانها . والمهجة فى أشجانها . والروح فى ذل النوى وهوانها . نبأتها رؤية تيمان بهذا النبأ المشئوم ، حال خروجها من الحريم لنزهتها المألوفة ، وهو واقف يترقب طلعتها الجميلة ليراها مرة ثم لا يثنى ، فكأنه فى هذه الحال ، ذلك الذى قال :

فكنت كالمتمنى أن يرى فلقًا من الصباح فلما أن رآه عمى

وكان من سموه ورونق وجوده . أن الأميرة خرجت هذه المرة وحيدة . كأنها استبطأت نانة وهوريت فسبقتهما إلى الحديقة . فلما صارت فيها وهى لا تكاد تصدق أنها بمفردها وأنها ستكلم تيمان للمرة الأولى على خلوة ولو هنيهة رأت الكآبة على وجه الفتى . وكان من عادته أن يلقى بوجه البشاشة . فارتاعت وأجفلت . وآنس هو منها ذلك فغير ما بنفسه وأشار نحوها بوجه البشاشة والبشر . فآب إليها أنسها وسكوتها . ودلفت إليه فحيته مصافحة لأول مرة منذ وجوده فى القصر . فلم يتمالك الفتى أن بكى حتى بلت دموعه يد ذلك الملاك وهو يقبلها . فرثت الأميرة لحاله وسألته :

– ماذا بك مما يثير ضميرك إلى هذا الحد أيها الحارس الكريم ؟

تيمان : أمر يكثر بثى وحزنى ويهمنى وحدى . ولو علمت أنه يهم مولاتى مثقال خردلة ما تأخرت عن عرضه لأعتابها .

دل : بل تكلم وبح بما شئت يا تيمان . لكن على شريطة أن تعجل ، فإنى أخاف أن تفاجئنا مربيتى ونحن فى الحديث فلا نتملك له إتمامًا .

قالت هذا والتفتت ورائها تتقصى النظر من خوف ومن حذر فكادت تلك الكلمات وهذه الحركات ، تنقل تيمان من عالم الأحياء إلى عالم الأموات .

وفى الواقع لم يكن تيمان يحلم بأن ينال من الفتاة ما نال . وإن تأخر النوال . فلأول مرة رآها تصافحه باليد . ولأول مرة سمعها تدعوه بتيمان . ولأول مرة لقيها وحيدة . فوجدها قريرة بلقائه سعيدة . وبالجملة ألفاها لأول مرة مستعدة لتبث شكواها من الجوى . ولتبوح بهواها إن كان فى الفؤاد هوى . فانظر الآن كيف السبيل إلى الخطاب وبأى لسان ينطق الفتى بالجواب . لعلمه أن الخبر سيؤلمها على كل حال ويقف لغرامهما فى طريق الآمال . وهى مقبلة أيما إقبال لكنه تلطف فى الإخبار فقال :

– لعل مولاتى يسرها أن تعلم شيئًا عن تقدمى وارتقائى بيمن طلعتها السعيدة .

دل : لعلك رقيت لرتبة .

تيمان : بل لرتبتين يا مولاتى . والأهم أن وظيفتى فى الرتبة الجديدة تسهل على خدمة إشارتك فى كل مقترح ، وتجعلنى قادراً على أن أزيد ولو مثقال حبة فى راحتك وسعادتك ، اللتين هما ضالتى فى حياتى . وعليهما دون غيرهما وقفت همى ومسعاتى .

دل : ما هذا الكلام لعلك ماض وتاركنا يا تيمان ؟

تيمان : نعم هذه إرادة الملك يا مولاتى . ولا بد من الرضوخ لها . فحين سمعت الأميرة هذه العبارة الأخيرة فاض الدمع وانهلت بوادره . فحاولت أن تصون عزيز دره عن الأرض فلم تجد أوعى له ولا أحق به من صدر الحبيب . فألقت برأسها بين ذراعيه فضمه إليه وجعل يشمه بشفتيه . وهو لا يكاد يملك لقدميه ثبوتًا من شدة التأثر وفرط الانفعال حتى إذا فرغت من بكائها رفعت رأسها فنظرت يمينًا وشمالا ، ثم شرعت تخاطب نفسها فتقول : ويحك نيتيناس . ماذا دهاك فذهلت عن واجب المقام وحقه . ماذا نزل بك يا بنت فرعون عما يفرض عليك النسب من التأنى والاحتشام . . العفو ثم العفو يا سيدى تيمان . وإن تكن أنت السبب فى هذا . بك أذنبت وإليك أنبت . فاغفر لى طيشى وخفتى وتجاوز عن اندفاعى وجرأتى ..

تيمان : وأى إثم أتيت يا مولاتى حتى تندمى كل هذا الندم . حتى يعتذر الرأس
ى القدم . أما والسماء وأربابها والأرض وأقطابها لأنت العزة . أنت الحشمة . أنت
طهارة . أنت الأدب . وما نحن فيما تهادينا من الهوى والجوى، وتشاركنا من حرق
لنوى ، إلا كهذا الزهر ترينه زوجين زوجين ، فهل فى تعانقه أم مواقفه هذه معيبة ؟

دل : إنى أسمع حركة أقدام وما أظنها إلا مربيتى قد حضرت لتلحق بى . فاسمع
ى هذه الكلم الثلاث واحفظها ، إن كنت من يحفظ العهد على القرب والبعد . أما سر
ذا الحب فيبقى فى غيابة جب من القلب . وأما تلاقينا فأنت تنظر فيه وتحتاط له
تحتال عليه . وأما القبلة الطاهرة فلن تنالها حتى تعرفنا ابن من أنت ؟ قال سمعًا
طاعة يا مولاتى . وفى هذه الهنيهة تراءى عيان المربية مقبلا فأمسك العاشقان عن
لكلام ، ومشت دل نحوها مسرعة . فقالت لها : إن عندى خبرًا أخبرك به وأعلم أن
سماعه يسوء مربيتى العزيزة . قالت : وما ذاك يا أعز البنات قالت : إن الحارس ماض
ليوم وتاركنا ، ولكنّ له فى براح هذا القصر رقيًا وتقدمًا ، فقد ارتفع رتبتين معًا
وأصبح فى مركز يمكنه فيه أن ينفعنا . قالت إنه خبر يسوءنى ويسرنى فى آن . وإنى
تمنى لعزيزنا الحارس تيمان رفعة الدرجة وعلو الشان فى خدمة الأوطان . قال تيمان:
أنا أشكرك على إظهار هذه العواطف نحوى يا سيدتى نانه .. وأشتهى من السماء أن
جعلنى بحيث يمكننى أن أقوم لك ولمولاتى ببعض الخدمة فى الحال والاستقبال .

ثم كانت من نانة ابتسامة لم يفهم لها الفتى ولا الفتاة معنى سوى أن العجوز قد
كون وقفت على بعض ما جرى بينهما فى ذلك الموقف ، من حيث لم يشعر بذلك ولو
لما أنها هى التى هيأت لهما الموقف ، وشغلت هوريت حتى تعذر خروجها فى تلك
ساعة . وسامحت دلاً فى السبق إلى الحديقة لتجد تيمان وحده وليجدها لاعترفا
الفضل لهذه المربية التى علمت بما ورد على الفتى من الأوامر فى ذلك اليوم ، فأرادت
ن تتخذ عند الحب يداً بتسهيل الوداع على أهله .

إلا أن ابتسامها على تلك الصورة أخجل تيمان . حتى ألجأه إلى الاستئذان . فانحنى مودعًا ثم تولى يمشى الخطوات الباقية له فى أكرم منزل - منزل الحبيب الأول - فكانت ساعة شديدة لا تصفها الأقلام ولا يعرفها إلا أهل الغرام :

لا ضـــرب المقـــدور أحـــبـــابـنا ولا أعـــادينا بـهـــذا الحـــســـام

وعلى أثر ذلك أقبلت نانة على ربيبتها تقول :

« إن تيمان يا أعز البنات شاب قد رزق الجمال. وهذه صفة يشترك فيها الجم الغفير من الناس ؛ لأن معانى الجمال كثيرة لا تدخل تحت حصر ، ولا تقف مع الزمن عند حد، بل هى صفة لا بد أن تزول . فإن حسن الوجوه حال يحول . ولكن تيمان مرشح لنوعين آخرين من الجمال . ما أحسنهما إذا اجتمعا لجميل من الرجال . وما هما إلا الجاه والمال . والفتى من الذكاء وحسن الأدب والإقدام بحيث لا يغادر فى المعالى غاية إذا هى همت به وهم بها . فمن أحبه فليرض اختيار الملك فى أمره ، وتعلم الآلهة أننى أحببته من أول يوم . وأنه منى بمنزلة الولد . فما أعظم سرورى اليوم بنعمة الملك عليه. بل بودى لو أعيش إلى يوم أراه وهو كف الملك وسيفه ولسان المملكة الغوائل وعدتها ضد الفوائل يرفع لواء مصر للسماء . ويضع حسودها أنى شاء . فهناك تتمنى أميرات البلاد وتشتهى ملكات العباد أن يكنّ له بعض النساء . بل من جملة الإماء « فطوبى يومئذ لمن أحب ، وكانت منه بمنزلة النياط من القلب » .

فلما فرغت العجوز من كلامها تحول حزن الفتاة هناء . وانقلب اليأس فصار رجاء. لكنها لم تزد فى الجواب على أن قالت : كذلك أنا يا أماه أعجب بأحوال الحارس تيمان . وأتمنى له أن يبلغ فى خدمة الملك والوطن أرفع الدرجات . ثم خاضت فى حديث غير هذا كأنها تخشى فلتات اللسان ورأت أن تجاوبها ؟ اكتفاء بما كان .

هذا حديث دل . فأما تيمان فإنه لما اجتاز باب القصر وجد عليه إحيا فلم يكد يبصره من الفكر والغم . فتقدم البستانى إليه وخاطبه فقال : ما بال مولاى تيمان مر لا

لوى على أتباعه كأن به أنفًا أن يدعوهم لوداعه. ألا لأننى يا مولاى خادم أجير؛ ومن كان كذلك فهو حقير لا يلوى عليه ولا يلتفت إليه؟ أم لأن مولاى غضبان مستاء منى فهو لا يسأل عنى ؟ فإن كان الأول فإن لى بالعقل بعض المقدار وبهذا المشيب شيئًا من الاعتبار . والآلهة يا مولاى على علو مكانهم وفخامة ملكهم وسلطانهم لا يتوددون إلا إلى من يستخدمون من رسلهم وأعوانهم. فرعاية الخادم الأمين إذن واجبة. وله المحل الثانى بعد البنين والصاحبة . وإن كان الأمر الثانى فإن التجاوز والصفح أحرى بهذا الخلق السمح ، لا سيما فى ساعة الافتراق التى يشهد الآلهة أنى أجدها مرة المذاق . فامض يا بنى فى حفظهم وصيانهم . واعلم أن قصور الملوك كالبساتين فيها الزهر الذى يعجبك منظره ولكنه يمل بعد حين . فلا تكنه يا بنى وكن الورود والرياحين . إن أقامت كانت المشار إليها وإن رحلت كانت المبكى عليها . ولا يمنعك التنعم فى خدمة الملك من نصب النفس لنصرة ملكين آخرين كلاهما أولى منه بالطاعة وأجدر بالخدمة والاستطاعة . وما هما إلا الحق والأمة . فإنه ملك هذين من ملك الآلهة لا يحول ولا يزول . فلما أتم إحيا كلماته رفع الفتى رأسه وكان مطرقًا يصيخ لما يقول ويفهمه فهم من له معقول . فنظر إليه تيمان دهشًا ثم قال : لقد كنت أذكر أستاذى بطلعتك يا إحيا. والآن أذكره بها وبهذه الوصايا العالية والنصائح الغالية ، فلأجله أقبلها منك ولأجله أعمل بها . قال إحيا مقاطعًا : بل لو كان شيخك حيًا لرأى لك أن تأخذ الحكمة أينما وجدتها . وأن تقبل النصح الخالص من أين أتى . وأن لا تأبى ولا تكون من المستكبرين . قال : وأنت أيضًا تتهمنى بالكبر يا إحيا ؟ قال : إن اتهام مثلك بالكبر ، الذى هو شر الأخلاق ، مما يصغر عنه شأن مثلى يا مولاى . ولكنى أردت أن تعلم أن النصح كالجواهر الكريمة لا ينظر معها إلى البائع ولكن ينظر إلى البضائع . قال : وأنا قد قدرت النصح والناصح حق قدرهما . والآن أستودعك الآلهة واسألهم أن يوفقونى لما فيه خير العباد ومنفعة البلاد . ثم إنه مد يده إلى البستانى يصافحه فأخذها إحيا وقبلها. واستمر تيمان بعد ذلك فى مسيره نحو القصر السلطانى .

الفصل التاسع

عالم مصرى فى فارس

أصبح " قمبيز " ملك العجم ناعم البال قريراً . كأنما بشر بغلام . أو أتى سائر ملك الأنام . فلبس كسرويات المطارف . وخرج إلى إيوان قد أحصى الزخارف . جمّ الذرى والمشارف فما زال يغيب فى بسط الحرير نعاله . ويسحب بعلى طنافس الخز أذياله . حتى بلغ أريكة فارس بل عرش آسيا جمعاء . فجلس ثم نظر إلى من حوله وقال : ائتونى بمنجم الدولة .

فلم يكن أن تلهى الملك ببعض أشغال قصره ، حتى حضر رجل شيخ يهم بالستين. أعمى أجدع . موفور طول القامة . وافى الجسامة . قد التثم يستر جدعه . ولم يبد إلا صلعه . واتخذ زى الكهنة المصريين ، فتلفف فى قباء من الصوف الأبيض ، يكسوه من صلعته العارية لقدمه الحافية . فأقبل يمثله لدى الملك غلام من تلاميذه يحبو إلى العشرين كأنه المثال المنصب شهامة وجمالا وطولاً واعتدالا . وقد تردى مثل الشيخ ثوبًا ضافيًا من الصوف الأبيض الخاص بكهان مصر فى ذلك العصر .

فلما دخل الأعمى على الملك خف له ، وبالغ له ولفتاه فى المنزلة ، فأجلسهما بجنبه. وأعلى محلهما من قربه . ثم ابتدر خطاب الشيخ قائلا :

– ألا أقص على رئيس القوم رؤيا هى من حسنات النوم ، ضاحية سعيدة قريبة بعيدة الخيال . كل الخيال فيها . وتقبلها الحقيقة ولا تنفيها . رأيتها وأنا عفيف الوساد. طاهر الرقاد . حر القياد . لم أظلم فى أمسى . ولم أسلم إلى الهواجس حسى . ولا وليت الهوى على نفسى . قال مر يا ابن كسرى لا زالت النجوم مسخرات لسعيد عهدك. مبشرات بمزيد مجدك . ولا برح المنجمون ساعين لخدمتك داعين على الدوام

بخلود نعمتك. قال : رأيت أيها الرئيس كأن عرشى على الماء . وكأن أبواب السماء انفتحت لذروة إيوانى الشماء . فما زالت تسمو فى السنا والسناء . حتى خشيت أن ينقلنى البناء . إلى عالم اللطف والضياء . ثم رأيت كأنى أسير فى ضوء شمس زهراء . فحاولتها فلما ظننت أنى نلتها احترقت فإذا هى هباء . هذه رؤياى أيها الرئيس الجليل فما عندك لها من التأويل ؟

قال : ما أحسن ابتداء ما قصصت. وليتك ما زدت أيها الملك بل ليتك نقصت . فأما العرش الذى على الماء فعرش الفراعنة العظماء . وأما سمو الإيوان بصاحبه على ما وصف الملك فعنوان ملك كبير ودولة عرضها الأرض والسماء . وأما الشمس التى حاولها الملك سدى فعقله الذى فى رأسه سوف يخرج منه فيتفرق شعاعًا فيذهب الشعاع هباء . فلا يملك له ردًا ولا إدناءً .

ثم إن المنجم قبض يده اليمنى واستقبل وجه الملك فلما صار إزاءه نفضها فيه فأخذ الملك للحين . فشرع الشيخ يسأله قائلاً : ماذا ترى أيها الملك ؟ قال : أرى جنودًا ملء الأرضين تتأهب للزحف . قال : ثم ماذا ؟ قال : أراها قد زحفت وأرانى صاحب رايتها . قال : ثم ماذا . قال : أرى بلادًا تطوى لى ويدنو بعيدها وأمما فيها يولون منى فرارًا وأرى ملوكًا أتونى صاغرين . قال : ثم ماذا ؟ قال : أرانى على أبواب مصر . قال : ثم ماذا ؟ قال : أرى جنات وأنهارًا ومدائن عشرين ألفًا كبارًا تفيض فضة ونضارًا . قال : ثم ماذا ؟ قال : أرانى أدمر القرى وأبيد الزرع وآخذ المدائن غصبًا . قال : ثم ماذا ؟ قال : أرانى أستبيح مصر وأحمى نيلها وأملك البلاد عريضها وطويلها . قال : ثم ماذا ؟ قال : أرى الموت يفتك فى جنودى مسرفًا والمنون تقتلهم بلا قتال . قال : ثم ماذا ؟ قال : أرانى قد قهرت أول مرة وما قبرنى أحد وأرى سواد جيشى فى التيه صرعى هالكين . قال : ثم ماذا ؟ قال : أرانى مغضبًا هائجًا أقتل سراة القوم وأخرب هياكلهم تخريبًا وأزيل ما يعبدون . قال : إذن فانتبه أيها الملك .

إنى أخاف أن ترى عقباك فتموت قبل أن تدرك العقبى . فانتبه الملك وهو يكاد يسبح فى عرقه. ثم نظر إلى الشيخ فقال: أهذا تأويل رؤياى يا بترمبيس ؟ قال : بل ها أنا ذا أستتم وألم بأطراف الرؤيا ما ألم اعلم يا قمبيز . إن السماء وهى نعم العون سوف تكون معك على فرعون لا لأنها قنطرة ركوب الظالمين على دماء العالمين . لكن لأنك طاغ ولأن فرعون طاغ كذلك باغ . فهى إنما تسلط الرعد على الرعد . وهذى سنتها فى الممالك من قبل ومن بعد . هذا بعد موت أماسيس فرعونها الذى صانها من أبيك وما ينفك قادراً على صونها فإذا هو هلك وقام ابنه من بعده وملك وطئتها خيلك المدمرة . ودهمتها جنودك المتبربرة . فهدت كيانها . وهدمت فى المجد بنيانها . ومحت هياكلها الفاخرة . وعفت مدائنها العامرة . ودفنت العلم والحكمة والصناعة تحت أطلال مدارسها الزاهرة . قال الملك ، وقد كاد يخرج من صوابه لمدهش ما رأى من فعال الشيخ وما سمع من خطابه : أما عندك لنا يا بترميس ختام غير هذا الختام النحيس ، فإن الجنون بئس الداء صاحبه أذى مملول البقاء لا فى الموتى ولا فى الأحياء ؟

قال إنه ليس بقولى ولا دفعه فى دائرة قوتى وحولى وإنما أنا رجل كشف له الغطاء . وناجت بغيبها السماء . وأعلم أنها تقضى مرة ثم لا يتبدل القضاء . أما أنت أيها الملك فإنك تذبح مصر وتذبح فارس معها . من حيث تريد أن تبنى دولتك على أطلالها وترفعها . لأن الكهنة الأولين أصحاب الآلهة العالين قد أخبروا وحدثوا وأورثونا فيما أورثوا أنه يأتى زمن على مصر الوطن تكون للأجانب أبداً وفى المصائب سرمداً. لكنهم نبأوا كذلك ، أنه لا يملكها من الأجانب مالك ، إلا كان هو وقومه وقفًا على المهالك . ولو أنه قمبيز رب الممالك .

فلما سمع الملك هذا النذير من محتوم المقادير همت به الريب والشكوك . وغضب هذه المرة كما تغضب الملوك . فرفع الصوت قائلاً : إن آلهتك أيها المصرى أكذب منك. وإنهم سوف لا يغنون عن فرعون ولا عنك .

والآن لك أن تختار كيف تموت . وعلىّ أن أوفيك مقامك فى الكهنوت. بل أنا أختار لك النار ذات القدس التى يموت بها الملوك والفوارس . وكهنة المقام الأول فى فارس . فأغرق الشيخ فى الضحك من كلام الملك ثم قال : إننا معشر بنى هوس قد مضى فينا حكم سابق أن لا نموت إلا بالصواعق . فإن كان فى يد الملك زمام السحاب فلينزل علىّ ما شاء من عذاب .

قال النار بيننا أيها الكاهن الخائن . الموهم المائن . الذى يتقول على السماء الأقاويل . ليثنى همى عن معالى ملك النيل . قال: لا يطيشنك الغضب . وقف يا قمبيز على حد الأدب. فلا وآبائى وأولياء السماء . وأصحاب سرها فى هذا الغبراء . ما الخيانة والمين إلا فيكم معشر الملوك والأمراء .

فلم يكن من جواب الملك إلا أن استل خنجرة وانقض على بترمبيس ، فلما صار منه وجهًا ضرب الرجل الأرض برجله ثم صرخ قائلاً: مكانك يا غادر. وتأمل فى صفحة هذا الخنجر ماذا ترى فيها ؟

قال: أرانى قد صرعت به أخى لأمى وأبى . قال: ثم ماذا ؟ قال: فأختى التى هى زوجتى . قال : ثم ماذا ؟ قال: فسائر ذوىّ واحداً بعد واحد . قال : ثم ماذا ؟ قال: فخواصى وذوى شوارى . قال : ثم ماذا ؟ قال : أرانى قد صرعت به العجل أبيس معبود قومه فى منفيس . قال : ثم ماذا ؟ فصرخ الملك صرخة دوى بها الإيوان ثم صاح قائلاً : أمانًا أمانًا يا بترمبيس اذكر يمينك لأبى أنك تحفظ ما عاش عهده وتحفظ عهد هذا الملك بعده . قال : إذن فانتبه يا ابن كسرى فلولا عهد أبيك لكانت هذه هى القاضية . فخرج مما كان فيه وانتبه وإذا هو لا يزال مرعشًا مرعداً لا يملك لقدمه فكاكا. ولا يستطيع للخنجر إمساكا . فسأله الشيخ قائلا : ماذا رأيت أيها الملك مما راعك وأكثر أوجالك وأوجاعك ؟ قال : رأيت أنى طعنت العجل أبيس . فمشى الخنجر من نحره إلى أقصى صدره ثم غاب فى أقصى أعماق العظام . حتى عيانى رده كما

يعين الرماة رد السهام ، فلم يكن من العجل إلا أن عض على قبضة الخنجر بنابه . ثم جذبه إليه فصار بين فكيه . فحمل علىّ مغضبًا نافرًا حنقًا سائرًا ، فما زال يهاجمنى وألتقيه . ويسد الخنجر نحوى وأتقيه ، حتى ذقت العذاب مرارًا . وأوشكت أرى الموت جهارًا . وإذا بك قد نبهتنى فانتبهت من شبه منام فبحق أبى عليك يا بترمبيس ، بل بحرمة آبائك الكرام إلا كشفت لى اللثام عن هذا الحلم السفيه فى الأحلام قال : ليس ما رأيت أيها الملك إلا تتمة رؤياك : وليس طعنك عجل السماء وطعنه بعد ذلك إياك إلا وخيم مصرع بغيك فى دنياك .

وكان الملك قد فاء إلى صوابه . وزال سلطان النوم عن أعصابه . فعاد الى سريره فجلس ثم رفع الحجاب . وأذن فى الوصول لجميع من بالباب . فدخل عليه الأهل والوزراء والأصحاب . فلما رآهم استأنس بعد النفار . وسكن فؤاده المذعور وكان بغير قرار . فقام ونهض على قدم الإجلال ثم حرك لسانه بالقول فأنصتوا ، فقال :

« أيها الملأ قد ثبت عندى أن هذا الكاهن المصرى - وأومأ باصبعه إلى بترمبيس - عدو لى ولكم . يوهم أن يصفينا . وهو لم يقم فينا إلا ليظهر على بادينا وخافينا . فما مثله حين حميناه . وما اتقينا وأجرناه . فلاقينا ما لاقينا إلا كمثل أفعى كبدها البرد فدبت إلى فراش دفىء فشاطرت النائم لحافه . وقضت الليل عنده فى أحسن ضيافة . حتى إذا أخذت قسطها من الدفء لوت على صاحبها فلدغته ثم مضت من حيث أتت . فما جزاء مثل هذا عندكم وما عقوبة من يخون عهدى وعهدكم ؟ » .

فما كاد الملك يستتم حتى صاح القوم يرددون بلسان واحد : الصلب المبين . الصلب المبين . قال : ولكنى وعدته أن لا يمسه إلا النار . وأن لا يعدم إلا كما يعدم فى فارس النفوس الكبار . قالوا : فليكن ما سبقت به كلمة الملك أن يكون . قال : ولكنه ساحر قدير . وأخاف أن يخرج من السجن بسحره قبل أن نخرج بنتيجة من أمره . قالوا: وأين سحار فارس . وكهانها من كل جابس حارس . حتى يضيق ملك الملوك .

بخطب هذا الصعلوك . فإذا أمر الملك فإنا إلى السجن نزجيه . ثم نزجه فيه . ثم نسور المكان . ونحوط هذا الشيطان ، بنفر من السادة الكهان . ثم يعين الملك رجالاً من أشجع الحراس . مسلحين من القدم إلى الراس . ليدوروا بالسجن كالبنيان . وليكونوا للكهنة بمثابة الخدام والأعوان . قال : قد أمرت واخترت يوم السوق موعداً لوقوع الجزاء على بترمبيس حرقًا بالنار . وأن يشهد إعدامه أهل المقامات والأقدار . وكل غريب يقطن الآن "بازرجاد" عاصمة الديار . ثم أشار الملك أن خذوه . فازدحمت على الشيخ أيدى الرجال . يجعلون فيه السلاسل والأغلال . ويشدونه فى أوثق الحبال . وهو بينهم يبش للأهوال . ولا ينوء بالاثقال . إلا كما تنوء الجبال ، ثم خرجوا به على هذا الحال . فلما بلغ الباب التفت وراءه ، ثم قال يخاطب الملك بصوت عال : ألم أقل لك يا قمبيز إن الخيانة والمين والرياء أخلاق لم تجزكم معشر الملوك والأمراء .

الفصل العاشر

كتاب قمبيز إلى أمازيس

أصبح قصر فرعون فى ساييس قائمًا بناسه قاعدًا وأصبح الملك وسائر الآل والحاشية من نساء ورجال فى حال من الجزع والفزع شر حال .

وسبب ذلك أنه ورد على فرعون أمازيس وفد فارسى يحمل كتابًا من قمبيز ملك الفرس قد خطب فيه فتاة الملك بلسان المتحكم الآمر . وقد تجردت عبارات الكتاب عما يجب مراعاته فى المقام من الآداب . حتى لم يبق شك أن العجم يحتالون على الشحناء . ويوقظون صاحب النيل للعداوة والبغضاء . لعلمهم أن فرعون أقرب إلى الرفض على ما فيه من المخاطرة بالسلامة منه إلى القبول الهادم للشرف المسقط للكرامة .

وكانت مصر تعلم يقينًا أن يوم العجم فوق أمسها . وتستعد لجوار تجرى بسعد القوم ونحسها . وتتوقع التعدى القريب من ملكهم الشاب الذى ترك له أبوه « كيروش » المشهور من الميراث الجليل . والملك العريض الطويل . ما لا يستطيع معه صبرا عن وادى النيل .

فلما دها مصر كتابه لم يزدها بالحال علما وإن يكن قد أزعج صاحب الحكومة واستفز رجال الدولة فيها ومثل المستقبل للجميع ليلا داجى الظلام . تتعثر فى كنهه الأوهام .

وكان فى انتظار الملك على أبواب غرف الجلوس فى صبيحة ذلك اليوم الأسود ، ولم يكن خرج بعد من مقاصير النوم ، كبير حرسه ونائبه على قيادة الجيوش العامة القائد اليونانى فانيس . ومشير المملكة السياسى اليونانى لاجوس . وكلاهما من أهالى جزيرة ساموس . وفتيان مصريان من رؤساء الحرس الخاص المتناوب على خدمة الباب وولاية الحجاب .

فانفتح الحديث بين وزيرى فرعون وما فتحه إلا كتاب ملك العجم . فسأل فانيس صاحبه قائلاً : ما عندك لقمبيز من الجواب يا لاجوس . قال : عندى للقوة الغاشمة من الجواب أنها يا فانيس تجاب . قال : تجاب .. وكرامة الملك أين تجعلها أيها المشير ؟

قال : أصونها عن أن يجيب قمبيز رغمًا كارها . وفى الإمكان أن يجيبه راضيا مختاراً . والملك أدرى أن الإقدام يكون على قدر المسئولية . وأن الجيش المصرى قد صار من الاختلاط والاختلال . وقلة العديد والمال . بحيث يخشى عليه من الحرب على كل حال . فإذا نحن عرضناه لقمبيز وجنوده تكون الصدمة هائلة وتكون مسئولية الملك أشد هولا .

قال : إنك يا لاجوس تهيننى بهذا الكلام . من حيث تطعن على الجيش الذى أنا قائده العام . لكنك تتطفل بما تقول فأنا أمهد عذرك وأشتهى على الحوادث أن تقضى بجنود الملك إلى ساحة القتال فإنها نعم نقاد الجند والقواد . والآن هب أن عساكرنا لا تقوى على قمبيز وكتائبه ، وأن ذلك يضطر الملك إلى الإذعان لإشارة طاغية الفرس ، فهل فى يمينك ميثاق من جد الأميرة أنه يوافق على إلقاء حفيدته بين ذراعى وحش العجم . وبوليقراط كما عهدت ملك رقيق القلب لطيف الإحساس آخذ بأوفى نصيب من حضارة قومه . ونعيم بلاده . يكره عذاب الأنفس بالطبع ويأباه . ويحب هناء العيش لذوى قرباه . فلو خير بين أن يسلم الفتاة إلى زعيم المتوحشين على فخامة شأنه . وكثرة ممالكه وبلاده . وبين أن يدفعها إلى صعلوك مصرى . أو سوقة يونانى . ما اختار إلا أحد هذين ولو كلفه ذلك ما كلفه .

قال نعم صدقت يا فانيس . ولكن فاتك أن الحوادث تحكم فى النفوس الأبية تتسامح كما تحكم النار فى الحديد فيلين . وأنها كثيرا ما تعلو فوق علياء الكبراء . تنزلهم عن صهوة الكبرياء . وإنى لا أظن الملك بوليقراط يضرب على يد صهره . و يكون مع الحوادث عليه فى مرتبك أمره . لا سيما إذا أدرك أن عاقبة الرفض وخيمة على بيت فرعون . فهو إن يكن أمازيس عموده فالملكة وابنتها طنباه . فلا بد إذن للجد ن يرضى بكل ما يرضاه الوالد سواء فتح الحرب العوان . أو جنح إلى السلم على ا فيها من هوان .

قال : هذا من صواب القول أيها المشير . ولكنا أغفلنا أمرا ما كان ليغفل . أهملنا شأنا حقيقًا أن لا يهمل .

قال : وما ذاك ؟

قال : تخبير الأميرة . فهى إما أن تجيب . فتقطع جهيزة قول كل خطيب .

وإما أن تأبى وتصر . وما عليها إن فعلت من حرج . فرفيع مقامها وشديد حب أبويها لها . وأحكام مصر وشرائع اليونان والحقوق الفطرية لا شىء من ذلك رهقها عسرا . بل كل مبلغها عذرًا . أن ترد زواجا لا ترضاه .

قال : لا أخالها ترد خطبة قمبيز والأنوثة والإمارة فيها من لوازمها فى الغالب الأنانية والخيلاء وكلتا الصفتين مما يزين للأميرة فضل الاقتران بصاحب الملك الجسيم والسبق إلى هذا الفوز العظيم .

قال فانيس : (وقد حوّل ناظريه إلى أحد الفتيين ، وهو تيمان ، يلحظه شزرًا) هذا أيها المشير إن خلت القلوب من الداء . وسلمت بالعقول رءوس النساء . وإلا كان صاحب الملك الجسيم . هو من إليه يميل الفؤاد وبه يهيم . ولو كان شخص الضعة والسفالة . ومثال الدناءة والخسة والنذالة .

وكان الفتى مستجمعا يقظا ينظر ويسمع فتقدم خطوات وخاطب كبير الحرس سائلاً : إن الجندى البطل إذا خاصم كان مبينًا فى الخصام . يتكشف ثم ينذر ثم يأتى

غريمه وجها لوجه كما يلقى القرن المكافح صدراً لصدر . وأنت يا سيدى القائد العام لك زمان تذيقنى الجفاء فى الخفاء . وتهيننى بخفى النظر تارة وطورا بخفى الكلام . فأنا إما واهم أثم الظن فكلمة منك تخرجنى من وهمى ولك الشكر . وإما محق كريم الفراسة . وأنت حقيقة تشكو من أمر صدر عنى أو خليقة ساءتك منى . فالبلاد بقضاة وأحكام . فإن أبيت فالملك خير من يتحاكم إليه الأخصام . وإن أبيت فكلانا حامل حسام . وما يحمله سدى والسلام .

وكان فانيس يتكلف الابتسام . ويتظاهر باستغراب الأمر والاندهاش من هذا الكلام . حتى استتم الغلام . فلم يزده فى الجواب على أن تبسم قائلاً : بل أنت واهم يا تيمان .

قال : إذن فهذا جناه الوهم على اليقين عندى كما جنى الظاهر عندك على الباطن وما بيننا يا مولاى من ثأر فأصر على ما أنا فيه أو تغير أنت ما بنفسك بل لم يبق إلا العذر وهو عندك مقبول . قال : عذرك مقبول يا تيمان وما زلت منى بأسمى منازل الكرامة . ثم إنه مد يده إلى الفتى يريد أن يصافحه فأخذها تيمان فقبلها ثم انحنى فى حضرة الوزيرين وهو يرجع القهقرى حتى بلغ إلى حيث كان واقفًا فوقف .

ولم تكن هذه الحادثة لتفوت على الوزير السياسى فلقد دهش لما رأى وسمع وإن يكن عنده من الخبر نصفه الذى لا يستحيل معه على رجل سياسة مثله أن يتنبأ بنصفه الآخر .

وفى الحقيقة كان لاجوس قد عرف من عينى صاحبه لأول وهلة أنه يحب الأميرة ويؤثر أن تبقى فى القصر إلى الأبد . فهناك إن لم تكن له فعلى الأقل لا تكون لأحد . وإذا كان تيمان من رونق الحسن وغضاضة الشباب . بحيث تتطلع إليه الألباب . من خلف سترها والحجاب . فلا يبعد أن يكون فانيس قد أخذ على الأميرة فى بعض لحظها . أو بنى على بادرة من بوادر لفظها . أن الحارس قد شغفها حبًا . فلم يدع لها فؤاداً يعرف فانيس ولا لبًا . فكان ذلك داعيًا إلى دبيب الحقد فى قلبه لتيمان .

هذا ما قام بخاطر لاجوس تلقاء هذه الحادثة . وانكشف لبصيرته من بواطن تلك الحادثة . ولكنه ادخر لنفسه فراستها ولزم جانب الحياد التام فلم يدخل فى الحديث ولا سأل عن الأمر كأن لم يكن له بالاً .

وفى هذه الاثناء تراءى شخص الملك مقبلاً من مقاصيره الخاصة وهو مستعجل الخطو مضطرب المشية يفيض وجهه من الكآبة وتتقد عيناه من الغضب فانحنى الوزيران فى طريقه ريثما مر ثم تبعاه حتى جاء نافذة فوقف ينظر إلى الفضاء . وكأنما يشكو بثه وحزنه إلى السماء . والوزيران بين يديه على قدم الإجلال حتى إذا سكن جأشه بعض الشيء التفت فقال :

– إن الأميرة ترفض كل الرفض ما زينت لها أنا والملكة من وجوب مجاملة قمبيز والرضا به بعلاً ، وتتهددنا أن تركب عار العقوق إذا نحن أوسعناها معالجة وضغطا .

قال لاجوس ، وقد أفزّته عبارة الملك كما تفز بغتات الحوادث عظماء رجال الأمور:

– قد كان يا مولاى ما خفنا أن يكون . فقد كنا نخوض فى هذا الحديث قبيل التشرف بأنوارك فما زلنا نقلب الأمر على كافة وجوهه ونحوله إلى جميع مصارفه . فلم نخش عليه من شيء يحل عقد نظامه . أو يقف بسياسته فى طريق إتمامه . إلا أن تتمتع الكريمة الفخيمة . فتوقع الملك والملكة فى حيرة عظيمة. قال : فما العمل الآن يا لاجوس؟ قال: هل يأمر مولاى أن تخرج الأميرة إلينا لعلى أن أغلبها على امتناعها، أو أوفق فى حضرة الملك لإقناعها . قال : ليكن ذاك . ثم أشار لتيمان أن يدنو فدنا . فقال له : امضِ فقل للأميرة إنى آمرها أن تخرج إلىَّ الساعة . قال : سمعًا وطاعة يا مولاى . وانثنى للحين يقصد أبواب الحرم .

وفى هذه الهنيهة دخل فانيس فى الحديث فقال للملك : لا أنكر يا مولاى أن سياسة صاحبى لاجوس هى من أحسن ما تبلغ إليه مرامى الرجال . فى مثل ما نحن فيه من الحال . بل هى أمضى سلاح يتقلده السياسى الحكيم . ولكنها تلقاء القوة القاهرة ترفعنا من جهة أخرى إلى خطر حرى بالنظر والملافاة . قال : وما ذاك ؟ .

قال : إن فارس لا تزال تهاب مصر فى ماضيها كما أصبحت مصر تهابها فى حاضرها . ولولا هذه المهابة لنا فى نفوس العجم ما عاش كيروش حتى الممات يظهر ودك . ويرعى عهدك . بعد أن اغتصب بابل بحد الحسام . وتغلب على بلاد الشام . وضرب الخراج على ملوكها العظام . ولولا انتقال هذا الشعور نفسه من الملك الهالك بالأمس إلى ابنه القائم اليوم لما احتاج إلى إنفاذ كتاب مثل الذى بأيدينا منه يريد أن يبلو مجستك . ليعرف حاليك ضعفك أو قوتك . ونحن يا مولاى لم ننزل بعد إلى حفر الأجداث حتى ندع ضج العجم ينبش علينا القبور . ويفتك فى جماجمنا الأبية قبل فتك الظبى والنسور . هذا فإن كان ولا بد من مداراة القوى لأجل قوته . والرقص لقرد السوء فى دولته . فلا أقل يا مولاى من سلوك نهج يكفل لنا السلامة ، وتخرج المملكة منه ببعض العز والكرامة . وذلك أن نتحفظ من الابتذال . وتظهر لقمبير بادئ بدء فى تيه التمتع وعز المطال . وبهذا نتبين صدق حالة من كذبها . ونعرف الأمر إن كان من جد الحوادث أو لعبها . ثم يكون لنا من الوقت ما يمكن السياسة أن تدبر لها أمراً . والجيش أن يأخذ أهبته كذلك . وبالجملة نكون على قدم الاستعداد للطوارق . قال الملك: سننظر فى هذا يا فانيس . وكانت « فتنت » ، وهو اسم الأميرة . وقد أقبلت تخطر كأنها الغصن المياس ، فوقفت مطرقة تقلب كفيها . ودلائل الكآبة بادية عليها . فابتدرها الملك بالسؤال قائلاً : ما بال أعز البنات مكتئبة ؟ مالى أراك متغيرة يا فتنت ؟ أين شيمتك البشاشة والبشرة ؟

قالت : كيف السبيل للكآبة على ورأسك العزيز فى الدنيا يا مولاى ؟ وإنما أقلقتنى إشارتك إلىّ بالحضور فى هذه الساعة . وأنت كما أراك بين هؤلاء الجماعة . فأشفقت لأول وهلة عليك . وتوهمت طرق أمر ذى بال .

الملك : لا بأس عليك يا أعز البنات . إن أباك بخير . وإنى ما طلبتك إلا لأمر فيه خير لك وسلامة لملك أبيك وصيانة للوطن العزيز .

فتنت : مر يا مولاى إنى سميعة مطيعة . الملك : لا أظنك إلا قد بلغك الخبر برمته . أو طرف من جملته . ولو لم نكاشفك به إلى الآن إذ ما أسرع ما تذاع الأسرار فى قصور الملوك . وما أعجل ما تصل إليكن معشر البنات دخائل البيوت .

فتنت : وما هو ذلك الخبر يا مولاى ؟

الملك : إنك قد خطبت أيتها الأميرة . وغدا أقول الملكة الخطيرة : خطبك من سبحين بقربه مالكة الممالك . وتصبح الشمس العالية دونك فى أحوالك .

فتنت : ومن ذاك يامولاى ؟

الملك : قمبيز صاحب الوقت .

فتنت : إنك يا مولاى تداجى على ابنتك ولولا الأدب قلت تغالطها . وهذا لا يصدر أضعف الآباء فكيف من ملك بمكانتك بين الملوك العظماء .

الملك : أرى الغضب أدناك إلى الوقاحة وهى توقعك من حيث لا تشعرين فى عقوق . فحذار يا فتنت حذار . واذكرى أنك إنما تتهمين الأب فى سرائره وما يختار. وتانعين الملك فى مقاصده وما يريد . فتنت : عفوا يامولاى ، إن قمبيز وحش ضار . س له وإن افترس الناس جميعًا مقدار . وأنا أميرة يونانية مصرية . فلا تنتهى إلى المدنية . أبى أمازيس منار البر . وجدى بوليقراط منار البحر . وكلاهما خير ك لخير أمه أخرجت للناس . فبأى قلب تدفعنى إلى رجل وحشى الخلقة والأخلاق . ى شأن رأيت لهذا الحيوان المفترس حتى اخترته قرينا لوحيدتك . أفتوحاته الوهمية . انتصاراته الخيالية . أم سيرته البربرية . ليس هذا من الشأن العظيم فى شىء مولاى . فكم قبل قمبيز من ذئب عاد . أقلق البلاد والعباد . ثم وقع فى أحبولة صطاد . مولاى إن السباع كثيرة وابنتك لا تعصى لك أمرًا . فإن كان ولا بد من لكى فألقنى إلى من يفرسنى مرة ولا تلقنى إلى من يفرسنى مرارًا .

وهنا خان الدمع الفناة فترامت على قدمى والدها تقبلهما مسترحمة مستجيرة . شار الملك للاجوس فتقدم فأنهضها ثم تولى بها إلى جانب فسكن جأشها . وهدأ عها . وبالغ فى الملاطفة لها . وأقبل فانيس على الملك يقول له بصوت مخفوض :

« قد رأيت يا مولاى أن لا حيلة فى هذه الكبرياء . وأن الأميرة مصممة على متناع . بحيث لا يكون من تشبثك بما أنت فيه إلا واحد من خطرين . والعقوق وهو

من بنات الملوك سبة تنتقل أخبارها . وفضيحة يخاف اشتهارها . أو قتل نفس الأميرة وهذا لا ينبغى لأب رحيم . وملك بصفات مولانا عادل كريم » .

الملك : إن فتنت جاهلة مغرورة يا فانيس وإنك تبالغ فى جسامة الخطب . وأنا لم أستثر كل عواطف الفتاة بعد . فدعنى أعالجها مرة أخرى لعلى أنجح فيما أحاول .

فانيس : شأنك وما تأمر يا مولاى .

فالتفت الملك إلى فتاته وهو يتبسم وقال :

– تعالى يا فتنت واحبسى دمع الطيرورة والطيش وخلى عنك المخاوف والوساوس . إن قمبيز فيما زعمت سيد القوم الهمجيين . وسلطان الأمم المتوحشين . إلا أنه ملك وابن ملك . وذو نسب فى الملوك عريق . فلن يكون بيته خلوا من دواعى الرفاه وأسباب السعادة . ثم هو أغض ملوك زمانه صبا وفتوة . وأنضرهم شبابًا . بصفة الناس . بالملاحة والصباحة والإيناس . فماذا تبتغين وراء ذلك . وما يضرك من همجية قوم إذا كانوا هم السعداء . لهم الأرض ومنهم الملوك والأمراء .

فتنت : ولكنهم يا مولاى لا يعدلون رعية أبى ولا قوم جدى . وأنا راغبة عن هذا القران . غير مطمئنة إلى هذا القرين . فادفع عنى سوء ما تجادلنى فيه . وإنى أسألك أن لا تزوجنى أبدًا .

فلما سمع الملك هذا الرد المهين . والرفض المبين . كاد الغضب يقذفه من فوق عرشه . إلا أنه استعمل الحزم . وتمسك بأذيال الحلم . فالتفت إلى الفتاة وقال :

– أنت يا فتنت فتاة هذا الملك وأميرة هذا الوطن تتقلبين فى الألذ الأطيب من نعم البلاد . وتأخذين بالنصيب الأكبر من ألقاب المملكة . ولكل شىء يا ابنتى ثمن . ولكل نعم زكاة من جنسها . فكما أن الفلاحة الحقيرة تقّرب للوطن من عيالها . وتغطيه من عمل ساعديها ومن مالها . نظير ما تأخذ من خيره وإحسانه . من عدله وأمانه كذلك أنتن بنات الملوك تأتى على الوطن أوقات تطلب له المساعدة . ويحق عليكم له الفداء .

فاعلمى أيتها الأميرة أن قمبيز وجنوده يتهددون مصر وأن مصر لا طاقة لها بهم اليوم . فلا بد والحالة هذه من مداراة ملك العجم والاحتيال على محالفته . وقد خطبك قمبيز فأصبحنا نأمل أن تنال مصر كتاب هذه المحالفة بجميل سفارتك لدى بعلك العظيم . فهلمى يا ابنة فرعون افتدى الوطن بقبولك . ثم حييه برضائك . وخلصيه بامتثالك . وانتشليه بوفاتك .

هلمى يا فتنت أنقذى ملك أبيك بغير عظيم خسارة فإنما تزفين إلى ملك عظيم . وزوج كريم . وعيش رغيد ونعيم وافر . وهناء مزيد .

فتنت : أنا يا مولاى من اليونانية . ما أنا من المصرية . لى جد ملك عظيم يسأل عن أمرى . وآخر القول عندى أنى لا أحمل هذا النير أو يحملنى جدى عليه .

فنزل جواب الفتاة كالصاعقة على هامة الملك . فأطرق برأسه طويلاً . كأن به وارًا ثقيلاً . فاستحضر أربعين عامًا فى لحظة واحدة لا يرى إلا حسابًا للظنون منحزمًا . وبنيانا للآمال منهدما . أو ثقة قد ضاعت على أمة اليونان من أول يوم . بالجملة نظر إلى شجر غرسه ووالاه . كيف أصبح يبلو المر من جناه .

وفى الواقع لم يبق فى نفس أماسيس ريب أن بيت مصر ليس إلا حجرة فى بيت ساموس . وأن عرشها ليس إلا جزء من عرش ساموس . وأن الملك زائل . وأن الساعة آتية لا ريب فيها . فانتبه من طويل غفلته . وهو مصر على صرف ميله ومقته من اليونان إلى أبناء بلاده . أصحاب الحق الطبيعى على فؤاده وقياده .

إلا أن فرعون أسرّها فى نفسه . وتجلد للحاضرين من أصحابه اليونان . فلم يزد على أن أشار للأميرة بالانصراف . فانصرفت آيبة بلعنة ممن قرن عبادته ببر الوالدين .

ثم التفت إلى أصحابه يسألهم : ما العمل أيها الصحب ؟

لاجوس : أما أنا يا مولاى فرأيى أن تسير إلى ملك العجم مرغمة أدبًا لها على عقوقها الصريح من جهة . وليعلم قمبيز من جهة أخرى أنك لم تضن بها عليه . وهى متى أبصرت جماله فى جلاله . ونظرت إلى حسن شبابه فى إقباله . تترك ما هى فيه الآن . وتضع يدها فى يده فرحة سعيدة بالقران .

فانيس : (مقاطعًا) إن قول الوزير هذا قد يعجبك الساعة وأنت يا مولاى غضبان مستشيطًا . ولكننا ما رأينا قط ملكًا أكره ابنته على زواج تفضل هى الموت عليه ولا سمعنا بملك سامح فى شمم نفسه فأراد امرأة لا تريده . فلئن رضيت يا مولاى أن تكون ذاك الصهر ، فإن قمبيز لن يرضى أن يكون هذا الزوج .

الملك : هذا أمر ينظر فيه بعد .

الكاهن الأعظم : وما لنا يا مولاى لا نستنبئ الآلهة عما يزعجنا من أمرنا فى ديارنا وأنفسنا . عسى أن ينفعنا سؤالهم أو نجد على هياكلهم هدى . على أن الأمر يا مولاى من الشئون العالية . التى لا يلجأ فيها إلا إلى رعايتهم السامية . كما هى أحكام الدين . وسنة الفراعنة الغابرين . وليس من مصرى من أى طبقة من طبقات الأمة إلا ويتهم الملك فى دينه . أو يعزو الضعف كل الضعف إلى يقينه . وقد آن يا مولاى أن تبرئ نفسك . وأن تعرف الآلهة كرامتهم . فإن الرعية لا تكون فى وقار الملك حتى يرجو لها الملك فى دينها وقارا . فإن جنحت يا مولاى إلى زيارة الأرباب . فأبواب المعبد مفتوحة لك بترحاب . ونحن معشر الكهنة ما زلنا أركان هذا البيت وعماده . وقوائم هذا العرش وأعضاده . نذكر للوكنا الحسنات . ونتجاوز لهم عن كثير من السيئات .

الملك : كل هذا أنا به محيط أيها الرئيس العزيز . بل أنا أعرف شعبى كما أعرف ابنى « أبساماطيق ». ولكن المصلحة الكبرى تضطرنى أحيانًا إلى إمهال المصالح الصغرى . ومخالقة العامة فى كثير من أهوائها المتطوحة وأميالها المتناهية . على أننى ذاهب يوم عيد الموتى إلى المعبد لأدعو له ساييس الأعظم فيما يحرجنى من أمر قمبيز .

اهن الأعظم : إن المعبد يا مولاى دارك . فليس بدعًا أن تشرق فيه أنوارك . والآن
توهب الإذن لأذهب فأبشر أصحابى بهذا الوعد الكريم .

الملك : ذلك لك .

فدعا الكاهن الأعظم للملك . وانطلق وعلى أثره سائر الجماعة ، واحدًا بعد
حد ، مستأذنين كذلك منصرفين .

الفصل الحادى عشر

الملك وحـــده

فلما خلا الملك إلى نفسه تصورت له وجوه الحال مغبرة كالحة وتمثل له الأمر كثير العقبات . مريب العواقب . خطيرا فى الداخل . جللا فى الخارج . يزيده حرجا وشدة قلة المعونة معه . وكثرة المواجد فيه . فأنى ذهب الفكر بالملك وجد حوله عداوات لا يدرى كيف يتقيها . ولا من أين يلتقيها . الفرس وما يضمرون . وأهل مصر الساخطون . والكهنة الحاقدون . واليونان المسلطون . وبنته العاقة وما فى أمرها حيلة . ولا إلى تأديبها وسيلة . إلى غير ذلك من مكاره الأمر وشدائده .

وأول ما بحث الملك فى نفسه عن رجل يكون الساعد والمساعد . والعون على جور الأدانى والأباعد . ينتقيه من مواضع ثقة الأمة ومحال ولائها واعتبارها . ليجعله رقيباً على فانيس فى إدارة شئون الجيش وتدبير مهام الدفاع . حتى إذا صلح لهذا الأمر قطبا . وصار القائد الكافل سلما وحربًا . عزل الوزير اليونانى وولاه مكانه إلا أنه لم ير من الحزم مفاجأة فانيس بهذا التحول السريع من الثقة العمياء إلى سوء الظن وإعلان العداء .

ولقد جدد الموقف ذكر تيمان فى بال الملك . فتذكر حسن سيرته فى الجيش . وجليل سوابقه فى خدمة القصر . ووجاهته عند الشعب منذ حرب قبرص . وما أظهر فيها من ثبات ضربت به الأمثال . وبسالة قصر عنها الأبطال . وهو يومئذ حدث لم يدخل فى صف الرجال . ففكر الملك بادئ بدء فى وظيفة يسندها إلى تيمان . يكون فيها عند أعلى الدرج . ليس بينه وبين قيادة الجيش العامة إلا وثبة . فصمم على أن

يعهد إليه قيادة الفرق السلطانية فى منفيس العاصمة الصغرى للمملكة . وأن يعين قائد منفيس اليونانى حارساً للملكة اليونانية وابنتها الأميرة . اللتين بلغ به السخط عليهما إلى الرغبة فى نقلهما إلى نقراطيس لتقيما فى قصره الفاخر بها . بعيدتين عن عينه بقدر بعدهما عن قلبه .

وبالواقع استدعى الملك على الفور الحارس تيمان . فلما مثل بين يديه كاشفه بنيته . ثم ما زال به حتى أقنعه بأن الأخطار وهى تتوعد المملكة من الداخل وتهددها من الخارج توجب عليه النهوض بالمنصب الخطير الذى يرشحه له . وأنه مرسله إلى منفيس لمحو نفوذ اليونان منها . وتقليص ظل سلطتهم عنها . فلم يسع الفتى إلا القبول مقرونا بشكر الملك على هذه الثقة العظيمة .

ثم إن أماسيس دنا من تيمان وقال له : لا يمض أسبوع يا تيمان حتى يكون سيفى على رقاب أعدائى فى منفيس . أما خلفك فيها فلا أشك فى أنه سيبتهج بالوظيفة الجديدة التى اخترتها له لأنى عاشرت اليونان وصادقتهم أكثر من ثلاثين سنة . فعلمت أنهم يحبون الأبهة والظهور . ويلذ لهم العيش فى ظل شاهقة القصور . وليس أوسع من قصر نقراطيس فليذهب إليه غير رجع . والآن أكلفك يا تيمان أن تتوجه الليلة إلى القصر القديم فتسر إلى إحيا أننى قادم عليه منكر الهيئة فى خلال هذا الأسبوع لأكلم الأميرة على خلوة فى شأن هام . فلا تفجأه زيارتى وليبذل الجهد فى كتمانها عن الجند هناك . وليكن الباب السرى الذى عنده مفتاحه مهيأ لى أدخل منه حين أشاء . قال الفتى : سمعًا وطاعة . ثم أذن الملك له فى الانصراف فخرج وهو يكاد يسقط مغشيًا عليه من ذكرى حديث الملك وما تضمنه من الرغبة فى إبعاده عن ساييس أولاً واحتيال أماسيس على زيارة دل ثانيا . فما زال يجهد الفكر فى التماس سبب يبنى عليه هذه الزيارة فلا يجد لها مبنى ولا معنى . هل يريد الملك بذلك أن يجنى على حياة الأميرة . كلا إنها لا خطر من جانبها فيخشى من بقائها على قيد الحياة . هل أصبح أماسيس مشغوفًا بدل ؟ هذا أمر بعيد الاحتمال فإن للملك شئونا من الأهمية بمكان

وأيسرها يلهيه عن لعب العشق وسفاه الغرام . هذا فضلا عن تقدمه فى السن وظهور دلائل الضعف عليه . فهل للسياسة علاقة بهذه الزيارة ؟ .

كلا إذ ما للأميرة وللسياسة . وهى طفلة ناعمة بلهاء تكاد تجهل كيف ولدت وكيف نشأت ؟ إذن فما مراد الملك من الزيارة : ولماذا يحاول كتمانها . وما ذلك الباب السرى الذى مفتاحه عند إحيا وحده . وكيف بلغ من ارتفاع الكلفة بين الملك والبستانى أن يستخدمه فى جمعه بفتاة عذراء ليكلمها على خلوة ؟ كان تيمان يلقى على نفسه كل هذه الأسئلة فتنكل عن الجواب فى جميعها حتى كادت الهواجس تطير بلبه . إلا أنه تصبر ورأى الحزم أن يثق بعفاف الملك الشيخ ورجاحة عقله . حيث ذهب به الظن فى آخر الأمر إلى أن أماسيس ربما أراد بهذه الزيارة أن يعترف لفتاة السجن بجنايته وأن يستعطفها وهو يدنو من الأجل لعلها تدعو الآلهة ليغفروا له ذنبه العظيم .

الفصل الثانى عشر

تيمان فى القصر القديم

فلما كان الليل خرج تيمان تحت مدارع الظلماء قاصداً القصر القديم ليؤدى الرسالة الملوكية فذكر فى الطريق أن الليلة من ليالى أستاذه التى تجب له الزيارة فيها وأنه لا بأس فى أداء هذا الواجب قبل الذهاب إلى إحيا وتبليغه مقالة الملك .

ومما قوى عند الفتى الرغبة فى إيثار شيخه على إحيا بتقديم الزيارة ارتباكه فى أمره وتحيره كيف يقابل البستانى بدون أن يشعر أحد بمجيئه إلى القصر أو يسمع بحديثه مع إحيا كما هو أمر الملك .

وإذ كان الروح هو لتيمان مرجع وإليه المشتكى والمفزع قدم زيارته وهو يرجو أن سيجد الهدى على هيكله المقدّس . فأقام من فوره الجواد فى أقصر الطرق نحو ناحية الهر الهائم حتى بلغها فاجتازها إلى منزله . وهنالك نزل عن الفرس ثم دخل فأشعل المصباح وليس للعبادة لباسه الذى تقدم ذكره .

حتى إذا استقبل الستار كالعادة ترنم بتلك الدعوات ثم أردفها بهذه الكلمات وهى :

« شيخى لقد حرت والهدى هداك . فإن لم تكن لى فمن لى سواك ؟ أرشدنى كيف أدخل القصر وحدى وكيف أجد إحيا وحده لأبلغه مراد الملك وقصده ... » .

فقاطعه الصوت يقول :

« أهلا بالحيران القاصد . لا المشتاق العابد . ومرحبا بالزائر وفى نفسه حاجات . لا المطيف الراغب فى المفاجأة . تيمان اسمع وع . من صدق مشى على الماء. ومن أخلص رأى بعين السماء . ومن كان الوفاء سبيله . لا يعدم الحيلة ولا يخطئ الوسيلة . وقد كلفك الملك ما تستطيع . فكن الرسول الأمين المطيع . وامض فيما به أمرت . ومن أجله سرت . فالرأى عند العمل والحاجة أم الحيل . والضرورة مفتاح مغالق التدبير . والصدق ينير لك الدياجير . والإقدام يذلل الأمر العسير .. » .

ثم انقطع الصوت فبرح الفتى حجرة الهيكل وهو لم يأخذ من الروح جواباً يرجع فى التدبير إليه . أو يعتمد فى العمل عليه . فخرج هائمًا على وجهه . ينهب الأرض والفكر ينهبه إلى أن اقترب من القصر القديم فترجل ثم نظر حوله فرأى شجرة ملتفة الأغصان . متكاثفة الأفنان . ثم ربطه لديها . وتركه بعد ذلك ومشى نحو القصر . حتى دخل فى ظل جدرانه العالية فساق الجواد إليها فجعل يطيف بها وقد سهل له الإقدام تسلقها . لو أيقن أن ذلك يوصله إلى إحيا بدون أن يدرى أحد به أو يسمع بحديثه مع البستانى .

فبينما هو كذلك تطوف به القدم مرة ويطوف به الفكر ألف مرة لمح شبح إنسان يقترب من جدار خلف القصر وكأنما يحاول أن ينفذ منه . فتبعه تيمان مواريًا عنه عيانه وهو لا يحققه لبعده عنه من جهة ولحيلولة الظلام بينهما من جهة أخرى .

ثم لم يكن من ذلك الشبح الطائف إلا أن نقل حجرًا عظيمًا من حجارة الأساس فانفتح له مدخل فدخل وتيمان على أثره . فما زال يمشى فى سرداب مظلم ضيق طويل حتى بلغ إلى آخره فرفع بكلتا يديه حجرًا مثل الأول فتهيأه مخرجًا فخرج فصار فوق ظهر الأرض . وتخلف تيمان فلم يحذ حذوه فى الخروج بل اكتفى بأن رفع عينيه ليخبر الحال وإذا آخر السرداب أول الغرف الخاصة برئيس المخفر. ثم إذا هو برجلين يتهاديان تحية اللقاء . فحققهما فعرفهما كليهما . وإذا أحدهما رئيس المخفر نفسه وهو ذلك اليونانى الذى خلف تيمان على حراسة القصر والآخر الأمير جادى ابن شيخ العرب منجاب زعيم القبائل الموالية على الحدود . وكان الملك قد طلبه من أبيه فرباه فى ساييس بنعمته ثم ألحقه بمعية ولى عهده فأصبح من حجابه المقربين .

فاندهش تيمان من رؤيته بتلك الحال . إذ لم يكن يعلم عليه السوء ولا يعهده إلا من صفوة المخلصين لولى العهد الساعين فى نجاح العنصر الوطنى وفلاحه . ثم إن الفتى أنصت يستمع للرجلين فسمع جادى يقول لليونانى :

« إن الرئيس فانيس يأمرك أن تسهل لتيمان الدخول فى القصر والخروج وأن تتعامى كلما احتال على مقابلة الأميرة . لأن من مصلحة اليونان أن تصبح دل شغل تيمان الشاغل حتى إذا قيده الغزام بقيوده الحديدية صار من السهل إذلاله والفتك به عند الحاجة .

فأجابه اليونانى وهو يتبسم : ومن مصلحة الرئيس فانيس كذلك أن يخلو له وجه فتنت إذا اشتغل تيمان عنها بسواها . مساكين أهل العشق وأعذرهم المحب غير المحبوب .

جادى : هذا شأن الرئيس وهو من خصوصياته التى يتصرف فيها كيف يشاء. والآن أبلغك عنه أيضًا أن تسهر على البستانى إحيا فتتعرف أخباره وأحواله وتحيط بجميع حركاته وسكناته وأن تعرض للرئيس كل ذلك فى حينه . فأجاب اليونانى : سمعًا وطاعة . ثم انتقل الرجلان من هذا الحديث إلى غيره مما لا يهم تيمان ولا يفيده : فرأى الفتى أن ينقلب آيبًا قبل أن يباغته جادى . فانثنى يحبو فى السرداب . وبينما هو ينسل منه احتكت رجله بأوراق فظن بادئ بدء أنها قد سقطت منه فى أثناء مروره فأخذها وجعلها فى صدره . ثم استمر فى خروجه حتى اجتاز النفق فصار خارج القصر كما كان فرفع عينيه ينظر وإذا هو بإنسان قائم لدى الحجر وكأنما ينتظر خروجه . فأجفل الفتى لأول وهلة ثم هم باغتيال ذلك المتربص فاقترب الرجل منه وقال له وهو يخفض من صوته :

– إن كان لك ثأر عند إحيا فتعال بنا يا سيدى تيمان نتوارى ريثما يخرج ذلك الجاسوس الأحمق .

تيمان : أنت هنا يا إحيا ترى وتسمع .

إحيا : نعم يا مولاى . ولكنك رأيت ما لم أر وسمعت ما لم أسمع . فلعلك وقفت على أمور ذات بال .

تيمان وهو يتبسم : وأهمها ما له علاقة بشخصك يا إحيا .

إحيا : شخصى : وما لهم ولبستانى حقير مثلى .

تيمان : كفى مغالطة يا والدى إحيا . واعلم أن رجلا يبعث الملك إليه الرسائل وينفذ الرسل لا بد أن يحسب الأعداء حسابه .

إحيا : أى رسائل وأى رسل يا مولاى . وهل بلغ من شأنى ؟ . إنك مازح يا سيدى تيمان أو أنت تسخر من إحيا .

تيمان : بل أنا أحد أولئك الرسل . وما يدرينى أننى لست أولهم ولا آخرهم .
إحيا : وما تريد منى وفيم أرسلك الملك ؟

تيمان : كلفنى الملك أن أبلغك أنه يزورك فى خلال هذا الأسبوع . وهو يأمرك أن تجمعه بالأميرة بدون أن يشعر أحد من ناس القصر بمقابلته لها .

إحيا : ما أيسر ما طلب الملك . فارفع إليه أن الإشارة بلغت إلىَّ وأننى سأمضيها بالأمانة والطاعة . والآن قل لى يا مولاى ماذا يهم جادى ورئيس المخفر من أمرى ؟

تيمان : بل أمرك يهم الرئيس فانيس . وهما إنما يعملان بإشارته ويجتهدان فى خدمته . فكن على حذر من اليونانى . واعلم أنه مأمور أن يحصى عليك حركاتك وسكناتك .

إحيا وهو يبتسم ضاحكا : ومن أمره . أذلك العربى اللئيم وأنا لو شئت الآن لأضللته فى سراديب ولا يخرج منها حتى اليوم الآخر . أم فانيس وأنا لو شئت لألبت

عليه خطوبًا لا طاقة له بها . ولكنى أنظر إليهما عن صبيين يلعبان لعبة الاستخفاء أضحك منهما مرة واستهزئ بهما أخرى .

تيمان : أنت إذن رجل ذو شأن يا إحيا .

البستانى : لعلك أحد أبناء الملوك يا سيدى تيمان فإن فيك كثيرًا من أخلاقهم التى هذا منها . فلقد عهدتهم لا يعرفون مقدارًا لأحد من الناس .

تيمان وهو يتنفس الصعداء : ليتنى أحد أبناء الصعاليك يا إحيا فأعرف على الأقل والدى . لكنى أجهل نسبى ولا أدرى من أبى . فتحت العين على وجه شيخى الموقر ثم لم أعرف لى من عائلة سواه . وطالما وعدنى حيا ولا يزال روحه المقدس يجدد لى الوعود بكشف اللثام عن سرى الخفى .

إحيا : إذن فعليك أن تصبر وأن تدأب فيما تتطلع إليه من العظائم . وهنالك تنظر فإن كان النسب وضيعًا قلت « هـا أنا ذا » . وإن كان رفيعًا قيل « عظيم من عظيم وكريم للوجود من كريم » . فهل ترى أن الشيخ أخطأ الصواب حيًا أو جاوزت مرائيه الحكمة ميتًا ؟

تيمان : لعلكما كليكما على الحق فى أمرى والآن ..

إحيا : الآن تمسك عن الكلام لأنى أرى كلب العرب يخرج رأسه فسكت تيمان، والتصق الرجلان بالجدار يستتران وإذا هما بجادى قد خرج من النفق ناشطًا خفى الدبيب فأعاد الحجر إلى مكانه فامتزج بالجدار كما كان . ثم انطلق يعدو وكأنه النسيم خفة وسرعة .

وعند ذلك التفت تيمان إلى البستانى وقال : الآن أسألك يا والدى إحيا أن تذكرنى عند الأميرة . وأن تجعل عرضك وقى لعرضها الطاهر . وشيخوختك فداءً لشبابها الناضر . وإنى لواثق من حنانك ووفائك بقدر ما أنا ممتلئ اليدين ثقة من كرم الملك وعفافه . هذا رجائى إليك يا إحيا . وقد بلغتك الرسالة الملوكية فها أنا مودعك وذاهب .

إحيا : فى حفظ الآلهة يا بنى أنت ومن تحب .

الفصل الثالث عشر

تيمان فى أثر جادى

زين حب الاستطلاع لتيمان أن يقتفى أثر جادى فى تلك الليلة الدهماء . ولقد كان وهو يحادث إحيا يتقصى النظر ليرى أى طريق يسلك العربى . فلما ودع البستانى وانطلق عمد توًا إلى مربط الفرس تحت الشجرة . وكانت فى الطريق التى سلكها جادى وإذا بالقرب منها شجرة أخرى وقد صدر عنها العربى ممتطيا جواداً . فارتقب تيمان ريثما ابتعد ثم ركب هو أيضًا جواده وسار خلف جادى يقتضى أثره .

لكنه ما لبث أن استشعر تغيراً فى مشية الجواد وحجمه فحققه فى الظلام فإذا هو حقيقة قد تبدل . فأدرك الفتى على الفور أن جادى قد غلط فى الشجرة فأخذ جواد تيمان كما أخطأ هو شجرته فأخذ جواد العربى .

وبينما هو فى التأمل والعجب من هذا الاتفاق افتقد جادى فلم ير له فى الظلام شبحًا ولا خيالاً . فعلم أن عينيه قد ضلتا أثره وأن البحث عنه تحت سماء الليل تعب بلا فائدة . فصمم على الأوبة مكتفيًا بما شاهد فى تلك الليلة من الأمور الغريبة والأسرار العجيبة . وعندئذ جذب بعنان الجواد يريد أن يقيمه فى الطريق نحو القصر السلطانى وإذا بالجواد عصى العنان يأبى إلا أن يسلك طريقًا آخر . فلم يجد تيمان من بأس فى مطاوعة الحيوان على سلوك ما اعتاد من الطرق وانتياب ما ألف من المحال . فأرخى عنانه ثم ركضه فجرى ينتجع به دروبًا لم يسبق له المسير عليها . إلى أن وقف به على باب دار شاهقة البنيان وهى تملك الفضاء من كل الجهات وكأنها معمورة من جانب واحد كانت أنوار المصابيح تنبعث منه ولا تتعداه إلى سواه من

أرجاء الدار الوسيعة . فداخل تيمان الريب من أمر هذا المكان خصوصًا إذ كان الجواد ينجذب إليه كما تجذب الدواب مرابطها فأبى على نفسه أن لا يبرحه إلا وهو قد اطلع على طرف مما يجرى فيه من الحوادث ويقع من الأحوال . فنزل من فوره عن صهوة الجواد ثم رجع به قسرا مسيرة بضع دقائق إلى أن صادف فى طريقه مكانًا خربًا انهار منه جداران وبقى الآخران قائمين فعمد لأحدهما فاتخذ عنده مربطًا للفرس ثم انثنى متوجهًا وجهة القصر وهو خفيف الخطو من حذار ورقبة حتى اقترب منه فشرع يطيف به كل جهة لعله يهتدى لمنفذ يلج منه أو يجد سلمًا يطلع القصر عليه .

وبينما تيمان فى مرتبك أمره سمع نقل أقدام ولمح زمرة تتقدم فى الظلام فاختبأ عند ركن جدار وتربص هنالك يتقصى النظر ليرى فإذا بالشرذمة تقترب من الدار ثم إذا بها تتقدم نحو الباب حتى صارت بمرأى من تيمان ومسمع فحققها فى الظلام واحدًا ثم واحدًا فعرف أكثر القادمين وإذا هم جميعًا من الرؤساء اليونانيين فى الجيش وهم ثملون يميد بهم السكر . ولقد كان تيمان دهشًا إذ رأى مع القوم اثنتين من قرينات الملكة وخادمات الملك الخاصات بقصره المأمونات على سره وكانتا كلتاهما يونانيتين كذلك فحين رآهما الفتى على تلك الحالة من السكر والانطراح بين سواعد الأعداء كاد ينصعق من شدة الحزن إلا أنه تجلد وأنصت لما يجرى بينهم من الحديث حال دخولهم الدار فسمع فانيس يقول :

– كيف سبقنا جادى وكيف قطع المسافات من قصر ولى العهد إلى القصر القديم إلى نادينا فى مثل هذه البرهة القليلة . حقًا إنه لعربى وإنه لأخف من النسيم . فأجابه آخر :

– لا عجب بالأمر فقد وجدنا جواده بالمربط يكاد يسبح فى عرقه ويختنق بأنفاسه المترددة السريعة :

فقالت إحدى الفتاتين :

– أما أنا فلا يهمنى إلا شىء واحد وذلك أن حبيب القلب حاضر وأنى سأجده فى أعلى السلم بانتظارى ..

قال فانيس بلسان تعقده بنت الدنان :

– ما أوفر حظك أيتها الفتاة السعيدة . فيا ليتنى أملك من فتنت ما يملك «جادى» منك . فلا والآلهـة الذين أعطـونى مـلك أمازيس أتصرف فيه ما حسدت فى عمرى إلا محبًا يحبه محبـوبه ، وإن همـا لم يتلاقيا مـرة ، فكيف إذا اجتمعت لهما النعمتان من هوى مشترك وتدان .

قال ثالث :

– لن تنالهما يا فانيس حتى يهلك الندل تيمان ..

ثم انقطعت الأصوات واحتجبت الأشباح واحتوت الجميع الدار .. فوقف تيمان حيران لا يدرى مـا يصنع للتوصل إلى حـضـور هذا المجلس الذى كله أسرار تهم المملكة . وتذكر الخطر الذى هو فيه من إمكان حضور جادى على أمر أصحابه ووجدانه الفرس بالمربط كما وجـدوه هم قبله . وعندئذ يعلم الجميع من وجود الجواد بلا فارس أن سارقه جاسوس لا محالة وأنه مختبئ على المكـان فيبحثون عنـه جهـدهم .. فإن لم يجدوه فى الليل عرفوه فى الصبح بجواده ذلك الجواد الذى أخذه جادى غلطًا .

فأراد تيمان أن يكون بطل الليلة والظافر الحقيقى فيها فاكتفى بما بلغ إليه علمه من أحوال القوم وما وقعت عليه يده من مكاتيب أحدهم ، وهو الملف الذى سـقط من جادى فى السرداب وعثر هو مصادفة عليه ، فعمد من فوره إلى مربط الفرس لدى الجدار فحل وثاقه ثم مشى به يتولى إلى ناحية لا تراه الأعين عليها وهنالك أقام يرمى بالبصر ويتقصى النظر فلم تكن برهة قليلة حتى أخذت عيناه شبح فارس يقبل فى الظلام وهو يقصد نحو المربط المعهود حتى بلغه وهنـالك نزل عن جواده ثم أوثقه ومضى عجلا إلى أصحابه بالدار . فأمهله تيمان ريثما ابتعد قليلاً ثم رجع بالجواد الى المربط مسرعًا وهنالك نظره وإذا الفرس الذى تركه الفارس به وسار هو بفرسه فاستبشر بذلك وسر كثيراً . ولم يبق فى نفسه شك أن ذلك الفارس هو جادى وأنه إنما حضر ليجتمع بأصحابه اليونان . وحينئذ امتطى تيمان جواده الكريم وخرج من معترك تلك الحوادث سالمًا به .

هذا حديث تيمان ونحن ندعه الآن يسير عائداً إلى المدينة ليتدارك بقية الليل بالنوم فيها آمناً مطمئناً . وننظر فى عجيب ما كان من أمر أولئك اليونان . وذلك أن جادى دخل عليهم ردهة الاجتماع فوجدهم سكارى وكان هو أشد منهم سكراً من غير مدام . فقامت إليه تمازحه وتغازله كالعادة وتكثر له من العتاب وتتهم وداده وهو لا يلتفت إليها ولا يقبل كعادته عليها فانثنت غضبى ترغى وتزبد وتتهدد وتتوعد . ودخل سائر الحضور فى الأمر فاندفع جادى يحدثهم حديثه من أوله إلى آخره وما أخذه من القلق حينما رأى أن الجواد الذى أخذه لم يكن له وأن جواده هو لا بد أن يكون قد وقع فى يد جاسوس مهين أو عدو للحزب كمين . فاستبعد أصحابه وقوع مثل هذا الأمر وذهب أكثرهم إلى أن الحادثة بسيطة لا تستوجب كل هذا القلق والجزع وأنه لا خوف عليهم منها ولا فضيحة . إذ لابد لهم أن يهتدوا إلى آخذ الجواد غلطاً فيستردوه منه . فإن كان ذا شأن اعتذروا عن وجود الجواد قريباً من القصر القديم يكون جادى قد أنفذ عليه خادمه فى بعض الشئون الخصوصية فضلّ الخادم الطريق فاضطر إلى تركه هناك والاقتراب من خفراء القصر ليسألهم عن الطريق الأقصد ثم عاد فأخذ ذلك الجواد غلطاً مكان جواد مولاه .

فسكن جأش الفتى عند سماع هذا الكلام وذهبت عنه الوساوس والهواجس . فضحك بعد عبوس ثم تهافت على الشراب والطعام ظمآن نهما يجمع بين الكاسات ويتدارك ما فات من الطرب واللذات . حتى ساوى أصحابه أو داناهم فى درجة السكر التى كانو عليها ، وهو فى هذه الأثناء يستعطف خليلته ويعطف عليها ويعذرها ويعتذر إليها ، إلى أن أخرجه فانيس من السكرين سكر الهوى وسكر المدامة بأن سأله قائلاً :

– هل علم رئيس المخفر يا جادى كيف يفتح الأبواب من الآن فصاعدا لتيمان . أو بعبارة أخرى هل علم أننا إنما نريد أن نوسع له الشرك الموقعة بعد ذلك فيه .

جادى : نعم هذا فى علمه وأخذ على نفسه تحقيقه .

أحد الحاضرين : إنى أرى الحوادث تجد ونحن نعربد بإزائها كما نعربد الآن بين الدنان وبين هذه الغانيات الحسان .

يونانى آخر : وأنا أيضًا أوافق على هذه العبارة. وأرى أن هذه الحيلة من التدابير الجليلة ولا يجعل التراب فى طريق العارض الهطل ليسده فإن أردتم دوام ما أنتم فيه من النعمة فاجتهدوا أن لا يمضى شهر إلا وأنتم قد فتكتم بولى العهد وتيمان .

فانيس : قد كان هذا قبل أن تجرى الأمور فى مجراها الحاضر . فقد كنا بالأمس نتقى عداوة الأمة ونتقى أحقادها بمركز الملك نفسه . واليوم الملك مع الأمة علينا يؤيدهما الكهنة الذين طالما حلنا بينهم وبين أمازيس أن يصادقهم أو يصادقوه . فإن كان ولا بد مما تشيران به فإن ذلك لا يكون إلا باستعمال الحذق المزيد والحزم الشديد .

جادى : أما تيمان فأصحابنا فى القصر القديم يتكفلون لنا به . وإذا قتل فى القصر وعلم الشعب أن قتله كان بسبب الأميرة وفى سبيل هواها احتقره ولعنه ميتًا ولم ينهض أحد لطلب ثاره . ولا يبقى سبيل إلى اتهامنا بدس الدسائس لإهلاكه . وأما ولى العهد فتتكفل لكم به ماتيلد (اسم الفتاة الثانية) والتفت إليها متبسمًا ...

فانيس : هل تستشعرين من نفسك المقدرة على هذا العمل الخطير . وهل فى وسع هذه اليد الناعمة أن تتحول ثعبانًا ينفث السم القاتل حين هذا الفم الباسم يناول شهد الغرام ؟

فما كاد فانيس يستتم حتى تنفست الفتاة الصعداء . وقالت وبوادر الدمع تنحدر على خديها :

– قد كان لكم غنى عن تذكيرى حالة ينتهى إليها الشقاء فى الغرام. غرتكم كما غرتنى ابتسامات من بساماطيق كان الفؤاد ينفتح لها كما تنفتح الأكمام للندى المتساقط فتأخذه منتعشة به مشرئبة إليه . حتى وقعت فى الهوى وعرفت مثلكم أسباب الغرام . ولكنى ابتليت بفخور قاس مستكبر لا يلبى دعوة الجمال إذا دعا ولا يلين ولا يخضع لسلطان الغرام ولا يدين . همه فى اليونان يعاكسهم ويناوئهم ويريد أن يهد كيانهم هذا . وأنا لا أرى لى من ذنب لديه غير كونى يونانية . ولولا أن للعشاق قضاءً يرجعون إليه لخاصمته ليعلم أن العشق شريعة لا أنساب فيها ولا أجناس ولا تفرق بين أحد من الناس .

فانيس : إذن فالأمير لا يحبك بل أنت التى تحبينه .

ماتيلد : نعم أنا التى تتنافس فى حبه جوارحى وجوانحى مع علمى علماً حقيقيًا أنه يبغضنى بغض العمى ويرى القبر أحسن منظراً منى .

فانيس : وأنا أيضًا أحب فتنت حب الجبان الحياة . مع علمى بأنها مشغولة بغيرى مشغوفة بسواى . فنحن إذن متساويان فى البلاء . ولكنى لا أبكى وأنت تبكين مر البكاء .

وفى هذه الأثناء كان جادى يلاطف حبيبته ويلاعبها ويسترق منها الإذن فى السفر إلى الحدود إجابة لطلب أبيه . ويعدها أنه لا يتغيب عنها أكثر من شهرين . ويفهمها أنه إن لم يفعل وقع فى حبائل سوء الظن من جانب ولى العهد . لأنه أذن له فى السفر ويعتقد أنه سافر هذا اليوم . فإذا علم بعد ذلك بوجوده فى ساييس أساء به الظن . وصدق أحاديث الوشاة عنه فى المستقبل . فاقتنعت الفتاة مضطرة لا مختارة .

وكان الليل قد ذهب أكثر من نصفه فهم الملأ بالانصراف : حتى إذا صاروا خارج الدار وهم لا يملكون لأقدامهم وزنًا من شدة السكر قصدوا إلى ذلك المكان الخرب يلتمسون دوابهم عليه . فاتفق أن جادى افتقد أوراقه فى الطريق فلم يجدها فأفاق للحين من سكره وأعلم أصحابه بالخبر فاهتزوا له اهتزازاً وكلفوا واحداً منهم أن يرافق جادى فلا يتركه حتى يعثرا على الأوراق المفقودة .

ثم تقدم كل فأخذ دابته إلا جادى فإنه صرخ صرخة دوى صداها فى الفضاء وهو يقول : افتضحنا .. ظفر بنا الأعداء .. وقف ولى العهد على خيانتى .. انتقم منى بساماطيق ..

فازدحم الجماعة عليه دهشين مذعورين يسألون عن الخبر فقال لهم : هذا جوادى قد ردَّ إلىَّ وما رده إلا الذى أخذه أولا . فهو لا شك جاسوس ماهر وعدو مقتدر عرف أين كنت فى أول الليل وأين أنا الآن . ولا أظنه إلا قد سرق منى أوراقى فيا للخيبة . يا للفضيحة يا للعار .

فنزل هـذا الخبر على الجميع كالصواعق الصاعقة . وعلى الخصوص فانيس فإنه أفـاق توًا من سكرته وعلم يقـينًا أن أعداء اليـونان يقـوون وأنهم ينصـبـون الشـراك له ولحزبه فى كل ناحية . إلا أنه تجلد تجلد الرجال والتفت إلى جـادى فقال : إنك تبالغ يا جادى فى الحادثة . وإنى أعـدك أنى سـأكشفها على مـا فيه رضـاك وسـلامتك . وأمنع وقوع أمثالها فى المستقبل .

جادى : ولكن لا بد لى يا مـولاى أن أسافر فى الصـباح إلى الحـدود ، لأن ولى العهد كما تعلم يعتقد أننى مسافر ..

فانيس مقاطعًا : أعلم بذلك . وأرى أن تعـجيل السفر الآن أوجب لما فيه من نفى الظن عنـك فيما وقع لك الليلة . فسر فى كلأة السماء . واعلم أننى لاحق بك بعد أيام . وسأجتمع بك هناك . فاستغرب أصحاب فانيس هذه العبارة وسألوه بلسان واحد :

– أنت تلحق به ولمـاذا ؟

فانيس : ربمـا دعانى إلى ذلك واجب التفتيش العسكرى .

ثم لم يزدهم على هـذا الجواب ، بل ضغط على يد جادى وهو يصافحه كأنما يسر باليد ما يعجز عن إسراره باللسان . وانطلق الجميع بعد ذلك أيبين كل إلى مأواه .

الفصل الرابع عشر

يوم أغر وليلة بيضاء

كان يوم عيد الموتى فى ساييس سعيد الفجر للملك، ميمون الصبيحة للأمة عمومًا، مباركًا للكهنة على الخصوص . خرج الملك فى ضحاه إلى الزيارة الموعودة زيارة المعبد الأكبر معبد « فتاح » إله المدينة وحامى حماها . وكان قد سبق خروج الملك إلى الأهالى خبران عنه لم يسروا بأطيب منهما مدة حكمه الطويل . أحدهما صدور أوامره بانتقال زوجته اليونانية إلى القصر السلطانى بنقراطيس لتقيم به هى وحاشيتها إقامة مستمرة . والآخر تعيين تيمان قائدًا عامًا لمنفيس العاصمة الثانية للبلاد ونقل السلف اليونانى فيها إلى نقراطيس حارسًا لذات الملكة . فلا تسل عن ابتهاج الشعب بهذه الأنباء التى أنسته ذكر ما كان من جفوة أمازيس له ورفعت الملك فى القلوب منازل . فكانت الأمة فى استقباله لسانًا واحدًا يهتف قائلاً :

« صفحًا لأمازيس عن هفواته » . إذ كان هذا اليوم من حسناته . وما أعجل الشعوب إلى الرضى والصفح « وما أقرب ما تذهب الحسنات عندهم السيئات » لا سيما فى معاملة الملوك . يجور الملك عامًا ويعدل يومًا فيغفر العام لليوم . يسىء الملك ألفًا ويحسن واحدة فتذهب الحسنة الواحدة بالسيئات الألف . يبخل الملك دهرًا ويجود ساعة فلا يقاس به جواد ولو أنه حاتم القصاد لعمرى أن نعم الله على الملوك كثيرة ولكن هذه أجلهن .

خرج أمازيس إلى زيارة المعبد بين وجوه متهللة وقلوب ضاحكة وأيد مبسوطة بالدعاء وألسن منطلقة بالثناء . فكان يومًا مشهودًا ليس له فى تاريخ الملك ثان إلا يوم التولية .

فحين بلغ المعبد خف الكهنة لاستقباله . واستبقوا على قدم فى إكباره وإجلاله . وقربت القرابين الغالية من عنده ومن عند ولى عهده . ثم دخل الحجرة الخاصة به من حجرة الهيكل هيكل « فتاح » إله الإقليم . وهنالك خلا المكان له وللكاهن الأعظم . فوقف هذا الأمير موقف العبادة واستقبل المعبود الأكبر ثم قال :

« أيها الإله الأعظم والأب الأرأف الأرحم هذا الملك أمازيس ابنك وفتاك . وأمينك على رعاياك . قد جاءك يخشع لديك . ويضرع إليك . أن تلهمه وترشده . وتعزه وتؤيده. وأن تنير بصيرته فيما يجيب به قمبيز . ويدفع به البلاء عن الوطن العزيز . فكانت هنيهة سكون وسكوت ثم سمع من جانب الهيكل صوتًا يقول :

« تحمل إلى قمبيز نيتيتاس . مكان بنت لادياس . وتهجر الملكة اليونانية وبنتها العاقة الشقية . وتبحث عن سراق الموتى من القبور . ثم يعدمون بمرأى من الجمهور . فإن فعل أمازيس نجا ونجح وإن لم يفعل انخذل وانفضح » .

ثم انقطع الصوت فلبث الملك والكاهن الأعظم هنيهة مبهوتين صامتين ينظر أحدهما إلى الآخر كأنما يتساءلان كيف تسرق الموتى من القبور . ومن السارقون لهم . وكيف الاهتداء إليهم . ثم خرجا من السكوت ودخلا فى الكلام فقال الملك :

– لا تخف أيها الرئيس ولا تحزن وثق بحزمى وعزمى فى البحث عن الجناة مهينى الأموات . ولكنى محتاج إلى عضدك فى هذه المهمة وأرجو أن لا تخوننى .

الكاهن الأعظم : الكهنة ورئيسهم ساعدك القوى فى هذا وغيره يا مولاى . فثق بإخلاصهم وصدق طاعتهم. واسع بجهدك كله فى كشف دخيلة هذا الأمر الذى ستقوم له الأمة وتقعد. ولا ترجع عن المظاهرة والمطالبة حتى تأخذ ثأر الموتى ولو فنيت عن آخرها.

ثم خرج الرجلان يخترقان صفوف الكهان إلى أن صارا خارج المعبد وهنالك استلم الشعب بالمركبة السلطانية يستصرخون أمازيس ويستغيثون به ويصيحون : يا الملك رد إلينا موتانا. ائتنا بالمجرمين نرتوى من دمائهم. أين مزعجو الأرواح الخالدة؟ أين مهينو الأجسام المقدسة ؟ ليكشف الملك عن الأمة هذا العار . ليرفع الملك غضب

الآلهة عنا . لا يكون الجناة إلا من اليونان . اليونان سرقوا موتانا . افتكوا بهم . اشربوا دماءهم ، إلى غير ذلك من العبارات التى دلت الملك على أن الشعب فى غايات هياجه . وأن الحادثة جسيمة لا يمكن السكوت عنها .

فركب وهو يلاطف الأهالى ويوهم أنه أحدهم فى التأثر من هذا الأمر والاهتمام به . ويعدهم بإظهار الحقيقة وتسليم الجناة إليهم فى القريب الممكن من الزمان ثم سارت به المركبة عائدة إلى القصر وهو يستغرب الأمر ويسائل نفسه: كيف ذاع هذا السر وبلغ إلى الجمهور وهو لم تمض عليه دقائق ولم يجاوزه هو والكاهن الأعظم ؟ فلم ير للأمر وجها يحمله عليه غير كون الكهنة يتقلدون أمضى أسلحة المكر والدعاء للحملة على اليونان وتأليب الأهالى عليهم . وأن لهم فى ذلك مآرب لا يضره قضاؤها . فدخل القصر وهو مصمم على مجاراة هذا التيار الجديد الذى أقامه الكهنة فيه ليقضوا على اليونان القضاء الأخير .

هذا ما كان من حوادث ذلك النهار الذى تكشفت فيه العداوات . وتجلت للفريقين العظات .. وانقلب الصديق عدواً . وعاد العدو صديقًا مرجوًا . ورد إلى الأمة ملكها الشيخ بعد حكم طويل استأثر اليونان بخيراته . وضربوا على أيدى المصريين أن تأخذ من طبياته .

فلما كان الأصيل لم يخرج أمازيس كعادته إلى النزهة بل لزم القصر . وأرسل إلى ولده الأمير بساماطيق يستدعيه . وهذه أول مرة يلجأ الملك إلى مشورة ابنه الشاب ومعونته فى مداورة الشئون الخطيرة وأخذ الحيطة للمواقف الحرجة بعد أن كان يدارى فيه اليونان فلا يجتمع به إلا عن كلفة أو تورط . لعلمه أنهم يمقتونه أشد المقت ويتهمونه بمعاكسة نفوذهم فى السر والجهر . فصار من الواجب علينا إذن أن نعرف القارئ من بساماطيق الذى هو منذ اليوم فتى البلاد وواحدها وملكها فى الحقيقة . والذى لم يدعه والده إلا ليتخذه عصا شيخوخته وصولجان صولته .

بساماطيق شاب جاوز الثلاثين فى ولاية عهد البلاد . وهو فى نسبته إلى الملك عظامى من جهة والدته الملكة المصرية وعصامى من جهة أبيه الملك أمازيس . وقد عرف

من أول يوم بالتعصب لجنسه والظهور فى كراهية اليونان . الذين طالما سلطوا عل شيطان إغوائهم وخداعهم فأعيا ورجع بخفى حنين . فشرعوا حينئذ يشون به لدى أبيه الملك ويظهرونه فى العيوب ويخلقون له الذنوب . حتى انحرف عنه بثقته ومقته وهجر إلا ما يوجب المقام ويقتضى صلة الأرحام . فلم تؤثر هذه المعاملة شيئًا عند الأمير الشاب ولا زحزحت من أخلاقه التى كان الشعب يعجب بها ويثبته فيها ويتهافت عليه بأمياله وآماله . وكان الأمير جميل الصورة قوى الجسم لم يفسد ولم يتبع الهوى ولم يطوح بشبابه الثمين إلى موارد اللذات التى ملأ اليونان يومئذ منها البلاد ليفسدو فيها . وكان على سنة الكثيرين من الفراعنة قبله تمسكا بالدين المصرى وغيره عليه مر أن تشرك البلاد به دينًا سواه . فلذلك كان الكهنة أيضًا من حزبه . وكانوا يجتمعون به فيأخذ من أدبهم وتجاربهم وينتفع بعلمهم . وهم يومئذ مدينة العلم وبابها . حتى أصبح صالحًا للأمر وأصبح الأمر صالحًا له . ولم يبق إلا أن يعين والده الشيخ على مهامه فى الحياة . أو ينهض بمتاعبه كلها إذا أدرك أمازيس الممات .

دخل بساماطيق على أبيه وكان حديثه على خلوة فقال الملك : اعلم يا بنى أنى ما صادقت اليونان كل هذه السنين الطويلة ولا حالفت ساموس بعد أن صاهرت ملكها بوليقراط إلا وأنا أحسب لغدر الفرس حسابا وأنظر إليهم عن مستقبل مملوء من الفتوح والغارات . فأردت أن أجعل لمصر صولة فى البحر وقوة فى البر على قوتها باتخاذ بوليقراط حليفا لها . وبذل صفوف الرعاية والمجاملة لسائر الشعوب اليونانية لكى يكون لنا من مجموعها مدافع وظهير فى المستقبل : واليوم خاب ما كنت أرجو وكان ما خفت أن يكون . خاب ما كنت أرجو من نصرة الحلف لحليفه ووفاء الصديق بعهد صديقه وقيام الصهر بحقوق صهره . حيث غدرنى بوليقراط بإعانة الفرس علىّ حتى لقد علمت يقينا أنه عاهد قمبيز بأن يمده بسفن من عنده متى عقد العزم على مهاجمة مصر . وعقتنى حفيدة بوليقراط التى هى بنتى من صلبى عقوقا بينا لا أنساه لها ولا تغفره لها السماء . وكان ما خفت أن يكون من اتساع ملك الفرس وامتداد صولتهم الوحشية وطموح ملكهم الجبار . إلى الاستيلاء على هذه الديار . فالآن أشكو إليك يا أعز البنين أن ما أملت قد فات . وإن العناية خذلت أباك فى أصعب الأوقات .

أنه قد صار شيخًا كبيرًا لا يقوى على حمل أعباء الأمور فى مثل هذه البرهة العسراء . لا سيما وأن بى داء ما زلت أكتمه عن الناس وفيهم أمك الملكة وضرتها اليونانية حتى أصبح كتمانه شديداً لا يستطاع . ولقد وددت لو نزلت عن العرش وجلست أنت عليه لكنى أرى الساعات سودا . وأشفق على حكمك أن يبتدئ فيها . وأنا أترك لك العمل وأستبقى لنفسى المسئولية . وقد أشار الآلهة على اليوم بما كنت قد صممت عليه من زفاف نيتيتاس بنت أبرياس إلى قمبيز كأنها بنتى . وأنا ذاهب إليها الليلة وحدى لأفاوضها فى هذا الأمر . فإن هى قبلت به زففناها إلى قمبيز ولم يبق ما نخشاه إلا أن تنكشف الحقيقة لطاغية الفرس فنكون قد غنمنا الوقت الكافى لتحصين الحدود وتهيئة الجيش لدفع الطوارئ المستقبلة . وإن هى رفضت لم يبق إلا أن نستعد للحرب والنصر بيد السماء تؤتيه من تشاء . وسأنهض الليلة بهذه المهمة وهى آخر عمل لى فى سياسة هذا الملك الذى يشهد الآلهة أنى خدمته ثلاثين عامًا أو أكثر أنشر العدل وأحقن الدماء وأجلب لرعيتى الرفاه والرفاء .

ثم عقدت العبرات لسان الملك فأمسك عن الكلام . وأثرت شكوى الوالد فى رحيم قلب الولد فاغرورقت عيناه بالدمع كذلك . ولم يزد فى الجواب على أن قال الوالد : نعما مولاى بار . والعبد مطيع . والآلهة جديرون بأن يحققوا رجاءنا ويؤمنونا من خوفنا على البلاد وإشفاقنا على صاحبها العظيم .

الملك فى القصر القديم

فلما كان المساء نكر الملك زيه ثم خرج ممتطيا متن جواد يقصد إلى القصر القديم حتى بلغه وهو يأتيه من غير بابه ويتقى أن يشعر به أحد حسب الاتفاق بينه وبين إحيا فإذا هو بالبستانى فى انتظاره وقد عرفه لأول وهلة فتقدم لديه وقبل الركاب وتلطف له أمازيس فى التحية وسأل عن أمره ثم قال :

– هل بلغتك رسالتى يا إحيا ؟

إحيا : بلغتنى يا مولاى . وأديتها كما هى فالباب السرى منفتح لجلالتك والأميرة مستعدة لسماع مقالتك .

فنزل الملك عن متن الجواد يمشى والبستانى يتبعه آخذًا بشكيم الفرس وهو يهدى مولاه الطريق ، إلى أن بلغا الباب السرى فاستأذن إحيا فى التخلف لحراسة الباب وإمساك الجواد . ودخل الملك وحده فسارعت دل إلى استقباله ناشطة لتحيته وإجلاله . ثم مشت خلفه حتى صادف حجرة منارة فدخل فيها وجلس ثم أشار للفتاة فجلست كذلك . وابتدر بعد ذلك خطابها فقال : أتاذنين يا نيتيتاس أن أعرض عليك صنعين أنت بهما كليهما خلقاء .

الأميرة : وما هما يا مولاى ؟

الملك – الأول أن أتبناك لعلى أن أكفر بذلك بعض ما وصل إلى بيتك من جورى وغدرى .

الفتاة ، مقاطعة مغضبة : وأما هذا يا مولاى فلا . وأنا فى غنى عن هذه المنة وعن أختها إن كانت من نوعها .

الملك ، مستغربًا دهشا : علام الغضب أيتها الأميرة وأى بأس ترين فى أن أكون أباك وتكونى بنتى .

الفتاة : لا ينبغى لقاتل الوالد أن يتبنى الولد . كما لا ينبغى لثعبان افترس حمامة أن يحضن صغارها وبطنه ممتلئ من الأم . فإن قبلت يا مولاى منتك التى تعرضها على كنت أولى باللؤم منك بالكرم ..

الملك : تعلمين أننى لم أقتل أباك . ولكن الشعب قتله . ومع ذلك فلا يزال دمه منيخا فوق ضميرى عابثا براحتى يعذبنى فى الحياة ويتهددنى فى الممات . فرفقا يانيتيتاس . رفقًا بهذا الشيخ الكبير . وارحمى رجلا فى مخالب المرض الأخير . لم يبق له فى هذه الدار الغانية سوى أيام يقضيها بين عذاب المرض ووخز الضمير . ولا يسهلها عليه غير صفحك وغفرانك . فاغفرى له تغفر السماء لك ولأبويك .

ولا تضنى عليه بمفاتيح الدار الباقية فإنها فى يديك . ولا يجدها إلا لديك . ثم إن أمازيس لم يتمالك أن بكى جزعًا واتفاقا . فأثر هذا المشهد فى الفتاة تأثيراً عظيماً . وعطفت على الملك . فأقبلت عليه تسليه وتلهيه . ثم قالت : أشهد الآلهة يا مولاى أنى غفرت لك . وأسألهم أن يغفروا لك كذلك . وأن يكونوا لك فى ضعفك وفى مرضك . ولكنى لا أسىء إلى أبى المسكين من حيث أحسن إليك. فلا يسعنى ألبتة أن أقبل التبنى الذى عرضته على .

فنهض الملك حينئذ فقبّل جبين الفتاة وضمها مرتاحا شكوراً . ثم قال : الآن ألقى الآلهة بنفس آمنة مطمئنة . وأما أنت يا بنت الملوك فيفديك بساماطيق وتفديك اليونانية اللعينة وإن لم تقبليني أبًا . والآن أعرض عليك الأمر الثانى . وآمل أن لا يكون له نصيب الأول من الامتناع . وذلك أنى أريد أن أزوجك بقمبيز صاحب الوقت وملك ملوك فارس وميديا ..

الأميرة : قمبيز ؟ صاحب الوقت ؟ ملك ملوك فارس وميديا ؟ بنتك يا مولاى أولى بهذا التشريف وأحق بهذا الفخار . فكيف آثرتنى بهما عليها ولم لم يوجه قمبيز الخطبة إليها . إنى أراك تدبر حيلة . ولا بد للأمر من دخيلة . فارتبك الملك بادئ بدء فى أمره . ووجم هنيهة لا يحير جوابًا . ثم أدرك أن هذه النفس العالية الشريفة لا ينفع معها إلا الصدق . وأن مثل هذا الذكاء النادر لا يمكن أن يخدع . فأقبل على الفتاة يحدثها الحديث من أوله إلى آخره . ويفصل لها الحوادث تفصيلا . وهى مطرقة تصغى بأذنيها للملك . وتصغى بالقلب لتيمان . وكأنها تقول لمحدثها : قل ما شئت ، وبالغ ما شئت ، فما دام فى الأمر زواج فتيمان ينهى عن ذلك ، وما لا يريده الحبيب لا يكون أبدا . إلى أن فرغ أمازيس من كلامه ولم يبق إلا جواب الأميرة . فخرجت من الإطراق وقالت . لا حاجة بى إلى الزواج الآن يا مولاى . وهب أن لى فيه ، أليس الأولى بالنظر لحالك والعمل على راحتك بنتك التى لها عشرون سنة تدعى بنت الملك ، وتنعم فى جنة من ملك أبيها ممتعة بالحال والجاه الفخيم وسائر صنوف النعيم . فمن الظلم إذن وقد رفضت طلبتك وعصت أمرك أن تسومنى الرضا بما لم ترض به . وأنا لست منك ولا حقوق لك علىّ . فأسأل عن راحتك وأطالب بحفظ مصلحتك .

فحين سمع الملك هذا الجواب أظلمت الدنيا فى عينيه وأطرق برأسه مشتت الفكر حائر البصيرة . لا يدرى ماذا يصنع . حتى ابتلاه الموقف بكلمة أخيرة . قالها وهو يتوقع أن يكون لها فى الفتاة فعل المنوم القدير فى المزاج المستعد حيث قال :

– اعلمى يا نيتيتاس أنه لو كان المقصود سلامتى الشخصية ومصلحتى الخصوصية لكنت أول من يسامح فيهما ويضحيهما ولا يبكيهما . إذ ليس لرجل مثلى قادم على الموت أن يأسى على فقد شىء ولو كان ملك البسيطة . لكن هناك مصلحة أخرى هى أكبر وأهم وسلامة . هى أعلى وأعم . مصلحة الوطن الذى أصبح ولا مناص له من الضياع ما لم تدار الفرس فيه. ومداراتهم لا تكون إلا بإجابة قمبيز إلى ما طلب. وسلامة البلاد التى يخشى إن هى وقعت فى مخالب الضبع الفارسى أن لا تقوم لهم بعد قائمة . وهذه المصلحة وهذه السلامة كلتاهما بين يديك . إن شئت صنتهما ولو إلى حين وإن شئت قذفتهما إلى حالق .

فلما أتم الملك كلماته اضطربت نيتيتياس منها واهتز وجدانها العالى . وكادت عاطفة حب الوطن تظهر عندها على سائر العواطف . ويتغلب هوى الأوطان على هوى تيمان . لو لم تعن لها ملاحظة لم تر بدًا من إبدائها للملك فقالت : ولم لا تكون فتنت هى المحافظة على مصلحة الوطن الحافظة لسلامته . وهى بنت ملكها وصاحبتها وأول من يمسه الضر إذا أصيبت مصر بسوء ؟

الملك : لأنها يونانية ولأن ..

الأميرة : كفى أيها الملك كفى . فقد قبلت أن أفدى بلادى ووطن آبائى وأجدادى . لعلى أظهر لرعاياى أن الدم الذى سفكوه من نحو ثلاثين سنة لا يزال حيًا ولا يزال زكيًا .

وعلى أثر هذا القبول الصريح استشعرت الفتاة كأن الأرض الفضاء تدور بها . وأحست كأن فى صدرها نارًا فاتكأت على الكرسى بين الصحو والإغماء والدمع ينسكب من عينيها . فتركها الملك على هذه الحالة وخرج وهو يقول لها : اذكرى يا نيتيتاس أنك قد وعدت . وأن بنات الفراعنة إذا وعدن صدقن . ثم انصرف جذلان فرحا ببلوغ المراد .

الفصل الخامس عشر

العتـــــاب

ولم تمض هنيهة على خروج أمازيس من الحجرة وانصرافه حتى شعرت الأميرة بيدين تمسكان يديها اللطيفتين وفم يقبلهما تقبيلا ودمع صار يسيل فوقها مسيلا . وشمت فى هذه الأثناء ريحًا طيبًا لا من العطر ولا من الزهر اشتركت الحواس جملة فى التمتع به وانتعش منه الوجدان . فانتبهت الفتاة من إغمائها ونظرت فإذا هى بتيمان قد جثا لديها وخبأ رأسه فى يديها يبكى ولا يتكلم ويخفق قلبه ولا يتحرك جسمه . فحين أيقنت أن الجسم جسم الحبيب وأن الرأس رأسه النافح من غير طيب أقبلت عليه تقبله وتملأ بيوته من لؤلؤ دمعها الرطيب فكان مشهداً تميد له جبال الحديد ولا يقوى عليه فؤاد الشهيد :

جثا لديها وأذرى الدمع ناظره ... وعاتبتها بأن قالت محاجره
يا دل هذا الهوى إن كان أوله ... ما قد رأيت فدلى كيف آخره
وعدت بالقلب ملكا ليس يملكه ... وليس تبلغه يومًا عساكره
هبيه قمبيز أو قبروش والده ... فإن تيمان يوم الروع قاهره
فأطرقت خجلاً من عتبه وجرى ... دمع الندامة لا ترقا بوادره
تقبل الرأس من تيمان تائبه ... عن ذنبها وحبيب القلب غافره
كأنما فمها فى شعر عاشقها ... « خمر يخامرها مسك تخامره»
تقول تيمان ماذا كنت صانعة ... وهل يرد قضاء الله حاذره
لكم لدىّ هوى والقلب حافظه ... وللبلاد هوى والقلب ناصره
إن لم يكن وطن لى فى الهوى ولكم ... فأى دوح الهوى تأوى طوائره

وبعد هنيهة أفاق العاشقان كلاهما من سكرة هذا العتاب وعتاب هذه السكرة فنهضا فلبثا هنيهة أخرى ينظر كلاهما إلى صاحبه ولا يتكلم إلى أن نطقت بادرة الفتاة بأن قالت :

– من أين يا تيمان . وأين كنت ساعة ذلك الكرب العظيم ؟

تيمان : من حيث لا أعلم يا مولاتى. لكنى علمت أن الملك آت إليك فى هذه الليلة ليكلمك على خلوة. فطاش منى اللب. وطار بى القلب حتى رأيتنى هنا خلف هذا الستار. أشهد ما شهدت . وأسمع ما سمعت . فليت القدم قطعت فلم تسع . وليت العين عميت فلم تر . وليت الأذن صمت فلم تسمع . ويا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيًا .

دل : قضى الأمر يا تيمان . ووعدت بنت الفراعنة . وهى إذا وعدت وفت . ولكنى أقسم لك بدم أبى الزكى أنى كما حفظت عهد السرير الذى أعز آبائى وأجدادى نحو ثلاثمائة عام أحفظ عهدك . فلا تمسنى يد قمبيز ولا يقع فمه على خد لى ولا شفة حتى تكونوا قد استعددتم لقتاله ورفعت الحرب أوزارها بينه وبينكم . وحينئذ إما أن تنصر مصر فأموت راضية مسرورة أو أرجع إليها وإليك فرحة فخورة . وإما أن تدور على الوطن الدوائر فلا يكون الملتقى إلا فى الدار الباقية .

فلما سمع تيمان هذا القسم العظيم من هذا الملك الكريم ارتفعت الفتاة منازل فى فؤاده الكبير . وصار هوسا وجنونًا ما كان هوى وشجونا . فوقع على يدها يقبلها والعين تبلها بدمعها ثم قال :

– شهد الآلهة لو توزعت هذه العواطف السامية بين البشر لكانوا هم الآلهة. الآن أرى سيفى يخطف رأس قمبيز بعد أن تخطيت له نصف مليون من المقاتلة الأقوياء والأبطال. وأرى كفى تنشلك من مراكز القنا إن كنت فى الحياة. وتقلب عنك ثرى فارس إن كنت فى الممات. فيا ظل الآلهة فى الأرض ومثال الفضيلة والطهارة فى العالم ودعى من أسأت إلى نفسك وإليه لتحسنى إلى ملايين من العباد. ودعى من قتلت نفسك وقتلته فى سبيل حياة البلاد. ودعى من ذهبت بصفوك وبصفوه فى استبقاء شرف الآباء والأجداد. ومرى أن يكون بعد هذا الوداع وداع آخر نجدد فيه هذا الميثاق. ونأخذ الأهبة للفراق .

قال هذا وانثنى يتولى . وهناك ودع الصبر الفتاة فمالت على متكأ لها تسكب دمع اليأس وتعض بنان الحاسر النادم .

الفصل السادس عشر

الوفد الفارسى

لم تمض أيام على وقوع هذه الحوادث المختلفة حتى علم الخاصة وبلغ إلى العامة أن الملك ملازم الفراش فى مرضه الأخير . وأن ولى العهد قد قام مقامه فى سياسة الأمر وتدبير الملك . فلم يخل الأهالى من جزع على ملكهم الشيخ . وإن هم سروا كثيراً برؤية بساماطيق على العرش قبل أوان الجلوس .

وكانت حكومة الأمير قد توصلت فى هذه الأيام القلائل الى معرفة اليد المسلطة على الموتى فى توابيتهم لتسرق الذهب الذى فيها . وذلك أن مركبًا شراعيًا كان يخترق النهر فعاكسه الريح فجنح دون معبد مصرى على مسيرة ساعات من العاصمة . فأنفذ الكهنة من ينقذه فلما جاءوه وجدوا فيه تابوتين مخبوءين وثلاثة من اليونان . فقبضوا عليهم وساقوهم إلى الحكومة لتباشر تحقيق الجناية . فشرعت فى ذلك حين هى الخصم والحكم . فلم يكن يمضى يوم بدون أن يقبض على رجل أو رجلين من يونان الجيش أو المصالح بتهمة الاشتراك فى جمعية سرية اكتشفت الحكومة وجودها ، وغايتها سرقة الجثث المقدسة والانتفاع بما لديها من الحلى النفيسة .

وكان اليونان قد أحسوا بالشر لأول وهلة وعلموا يقينًا أن الكهنة والأمير يمدان لهم المصيدة ويريدان المكيدة إثر المكيدة وأنهما خلقا هذه الحادثة وبالغا فى تجسيمها ليهيجا خواطر الشعب عليهم ثم يدفعانهم إليه يفعل بهم ما يشاء . فرحل فريق عظيم منهم عن البلاد مهاجرين فارين . ولزم الفريق المتخلف منهم السكون التام لقاء هذه الحوادث الجسام .

وبينما التحقيق جار فى مجراه كانت المملكة تستعد لترحيل الأميرة وزفافها إلى ملك الفرس . ولا ترقب لإتمام ذلك إلا قدوم الوفد الأعظم الذى أنبأ به رسل قمبيز حين أتوا البلاد حاملين كتابه إلى الملك أمازيس .

وكانت الظنون قد اختلفت فى مهمة هذا الوفد . فمن الناس من يجدها طبيعية ظاهرة من نفسها من حيث هى الأليق بمقام الزوجين كليهما . ومنهم من يرى بها حجة وحاجة . وأن ظاهرها قدوم النفر الفارسيين ليرجعوا بعد ذلك مرافقين ركاب الأميرة ، وباطنها الخداع والتجسس والاحتيال على معرفة أحوال البلاد والوقوف على حقيقة قوتها .

وفى هذه الأثناء لم تلبث الأخبار أن وردت على القصر من حكومة الحدود منبئة بمجيء الوفد الملوكى وأن الحكومة ومشيخة القبائل هناك قد اشتركتا فى استقباله . وأجازتاه بعد أخذ الحيطة الواجبة مع الأجانب أمثاله بحيث يصح أن يقال عنه مر وما مر .

ثم ما لبث الوفد نفسه أن دخل ساييس مؤلفا من عظماء رجال فارس وكبراء قوادها . فبالغت حكومة الأمير فى استقباله وأنزلت أعضاءه منازلهم . إلا أنها أخذت منهم الحذر . وبالغت لهم فى الرقبة . فكانت تشغلهم بكثرة عن أن يعملوا عملا فى الخفاء أو يجتمع أحدهم بأحد من الأعداء .

وقد ضرب الوفد لنفسه سبعة أيام يقيمها بساييس فى ضيافة الملك ومذاكرته فيما يتعلق بخروج الأميرة إلى فارس . فكان النائب عن أمازيس فى ذلك كله ولده بساماطيق والوزير لاجوس مسير المملكة السياسى ، الذى بقى على عهد الولاء للأمة التى يجاورها ولبيتها المالك . وكان الأمير قد سكن إليه بالثقة من أول يوم وطلب إلى والده الملك أن يشركه فى أمره ويشد به من أزره . فلندعها فيما يشغلهما من الأمر ولننظر فيما كان من أمر الآخرين .

الفصل السابع عشر

الوداع الأخير

كان فانيس أول يونانى فى مصر اهتز من مرض الملك وأخذ بنصيب من مصير الحوادث إلى ما صارت إليه فى تلك البرهة . وإذ كان أعدى عدوى الأمير . وكان الحكم قد انتهى فى الحقيقة إلى هذا الأخير . لم يبق له من هذه الجهة أمل فى خير إن لم نقل فرار من الشر . ومن جهة أخرى فإن اليأس قد بلغ به فى غرامه بفتنت حتى اضطره إلى الترك والنسيان . لأن الأمير كان قد صير أخته لأبيه لا تقل سوء حال عن السجين ولا تماز عن الأسير المهين . لا تزار هى وأمها كلتاهما ولا تزوران . ولا يكاد شعاع الشمس يصل إليهما إلا بإذنه . فلفانيس إذن العذر أن لا يستطيع الصعود إلى السماء لا سيما وهو يعلم علمًا حقيقيًا أن الأميرة تنظر إليه بعين المقت وتختص تيمان بكل فؤادها الولهان . ومما زاد فانيس ارتيابًا بمجرى الأمور وتخوفا من عواقبها صبر الأمير عنه دون سواه من بنى جلدته وظهوره له فى التلطف والمداراة فتمارض من أول يوم وأوهم أنه ملازم الفراش . وإن فى عيادة العواد ما يتعبه ويكلفه الجهد المضر به . فكانت امرأته تنوب عنه فى استقبال الزائرين وشكرهم على الاعتناء بأمر المريض .

هذا من جهة فانيس . أما تيمان فإن الأمير ما صدق أن اغتنم تقادم عهد المرض على اليونانى فرصة ليستدعيه ويجعله مشيره العسكرى بجنب لاجوس الذى كان قد أبقاه مشيره السياسى . وبالفعل كان الفتى لا يفارق ولى العهد إلا حيث يجب الفراق أى أوقات الطعام والمنام . وكانوا يعللون ذلك بمرض الوزير فانيس ووجوب وجود من ينوب عنه فى تدبير الحفلات مدة إقامة الوفد الفارسى فى العاصمة . والاستعداد

لإخراج الأميرة إلى بلاد العجم . وما سوى هذين فلم يبق من يهم شأنه إلا دل . وقد نقلت من أول يوم إلى القصر السلطانى ونقلت معها مربيتها وصاحبتها المتقدمتا الذكر. وجرى كل هذا وما سمع أحد به ولا درى . بحيث أصبح عامة الشعب يحسبون أن التى تزف إلى قمبيز هى بنت الملك . وأنها قبلت بذلك كرهًا بعد ما أظهر الملك الغضب عليها.

فما برحت دل تحتمل البلاء الذى أوقعت نفسها فيه حبًا للوطن وابتغاء إنقاذه . وهى تبدى من التجلد والأسى ما لم يخلق إلا للرجال . لا لربات الجمال . ولا تتسلى عن ذلك كله إلا بما كان وجودها فى القصر السلطانى يسهل عليها من رؤية تيمان بين الحين والآخر . والاجتماع به فى بعض الأحيان ، وفى حضرة الأمير ، للنظر فيما تحتاج إليه فى السفر . إلا أن الفتاة كانت تشعر على الدوام كأن قوة خفية تدفعها إلى زيارة قبر والدها قبل الرحيل . وقد بلغ من تسلط هذه القوة عليها أنها كانت تنسيها أهوال ما هى فيه من الغدو على مفارقة الوطن والأحباب . حتى اضطرت إلى مكاشفة تيمان بذلك واستنزال رأيه فى الأمر . فلم ير لها أن تذهب إلى المقبرة جهرًا ، بل أشار عليها بالخروج تحت مدارع الظلماء . وأن يكون ذلك فى الليلة التى صباحها عن يوم مسير الموكب بها من ساييس وأعلمها أنه يكون هنالك فى انتظارها ليودعها الوداع الآخر . فاستصوبت دل هذا الرأى . ثم افترق العاشقان على أن تجمعهما مقبرة أبرياس فى الموعد المضروب .

الفصل الثامن عشر

العقـــد

فلما كان أوان الموعد تحيلت الأميرة حتى خرجت من القصر متنكرة بعد أن أفرغ تيمان الجهد فى مساعدتها على ذلك . ثم خرجت والظلام يخفيها وعيون تيمان تراعيها إلى أن بلغا المقبرة . وهنالك سبقها تيمان إلى المدخل . وكان عليه فارسان من الجند المصريين فأمرهما أن يتخبأ حتى تعبر الأميرة فامتثلا . ثم دخلت هى وتيمان بجانبها يخوضان ظلام السراديب والمضايق حتى انتهيا إلى الحجرة التى فيها قبر الملك المقتول . فاستقبلته دل على قدم الوقار والخشوع ثم قالت تناجيه :

« أيها المنزل الباقى المشرف بخير أب فى خير ملك . لأجلك أفارق الديار وأركب النار . وأقتحم الأخطار . ليعلم قوم سفكوا دماءك أنك الورد ذهبت وخلفت فيهم ماءك . وأشهدك كما أشهد الآلهة أنى أفى لتيمان كما وفيت للأوطان . وأنى وقفت له الروح والجثمان . فلا سبيل لقمبيز عليهما ولا سلطان » .

ثم خانها الدمع وفارقها الصبر . فجعلت القبر سنداً لجبينها ومتكأ لذراعيها . ثم اندفعت تبكى فصيرت الفتى جسما بغير عقل فدنا منها فأخذها إليه فاعتنقا متكلمين فى السكوت . متشاكين فى الصموت وفى هذه الهنيهة لم يدريا إلا بيد قد مست رأسيهما : وكأنما خشى من مدها أن يفرق فيما بينهما فأتبعها صوتا يقول « تيمان لا تخف ولا تفزع . إنى أنا الروح » .

فلم يزد الفتى فى الجواب على أن قال بلسان الدهشة والخشوع : « الروح » .

الصوت : نعم روح شيخك . فلا ترفع رأسك . وقل لنيتيتاس لا ترفع رأسها وابقيا كما أنتما وأنصتا لما أقول .

وانطلق الصوت بعد ذلك بأن قال :

« أنا الكاهن الأشورى الساحر البابلى « برمبال » أقر فى هذه الحجرة المقدسة بأنى اختطفت الأمير « يوهاشيم » أصغر أنجال الملك « سدسياس » ملك بيت المقدس وصديق ساكن هذا القبر الملك أبرياس لأنجيه من القتل وأربيه فى الديانة الأشورية . فكانت على يدى نجاته دون إخوته وأبيه وسائر أسرته . وإنى انتقلت به إلى هذه الديار لآخذ من علم المصريين وكهانتهم وأتعلم الديانة المصرية كما تعلمت الديانة اليهودية من قبل . وإنى قد كشف لى أن يومى مرهون بيوم الأمير وإن عمرينا موصلان بحبل من محتوم المقادير . فأردت أن نحيا معًا إلى يوم نموت فيه معًا . فاختطفته وسيف المنية على أعناق إخوته الستة ينزل بها واحدًا بعد واحد . وأنى ربيته صغيرًا وأدبته كبيرًا وسميته تيمان ..."

عند ذكر هذا الاسم كاد المتعانقان يخران صاعقين لو لم تجمد عروقهما) فحفظا شكليهما كما يحفظ الميت شكله الذى يموت عليه ولم يزيدا فى الاستنكار على أن صرخا بلسان واحد يقولان : « تيمان » .

واستمر الصوت فقال :

« والآن أختار لنفسى ولتيمان دينه الأول دين موسى الأعدل وأعقد له ببركة النبى وبأعين الله العلى على نيتيتاس بنت الملك أبرياس عقدًا لا يحله إلا الشيطان إذا سعى بين الزوجين . ولا يفضه إلا الموت إذا فرق بين الصاحبين . فانهضا أنتما فى حل مما يركب الغرام . ويتطوح فيه الوجدان المستهام » .

ثم انقطع الصوت وارتفعت اليد فتحرك ذلك الجسم الواحد وإذا هو جسمان كما كان . فجعل كلا الزوجين ينظر إلى صاحبه ثم ينظر حوله فلا يرى على المكان شبحًا ولا روحًا ولا يسمع فيه صوتًا ولا صدى . فلبثا برهة فى سكر الدهش

يستفيقان منه إلى أن ثابت إليهما السكينة . وعادت فاطمأنت بهما الحجرة الأمينة . حينئذ عادا إلى ما كانا فيه من عناق . وأخذ الأهبة لأيام الفراق . وكان الوداع وداع لزوج لزوجته . لا العاشق العفيف لمعشوقته .

ثم ختمت طيبات هذه الساعة بأن قالت :

– اعلم يا مولاى أننا كلينا غاديان على جهاد فى سبيل هذه البلاد التى أنتمى نا إليها بالآباء والأجداد . وتعتزى أنت إليها بفضل النشأة والتربية . وما أجزلت لك ن الكرامة والترقية . فأما جهادك أنت فبنفسك التى بين جنبيك . ثم بالجيش الذى صبحت أزمته فى يديك . وأما جهادى أنا فبحيل النساء . وما فطرن عليه من المكر الدهاء . بعد أن سمحت فى سبيل الوطن . بأشياء ما لها ثمن فمن ذلك الطاعة أمازيس وهو كما تعلم قاتل أبى . وغاصب عرشى . وساجنى من المهد إلى اللحد . ى لم تعطفه الحاجات على وتحوجه الضرورات إلىّ . والرضى بفراق هذا الوطن الكريم ذى حببت فيه البؤس كما حببت النعيم . والذى لو خيرت فيما أريده ما اشتريت مبيز وملكه الكبير . بجندى مصرى حقير . أشاطره عيشه الذليل . على إحدى ضفاف نيل. ثم فراقك أنت يا أعف العشاق بالأمس. وأكرم الأزواج اليوم . وأبر الآباء غداً .. راقك الذى أقسم بإله موسى الذى جمع بيننا برحمته ويميتنا على كلمته إنه عذاب أليم إنه لنار الجحيم .

إذن فأنا مسوقة غدا إلى قمبيز إما فى زى زوجة أو عدو فى ثياب صديق. وهو لا بد ن يطلع عاجلاً أو آجلا على دخيلة الأمر . ويعلم أن أمازيس خدعه وغشه . فيثور إلى لانتقام منه انتقاماً يراد به نشوب المخالب الفارسية فى أحشاء هذا الوطن الذى يحلم ه الفرس منذ أربعين سنة . فإذا جاء هذا اليوم الجلل فاذكر أن لك فى سجن لتبربرين زوجة مقطعة الأوصال . مثقلة بالقيود والأغلال . معذبة بين وحوش فى ياب رجال . وأنها تفضل يومئذ هذا الحال الذى ينتهى إليه الشقاء والإذلال . على أن راك جباناً مقهوراً أو تلقاك مستضعفاً مأسوراً . فهيا يا تيمان انظم شمل الجيش لبدد واجمع قواه المتفرقة . وكن بحزمك وعزمك وجدانه العالى وحياته الكبيرة .

ولا تنس فى وقت من الأوقات أن اللواء الذى ستقاتل تحته تتعلق به ملايين من الأرواح بينهن روحى . فلا تختطفها منك يد قمبيز . كانت الفتاة تتكلم والإباء الملوكى يسمو بألفاظها . والعزة الفرعونية ترفع من ألحاظها . وتيمان بين يديها كالمثال المنصب من المهابة والاستجماع . إلا أن كل جارحة منه أذن تسمع وتعى . وقلب يخفق تأثراً بهذه الكلم التى تنتقل بأمثالها قلوب الأسود إلى صدور الجنود . حتى فرغت من كلامها فأخذ « الأمير » يدها فقبلها ثم قال :

– علم الله لو لم تعدى يا مولاتى ووعدك الصدق . ولو لم تركبى نفسك هذا المركب الذى يجفل عن مثله الرجال . وتخور دونه عزائم الأبطال . ما رأيت للواء من يحمله فى ساحة القتال غير هذه اليد التى يحركها أشرف القلوب وأشجعها . ولكن الله الذى ربط بها يدى إلى الأبد جدير بأن يحقق رجاءك فى بعلك . وأن يجعل لمصر منى لواء لا يطاوله لواء . أو فداء لا يذكر فى جنبه فداء .

الفصل التاسع عشر

حادثة على الحدود

كانت الطريق بين الشام ومصر فى العهد الذى نحن فى الكلام عنه أو طريق ملوك آسيا المهاجمين إلى وادى النيل مما تحلم بمثله الممالك محمية ومنعة وبعداً عن وثبات الخيل وثبات الفوارس . تبتدئ من خان يونس آخر تخوم الشام فتمتد فى الصحراء مسيرة بضعة أيام حيث لا يزاد إلا جراثيم الحميات ولا ورد إلا أمواه المستنقعات . حتى تنتهى إلى جهة الفرما (السويس أو ما حواليها الآن) وهناك كانت حكومة الحدود تنظم الرباطات وتدبر الدفاع وتعزز المواقع والحصون .

وكانت تملك أطراف الطريق المشار إليها من عهد غير معلوم لنا قبائل من عرب البادية المحالفين فرعون وحكومته . كانوا هم مفتاح هذا الباب ودليل كل من سار على ذلك الباب . ولهم شيخ أعظم تعرفه حكومة الملك ويعرفها . وتكاشفه بمسائل الدفاع ويكاشفها . وهى التى تقلده الزعامة على قبائل الحدود بعد أن تأخذ عليه المواثيق والعهود . أن يكون هو وقومه لجلاله الملك من أصدق الجنود . ثم يجود عليه الملك بالخيل والسلاح . وتتوالى عليه نعم الدولة آنًا فآنًا .

وقد نيطت هذه الزعامة فى أول حكم الملك أماسيس بشيخ العرب « منجاب » الذى تقدم ذكره فى هذا الكتاب . وكان من سلالة ملوك الشام التابعين دين موسى عليه السلام . عرفه أماسيس قبل أن يعرف الملك فانعقدت بينهما الألفة بلا كلفة . فلما أدرك المراد من ملك البلاد قلد صاحبه مشيخة الأعراب . وهما يومئذ فى عنفوان الشباب . ثم شابا كلاهما والعهد ما كبر وما شاب .

وكان قد التف حول منجاب من العشيرة والأصحاب نحو ثمانين ألف مقاتل من خيرة العرب ولباب القبائل . قد تقاسموا خطط الصحراء . فنزل فريق فى الأحشاء . وملك الفريق الأعظم أطرافها . يحمون مداخلها وأكنافها . فمدت كل قبيلة طرفها وحصنت بالخنادق مصافها . فأصبحت بهم الصحراء مناط الثريا من الأعداء . وصارت حكومة الحدود الحقيقية فى يد الشيخ وقومه الأشداء .

وكان الشيخ نازلا على جوانب البحيرة فى طراف هنالك ممدود . تحيط به طرف الرؤساء وخيام الجنود . وله ديوان ولاية يجلس فيه لتدبير أمر القبائل والنظر فى شئونها المختلفة . وسماع الدعاوى وإصدار الأحكام . وهو من كل ذلك فى قضاء من أمره بإزاء الحكومة المصرية . لا يرجع إلى رأيها إلا فى مسائل الدفاع والمخابرات السرية . التى هو أمين بريدها فى جميع ما وراء الحدود من الممالك والبلاد .

فبينما هو ذات يوم فى مجلس ولايته يحكم بين قومه . تقدم إليه الحراس برجل غريب له شأن مريب . وقد أخذوا منه سلاحه وحجبوا نور عينيه بحجاب كثيف . فخاطبه أحدهم قائلا : إن هذا الرجل يا مولاى وجد على الحدود فسألناه من هو ومن أين وإلى أين فنكل بادئ بدء عن الجواب . فلما أرهبناه بأنواع الوعيد . أخبرنا أنه رسول من بعض الملوك إليك . وأنه لا يحرك لسانه بشىء إلا بين يديك. فأتينا به نعرض الأمر عليك . قال : اكشفوا عنه الغطاء . فنزعوا عن عينيه الرباط . ولم يبق إلا اللثام وعندئذ قبل الأرض وبالغ للشيخ فى الخطاب . فسأله الأمير قائلاً : ما شأنك أيها الرجل ؟ قال : شأن خطير يا مولاى . ولو أذنت كلّمتك على خلوة . قال : ذلك لك اخرجوا الآن : يا قوم . فخلا المجلس . فأقبل الرجل يقول : إننى يا مولاى رسول من الملك قمبيز إليك . قال . وما يريد مولاك منى ؟ قال : لا تعجل أيها الأمير . واسمع ما أقول . قال : تكلم . قال . إنه يعدك ألف قلادة من ذهب . وألف حسام مجوهر . وألف جواد من أكرم الخيل . وولاية من ولايات الشام تختارها فيوليكها . ورتبة قائد فى جيوشه المظفرة لواحدك الأمير جادى الذى هو أسيرنا الآن . قال : أسيركم .. جادى أسيركم .. بأى حق .. فى أية حرب .. أين وجدتموه .. كيف استبحتم أسره .. وفيم أيها الرجل وعود مولاك العريضة الطويلة . لعلك تدعونى إلى الخيانة . عساك

تساومنى فى دنياى وآخرتى بما عرضت من المال . وزينت من الآمال . إذن فحذار من هذا حذار (وقبض على سيفه يشير به) إنه حر . يحمله حر شريف . يتقلده شريف وفى . يصحبه وفى . تكلم أيها الرجل وأوجز . قال : مهلا يا مولاى . إن للحلم مواضع وهذا منها . فما أنا إلا رسول . إن الملك ينيلك ما ذكرت لك إذا بذلت له المساعدة فيما صمم عليه من مهاجمة وادى النيل . وهى تنحصر فى أمور ثلاثة : كتمان الأمر عن الحكومة المصرية ، وهداية عساكر الملك فى الطريق التى تحميها . وتقديم الماء إليهم كلما احتاجوا إليه فيها . فما جوابك أيها الأمير ؟ فما أتم الرجل عبارته حتى امتقع منجاب . واختضبت لحيته الكثيفة البيضاء بغير خضاب . وأكسبه الغضب فى الشيب نشاط الشباب . فاستل حسامه وصاح بالرجل يقول ما معناه :

بأى جواب غير ذا السيف تطمع ... وهل دونه رد لمولاك مقنع
فعد يا رسول الغادرين مخيبا ... فما كل من يدعى إلى الغدر يهرع
وأبلغ عظيم الفرس أنى أصده ... وأحمى على الأيام جارى وأمنع
وما أنا بالباكى على ابنى وقتله ... وعرضى أن يسلم قتيل مضيع
وخير لجادى من حياة بذلة ... ممات إلى أسمى ذرى العز يرفع
وخير لقلبى منه إن ذاق ناره ... وفاء يذود النار عنى ويدفع
أبعد شباب قد تجمل بالهدى ... يلاحق شيبى بالضلال فيتبع
وترغب نفسى فى القلائد والغنى ... وصدرى بتقوى الله حال مرصع
وأقبل أن أعطى بذل إمارة ... فأبنى بها جاهى ودينى مضعضع
نعم ملك قمبيز بن كيروش واسع ... ولكنما ملك الفراديس أوسع

فحين سمع الرسول هذا الجواب . وتبين فصل هذا الخطاب . أخذه القلق بشر حالة . وأيقن أن الشيخ قاتله لا محالة . وآنس منجاب ذلك منه فوضع السيف مشهوراً أمامه على منصة الأحكام . وأقبل يقول للرسول : لا تخف أيها الرجل . فإنما أنت رسول . ونحن نحمى الرسول كما نحمى الجار . فسر إلى مولاك فى حفظ الله .

وكلاءتى . حتى تخرج من أرضى . فإذا وفدت على الملك فألق عليه جوابى برمته . وقل له إنى أنصح له أن يكف العداء ويحقن الدماء . فما جنح إلى السلم إلا الملوك العظماء فإن أبَى ففينا قوة ومضاء . ولنا سيوف ظماء . ما لها إرواء . فأطرق الرجل هنيهة ثم قال : أما الحرب يا مولاى فواقعة لا محالة . وقد عقد الملك العزم فلم تعد تنجح فيه مقالة . وأما الأمير جادى فإنى لا أجد ما أجزيك به عن كرم أخلاقك وجميل عطفك على وإشفاقك إلا خلاصه ورده إليك سالمًا . سلامة عرضك من العيوب . قال الشيخ بتلهف :

– أنت تخلص جادى . أنت ترد إلى حبه فؤادى . أنت أيها الرجل تبلغنى مرادى كيف .. متى .. عجل .. فورب موسى ما حاجتى إلى جادى بحاجة المشتاق إلى لقائه ولا المتفانى فى استبقائه . ولكنى أرى الساعة قد اقتربت . وأرى الحرب أدنى من وريد . وأتمثل من موقفى هذا جنود قمبيز وقد ملأت أعماق الصحراء . وأحب أن يكون ابنى بجنبى يصد الأعداء . ويظهر لأماسيس أن مودة فى الآباء يرثها الأبناء . قال الرجل : وإنى لا أسألك الجزاء على إنقاذ ولدك إلا كتابًا بالأمان لى إلى قومك على الحدود . بحيث يتسنى لى الوصول إليك متى شئت . فإنى قد لا أفلح فى مسعاى فيفتضح أمرى . فلا يعصمنى من بطش قمبيز سواك . ولا ينجينى إلا الالتجاء فى حماك . كما أننى قد أحتاج إلى رؤيتك مرة ثانية فيما حملتنى من الأمر وتكون السرعة فى لقائك من لوازم النجاح. فأجد من تعرض قومك لى ما يصدنى عنك فلا أجىء إلا فى الزمن الأخير. قال : ذلك لك . فما اسمك أيها الرجل الكريم ؟ قال : عبدك نيدور يا مولاى . فأخذ الشيخ قرطاسًا واتكأ على المنصة ثم كتب هذه السطور وهى :

« قد أجزنا للفارس « نيدور » أن يفد علينا متى شاء . ومن حيث شاء . فليعلم رجالنا ذلك . وليخلوا له المسالك . ولا يمانعه أحد فى الوصول إلينا . فإنه من اليوم واحد منا له ما لنا وعليه ما علينا »

زعيم قبائل الحدود

منجاب

وكان الرسول مشرفًا ينظر وقد تحيل حتى أخذ سيف الشيخ . فلما رآه قد فرغ من الكتابة علا هامته بالسيف فضربه ضربة فصلت رأسه عن جسده فهوى للأرض

ميتا بغير حراك .. وعندئذ صرخ الرجل صرخة جمعت له كل من فى الطراف . فلما رآهم ، قد أذهلهم المشهد حتى كأن بهم سحراً ، نزع اللثام عن وجهه وإذا عند رأس القتيل قاتله ابنه الأمير جادى . فازداد الملأ دهشًا وصاحوا بلسان واحد : ما هذا البلاء ؟ فخاطبهم الفتى قائلا: مهلاً رويدا يا قوم . وأصيخوا لى حتى أستتم ثم افعلوا ما بدا لكم .. إن زعيمكم منجاب قد قتل ، وأنا الذى قتلته ، أنا ابنه وواحده وأحب الناس له قتلته عندما تحققت أنه يخون عهد العرب ويخفر ذمة اليهود . ويواصل العجم فى السر ويراسل ملكهم . ومن كان فى ريب مما أقول فهذا كتاب من قمبيز إلى أبى منجاب . فخذوه فاقرأوه . فاختطف القوم الكتاب يقرأونه فيما بينهم وإذا فيه :

« إلى سيد قومه عزيزنا شيخ العرب منجاب .. قد وصلت جيوشنا المظفرة إلى بابل . ولا ألبث أن ألحق بها متى جمعت أمرى وأخذت للفتح أهبته . فإذا مضى ستون يومًا على وصول هذا إليك فاعلم أننى آت بابل ثم أبرحها قاصداً قصدكم . وقد علمت أن أمازيس اشتد عليه المرض بحيث لم يبق من عمره إلا أيام قلائل . فرأيت أن آتيكم لوفق الأمر والمملكة فى ارتياب والأمة فى اضطراب والأمر خارج من يد وليه الشاب » .

ملك ملوك العجم

قمبيز

واستمر جادى بعد ذلك فقال : على أننى قد تمكنت بفضل قرابتى من القتيل من معرفة الخيانة فى أولها . وكان عهد والدى بها يوم وضع يده فى يد الوزير فانيس وهو مار بنا فى مظهر المتجول المستوثق من قوة الحدود ومقدرتها على المقاومة . والحقيقة أنه هارب من خدمة الملك . راكب عار خيانة الوطن إلى الملك قمبيز .

هنا قال الملأ : نعم إن المتواتر عنه أنه خان وفر من خدمة الملك والأوطان . قال . ولكنى مع علمى بأن أبى شريك فانيس فى الخيانة كنت فى أول الأمر أبرئه فى نفسى . وأظن به الظن الجميل . حتى غلبنى حب الوطن وكرم العهد على برى الزائد وشفقتى المتناهية . فعزمت على قتله . ثم رأيت أن لا أفعل حتى أزداد يقينًا . فركبت جوادى

ولحقت بفانيس وكان قد بلغ بابل وصادف قدومه لها وصول قمبيز فى جنوده إليه فاجتمع بملك العجم وعرض خدمته عليه فقبلها وولاه قيادة الحملة . كل ذلك قبل وصولى . فلما وصلت قابلت فانيس فسر بقدومى كثيراً ثم قدمنى إلى الملك فكاز سروره بلقائى أعظم . وعندئذ طلب الوزير منه أن يحملنى رسالة تشريف بخط وتوقيعه إلى أبى ليطمئن قلبه . وليعلم أنه فى أجمل مكانة من حفاوة الملك . فكتب قمبيز الرسالة التى قرأتموها وناولنى إياها . ووعدنى ولاية يولينيها فى الشام إذا هو تم له النصر على أمازيس . فقبلت يده شاكراً . واستأذنت فى العودة . فأذن لى . فانثنيت عائداً إليكم . وكان من أمرى ما كان . حتى دخلت على أبى متنكراً ، كما رأيتم ، فأوهمته أنى رسول من قمبيز إليه . وناولته كتاب ملك العجم . ثم أردت أن أحصل كذلك على شىء من خط يده يبرئنى بين أيديكم اليوم وبين يدى الله غداً . فقلت له . إن الملك اختارنى لحمل رسائله إليك وأخذ الأجوبة عنها . فأعطنى رخصة مرور حتى لا يتعرض لى رجالك كما فعلوا هذه المرة . فأعطانى هذا الخط الذى قرأتموه . وعندئذ لم أتمالك أن وثبت عليه وثبة الأسد المغضب . وأنا كما رأيتمونى عطل من السلاح . فلما عرفنى وعلم أنى قد وقفت على أمره باديه وخافيه . استل سيفه هذا وهم بقتلى . فأيدنى رب موسى بحوله وقوته فرغت من ضربتين ما كان أقتلهما لولا أن الله ألهمنى فاختطفت السيف من يده وضربته به هذه الضربة القاضية . والآن فليعلم شركاء أبى منكم فى خيانته أننى لهم بالمرصاد. وأنه إن لؤم الوالدون فربما كرم الأولاد . وليسر جماعة منكم معى إلى الملك لنعرض عليه الأمر . وهو يولى من شاء على حدود البلاد .

فما فرغ جادى من خطابه حتى شح كل جفن كان قد جاد بمائه لرؤية الشيخ مضرجا بدمائه . واندفع فى التأنيب من كان استعد للتأبين وقام الشمات والشتم مقام الرحمة والرثاء . حتى إذا وفوه الإهانة ميتًا اشتغل غلمانه بدفنه . فدفن بغير جنازة ولا احتفال . كما يدفن أحقر الرجال . وسار جادى للحين فى وفد من وجوه العرب وسراة القبائل يقصدون مصر لعرض الأمر على حكومة الملك .

الفصل العشرون

جلوس فرعون بساماطيق

اشتدت العلة على الملك . ودب دبيب الفناء فى جسمه . وحير مرضه الأطباء . فلم عد لهم فى شفائه رجاء . فما زال كذلك يستحث داءه الكبر . وتنجده الهموم والفكر . تى لزم الفراش وانقطع للعلاج . وخلا وجهه للطبيب والعائد .

وكانت نيتيتاس قد رحلت فى موكب زفافها إلى فارس . والملك يعلم ذلك . ويتوقع ن وخامة العاقبة إذا افتضح الأمر ما يتوقع . ويعلم كذلك إن فانيس عدوه الكبير خصمه الشديد الانتقام قد تغيب واحتجب . وشاع أمر فراره فى الناس . وأن هذا فرار لا يكون إلا إلى بلاد قمبيز . حيث أسباب الانتقام حاضره ومذاهب الأخذ الثار وسيعة . كل ذلك كان يسرى بالملك فوق سريان الداء . ويجعله بحالة من لمرض والألم ينتهى إليها الشفاء .

وكان الأطباء والسحرة من مذهب وطبقة لا يزايلون مقاصير المريض العالى . يتناوبون على سريره فى الخدمة الشريفة . إلا أن الرقى والطلاسم كانت لا تكشف عن قام الشياطين فى أحشاء الملك حالا . والعقاقير تخون أربابها ولا تدنى إلى نتيجة فى علاج إلى أن أخطر الناس على بال الملك ذكر صديقه اليونانى الأعمى الذى تقدم كلام عنه عند ذكر ناحية الهر الهائم فسأل عنه . فقيل له إنه فى سجن الظلام الأبدى. ذوق العذاب ألوانًا عقوبة له على سجنه الحيوان المقدس فى بيته وتعذيبه إياه .

وإذ كان الملك يعتقد صدق تنجيمه ويثق بطبه ارتاح لاستشارته فى دائه عضال . فطلب من الأمير ولى عهده أن يتوسط لدى مجلس الكهنة الأعلى فى الإفراج

عنه . وقد كان ذلك . وعفا الكهنة عن أسيرهم وأطلقوه كرامة للملك . فجيء به إلى القصر . وقدم لدى الملك . فأمر به أن يكون فى جملة من يتولى أمر العناية بصحته من الأطباء . وبذلك اجتمع فى القصر ثلاثة من المطببين المهرة. يمثل كل واحد منهم عظمة الطب ومبلغ ارتقائه عند الأمة التى ينتمى إليها . فالأعمى يمثل الطب اليونانى ؛ وكان معظم الاعتماد فيه يومئذ على العقاقير ومزاياها والنباتات وخواصها . وإحيا البستانى يمثل الطب الأشورى ؛ وكان يستمد قوته من التنجيم . فالجواهر لا تؤثر أثرها المقصود منها حتى تأذن بذلك الكواكب. وتقر به الفراقد. والنباتات لا ينفع منها إلا ما غرس فى أوقات مرسومة. ثم طلع تحت نجوم معلومة. أما الطب المصرى فكان يمثله لدى المريض طبيبه الخاص القابس من أنوار ثوت. المستمد من ألطاف إمحوتبو إله الطب وملهم الأطباء. وكان ساحراً كبيراً وقارئًا قديراً. إذا قرأ على الرأس رد الشيطان إلى اليأس. وأخرجه بقوة البأس .. وإذا أمر يده على الأحشاء وتلا من الكلم ما شاء . أحرج الأرواح الخبيثة إحراجا . وأخرجها من مكامنها إخراجًا .

ولا يستفاد مما تقدم أن الطب عند كل أمة من الأمم الثلاث المشار إليهن كان مقصوراً على الفرع الذى نسبناه إليها من طب حقيقى أو سحر أو تنجيم . ولكن يراد منها أنها كانت أكثر تعلقًا بهذا الفرع وأعظم براعة فيه من سواها وإلا فإن الطب القديم بفروعه الثلاثة المذكورة كان شائعًا فى بلاد مصر وأشور واليونان موفوراً عند الأمم الثلاث على السواء .

ولكن ماذا ينفع التطبيب أو ماذا عسى يأتى الطبيب إذا حكمت الأقدار وأنشبت المنية الأظفار . وجعل بين الجارين فى الدار . فما زالت العلة بالملك حثيثة السير شديدة الوضع لا تعوقها العوائق ولا تدفعها التدابير حتى أخذت من الجسم وأشرفت على الروح . ولم يبق إلا افتراق هذين الصاحبين إلى الأبد .

وكان الملك كثيراً ما يغيب عنه الحس ويفارقه الإدراك من اشتداد المرض عليه . وانحلال القوى العقلية على إثر القوى البدنية وكان إذا دخل فى مثل هذه الحالة أكثر من ذكر اسم أبرياس وبنته نيتيتاس لكثرة اشتغاله بأمرهما فى حال الصحوة .

ومخوفه من شأن يكون له معهما فى الدار الباقية . بسبب ما وصل إلى الوالد من أذاه وعذره ولحق بالبنت من خداعه ومكره . فكان الأطباء وسائر من حول المريض من الأهل والممرضين يحسبون أن ميتًا يغشاه فى بعض الأحيان زائرًا وإن خيالاً يطيف به موذيًا جائرًا. فيجعلون كل اهتمامهم فى تطبيبه من هذه الجهة . ولا يغادرون وسيلة فى طرد الأرواح الملمة إلا ويأتونها .

إلى أن كانت ليلة الوفاة . فبلغت بالملك علته . وطالت إغماءته واستمر احتضاره حتى الفجر . والأهل والأصدقاء حول سريره ينتظرون الساعة الآتية. بنفوس جزعة فى أجسام ساكنة من الخشوع والوقار . حتى أتت الساعة وفاضت روح الملك . فقامت قيامة القصر وهرع النساء إلى ساحاته وباحاته يشققن الجيوب ويهلن التراب على الرءوس . معولات نائحات مصوتات صائحات وفعل العبيد مثل النساء . فانتشروا فى الشوارع وهاموا على الوجوه فى الطرقات . ينعون الملك إلى الأمة . فلم يلبث الخبر المشئوم أن تردد فى العاصمة من أقاصيها إلى أقاصيها . ثم جاوزها إلى ضواحيها. فهاج الأهالى له وناحوا . واضطربت شعب الرجال . وبكى أمازيس العقلاء والأخيار. الذين يحبون السلم ويكرمون أنصاره .. فكيف بملك مثل أمازيس حافظ على كيان السلام . وحاط بنيانه فى مصر ثلاثين سنة أو تزيد .

وبينما خواص الملك يشتغلون بغسل جثته ليدفنوها بعد ذلك إلى مشاهير المحنطين فى البلاد. وقعت حادثة من الحادثات الكبر. بالغ القصر فى كتمانها وإن يكن أخذ تلقاءها من الحيطة والاهتمام ما يظهر جسامتها . وذلك أنه قد قبض على إثر وفاة الملك على اليونانى الأعمى وفتاتين يونانيتين فى نقراطيس بمعية الملكة الأجنبية وزج الكل فى السجن ، ثم لبثوا فيه إلى الأبد ، ثم لم ترهم عين ولم يسمع بهم أحد . وسبب ذلك أن الأعمى لما بلغه نعى الملك وكان بين ناس القصر استفزه الطرب ثم جاهر بأن قال : "الآن وإن حياتى هذه اللحظة بعد عدوى لكثير . فمن قتلنى فى أمازيس فقد أراحنى من عذاب هذه الدنيا . كما أرحت اليونان من غدره . ولكى لا تنال الريب شرف الملكة اليونانية أقر بأنى صنعت له هذا السم وأنا فى السجن . ثم رشوت

السجان حتى أوصلوه إلى فانيس . وهذا استعان على الخيانة بهيلانة وماتيلد قرينتي الملكة وخادمتي الملك الخصوصيتين » .

فنقلت هـذه العبارة كما هى إلى الأمير أوب الملك الجديد . فتصرف فى الحادث أحسن تصرف . حيث استحوذ من فوره على الجناة . ولم يدع الألسنة تستحوذ على سيرة أبيه فى الممات . كما طالما اشتغلت بها فى الحياة .

ثم عرضت جثة الملك على المحنطين . وكانت هذه الصنعة درجات على قدر طبقات الناس . وعلى حسب اقتدارهم وغناهم . وكان لأربابها عينات مجسمة يعرضونها على أهـل الموتى ليختاروا منها ما يسعه يسارهم . ويحتمله اقتدارهم . أما الفراعنة فكانوا فى الممات مثلهم فى الحياة فوق الطبقات والدرجات . وكان يحنطهم أشهر الأطباء وأمهر الصناع . فلما فرغوا من عملهم شيعت جنازة الملك بالاحتفال الواجب لمقام الفقيد . وعلى إثر الدفن أعلن القصر حدادا . وظهرت الأمة فى الحداد كذلك ثم مازالت إلى أن انقضت مدته . فأعلن الشعب البشائر والتهانى بالملك القائم . وأخذ وادى النيل زخرفه وازين . وجلس بساماطيق على عرش الفراعنة . حين المخاوف جمة . والأخطار محدقة . والمستقبل مظلم . والغد مستطير الشر . مائج بالحوادث والكوارث. فلندعه الآن يدبر أمره . ولننظر فيما كان من أمر جادى ووفد العرب الذى تقدم لنا القول بمسير من الحدود قاصداً العاصمة . ليعرض الأمر على حكومة الملك .

الفصل الحادى والعشرون

جادى والعرب فى ساييس

كان جادى وأصحابه من العرب قد وصلوا إلى ساييس والسرير فيها مطمئن بالملك الجديد ولى نعمة جادى ومكرمه ومقربه الأمين بساماطيق فكان العربى يرجو لخير كل الخير من هذه الوفادة . ويطمع من الملك بالمكافأة وزيادة . قد أنساه جنون لطمع ذكر ضلاله القديم . والشرك الذى مده له البغى . والبغى مصرعه وخيم .

وبالواقع كان الملك يحب جادى أعظم الحب . فلما اجتمع به وعرض عليه تفصيل لحادثة صدقه لأول وهلة . وانفتحت له مسامعه من الثقة العمياء ثقة الشباب . وهم بإقامته مقام أبيه. وتسليمه مفاتح البلاد. فاستشار لاجوس فى الأمر فقال له اليونانى :

اعلم يا مولاى أن منجاب عاش ما عاش مخلصا فى محبة الملك شديد الوفاء له ولكم آل البيت . وأن رجلا يحفظ العهد أربعين سنة وهو فى قوة الشباب ومقدرة الولاية يستغرب منه أن يخون الود ويضيع العهد وهو فى مقتبل المنايا . لم يتبق له فى هذه الدنيا إلا يوم أو بعض يوم . لا سيما والعهد فى منجاب أنه كان متمكن الديانة متينا فى تقواه . فلا يجوز على العقول بعد ذلك أنه يخون سريرك حين لا حاجة إلى الخيانة . أو يضيع دينه حين هو يؤهب لمفارقة دنياه . فصار من الواجب علينا إذن أن نسعى فى كشف دخيلة الأمر . وأن لا نسكت عن دم رجل خدم المملكة نحو أربعين عاما بالصدق والأمانة . وكانت له عند والدك الملك أعظم مكانة .

فحين انتهى الوزير من كلامه خضع الشباب للمشيب . وأذعنت الغرة للتجاريب . وعدل الملك عن عزمه الأول . وعمل برأى الوزير . وعليه عول . وكان لاجوس قد رأى أن يترك جادى وشأنه فى العاصمة جرا ولكن تحت أعين الجواسيس والأرصاد . ومراقبة الحراس والأجناد . وفى خلال ذلك يجرى التحقيق مجراه الخفى . إلى أن يعثر البغى بالباغى . وتتجلى الحقيقة فى مقتل منجاب . فوافق الملك وزيره على ذلك كله . وأمهل الفتى أياما كان فيها معززًا مكرمًا فى الظاهر. ومهانًا مضطهدًا فى الباطن . تراقب حركاته وسكناته . وتحصى عليه إشاراته .

وكان مضى المدة الطويلة على ضياع ملف الأوراق من جادى بدون أن يذيع عنه خبر . أو يظهر للحادثة أثر . قد أعاد للفتى طمأنينته . بحيث لم تعد المخاوف من هذا القبيل تخطر له على بال .

إلا أنه كان يوجس خيفة من تيمان . ويسأل عنه بين الوقت والآخر . فيعلم أنه متغيب فى الأقاليم . مشتغل يتعهد الحاميات السلطانية . وتقوية المواقع والحصون .

وما زالت الهواجس تذهب بالفتى كل مذهب . حتى قام بنفسه الشريرة أمران . وصمم على إتيانهما أحدهما أو كليهما . وذلك أن يستحوذ على أوراق تيمان . فإن لم يمكن فتك به قبل أن يظهر الملف هو أو أحد رجال حزبه . إلا أنه رأى الأولى تقديم العزم الأول على الثانى نظرًا لتغيبه عن منزله يوم ذاك . وما هو مشهور عنه من السكنى بمفرده . ثم خرج فى هذا من النية إلى الشروع . فلندعه الآن فى عمله ولننظر أين تيمان وماذا يجرى من أمره .

الفصل الثانى والعشرون

تيمان فى منفيس

كان أول ما خطر ببال تيمان عندما أسندت قيادة الجيش العامة إليه أنه يجعل صديقه " منهوت " فى مركز يليق له وينفع فيه وهو قيادة الفرق السلطانية فى منفيس العاصمة الثانية للمملكة . فعرض ذلك على الملك فأجابه إلى طلبه . وعين منهوت قائداً عاما للمدينة . وكان تيمان منذ خلف الغادر فانيس على زعامة الجيوش لا يألو المدائن والتخوم تعهداً وتفتيشاً . فبينما هو هذه المرة فى منفيس عند صديقه منهوت أبلغته الأرصاد أن عدداً عظيما من السفن الحربية يؤهب للخروج من مياه " ساموس " . ولا يدرى ماذا تؤم هذه السفن . فقام القائد لهذا الخبر وقعد . وذهبت به الظنون كل مذهب . فاستعد من فوره للمسير إلى نقراطيس أكبر الثغور المصرية يومئذ لعله يكشف حالا عن تجهيز ذلك الأسطول أو يعرف له مقصداً .

فلم يكن منه إلا أن أنفذ إلى الملك من يسر إليه هذا النبأ ويعلمه بقيامه من منفيس إلى نقراطيس لتحقيقه . فخرج الرسول يحث الركاب . وركب تيمان جواده يصحبه ضابطان من خاصة أعوانه وخدمه ديوانه . وسار الجميع سيراً حثيثاً يؤمون نقراطيس فبلغوها والظلام سائد .

وكانت هذه المدينة اليونانية من يوم أسست قد ازدحمت بمهاجرة اليونان الآتين إليها من أقاصى البلاد المصرية هروباً من ضغائن الأهالى وأحقادهم واتقاء ثوراتها فى يوم من الأيام . فلم تزد هذه الحالة ثغر نقراطيس إلا دخولا فى قبضة اليونانيين . ولم يبق لمصر فيها إلا بعض حصون لا تملك لنفسها دفاعا إذا أراد اليونان بالمدينة

شراً . وأسطول للمملكة ليس بالكبير الرهيب معظم رجاله من الفينيقيين . كان الملك أبرياس قد استعملهم فى سفنه قبل خروج فينيقيا من يد المصريين . ثم لبثوا وأعقابهم فى البحرية المصرية طوال حكم الملك أمازيس الذى هو سلام فى البر والبحر .

نرجع لتيمان فنقول إنه لما وصل المدينة وجدها هادئة مطمئنة ولم ير على الأهالى دلائل الاضطراب والشغب فاطمأن قلبه بعض الشىء . وفكر بادئ بدء أن يزور الملكة اليونانية وابنتها الأميرة فى قصرهما بنقراطيس . فتوجه على الفور إليه . وكان لا يزال فى الحداد على الملك المتوفى فلما وصله استأذن على الملكة فأذنت له فى الوصول ورحبت به وبالغت فى قيمته وأقبلت عليه إقبالا أنعشه وأدهشه . ثم سألت عن صحة الملك وأحواله فأجابها القائد بما سرها وعطفها على ابن زوجها فدعت له وللمملكة . وجرت بعد ذلك أحاديث قميز وما يبغلها من استعداد الجيش لشأن يكون له معهم . وذمت فانيس واستقبحت هروبه ووصفته بالغدر والخيانة . كل ذلك والفتى دهش ينصت لما تقول المملكة ويستغرب كيف تكون هذه عواطفها وتكون هناك مظنة خطر على البلاد من " ساموس " مملكة والدها التى علم أنها تهيئ أسطولها لأمر مجهول

وعندئذ سأل تيمان الملكة فقال :

– أحب يا مولاتى أن أعلم شيئًا عن صحة جلالة الملك بوليقراط فإن عهدى بأخباره عهد طويل .

الملكة : إن مكاتيبه الأخيرة إلى فتنت تنبئ باستقامة صحته وأحواله وسروره بجريان الأمور فى المملكة على مراده .

تيمان : وكيف عواطفه نحو الملك الجديد ؟

الملكة: لا أعلم ما هى . ولكنى أظنها صادقة حسنة. لأن والدى يحب بيت أمازيس قبل المصاهرة وبعدها. وهو كريم العهد فلا إخاله إلا حافظًا لودٍّ ما كان فى فؤاده للوالد .

تيمان ، وقد أخذ منه الاستغراب كل مأخذ : إن كنت جلالتك لا تعلمين عواطف الملك نحو رعاياك المصريين فمن يعلمها يا مولاتى ؟

الملكة : حفيدته تعلم منه ما لا تعلم ابنته لأنها تحبه ويحبها والرسائل والرسل بينهما لا تنقطع ولا تتوانى . وهى تطلعه أولاً بأول على الأحوال فى مصر كلـيها وجزئيها . وتتلقى أوامره فيما تورد وتصدر وتأتى وتذر .

تيمان : وأين يا مولاتى الأميرة. فقد وددت لو أديت الواجب فلثمت يديها . فإن لى زمنًا أرقب نيل هذا الشرف .

الملكة : فتنت فى مقاصيرها يا تيمان . ويحزننى أن أعلمك بأنها منذ غضب عليها فقيدنا الملك لم ينعم لها بال . ولم تطب عند حال . فتراها على الدوام لا بالصحيحة ولا المريضة . ولا بالفرحة ولا الحزينة . ولا بالآملة ولا الآيسة . ولا بمفقودة الطمأنينة ولا ذاهبة السكينة . ولكن بحال لا توصف . ولولا أنها تقول ما يفهم وتفهم ما يقال لقلت مجنونة متقلبة الأحوال .

وهنا لم تتمالك بنت بوليقراط أن تنفست الصعداء ونظرت إلى الفتى نظرة ملؤها الشكوى كأن هنالك سرًا يضيق عن كتمه جنانها ولا ينطلق به لسانها . ثم قالت :

– اعلم يا تيمان أنه لولا إنسان فى هذه الديار تحبه فتأتى الشقية وتنقاد بأزمة غرامه ما احتملنا لك ولا لسيدك الملك ما تسومانا من خسف وترخصان من أسعارنا . مع أننا فى غنى عن الهوان. بما وهب الله لنا من الملك والسلطان. بل لولا ذلك الإنسان لرأيتما كيف يزجى والدى الأساطيل المتهيئة المتأهبة ويعرضها على قمبيز أو يغشاكما بها بحرًا حين يغشاكما ابن كيروش وجنوده برًا. وذلك الإنسان هو أنت يا تيمان.

تيمان دهشًا : أنا يا مولاتى . ومن أنا حتى يقع علىّ اختيار الأميرة فى الغرام .

الملكة مغضبة مقاطعة : لا تقل هذا وقل ما أنا حتى لا أرضى من الأميرة ما رضيت منى .

تيمان : ذلك يا مولاتى لأنى عبدها وعبد أخيها . فليس لى أن أسمو إلى عشقها بادئًا أو مجيبًا . ولو عشقتها لكتمت ذلك عن العباد . بل لهجرت هذا الوطن إلى غيره من البلاد .

الملكة : هذا أيها القائد تنصل لا ينفع. وتكلف فى العذر لا يدخل على امرأة ملكة. إذ المعلوم أنك عاشق وأن التى تعشقها أميرة لا تقل عن فتنت كرم محتد وشرف أصل . وقد دعوتها للغرام فلبت ودعتك له فلبيت . فما بالك تدعى مهابة للأميرات وتحسب حساب المقامات ؟

تيمان : إذن فأنت ترين يا مولاتى أن أمرى فى الاختيار ليس بيدى . إلا أن خلوى من عشق الأميرة لا يمنع من أن أحبها محبة الولاء والإجلال . وأحترم غرامها على كل حال . ولا يوجب حرمانى من شرف مقابلتها .

الملكة : إنها تعلم بوجودك. وكونك بين يدى الساعة . فلو رغبت فى لقائك ما كلفها ذلك إلا خطوة .

تيمان : أمركما مطاع على كل حال يا مولاتى .

وكانت هذه العبارة ختام الحديث وأذنت له فى الانصراف . فانصرف إلى نزله فى نقراطيس حيث صاحباه فى انتظاره . وهنالك أخذ الثلاثة يدبرون لهم أمراً فى كشف حقيقة الخبر المتواتر عن تأهب السفن الساموسية . فنحن تاركوهم وعملهم وناظرون فيما كان من أمر جادى .

الفصل الثالث والعشرون

جادى وما أصابه

تركنا جادى يفكر ويدبر ويتحيل لعله يستحوذ على أوراق تيمان فى غيابه لاعتقاده أن الملف الذى يتهدده موجود بينها لا محالة .

وبالواقع أخذ العربى يخرج كل ليلة فيتوجه إلى ناحية الهر الهائم وهنالك يقترب من منزل تيمان ويحوم حوله ويطيف به ليتحقق خلوه من الساكن كما هو الشائع عنه . فثبت عنده أن الإشاعة فى محلها . وأن الدار ليس بها ديار . وعندئذ صمم على العمل وشرع من فوره يقتنى الآلات اللازمة ويستعد للسرقة الهائلة .

حتى إذا أخذ للعمل أهبته خرج فى ليل بهيم حالك الأديم يؤم نزل تيمان على ناحية الهر الهائم . حتى غشيه غشيان ابن آوى من حذار ورقبة فما زال يعالج مدخله حتى انفتح له فدخل وفعل مثل ذلك بالباب الأول فصار فى دهليز الدار . وهنالك أشعل مصباحًا صغيرًا كان أعده لهذا الغرض . ثم مشى فى ضوئه يتنقل من دهليز إلى آخر . ويخرج من حجرة ويدخل غيرها . وهو ينقب ويقلب حتى عثر على صندوق من الحديد متقن الصنع عسير شديد . لا يتخذ مثله إلا للأوراق الغالية أو النقود .

وقد وضع هذا الصندوق على شبه عمود يحمله فى وسط حجرة مفتحة الأبواب دون سائر الحجر . فاستغرب جادى الأمر واتهم تيمان فى نفسه بقلة الحرص وسوء التدبير . إلا أنه برؤية هذا استبشر وأيقن أن فيه طلبته . فدنا منه وعكف عليه يعالج فتحه فانفتح بغير كبير علاج . فأدخل العربى يده فى الصندوق ليأخذ ما فيه فوقعت على أوراق . ففرح بذلك أشد الفرح . وأراد أن يخرجها بما استحوذت عليه من الورق

فاستعصت . فحسب ذلك من عسر الغطاء وثقل حديده فأولج يده اليسرى لتنجد أختها فعلقت كذلك . فوقف اللص كالمجنون لا يدرى ما يصنع . وقد علم أن صندوقا يصطاد الأيدى لا يخشى عليه . ولو جعل على قارعة الطريق .

فلما رأى جادى أن الصندوق لا يفلت يديه. وأنه بين أمرين لا مناص من أحدهما: ترك يديه فى الصندوق والانقلاب بدونهما . أو الخروج بالصندوق كما هو . وإن كان حمل ثقله مما لا يطاق . اختار أهون الشرين . وأخف الضررين . فأجهد قواه ما أجهد . وشد الصندوق إلى صدره بساعديه فرفعه . ثم خرج على هذه الصورة وهو ينوء بثقل ما يحمل . إلى أن صار خارج الدار . وهنالك لم يدر إلا برجلين من العسس قد اعترضاه ثم أمراه بالوقوف فوقف . وقد أيقن أنه وقع فى الشرك الأكبر .

وكان مع الشرطيين رجل شيخ كبير فلما قبضا على جادى قال يخاطبهما :

– هذا هو اللص . وله ثلاث ليال يحوم حول منزل القائد العام . وقد رأيته من ساعة وهو يدخل البيت . فخذاه ولا تخافا انفلاته . فإن يديه لا تخرجان من الصندوق إلا مقطوعتين .

ثم ترك إحيا العربى للرجلين يسوقانه إلى حيث يلقى جزاءه .

الفصل الرابع والعشرون

عودة تيمان إلى سايس

عاد تيمان ومعاوناه إلى سايس بعد أن كشف أمرين هامين : استعداد الأسطول ساموسى ليكون تحت طلب قمبيز ورهن إشارته تمليقا له وتزلفًا إليه وانتقاما من كومة بساماطيق والأمر الثانى : مرض الأميرة إلى حد يكفيه خطر مناوأتها له معاكسته فى كل خطوة يخطوها .

فلما وصل إلى القصر وجده مهتمًا بمقتل منجاب كثير الاشتغال بحادثة السرقة ى قبض على جادى متلبسًا بها . وكانت يدا العربى لا تزالان عالقتين فى الصندوق . م تقدم الشرطة على كسره احتراما لأسرار القائد العام . وخشية العبث بأوراقه .

ولم تكن محاكمة الجانى متوقفة إلا على قدوم تيمان . لأن الجناية كانت ثابتة من سها . أما الأهالى فى سايس فلم يكن لهم شغل أو حديث غير هذه المسألة . وكانوا قبون حضور تيمان بصبر نافد . وقد كثر تحدثهم بمقتل منجاب بقدر ما ضعف صديقهم دعوى جادى . بعد ما ظهر عليه من الخيانة ما ظهر .

ثم كان من عناية السماء بدم الأبرياء أنه وفد على العاصمة فى هذه الأثناء جماعة ن تجار المصريين قادمين من بابل . فطلبوا مقابلة الملك فى أمر ذى بال . فأذن لهم . ما مثلوا بين يديه عرضوا له أنهم شاهدوا فانيس وجادى يساير أحدهما الآخر فى رقات . ويكثران من الاجتماع . وأنه قد ذاع فى جميع أنحاء الولاية أن القائد العام جيوش المصرية فر من خدمة الملك . والتجأ فى حمى قمبيز ملك العجم . وعرض عليه

خدمته ضد المصريين . وأن قمبيز قرب الخائن منه . وهو يعده لرئاسة الحملة التى يوجهها إلى مصر . فشكر الملك هذا الوفد . وأمرهم أن يؤدوا هذه الشهادة أمام المحكمة التى تحقق تهمة العربى .

فلما كان يوم المحاكمة ثبتت على جادى تهمة السرقة . وبقيت تهمة الغدر مفتقرة إلى مزيد ثبوت . وعندئذ تقدم تيمان لدى القضاة وقال لهم بمسمع من الجمهور :

« أيها القضاة إن أدلة ثبوت الخيانة وافرة حاضرة يقدمها لكم هـــذا الخائن بيديه » .

ثم إنه فتح الصندوق وأخرج منه ملفًا يحتوى على كثير من الأوراق السرية . وكلها تآمر ضد الملك أيام كان ولى العهد . وغالبها مما كان فانيس وجادى يتبادلان فى هذا الشأن الخطير .

وشرع تيمان بعد ذلك يحدث القضاة حديث هذا الملف . ويذكر لهم حادثة القصر القديم . ثم الدار التى كان خونة اليونان يجتمعون فيها ويجتمع بهم جادى لتدبير المكايد للأمة . ونصب المصائب لولى العهد يوم ذاك .

فلما لم يبق فى نفوس القضاة شك أن جادى قاتل أبيه البرىء النزيه . أصدروا حكمهم بقطع يديه . وسمل عينيه . وصلبه إلى أن يهلك ليكون عبرة للمعتبر .

ثم عرض هذا الحكم على الملك ليصادق عليه فاعتمده . وأمر بتنفيذه توا فنفذ . وهكذا لقى السارق الخائن القاتل جزاءه وقل الجزاء .

الفصل الخامس والعشرون

الأفراح فى فارس

كانت «بازرجاد» على عهد «كيروش» وفى أيام ابنه «قمبيز» من بعده ، أى فى ابتداء حكم هذه العائلة الكبيرة والدولة العالية الشهيرة ، عاصمة فارس والديار . ومقر بنى كيروش الكبار . قضى السعد لها . وصار القول فى مجمع البلاد قولها . فأخضعت آسيا لأحكامها . وتغلبت على أشهر أممها وأقوامها . ولم يبق سوى ممالك النيل ما لم تغصبه بحد حسامها .

وكانت فى سهل يقال له «مرغاب» يجرى فيه نهر بهذا الاسم يجوزه واد ضيق يندفع منه إلى سهل «مرداش» حيث يلتقى بنهر آخر يسمى " بندمير " ثم يصب النهران فى بحيرة «بشتجان» . وكان ذانك الواديان كلاهما شرقى الإقليم المعروف الآن «بفرنستان» . وكان من الخصب بمكان . وكان لكثرة الأمواه فيه وما يعترض من الحياض الفياض فى نواحيه منيعًا لا ينال إلا على جسر من الأهوال . وكان فى أوله بازرجاد العاصمة . وكانت مقام الملك قمبيز . وفى آخره إلى جهة مرداش " برسبوليس " المدينة الثانية يومئذ لأمة الفرس . وكانت مقر زوجة الملك الأولى وأخته الواحدة لأمه وأبيه الأميرة «مندان» .

وكانت «بازرجاد» شمس أفق «مرغاب» التى يجلوها بالمنظر العجاب . وهى فى كبده تناغى السحاب . بمشارف الأسوار والأبواب . وكان أفخم هذه وآخرها وأعظمها شأنا وأكبرها باب كسرى الذى كان يزجى لديه الجيوش ويخرج منه إلى غصب التيجان والعروش . ولم يكن فى المدينة غيره ما يزرى سناؤه بسنائه . أو يسمو فوق

سمو بنائه . الإيوان المذكور إلى الأبد . المشهور فما يخفى على أحد . فقد كان من بازرجاد بمنزلة المئذنة من المسجد . كل شيء دونه . وكان عبارة عن بناء كثير العمد والرفارف . جم الذرى والمشارف . متنسق القباب . متفرق الأبواب . له مدخل بشكل عمود مربع الأضلاع . متناه فى الارتفاع . قد كتب على أعلاه . ونقش على أم ذراه . هذه العبارة " أنا كسرى الملك الأخمنيدى " باللغات الثلاث الفارسية والميدية والأشورية . وكان يحيط بهذا الإيوان من كل جانب رياض جمة جميلة . ومروج عريضة طويلة . كلها بناؤه لقمبيز وذويه . ومنازل ورثها الملك عن أبيه . وكان كسرى مدفونًا فى بعض هذه البساتين . قد ضربت على قبره دعائم بنيان أشبه بالهيكل . كان المعبد الخاص للملك ابنه ولناس قصره .

أما مجموع مناظر المدينة فكان يجلو عن بلد حسن البناء . جديد الإنشاء . مرموق آثار العز والثراء . ولكنه ناشئ على يد كسرى مولود . قريب عهد بمزاحمة بلاد الوجود . فهو بغير قيمة أثرية . ولا منزلة تاريخية . ولا يمكن حسبانه من المدائن الكبر البشرية . بل لولا كسرى وحياته . وفتوحه وانتصاراته . لبقى أمره خافيًا على العباد . ولكان عندئذ كبعض البلاد .

والآن لك أن تتخيل " بازرجاد " فى يوم عيد من أعيادها . وأن تتمثلها وهى فى الزينة عند تام استعدادها . قد أمر الملك بها أن تزين فزينت واستعدت . وأخذت زخرفها وتحلت . احتفالا بوفود الموكب الجليل . موكب الشمس ذات الإكليل . المحفوفة بصنوف التعظيم والتبجيل . المزفوفة إلى قمبيز من ملك ممالك النيل . وظل الآلهة الظليل . وابنهم الأصيل فرعون أمازيس والد العروس . الذى أنفذها إلى ملك الفرس فى موكب مأنوس . محيط بالآلهة محروس .

وكانت نجائب البريد قد سبقت لترى حاملة البشرى إلى ابن كسرى . بأن الركاب قد خف . وأن العروس آتية من أقصى البلاد تزف . فأقام المدينة على قدم . وأنهض على ساق عاصمة العجم . واستقدم عماله لدى الشعوب والأمم . بعد أن أعلن ملوك آسيا أجمعين . الخاضعين منهم والتابعين . فاستبقوا العاصمة الكبرى فى أعظم

ظاهر ملكهم وسلطانهم . ومواكب عزهم وإمكانهم . يرفعون إلى متبوعهم الأعظم
ليل التهنئات . ويودعون إلى بابه ثمين الهديات . وقمبيز يتلقى هذى الوفود السامية
ترحاب وعظام . ويمتعها مما أعد لها من ضيافة وإكرام .

حتى إذا كان يوم وصول الموكب الزفافى هرع الناس إلى السهل أفواجا حتى
ساقت الأبواب بمن لديها . وناءت الأسوار بمن عليها . وماد السهل وماج . وارتجت
لأرض أى ارتجاج . وسبق الملك المجموع إلى فضاء السهل على مركبة سنية . فارسية
سروية . يجرها جوادان ضخمان أسودان كأنهما ماردان . وتحيطها المركبات من كل
جهات . مقلة أمراء الولايات ورؤساء الحكومات . وعلى آثارهم أمراء الأساطيل
لقواد خلفهم الأجناد . ورجال على متون الجياد . تحسبهم وقوفا وهم يمشون . من
مال الهيبة وتمام السكون .

حتى إذا اعتلت الضحى واستوت الشمس على السماء . تضفى على النهار حلل
لأضواء . سرى صوت الأبواق من جانب الفضاء . فأجابتها من الفرس النايات
لصوافير . وتلتها الطبول والمزامير . ثم ما لبثت طلائع الموكب أن هلت بالمنظر البهيج
تجلت . فحيتها الجموع بهتاف موصول . لا يقطعه إلا ضجيج الطبول .

وعند ذلك انبرى الملك لاستقبال الأميرة . فتنحت الصفوف من الجانبين حتى مر .
ما تواجهت المركبة والهودج السنى نزل الملك وأفضى الجند بالهودج إلى الأرض
نزلت الأميرة كذلك . فتقدم قمبيز ومد يده إلى الفتاة فقبلها . ثم صافح مأمور
لموكب. وكانت المركبة إلى جنب العروسين فصعدا فجلسا وتلت مركبة ثانية خصوصية.
كب فيها مأمور الموكب وكاهن آخر من مصر ملحق بركاب الأميرة ليقوم لها بالخدمة
روحانية . ثم اندفعت المركبتان تسيران خلفهما الموكبان ممتزجين يتموجان . حتى
از الجميع سهل " مرغاب " وشارفوا من العاصمة الأبواب . فإذا هى مفتوحة لهم
ترحاب . تكاد تكلل بحلاها السحاب . وهناك ابتدأ اجتلاء الزينة . وحازت الموكب
لدينة . فاستمر يسير بين جبلين يموجان من الجماهير . حتى بلغ الإيوان فى سلام
أمان . وهنالك صعد العروسان إلى رفرف فيه كرسيان . معدان للمناسبة مهيآن .

فجلسا ريثما يستريحان . وإذا الأميرة تتجلى للعيان . وتظهر للشعب من قاص ودان كأنها الهلال إذا استبان . أو المثال المنصب المزدان . لكثرة ما جعل عليها من الزينة وتقل ما حملت من الجواهر الثمينة . تخص بالذكر من ذلك نقابها الذى هو عبارة عر سلوك من الذهب النقى المسبوك . رقيقة شفافة . تعجز الصناع رقة ولطافة . يحسبه الرائى شعاعًا وهى من خالص الإبريز . ولو وجدت منصفًا لاستقل لها ثمنًا مـلك قمبيز . وفوق هذا النقاب التاج الثعبانى . شعار الملك الفرعونى . يمثل باللونين ملك الوجهين ودولة القطرين . وكان الملك لابسًا حلته التشريفية كذلك . وهى ثوب حرير مز الصنف الأول محلى الحواشى والأثناء بأشرطة من الذهب المنسوج منضورة فيها اللآلئ واليواقيت . وقد نقشت على سائر الثوب صور الكلب المختلفة دلالة على صفة هذا الحيوان الروحانية فى اعتقاد الفرس الأقدمين . وكان تاج الملك يمثل الثعبان كذلك . وكسرى هو أول من تشبه بالفراعنة . كما أنه أول من أخذ عن الملوك الآشوريين الأجنحة الخلفية . التى كانت آية ملكهم فى المجامع . وحلية دولتهم فى المحافل . فكنت ترى قمبيز يبدو فى جناحين من مجتمع الريش العزيز . المائج بسنا الإبريز . وكانا ضافيين عليه من أعلى منكبيه. إلى ما تحت جنبيه. وهو فيهما كأنه عقاب كاسر . وكان مأمور الموكب ورجاله قائمين خلف عرش العروس يؤدون وظيفتهم التى هى حراسة وجودها الغالى . وبعد هنيهة من استقرار المجلس بالمهابة والوقار أظهر الملك الإقبال على الأميرة كلفًا بغير تكلف . حتى دهش رجال دولته المطلعين على سرائره فى السياسة وما يضمر لعرش مصر من الغدر . فكان يرحب بها ويحييها ويتلطف لها فى العبارة ويتأملها فيحسد فؤاده عينيه على نصيبهما من محياها الملتمع الناضر وجمالها الكامل الباهر .

واتفق أنه ذكر اسمها المستعار فى أثناء كلامه لها فدعاها بفتنت فدارت الأرض عندئذ بالفتاة . وكاد الإيوان أن يميد بها . وبدت دلائل الاضطراب على وجهها الممتلئ من أثر العزة . كأنها تستنكف أن تركب متن الخيانة ولو فى سبيل الوطن . إلا أنها عادت فكتمت شعورها هذا وتغلبت على عواطفها الثائرة .

حتى إذا بلغت الحفلة غايتها فض الملك نظامها . فأمر بالأميرة أن تحمل إلى القصر السلطانى المعد لمقامها . وكان قمبيز قد ملأه من الجوارى وغلمان الحريم . وحمل إليه جميع ما تحتاج إليه " فتنت " أو ملكة العجم من أسباب الراحة ودواعى الرفاهية والنعيم

فسار الموكب بالأميرة إلى قصرها الخاص بين صياح البشير. وهتاف الجماهير . وهنالك ألقت عصاها واستقر بها النوى على ما تكره .

فلما صارت وحدها أخذت تذكر حادثة مجيئها إلى فارس وتتمثل أطوارها . وقد أيقنت أنها خسرت عشيقها وزوجها تيمان . وعرضت حياتها للخطر المتهدد فى كل آن .. ولم تربح من وراء هذا العناء الجاهد وهذه التضحية العظيمة إلا أمرا واحدا ، وذلك أنها بركوبها هذا المركب الخشن قد مكنت قومها من الاستعداد لحرب هائلة مع الفرس لا بد لهم منها وإن طال المدى . فكانت هذه الفكرة عزاءها الأكبر وتسليتها العظمى عن مصائبها ما مضى منها وما يتوقع .

الفصل السادس والعشرون

بترمبيس

طال عهد القارئ بخبر عن هذا المنجم الكاهن المصرى الذى تقدم لنا القول بأنه ألقى فى السجن ريثما تعد المعدات لإعدامه . والآن نرجع إليه فنقول إن قمبيز كما يصفه التاريخ ملك مصاب فى عقله إصابة لا يستمر أثرها ولا يتصل ضررها . فهو ما حضر عقله كبير العقل سامى المدارك رحيم القلب دقيق النظر فى عواقب الأمور. فإذا ناء ميزان هذا العقل بثقله ودخل الملك فى ساعة من ساعات جنونه . ونوبة من نوب خباله . فهنالك يعدم الأقارب . ويقتل الخادم الأمين والصاحب . وتحدث الأمور الجسيمة العواقب .

وقد كانت هذه حالة الملك منذ بدء جلوسه . ولكنها كانت خفيفة فزادتها كثرة اشتغاله بالحروب وإسرافه فى سفك الدماء وتمكن داء المطامع منه . إلا أن هذا الجنون لم يجد ولم تتفاقم شروره إلا بعد أن استولى قمبيز على مصر واستتب له الأمر فيها .

نخرج من هذا إلى أن الملك رجع فى أمر بترمبيس إلى الحلم بعد الجهل والرحمة بعد القسوة . فأمر أن يؤجل إعدامه إلى أن يرى الملك فى ذلك رأيا . فترك الكاهن وغلامه فى السجن برهة طويلة مهملين منسيين .

فلما وفدت الأميرة المصرية على عاصمة فارس، وكانت تقاليد المملكة تقضى عليها بتعلم آداب القصر الفارسى من جهة، والوقوف على تعاليم الديانة الفارسية لاعتناقها من جهة أخرى، فكر الملك برهة فيمن يسند إليه هذه المهمة العظيمة، ويتكفل له بتهذيب الأميرة ، التى كان من زيادة شقائها أنها حازت قبول الملك واستحوذت على فؤاده .

وبينما هو فى التفكر خطر بترمبيس على باله فسأل عنه فقيل له إنه وغلامه فى السجن ولا يزالان حبيسين يرزقان . فتهلل قمبيز لهذا الجواب والتبشر به لعلمه أن الكاهن المصرى خير من يهذب له خطيبته ويرشحها لتكون الملكة الكاملة الأوصاف فى نظر قومه العجم .

فأمر الملك للحين بإخراج الكاهن وغلامه من السجن واستدعاهما إليه . فلما مثلا بين يديه ابتدر الملك خطاب الأعمى فقال :

– تذكر يا بترمبيس أن الذى أسخطنى عليك وعرضك لشديد انتقامى حتى لبثت فى السجن برهة إنما هو دفاعك فى حضرتى عن قومك وشدة تعلقك بوطنك ..

بترمبيس : نعم أذكر ذلك أيها الملك . وأدعو جلالتك لتعتقد أن هذه شيمتى وهذا شعارى . وأن السجن أحب إلىّ من أن أخاطب فى مبدئى أو أرجع فيما صممت عليه من الدفاع عن وطنى وإن أساء إلىَّ ، ومحبة قومى وإن هم جاروا على .

الملك : وأنا لم أعف عنك ولا قبلتك فى حضرتى إلا لأهديك نور السبيل فى خدمة مبدئك الشريف وتحقيق أملك الكبير .

الأعمى، وقد تهلل واهتز وشمخ أنفه كالمعتز : وكيف ذاك يامولاى الملك ؟ – لعلك.. لعلك سمعت بمجىء بنت أمازيس إلى هذا البلد . وأنها زفت إلىَّ خطيبة . وعما قريب أقترن بها وتصير ملكة فؤادى وملكة رعيتى وبلادى .

فحين سمع بترمبيس هذه العبارة انقلب تهلله عبوسًا . وتحول سروره نكدًا وبؤسًا . وأجاب الملك بأن قال :

– هذا يا مولاى أول عهدى بسماع الخبر . ولكن لى بالأمر علمًا قبل وقوعه فليته لم يقع . وليتنى هلكت فى السجن ولم أك إلى اليوم حيًا .

الملك ، مندهشًا : وكيف تعلم شيئًا قبل وقوعه ؟ وهبك تنبأت .. فماذا يحزنك أن أقترن بأميرة مصرية . والأمر فيما أظن موافق لمرادك وفى مصلحة قومك وبلادك .

بترمبيس : إن ذلك يا مولاى من علم السماء . وإنها تختص به من تشاء . وأنا أسألها أن تكذب نبوءتى وأن تجعل هذا القران بركة ويمنًا لجلالتك . وسلاما وعصمة لوطنى . والآن ماذا تأمر جلالتك ؟

الملك : تعلم يا بترمبيس أن تقاليد المملكة تحتم على قرينات ملوك فارس أن يكن على دين بعولتهن . وإن لنا معشر ملوك الفرس رسومًا وآدابًا أحق الناس بإجرائها والعمل بها نساؤنًا اللاتى يسألن عن حفظ الأدب فى الحركة والسكنة. ويطالبن بالتلطف فى معاملة بعضهن البعض . وبذل صنوف الرعاية والاحترام لأمهاتنا وقريباتنا . وأنت يا بترمبيس قد أتيح لك أن تجاورنا برهة طويلة . وأن تدخل فى قصورنا وتخرج . وتدب فى مجالسنا وتدرج . حتى صرت كأنك أحدنا . هذا فضلاً عما اختصتك به السماء من قوة العقل وشدة الذكاء . ولهذا كله رأيت أن أجعلك المرشد لبنت فرعون . والمقيم لها فى ديانتنا وآدابنا . ولا إخالك تكره أن تكون أستاذًا لبنت وطنك وملكك .

فحين فرغ الملك من عبارته أظلمت الدنيا فى عينى بترمبيس فوق إظلام العمى . وتحير ماذا يقول وكيف يجيب قمبيز . أيطلعه على حقيقة الأمر . ويخبره بأن أمازيس قد غشه . حيث زف إليه بنت الملك المخلوع مكان بنته المقصودة بالخطبة . كلا إن ذلك يكون من ورائه إعلان الحرب على مصر للحين. وهذا ما يكرهه الأعمى ويسعى فى دفع بلائه عن وطنه وأمته . أم يجيب الملك إلى طلبه فيقبل أن يكون أستاذًا لبنت عدوه الألد وظالمه الغشوم . وهذا أيضًا جهد البلاء وحال هى أشد مضاضة على الحر من وقع الحسام المهند . فأطرق بترمبيس هنيهة يقلب الأمر على وجوهه ويذهب به فى مذاهبه ويحتاط لما يكون من عواقبه . وقد أخذت الرحمة تدب فى فؤاده للفتاة المظلومة . فرثى لها فى نفسه ورق انحاز فى معاملتها إلى جانب الحق وبينما هو فى التفكير أخرجه الملك من إطراقه بأن سأله :

– ما بالك تتردد يا بترمبيس كأنك تحجم عن القبول ؟

بترمبيس : لا تردد يا مولاى ولا إحجام . إن أوامرك عند عبدك لاترد . ولو كانت ضده فكيف إذا كانت فى مصلحته وفائدة قومه وبلاده . وإنما كنت يا مولاى أفكر فى شروط ثلاثة أعرضها على جلالتك وأعلق بها قبول هذه المهمة الخطيرة .

الملك : وما هى شروطك علينا يا بترمبيس . تكلم ولا تخف . إنى أحبك وأجلك . ولا أحب أكثر منك ولا أجل أعظم من حرية ضميرك وإبائك لأن هاتين الصفتين حبيبتان إلينا معشر الملوك . ولكن قل أن نجدهما فيمن نحب ونقرب من الرجال .

بترمبيس : عشت يا مولاى وبورك للفضائل فيك . أما مطالبى الثلاثة إلى جلالتك فهى: أولاً : أن تهب لى كل ذنب جنته الأميرة أو تجنيه فى المستقبل مهما كان عظيما .

الملك : ذلك لك يا بترمبيس . إلا ما نال العرض وانتهك حرمة الزوج .

بترمبيس : الثانى يا مولاى أنه إذا نشبت الحرب بين فارس ومصر فى يوم من الأيام وانتصرت جيوشك الجرارة على فرعون وجنوده لا يأخذ الملك قومى المصريين بجريرة ملوكهم بل يستعمل فى أمر ما جبلت عليه سجاياه من الرأفة والرحمة .

الملك متبسما : وذلك أيضاً لك يا بترمبيس . فهات الآن الشرط الثالث. بترمبيس : – الشرط الثالث أنه إذا قضت السماء بأن خيلك تهاجم وطنى يكون لى الحق أن أعود إليه متى شئت . وأن أندمج فى صفوف قومى للذود عن ديارى الحبيبة .

الملك ، مغرباً فى الضحك : وهذا أيضاً حقك يا بترمبيس . العدل يأبى أن أمانعك فيه . ولكن بحقى عليك ماذا يغنى عن مصر إذا دهمتها بنصف مليون من جنودى الباسلة أن يدخل فى صفوف المدافعين عنها رجل شيخ أعمى ؟

بترمبيس : لا يغنى يا مولاى ولكن يغنينى أنا الذى وطدت النية على أن أقرن أجلى بأجل مصر. فإذا هاجمتها أمة هى القاضية عليها سافرت إليها طلباً للموت فى ساحات القتال.

الملك : قد أجبتك يا بترمبيس إلى طلباتك . فلم يبق إلا أن تتوجه إلى رئيس الخصيان فتبلغه أوامرى بشأنك . وأن لا يتعرض لك أحد منذ اليوم فى الدخول على الملكة متى شئت والخروج من عندها متى جئت .

قال الأعمى : سمعاً وطاعة . ثم نهض فتقدم غلامه وأخذه بيده منصرفاً به من حضرة الملك .

الفصل السابع والعشرون

اجتماع بترمبيس بدل

دخل رئيس الخصيان بالمصرى الأعمى على الملكة وبلغها أوامر الملك بشأنه . وكانت دل لا تعلم شيئًا عن وقائع بترمبيس مع والدها . ولكنها شعرت عند ذكر هذا الاسم كأن حياتها انبعثت . وآنست راحة للخاطر لا مزيد عليها لكونه اسما مصريا فلا يكون حامله إلا مصريا . ولأن صورة الرجل مصرية كذلك فلا يمكن أن يكون الاسم مستعاراً . فلم يسعها عندئذ إلا أن رحبت بأستاذها الأعمى بلسان المستأنس الفرح . ثم التفتت إلى رئيس الخصيان وقالت له :

« بلغ جلالة الملك مزيد امتنانى من هذا الصنع الجميل والشعور اللطيف . فلا أظن جلالته إلا قد راعى جنسيتى فأراد أن يكون أول من آخذ معه وأعطى فى عاصمة فارس رجلا بمنزلة الأستاذ من علماء المصريين " .

قالت هذا وأشارت للخصى أن ينصرف ففعل . ثم تقدمت نحو بترمبيس وأخذت بيده فأجلسته وهى فرحة برؤيته مسرورة . وعندئذ تحركت شفتا الأعمى للكلام وهو فى حالة من الاضطراب لا تحتمل المزيد فقال :

– أتدرين يا بنت أبرياس من هذا الأعمى الذى سيق إلى هذا الموقف سوقًا وأطاق أن يكون لك جليسًا وأستاذًا برهة من الزمن ؟

فوقع هذا الخطاب من الفتاة موقع الاستغراب واهتزت له. فسألت الأعمى مقاطعة:

– ومن تكون أيها الأستاذ ؟ وماذا حملك على القبول بشىء تكرهه ؟

الأعمى : اسمعى يا نيتيتاس وعى . أنا الذى سمل أبوك عينيه وجدع أنفه وقطع أذنيه وفجعه فى أعز الناس عليه . لكنى لا آخذ الولد بجريرة الوالد . فلن أنالك بسوء . ولن أريد بك شراً . وقد ندبنى قمبيز زوج فتنت لأهذب له دل زوجة تيمان .

دل ، وقد دخلت فى أشبه الحالات بالجنون : لا أيها الأستاذ إن هذا سوء ظن ومحض كذب . ما أنا بنت أبرياس . ولا أنا زوجة تيمان . إنما أنا فتنت زفنى أبى أمازيس إلى الملك قمبيز .

بترمبيس : لا حاجة إلى الإنكار يا دل . فإنى أبصر من المقبرة وأنا أعمى بعيد عنها فوق ما تذكرين أنت مما مر لك لديها .

الملكة : أواه ما هذا البلاء . ارحمنى أيها الشيطان . رفقًا بى أيها الملك . اتق السماء فىّ أيها الخيال . من أنت ؟ . ماذا تكون ؟ . لعلى حالمة أو أنا فى جنون . بترمبيس : اجمعى قواك يا نيتيتاس واسترجعى صوابك . وأيقنى أننى لست شيئًا مما زعمت . إنما أنا إنسان مثلك .

الملكة : أنت لست...! كيف ونحن لم نر شبحك ليلة المقبرة ؟ ولكن سمعنا صوتك . وأنت الذى عقدت لتيمان علىّ فى حلك المقبرة ...

بترمبيس : اعلمى يا نيتيتاس أننى لم أعقد لتيمان عليك . ولا كنت صاحب حادثة المقبرة . ولكنه أخى ونحن إخوة ثلاثة من سلالة ساحر قدير . قد أعطتنا السماء من علم غيبها وأسرار قواها الخفية ما لم تعطه بشر غيرنا . وقد سبق فى علمها المتقادم أننا نموت فى ساعة واحدة وأننا نموت على دين موسى .

وقد اعتنق أحدنا هذا الدين فكان ذلك دليلا على أن الساعة قد أتت . وأننا عن قريب ميتون . والآن لا ينقذك يا نيتيناس من الخطر الذى زين لك أمازيس ركوبه إلا أمر واحد وهو أن يضطر قمبيز إلى هجرك . لأنه لا يفعل ذلك مختاراً أو إذا قرب فراشك ولم تمكنيه من نفسك فأنت هالكة لا محالة . إذن وجب أن ننظر فى طريقة تضطره إلى ذلك . ولا تنبه لما هنالك والذى أراه أنك تتعاطين مركبًا سريًا يكسوك صفرة ويلبسك السقام ويجعلك غير صالحة إلى أجل معلوم لأن يقربك الملك .....

فحين سمعت نيتيتاس كلام الشيخ داخلها من صدقه وأوجست من العاقبة خيفة فقاطعته تقول :

– ولكنى أخاف يا مولاى أن أكون حاملا فيذهب الجنين شهيد أثرتى وأنانيتى . ولهذا فإنى أفضل الموت الوقتى الفعال من سيف قمبيز أو خنجره على مقاساة العلل والأدواء .

بترمبيس : لا علل ولا أدواء . ولكن يشبه للناس ولك يا نيتيتاس . ثم إنه لا خوف عليك ولا على جنينك مما سأصنع بك . لا أفعله فى مصلحتك وحدك بل لوجه الوطن الكريم الذى ركبت من أجله هذا المركب . فأنسيتنى ذكر إساءة والدك إلىَّ . وأصبح من الواجب علىَّ أن أسعى بكل وسعى فى إنقاذك وردك إلى الوطن لتلاقى هناك ميتة شريفة أو عيشة راضية .

فلما بلغ الأعمى فى كلامه هذا المبلغ من الصراحة سكنت الفتاة إليه واطمأن قلبها . فأجابته تقول :

إنى أسلمت نفسى إلى إله موسى ثم إليك يا مولاى فافعل بى ما أنت فاعل . والله يوفقك لما فيه سلامة جنينى . قال الأعمى : وأنا أغتنم هذه الفرصة يا نيتيتاس لأخرج من ضلالى القديم وأتبع الدين القويم دين موسى الكليم . والآن خذى من هذا الحق حبتين أو ثلاثا ولا تشفقى من أثرها إذا هى أحدثت لك دواراً وآلاما خفيفة فى الأطراف . أما أثرها الحقيقى فلا يظهر إلا بعد بضعة أيام . وعندئذ لا يستطيع الملك أن ينظر إليك أو يقترب منك .

فأخذت دل الحبات الثلاث بيد مرتجفة ثم ابتلعتها وهى تقول : اللهم إن كان فى هذا مماتى أو ممات جنينى فاحسبنا على وجهك الكريم واجعلنا فداء لمصر الوطن العظيم .

قال الأعمى : إن للموت يا مولاتى أوانا لم يأن بعد . ولا أطلب منك الآن إلا أن تتلطفى للملك فى اللقاء . وتبالغى له فى اللقاء كلما دخل عليك الإيوان . واعلمى أنه

لا يدنو منك فى أيامك الأول . فإن هذه سنة ملوك الفرس . أن لا يقربوا نساءهم الشرعيات إلا بعد أن يتألفوهن وأنا الساعة ذاهب إلى الملك لأذكرك عنده . وأتغنى بأوصافك وأسترق لك قياده وفؤاده . ولكنى منذ الآن أدعوك لتدعى عنك العزة الفرعونية والإباء المصرى . وأن تجتهدى فى حد الاستيلاء على فؤاد الملكة الشيخة والدة قمبيز . وذلك لا يكون إلا بالإكثار من الاستئذان عليها فى هذه الأيام . والمبالغة فى إجلالها وإظهار الذل والاستكانة لها . فإنها هى الملك وهى المملكة وهى كل شىء تحت سماء فارس . قالت الفتاة : سمعًا يا مولاى وطاعة . ثم إن الشيخ استأذن منها على أن يعود إليها بعد برهة . فأذنت له فانصرف . وتركها كالمسحورة من هول ما رأت وسمعت فى تلك الجلسة . وقد عولت على مطاوعة الشيخ فى كل ما يأمر به . والاعتماد عليه فى موقفها الحرج وحالها المريب .

الفصل الثامن والعشرون

فيما كان من أمر فانيس

علم القارئ من أمر هذا الخائن أنه فر من مصر اتقاء بأس الملك الجديد . وهرباً من متوقع العقاب الشديد . وأنه عند مروره بمنازل الزعيم منجاب على الحدود اجتمع بصديقه الحميم جادى ولد الزعيم واستصحبه معه إلى مايل وهنالك دبرا للزعيم المسكين شر المكايد . وقد كان ذلك وقتل منجاب وعرف القارئ كيف اقتص الله من ولده اللئيم فقتل أفضح قتلة . والآن نرجع لفانيس فنقول ما برح فانيس فى بابل يهيئ للخيانة أسبابها . ويمهد للغدر سبله . وهو من جهة بين الشك واليقين من أمر العروس التى زفت إلى قمبيز . هل هى نيتيتاس كما ترك الأمر عليه حال فراره من مصر . أم عادت فتنت فقبلت بالزواج ؟ وحينئذ يكون السعى فى حمل قمبيز على مهاجمة مصر أدنى إلى الإخفاق منه إلى النجاح . ومن جهة أخرى فقد كان شديد الاهتمام بمعرفة الخلف الذى تجعله الحكومة الفرعونية مكان منجاب . لعلمه أن الحدود هى المفتاح يومئذ وأن على التمكن منها ومن حراسها يتوقف نجاح مسعاه عند قمبيز لحمل هذا الأخير على فتح مصر عنوة والانتقام من ملكها بساماطيق .

فما زال فانيس يبحث وينقب ويسائل الركبان وينفذ الرشا والجواسيس حتى ثبت عنده أن الحكومة المصرية أقامت أحد قوادها خلفا لمنجاب. فاستبشر الخائن بهذا الخبر وتهلل له لعلمه أن هذه الخطة الجديدة من شأنها أن تغير قلوب رؤساء القبائل

على الملك وحكومته لما فيها من مس استقلالهم والحيلولة بين ولاية الحدود وبين آمالهم وبذلك تكون استمالتهم إلى الفرس أسهل . والأمل بإشراكهم معه فى الخيانة أقرب إلى التحقيق .

وعلى أثر ذلك صمم اليونانى على براح بابل إلى عاصمة الفرس والاحتيال على مقابلة قمبيز وإغرائه بمهاجمة وادى النيل والاستيلاء على عرش الفراعنة . فلندعه الآن يذهب لهذه الرحلة وهذه الحيلة وننظر فيما كان من أمر نيتيتاس .

الفصل التاسع والعشرون

مرض نيتيتاس

كان قمبيز يزور عروسه فى أيامها الأول مرات فى اليوم . فيسر وينشرح صدراً بما يرى لها من الجمال الباهر والذكاء النادر والأدب الوافر وتوقد الخاطر وسرعة التعليق وكمال الاستفادة من دروس بترمبيس وتعاليمه . فلم يسعه إلا الثناء على مقدرة الأعمى على الإفادة واجتهاده فى تحقيق ما يروم من عروسه الفتانة فى الأقرب الممكن من الزمان .

وكان سائر أهل القصر مع الملك فى امتداح الملكة الجديدة والإعجاب بمزاياها السامية . وفى مقدمة الجميع الملكة الشيخة والدة قمبيز . فقد شنفتها الفتاة حبا واستمالها إليها بكل وجدانها . حتى لم تكن تعطى عنها صبراً : فنشأ عن ذلك حسد سائر زوجات الملك الشرعيات منهن والغير الشرعيات لبنت فرعون .

ولم تمض سبعة أيام من أخذ الفتاة على بترمبيس حتى كمل تعليمها الدينى واستعدت للخروج من الديانة المصرية والدخول فى الديانة الفارسية . وكان الظن أن هذه العقبة تشغل أربعين يوماً لاجتيازها فاتفق الأعمى والأميرة على أن يطلب الأول من الملك صدور أوامر باعتناق بنت فرعون الديانة الفارسية، وقد كان. وعرض بترمبيس ذلك على الملك بعد أن أقنعه باستعداد الفتاة له كل الاستعداد . فلما سمع قمبيز بذلك كاد يجن فرحاً وسروراً ولكنه لم يستغرب الأمر لعلمه أن التلميذة على ذكاء نادر وأن الأستاذ ماهر قوى قادر .

وعلى أثر هذه المقابلة أصدر الملك إشارته بإعداد الحفلات الرسمية وإقامة معالم الزينة والأفراح لتقليد الملكة ديانة البلاد وإدخالها فى عبادة الآباء والأجداد .

فلم يمض يوم أو بعض يوم على صدور الأوامر الملوكية حتى استعدت الأمة والحكومة كلتاهما للاحتفال بهذا العيد . ودخل رؤساء الديانة وعظماء الدولة على الملكة حجرة العرس فامتحنها الكهنة فألفوها تكاد تكون كأحدهم علمًا بأسرار الديانة الفارسية وإحاطة بدقائقها . وهنالك دعيت لتعلن اختيارها لدين الملك واعتناقها إياه . فأعلنت أنها تخرج من الديانة المصرية وتدخل فى ديانة فارس الرسمية .

وما كادت الحفلة تنقضى وينفض الملأ من حول الملكة حتى مسكت أطرافها كأنها تشكو من ألم طرأ عليها ثم اعتراها دوار فاتكأت على العرش مستلقية . فلا تسل عن هرج القوم ومرجهم وتطاير قلوبهم من الهلع . فسأل بترمبيس عن الخبر فذكر له فاخترق الصفوف ودنا من الملكة ثم أخذ يدها وجس نبضها فأيقن أن الدواء قد ولد الداء وأن هذا أول أعراضه وعندئذ التفت إلى الحاضرين وقال : الملكة بخير يا قوم . وهذا الذى اعتراها نوع من الحمى الصفراء خاص بمصر . ولعله ناشئ عن تغير الهواء وتبديل إقليم بإقليم . وإنى آمركم أن تنفضوا من حولها . وأنا أتولى علاجها فى الحال والاستقبال . فأجاب القوم بترمبيس إلى طلبه . وانصرفوا على الفور تاركين الأعمى والملكة وشأنهما .

وكان الخبر قد نما إلى الملك فى حينه فكاد يطير بلبه . وخف من فوره إلى الإيوان فدخل على الملكة غرفتها . وإذا هى قد أفاقت من دوارها بفضل اعتناء بترمبيس وتطبيبه. إلا أن الصفرة علت محياها الجميل فنقصت من جماله وصيرته أشبه بالأموات منه بالأحياء . فاضطرب الملك من هذه الحالة واقشعر بدنه . وسأل الشيخ يقول :

– هل عرفت داءها يا بترمبيس ؟

الأعمى : نعم مولاى . هذه هى الحمى الصفراء المصرية . وهذا أشد أشكالها . إلا أنه لأخطر من الداء على الملكة . لا سيما إن أمرت أن تفرد فى مقصورة فلا يدخل عليها إلا جلالتك وأنا أو غيرى ممن تختاره لتطبيبها .

الملك : ليكن ما أشرت به يا بترمبيس . ولا يتولى تطبيب الملكة سواك . لعل شفاءها أن يكون على يديك . وأن يعجل ببركة إله فارس الأعظم . الذى دانت به الملكة من لحظة .

ثم إن الملك استدعى رئيس الخصيان وأمره أن يجعل الملكة فى مقصورة خاصة بها . لا يدخلها عليها إلا بترمبيس ومن يأذن له من الجوارى والممرضات .

قال الخصى للملك : سمعًا وطاعة . وعندئذ برح الملك الحجرة ودلائل الأسف بادية على وجهه . والكدر مستحوذ على وجدانه . وهو يحاول أن يتزود من عروسه نظرة فلا يستطيع لأنها كانت ألصق بعالم الأموات منها بعالم الأحياء. فلما خلا المكان لبترمبيس ولرئيس الخصيان اشتغل هذا الأخير بإعداد المقصورة المأمور بها ونقل الأميرة إليها . ثم جيء بالجوارى الممرضات فانتقى منهن العدد اللازم . ووقف بترمبيس نفسه على ملازمة الملكة وتطبيبها .

ثم أخذت الأيام تمر والليالى تتعاقب والمرض كما كان فى البداية لا يزول ولا يشتد . والملك يسأل عن صحة المريضة من حين إلى آخر ويبعث إليها بالطبيب إثر الطبيب من أمهر ما أخرجت فارس فى ذلك العهد فلا يستطيع الأطباء التأمل فى وجهها ولا مد الأيدى إليها لجهلهم كل الجهل بدائها العضال وعلّتها العسراء .

الفصل الثلاثون

طبيب أجنبى

بينما الملك قمبيز ذات يوم فى مجلسه الخاص دخل عليه الحاجب فنهى أن بالباب رجلاً من الأجانب يزعم أنه من أمهر الأطباء . وأنه يكفيه أن ينظر إلى وجه الملكة المريضة ليعرف حقيقة الداء . فأمر الملك به أن يدخل فأدخل عليه وإذا هو رجل ملثم متلفف فى رداء ضاف إلا أن عينيه الزرقاوين تنبئان أنه من حرائر اليونان فما زال الرجل ينحنى حتى صار على خطوات من الملك فجثا . فأشار له قمبيز بالنهوض ثم أذن له فى الجلوس فجلس . وحينئذ سأله الملك :

– من أين الطبيب وما بغيته ؟

الغريب : طبيب يا مولاى يونانى الأصل مصرى المذهب . قدمت هذه البلاد طلبًا للرزق فعلمت أن جلالة الملكة مريضة وأن مرضها عضال وإذ كنت على ثقة من نفسى وتمكنى من صناعتى أحببت أن أعرض خدمتى على جلالتك لعل شفاء الملكة أن يكون على يدى . فأُغمر ببرك وإحسانك .

قال الملك : ليس أحب إلينا مما تطلب . ولكنى أخاف عليك أن تكون هذه وساوس تهذى بها . فقد سئمت رقاعة الأطباء وملت كذبهم وجهالتهم وأصبح الذين يتعرضون منهم منذ اليوم يعرضون أنفسهم لبلاء غضبى وصواعق بطشى وفتكى .

الغريب : وأنا راض يا مولاى بهذا الوعيد . وعلى الحظ أن يرفعنى للسماء أو ينزلنى أعماق الغبراء .

فالتفت الملك حينئذ إلى الحجاب وقال : ليذهب أحدكم بهذا الطبيب إلى الإيوان وليبلغ رئيس الخصيان أنى آمر بدخوله على الملكة ورؤيته إياها . فانطلق الحاجب واليونانى على إثره يقصدان الإيوان حتى وصلاه . وهنالك بلغت إشارة الملك إلى رئيس الخصيان . فمشى والطبيب يتبعه حتى بلغا ومقصورة المريضة . فسبقه الخصى إليها، واستأذن له عليها . فأذنت له فى الوصول فمثل لديها . وعندئذ دنا الطبيب من المريضة وتأملها مليًا وهو لا يرفع عينًا ولا ينبس ببنت شفة حتى إذا فرغ من تأمله التفت إلى رئيس الخصيان وخاطبه بصوت جهورى قائلا : علىَّ أيها الرئيس بالملك . وها أنا فى انتظاره خارج الغرفة حتى يحضر . فأدهشت هذه العبارة الخصى الأول بقدر ما ألقت القلق والفزع فى نفس نيتيتاس وبترمبيس .

ثم إن الطبيب خرج ينتظر قدوم الملك . ولم يسع رئيس الخصيان إلا التوجه توًا إلى حيث الملك ليعرض الأمر عليه . وفى هذه الأثناء خلا المكان لبترمبيس وللفتاة فقال لها بصوت منخفض لا يسمعه سواها : « لا تخافى يا نيتيتاس ولا تجزعى . وهبى أن الرجل واش فى زى طبيب وخائن فى ثياب غريب فليس عليك إلا أن تعرضى الحقيقة للملك ولا تخفى عنه شيئًا . فإنه جرىء يحب الجراءة . شهم يحب الشهامة . صريح فى الأفعال يحب الصراحة فى الأقوال . قالت : لا يكون يا مولاى إلا ما به أشرت .

الفصل الحادى والثلاثون

الملك لدى المريضة

رجع رئيس الخصيان بالملك إلى الإيوان . وكان الطبيب خارج الحجرة فى انتظاره . فابتدر الملك سؤاله يقول : ما حاجتك إلينا أيها الطبيب ؟ قال : ستعلمها يا مولاى متى جمعتنا حجرة المريضة . قال : إذن فلندخل . ثم دخل يتبعه الأجنبى . وما هو إلا أن جمعهما والمريضة المجلس حتى قال الرجل يخاطب الملك :

– إن الملكة يا مولاى لا يمكن أن تكون إلا مسحورة . وإلا فليست هذه الأميرة « فتنت » بنت الملك أمازيس فرعون . فقد رأيت الأميرة فى مصر غير مرة ولا يزال خيالها فى عينى وعينها فى خيالى . والآن أرى أن تلك إنسانة وهذه إنسانة ..

الملك ، مندهشًا : أنت لا يمكن إلا أن تكون مجنونًا أيها الطبيب . فإن هذه هى فتنت بنت أمازيس . وهو أضعف من أن يجترئ على غشنا فيسوق إلينا إحدى البنات مكان بنته المقصودة بخطبتنا .

الطبيب : إن كنت يا مولاى فى ريب مما أقول فاسأل الملكة المريضة فإنها أدرى بنفسها منى .

فحين سمعت نيتيتاس عبارة الطبيب وثبت من مضجعها كالظبى المروع فى كناسه . واستقبلت الملك بوجه يبين عن أثر العزة ساطع البرهان ثم قالت :

– ما أنا يا مولاى بمسحورة ولا الطبيب بمجنون . ولكنى مريضة حقيقة وهو صادق فيما زعم ..

الملك ، مقاطعًا مغضبا هائجا : ويحك ماذا تقولين ؟ أبلغ من قدر أمازيس ..

نيتيتاس : حلمك يا مولاى . وراعنى حتى أستتم ثم افعل ما بدا لك .

الملك : تكلمى يا خائنة.

نيتيتاس : لست الخائنة . بل الخائن من خدعنى كما خدعك . وغشنى كما غشك . الخائن أيها الملك هو صهرك أمازيس . وأنا إن قبلت أن أكون آلته الصماء فيما جنى على نفسه وملكه فحبا ببلادى ولأجل عرش آبائى وأجدادى . اعلم أيها الملك أنك لما خطبت إليه ابنته فتنت وكلمها هو فى ذلك امتنعت كل الامتناع وتهددته بالعقوق إذا هو ألح بها وتمادى فى الضغط عليها . فلم يجد عندئذ غيرى أنا المسكينة اليتيمة السجينة نيتيتاس بنت الملك أبرياس من يقدمها مكان ابنته ويستخدمها فى إنفاذ حيلته. وتشهد السماء أنه ما تهددنى بقتل ولا توعدنى بعذاب. وإنما جاءنى من السبب الأقوى. وتملك منى المحل الضعيف . فقبلت بأن أزف إليك مكان ابنته وأنا موقنة أنى أفتدى وطنى بحياتى وأريق دمى الزكى فداء لعرش آبائى وأجدادى . هذه أيها الملك هى حقيقة الأمر . وأنا متهيئة من يوم قبلت بالزفاف للوقوع تحت غائلة عقابك الصارم وانتقامك الشديد . فاقض الآن بما شئت وليكن بالموت فلألقينه لا كارهة ولا خائفة .

بترمبيس داخلا فى الحديث : علمت السماء. لقد غش الظلوم نفسه من حيث غشك أيها الملك . وما قدم لك إلا خيراً من بنته . قدم لك العريقة النسب فى الفراعنة وإن كان أبوها أعدى عدوى . قدم لك الطاهرة الأخلاق . الزكية الأعراق . الوفية لعرش آبائها وأجدادها . المخلصة فى حب قومها وبلادها . فيا أسفا عليك يا نيتيتاس أفى مثل هذا الشباب تصابين بالداء القتال ثم لا يريحك منه إلا خنجر قمبيز أو سيف جلاده .

قال الملك، وقد عطفت عبارة الأعمى على الفتاة: وهل داؤها قتال كما زعمت أيها الأستاذ ؟

بترمبيس : نعم داؤها قتال يا مولاى . ولكنه يلازمها الأيام الطوال ..

الملك : ألا ترى أنها أقرت بمشاركة أمازيس فى جناية الغش والخيانة وهذا ذنب لا يسعنى غفرانه لها ..

بترمبيس: ولكن فى وسعك يا مولاى أن تهبه لى كما سبق بذلك وعدك ووعد الملوك دين.

فأطرق الملك هنيهة ثم رفع رأسه وقال : لقد وهبت لك ذنبها يا بترمبيس . ووهبتها هى أيضًا لك . لأنى آنف أن تكون زوجتى بعد أن شاركت أعدائى فى غشى وخداعى . مهما كانت الأسباب الحاملة لها على ذلك . واعلم أنى أنجز ما بقى من وعدى . فآذن لك منذ الآن أن تتوجه أين شئت . وأقر لك أننى لا آخذ قومك المصريين بجريرة ملكهم الغاش الخادع ..

فأطرق الأعمى هنيهة . وأطرقت الفتاة كذلك . وقد دارت بهما الأرض وأظلمت الدنيا فى عينيهما . وأيقنا أن وطنهما العزيز قد أصبح عرضة لأعظم الأخطار . خطر السقوط والدمار . ثم رفع بترمبيس رأسه وقال :

– نفس بترمبيس تفديك من ملك صادق الوعد . ولكن يحزننى يا مولاى أن أراك قد صممت على محاربة فرعون لأننى أرى فى هذه الحرب القاضية على ملك الفراعنة لا محالة ضررًا ينال وجدانك الشريف بالذات . وقد سبق أنى مثلت لجلالتك عواقب الأمر فآخذتنى بجراءتى وعاقبتنى على صراحتى فى النصيحة .

الملك : وليس ما يمنعنى من أن أعود إن أنت عدت يا بترمبيس وتماديت فى محاولة المحال. وهب أن تنجيمك قد صدق . ولحق بشخصى من جراء الحرب ما لحق . أليس من بعدى لفارس وعرشها وتاجها النصر الأعظم والفتح . ونحن معشر الملوك ما خلقنا إلا للأحاديث من بعدنا . سواء سلمت نفوسنا أو غالتها غول . فالحرب يا بترمبيس آتية لا بد منها . ولا يمض شهران حتى يكون لى ملك مصر . والأنهار تجرى من تحتى .

فلم يكن من الطبيب عند سماع هذا الوعيد الصريح إلا أنه اطرح رداءه وانتزع لثامه فتمثل للناظرين شابًا يونانيًا فى ثياب قائد يونانى من أعاظم القواد . ثم خاطب الملك بلسان جهورى يقول :

– ولا يكون ساعداك فى هذه الحرب ومساعدك إلا عبدك فانيس القائد العام لجيوش فرعون ..

الملك مندهشا : « أنت ذا فانيس الشهير وأنت وزير فرعون ونائبه على جيوشه » . وفى هذه الأثناء كان الأعمى والفتاة يستمعان مطرقين فرفعا رأسيهما وقالا بصوت واحد : « لعنات السماء عليك يا خائن » . ثم عادا إلى الإطراق .

أما الملك فلم يحفل بقولهما هذا . بل أقبل على اليونانى هاشا باشا مملوء القلب من الآمال وسأله :

– وماذا الذى أغضبك على الملك أيها الوزير حتى فررت من خدمته وأتيت تخطب مودتنا وتسعى لخدمتنا ؟

اليونانى : بغيه يا مولاى وطغيانه . وتصديه لإيذائنا معشر اليونان . ناسيًا قديم صداقتنا لبيته وعرشه وجليل خدمتنا لبلاده وجيشه .

الملك : وهل تقسم لى أيها الوزير أنك تخدمنى بالصدق والأمانة . فقدم القائد عندئذ سيفه وجعل يمناه على قبضته ثم قال بصوت عال :

– « أنا اليونانى فانيس أقسم للملك قمبيز ملك ملوك فارس وميديا وفينيقيا وأشور بآلهة اليونان وبالشرف الساموسى وبهذا السيف أننى أخدم جلالته بالصدق والأمانة . وأكون أكبر أعوانه على محاربة مصر . والانتقام لبنى جنسى اليونان من الملك بساماطيق »

فتقدم الملك على أثر هذا القسم العظيم . وقبل القائد فوق جبينه . ثم أخذ بيده وخرجا من الحجرة . والأعمى والفتاة ينظران إليهما ويكرران قولهما : « لعنات السماء عليك يا خائن » .

الحـرب لا بـد منهـا وإن أبـاها الأنـام

حقيقـة وضعـوها فليـس فيهـا كلام

ما دام شـر فحـرب والشـر فيهـم لـزام

فى كل يـوم دعـاوى لا تنقضى وخصـام

إذا اسـتراح حسـام فى الغمد قام حسـام

وإن تصـالح قـوم تقاتلـت أقـوام

والناس للناس بالحرب سيـد وغـلام

ولن يسـودوا جميعا حتى يسود السـلام

أقبل اليوم الذى كان قمبيز يرجوه لاكتمال السعد . وأتت الفرصة التى كانت حكومته ترقبها لكيلا تفلتها بعد . وحدث الحادث الذى كانت أمة الفرس مهيأة الخواطر له . مستجمعة للوثوب على أثره .

وكانت الأمم يؤمئذ فى أول عهدها بإدراك عواقب الحرب . والشعور بجسامة المسئولية التى يعرض البادئ لها نفسه . وكانت برهة السلم التى تعاصر فيها كيروش وأمازيس وليست بالقليلة قد علمت حكومتى فارس ومصر كيف تنتفع الأولى بمسالمة الثانية . لكونها أضخم منها حضارة وأرقى بكثير فى معارج المدنية والعرفان . فلا ينبغى لها إذا أن تطفئ نورها . كما أنه لا ينبغى للسارى أن يطفئ السراج الذى يسرى فى ضوئه . ثم كيف يجب على مصر أن تحسب لفارس حسابها . وأن تلزم الحكمة فى مداراة القوى وتركه مشتغلا بالغزوات والحروب حتى يضعف نفسه بنفسه .

إلا أن هذه الاعتبارات السامية التى كان الملكان المتقدما الذكر قد اتخذاها قاعدة لسياستهما الشخصية فى معاملة أحدهما الآخر لم تلبث أن زالت بزوال الملك الشيخ

الحكيم كيروش وقيام قمبيز من بعده . وتظاهر هذا الأخير بمجافاة المصريين وحسد ملوكهم على مظهرهم العالى فى العصر . حتى اضطر أمازيس فى أواخر أيامه إلى مداراته وخداعه ولو إلى أجل ريثما تستعد مصر لقتاله وصد غاراته .

ثم كان ما كان من افتضاح ذلك السر ووقوف قمبيز على حقيقة الأمر . فتمزقت بذلك التقاليد السابقة بين الحكومتين . وكان سرور قمبيز بسنوح الفرصة أعظم من غضبه على أمازيس وابنه لاستهزائهما به وإهانتهما إياه .

فلم تلبث الإشارة السلطانية أن صدرت إلى معظم القوات الفارسية بالتأهب للسفر والاستعداد لمحاربة المصريين . وكذلك صدرت الأوامر إلى جميع الولايات بحشد الجنود وتسييرها إلى بابل حيث تجتمع الفرق المؤلفة للحملة . وبالواقع لم يمض شهران حتى انعقد اللواء لقمبيز فى عاصمة أشور القديمة على خمسمائة ألف مقاتل أو يزيدون على قدم الرحيل إلى مصر وأخذها عنوة .

على أن هذه القوة وإن عظمت وهال تمثيلها لم تكن لتحكم وحدها فى نتيجة الحرب لو لم تعزز بقوة أدبية هائلة من انضمام فانيس القائد العام لجيوش مصر بالأمس ورئيس أركان حرب العدو فى حملته على مصر اليوم .

وبالحقيقة كان فانيس أعلم من المصريين بمواقع البلاد وقواها العسكرية الحاضر منها والممكن جمعه فى زمن الحرب . وكان أعرف الناس بمحال الضعف والقوة من جسم المملكة المصرية . وكان أقدر إنسان على استمالة الشعب الساخطة من مجموع الأمة وحرمان المصريين مساعدتها فى الشدة . وكان مطلعًا وحده على سرائر القوم على الحدود ومقاديرهم ومواضع الأمانى من نفوسهم . وبالجملة كان فانيس وحده هو الكفء لوضع خطة للحملة تسير عليها فتسير على الطريق الأقصد إلى النجاح والفلاح . فإذا أعطينا هذه الاعتبارات حصتها من الأهمية علمنا أن شخص فانيس بمفرده يعدل الخمسمائة ألف جندى التى كان لواؤها لقمبيز وزمامها فى يد الوزير المصرى السابق يدبرها كيفما شاء ويسيرها أينما شاء .

الفصل الثانى والثلاثون

الحالة على الحدود

علم القارئ مما تقدم أن الحدود المصرية كانت طول زمن الزعيم منجاب أمنع من عقاب . وكانت المفتاح الذى لا سبيل إليه . ولا سلطان لأيدى السراق عليه . وأن حكومة فرعون أخطأت خطأ كبيراً فى نزع الولاية العامة على الحدود من مشايخ القبائل وجعلها فى يد قائد مصرى . حتى نفرت قلوبهم عن ولائها . وتغير ما بأنفسهم نحوها . وتمهد السبيل الطبيعى لدسائس المفسدين بينهم وبينها .

وإذ كان فانيس يعلم ذلك علمًا حقيقيًا . جعل أول همة أن يجذب إليه العرب على الحدود . ويسترق رؤساءهم عبيداً لقمبيز وأعوانًا لدى الحاجة . فكانت رسله إليهم لا تنقطع ورسائله لا تمتنع . وكانت قلائد الذهب تساق إليهم إجمالا . ونفائس الهدايا تحمل إليهم ثقالا . وكان لا يألوهم وعداً عن لسان قمبيز أن يرد إليهم استقلالهم الضائع . وأن يمنحهم من الامتيازات والنعم أضعاف ما نالوا على عهد الملك أمازيس .

وحيث كانت القبائل لا تزال تخشى بأس فرعون وتتقى سطوة حكومته وتخاف عواقب المجاهرة بعصيانه فيما إذا رجع قمبيز عن البلاد خاسراً أجفل رؤساؤهم عن إجابة فانيس إلى جميع مطالبه . واكتفوا بأن عاهدوه على أن لا يقفوا لجيش الملك فى طريق . وأن يكونوا أدلاءه المخلصين . وأن يحملوا إليه الماء كلما احتاج إليه فى صحراء لا يجد الماء عليها إلا من يعرف الطريق إليه .

فبعد أن حصل فانيس على هذه المزية الكبرى التى هى فى الحقيقة نصف الظفر أشار على الملك بالزحف فزحف . ذلك الجيش الجرار يؤم تخوم مصر حتى بلغها بسلام . فنزل دونها ولم يبق إلا مخابرة رؤساء القبائل ومطالبتهم بالوفاء بعهودهم . وبالفعل شرع فانيس فى العمل من أول يوم .

الفصل الثالث والثلاثون

استعداد المصريين وخطبة لاجوس

إذا كان الاستعداد فى فارس للحرب عظيما فهو فى مصر أسبق عهداً وأعظم . فقد تقدم القول بأنه قد بدئ بها قبل وفاة الملك أمازيس أى من يوم تنازل هذا الملك فى مرضه لابنه بساماطيق عن إدارة شئون المملكة فكانت الجنود تحشد من أقاصى المملكة والأسلحة تصنع من كل طراز . وعظم الاعتناء بإعداد المركبات الحربية والإكثار منها والاعتماد على هذه القوة العظيمة من بين القوى العسكرية القديمة . فلم ترد الأنباء بتأهب الفرس للزحف على مصر حتى كان لدى بساماطيق نحو ثلاثمائة ألف مقاتل من خيرة الجنود بسالة وسلاحا .

فلما جاءت الأخبار بهبوب الجيوش الفارسية فى البر والبحر وعدتها نصف مليون من الجند . وأن باب الإمداد لا يزال مفتوحاً للحملة . وأن ثلاثمائة ألف جندى آخرين يأخذون للزحف أهبته وعن قريب يلحقون بإخوانهم . قامت الحكومة المصرية لذلك وقعدت . واشتغل رجال الجيش بالأمر اشتغالا عظيماً . فانصرفت الأفكار وتوجهت الهمم . واشرأبت العزائم إلى أمر واحد جلل وهو إبلاغ عدد الجيش المدافع إلى نصف مليون جندى على الأقل ليحفظ التوازن بعض الشىء .

إلا أن الأمر لم يكن بالهين اليسير على مملكة فقدت مستعمراتها واحدة بعد واحدة . ثم لم يبق لها ما تعتمد عليه غير قوتها الذاتية . وقد قضت الأحوال من نحو قرن خلا أن تكون هذه القوة قائمة باليونان المستوطنين مصر من قديم الزمان . كما قضت أيضا أن يعظم الجفاء ويشتد بين هذا العنصر وبين المصريين . هذا مع علم

عقلاء اليونان فى مصر وفى سائر البلدان بأن بقاء مصر فى قبضة المصريين من أكبر أسباب سعادتهم فى كل زمان .

ولم يكن بقى فى مصر من عظماء القوم من يقول فيسمع له ويدعو فتجاب دعوته غير المشير لاجوس . فأخذ هذا الوزير الصادق على نفسه أن يعيد مياه الصفو والوئام إلى مجاريها بين العنصرين المنقسمين والقوتين المتخاذلتين . وألقى خطبة على يونان ساييس العاصمة دوى صداها فى الآفاق حتى بلغ الجزر المجاورة . وكانت الشعوب اليونانية قد أخذت توجس خيفة من عواقب هذه الحرب . وتتوقع امتداد سطوة الفرس عليها عاجلا أو آجلا إذا هم ظهروا على المصريين فى الحرب المشبوبة . فما كاد نداء لاجوس يبلغهم حتى تطوع منهم الألوف وعشرات الآلوف فى خدمة مصر ودخلوا فى جيشها أفواجا متقاطرين من أقاصى البلاد . فتألف منهم ومن جماهير اليونان الأصليين بمصر جيش جرار مهيب . اعتز به الجيش الوطنى كثيراً . وبلغ بانضمامه إليه العدد المطلوب .

ثم أضاف لاجوس إلى هذه الآية فى الإخلاص لمصر آية أخرى أعظم وأكبر وذلك أنه تمنى على الملك (لاجوس) وهو يومئذ فى الثمانين من عمره أن يجعله على لواء الجيوش اليونانية المساعدة فأجابه الملك إلى طلبه فرحا بذلك فخوراً . وبالفعل عقد لواء اليونان المحاربين لهذا الشيخ الوقور والوزير الصادق والخادم الأمين . فكان لذلك أحسن تأثير فى نفوس القوم وأشرف مثال يحتذيه شيوخهم فى كرم العهد وصدق الوفاء .

الفصل الرابع والثلاثون

القتال

إن من البلدان ما هو حصين بطبيعة أرضه . منيع بفضل موقعه . إذا هوجم صد المهاجم . وإذا زوحم تعب المزاحم . جبال معترضة وشعاب منخفضة . وبرور وعرة وسواحل صخرة . وهذا الصنف من البلاد لا يخلو أهله من شقاء ونعيم . يشقى أكثرهم بالجدب ويتعبون بالرزق وتحصيله . لكنهم ينعمون فى غالب الأحيان بالاستقلال ويحكمون أنفسهم بأنفسهم .

وإن منها ما هو كالبستان يسهل دخوله من كل مكان . تخومه سهلة مستباحة . وشواطئه موطوءة الساحة . ويدخل فى هذا الصنف البطاح والسهول والأودية . ويكون سكانه فى الغالب متمتعين برغد العيش حاصلين على صنوف النعم إلا أكبرها وأجلها وهو الاستقلال . إذ يتحتم عليهم أن يكونوا على الدوام فى يقظة . وأن لا يشتغلوا بما يلهيهم من سعة الرزق عن الحروب والفتوحات والاستكثار من المستعمرات . لكى يهيبوا الممالك ويخوفوا الطامع ويرهبوا العدو المترقب . وقد كانت هذه سياسة الفراعنة من أول يوم . ولعلها السبب فى بقاء ملكهم مهيبًا رهيبًا واسعًا كبيرًا . إلى اليوم الذى ألهاهم فيه التكاثر وأعماهم الترف المتناهى . فسكنوا إلى السلم طويلاً حتى نشأ عن ذلك زوال مستعمراتهم واحدة واحدة . وطمع الجار فيهم وتمكن الغريب منهم واستخف العدو بشأنهم .

على أنه إذا صدقت هذه الملاحظة على ناس الزمن الأول وجاز الحكم بمقتضاها فى أمرهم فلا يمكن تطبيقها على أحوال هذا الزمن وأممه . فإن التحصن الصناعى

والمعاقل المتنقلة والتفنن فى عمل الأسلحة وتقدم الفنون الحربية كل هذا يغنى عن البلاد إذا خلت من المواقع الطبيعية . ويقوم لها مقام الجبال العاصمة والشعاب الساترة .

زحف قمبيز كنصف المليون من جنده على مصر وهى خلو من المستعمرات . معطلة الأساطيل . موكولة لشعب مختلط أنسابه ساقطة أخلاقه . طويل العهد بحمل السلاح والخروج إلى ميادين الجلاد والكفاح . ومع ذلك فلم يكد يقترب من التخوم حتى تهيأ للقائه عليها جيش جرار لا يقل عن جيش قمبيز عدة ولا عديداً ولا قيادة ولا رهبة .

تقابل الجيشان على فضاء " بليوز " وهنالك مدا كلاهما المضارب بالمنظر الرائع الرهيب . ولم يكن بينهما إلا مسافة النزال والساحة اللازمة لمثليهما فى القتال . وكان فرعون بساماطيق يقود عامة الجيش بنفسه ، ويعاونه عليها الوزيران تيمان ولاجوس بعزمة لا تعرف الكلال . وقد تنازعا القلب ليقوداه فحسم الملك النزاع بأن تولى هو قيادته . وجعل تيمان على الجناح الأيمن ولاجوس على الجناح الأيسر .

وكان القلب مؤلفًا من أبطال اليونان وشجعانهم وكانوا أبرع من المصريين فى الرماية . لكنهم عرضوا للملك أنهم لا يباشرون الحرب حتى يدفع إليهم أولاد فانيس ففعل ودفع إليهم ولداً له صغيراً وبنتا طفلة كذلك .

وكانت النيران قد أوقدت من جانب العدو عنوان الصلاة واستنزال البركات على الجيش وطلب النصر له . وكان الكهنة منبثين فى معسكر المصريين يباركون الصفوف ويسترعون لها أعين الآلهة . وقد قربت القرابين لهؤلاء وذبحت الذبائح ونذر الملك وسراة الأمة لهم النذور . فجاءت الوعود منهم بالنصر العاجل والفتح القريب .

حتى إذا أخذ كلا العدوين أهبته للقتال أصبح الصبح وإذا الطبول تدق فى صفوف الفرس إيذانًا بنشوب الحرب فأجابتها الأبواق المصرية تردد صداها الآفاق . وحينئذ تراءى قمبيز للمصريين تزفه جيوشه ويحفه أعاظم قواده فرأوا بينهم فانيس وكان أقربهم من الملك وأولهم على مشورته فكادوا يتميزون من الغيظ وزادتهم رؤيته حماسة على حماستهم . أما اليونان ، وهم القلب ، فلم يكن منهم حينئذ إلا أن افتتحوا

القتال بمشهد من أفظع المشاهد وأبغضها إلى من عنده النصر يؤتيه من يشاء . وذلك أنهم حملوا ولدى فانيس على رؤس الحراب بمرأى من والدهما الغليظ القلب بعد أن قتلوهما وشربوا من دمائهما فلا تسل عن ثورة الأنفس فى الجيشين لرؤية هذا العمل الفظيع . الذى هو على ما به من شدة وقساوة أول الانتقام من ذلك اليونانى الغادر .

ثم أخذ القتال جده بين الفريقين وكان قد افتتح بالرماية التى كان المصريون عموما وموأزروهم اليونان خصوصًا أبرع فيها بكثير من الفرس . حتى لم يكن فى وسع هؤلاء الهجوم على العدو بالسلاح الأبيض أمام المنايا المنصبة عليهم من سماوات أقواسه . وكانت المركبات الحربية المصرية لا تخطئ مراميها التى كانت تأتى العدو من طرفيه فتنقصه منهما نقصًا مبينًا .

وما برحت مخايل النصر فى جانب المصريين حين العدوان الألدان بساماطيق وفانيس يترامیان بخفة ومهارة أدهشتا الأبطال وشغلتاهم عن جيئة المنايا وذهابها فى ساحة القتال . حتى سدد الملك نحو خصمه سهمًا كسهم المنية لا يخطئ فسقط على الأرض مضرجًا بدمائه . فحمله الفرس جثة لا حراك بها . وشهد المصريون وإخوانهم مصرع الغادر فطربوا أعظم الطرب . واستمروا يقاتلون مستقتلين وكلهم لسان يردد قول القائل :

وإن حياة المرء بعد عدوه وإن كان يومًا واحدًا لكثير

الفصل الخامس والثلاثون

ما سلم حتى ودع

كانت الجثث قد تعالت فى المعسكرين كالجبال . وكان القتلى والجرحى من الفريقين قد تكاثروا كالتلال . والجيشان لم يتحولا بعد من الرماية إلى الهجوم والنزال . إلى أن كان الأصيل ، فبينما تيمان فى مركبته يسدد ويرمى ويصيح بالجند وينشد أناشيد الحرب ، سمع صوتًا بقربه يقول : قد جمع الله الشتيتين يا تيمان . فليكن شكرنا له أن نستمر فيما نحن فيه . فنكر القائد الصوت لأول وهلة والتفت مندهشًا وإذا هو بنيتيتاس قد تزيت بزى الجند و كشفت اللثام عن وجهها الفتان وهى تسدد وترمى فتفتك بالأعداء فتك الأبطال الأشداء . فكاد الفتى يجن فوق جنون الحرب . وأشار لها أن تصعد فى المركبة فصعدت فاتخذها من فرط الشوق وسكر الفرح بالنصر وبها سندًا له . فكانت تناوله السهام فيرمى وترمى معه . وهما فرحان أحدهما بالآخر لعلمهما أن الموت لا يخترق منهما إلا صدرًا واحدًا .

وفى هذه الأثناء كان رجل شيخ أعمى يمشى فى صفوف المصريين ويخطب فيهم ويحرضهم على الصبر والثبات . وهو يدهشهم بفعله هذا . حتى اقترب من مركبة تيمان . وهناك عرفه جندى شيخ كان يقاتل تحت أقدام القائد فصاح به يقول : بترمبيس أخى أنت هنا . أنت بوق النصر فى هذا الجيش الباسل . فأجاب الأعمى : وأنت أيضًا يا أعز الإخوة تقاتل الأعداء . ثم اعتنق الشيخان هنيهة . وعندئذ قال تيمان : يا للعجب إنى أسمع صوت الروح . فقالت دل : وأنا أيضًا أسمع صوت

بترمبيس . ثم التفتا حولهما فرأيا الشيخين يتعانقان . فصاح تيمان عندئذ يقول إحيا أرى أم الروح ؟ فرفع الشيخ عينه ثم قال : لقد رأيتهما كليهما يا تيمان . وما هما إلا أنا . لم أمت طالما توهمت . لكن كنت أسهر عليك من بعيد . وأتمم تأديبك . وأعدك لمثل هذا اليوم العصيب . فالحمد لله الذى حقق رجائى فرأيتك بطل هذه الأمة وقائدها العام . فاستغفر لى فى هذا الموقف العظيم . واعلم أنه ليس بيننا وبين الجنة إلا مسافة السقوط على الأرض .

إلى أن فاجأ الفرس المصريين بحيلة دونها سائر الحيل فى فن الحرب والقتال . وذلك أن طليعة جيشهم حملت الهرر ثم رفعتها على مرأى الأعداء . فكأنما رفعت الراية البيضاء . لأن هذا الحيوان مقدس عند المصريين . فلم يكن فى الوسع أن يتخذوه هدفا لسهامهم . فكفوا عن الرماية ولم يبق من يقاتل العدو إلا اليونان . ثم هجم الفرس على هذه الصورة فلم يجدوا من يلقاهم غير القلب . فاضطرب لصدمتهم الهائلة . وقاتل اليونان مستقتلين . إلى أن فنى منهم الخلق الكثير . أما المصريون فلم يستمر منهم على القتال بعد رؤية الهرر إلا تيمان ومن معه من أتباع موسى .

وفى هذه الأثناء أرعدت السماء وأبرقت . ونزلت منها صاعقة تفزع منها الجيش والتفت المتقاتلون . وعندئذ صاح الروح بأصحاب المركبة يقول : الآن ننتقل من دار الفناء إلى دار البقاء . فأجابه بترمبيس : لأن هذا نذير السماء . ثم تلفف الشيخان كلاهما فى ردائيهما . واستمر تيمان ونيتيتاس يقاتلان حتى سقط الأربعة شهداء الوفاء . شهداء العهد . شهداء الغرام . شهداء الوطن .

وكانت بعد ذلك الهزيمة الكبرى . فتمكن بساماطيق من الفرار وتبعه عشرات آلاف من جنده الأمناء . حتى جاءوا منفيس وتمنعوا بها . فركب قمبيز لساعته إليها وحاصرها وأخذها عنوة وأسر الملك . وكانت الحادثة المشهورة التى نظمتها فى قصيدة « تاريخ مصر » فقلت :

لا رعاك التاريخ يا يوم قمبيز ... ولا طنطنت بك الأنباء
دارت الدائرات فيك ونالت ... هذه الأمة اليد العسراء
فبمصر مما جنيت لمصر ... أى داء ما إن إليه دواء
نكد خالد وبؤس مقيم ... وشقاء يجد منه شقاء
يوم منفيس والبلاد لكسرى ... والملوك المطاعة الأعداء
يأمر السيف فى الرقاب وينهى ... ولمصر على القذى إغضاء
جىء بالملك العزيز ذليلا ... لم تزلزل فؤاده البأساء
يبصر الآل إذ يراح بهم فى ... موقف الذل عنوة ويجاء
بنت فرعون فى السلاسل تمشى ... أزعج الدهر عريها والحفاء
فكأن لم ينهض بهودجها ... الدهر ولا سار خلفها الأمراء
وأبوها العظيم ينظر لما ... ردّيت مثلما تردّى الإماء
أعطيت جرة وقيل إليك ... النهر قومى كما تقوم النساء
فمشت تظهر الإباء وتحمى ... الدمع أن تسترقه الضراء
والأعادى شواخص وأبوها ... بيد الخطب صخرة صماء
فأرادوا لينظروا دمع فرعو ... ن وفرعون دمعه العنقاء
فأروه الصديق فى ثوب فقر ... يسأل الجمع والسؤال بلاء
فبكى رحمة وما كان من يبـ ... ـكى ولكنما أراد الوفاء
هكذا الملك والملوك وإن جا ... ر زمان وروعت بلواء

وكأن بموت بساماطيق آخر الفراعنة موت مصر وزوال استقلالها الحقيقى إلى هذا اليوم .

تمت

الفصل الأول

الفصل الأول : الزهر العجيب 269

الفصل الثانى : النزهة فى حديقة القصر 275

الفصل الثالث : ناحية الهر الهائم 281

الفصل الرابع : اليونانى أرمنديس 285

الفصل الخامس : سابيس وقصراها 295

الفصل السادس : أسباب الهوى 299

الفصل السابع : الصورة 303

الفصل الثامن : الوداع 309

الفصل التاسع : عالم مصرى فى فارس 315

الفصل العاشر : كتاب قمبيز إلى أمازيس 321

الفصل الحادى عشر : الملك وحده 333

الفصل الثانى عشر : تيمان فى القصر القديم 337

الفصل الثالث عشر : تيمان فى أثر جادى 343

الفصل الرابع عشر : يوم أغر وليلة بيضاء 351

الفصل الخامس عشر : العتاب 359

الفصل السادس عشر : الوفد الفارسى 361

الفصل السابع عشر : الوداع الآخر 363
الفصل الثامن عشر : العقد 365
الفصل التاسع عشر : حادثة على الحدود 369
الفصل العشرون : جلوس فرعون بساماطيق 375
الفصل الحادى والعشرون : جادى والعرب فى ساييس 379
الفصل الثانى والعشرون : تيمان فى منفيس 381
الفصل الثالث والعشرون : جادى وما أصابه 385
الفصل الرابع والعشرون : عودة تيمان إلى ساييس 387
الفصل الخامس والعشرون : الأفراح فى فارس 389
الفصل السادس والعشرون : بترمبيس 395
الفصل السابع والعشرون : اجتماع بترمبيس بدل 399
الفصل الثامن والعشرون : فيما كان من أمر فانيس 403
الفصل التاسع والعشرون : مرض نيتيتاس 405
الفصل الثلاثون : طبيب أجنبى 409
الفصل الحادى والثلاثون : الملك لدى المريضة 411
الفصل الثانى والثلاثون : الحالة على الحدود 417
الفصلر الثالث والثلاثون : استعداد المصريين وخطبة لاجوس ... 419
الفصل الرابع والثلاثون : القتال 421
الفصل الخامس والثلاثون : ما سلم حتى ودع 425

شيطان بنتاءُور
أو
لِبَد لقمان وهُدهُد سُلَيمانَ

تحقيق : محمد سعيد العريان
تقديم : خليل مطران

تمهيد

محمد سعيد العريان

هذا كتاب لا يعرفه قراء هذا الجيل فيما يعرفون من آثار شوقى الشاعر الناثر القاصّ ؛ وهو كتاب شعر ونثر وقصة : لا أعنى الشعر المنظوم ؛ فإن حظ هذا الكتاب من ذلك الفنّ قليل ، ولكنه إلى ذلك فنّ من الشعر يروع بلفظه ومعناه وبما تحسّ فيه من نبضات قلب شاعره ...

هو كتاب شعرٍ إذن وإن لم يكن منظومًا على ذلك النسق الذى أَلِفَه الأدباء والمتأدبون ؛ لأن مؤلّفه قد آثر أن ينثر فيه خواطره غير مقيدة بميزانٍ ولا قافية ؛ وهو إلى ما فيه من صفتى الشعر والنثر ، أسلوبٌ من القَصص يسلكه فى ذلك الباب الذى عرفه قرّاء العربية للمرحوم أحمد شوقى فى آخر ما أنشأ من فنونه الأدبية، حين عَرَض « مجنون ليلى » و « كليوباترة » و « على بك الكبير » و « عنترة » وغيرهم من أبطال الماضى القريب أو الماضى البعيد فردَّهم إلى الحياة أو ردَّ إليهم الأحياء ....

ولكن القَصص فى « محاورات بنتاءور » هذا الذى نصفه ، ليس جاريًا على ذلك النمط الذى ألفه القرّاء فيما طالعوا من قصص شوقى؛ لأنه لم ينشئه ليكون قصة ذات بدء وخاتمة وعرض متسلسل ينتهى بالمقدمات إلى نتائجها حتى تنحلَّ العقدة أو تزداد تعقيدًا ؛ كما يفعل كلُّ قاصّ فيما ينشئ من ذلك الباب ؛ وإنما أنشأه ليقصَّ قصته هو نفسه مع « بنتاءور » شاعر رمسيس الأكبر ؛ ذلك الشاعر الذى خَلَد فى الأدب المصرى القديم أو خَلَد به الأدب المصرى القديم حتى رواه لنا الحجرُ فى هذا العصر الحديث بعد آلافٍ من السنين ...

لقد عاش شوقى ، شاعر مصر الحديثة ، مع بنتاءور ، شاعر مصر القديمة ، حقبةً من عمره فى الخيال ؛ وكان بينهما من الودّ ما يكون بين الأصدقاء يلتقيان على ميعاد ، أو على غير ميعاد ؛ ويفترقان على ميعادٍ ؛ أو على غير ميعاد كذلك ؛ فيكون بينهما فى كل لقاء وفى كل فراق ما يكون بين الصديقين حين يلتقيان وحين يفترقان ، من أسباب البثّ والشكوى ، أو من أسباب الشوق والحنين ؛ ولكن بين زمان شوقى وزمان بنتاءور قروناً متطاولة ؛ وبين مكانيهما بادية جرداء متباعدة الأطراف قد انتثرت عليها أشلاء وجماجم وآثار أمم بائدة وعروش مثلولة وتيجان محطمة ؛ فأين يلتقيان إلا أن يعبر أحدهما إلى صاحبه القرون ومن حواليه تلك الأشلاء والجماجم والآثار ؟ ثم هل يكون حديثهما حين يلتقيان بعد ذلك الجهد - وإنهما لشاعران - إلا عن الأشلاء والجماجم ، وعن تلك الأمم التى كانت ثم بادت ؟

وكذلك كان ، وجرت محاورات بنتاءور وشوقى عن الأحداث التى تعاقبت على ضفتى النيل منذ عهد رمسيس إلى عصر عباس ...

محاورات فيها من بنتاءور حكمته وصوفيته وما يحتقب من علم الماضى ، وفيها من شوقى شعورُ مصرى يقظ القلب والعقل والضمير ، قد حَصَّل من علم الحاضر وذاق لذّات الحضارة وتقلَّبتْ على عينيه صورٌ من الحياة وصور من الأحياء وألوانٌ من الحوادث لم يتقلّب مثلُها على عينى شاعر رمسيس القديم ...

وكان بنتاءور - فيما تصوره هذه المحاورات - نسرًا مُعمَّرًا قد شهد الماضى كله منذ كان حتى يوم لقائه بصاحبه ، ولكنه لم يزل يعيش فى هذا الجيل بقلب بنتاءور شاعر رمسيس الذى كان يعيش على ضفة هذا الوادى منذ آلاف من السنين ؛ أما شوقى فكان هُدهُدًا حديد البصر قد أحاط بكل شىء مما حواليه علما ، وأحسَّ به إحساس الحىِّ بالحياة ، وصوره فى نفسه تصوير العين لما ترى والقلب لما يشعر والعقل لما يدرك ؛ لأنه ابن الجيل الذى لم يزل يحيا ، فهو يحس ويشعر ويدرك ويشم ريح الغد قبل أن يكون الغد ...

صورتان من الماضى البعيد البعيد إلى ما لا تُدرك نهايته فى القدم ، ومن الحاضر الحى المتوثب إلى ما لا تُدرك غايتُه من المستقبل - التقتا على صفحة مرآة ، فاختلط شعاع منهما بشعاع؛ فكان من امتزاج الصورتين على صفحة تلك المرآة ، ومن اختلاط الشعاع بالشعاع ، صورةٌ ثالثة تتملاَّها العين بإعجاب ، وشعاعٌ من حكمة يُشرق على القلب بالهدوء والاطمئنان ...

تلك قصة شوقى بنتاءور ، أو قصة هُدهد سليمان ونَسر لقمان كما تُصوِّرها تلك المحاورات ؛ فيها من شوقى شعر الشاعر ونثر الناثر وفنُّ القاص ؛ فهو فيها الشاعر الناثر القاص الذى يعرفه قرّاء العربية فيما طالعوا من روائعه المنظومة والمنثورة والمقصوصة ...

على أنّ لهذه المحاورات دلالة أخرى على فنِّ شوقى الشاعر الناثر القاص ؛ فهو قد أنشأها - فى سنة ١٩٠١ - وهو لم يزل بعدُ شابًا فى الثلاثين أو قريبًا من ذلك ، قبل أن يتمَّ تمامه فى الشعر والنثر والقصة ؛ فهى من هذه الناحية أمارة واضحة على مدى التطوُّر الذى نال فنَّ شوقى فيما تلا ذلك من سنين تزيد على الثلاثين ؛ وهى إلى ذلك أمارةٌ على شىء آخر ؛ يتصل برأى شوقى فى أحداث السياسة المصرية لعصره ، منذ كان له رأى يتحدّث به فى تلك الأحداث .

أما بعد : فهذا تعريف موجز لكتاب من كتب شوقى ، إلا يكن أعلاها فى فنِّه ، فإنه أصدقها فى التعبير عن نفسه .

وإنى إلى ذلك لأرجو أن أكون بما حققتُ من لفظ الكتاب وما صوَّبتُ من نصِّه وما ضبطتُ من كلمه ، قد أدّيت للعربية حقا وأوفيت لشوقى بدَين.

وما توفيقى إلا بالله ،

يناير سنة ١٩٥٢

مقدمة

بقلم شاعر القطرين : خليل مطران

هى شذرات حكم ؛ ونثرات فِكْر؛ صدح بها طائر مصر المحكى « أحمد شوقى » من على قمة الهرم تارة ، وبين طلول منف وعين شمس طورا؛ وذهب بها كل مذهب، فى سلسلة فصول سماها محادثات ، متناولا فيها كل عِبرة جليلة ، وكل معنى غريب، مؤاخذًا بها غضاضة مصر الآن ، برفعتها فيما تقدم من الزمان، معاقبًا بالرفق ، محاسبًا بالصدق، جعلها على لسان طائرين، هما لبَد لقمان ، وهدهد سليمان ؛ ونثرها نظما ، أو نظمها نثرا ، بحيث هى الشعر أو أنفس ، وهى الكلام المرسل أو أسلس.

ولهذا الكاتب العظيم كَلَف شديد بمجد الفراعنة ، فهو لا يفتأ يذكرهم ويملأ الصحف والآثار بما يرويه عنهم من عجيب الأخبار ، وإنما يريد بذلك تحريكَ وترٍ جمد فى فؤاد الأمة عن التأثر للحال فضلا عن الحِقَب الأُوَل ، وإحياء عاطفة فى النفوس جفَّت لعدم تعهُّدها من بدء الأزل ؛ وهكذا الشأن فى الجسم والروح ، والحس والمعنى : لا يسلم منها ما يُغفَل ، ولا يستقيم ما يُهْمَل .

على أننا نرى الغربيين أكثر حنينا إلى قدماء المصريين من أبنائهم ؛ وأشد ولوعا بتعرُّف أسرارهم وتنسُّم أخبارهم ؛ وذلك لأن حب البعيد لما يعلمه ؛ أصدقُ من حب القريب لما يجهله .

على أنَّ صاحب « عذراء الهند » بعد أن ذكر فيها خرافات جدات المصريين - وهى أشبه شىء بخرافات جداتنا إلى هذا اليوم . بما يدل على مجانسة الفكر واتصال النسب - كان جديراً بالانتقال إلى أسمى قمة يُلقى منها النظر إلى ما يستفاد من قديم الخبر ، وحديث العبر ، ففعل موفَّقا ، وفَتَح باباً مُغلقًا ،

خليل مطران

إهداء الرسالة

إلى حضرة الأستاذ الجليل العالم المفضال الشهير الشيخ
عبد الكريم سلمان أحد أعضاء المحكمة الشرعية العليا :

كَلِمٌ عُزِين إلى كَليم ... ألبستُه ثوبَ الحكيم
وجعلتُه يهدى ويهدِى ... بالحقائق والرُّجوم
فَوْضَى خواطرُه فإن ... جُمعت فكالعقد النظيم
فتراه فى وادى النَّقَا ... وتراه فى وادى الصَّريم
وتراه فى عهد العزيز ... وفى ولاية (مِصْريم)
ومن السماء إلى الثرى ... ومن الحضيض إلى النجوم
حتى إذا أتممتُها ... أهديتها (عبدَ الكريم)
وأنا المقرُّ بفضله ... الذاكرُ الحقِّ القديم

المحادثة الأولى

حَكَى الهُدهد منبئ الأنباء ، وشيطانُ بعض الشعراء قال :

أكثرتُ مخالطة الناس حتى ندمْت ، وأطلت النظر فى الكتب حتى سئمت ، واشتقت إلى عِبرة مرموقة مومقة ، وحكمةٍ من نفسها مسوقة . آخُذُها ولو من سُوقة ، لا مطروقةً ولا مسروقة : فخرجت إلى الأهرام فى وقتٍ من أوقاتنا الموصوفة ، ويوم من أيامنا المختارة ، ذَهب نهارُه إلا أواخره ، وتناوَبَ على الجوّ صاحيه وماطرُه :

تَعَرَّضَ الغيمُ فيه ... للشمس فى كل مَسْلَكْ
تروغ منه فتبدو ... وتختفى حين تُدْرِكْ
والأفْق منه ومنها ... كالطفل يبكى ويضحك

فبلغتُ فضاءها ، وإذا ذهبُ الأصيلِ عليه يزهو آونة ، ويصدأُ بالغيم آونة، والشمس صفراء فى الأفق منكسرة الأشعة ، قد كادت ولَمَّا تفعل ، كأنها عين الأشقر الأحول ، فوثبتُ إلى الهرم الأكبر ، وحططت فوق حجر ، ثم تَقَصَّيْتُ النظر ، فكانت فاتحَة العِبَر ، وباكورةَ العظات الكُبَر ؛ إذ رأيت السُّيَّاح حوالَى الأثر ، يرتعون فى الأصل ويلعبون ، وينزلون عن الإبل ويركبون ، وقد ضَفَتْ عليهم ثيابُ الكبرياء ، وجرّوا ذيول الزهو والخُيَلاَء ؛ فغضبت من رؤيتهم على هذه الصورة ، وعَيْثِهم فى القبور بعد عبثهم بالجثث المقبورة ، فقلت « أيتها الحجارة الخالدة ، اسخرى من هؤلاء كما سخرت من قمبيز وخيله ، واستهزئى بهم كما استهزأت بنابليون وجنوده !».

ثم خرجت من الغضب فأبصرت ، وتألَّفْتُ ما كنتُ أنكرت؛ وما زال الغضب يُعْمِى صاحبَه ، ويُضِلُّ راكبه ، ويُريه صدور الأمر ولا يريه عواقبه . أبصرت فرأيت الغادى

والرائح ، والترجمان بجانب السائح ، ولم أر من باكٍ ولا نائح ، ولا مُهيب بالجندل والصفائح ، يجيبه صدًى من جانب القبر صائح ؛ فرجعت فى أمر القوم إلى الرضا، وقلت إنما يزورون قبور الفراعنة فى مصر ، كما تُزار قصور الملوك فى هذا العصر ، وذكرت ساعةً قضيتها فى قصر (وندسور[1]) منذ ثمانى سنين والملكةُ يومئذ فى الحياة لا تخرج الشمس عن طرفَى ملكها كأنهما حاشيتا النهار فدخلت المقاصير ، وتنقلتُ فى الحُجر ، ورأيت فِراش الملكة وقد هجرته ، كما ينظر هؤلاء إلى مراقد الفراعنة وقد نُقل ما فيها إلى دور التُّحف ، وحِيل بين ذلك اللؤلؤ وهذا الصدف ؛ فرحم الله المصريين القدماء ، لولاهم ما ذكر مصر الذاكرون ، ولا ظلت كعبةً يزورها الزائرون:

قَضَوْا والدورُ باقيةٌ وأَوْدَوْا ... وليس شخوصهم بالمُودِياتِ
فما ذهبوا ولكن فى اغترابٍ ... وما ماتوا ولكن فى سُباتِ

قال :

ثم وقفت أتأمل قبور الملوك العظام ، وأذكر عبثَ الأنام لا الأيام ، وأعجب للأهرام – وهى من عمل الأسرة الرابعة ، وبنيان المصرى فى أول عهده بالحياة وبداية دخوله فى الحضارة – كيف رسخت فى الأرض رسوخه فى العلم ، ووقفت الدهر وقوفه فى الفن ، وكلما تأملتها جزتنى العبرة عن النظرة ، والعظة عن اللحظة ؛ فرأيت النعيم يكف يزول ، والحال كيف يحول والدولة كيف تدول ، والملك الكبير إلام يُئول ؛ وبعث الموقفُ منى فقلت :

---

(١) هو قصر ملوك بريطانيا ، وكانت تجلس على عرشها يومئذ الملكة فيكتوريا .

لما رأيت قبورهم ... كملت فما فيها لناقد
وكأنها نَهْدُ الثرى ... وكأنه مذ كان ناهد
بَليت رواسيه ولم ... تبل العظام ولا المراقد
وهوت حواليها الهيا ... كل والكنائس والمساجد
وخلت ممالك وانطوت ... دولٌ زواهر كالفراقد
أيقنت أن المرء بعد ... الموت بالآثار خالد

وأدمت النظر إلى الأهرام ، لا لعظم فى الجرم وفخامة فى البنيان ، ورسوخ فى الأرض وطول زمان – فإن استعظام رؤية الأجرام من خلائق الصبيان – لكن كمرآة أرى فها قدماء المصريين كما هم فى الأعصر الأول ولما يكتملوا دولاً أربع ، فلا أرى إلا صوراً واضحة ، وأشباحًا لائحة ؛ ثم أنظر فيها المصريين الأحياء وكأنما أتأملهم فى مرآة محدبة مقعرة : صور ممسوخة ، وأشباح معوجة ، وأعضاء كمختلط الأشلاء من ضياع التناسب ؛ وما اختلف الزجاج لكن هى الأخلاق تحسن وتقبح ، وتعلى وتسفل ، وتقوم وتعوج ، وتريك من قوم ما لا تريك من آخرين . ما أبعد ما بين الأصل والفرع، وشتان ما بين الوالد والمولود ، ذلك قبيل شاد وساد ، وأجار من البلى الأجساد، ونشر سلطانه على البلاد والعباد ، وأخذ لآثاره من بعده ميثاقا من الآباد، حياته للموت وموته للحياة ، يعمل للذكر ويهيِّئ للأحاديث ، ويترك للأبناء ، ويعلم أن السير حياة ثانية ، فى هذه الدار الفانية ، وأن ليس الموت إلا سفرا من الأسفار ، ونقلة من دار إلى دار :

ولا يستوى ناءٍ يعطل ذكره
وآخر مذكور بكل لسان

ونحن معشر الأبناء فيما نزعم ، وذرارى المصريين القدماء فيما نتوهم ، أمة نيام، لا نعرف الملك إلا فى الأحلام ، كأنا ولاة العهود شابوا وآباؤهم قيام؛ يومنا يوم

العاجزين ، وغدُنا غد اليائسين ، وأمسنا لا للدنيا ولا للدين ؛ معنى الحياة عندنا شيء باطل ، وطرفاها نعيم زائل ، وماهيتها أيام قلائل ؛ لا ندخر صالحات ولا باقيات، ولا نرجو علواً فى حياة ولا ممات ، يترك أحدنا لولده من وجده ، ولا يترك لهم من مجده !

قال الهدهد :

وما لبثت الشمس أن غربت عن بلاد، وطلعت على بلاد، فأفاق فى مهرجان وأُخر فى حداد؛ فحدثت نفسى بالانثناء ، فراراً من وحشة الظلماء ؛ لكنى ما هممت حتى شعرت بانتقاض طائر من الجوارح ، وسمعت هاتفاً يقول :

يا منادى الحجر ، ومناجى الأثر ، أخطأتك مصدوقة الخبر ، وغابت عنك أمهات العبر؛ هلا قلت فى شكوى الحال ، ونجوى هذه الأطلال :

يا أيهـــا الهـــرم المنحـــوت من زحل

صب النحـــوس علينا أنت والزمن

هوى حـــواليك ملك لا قـــيـــام له

وغـــيـــبت فى ثراك الأربع المدُنُ !

وأمسك الهاتف عن الكلام ، فالتفتُّ مذعورا ، لعلى أرى على المكان شبح إنسان، أو خيال شيطان ، فلم أر غير نسر ، مستجمع فى وكر ، نسج عليه الدهر ، وهو يرنو بصفراوين كالتبر ، فى كلتيهما إنسان كنقطة من حبر ؛ فدنوت منه وتأملت فيه ، وإذا هو قد وهن منه العظم ، وتناثر الريش من الكبَر ، وشد منسره إلى ساقَيه بأسباب من الهرم ، وأكل على جؤجؤه الزمن وشرب القدم؛ فقلت : لعله نوح النسور ، أو بعض ما حمل نوح معه من الطيور ؛ وابتدرت خطابه فقلت : سلاماً أيها الشيطان! إن كنت لبد لقمان ، فإنى هدهد سليمان !

قال النسر واستضحك : اقتربت على النبيين والطير ، وانتحلت لى ولك ما للغير، أنا آدم الشعراء ولا إطراء ، وأول من نطق بالقافية الغراء ، فوق هذه الغبراء !

قال الهدهد :

وكنت لم أفقه ما رمز إليه ، ولم أعلم مراده من بيتيه ، فبشرت نفسى وقلت : شيطان قديم ، فلأعلمن منه ما لم أعلم ، وفوق كل ذى علم عليم . ثم قلت أخاطبه :

الأيام أيها النسر مدارس الأحلام ، ولا يستوى فى العلم كهل وغلام ، فلا أستحيى أن أسألك من أنت ، فقد استبهم على ما بينت .

قال : أنا من سميت فى قريضك ، وكرمت فى شعرك وبعثت فى قوافيك : فضل لك لا أنساه ، وما كنت ترانى لولاه .

قلت : لئن صدقت مزاعمى ، فأنت الروح الأكبر ، والشيطان الأشهر ، والنسر المعمر ، بنتاءور شاعر الملك رعمسيس ، وحامل لواء البيان فى طيبة ومنفيس .

قال : إنه أنا ، وإنى بك لقرير ؛ كنت أراك تستمع لواعظ الدهر ، فوق هذه المنابر ؛ وتجمع الخبر والخبر ، عن ذلك الملك الغابر ، والسلطان الغائب الحاضر؛ وجدير بأقدم المقابر ، أن تعظ الزائر والعابر ؛ فهمست فى أذنك بالبيتين ، أريد أن أريك ما لم تر عين . انظر كيف تر منف ؟

قلت : أطلال بالية ، ورسوم عافية ، عندها قرية كبعض القرى ، لا تكاد تحسب من الثرى .

قال : فكيف عين شمس ؟

قلت : مزارع ورمال ، لا جلال عليها ولا جمال .

قال : فانظر الفسطاط كيف تراها ؟

قلت : بُيَيتات وأديرة ، وديار مستنكرة .

قال : فما هذه البلدة الزاهرة ، والروضة الناضرة والدربة السافرة؟

قلت : مدينة القاهرة .

قال : لمن هى ؟

قلت : لغير أهلها !

قال : هى إذن فى حكم المدن الغابرة : عواصم أربع ، كن مقار دول ، وكراسى ممالك ، وقواعد حكومات ؛ تغير إحداهن الشمس بأبهة الملك وعظمة السلطان ، حضرت الأهرام يومها وأمسها ، وشهدت مصرعها وكانت رمسها ؛ فاسأل ربك لقومك أن يكفيهم نحسها!

قال الهدهد :

فأطرقت أتأمل فى معانى هذه الكلم الجوامع ، وأتدبر مغازى هذه الحكم الروائع ؛ وأنا أستعرض كرة الأرض فى خاطرى ، وأقلب صفحات التاريخ فى فكرى ، فلا أجد لفضاء الأهرام مثلا فيما وصفه النسر ؛ إلى أن أخرجنى من إطراقى بأن قال :

أرى الهدهد بين عبرة جلت حين تجلت ، وفكرة فى المدائن الأربع كيف تولت ؛ فهل لك فى كلمات تمثلك وقوتك فى الظلمات ، وتريك الأمم فى حال ذهابها ، كيف ينقصها الآلهة من أخلاقها وآدابها .

قلت : لو كان فيهما آلهة غير الله لفسدتا ؛ إنى أراك فى ضلالك القديم !

قال قطعت حديثى لأمر لا يعنيك ، لك ما تعبد ولى ما أعبد ، ولا يزر النسر وزر الهدهد ؛ فإن كان لك فى الصحبة فعلى ثلاث : ألا تجرى الأمور على هواك ، وألا تنظر فيها بمقتضى طباعك ، وأن تأخذها ولا تسأل عن أسبابها ؛ فهذه الثلاثة تخرج من العلم إلى الجهل ، فكيف تخرج من الجهل إلى العلم .

قلت : ذلك لك يا شاعر الآلهة فأنجز الآن ما وعدت .

قال : هلع الفراعنة وخلت الأسرَّة منهم ، وذهبت دولهم . ونبشت قبورهم ، وعرضت جثث عزت عليهم على الناس ، ومأتمهم بينكم معاشر المصريين قائم لا ينفض ، وما مقعدكم منه إلا كالمعددة : تبكى ولا دمع ، وتندب ولا حزن ، وتهتف بما لا تعرف من أخلاق الميت وصفاته ، وسنة سارها فى حياته ؛ يفخر أحدكم بالعظم الرميم ، ويتحلى فى حديثه بالمجد القديم ، ويُسرُّ وهو عُطلٌ من الغنى عديم ، بمبالغ غيره من اليسارة والنعيم ، فإذا ذكر المصريون القدماء رفعتم الأنوف للسماء ، وزعمتم أنكم سلالة الفراعنة العظماء ، لكم التاجان وعرشكم على الماء ؛ وإذا جرت أحاديث العرب ، قلتم بيننا أقرب النسب ، ولنا ما تركوا من حسب ؛ وما هو إلا سبب قطعتموه ، ودين ضيعتموه ، ولسان عربى بالعجمة بعتموه ؛ وإذا سمى جد الأتقياء ، وواسطة عقد الأنبياء ، كنتم كلكم لآلئ الشرف ، وما خرج قط خزف من ذلك الصدف ، وإذا نصر الترك فى حرب ، وتركوا دويا فى الشرق والغرب ، كنتم السيوف والأكف والضرب ، وما ذقتم لها من حرب ولا كرب ؛ وإذا مات ملك ليس منكم ولستم منه ، ولا يسأل عنكم ولا تسألون عنه ، وخلف لقومه سيرة تسير كالأمثال ، وخلَّى مفاخر لن تبيد ولن تنال ، كنتم المؤبنين الشعراء ، لغيركم الميراث وعليكم الرثاء !

قال الهدهد :

وبينما أنا فى الإصغاء ، آخذ الحكمة الغراء عن آدم الشعراء ، إذ قطع الحديث وتركنى مفكراً فى كل ما هاج بى ذكره من قديم وحديث ، ثم صرفنى على أن ألتقيه فى منف أصيل الغد ، وإن غداً لناظره لقريب .

المحادثة الثانية

قال الهدهد :

فأقلعت للطيران ، أؤم عُشى فى حلوان ، وأنا كمن مر به غرام ، على منازل الآرام، يتلفت قلبى إلى تلك الأجرام ، ويعز على نفسى أن تفارق الأهرام ؛ ثم جاشت فى صدرى هواجس ، وامتلأ خطراتٍ من الوساوس ؛ فتمنيت على فئة غير هذه الفئة ، وأملت من حكام مصر بعد مئة ، أن يتخذوا من الأهرام مقابر ، للنفر الأنفعيين الأكابر، فيدفن فيها الجليل والعزيز ، كالبنتيون فى روما وباريز ، أمنية إن شئت عُدَّها سخافة ، وإن شئت قل حديث خرافة :

من لى بأن تجعل الأهرام مقبرة
كالبنتيون لأهل الفضل والفطن
مفتوحة لوفود الأرض قاطبةً
يزورها الناس من شام ومن يمن
مغيبين من الإجلال فى جدثٍ
مدرَّجين من الإعظام فى كفن
مسطورة بمذاب التبر فوقهم
آثارهم والذى أسدوا من المنن !

تخيلت ثم خلت الأمر قد تم ، وأعلنت الحكومة مشيئتها فيه ، وصدر الأمر العالى به ، ولم يبق إلا العمل بموجبه ؛ فأنشئت الأضرحة الفخيمة ، فى تلك الحجر القديمة ، وأقيم الحراس على أبواب الأهرام ، وكتب على مداخلها بماء الذهب لعظماء الرجال شكر الأوطان ، وقيل هذا القبر فأين الميت ... ؟

قال الهدهد :

خطرات شاعر وأمنية شيطان ، فمن حضر بعده تحقيقها فليذكره ، ومن علم بها ولم يرها أبرزت من القول إلى العمل فليعذره ، ثم بلغت عشى ، فنمت ناعم البال مغتبطا بما وعدت من لقيا النسر ، كأنما وعدت ملكا كبيرا ؛ فلما أصبح الصبح ، قطعت نهارى متململا حتى الأصيل ، وأنا لا أدرى ماذا عنى النسر بمنف ، أهذه القرية أم تلك المدينة ؟ وهل موعدنا منفيس أم ميت رهينة ؟ حتى إذا ذهب معظم النهار، طرت إلى النيل أريد أن أعبره فوق سارية من معدية ، فلما شارفته رأيت ما ملئت منه تعجبًا وتحيراً ، رأيت شاطئين يتغايران ، وضفتين تختلفان : هذه تلوح موحشة كأنها قبر بمكانٍ قفر ، أرض على الطبيعة ، وفلاح على الفطرة ، وجيئة لغير مطلب ، وذهاب فى غير مغنم ، وزرع للفلاح إنباته ، وللتاجر ثمراته ؛ وهذه تموج بمعالم العمران ، وتتجلى فى زخارف الحضارة ، وتتدفق حية ، وتتوثب وجدانا ؛ فوقفت أتأمل هذا المرأى البهج ، والمنظر العجب ، والمشهد البديع ، وأنا أتهم الخيال ولا أتهم الحس ، ولا أبرئ نفسى من سحر أو مس ، وقد أنسانى الذهول ذكر ما وعدنى النسر أمس ؛ أنظر إلى النيل فأرى المجاديف تنتهب مياهه من تكاثر السفن لديه ، وتلاقى الزوارق عليه ، مشحونة بالبضاعة ، مملوءة من الجماعة ، فكأنما أنظر إلى السين أو الرون أو الدانوب ؛ فذكرت عندئذ ما قاله نابليون لجماعة من جنده فى مصر – وقد مر بهم فرآهم ينظرون إلى النهر ، وسمعهم يتساءلون أهذا هو النيل الذى تشيد الكتب المقدسة بذكره ، وتبالغ الأجيال فى قدره ؟ إن السماع به خير من رؤيته ! فاقترب منهم وقال :

إنه لا يعوز النيل إلا خمسون عاما ، ثم يبدو لكم كما تصفه الكتب المقدسة أو أجل! فقلت فى نفسى : لئن زعم نابليون أن مصر لا ينقصها إلا التمدين ولا بدّ أن تناله على يد الفرنساوى أو غيرهم من الأمم المتمدنة ، فقد مر مائة عام لا خمسون[1]؛

(١) أنشأ المؤلف هذه المحادثات – فيما نرى – بين سنتى ١٩٠٠ و ١٩٠١ وقد مضى يومئذ على الغزو الفرنسى أكثر من مائة عام .

فما بالى أرى هذه الضفة بحالتها التى رآها جنود نابليون عليها ، وأرى لدى هذه نعيما وملكا كبيرا؟ وبينما أنا فى التخيل تارة والتأمل تارة . والتوهم مرة والتيقن كرة، بصرت بزورق يقترب منى ، ويجريه عصبة من المجدفين فى الزى المصرى القديم كما تمثلهم لنا الآثار ، وقد نهض فيه رجل كأنه المثال المذهب رونقًا واعتدالا، وسكينة ومهابة ، وهو مكشوف الرأس ، لابس ثياب المصريين القدماء كذلك ، فأشفقت من رؤية الزورق ورجاله لأول وهلة ، وتحفزت المطار ؛ فصاح الرجل بى يقول : إلىّ يا هدهد ، إنى أنا النسر فلا تخف ولا تجزع!

قلت : وما بدّلك يا مولاى ؟ وما هذه الحال ؟ وهبنى جئت إليك ، فأين تريد أن تجعلنى ؟

قال : تقدم ثم تكلم!

فطرت من فورى إليه ، فتلقانى بكلتا يديه ، ثم رفعنى فوق كتفه ، وقال : هذا مكانك فاستقم فيه ، ولا تكثر من التلفت والانتفاض فتؤذينى .

قلت : سمعًا وطاعة يا مولاى !

وعندئذ أشار إلى الملاحين أن ينثنوا بنا راجعين ، فسالت أيديهم بالزورق فى نهر سرى به الجلال ، وخط عليه الجمال ، تتلاقى السفن فيه كالجبال ، تنوء بالبضائع والغلال ، وتفيض من الرجال والأموال ؛ فسألت النسر : لمن هذه الأرباح يا مولاى؟ لقد أذكرتنى كنوز سليمان عليه السلام ، وجواريه المنشآت فى البحر كالأعلام ؟

قال : هذه رعية مولانا الملك رمسيس تروح وتغدو بين طيبة ومنفيس ، ناهضين بالمتاجر الجسيمة . قائمين بالأعمال العظيمة ، تجرى السفن بهم ليل نهار ، بين شاطئين كلاهما محط لرحال التجار ؟

قلت : وإلى أين تمضى بى الآن يا مولاى ؟

قال : ألم أقل لك موعدنا منف ؟ وها نحن قادمون ، وهذه معالمها تبدو وتظهر، وتلك مجاليها تضىء وتزهر.

فأخذنى الدهش ، وصحت : الله أكبر !

فأنكر النسر على صيحتى ، وقال : ألم أؤدبك بالأمس ؟

فهلا داريتنا فى دارنا ، وأرضيتنا فى أرضنا ؟

قلت : وما عساى كنت أقول يا مولاى ؟

قال : كان أولى بك أن تسكت ، أو أن تقول : الشمس كبيرة وحفيدها رمسيس كبير !

قلت : لا أعود لمثلها يا مولاى ؛ فهل لى أن أرى حفيد الشمس ذاك ؟

قال : ستراه وتسمعه ، فلا تعجل ولا تؤذنى بأسئلتك !

ثم استقر بنا الزورق ، ونالت أقدامنا منفيس ، فإذا بها تحلت من الزخارف بكل نفيس ، وتجلت تختال فى حلل البهاء وتميس ، حيث التفت رأيت حولى عزازة وعمارة، وثروة ويسارة ، وصناعة وتجارة ، وجاها وإمارة، وجنود البر والبحارة من كل زى وشارة ؛ فلم أتمالك أن اغرورقت عيناى بالدمع ، فالتفت النسر إلى وقال : أدمعة سرور وفرح ، أم عبرة أسى وترح .

قلت : بل كلتاهما يا مولاى ، فلئن سرنى أن أرى هذا المجد لمصر أولا ، لقد ساءنى أنى لا أراه لها أخيرا .

قال : لو أن فوق كل شبر من أرض مصر هدهداً يملؤه دمعًا لما أغنى ذلك عنها شيئًا ؛ فعليك بالتأمل والاستقراء ، قبل البكاء والاشتكاء ؛ والتبصر والاعتبار ، قبل النحيب والاستعبار !

فكفكفت دمعى وقلت : لا يكونن إلا ما أمرت يا مولاى .

قال الهدهد :

ثم مررنا بهيكل يأخذ العين ويتملك النفس ويأسر الخاطر ، ويستوقف اللب قبل الناظر ، فتوجه النسر وجهته ، ثم دخل بين حراس ينحنون له تعظيماً وإجلالا، وكهان يوفونه تحية واستقبالا ؛ وهنالك جعل يطوف بى حول القواعد والأركان ، ويرفع بصره إلى دعائم البنيان ، ويتنقل بى من مكان إلى مكان ، ويذهب بى صعداً وصبباً ، فى حجر عالية غالية ، ومقاصير خاليةٍ من عيب حالية ، منها الداجى المظلم الحالك، وبعضها منور للشمس إليه مسالك ؛ وهو يقول : هذا يا بنى الهيكل الأشهر ، بيت (فتاح) الإله الأكبر ، حامى حمى هذه المدينة ، وملبسها الأمن والنعمة والزينة ، تنقل معى من حجر إلى حجر ، ومِلْ معى عن أثر إلى أثر ، وأنعم النظر فى هذه النقوش والصور ، ترها فى ضمائر الجفن أدق من الخواطر والفكر ، وما صنعت فى نور الشمس ولا فى ضياء القمر ، لكن فى ضوء سراج ضئيل غير وهاج ؛ ثم تأمل فى الحجر بجانب الحجر ، كأنهما واحد انقسم على نفسه شطرين . انظر إلى هذه الجبال كيف قطعت ، وإلى الأساس كيف وضعت ، وإلى العمد كيف رفعت ، وإلى الزخارف كيف جمعت؛ هل ترى فى جميع ذلك إلا معرفة فى العلم ، ودراية فى الفن ، ومهارة فى الصناعة ؛ وغير إحكام فى الصنع ، وإتقان فى العمل ، ورغبة فى الثناء ، وهمة عالية فى الأمر ، وذكاء فائق فى الأمور ، وطاعة واجبة للملك على الرعايا ، وعدالة مفروضة للرعايا على الملك ؛ وهذه يا بنى أسس الآداب ، ورءوس الأخلاق ، وقوى الحياة فى الأمم ، وسر نجاح الشعوب .

قال الهدهد :

وكنت أراعى النسر وفكرتى فى الملك ، أتمنى أن أراه مرة واحدة ، فناجيته بذلك، فغضب من هذه المفاجأة ، وقال : الملوك أيها الهدهد فى كل مكان من ممالكهم ، إذا تغيبوا حضرت مآثرهم ، وإذا احتجبوا سفرت مفاخرهم ، فحيث نقلت القدم فى هذه العاصمة ، حدثك عز الملك عن الملك ووصفته لك هذه الدولة الكبرى كأنك تراه، على أنى سأنيلك سؤلك ، وأجعلك من رمسيس بحيث تسمع وترى ، فلا تعجل علىَّ ، ولا تكن كمن يزورون الآستانة ولا أرب لهم إلا « حفلة السلاملك » ، وإذا قضوا أربهم

من حضورها رجعوا إلى أوطانهم متبجحين بما لم يعلموا من أبهة ذلك الملك ، وعظمة ذلك السلطان !

قلت : أفيرضيك أن أكف عن السؤال يا مولاى ؟

قال : اسأل ما شئت إلا الصغائر ، فإنها تقتل النفوس، وتطفئ نور العقول، وما اشتغل بها شعب إلا هلك حيًا ؛ إن لرمسيس وجها كبعض الوجوه ، وجسما كسائر الأجسام لكن إذا وقفت على شيء من بسطة ملكه ، وامتلأت نفسك مهابة من سعة دولته ، ورأيت آثار نعمته على رعيته ، ثم لقيته بالذات ، لقيت إلها فى زى إنسان ، تنحسر فى جلالته العينان ، ويخفق لأدنى لحظة منه الجنان.

قلت : مررنا فى مجيئنا إلى الهيكل بعمائر شتى ، وأبنية تشيد ، وهياكل تعمر ؛ فكنت أرى العمال صنفين ، والصناع فريقين مختلفين ، فما شرف من الأعمال وكان للعقل والرأى معظم الأثر فيه، تولاه المصريون بأنفسهم ، وما خس منها وكان شاقا يشترك فيه الساعد والجسم ، كمعمل الطوب ، وجر الأثقال ، قام به طوائف من الناس زرية أزياؤهم ، مختلفة صورهم ، مسودة وجوههم؛ فمن هؤلاء يا مولاى ؟

قال : غرباء أسروا فى الحروب وجىء بهم إلى مصر ، فأرواحهم مباحة للملك، ينهب منها ما يشاء ، ويسخر من استبقى فيما يشاء ، ويجود ببعضها على قواد جيوشه الذين جنوا معه ثمر الوقائع ، وشهدوا بجانبيه المعارك والمعامع.

قلت : عجبا لكم معشر الآباء ، تبلغون هذه المبالغ من المدنية ، وتأخذون هذا النصيب من الحضارة ، ثم تقسو قلوبكم فهى كالحجارة أو أشد قسوة ؛ فلو اطلع الإفرنج خلفاؤكم فى الأرض اليوم على سيرتكم هذه فى معاملة الغريب والأسير ، لأنكروها عليكم إنكارًا ، ثم لولوا منكم فرارا .

قال : يبقى الحيف ما بقى السيف ؛ وليس ما نسبت إلى أصحابك من الرحمة المتناهية ، وعزوت إليهم من الفلسفة العالية ، إلا ضلّة من حلمك ، وقلّة فى علمك ؛ ينكرون على ملوكنا أن يلعنوا من ليس من دينهم من الأمم ، وما أشبههم فى ذلك

بإدوارد السابع ، يوم ذم المذهب الكاثوليكى بمسمع من الأشراف تباع هذا المذهب؛ ويرموننا بفرط الكراهية للغريب واقتناء الحقد له ، ولنا فى ذلك أعذار مقبولة ، فما بششنا فى وجهه قط ، ولا استنمنا إليه مرة ، إلا طمع فى ملكنا وأفسد علينا أمرنا؛ على أننا علمنا الأمم من بعدنا شرع الوطنية ، وعرفناهم كيف يطول عمر الدولة عند قوم، وتمد برهة الحكم بينهم . إذا هم اعتمدوا فى جميع أمرهم على أنفسهم ، وضربوا على يد الأجنبى أن تعبث فى شئونهم ؛ ولئن بالغنا للغرباء فى سوء المعاملة، فلنا من موقع بلادنا الطبيعى عذر واضح ؛ فما مصر إلا سهلٌ سَهْلُ غزوه والإغارة عليه ، وواد مكشوف للأبصار الطامحة إليه ؛ فلو لم يسهر عليه منا الساهرون لما لبث فى قبضتنا طوال تلك القرون؛ أما أسير الحرب عندنا فأشقى منه أسير الاستعمار عندهم؛ يزرع لهم ويحصدون ، ويبنى لهم ويسكنون ، ويسهر عليهم وينامون ، ويفتح لهم البلاد ويمتلكون ، وإلى بعض هذا ينتهى الشقاء والصغار والهون.

قلت : يكاد علمك يسع الأشياء كلها يا مولاى ؛ فلو علمت ما مراد الملك رمسيس من مواصلة الغزو ومتابعة الغارة ، والخروج من حرب والدخول فى حرب ، ومنزلته بين الملوك الغابرين منهم والحاضرين ما لا ترى أبصارهم خلفها مطرحا ؛ فهلا أقرَّ السيف وحقن الدماء ، فقد ملك الأرض فهل يريد أن يملك السماء!

قال : السيف يا بنى يعلى السيف ، والدول إذا كبرت وعز مقامها وتغلبت وعرفت الجاه والنفوذ ، جد بها الحرص على البقاء ، وطمعت فى المزيد من الارتقاء ، مخافة أن تقف فيدركها اللاحقون ، أو تتمهل فيفوتها السابقون ؛ وقد جرت العادة بين الناس أن الضعيف لا يزال يرمى القوى بالبغى حتى يصير ذا قوة مثله فيطغى مثل طغيانه ، والفقير لا يزال يتهم الغنى بالجشع حتى يثرى فيصبح هو الأجشع ؛ وليس ما ترى من رحمة الناس البوير وما تسمع من ذمِّهم الإنكليز المعملين السيف فى جنوب إفريقيا منذ عامين[1]، إلا حسداً لا ينفع البوير ولا يصغر الإنكليز ؛ ولو أن إحدى الدول

(١) انظر التعليق ص ٤٤٦.

مكانهم ما كان شأنها إلا شأنهم ؛ على أن الفتح إذا نفع القاهر مرة ، نفع المقهور ألف مرة ، فرمسيس إنما يخرج الأمم من الظلمات إلى النور، فيفك عقولهم من عقالها ، ويشفى نفوسهم من ضلالها ؛ ولولا فضل المصريين على أهل الأعصر الأول ، ما قامت للأحباش دولة ، ولا اجتمع للعبرانيين أمر ، ولا انعقد للأشوريين لواء؛ سرى نورهم فى الأمم المجاورة ، وامتدت حياتهم إلى الشعوب المعاصرة ؛ وهكذا سنة الدهر فى الناس : أواخر يرثون الأول ، ودول تبنى أنقاض دول ...

قال الهدهد :

فعذبت مقاله النسر فى نفسى ، كأنها لفظ الشفاء على لسان طبيب ، وقلت : لقد أخرجتنى من يأسى يا مولاى ، وعلمتنى من مستقبل مصر ما لم أكن أعلم !

فتنهد بنتاءور وقال : تجمع كل أمة جوامع شتى من لغة ودين وجنس ، وأمل ويأس ، وسراء وضراء ؛ وأنتم لا تعرفون غير جامعة الموت تجمع الأعداء ...

ثم قطع الحديث وقال : هذا شىء نتحادث فيه بعد ، فلنبق فيما نحن فيه من اجتلاء المناظر والمشاهد ، ومناجاة المعالم والمعاهد .

قلت : ذلك أنفع لى يا مولاى ، فما هذا التمثال القائم بين مقاصير الآلهة من الهيكل، وبين مجلس الملك ومنصب عرشه منه ؛ إنى أراه كعون بن عنق فى ضخامته التى يزعمون !

فمشى النسر إلى التمثال وجثا لديه ، ثم نهض وقال : فرغ الملك من حروبه التى تسير كالأمثال ، وأمن تخوم ممالكه ، وأخذ بالثقة من المستعمرات الواسعة ، وفرق جيوشه فى البسيطة يعززون فيها آية الملك ويحمون أطرافها ، وأصبح من ثبوت الدنيا له، واستقامة الأمر فى يده ، بحيث قلت فى وصفه ومدحه :

رمسيس يا ملك الدنيا وواحدها

وبضعة النور وابن الكوكب الأحد

الشـمس مـثلك بعـد اليـوم لا ولدت

والشـمس مـثلك قـبل اليـوم لم تلد

فـإن تكن فى سـرير المجـد خـالدة

فـإن عـرشك مـرفـوع إلى الأبد

... حتى إذا فرغ من تشييد مملكته والاحتياط لحفظها ، وجعلها بمأمن من الحساد والأعداء ، فكر فيما يخلد اسمه ، ويؤبد ذكره ، ويكفل لتاريخه الدوام ، فبنى المدائن ، وأنشأ فى كل واحدة منها هيكلا خاصا بإله أهلها الذى يعبدون ، وسور هذا الهيكل القديم بالأعمدة التى تراها محيطة به ؛ وليس أفخم ولا أضخم ولا أجل فى الأعين منها – أمر أن تصنع صورته معظمة وتجعل فى الهيكل ، فعمل له هذا التمثال طوله ثلاثون ذراعا ، وهو من عمل الأسرى وحدهم ؛ وقد عنى الملك بأمر ذلك ، فرغب أن يكتب أنه « لم يعمل مصرى فى هذا التمثال » .

قلت : وفيم هذا التبرُّؤ يا مولاى ، ولو أنه من صنع المصريين لكان بالملك أليق، ولكانوا به أحق ؟

قال : إن رجلا يرفع أكبر دولة فى الأرض ، ويقهر أربعين أمة ، ويضع حدود مملكته أنَّى شاء ، لا يؤخذ بكبيرة ، فكيف ينتقد فى صغيرة !

قلت : لأنت فى دفاعك هذا عن الملك أشعر منك فى مدحه !

قال : إنما أديت بعض حقه .

وهنا غلب النعاس على النسر ، فجعل موعد الهدهد ميدان الملك فى أصيل الغد .

المحادثة الثالثة

قال الهدهد :

كنت فى صدورى عن ميت رهينة تحت سماء الليل ، أنظر قلة الرسوم لديها، وأرى ندور الأطلال عليها ، وما هى إلا مقابر بعض الملوك ، ومدفن العجل أبيس ، وذلك التمثال فى حفرته التى تنزل به عن سطح الأرض بقدر ماجرى الدهر على منفيس فى سالف الأحقاب ، وما عقدت سنابك خيله عليها من متراكم الحصى والتراب؛ فأعجب له كيف لم يبق من حوّاء العواصم غير بقية لا تذكر فى جانب ما رأيتها عليه من السعة المتناهية ، والعظمة الجمة ، والعمارة المدهشة ؛ وتبصّرت مليًا فى السبب ، فلم أر الداء إلا موقعها الذى عرضها فى كل زمان للفيضان يعلوها، وأسلمها إلى رياح الصحراء تختلف عليها فتذروها ؛ وذهبت مع المؤرخ عبد اللطيف[1] إلى أن معظم البلوى إنما جاء من عبث الأمم المختلفين أديانًا الذين أغاروا على وادى النيل ، ومدهم يد الحسد إلى آثار الفراعنة بمعاول الجهل ، وما زال الحسد بمرصد للفضل ، وما انفك الجهل عدو العقل .

قال :

وكان جؤجئى قد جاش بالشعر عندما نظرت التمثال فى حاليه ، وخبرته فى يوميه ، فقلت فيه :

(١) يعنى عبد اللطيف البغدادى.

إن جـــئت « منفـــا » وهى أو ... لى بازديارك وانتـــيـــابك
ومـــــررتَ بالأطلال مـــــرًا ... فى مـــجـــيـــئك أو ذهابك
بالأمس كنت مـــــؤلهًـــا ... مـــاذا لقـــيت من انقـــلابك
لا يـــنـــظـــرون إلـــى ذرا ... ك وينظرون إلى رحـــــابك
ويخـــاطبـــونك راغـــبين ... إلى ثوابك عن عـــقـــابك
أزرى برمـــــســـيس البلى ... وهـــوى بـــه زمـــنٌ هـــوى بـــك
وقـــصـــار خطبك عند ذى ... نظر يبـــالغ فى خطابك
عـــابتك أحـــداث الزمـــا ... ن فكنت أكـــمل عند عـــابك

وحضرنى بشأن هذا الأثر شىء من قبيل ما مر بالفكر بشأن الأهرام ؛ فأملت من جهة أن ينشط المصريون يومًا لتشييد بنائه ، وتكملة أعضائه ، وتجديد حسنه وروائه، عساهم يقضون بهذا العمل الجليل ، حق خير ملك لخير جيل، رأى وادى النيل؛ وتمنيت من جهة أخرى أن تفشو التماثيل فى مصر ، لأن فيها بعض المكافأة لمن سلف، وتعظيم شأن الحياة فى نفس الخلف؛ ثم فكرت فى رجل عظيم القدر جليل المقام ، خطير الشأن فى صحائف الأيام ، لا صحف الأقوام ؛ تضىء مزاياه ثنايا التاريخ ، وترفعه أعماله فوق البرجاس والمريخ؛ إذا مات رشحته الأمة المصرية ، ليمثل بالحجارة الأبدية، ويبجل بالكلمات الذهبية ؛ فما زال بى الوهم والخيال ، حتى وجدت طلبتى فى الرجال ، ولم يبق إلا عمل التمثال ، فقلت حينئذ فى نفسى : أين من يصنعه ، وأين آلات ترفعه ؟ وكنت خرجت من أحلامى فى المدينة الغابرة ، وبلغت مقامى فى ضواحى القاهرة ، فنمت أطيب المنام ، أصلُ الأحلام بالأحلام ، حتى إذا طلع الفجر ، انتهيتُ أشوق ما كنت إلى النسر ، يطول النهار ولا صبر ، كأن إحدى ساعاته شهر ؛ وما لى لا أشتاق معلمى الحكمة فى الحديث ، وملهمى القديم من العلم والحديث ، وممثل الحقيقة فى حسى ، وكنت أجهلها فى أمسى ، أو أغالط فيها نفسى ؛ ولما جاء

الأصيل ، هجت إلى شاطئ النيل ، فوجدته كما عهدته ، وألفيت الحال ، مازال : صغرت مدينة وكبرت مدينة ، وعطلت ضفّة وضفّت على أختها الزينة ؛ فاطمأن قلبى وقلت : صدق النسر وعدا ، وعمدت لأقرب الزوارق الحاضرة ، وهى كالعرائس فى النيل خاطرة ، بعضها فى جيئة وذهاب ، ومنها المتسابق فى كل منساب ، الآخذ بأنواع الرياضات والألعاب ، حتى خيل لى أنه التاميز ، أو أنى لدى السين فى باريز؛ فنظرت إليه وأنا أحسب أن سأجد سارية أحطُّ عليها ، وأستند فى وقوعى إليها ؛ فوجدت جزاء من ينقل قدمه ولا يبصر قدَّامه ، إذ علق جناحى ، فالتفت فإذا أنا فى يد رجل تعلوه كبرة وفترة ، ويضرب لونه إلى الصفرة ، وعليه ثياب مزركشة من ثمين الكتان ، وقد جلس أمامه غلام من أوسم ما استخدم الكبراء ، فقلّبنى قليلا ، ثم دفعنى إلى ذلك الغلام ، وقال : هذه طلبتنا ، ساقها الآلهة إلينا ؛ فتحفظ عليها ، فقد تفاءلت أن شفائى فيها ؛ ما زال طبيب الرأس يحيلنى على طبيب الأحشاء ، وهذا يرشدنى إلى الطبيب الروحى ، وهو يرى دوائى فى مساءلة الهياكل ، وقد أعيت الجميع علتى ، حتى وصف لنا مضحكنا (أوتا) الذى اشتهر بصدق تجاريبه ، على قصر قامته وتشويه خلقته ، أن رأس الهدهد إذا سحق ، وأضيف إليه قلامة من حافر البغل ، ومزج هذان بشىء من شحم الخنزير المذبوح قربانا لأوزيريس الإله والقمر فى ليلة تمامه ، ثم تناولت كل يوم حبة من هذا التركيب ، فقد ينفعنى ذلك فى علتى التى حارت فيها العقاقير ، وعجز منها الأطباء !

قال الهدهد :

فما استتم الرجل حتى ذبحت من الذعر بغير مدية ، وقلت فى نفسى : ما ذنبى حتى يختلط رأسى بحافر البغل وشحم الخنزير ، وليس أحقر من هذين ! فجعلت أفكر فى حيلة تنقذنى من هذه الميتة الشنيعة ، فرأيت أن أنطق لعل الأمير يستعظم الأمر فيضن بى ، ففعلت ، فإذا أنا طليق الجناح أطير ، فنظرت تحتى فرأيت الرجل يشير نحوى براحتيه ، كأنه يستغفر لى أو يستغيث بى ، والزورق يكاد ينقلب بمن فيه من

هول ما فاجأ رجاله من أمرى وشهدوا من حالى مع مولاهم ؛ فضحكت من رؤيتهم على هذا الحال . وارتفعت فى المطار حتى جازتنى المدينة . فجعلت أحط تارة فوق جدار ، وأستتر أخرى فى الأشجار ، وأتنقل من حانوت إلى دار ، وأنا فى هذه الأثناء ألحظ مجمل الأحوال ، وأتزود من المدينة نظرة عامة ، فرأيت حركة لم أر مثلها فيما غير ، وشهدت من العظمة ما يصغر المدائن الكبر : شوارع وسيعة ، ودور رفيعة ، وحدائق بديعة ، وجماهير متدفقة ، وشرطة منبثة متفرقة ، وخيل مركوبة ، ومركبات مجرورة ومخازن تفيض من صنوف المتاجر ، وحوانيت لا تحصى لديها ضروب الصنائع ؛ وكان من أعجب ما رأت العينان ، أنس الحيوان إلى الإنسان ، واطمئنان الطير إليه فى كل مكان ، تمشى بجانبه آمنة ، وتتوثب حوله مطمئنة ، وأعجبها الكراكى، رأيتها تتألّف الأهالى وكنت أظنها لا تُستأنس ؛ ورأيت نساء العامة يحملن أحمالهن على الأكتاف ، ويجعلها رجالهم فوق الرءوس ؛ وتلبس المرأة ثوباً واحدا ، ويلبس الرجل ثوبين ؛ وقد دهشت من توحد الزى عند القوم ، وإيثارهم من اللباس الكتان أو الصوف ، واختيارهم من الألوان الأبيض ، مع نظافة تضرب بها الأمثال ، فكأنما كملت الجوامع فيهم حتى هذه ؛ وتحيتهم فى الطريق أن يفضى أحدهم بيمناه إلى الأرض؛ وإذا عارض كبيرهم صغيرهم تنحى حتى يعبر ، وإذا مر به وهو جالس قام له حتى يمر ؛ ورأيت جميع الحيوان فى الطريق إلا الخنزير ، ثم عرفت السبب اتفاقا ، وذلك أنى صرت بزحام ، فاقتربت منه ، فعلمت من تساؤل الناس أن أحدهم تمسَّح به خنزير ، فهم يسوقونه إلى النهر ليغمس فيه بجميع ثيابه ، وهم يعتقدون أنه لا يطهر بدون ذلك ؛ فرثيت فى نفسى لحاله ، وضحكت من أمر هذه العادة ؛ ثم احتوائى ميدان عظيم ، ينحسر الطرف فى جوانبه ولا تحيط العين بأطرافه ؛ فابتهجت باستقباله ، وقلت : لعله ميدان الملك ، ولعل الملتقى قريب ! وفى الواقع كان الأستاذ بنتاءور أول إنسان وقع نظرى عليه ؛ رأيته يشير بوجهه المتهلل نحو السماء ، وكأنما يفتش عنى الجواء ، وينشدنى فى طبقات الهواء ؛ فلما أخذنى بصره ، رفع يده يستنزلنى ، فهبطت فيها ، ثم وثبت منها إلى كتفه ، منتفضًا من التأنس والحبور ،

مرنقًا من غلب السرور ؛ فسألنى عن أمرى ، وما لقيت من وحدتى فى رحلتى ، فحدثته حديثى أوله وآخره ؛ فضحك من حادثة الزورق وقال : تلك وحدة لم يكن لك عنها غنى وأنت فى أول أيامك بهذه المدينة ، لأنى أردت أن تجمع فى حكمك عليها بين ما تسمع منى وما تراه فى خاصة نفسك ؛ من أحوال أهلها وأطوارهم ، وأخلاقهم وعاداتهم ؛ فما رأيك فى ذلك المريض ؟ قلت : أحمق جاهل يا مولاى ، وأطباؤكم أحمق منه وأجهل؛ وإنى لأعجب منهم كيف يبلغون فى الطب إجارة الجسد من الفساد ، وحفظه من البلى على مدى الآباد ، ثم ينزلون إلى الإيمان بالرقى والطلاسم ، واعتقادهم أن رأس الهدهد وحافر البغل من العقاقير النافعة فى بعض الأدواء . قال : الخرافات يا بنى وجدت مع الإنسان منذ البداية ؛ وسوف تصحبه إلى النهاية ، ولو بلغ من المدنية أقصى غاية ؛ وأظنك عهدت باريز لا تخلو منها ، وهى فيما يزعمون عاصمة العواصم ، وكرسى التمدن القائم ! قلت : كذاك هى يا مولاى . قال : لكن هلا أخذت من عبارة المريض أن الأطباء فى منفيس ضروب ، وأن توزع الأعمال قاعدة التطبيب بينهم ، فهذا للرأس ، وذاك للبطن ، وآخر لأمراض العين ، ورابع لأدواء الأذن ؛ كلٌّ على قدر اجتهاده فى الفرع الذى وقف نفسه عليه ؛ وهذا ما صار إليه الطب أخيرًا عند الغربيين ، وهم يعتقدون أن ذلك بداية النجاح الحقيقى ، وفاتحة عصر للعلوم الطبية لا يقف ارتقاؤها فيه عند حد ؛ فلو لم يكن من فضل أطبائنا الحمقى الجهلاء سوى أن القوم أخذوا عنهم هذا المبدأ الجليل ، لكفى ؛ على أننى عالم بأن الطب لم يتقدم فى هذه العاصمة التقدم اللائق بمنزلتها فى الحضارة ، الجدير بمبالغها فى المدنية ؛ ولهذا الأمر أسباب ، أهمها قلة الأمراض فى هذه الأمة ، لأنهم من جهة يعتنون بأمر نظافة الأبدان والملابس ، إذ من عاداتهم أن يغتسل واحدهم ثلاث مرات بالنهار ومرتين بالليل ، فمثلهم كالمتقين منكم معشر المسلمين ، الذين يتوضئون خمس مرات فى اليوم ؛ ومن جهة أخرى لأنهم فى الغالب رجال عمل ونهوض وحركة ؛ وإذا كان النشاط فى الطباع ، سلمت الجسوم من الأوجاع ؛ وبديهى أن توسيع العلوم يكون بقدر الحاجة إليها ، فإذا عظمت عظم الاشتغال بها ، وكثر الاختراع فيها ، وإذا

قلّت قلَّ ، وأكبر برهان على ذلك ما أشرت إليه من بلوغنا الدرجة القصوى فى التحنيط والتصبير ، فلولا اعتقاد الأفراد أن الأجسام بعد الموت مقدسة لا ينبغى أن يصل إليها الفساد ، لما اجتهد الأطباء المختصون بهذا الفن فيما يمارسون من جليله وحقيره، حتى بلغوا فيه إلى درجة الإعجاز ، منساقين برغبة الكافة ، ملبين منادى الحاجة العامة؛ وما يقال عن التحنيط يقال كذلك عن فن العمارة والإنشاء ، فليس السبب فى رقيه بيننا هذا الرقى المعجز الباهر ، إلا مبالغة المصريين مند القدم فى قيمة الآلهة وتصورهم إياهم فى منتهى العظمة المؤيدة الأزلية ، فلا يرفعون لهم من الهياكل إلا ما يليق بمقامهم هذا ويسكنونه إلى الأبد ؛ على أنك لو قست دور الأهالى من جميع الطبقات ، وما رأيتها عليه من البساطة والاقتصاد فى البناء – بالهياكل وما شهدت من فخامتها ، واجتليت من زخارفها . لعلمت أن دعوى مبرهنة من نفسها ، ولأيقنت أن قصور المصريين فى الطب لم يكن عن جهل وقلة ذكاء ، لكن عن عدم حاجة ماسة وقلة اعتناء .

قلت : صدق مولاى وأفاد ، لكن هذا ميدان الملك ، فأين قصره ؟

قال : تظل تحلم بالملك ! وقد أذكرتنى أن لى كلمة أقولها لصائغه الخاص بأمر جلالته ، فنلبدأ به الآن .

قلت : الأمر إليك يا مولاى .

فمشى النسر وأنا فوق كتفه ، حتى مر بحانوت ضيق المدخل ، زرى المنظر ، فرأيته يهم بالولوج فقلت : لعلك ضال يا مولاى ؛ فمثل هذا الحانوت لا يكون لصائغ الملك !

قال : بل الضال أنت يا كثير العجلة !

فخرست ؛ ودخل الأستاذ ، فخف لاستقباله رجلان : كهل وغلام ؛ وكانا ساعة دخولنا متقابلين على منصة للعمل ، مكبين على المذهب يفرغانه ثم يصوغانه ، فحييا

حق تحيته ، ثم عادا إلى العمل وأخذا بما كانا فيه ؛ وعندئذ قال الرجل للأستاذ: أتأذن يا مولاى أن أتمم حديثى مع هذا الغلام ، ثم أتلقى أوامرك؟ فأجابه : افعل ، فلا تكره أن نشاطره الفائدة ، فاندفع الرجل يقول : اعلم يا بنى أن الأمانة رأس مال التاجر ، وهى والإتقان كلاهما رأس مال الصانع ، وقد صيرتهما لى عادة منذ مارست هذه الصناعة ، فلم أكلف عملا إلا استجمعت قواى لتجويده وإحكامه ، وفكرت فى إتقانه قبل الفكر فى إتمامه ؛ فإن بدا نقص بعد ذلك برأت نفسى وقلت : علىّ بذل الجهد وليس علىّ أخذ المستحيل ؛ وكنت فى بدء تعاطى هذه الحرفة مساعداً لمحب الحقيقة أستاذى الذى انتقل إلى الدور الأبدية، فتعلمت منه محبة العمل والإخلاص فيه وبذل الجهد فى إتقانه ؛ وهو الذى ذهّب تابوت الملك سيتى والد جلالة الملك ، ونقشه فأبدع نقشه ، وكان أجره عن ذلك مائة قلادة من الذهب ، خرجت إليه من الخزائن السلطانية ؛ فهنأته يومئذ بما نال من جسيم الريح ، فكان جوابه لى : اعلم أنه لو عرضت علىّ خزائن الملك جمعاء وأنا فى العمل أصنع التابوت ، لما أعرتها نظرا ؛ لأنى رجوت أن يقال : ملك الصناعة ، شرفها يوم موت ملك الجماعة ! فوعيت هذه النصيحة كما يوعى الوحى الآتى من جانب الآلهة ؛ وها أنا أبذلها لك كما بذلت لى من قبل فكانت أصل سعادتى ، وسر نجاحى ، والسبب فى تحصيل هذه الثروة الجسيمة، وارتقائى فى القصر هذه المنزلة العظيمة .

قال الهدهد :

وكان الرجل يقدم النصائح لتلميذه وكأنها قلائد يصوغها ، وبنتاءور يتثاءب ويتمطى ؛ فخشيت أن يحول بنومه المعهود ، دون سماعى مقالة الصائغ إلى آخرها ؛ فكان ما خفت أن يكون ، وغلب على النسر النعاس ؛ فقال لى بلسان متلعثم : إذا جاء الليل نامت الشياطين ، فارجع إلى عشك الآن والقنى غداً فى هذا الحانوت.

قال الهدهد :

فلم يكن إلا إغماءة ، حتى رأيت نفسى فوق سطح بيت العمدة فى ميت رهينة ، فاستعذت بالله ، وأقلعت من فورى للطيران ، أؤم عشى فى حلوان .

المحادثة الرابعة

قال الهدهد :

وكان الغد ، فأصبحت فيما أمسيت فيه ، أهفو إلى النسر ولا أعطى عنه صبرا، والنفس إلى ما يشغلها شيقة ولعة ؛ فما زلت رهن أحوال ، وجار عيش وأشغال ، حتى زينت السماء الدنيا بالآصال ؛ وإذا أنا من جؤجئى فى سفينة عند دأماء، وهى تجرى فى بحرٍ ولا ماء ، من مذاهب السماء؛ دفتها ريشتان ، وشراعها جناحان ؛ فاستوت على ما وراء النهر ، وإنى لفى الحانوت كأن لم أبرحه ، أرانى فوق كتف النسر ، أنظر إلى الصائغ والغلام ، وكأن ما مر فترة من حلم ؛ إذ الحديث متصل ، والصائغ يقول: هذا يا بنى صاحب الملك وشاعره ، وبوقه فى الغزاة ، وظله فى النقلة ، وداعيه فى الأمة ، وآية ملكه فى الأولين ، وحديثه من بعده فى الآخرين ، أوفده حفيد السماوات، وشعاع الشمس فى الجماعات ، برسالة عملت بها قبل أن تبلغ إلىّ .

ثم التفت إلى بنتاعور وسأله قائلا : أليس أمر الملك يا مولاى أن تنقش على القلائد الثلاث صُوره الثلاث : يوم قدم طيبة ظافرا ، ويوم صلَّى صلاة الظفر فى هيكلها ، ويوم المهرجان ؛ وكانت إشارته السابقة أن تتضمن الصور الثلاث حملته على الأعداء فى آتيش ، ودخوله المدينة فاتحا ، وجلوسه لملكها وُمترفيها يأتونه أذلَّة صاغرين ؟

قال : فى هذا جئت ؛ فلعل إنسانا جاءك به قبلى .

فتبسم الصائغ حينئذ وقال : إنه ليس إنسانا ، إنه الملك بذاته ، أشرق هذا الحانوت بنوره ، وكأنى به قائم عند رأسى يقول : اصنع كيت ، وافعل كيت ، وأنا جالس كما أنا الآن ، أحدثه كما أحدثك ؛ ثم مشى تظلله السماء ، وتحرسه عين ذكاء.

قال الهدهد :

فدهشت مما سمعت ، ووددت لو كنت حاضراً فى تلك الساعة ، أرى الملك وأسمع حديثه ؛ وتحسر الغلام كذلك وسأل أستاذه قائلاً : وأين كنت يا مولاى عندما تقدس هذا المكان بالملك ؟ قال : كنت فى إصباحك لم تغدُ بعد إلى العمل فلم أشأ أن يخجلك أن تعلم أن ملك الملوك سبق إلى حانوتٍ أنت فيه صبى تتعلم صناعة !

فخرس الغلام وتلون ألوانا من الخجل !

ثم قال الصائغ يخاطب الأستاذ : ليس العجب يا مولاى أن يسعى الملك إلى عبده، فإن دأبه الأخذ بيد العاملين ، فكيف بعباده المخلصين أمثالى ؟ على أن كبار الملوك يتنكرون لأخذ الحكمة التى لا تنفذ على الملوك حجابهم ، وطلب الحقيقة التى لا تلج عليهم أبوابهم ، كما يتنكر صغارهم ليزدادوا من الصغائر ؛ لكن العجب كل العجب أن يلفينى الملك قد ألغيت العمل بأمره الأول قبل أن ينقضه ، وعملت بما جاء من أجله قبل أن أعلم به : أمهلته ريثما تكلم وأشار وأمر ، ثم كشفت عن القلائد بين عينيه ؛ فاستغرب الأمر وسأل عن السبب ، فقلت له : القلائد يا مولاى للملكة الصغرى، وهى بنت ملك أنيش الذى كان عزيزاً فأذللته ، وملكا فاستعملته ثم صاهرته ، وأنت تحبها وتفضلها فى هوى القلب على سائر نسائك . ولحبل من مسد تجعله فى جيدها ، أحب إليها من قلائدك التى تذكِّرها فشل قومها وذل أبيها .

فسر الملك بما قلت له ، وأقرنى على ما أخذت به من العمل ، وقال : خلق الغرور للملك ، وقد يبلغ بنا معشر الملوك حتى نسىء إلى أعز الناس علينا ونحن نحسب أننا نحسن إليه .

قال الهدهد :

ثم ودع الأستاذ الصائغ وخرجنا وأنا أقضى العجب مما سمعت ورأيت ولا أستطيع مع الأستاذ صبرا ، فلما صار وحده قلت : حفظت أشياء وغاب عنى شىء واحد يا مولاى . قال : وما ذاك ؟ قلت : إنفاذ الملك إياك فى أمر سبقتْ به كلمته للصائغ ! فتبسم ثم قال : هذا من تأديب رمسيس صحابته لكيلا يطغوا ؛ يعلمنا أن له

جسداً وقدمين ولسانا وعينين ، وأن بين غمر العامة ولفيف الخاصة ممن لا يحوزهم مجلسه ، من يليق أن يسعى الملوك إليه ويأخذوا الحكمة عنه ! قلت : تظل تشوقنى إليه، فهل آن أن أراه أم لم يئن يا مولاى ؟ قال : لكل شىء ميقات ، وليس هذا وقت رؤية الملك ، فاصبر معى أو انقلب إلى عشك جاهلا محروما ! فاستعنت الله على الأستاذ فى نفسى ، ولذت بالصبر فى أمرى .

وطفق يجوب بى الطرق ، ويحول فى الأزقة ، حتى خرجنا إلى بناء رفيع ، فوق طريق وسيع ، فقصد الأستاذ قصده ، فسألته : ما هذه الدار يا مولاى ؟ ولمن ؟ قال : هذه يا بُنىَّ شمس النهار ، ومشرق الأنوار ، ومهبط الحكمة والأسرار ، ونقطة تلاقى العقول الكبار ؛ دار الأدب والفلسفة ، أسسناها على مثال الدار الكبرى فى طيبة ، وكنا أربعة ، فلم يمض علينا عشرون عاما حتى نمت وربت ، ونجحت ورقت ، وأصبحت من تعدُّد الأساتذة وتكاثر الطلاب وتهافت المستفيدين من الأجانب علماء وفلاسفة ، بحيث تضارع أختها فى طيبة ، ويميزها أن ليس للملك ولا لحكومته ولا للكهنة يد فى التأسيس ، ولا سبيل على التدريس ، وأنها غراس الأفراد وإحدى هممهم ؛ فانظر إلى الكثير كيف يأتى من القليل ، ومن ميمون أمر هذه الدار أن وزير الخزانة السلطانية لما سمع بها وزارها وهى فى أيامها الأولى ، كتب له صكًا بربع ثروته الواسعة ، تستوفى ذلك فى حياته وبعد مماته ؛ ثم مات وانتقلت روحه الكريمة إلى المغرب[1]، وكان قد أدخل ولديه فيها ، فلا ورأس الملك يا بنى ، ما رأيت أنجب منهما ، ولا أحب للعلم ، ولا أصبر على تحصيله ، ولا أطلب للغايات فيه ؛ إذا ذكر فتيان المملكة فى مجلس صاحبها سماهما وأثنى عليهما ، وسمع ثناء الناس فيهما ؛ فليت أباهما يرد إلى الحياة لينظر كيف تجزى العناية المحسنين ، وتجعل عماد بيوتهم من بعدهم البنين!

---

(١) كانوا يعتقدون أن الروح بعد مفارقة البدن تذهب إلى حيث تغرب الشمس .

قلت : سعداء أنتم معشر الآباء ؛ اتفق أربعة منكم ولن يتفق اثنان منا ، وبذل أحدكم ربع ماله فى البر ولن ينفق أحدنا دخل عام واحد فى صالح الأعمال ؛ ونحن الذين قال بعضهم فينا « اتفقوا على أن لا يتفقوا[1] ».

فأحفظت عبارتى الأستاذ ، وقال : ما هذا السم فى الدسم ! ومن ذاك الذى يثبط الهمم ! هذا ومثله أيها الهدهد من الأوهام ، وإنها لتخامر العقول فتعقلها ، وتداخل النفوس فتقتلها . الأوهام داء الأمم ، ومنية الشعوب؛ إذا تمكنت من قوم كانت كالفاس فى الأساس ، وكالنار فى الشعار ، وكالحبل فى الخناق ، وكالعلة فى القلب ، لا يخفق معها إلا إلى حين . ومن تبالُغ نكد الدنيا على الشرق الحاضر تبالُغ هذا الداء فيه ؛ حكوماته دواليب تدور بالأوهام ، وبلدانه مملوءة ما بين السماكين من الأوهام ، أممه تروح وتغدو حيث تجعلها الأوهام . نظر الواحد منهم فى الأمور عرضا وبعين غيره ، وحكمه فيها عن الهوى ، وانقياده فى إيرادها وإصدارها بأزمة الأوهام . قال لكم رجل قولا فوهمتم فمتم أحياء . ليس مع السلوة عيش ، ولا مع القنوط عمل ، ولا مع اليأس حياة ؛ وليس أجلب للشر والضر من الدعوة إلى الربوض ، وتوهين العزائم ، وإماتة القلوب ، وإخراج النفوس من الرجاء إلى اليأس الذى هو الموت فى أشنع صوره وأقبح أحواله .

قلت : الأوهام يا مولاى داء الأمم منذ القدم ، لم تخل منها أمة خالية ، ولن تخلو منها أمة آتية ؛ فما بالك نُلزمها فريقًا دون فريق ، وتنكرها على قوم ولا تنكرها على آخرين ؟

قال : خلق الإنسان من ضعف ، فكان الوهم أول دين دان به ، وأول حكومة دان لها ، وأول شيطان سكن إليه . كان على وجه الدهر يستقبل المجسمات ويتخذ منها آلهة يسجد لها ، ولا يزال آخر الدهر يتوجه إليها بالتأليه والتقديس والتنزيه ؛

---

(١) تنسب هذه الكلمة إلى السيد جمال الدين الأفغانى .

وإذا عبد الله كما تعبدونه أنتم والنصارى واليهود ، كان لله الشطر من تلك العبادة وللأوهام الشطر ؛ فالمسيحى يبلى الحديد فى كنيسة القديس بطرس بروما استلاما وتقبيلا ، كما يضع المسلم خده فى عتب الأضرحة بالقاهرة تمسحاً وتأميلاً وتعظيماً وتبجيلاً ، وكان فى شبيبة الدهر يؤله الجبابرة من البشر أمثاله ، ويحكمهم فى عرضه ودمه وماله ؛ ولا يزال معظم الخلق حتى الآن عباداً للملوك يأتونهم طائعين ، غرهم التاج ، وخدعهم العرش ، وغشّهم الحجاب ، وضللهم الاستبداد ؛ فالسلطان فى الأصل للوهم لا للسلاطين ، وحقيقة الطاعة له لا للمالكين ، وكان الوهم أول شيطان سكن إليه الإنسان ، تولد منه يقينه ، ونشأ عنه علمه ، وجرت عليه أموره ، وانبنى عليه حكمه ، وتألف منه مألوف عاداته ، يحس به ويشعر ، ويسمع به ويبصر ، ويعجز به ويقدر، وبه يعيش وعليه يموت ، خلت آلاف من السنين ، وحافر البغل فى مصر حافر البغل فيها ، يمسح فى وهم بعض الناس من بعض العلل ، ويشفى من بعض الأمراض . ومضت مئات من القرون والميت فى مصر يجنّز آخر الدهر كما كان يجنّز أوله ؛ فلو رفع الصليب من جنازة قبطية ، وصين القرآن عن أن يرتله الهمل فى جنازة مسلمة ، لخيل لك أنها جنازة ميت منا معشر القدماء : رسوم احتفال ، وقربان ، وأكل ، وحثو تراب، وشق جيوب ، وولولة نساء ، وعويل عبيد وإماء ، وندب الميت ونعته بكيت وكيت؛ والأوهام يا بنى كما قلت لا تخلو منها الأمم الكبيرة والشعوب الحية ، إلا أنها تقف حينئذ حيث العامة لا تجاوزها إلى الخاصة ، إلا ما ندر ؛ كما أنها تتملك الأمم الصغيرة والشعوب المنحطة ، فيكون للخاصة منها مثل حظ العامة ؛ وهنا عظيم البلوى ، ومنتهى نكد الدنيا . أليس من الوهم القاتل للأنفس ، المميت للقلوب ، أن يصح فى أذهان خاصة المصريين من أمراء وعظماء ، وأدباء وعلماء ، أنهم أمة ليس فيهم فلاح ، ولا يرجى فى أمرهم صلاح ؛ وأن اتفاقهم سابع الجهات ، ورابع المستحيلات ؛ وأن الوطن ميت وأنهم ميتون ، وما أشبه ذلك من الدعاوى الباطلة التى لا تنطبق على نواميس الوجود ولا ترد إلى أحوال البشر وحوادث التاريخ ، الأمم يا بنى لا تموت ، ولئن بدت عليها دلائل الموت فى أزمة الاضمحلال فما تلك إلا بؤسى

تزول ، وحال ستحول . الأمة تصح ثم تعتل ثم تصح ؛ تتجدد من حيث تبلى ، وتقوم من حيث تسقط ، وتصح بالعلل . هذه اليابان ، هل كان فى حسبان أحد أن تضم صوتها يوما ما إلى أصوات دول الغرب فى مسألة من أكبر مسائل العصر ، وتطمع مع الممالك الطامعة ، وتسير الجيوش فى البر ، وتخرج الأساطيل فى البحر ؛ وقد كانت وأنت فى زمن الدراسة لا يذكر اسمها إلا مقرونا باسم الصين ، عنوان الهمجية ، ومثال التوحش ، والمشبه به إذا ذكر التأخر والانحطاط[1]. وعرض على المسيو تيبرس الوزير الفرنساوى المشهور ، مشروع يراد به إنشاء السكة الحديدية فى فرنسا ، فسخر منه علانية فى المجلس ، وعدّه ضرباً من الهذيان ؛ ثم لم يمض نصف قرن على ذلك حتى أصبحت سكك الحديد فى فرنسا تُكاثر الأنعام ، وقارن المؤرخ فولنيه – الشهير بأسفاره الطويلة فى الشرق وكتبه الجليلة عنه – بين القاهرة وباريز على عهده ، فذهب إلى أن عدد أهالى القريتين واحد ، وأنهما كلتيهما تضاءان بالسرج وزيت الزيتون ، وتحصنان من الخارج بالأسوار ، ومن الداخل بالأبواب ، وأن الإنسان لا يخرج فيهما بعد ساعة معلومة من الليل ، إلى غير ذلك من شُبه التأخر ومخايل الانحطاط. وفولنيه هذا قدم القاهرة فى أيام المماليك[2]، وكتب ما كتب عنها فى القرن الثامن عشر؛ فانظر كيف تبدّلت الأمور ، وتحولت الأحوال ، وأصبحت باريز كما عهدت عروس عواصم الغرب ، تعتاض كل يوم عن ضوء بضوء، وتبدل حصوناً بحصون ، وتذهب مخترعات وتأتى مخترعات ، وتخرج المدينة من أبوابها ، وتمتد إلى ما وراء أسوارها، من تكاثر الأعمال ، وتزاحم العمال ، على كثرة ما أصابها بعد فولنيه من مصائب الدهر ونوائبه ، فكم هول ثورة لاقت ، ونار حرب ذاقت ، وخراب إليه انساقت ؛ وكم حكومة قلبت ، ودولة غيّبت ، وملك قتلت ، وقيصر عزلت ؛ كل ذلك فى قرن ونصف قرن؛ ثم كانت النتيجة خروجها من دجنّة هذه الحوادث سافرة

---

(١) أنشأ شوقى – رحمه الله – هذا الكتاب فى أول هذا القرن؛ وكانت حال اليابان والصين على ما وصف .

(٢) إنما كان قدوم فولنيه إلى القاهرة فى عصر الحكم التركى العثمانى !

زاهرة ، عظيمة فاخرة ؛ فلو أن أهلها دعوا إلى اليأس فلبُّوا ، وقال لهم عقلاؤهم موتوا أحياء فسمعوا ، لكانت النتيجة بقاءها كما وصفها فولنيه أو أضيق حلقة أو أشد انحطاطا . من هذا ومثله تعلم يا بنى أن العلم والبيان خلقا ليكونا حرب الأوهام ، ونوراً يخرج إليه الأمم من الظلمات ، وأن حاملهما مطالب بالعمل والدعوة إلى العمل حتى النفس الأخير من الحياة ؛ فمن ثبط هممكم من علمائكم وعظمائكم ، فالووا الوجوه عنه ، وانفروا بالأسماع منه ؛ ومن دعاكم إلى حياة فذلك داعى الخير ، فاستمعوا له وأنصتوا .

قال الهدهد :

فما استتم النسر حتى ملئت حياة وأملا وثقة من المستقبل الذى أعتقد أنه بيد الله ، إذا شاء صد عنه وإذا شاء أقام فيه .

وكان للأستاذ درس يلقيه على الطلبة ، فأدرك أن الوقت سرق بعضها بعضا ، وأن حديثه معى كان السبب فى ذلك ؛ فغضب فى نفسه ، وهرول حتى دخل القاعة الكبرى ، وهناك خفف مئات الطلبة له إجلالا ، ثم انحنوا إكباراً ؛ وكان ملل الانتظار تبدو دلائله على وجوههم ، فتأملتهم وأنا لا أصدق حسّى فيما أنظر وأسمع ، فإذا هم جميعا مُرد أو كالمرد ، لأن من عادتهم إزالة شعر الوجه كما قدمنا ، وعليهم أردية صافية من الكتان الأبيض .

ثم تصدر الأستاذ للتدريس كأنه الملك على عرشه ، فغلب علىّ السرور ، وقلت فى نفسى : الآن نلت من السعادة ما لم ينله أحد ، لكنى ما تأهبت للسماع، حتى تثاءب النسر وغشيته السنة المعهودة ، فالتفت إلىَّ يقول بلسان يعقده النعاس : إذا جاء الليل ذهبت الشياطين ، وموعدنا غدا هذا المكان !

فاستعذت بالله وخرجت من أحلامى ، وإذا أنا فى وكرى بحلوان .

المحادثة الخامسة

قال الهدهد :

كان الغد ، وجاء الأصيل ، وآن الموعد ؛ فأعملت جناحى أستقبل منفيس ، فلما وصلتها ، قصدت دار العلم والفلسفة فيها فدخلتها ، فرأيت الطلبة يخرجون من الدرس ، وكانوا يستعدون له بالأمس ، وقد أحاطت عصبة منهم بالنسر يماشونه ويلقون عليه الأسئلة شتى ، ويأخذون من بحر علمه وروضة بيانه ، فأشرفت على حلقتهم أخطف السمع ، فسمعت أحدهم يقول للأستاذ : ما هى الفضيلة يا مولاى ؟ قال : ترك الرذيلة . قال : وما الرذيلة ؟ قال : هى جاران فى دار الجهل ، والبطالة فى الشباب .

وسأله آخر : علمتنا يا مولاى أن الراحة والسعادة كلتيهما فى العمل ، فدلنى على عمل ألتمسهما فيه . قال : ابن من أنت ؟ قال : ابن نجار فى المدينة ، قال : عليك بمنشار أبيك ، فإن فيه الراحة والسعادة .

وسأله ثالث : بماذا تشقى هذه البلاد وبماذا تسعد يا مولاى ؟ قال : بالنيل والثور وبالمحراث .

وألقى عليه رابع هذا السؤال : من العالم يا مولاى ومن الحكيم ومن الطبيب؟ قال: العالم من لا ينام ، والحكيم من لا يطعم ، والطبيب من لا يموت ! قال : هذا هو المستحيل يا مولاى ؛ فما تريد بهذه المبالغة ؟ قال : أردت أن العالم من علم بالنهار وتعلم بالليل ، والحكيم من زهد فى هذه الدنيا وقنع منها بكسرة ، والطبيب من ترك طبا يعيش به الناس بعد موته .

وسأله تلميذ آخر : ما هى الفلسفة يا مولاى ؟ قال :

هى احتقار الدنيا ، ورحمة الناس . قال : وما فضلها ؟ قال تحول دون الهوى والغضب ، وكلا هذين مذلة . قال : وكيف تؤخذ يا مولاى ؟ قال توجد فى الطباع ، ولا تؤخذ من الرقاع .

قال الهدهد : ثم أشار النسر إلى الطلبة أن ينفضوا من حوله ، ففعلوا إلا اثنين من خاصة تلاميذه ، ظلا يماشيانه وأنا أطير حيث يسيرون ، حتى أخذوا إلى المدينة ؛ وعندئذ وقعت فصرت فوق كتف الأستاذ ، فلم يقف ولم يلتفت ، لكن سمعته يقول لصاحبه : من فاته درسى لا تفوته صحبتى ، ومن صحبنى فليصبر معى ؛ ليس للعلم وطن ، ولا للحكمة دار ، بل العاقل من له على كل أرض مدرسة ، وعلى كل طريق أستاذ ؛ المدرسة تقيم العقل فى طريق العلم ولا تتكفل بوصوله . كالمعبد : يمد السريرة فى الاعتقاد ولا يتكفل لها بكشف الغطاء؛ فرب عابد من نفسه وصل ، ومتعلم من نفسه حصل؛ عرفت صنوف العلم فلم أر كالفلسفة يأخذها المرء من نفسه ، ثم من حيث التفت فرأى ، وكلما قيل له فسمع ؛ من حديث المتكلم إن صدقا وإن كذبا . وصموت الصامت إن بكامة وإن بكَمًا ، ونعيم المنعم وبؤس البئيس ومشية المستكبر وهذيان المهوس وعربدة السكران ، ومن النمل فى مشاغلها ، والنحل فى معاملها ، والذر فى مستثاره ، والبرق فى مستطاره ، والزهر إقباله وإدباره ، والفلك ليله ونهاره، والبحر مضطربه وقراره ؛ ومن النفس إذا اعتلت وإذا صحت ، وإذا طمعت وإذا قنعت ، وإذا رغبت وإذا تسلت ، وإذا جشأت وإذا اطمأنت ، وإذا شكرت وإذا جحدت ؛ ومن الطبع إذا امتحنت ، والسرائر إذا بليت ، والأهواء إذا اختبرت . مدارس لا يفرغ اللبيب منها ، ودروس لا يصير الحكيم عنها .

قال الهدهد : ففهمت أن النسر يعتذر ، وأنه ينهى عن الكلام ويأمر بالسكوت؛ فامتثلت ولم أنبس .

ثم سرنا ، فمررنا فى طريقنا على دار تشيد ويبالغ فيها ويوشك بنيانها أن يتم من زحمة الأيدى عليه ؛ وكان ربها عندها بين غلمانه وأعوانه، وكان الأستاذ يعرفه ، فاقترب منه وحياه ، فرد التحية ؛ فخاطبه النسر قائلا : لمن هذا القبر أيها السيد؟ قال : هذا قصر يا مولاى لا قبر ! قال : وجدنا آباءنا يؤبدون القبور لا الدور ، لأنها مواطن القرار ومنازلنا جميعا معاشر السفار ؛ فعلام تظلم سنتهم ، ولا تسير فى الحكمة سيرتهم ؟ قال : إنى واهبها للملك ، ولا يوهب له إلا ما يليق به . قال : إن الملك

فى غنوة عن مثلها ، ولو كان ممن يطمحون إلى ما تملك أيدى الرعايا ، أو يفرحون بما يزلف لهم من ثمين الهدايا ، لما ساد الأمم ، ولا اعتز ولا احتكم ؛ إنه ليجىء إليه من أقاصى البلاد ، ويدخل فى خزائنه من كرائم المال ، ما لو جعل بعضه فوق بعض لطاول الجبال ؛ وإنه لأحرى بك أيها السيد ، أن تهدم هذا الصرح من أساسه ، ثم تجود على كل فقير فى وادى النيل يتضور جوعا بطوبة من أنقاضه ، يشد بها على لحم بطنه لتخفف عنه من ألم الجوع !

ثم ودعه وسار ، فما زلنا نذهب فى المذاهب والنسر دليلنا ، حتى انتهينا إلى دار حقيرة البنيان ، عندها صبيان يلعبان ، فقصد الأستاذ قصدهما ، ودعاهما إليه ، وقبلهما فوق جبينهما ؛ ثم قال يخاطبهما وعيناه تفيضان من الدمع : كان أبوكما رجل صدق ؛ وكان وفيا ؛ فلتجزينه السماء فيكما ، ولتباركن فيكما لأمكما! ثم التفت إلى صاحبيه وقال : ألا أنبئكما من مالك هذا البيت الزرى ؟ قالا : بلى . قال : ذاك الذى يبنى قصرا ليهديه إلى الملك ، وهو لا يسامح تلك الأرملة ولا هذين اليتيمين فى أجرة شهر واحد ؛ فما أظلمه وما أظلم الملك يوم يقبل هديته ، وما أظلم الحياة وما أظلم الناس!

ثم ودعهما الأستاذ ، وانطلق يمشى ونحن نتبعه ، حتى دخل فى طريق ضيقة، فاندفع فيها حتى أتى عليها ، وكان فى آخرها منزل ، فوقف به ثم دق الباب ، فخرج إليه رجل وقور ، يدل تجعيد وجهه على تقدم ميلاده ، فحياه النسر، فرد التحية ، فسأله ما صنع الملك باليتيمين وأمهما ؟ قال : رأف بهم وأمر أن يجرى لهم رزق من الخزانة السلطانية . قال : خيراً فعل ، والخير سجية فيه ؛ فعد إلى أهلك فقد اطمأن قلبى .

ثم تركه واستمر فى مسيره ، والفتيان يماشيانه ، وقد سأله أحدهما : من الرجل يا مولاى ؟ قال : للملك جواسيس يتخذهم ، لا على رعيته ، ولا على صحابته ، لكن على المتعففين من الفقراء ، وعلى الأرامل والأيتام ، يدلونه عليهم لينظر فى أمرهم؛

وهذا الرجل من أدلاء الملك على الخير ، ولا أجر له على ذلك غير رضا نفسه ، وطلب الهدوء لها فى رمسه .

هذا ما يفعله رمسيس ، وملك الدنيا له ، وأمر تدبيرها بيده، مباركا له فى الآل والحال ، والرعية والسلطان ؛ وليأتين يوم يتخذ الملوك جواسيس على الأرملة واليتيم ، ليسلبوهما شبر أرض ، أو جدار منزل ؛ فأولئك ملكهم فى دمار ، وتاريخهم فى سجل من عار !

ثم عطف الأستاذ على حانة خمار فدخل ، فتخلف الفتيان ، فأبى إلا أن يتبعاه؛ وهناك جلسنا فى ناحية ، وطلب النسر شيئًا من الخمر له ولتلميذيه ، وكان إزاءنا ثلاثة فتيان ترى عليهم دلائل النسب والحسب ، وكأنما عرفوا الأستاذ ؛ فاحتال أحدهم حتى تسلل وانصرف ، وتحول الثانى إلى زاوية فانكمش فيها ، ولبث الثالث كما وجدناه ثابتا لا يتحرك؛ فالتفت النسر إلى أحد الصاحبين وسأله قائلا : أعرفت هؤلاء يا بنى؟ قال : هم يا مولاى بنو صديقك القائد فلان . قال : هم بعينهم ، يترددون إلى هذا المكان، وقدعلم والدهم بذلك ، فتشبث بى أن أتداركهم بالنصح والخمر فى رقهم قبل أن يصبحوا فى رقها ؛ فكيف وجدتهم يا بنى ؟ قال : أما الأول يا مولاى فيخجل من نفسه ، وأما هذا المنكمش المستتر فيخجل من الناس ، وأما هذا الثالث المتهتك فلا يخجل من نفسه ولا من الناس ! قال: أصبت يا بنى . ثم أقبل على رفيقه وسأله : وكيف رأيك فيهم أنت يا بنى ؟ قال : أرى يا مولاى أن يوكل الأول لنفسه ، لأنها سوق تزجره ؛ وأن ينصح للثانى ، لأن المقالة تنجح فيه ، وأن ينعى هذا الثالث إلى أبيه ! فضحك الأستاذ من جوابه ، وحكم بصوابه ؛ ثم التفت إلى ذلك الفتى المنكمش ، وناداه : ما لك يا بن الأخ لا تكون رابعنا ؟ قال : إن أذن مولاى فعلت . ثم خف إلينا فجلس معنا ، فحياه الأستاذ ولاطفه ، ثم خاطبه فقال : ما أطيب الخمر يا بنى ! قال : أطيب منها يا مولاى هذا الثناء عليها منك ، قال : كيف تجدها ؟ قل : فيها لطف وهى محرقة . قال : كذلك الشرارة : تجدها لطيفة المتقد ، وقد تضرم نارًا على بلد ! قال : وإنها لتدب خفية ضعيفة ، ثم تتمكن ظاهرة قوية ، قال : وهكذا الداء ! قال : وإن

الجسم ليستريح معها ، وتخرج النفس بها من عالم الهموم إلى عالم موهوم قال : خير لشاربها إذن أن ينتحر ، فالراحة كل الراحة فى الموت ! قال : وإنها يا مولاى لعادة ، والنفس بما اعتادت منقادة ! قال : الآن صرحت ، فإن كان ولا بد فخذ منها لطربك ، ولا تعطها من عقلك وأدبك ، واتخذ منها صحة ولا تتخذ منها مرضا ، واشربها مع حكيم يقول لها قفى ، وخذها فى مجالس الكرام ، فهناك أوائلها طرب ، وعواقبها أدب. قال : ألنت يا مولاى فنجحت ، ولو ألححت لما أفلحت ، فلا يكونن إلا ما نصحت . قال بقيت يا بنى فى النفس حاجة : إن أباك أشفق من السفهاء أن يمدوك وأخويك فى الغى ، فسلطنى عليكم ؛ فأما ذاك الذى استحيا فله نفس تزجره ، وهى حسبه ؛ وأما أنت فقد رأيت من عقلك ما يطمئن به قلبى ؛ وأما هذا الذى يشربها جهرا ، ويلحظ اللائمين فيها شزرا ، فالحيلة فيه قليلة ، والنصيحة معه مستحيلة ؛ فإذا لقيت أباك فثب من تلقاء نفسك إليه ، واكفنى شبهة المن عليه ، بهداية ولديه . قال : أمرت ممتثلا يا مولاى ، فودعه الأستاذ ونهض وصاحباه على أثره .

قال الهدهد :

فلما خرجنا من الحانة ، رأينا الناس يزدحمون على بابها ، والتفت إلى النسر فرأيت الغيظ على وجهه ، وسمعته يقول لصاحبيه : ما أولع الناس بالناس ، يشتغل أحدهم بشئون أخيه ، وفى أيسر شأنه ما يلهيه ! علم الملأ أن بنتاءور دخل فى هذه الحانة ، فاجتمعوا ينظرون كيف خروجه ؛ فلأستقبلن جمعهم ، ولأخطبن فيهم . ثم فعل فقال : أيها الناس ، الماس فوق التراب ماس ، والخزف خزف ولو حمل على الرأس ؛ أما والآلهة فى معابدهم ، وآباء الملك فى مراقدهم ، لرب صادر عن هذا المنزل أطهر من خارج من هيكل ! أيها الناس ، من زل منكم فليستتر ، ومن رأى زلة فليستر ، من علم على أخيه فلينصح له همسا ، وليرحمه فى نفسه ، وليدع له فى صلاته . أيها الناس ، ثلاثة تعرض ولا يأمنها أحد أن تفاجئ : المرض ، والمصيبة ، والغواية ؛ وما شكر أحدكم الآلهة على الخلاص منها بأفضل من رحمة الواقعين فيها . رأيتم من السفاهة والمجانة أن يلج شيخ فى هذه الحانة ، فاجتمعتم ، ولو عقلتم لما فعلتم ؛ إن

للعقل كما للقدم زلة ، وإن للحليم كما للجاهل ضلة ، وإن النفس مع الهوى ماثلة ، والعاقل من إذا مال مع النفس اعتدل . أيها القوم ، إن ملككم لكبير ، وإن عدوكم لكثير ، أمركم نافذ فى المشرق ، وسيفكم فى كل مفرق وعداكم يسيرون ، وحسادكم يسعرون ، فاستبقوا نفوسكم وهذبوها ، وحافظوا على أبدانكم وربوها ، وأعدوها ليوم تدعوكم الأوطان لتقربوها لا تعطوا الغواية أزمتكم ، فتسلب منكم ذكاءكم وهمتكم ؛ دخل الرعاة بلادكم فى شبيبة الدهر ، فأفسدوا فيها وجعلوا أعزة أهلها أذلة ، وكان آباؤكم على أخلاقهم القديمة ، يأخذون الفضيلة ويذرون الرذيلة ، صحاح العقول ، صحاح النفوس صحاح الأبدان ؛ فاستجمعوا فى وقت السكون ، ثم وثبوا فى وقت الوثوب ؛ فاستردوا ملكهم بقوة ؛ ويراد منكم أن تكونوا فى الأمن فى درع مضاعفة من الفضيلة ، لا تأمنون الدهر أن يأتى على عجل . يا حملة السلاح ، لا تقتلكم فى السلم الراح. يا حملة العلم ، لا تغلبكم الخمر على الحلم ، يا معاشر الصناع، من كان الوقت رأس ماله ، والصحة سبب رزقه ، والكسب قوت عياله ، فليهجر الخمرة ، فإنها مضيعة الوقت ، مضرة الصحة ، آفة النشاط .

قال الهدهد :

فبينما النسر يتكلم والجمع يسمعون ، برز الخمار له بين رجلين من الشرطة كان استأجرهما ، فطلبا إلى الأستاذ أن يمسك عن الكلام ، وألا يذم الخمر فى بيتها ، ولا يطعن عليها فى وجهها ؛ ثم أبلغاه أن صاحب الحانة يدعوه إلى المحكمة فى اليوم التالى ، ليطالبه أمام القضاة ببدل ما ألم به من الضرر ولحق به من الخسارة ، بسبب هذه الخطبة فى هذا الموقف؛ فامتنع الأستاذ من الكلام كما أشار ، وأجاب بأنه سيوافى المحكمة فى الغد ؛ وهناك يكون له وللخمار شأن .

ثم مشينا نخترق الصفوف ، وهى تتنحى للنسر وتنحنى له فى طريقه ، حتى خرجنا من ذلك القسم من المدينة ، ودخلنا فى قسم آخر ؛ فقال الأستاذ لصاحبيه : غداً نتبارز أنا والخمر ، ويحكم القضاة بينى وبين التَّجر . قال أحدهما : قد كان لك يا مولاى غنى عما أتيت ، إذ ظلمت إنسانا من حيث هديت قال : إن الطرق مدارس

العامة ، ولا يعلمهم فيها إلا الخطباء ، والرجل يظلم الناس ليل نهار ، ومن ظلم ظالما فما ظلم ؛ إنى لا أشفق من الخمر على الخاصة ، فإن لهم عقولا تردهم أحيانا إلى الاعتدال فى أمرهم ، وأشغالا من العيش وأسبابًا من السعة تعينهم على الخمر وتقيهم كثيرًا من عواقبها؛ ولكنى أشفق منها على العامة ، فهى فيهم سلطان جائر ، يفتك ولا يرحم ؛ وشيطان ثائر ، يسكن الرءوس فيملؤها شرا ، ويتملك النفوس فيملؤها خبائث ؛ وإذا هلكت العامة فى أمة فقد هلكت الخاصة .

قال الهدهد :

وبينما أنا مؤتنس بحديث النسر ، أسمعه ولا أمله، وأتعظ بجميع ما يأتى ويذر ، وإن لم يخاطبنى فى هذه المرة ولم أخاطبه ، إذ قطع الحديث كعادته وتثاءب ، فعلمت أن الساعة أتت ، ثم نظر إلىّ وقال كلمته المألوفة : إذا جاء الليل ذهبت الشياطين ، فالقنى غدًا فى المحكمة ، تسمع وترَ .

المحادثة السادسة

قال الهدهد :

فلما كان اليوم التالى ، سئمت من النهار وطوله ، ومن ينتظر يسأم ؛ حتى إذا مال ميزانه وآصلت الآفاق ركبتها إلى منفيس ، وأنا أنتظر أن يكون لتلك المحاكمة نبأ، وأرجو أن أقف على درجة القضاء عند المصريين القدماء ، لعلمى بأن العدل – كما قيل – أساس الملك ، ولا عدل إلا حيث القضاء يدور دولابه ، ويولاه أربابه ، وتوثق أسبابه؛ فهو مرآة الحكومات التى تتراءى فيه بما هى عليه من استقامة أو عوج، وظلم أو عدل ، وصلاح أو فساد ، وارتقاء أو انحطاط ؛ وأساس الممالك ، إذا سلم سلمت ، وإذا تهدم انهدمت ؛ وعنوان شعور الأمم وتعقلها ، ودرجتها فى العرفان ، ومبالغها من الفضيلة الإنسانية ؛ لأن القوانين التى تضعها كل أمة وتتواصى بالخضوع لها ، ليست إلا مجموعة تاريخها وآدابها وأخلاقها وعاداتها؛ ولأن القائمين عليها بهذه القوانين ليسوا إلا أفراداً من أبنائها ، يبصرون بعينها ، ويسمعون بآذانها ، ويشعرون بمثل شعورها ، ويجدون مثل وجدانها ؛ فإذا زكوا زكا سائر الأمة ، وإذا خبثوا خبثت الأمة جمعاء .

قال :

فلما احتوتنى المدينة ، رأيت الزمر آخذين طريقا يتدفقون فيه ، فقلت فى نفسى: لعل الزحام من أجل بنتاءور وقضيته ، وطفقت أطير إلى حيث يسيرون ، حتى جمعت الجموع أرى لديها هالة ، وعليها من العدل رونق وجلالة ؛ فقلت فى نفسى : دار القضاء لا محالة ؛ ومرقت من فورى فصرت فيها ، أجول مع الجائلين فى نواحيها ، وهناك علمت أن هذا البناء الرفيع ، مقر حاكم القسم ، وأنه يجلس فيه للقضاء بين الناس؛ فقد رأيت كثيراً من دور الحكومة فى الأقاليم ، وهى التى يجلس فيها عمد البلاد وأعيانها وحكام القرى للفصل فى المنازعات ، فلم أر ما يحاكى رفعة هذه الدار.

فأجابه أحدهم : إن قسم الصناعة أكبر أقسام المدينة يا مولاى ، فلا غرو أن تكون دار الحكومة فيه بهذا العظم ، لكن أيأذن لى مولاى إن سألته ، ألم يأن لحكومة جلالة الملك أن تجعل القضاء عملا مستقلا ، ونظاما قائما بذاته ، فلا يقضى بين الناس شيخ القرية ، ولا حاكم القسم ، ولا قائد العسكر ؟ قال : وأى بأس بهؤلاء إذا انتدبوا للقضاء ، وهم أشد الناس امتزاجا بالأهالى ، وأعرفهم بطباعهم وأحوالهم؛ وجلهم على معرفة واستقامة أخلاق ؛ بل إن الأهالى كثيراً ما يفزعون بمنازعتهم إلى أفراد منهم اشتهروا بالعلم والخبرة ليفصلوا فيها ، وهم يرتاحون لقضائهم ، ويقبلون أحكامهم ، ويمتثلون الصارم منها كالجلد ؛ وربما كانت هذه الأحكام أدنى إلى العدل وأقرب للصواب مما يصدره قضاة تقيمهم الحكومة ولا تنتقيهم ؛ ولقد رأيت الحكام فى القرى إذا تصدروا للقضاء جلس بجانبهم نفر من الكتّاب والأعيان ليمدوهم بالرأى ويردوهم إلى الصواب فيه .

قال الهدهد :

فاستغربت هذه الأقوال ، وعجبت للدهر كيف تشابه وجهه وآخره ؛ فهذا قضاء العمد كان من ضمن نظامات المصريين القدماء ، وهو اليوم الشغل الشاغل والمسألة الكبرى فى مصر؛ وهؤلاء المحلفون كانوا يؤازرون القضاة على عهد الفراعنة ، وهم اليوم من ضرورات القضاء فى باريز مركز الحضارة الحاضرة .

ثم التفت النسر حوله وقال لأصحابه : ما أجل هذا الموقف !

وهناك بصرت بالنسر فى ناحية يحيط به جماعة من أصدقائه وتلاميذه ، فاقتربت منه ، فهبطت مستقرى من كتف ، فالتفت إلىّ مبتسما فقال : جعل هذا الموقف للفضيلة ينصرها فيه دعاتها ، كما جعل للجرائم يفتضح فيه جناتها ؛ والمتمثلان فيه اثنان : جان تعلن براءته ، وهذا يبكى عليه من فى الأرض ؛ وبرىء تعلن جنايته ، وهذا يبكى عليه من فى السماء ؛ ومن لى أن أكون الثانى !

فقال له أحدهم : قضاة منفيس يا مولاى قضاة عدل ودراية ، فلا خوف على رفيع شرفك منهم .

قال : لا يضطرب إلا القاضى العادل ، ولا يخطئ إلا القاضى العليم؛ ولو أن لبنتاءور أن يحاكم نفسه بنفسه ، لحار فى شأنه مع الخمار فلم يدر أيقضى لنفسه أم عليها .

قال أحدهم : هبهم يا مولاى حكموا لصاحب الحانة بشىء من المال يأخذه منك عوضا لما لحق به من الخسارة المزعومة ، فما يكون شأن هذا الحكم ؟

قال : أكون قد أعطيت الفضيلة شيئًا من مالى لا أستكثره عليها ولا أتبعه المن.

فسأله آخر : ما القضاء يا مولاى ؟

قال : محكمة ظاهرية ألجأ إليها فساد المحكمة الباطنية !

قال : فما العدل ؟

قال : شىء كان مع الإنسان الأول حين لم يكن له فى الأرض شريك يزحمه ، وكان لا يجد عليها من يظلمه .

قال الهدهد :

فبينما النسر وأصحابه فى التحادث ، إذ دعى المتقاضيان للمثول فى موقف القضاء ، فدخل الأستاذ ونفر من الشهود له وعليه؛ وكان القضاة نحو سبعة ، هم حاكم القسم ومعاونوه من كتاب الناحية وأعيانها ، وكان مترديا حلة للقضاء بيضاء ضافية محلاة الحواشى ، تزهو بقلائد العقيان التى كان الحكام يزينون بها صدورهم كلما جلسوا للحكم بين الناس ، فلما صار النسر بين أيديهم قال له الحاكم : أيها الأستاذ ، إن لك بمقتضى مناصبك السامية فى المملكة أن ترغب عن قضائنا إلى قضاء جلالة الملك ، كما لك أن تقبل منا ، قضينا لك أم عليك ؛ فانظر ماذا تؤثر؟

قال : رضيت بقضائكم ، لأن مناصبى السامية فى المملكة ليس من شأنها أن تميزنى على خصمى هذا فى موقف يستوى فيه الخصوم ، ويقتص فيه للحصى من النجوم؛ فاسمعوا له ولى ، ثم اقضوا ما أنتم قاضون .

قال : إنه يقول إنك أزريت به وبتجارته ، وإنه لا بد له من بدل ، ويطلب من المحكمة أن تحكم له بمال يأخذه منك ، وقد جاء بشهود من عنده للإثبات؛ فهل جئت بشهود من عندك للنفى ؟

قال : ليس لى شهود من عندى أيها القاضى ، وما خطر لى قط على بال أن الشهادة تتجزأ ؛ لأنه لا فضيلة ولا عبادة ، حيث يختلف اثنان فى شهادة ؛ وإنى لأعجب لكم معشر الحكام كيف تقبلون من شاهد أن يثبت ومن آخر أن ينفى ، وأنتم تعلمون أن أحدهما كاذب ، أو محرف للشهادة لا محالة ، وقبول الكذب إغراء به ! إن الشاهد دعامة القضاء ، إذا متنت متن ، وإذا وهنت وهن ؛ فقوّموه تقوموا به ، ولو أن من الآلهة قضاة فى الأرض ومن الملائكة متقاضين وفسد الشاهد لفسدوا جميعًا . الشاهد عنوان الأمة ، فاجعلوا عنوانها الصدق والفضيلة ، لا المين والرذيلة ؛ إن شاهدين يقول أحدهما رأيت نهارًا فيقول الآخر رأيت ليلا ، ويقول الأول سمعت ضحكا فيقول الآخر سمعت بكاء ، لمن حقهما أن يفصل بينهما قبل أن يفصل بين المتقاضين ؛ فمن كذب منهما يسلب السمع والأبصار ، وينادى عليه فى الناس بالفضيحة والعار !

قال الحاكم : إن مقام هذا المقال المدرسة لا المحكمة أيها الأستاذ ؛ لا بد لنا أن نسمع الشهود ، فليخرجوا وليبق منهم واحد .

فخرجوا إلا واحدًا ، فطلب القاضى منه أن يؤدى اليمين القانونية ، وهى عند المصريين القدماء : « أقسم بحياة الملك ، وبنعمة الآلهة ... » فأداها ، ثم قص على المحكمة ما رأى وما سمع ، وحدث القضاء حديث الخطابة ، وأعاد عليهم منها حتى فرغ من الشهادة فذهب لشأنه ، وجيء بغيره فأداها ، ثم شهد ثالث ورابع وخامس ،

فرأيت الكل على خلق واحد من توخى الصدق والتوجه إلى الحقيقة والإيجاز فى العبارة؛ فغبطت قضاة الفراعنة بهم وبسائر الأمة، أمة الأخلاق ؛ ورثيت فى نفسى لقضاتنا ، علما بما يكابدون من جهل الشهود ، وروغانهم من الحقيقة ، وخبطهم فى المقالة ، بما يخرج القاضى أحيانا من سكينته ، ويشتت خواطره ، ويذهب بثمين وقته سدى .

ثم طلب القاضى من صاحب الحالة أن يشرح دعواه؛ فتقدم رجل أسمر اللون ، صغير الهامة ، رقيق العنق ، قبيح الوجه ؛ فسأله الحاكم : من أنت ؟ قال : فلان الكاتب يا مولاى ، أنابنى صاحب الحانة عنه فى تقرير شكواه ، وشرح دعواه ، قال : إذن تكلم . فأقسم الرجل ثم شرع يقول : دخل السيد الأستاذ بنتاءور ، وصديق ملك العالم ، حانتنا التى بشارع الصناعة ، يصحبه فتيان ، فلبث ريثما شرب قدحا من نبيذ منفيس ، ثم خرج فلم ندر به إلا وقد وقف بباب الحانة فمنعه ، واعترض للناس فى طريقهم إليها فقطعه ، وخطب فى المارة بعد ذلك فاستوقفهم ، وجلب الزحام بعضه بعضا حتى خيل للرائى أن الحانة قتل فيها قتيل ، أو حدث فيها حادث جليل ، وكانت الخمر موضوع خطبته ، أولها وآخرها ؛ فوصفها بأقبح الأوصاف ، ونهى عن شربها ، وحذر من عواقبها ، وذكر مضارها ، وبين نصيب كل طبقة من طبقات الأمة منها ، وطالت خطبته حتى سمعها خلق كثير ، ومن فاته أولها لم يفته آخرها ؛ ويعلم القضاة من جهة أن تجارة الأهلين حرة فى بلاد جلالة الملك ، وأن قوانين جلالته لا تحرم الخمر ولا تمنع من المتاجرة بها ؛ ويعلمون من جهة ثانية أن للخطابة مواقف لم يكن ذلك الموقف منها ؛ فلو قال الأستاذ فى الخمر ما قال وهو فى التعبد بالهيكل أو فى التعليم بالمدرسة ، لما وجد لائما ولا مؤاخذا ؛ لكنه عمد لشخص معين فأزرى به وبتجارته، بمرأى ومسمع من الكافة ؛ ويعلمون كذلك أن ألاّف الحانات بين الناس هم العامة فى الغاب ، وهؤلاء يتأثرون بذكر اسم الأستاذ بنتاءور ، فكيف إذا سمعوا حديثه ، وكان مداره ذم الخمر فى بيتها ، وتقبيح تجارتها بين أعين تجارها ؛ ويعلمون أيضا أن المارة فى أى قسم من أقسام المدينة ، إنما يكون معظمهم من أهله وسكانه ، وحانتنا

إنما جعلت لأبناء تلك الناحية التى خطب الأستاذ عليها ، فكل ضرر ينشأ عن خطبته إنما يلحق بالحانة خاصة ويصيب صاحبها بالذات .

هذه شكوانا بسطناها للحاكم وأعوانه ، آملين من عدالتهم أن يقدروا الخسارة التى سببها الأستاذ لنا بخطبته ، وأن يسوموه أداء العوض إلينا .

فحين فرغ الرجل من شرح الشكوى ، لم يتمالك بنتاءور أن ضحك ثم قال: أيها القضاة ، أعطوا الخمار من مالى ما شئتم ، ولا تعطوا هذا الأحمق منه فتيلاً!

فسأله الحاكم : وأى علاقة بينكما وليس هو إلا محاميا عن صاحب الحانة؟

قال : علمت أنهما اشترطا أن يكون له النصف مما تحكمون به على، وأن الخمار عارضه فى ذلك بادئ بدء ، فكان جوابه أن التجارتين سواء ، فكما أن الخمار يسلب الناس أموالهم ، كذلك المحامى يشاطرهم أرزاقهم .

زعم الخصم أن قوانين جلالة الملك لا تحرم الخمر ولا تمنع من المتاجرة بها ؛ ونحن نقول إنها تبيح السم أيضا ولا تحظر الاتجار به ، ما دام من العقاقير ، وكل ما أخذ بمقادير .

على أننا لم نحرم الخمر ولم ننه عنها ، وكيف وقد شربنا منها قدحا باعتراف الخصم ؛ لكن دعونا الناس إلى الاعتدال فى أمرهم وأخذ القليل منها إذا لم يكن من شربها بدٌ؛ فمثلنا كمن يقول لهم وهو على باب صيدلية لا حانة : يا أيها الناس، لا تأخذوا السم إلا بمقدار ! فهل علينا إن قلنا هذا من حرج ؟ شتان بين النوعين من السم ، هذا يأخذه المرء وهو يعافه ، وهذا يتناوله وهو يلذّه ؛ هذا يتجرعه وهو يدرى ، وهذا يتعاطاه وهو لا يدرى ؛ هذا إذا أخذ قليله نفع ، وإذا أخذ كثيره أراح؛ وهذا صحة تزول ، وشعور يعتوره ذبول ، وعلة تطول ، وميتة عذابها يهول .

وزعم الخصم أن للخطابة مواقف لم يكن ذلك الموقف منها ؛ ونحن نقول إن الموقف لم يكن أصلح منه للخطابة ؛ لأن مدمن الخمر لا يرثى له إلا فى الحانة ، كما أن الميت لا يؤبن إلا فى القبر .

وزعم الخصم أن خطبتنا من شأنها أن تؤثر فى العامة الذين هم المشاعون إلى الحانات ، وهذا ما كنا نبغى ، فإنا نلتقى بالخاصة فى المجالس ونكتب لهم ما تصل إليه أيديهم وأفهامهم ، لكن لا يجمعنا والعامة إلا الطريق ، ونصحهم دين علينا أينما لقيناهم .

وزعم الخصم أن البلاء مقصور على حانته ، لأنها إنما جعلت لأبناء الناحية التى حاربنا فيها الخمر ، فأصبح ينتظر من سكانها أن يولوا الوجوه عنها ؛ وهذا يسوءنا بقدر ما يحزن صاحب الحانة ، فقد وددنا لو عم النفع بقدر ما خص الضر.

أيها القضاة ، لا تحكموا للخمار فتحكموا على الفضيلة ، ولا تقضوا له فتقضوا على التجارة الشريفة ؛ لأن المتاجر بالخمر قاسى القلب لا يرحم صرعاه ، غدار لا يشيع جنازة قتلاه ، غشاش لا يقف فى الغش عند حد ، شره لا يقتصر فى الكسب عند غاية ؛ فإذا لم يكن منك رقيب عليه ، ولم يضرب القضاء على يديه ، عظم شره ، وعم ضره ، وتشبه به الكثيرون من أهل الكسل والشره !

ثم نطق القاضى بهذا الحكم :

نحن حاكم قسم الصناعة ، من أسباب حكمنا الذى نصدره باسم جلالة الملك، مقتبسين من أنوار عدله المشرقة على العالم ، أن النيات موازين الأعمال ، لا غنى للقضاء عن تقدرها والتأمل فيها والوقوف حيث هى من صلاح أو فساد فى الحكم على صلاح الأعمال أو فسادها ؛ ونية الأستاذ بنتاءور يوم خطب فى شارع الصناعة ، كانت معقودة على أن ينفع الناس ولا يضر بصاحب الحانة ، وأيضا إن الفضيلة هى روح الشرائع التى يحكم بها جلالة الملك رعاياه ، فلا ينبغى لها أن تنصر عليها الرذيلة فى حال من الأحوال ؛ والأستاذ بنتاءور إنما نهى عن الإكثار من الخمر وإدمانها الذى هو رأس الرذائل ، ونرى كذلك أن الأستاذ بنتاءور هو من كبار أساتذة الأمة وأهل الإرشاد فيها ، وهذه الوظيفة العالية يؤديها أمثاله الحكماء فى كل زمان ومكان ، أينما وجدوا وكيفما ارتأوا ، وكل تعرض لهم فيها تعرض للفضيلة ؛ وبناء على ذلك حكمنا

ببطلان دعوى الخمار ، وأن يدفع إلى الأستاذ بنتاعور عشرين قطعة من الذهب ، لأنه سلبه بعض وقته الثمين ، وأخره عن أشغاله النافعة فى دعوى لم يكن من شأنها أن ترفع إلى القضاء ؛ ولهذا السبب نفسه حكمنا على الكاتب فلان المحامى عن الخمار بخمسين جلدة يجلدها فى صحن دار الحكومة هذه بمشهد من الناس ، عقوبة له على غشه صاحبه ، ولكيلا يجترئ أمثاله الكتّاب على أخذ أموال الناس بغير الحق !

قال الهدهد :

ثم تشاءب النسر تثاؤبه المعهود ، وفاه بكلمته المألوفة : إذا جاء الليل ذهبت الشياطين . وأمرنى أن ألقاه غد ذلك اليوم فى دار الأمين « أونى ».

المحادثة السابعة

قال الهدهد :

فلما كان أصيل الغد ، خرجت إلى الموعد كالعادة ، وقد عيل صبرى لبخل النسر علىّ بالكلام ، وخبطه فى ضرب المواعيد ، فدخلت منفيس ضالا حيران لا أهتدى السبيل ، ولا أجد من دليل ؛ فجعلت أمرّ بالدور العالية ، وأطيف بالقصور الشاهقة ، لعلى أجد ريح النسر ، على ذلك القصر؛ حتى أتعبنى طلابه ، وأغضبنى احتجابه ، وبغض إلى اصطحابه فعمدت لشباك مفتوح فى طبقة من دار فدخلتها منه ، وقررت فى رف هناك ، ثم نظرت تحتى ، فرأيت غلمانًا بضعة منتثرين فى المكان ، متقابلين على الأرض فيه ، وقد جلسوا أرضا ، وأقبلوا برءوسهم على ركبهم ، وبين أيديهم شىء كثير من ورق البردى وسائر أدوات الكتابة وهم فى العمل ، وكان الصدر لرجل يؤخذ من سنه وهيئته واتخاذه منصة للجلوس وأخرى للأوراق ، أنه رئيس هذه العصبة ، والمسيطر على هؤلاء الكتبة ، فخيل إلىّ عندما رأيتهم على هذا الحال ، أننى فى بعض الدوائر المصرية القديمة ، حيث الباشكاتب يتصدر والعمال بجانبيه يعرضون عليه الحرف والسطر والصحيفة .

قال :

وكان دونى غلامان متدانيان فى الجلوس ، وكانا يتحادثان همسا ؛ فاسترقت السمع ، فسمعت أحدهما يقول للآخر : نحن نكتب غير مأجورين ونتعب ، وهذا الرئيس يأخذ المرتب ! فأجابه الثانى : وليته يتركنا وشأننا وما نحن فيه من حال تحنى الظهور وتدمى الركب وتقرح الجفون ، فقد شكانى من أيام إلى والدى ، وزعم أنى بطىء الفهم ثقيل الحركة ! قال : وهل صدقه أبوك ؟ قال : تردد ، ثم نقل الحديث إلى أمى فلم تصدقه ؛ وحلفت بنعمة الآلهة أننى أحضر ذهنا وأصح فهما منه ومن أولاده الثلاثة ! قال : إنه صديق لأبيك ولوالدى ، ولولا هذه الصداقة لما اتخذنا تلميذين له ، فليتها لم تكن ولم ندخل هذا القبر على قيد الحياة! قال : لكن الناس إجماع على أن

هذه الصناعة التى يمارسها هى سلم الارتقاء فى خدمة الأمراء والأغنياء ، وأن كثيراً من الكتبة وصلوا فيها إلى الجاه العظيم ، وحصلوا معها على المال الجسيم؛ وقد حدثنى أبى وأنت تعرف مكانته فى العلم والفضل ، أنه رغب فى الاتصال بالأمير «أونى» أحد أنجال الملك ، وكان فى ديوانه حجابه عمل يحتاج إلى عامل ، فطلبه أبى بسفارة صديقه هذا الذى سئمنا من رؤيته ، وهو كما تعلم المأمور المتصرف فى ديوان أمواله ، فعرض اسمه على الأمير فى جملة ما عرض من الأسماء ، فلم يقع اختياره إلا على واحد من الكتبة ، لكن أبى لا يبرئ هذا الشيطان ، ويتهمه بكونه يظهر ما لا يبطن، كدأب جماعة الكتبة المتفقين على أن يأخذ بعضهم بيد بعض فى الأمر كله؛ وهذا هو سبب قوتهم وسر نجاحهم!

قال الهدهد :

فعجبت لمصر أم العجائب ، كيف صبرت آلافا من السنين على حال واحد مع هؤلاء الكتبة ، فكانوا على عهد الفراعنة هم أنفسهم وقت دخول العرب ، إلى زمن المماليك ، إلى أيام محمد على ، إلى حكم إسماعيل ، إلى عصر الاحتلال ؛ وفيه ظهرت الشهادة الابتدائية ، وأختها الثانوية ، فمات بها الجهل وماتت الكتابة القديمة لكن هلك كثير من طلبة الرزق فى الحكومة بين طلبة العلم عن غير شهادة .. وحرت فى نفسى فلم أدرأ أبكى ذلك اليسر مع الجهل . أم أبكى من هذا العسر مع العقل ؛ وكنت قد استبشرت عندما سمعت اسم الأمير أونى ، وعرفت من حديث الغلامين أن الديوان له ، وهؤلاء الكتبة أتباع له ؛ وأملت أنى أستدل على القصر بأحدهم ، فتحقق أملى على الفور ؛ إذ لم يلبث الرئيس أن نهض ، فالتفت إلى من يليه من الغلمان وأخبره أنه ذاهب إلى القصر لمقابلة الأمير فى بعض الشئون ، ثم خرج من الباب ، فسبقته من النافذة وأنا أستغرب هذا الاتفاق ، وأتعجب من المصادفات كيف تنساق ؛ فما زال فى سيره ، وأنا فى أثره ، حتى احتوانا طريق ضيق ، جمعتنى العناية فيه بالنسر ؛ وكان يمشى متمهلا كثير التلفت؛ فلم أتمالك عن الوقوع على كتفه ، فلما صرت فى عشى المألوف منه ، التفت مبتسماً مسروراً ، وقال : لقد خفنا على الهدهد الضلال!

قلت : ما زلت يا مولاى تضله ، وما برحت العناية تدله!

ثم حدثته حديثى وما وعيت من محاورة الغلامين ، فاستضحك ثم قال : انظر كيف يستفيد الغريب من الضلال أضعاف الفائدة من الاستدلال ! قلت : لقد أوشكت يا مولاى أن أضل حلما فيكم وفى شئونكم الغريبة ، وأحوالكم العجيبة ؛ لأنكم تهزلون وتجدّون ، وتعظمون ، وتجهلون وتعقلون ؛ كيف يكون مثل ذلك الكاتب على ديوان أموال الأمير وفى المملكة من يصلح لهذا العمل وأمثاله من طلبة العلم بين شبان البلاد الأكفاء ؟ قال : وأى كبير لا يصغر أحيانا يا بنىّ ؟ إن للأمة الكبيرة كما للفرد الكبير زلات وجهالات ، تدل على الكمال الكامل للآلهة وحدهم ، فإذا دخلت على قوم ديارهم فلا تحكم على أشيائهم متفرقة ، واحكم عليها مجتمعة .

ثم أفضى بنا المسير إلى ميدان وسيع ، فيه قصر رفيع ، فمشى النسر نحوه ، فسألته : لعلها دار الأمير يا مولاى ؟ قال : نعم ، وليس ما ترى إلا قصرا من نحو مئة قصر ، يحيط بها سور واحد ، ويأوى إليه الملك ونساؤه وأولاده وأرباب خدمته، كل بقدر درجته فى القرابة ، وحسب منزلته فى الصحبة وموقفه فى الخدمة .

قال الهدهد :

فاستغربت الأمر ، وقلت للنسر : ما ترك الأول للآخر يا مولاى : فليست يلدز بالشىء الذى يذكر فى جنب هذه الأبنية الفرعونية ، والمساكن الرمسيسية ! قال : ألم أحرمك أن تقيس ، وأن تذكر أحد الملوك برمسيس ! قلت : لا أعود لها يا مولاى!

ثم دخلنا القصر ، فجعلنا نلج بابا ونستقبل آخر ، ونخرج من ساحة وندخل فى ساحة ، ونطوى دهليزا إلى دهليز ، بين حراس جملة ، وجند عدة ، وخدام لا تنقضى لهم جيئة ولا ذهاب ، حتى ضمتنا حديقة من أبدع ما غرست الراحات ، وأكرم ما أخرجت الأرض من النبات ؛ فاجتزناها إلى قصر له بهو يتمشى فيه الأمير الشاب، بين اثنين من الأصحاب ؛ فحين وقع نظره على الأستاذ ، تهلل واهتز ، وانثنى إلى ما وراء البهو ليستقبلنا ، وسار الغلمان بين يدى النسر حتى أدخلوه على الأمير ،

فالتقاه أحسن التقاء ، وأعلى محله ، وأجلسه بجانبه ، وأومأ إلى صاحبيه فجلسا دونه فى الحضرة؛ ثم خاطبه والابتسام ملء فمه ، فقال : لعل هذا هو الهدهد السحرى ، الذى لا يفارق الأستاذ فى هذه الأيام ! قال : هو بعينه ، فمن حدثك حديثه يا مولاى؟ قال قداسة هوروس (من ألقاب الفراعنة) قال : أوبلغ حديث الهدهد إلى الباب العالى (من ألقاب الفراعنة) ؟ قال : وهل تخفى على جلالته خافية فى الأرض أو فى السماء ، وهو المضطلع وحده بالملك فى الأولى ، وشريك الآلهة فى ملك الثانية ؟ قال : كذاك هو يا مولاى ، لكنه لم يسألنى عن أمر هذا الصاحب الجديد ! قال : لعل شاغلا شغله . قال : هذا الهدهد يا مولاى خلق لمجالس الملوك والأمراء ؛ لأنه أصم لا يملك السمع، أخرس لا يملك الخطاب ؛ اللهم إلا أن يتنزل فيه من روح الملك يوم يعرض عليه فينطلق بما يدهش السامعين ، ولا يدهش ذا القصرين (من ألقاب الفراعنة) لأن سره إذا حل فى نبات مشى ، أو فى طير نطق؛ فلا يجدن مولاى من بأس فى تشرفه الآن بالحضرة ؛ لأنه يكتم الأخبار ، ولا يذيع الأسرار ، قال : الكريم يصحب الكريم أيها الأستاذ ، ولو حملت معك الببغاء ، وهى الناقلة الواشية من بين الطير ، لائتمناها من بين الطير ، لائتمناها كما نأتمنك؛ والآن لعلك تدعونى إلى الدرس . قال : إن أذنت يا مولاى ! فتبسم الأمير ثم قال : ألا ترانى كبرت عن الدرس أيها الأستاذ ؟ قال : ما عُلم على بشر أنه كبر عن التعلم يا مولاى ، ولو سألت جلالة الملك وهو الموحى إلى من فى الأرض ، الموحَى إليه من السماء ، لأجاب أن الكمال ميسور بلوغه إلا فى العلم . قال : فما باله أعفى كثيراً من إخوتى الأصغرين سنا من الدروس ؟ قال : وما يدريك أنه يستنجبك ويرجو أن يستثمر غرس عنايته بك ؛ فقد سمعته فى بعض الأيام يقول لمن حوله : إن (أونى) لعلى بيان ، وإن البيان لخير مظاهر الملوك والأمراء، يسترق لهم الخواطر ، ويسعى لهم بالقلوب . قال : لو أنهم يختصرون معى من الدروس، فلا يكلفوننى منها ما يمجه ذوقى وتأباه طباعى ، مثل الرماية، وركوب الخيل ومطاردة السباع فى الصحارى والقفار ، لأقبلت على سائرها إقبال الحيارى المستفهمين على الهياكل ينتظرون جواب الآلهة فى معضلات المسائل . قال : من الناس يا مولاى من تلجئه منزلته فى هذا العالم إلى ممارسة ما يكره ، وركوب ما لا يود،

وأنت ابن الملك ؛ وناهيك بها من نسبة يتلاقى فيها أبوك والشمس ؛ وإنها لتجعلك حيث لا يكون سائر الناس؛ فأنت ممن معك بين أصحاب موالين ، لا تأمنهم أن ينقلبوا أعداء مقاتلين ؛ بل أنت من قصرك هذا فى شبه حصن تحرسه الآن مهابتك ، ولا يحميه عند الكريهة إلا ثباتك وشجاعتك ؛ وإذا خرج فتيان المملكة إلى قتال المتوحشة بنى الخراب (كنية الأمم الخارجين من حكم الفراعنة) ومنعهم من الغارة على البلاد، نصرة للآلهة ومواطنهم المقدسة ، خرجت أنت ناصراً ، ذائداً عن ملك أبيك المؤيد بالشمس ؛ فأنت إذن من جنود الصف الأول الذين لا غنى لهم عن قلوب تُقسِّيها ملاقاة الأسود ، وجسوم ينشطها ركوب الخيل، وأحداق تحددها مزاول الرماية ، وسواعد يقويها الضراب بالسيوف، واعلم يا مولاى أن هذه الدنيا لمن غلب ، وأن الغلبة فيها للقوة ، وأن الأمم لا تحفظ الاستقلال موجودا ، ولا تسترده مفقودا ، إلا بالقوة ؛ فيتعين إذن على كل إنسان يحب بلاده محبة حقيقية ، ويريد بقاءها ممتنعة الجوانب ، عزيزة المنال على الأجانب ، أن يثبت نفسه بالفضيلة ، ويقوى بدنه بقدر الإمكان ، ويتعلم فنون الحرب فى السلم ، وأن يشيب على ذلك ، ويسوم أولاده أن يشبوا على مثله ؛ حتى إذا دهم البلاد يوم عصيب ، استدفعته بشبان من أبنائها وشيب . إن الإسد إذا أقعده الهرم، ناشته الذئاب كإحدى الرمم ؛ وإن الباز إذا خفضت رأسه الدهور ، توثب على منسره العصفور؛ وهكذا الأمة ، لا تغنى عنها الفضائل جمة ، إذا هى لم تجعل الشجاعة رأسها ، ولم تستحضر فى الحرب والسلم قوتها وبأسها . نشأ أبوك الملك يا مولاى ونشأنا معه، نحن رفاق صباه ، فى التخشن والتقشف ، وأنواع الرياضة البدنية، من صيد ومطاردة ، وقتال صورى ، ولم يكن جدك الملك سيتى يقدّمه على أحدنا فى المعاملة ، أو يفرق بين أحد منا فى المجاملة : بالرغم من مختلف الأنساب ، ومتفاوت الأحساب ، فلم يبلغ الواحد منا الخامسة عشرة من عمره ، إلا وهو كالشبل النوبى، لا يقر له قرار ، فى الفيافى والقفار ، وقد أوتى والدك الملك وهو يحبو إلى العشرين ، فاحتكم بكف كمخلب الأسد وقلب كقلبه أو أشد ؛ وكنا نحن المرشحين لمشاركته فى سياسة الأمور ، وأعوانه الطبيعيين على مداورة الشئون ؛ فوجد عندنا سواعد قوية الباس ، وعزائم شديد المراس ، وعقولا صحيحة سليمة ، فى جسوم

قوية قويمة : ولا أكتمك يا مولاى أنى كنت كثير الشكوى مثلك ، أضيق ذرعا بتلك النقل ، وأتعب بتلك المشاق ، وأشتهى جلسة على شاطئ النيل فى ساعة الغروب ، لكى آخذ من محاسن الأكوان وأسرارها وأشهد معترك ظلماتها وأنوارها ، وأنظر إلى الماء إذا قعد ، وإلى النبات إذا سجد ، وإلى الطير إذا هجد ؛ وأسمع ذلك الخرير ، تُتَاليه بأصواتها النواعير، وقد انفتح للكائنات هيكل من خاطرى فجمَّعها ، فهى تمجد الآلهة فيه وأنا أمجدهم معها ؛ إلا أن والدتى كانت تقص على قصص الوحوش من الشعوب الذين أغاروا على مصر فى الزمن الأول ، وتمثلهم لى فى أفظع الصور ، وتصفهم بأقبح الأوصاف ، فبينما هم الذئاب العارية ، إذا هم الأسود الضارية ، إذا هم الشياطين العاصية ، فروا من الحامية ، وردوا إلى الدنيا ثانية ؛ وكانت تقول إنهم لا يفرون إلا من السلاح ، ولا يعصم منها إلا السواعد العبلة الصحاح ؛ فكنت إذا سمعت ذلك منها ، قصرت الشكوى ، وصبرت على البلوى ؛ حتى تمت لجسمى التربية، فانقطعت لتهذيب نفسى.

قال الأمير : ومن لى أيها الأستاذ بأم كالتى ذكرت ؟ إن والدتى أول العاذلات لى على ما أنا فيه من إجهاد نفسى ، وإتعاب جسمى ، وهى تزعم أنه ما دام الملك من بعد أبى سيصير لأخى الأكبر ، فلا حاجة بى إلى مثل هذا الكد والكدح.

قال : ويح الأمهات ! طالما جنين فمهدت الرحمة عذرهن . أنت يا مولاى إن لم تكن وارث الملك فإنك وارث الملك ، وهو على فضائل لا بد لك أن تكون عليها ؛ لأن المسئولية فى هذا العالم بقدر منزلة الإنسان فيه : ومن أرفع منزلة من ابن رمسيس ؟ على أن محبة أخيك لك وثقته فيك يوم ينتقل إليه الملك ، تكونان بقدر قسطك من المزايا ، ونصيبك من الفضائل ؛ فإن كانا موفورين وكان أخوك براً بك مقبلا عليك ، كنت ساعده فى الملك ، ومساعده فى الحكم ؛ فإن فاتك منه هذا لم يفتك إجماع الناس على تعظيم نسبك ، وتكريم حسبك.

قال : أتظن أيها الأستاذ أن يخرج منا معشر أبناء رمسيس ونحن خمسون أو نزيد ، من يشبه أباه ، ويخطو فى سبل الفخار خطاه ؟

قال : مثل هذا السؤال يا مولاى يلقيه أبناء الملوك ولا يبالون ؛ لكن الحرج كل الحرج على من يسألون .

قال : نحن الآن صديقان نتحادث ولا نختلف ، قال : إننى أرجو أن تكونوا من بعده كماء الورد بعد الورد : يحفظ منه شيئًا ، ومعذور أن تفوته أشياء ؛ إن السعادة يا مولاى لم تكمل لملك كما كملت لأبيك فى حياته ، فهل نكلفها أن تبقى عليه بعد مماته، ولئن صح ما أعتقد من أن الإنسان قد يحيا فى نسله ، وينبعث فى فرعه كما يبعث من أصله ، فربما حيى لدى أحدكم ما يموت من فضله ؛ لكن من لكم يومئذ بالملك الجسيم يظهر ذلك الفضل للعباد ، وبالحظ العظيم ينشره فى البلاد؟

قال : صدقت أيها الأستاذ ؛ فهل تدلنى على ركن من السعادة ألوذ إليه فأسلو ما لا يدرك من محاكاة أبى فى بلوغ السعادة الكاملة ؟

قال : عليك بالشهرة يا بنى ، فإنها محسودة الملوك والأمراء ، وأفضل ما تنال بالعلم وأثبت ما تكون به ؛ فاطلبه وجالس أصحابه ، واجهد وسعك أن يقال عنك ابنُ نفسه ثم ابن رمسيس؛ فهذه هى اللذة الحقيقية ، والسعادة التى لا يعد لها فى هذا العالم إلا الصحة . أبقتها الآلهة عليك .

قال الهدهد :

وبينما أنا أنتظر أن يدعو الأمير إلى الدرس ويأخذ فى إلقائه عليه ، إذا هو قد تثاءب كعادته ، ثم التفت إلى مملوء الجفنين من النعاس فقال : إذا جاء الليل ذهبت الشياطين ؛ فالقنى أصيل الغد على باب القصر . فانتبهت من حلمى ، فإذا أنا فى عشى بحلوان .

المحادثة الثامنة

حدثنا الهدهد المسحور ، الدخيل فى الطيور ، كحال ذلك الناطقِ فى النسور ، السابقِ فى المنظوم والمنثور ، وما هو إلا بنتاءور ، شاعر القِدم المشهور ، الخالد ذكره مع الدهور ؛ أُنشرِ شيطانه ، وبُعِث بيانه ، وأُرجِع للناس زمانه ؛ قال :

لما كان الغد وأزف الأصيل ، خرجت إلى «منف» المنبعثة بقوة الخيال ، المتمثلة كما كانت فى العصر الخال ، إذ المالك رمسيس المعظم ذو الجلال ، وإذ الملك فى ذروة السعد وأوج الكمال ؛ فبلغتها وأنا حيران لا أدرى على أى أبواب القصر ألقى النسر ؛ لأنها متفرقة كثر ؛ وقد تقدم القول بأن الدار الفرعونية تكاد تكون ثلث المدينة من التناهى فى السعة وكثرة المشتملات وتمدد الأطراف؛ لكل زوجة فيها أخبية منصوصة ، وأفنية بها مخصوصة؛ وما أكثر الزوجات ! ولكل ولد غرف منفصلة، ومقاصير منعزلة ؛ والملك كثير البنين والبنات ؛ ولا تسل عن الحاشية وكثرتهم ، وما يلزم لهم من مساكن تختلف باختلاف منازلهم فى القصر ، وتتفاوت بتفاوت مواقفهم فى الخدمة ؛ وفى الدار منهم آلاف يؤدون الخِدم المتنوعة ، ويمارسون الصناعات المختلفة ؛ وبالجملة فالقصر السلطانى من امتداد البنيان ، وسعة الجوانب والأركان ، بحيث لا تحصى أبوابه ولا يغنى أحدها عن سائرها : فحين انتهيت إليه ، ولجته من الباب الذى دخلناه بالأمس ، وحينئذ ذكرت أن الساعة ساعة الدرس ، وأنى ربما لقيت الأستاذ فى مقر الأمير «أونى» ؛ فاحتلت حتى دخلت على الأمير فى غرفة جلوسه ، فلا والله ما عللت النفس بكذاب ، ولا أوردتها السراب ؛ بل إذا أنا بالأمير وجمع من إخوته وكبار الأتباع ، قد داروا كالحلقة بالنسر ، وهو فى بهرتها يتلطف لهم فى التعليم ، ويخلط المفاكهة والتدريس ؛ فوثبت إلى رفرف هناك فحططت فوقه ، وأنا مسرور بما وجدت ، قرير بما شهدت ؛ ثم ألقيت السمع ، فسمعت الأستاذ يقول :

والذى يميز علماء هذه الأمة على غيرهم ، ويجرى بهم إلى الغايات ، ويكفل لهم السبق ، ويجعلهم أساتذة وقتهم ، ومصابيح عصرهم ، أنهم يطلبون العلم لذاته ، ثم لأنفسهم ، ثم للأحادث من بعدهم ؛ وهذه الثلاثة ما قامت بنفس طالب علم ورُزق الحِجا والذكاء وفسحة الأجل ، إلا نبغ فى حياته ، ثم جاوز ذلك إلى رتبة الخلود بالذكر بعد مماته ؛ فيا أيها الأمراء ، ومن يلوذ بهم من الخواص والكبراء ، من أحب منكم العلم حبا صادقا ، وطلبه لذاته ، فليأخذه منى ؛ ومن حضر منكم مجلسى هذا وهو فارغ الفؤاد من حب العلم : عين ساهية ، وأذن لاهية ، وجسم فى ناحية وقلب فى ناحية ، فليأخذ العلم من غيرى !

قال الهدهد :

فرأيت ، وما أعجب ما رأيت ! رأيت أكثر الحضور انسلُّوا من المجلس ؛ فدهشت لهذا الصدق ، واستغربت من القوم هذا الرجوع فى الضمير إلى الحق ، وذكرت مجالس من هذا القبيل يعقدها بعض الكبراء فى مصر ، تظاهرا بمحبة العلم ، ويتصدر فيها للتدريس عبَّاد الشهرة من العلماء ، ويحضرها البعض رياء وتمليقا .

ثم استمر النسر فقال :

محب العلم يطلبه لذاته ، وهذا أول التوفيق فى طريق التحصيل ، وسبب النجاح الأوثق ؛ لأن النفس حيث رضاها ، وحيث يجعلها هواها ، ومن رضيت نفسه بالعلم قسما من أول يوم ، وامتلأ فؤاده من حبه ، أقبل عليه ، وضنّ به ، وانقطع له ، وألفى التعب راحة فى تحصيله ، واستوى عنده السلامة والعطب فى سبيله ؛ ثم لا يلبث العلم أن يعرفه قدر نفسه ، وأنه ما خلق فى هذا التقويم سدى ، ولا ساد نوعه على هذا الوجود عبثا ؛ فتأخذه من ذلك عزة بالحق ، وتنزل نفسه فى عينه منزلتها الحقيقية ، فيطلب العلم لها ، ويستكثر منه لأجلها ، ويجرى فيه إلى الغايات فى سبيلها ، لما استقر عنده من أن العلم يحيى النفوس ويهذبها ، ويطلعها على الحياة وأسرارها ، ويوصلها إلى كنه أغوارها ، ويسهل لها محياها ، ويهون عليها الفواجع فى دنياها ؛ وهذه هى المنزلة الثانية فى العلم ، يقف عندها سواد العلماء ، ولا يجاوزها إلا آحاد

يسخرهم الآلهة بهذا الوجود ، فيعملون فيه العلم العظيم ، ثم يموتون عن تراث فى الفضل جسيم ، من بنيان يخلدون ، أو حكمة يؤبدون ، أو مجد يشيدون ، أو فن يجددون ؛ وهذه هى رتبة الامتياز بالاختراع، ولا يقال عن أمة إنها بحياة ولها وجدان ، حتى يبلغ أفراد من بنيها هذه الرتبة ؛ ولئن كان العلماء فى الأرض عدد ما عرف من النجوم فى السماء ، فهذا الفريق منهم كالكواكب التى لم تعرف بعد ، يكشف منها واحد على رأس كل مائة ؛ وأنهم لأجلّ منها وأنفع فى الوجود وأهدى للناس ؛ وما بلغ بهؤلاء العلماء إلى هذه الرتبة العليا والمنزلة العظمى إلا ترقيهم فى عرفان قيمة النفس ومغالاتهم بها ، واعتقادهم أنها لا تفنى ، وأنها أجلّ ماهية وأعظم شأنا من أن تحضر بأيام الحياة القلائل ، ولئن تحتم أن تخرج يوما ما من هذا الهيكل الزائل ، فلها من جميل الذكر ومحامد الأحاديث هيكل خالد فاخر، يتجلى فى الخواطر، ولا تراه النواظر ، ولا يستأثر به مكان دون مكان ، ويتوارثه الدهر زمانًا عن زمان .

قال الهدهد :

ثم التفت الأستاذ إلى الأمير ، وكان الدرس قد طال ، فأذن له فى الإمساك ؛ فأمسك وتحفز للقيام ، فطرت إلى كتفه ، فنهضت فيه وأنا حسران على ما فاتنى من أوائل درسه ؛ حتى إذا انصرفنا من حضرة الأمير ، التفت إلىّ وقال : كيف وجدت مجلسنا أيها الهدهد ؟

قلت : استطبتُه يا مولاى وإن حضرتُ فى آخره ، واستدللت بهذه الحبة من العنقود على سائره !

قال : لنا تلميذ فى القصر نتعلم منه أحيانا ، ونزداد كلما حدثناه علما وبيانا ؛ فهل لك فى زيارته الساعة ؟

قلت : الأمر إليك يا مولاى .

فسار النسر بى يخترق وسيعات الدور ، ويجتاز شاهقات القصور ، وهو يعيِّنها لى واحدا بعد واحد، ويسمى أهلها، ويصف ما فيها، حتى أفضينا إلى قصر لا يبلغ البصر ذروته ولا يدرك سعته ، فقال : هذه مساكن الملك خاصة ، ونحن قادمون عليها .

ثم وصل سيره بين رياض ناضرة ، وحدائق زاهرة ، وسوحٍ وسيعة ، وأسوار رفيعة ، ومقاصير كالغيد الحسان ، تموج بالجوارى والغلمان ، إلى أن بلغنا إحدى الغرف ، وكان على بابها غلامان يحرسانها ، فوقف الأستاذ ثم سأل أحدهما : أين «تحوت» ؟ فأجابه : فى غرفة الكتابة يا مولاى . قال . اذهب فاستأذن لنا عليه .

فدخل الغلام يؤدى الرسالة ، والتفت النسر إلىّ فقال : رأيت جميع الفواجئ فلم أر أثقل على الإنسان من مفاجئ فى ساعة الكتابة ؛ وقد استأذنّا ، فلعل تحوت يأذن لنا !

وما كاد يستتم حتى خرج إلينا فتى مليح الطلعة ، حسن الزىّ ، ترى دلائل الذكاء على جبينه الوضاء ؛ فانحنى بين يدى الأستاذ وقال : زارنا خير من نُحب ونكرم يا مولاى !

ثم أخذ بيده ، فدخلا وهو ينظر إلىّ ويقول للنسر : لعله هدهدك السحرى الذى شاع ذكره فى المدينة يا مولاى ؛ وليس بمستنكر على من سحر البشر أن يسحر الهداهد !

قال : كيف أنت والملك يا تحوت ؟

قال أفضل مولى هو ؛ فمن لى أن أكون أصدق عبد ؟ يحبنى كبعض ولده ويثق بى كبعض قدماء أصحابه ، ويؤدبنى بالإشارة الخافية ، والحكمة العالية ، والنصيحة الغالية .

قال : هكذا عهدناه : إذا صادق أعزّ ، وإذا عادى أذلّ . وإذا أحب بلغت به المِقة ، وإذا وثق لا يرجع عن الثقة !

ثم جلس الصاحبان ، وطاف عليهما الغلام بشىء من عتيق النبيذ ، فسأل الأستاذ صديقه الفتى : من أى الكروم هذا المعتق يا تحوت ؟

قال : مما يضن به الملك يا مولاى ولا يوجد إلا فى خوابيه ، وقد أمر صاحب شرابه أن يملأ دنانى منه كلما فرغت ؛ وسبب ذلك أن جلالته نزل مرة إلى أن ناولنى

منه شيئا بيده المقدسة ، فدعوت له ، ثم قلت : أيها الملك المعبود ، كانت حلب العنقود ، فصارت بسرك حلب الخلود، من يذوق منها لا يخرج من الوجود ؛ فمن لى بها تنجلى ، فى كأس لا تفنى ولا تمتلى ، أذوقها بلسان رطب عليك ثناء ، وأشربها بفم مملوء لك دعاء !

فسر الملك بهذه الكلمة فى شكره ، وكان ما كان من أمره .

قال : هكذا الملوك العظماء ، يحتالون على الثناء ، ويأخذونه من عبادهم الأمناء ؛ والآن ائذن لنا يا تحوت إن سألناك ماذا تكتب ؟

قال : ولم يا مولاى ، وما كتبت فى عمرى حرفا إلا عرضته عليك ؟

ثم مشى الفتى إلى منصة الكتابة ، وكانت عليها رسالة من إنشائه ، جفّ مدادها أو كاد ؛ فأخذها ، ثم دفعها إلى النسر وهو يقول : هذه الرسالة منى إلى أخى ، أحد جنود الملك فى أسطول البحر الأحمر ، أشكوك فيها من بطء مكاتيبه عنى ، وأبشره بمنزلتى الجديدة فى الخدمة الشريفة ، وأصف له بعض أخلاق الملك .

قال الأستاذ : ما قرأ الكلام مثل كاتبه ؛ فخذ فأسمعنا يا تحوت .

فتناول الفتى الرسالة ثم قال : «يا أخى ، ما شغلك عنى وأنا المشغول بك ، أعتنى بأمرك ، وأسأل عن خبرك ، وأذكرك فى السر والعلانية ؛ أأفزع بالشكوى من هذا الجفاء ، إلى شيمتك الوفاء ؛ أم أعوذ بهوروس حامى حمى الثغور ، ومسيِّر تلك الأساطيل كالجبال فى البحور، أن يكون بين جنده من ينسى الصديق وينام عن عهده ، وقد عرفت نفوسهم بالوفاء ، كما وصفت بالنخوة والإباء ، ولئن أخذت بقسط من العزة التى هى لجنود الملك بالحق ، فإنها لكم جماعة الجند ولنا معشر الحاشية ، وما سوانا من الناس فأشباه ، إلا من حسب على رفيع ذلك الجاه . ولعله نمى إليك أنى ازددت من حظوة ، واستفدت فى سبل الفخار خطوة ؛ فجعلت على ملابس الملك أنشرها وأطويها ، وعلى جواهره أسهر على حفظ غاليها ؛ وقد أشفقتُ من الأمر فى أوله ، وحملته وأنا أعلم أنه جسيم ، وأنى قادم على ملك تام المهابة عظيم ، فلا والآلهة

ونعمائهم ، وآباء الملك وثنائهم ، ما سمعت كحديثه ، ولا آنست كبشره ، ولا رأيت كحلمه ، ولا عرفت أقل اغترارًا بالدنيا منه ، ولا أكثر ذكرًا للآخرة ؛ إذا دخلت عليه بثياب الملك قال : ما هذى العوارى يا تحوت ، وإذا حملت إليه التاج قال : ألبسنى يا تحوت فلا تمس يدى شيئا يخرج منها غدا . وسألنى جلالته مرة : ما أجمل الثياب يا تحوت؟ فقلت: ما تجمل بالملك ! قال: كذبت ربَّك ! أجملُها ما لبس الفقير بعد الغنىّ ؛ وثيابى لا تصلح لفقير بعدى ؛ فمُر صنّاع لباسى ألا ينقشوا رموز الملك على جميعه ، وأن يقصروا ذلك على ما أتخذ منه فى المحافل . وطلب خاتما له من نحو ألف خاتم فى الخزانة ، فتشابهت علىّ ، فأبطأت ولم أجسر على مخاطبته ؛ فلم أدر إلا به عند رأسى وأنا فى البحث عن طلبه ، فتبسم ثم قال : الخاتم لك إن وجدته يا تحوت ! فأطرقت هنيهة ثم قلت : فى البحار يا مولاى مليكة اللؤلؤ التى لم يُهد لها الملوك حتى الآن ، وهى لجلالة الملك إن وجدها . فاستضحك ثم قلّب طرفه فى الخزانة حتى عرف الخاتم ، فقال : هو ذا الخاتم فخذه فهو لك يا تحوت ! فقبّلت الأرض بين يديه شكرانا لأنعمه ؛ ثم تحوّل عنى فسمعته يقول : أى أمون ، جنِّبنى الغضب ، وأدِّبنى أحسن الأدب ، واجعلنى من يثيب لسبب ويعاقب لسبب ! وحسدنى حاسد على منزلتى الجديدة فى خدمة الملك ، فوشى بى عند جلالته ؛ وقال عنى إنى أذيع كلماته وأنقل ما يدور بيننا من الحديث ؛ فقال له الملك : أنا أعلم بما أقول ، وليس فى كلمى ما يريب فأكره أن يصل إلى عبادى ! ثم أمر بالواشى فطرد من خدمته ؛ وقال : الملوك اثنان : ملك أذنه للمظالم ، وهذا سيد الأكارم ؛ وآخر أذنه للنمائم ، وهذا عبد الألائم ! ورمانى أحدهم عند جلالته بأنى كثير الحلف بحياته ؛ وهذا كما تعلم محرم على العامة ، مكروه صدوره عن الخاصة ؛ فقال : رجل عيشه بعيشى ، ولا يثق بصفوة الحياة بعدى ، له ألف عذر أن يحلف بأيامى ! ثم أردف بأن قال للواشى : ونحن معشر الملوك أحوج إلى من تخلُص لنا سرائره ، منّا إلى من يرضينا ظاهره ؛ نلقى إجلال الناس حيث ملِنا ، ولا نثق بحبهم لنا ... هذا قليل من كثير من كلمات الملك التى اختصه بها آباؤه ، وبودّى لو نلتقى على خلوة تطول ، لأحدثك عن جلالته فتقول زدنى من حديثك ، ولتعلم

أنه ملك الملوك يقينا ولو نظر إليه عاطلا من أبهة الملك وعظمة السلطان ، وأن جنوده ملوك الجنود ؛ فحسبنا شرفا ما أنت فيه يا أخى من إعزاز لوائه والاعتزاز به ، وحماية سفنه والاحتماء بها ، والحياة فى ظل ملكه والموت دون شرفه الرفيع » .

قال الهدهد :

وما كاد تحوت يفرغ من قراءة رسالته ، حتى تثاءب النسر ، والتفت إلىّ مثقل الجفنين بالنعاس ، فقال : إذا جاء الليل ذهبت الشياطين ، فالقنى غداً فى دار الأعمى «بسادر» . فخرجت من صفو تلك الأحلام ، إلى كدر اليقظة بين هذا الأنام .

المحادثة التاسعة

قال الهدهد :

فلما كان اليوم التالى ، قضيت النهار فى كد وكدح وتعب حياة ، وأشغال دنيا طالبها حائم على ماء دائم ، وليته دائم ، إلى أن كان أوان الموعد ، فثرت إلى منف ، وأنا لا أستطيع للغيظ كظما ، ولا أملك فى أمر النسر حلما ، ولا أظن أن سأهتدى إلى ذلك الأعمى ؛ فلما بلغت بناء «منا» الدائم ، وقدمت أم المدن القدائم ، نظرت إليها نظرة مرتاح ، وقمت لديها على جناح ، وقلت فى نفسى : صفحًا للنسر عن هفواته إذ كان هذا المنظر من حسناته ؛ وهكذا الإنسان : ينسى ويذكر ، ويكفر أحيانا ويشكر .

ثم فكرت فى الأعمى وداره ، وما يقتضينى النسر من مزاره ؛ فسألت نفسى : من يا ترى الرجل حتى يزوره النسر ، وأى العميان هو ، فهم كثر ؟ تراه «شمشون» فى الهيكل انبعث ، أم «المعرى» قام من الجدث ، أم «يعقوب» ابيضت عيناه ، من الحزن على فتاه ؛ أم «بشار بن برد» قام من اللحد أم «أبو العباس» الأعمى ، أم «دريد بن الصما» أم الخليفة «القادر» فى أيام محنته ، أم «حسان بن ثابت» فى آخر مدته ، أم «الشطبى» أم «طوبيا» النبى ، أم «هومير» الشاعر اليونانى ، أم «ملتون» الشاعر الإنكليزى ، أم «مرصفىّ» هذا الزمان ، صاحب «الوسيلة» والكلم الثمان ، وأول من علم الهدهد البيان[1]، أم «داود الأكمه» ، أم «ابن سيده» أم «الطُّليطلى» ، أم أكمه المسيح ، أم أعمى عبس ، أم الأعمى الذى قتل البصير ، فى هذا الزمن الأخير[2] ؟

---

(١) يشير المؤلف إلى أستاذه «المرصفى» .

(٢) يشير إلى حادثة وقعت فى أيامه .

ولم يبق أعمى فى الزمن الغابر ، إلا مر ذكره بالخاطر ؛ ثم قلت : لعلها تعمية شاعر ، والرجل من عمى البصائر فتشابه البقر علىّ عندئذ وقلت : لعله أحد الغز[1] الذين أمِنوا لمحمد على وانتظموا فى تلك الصفوف ، فلاقوا فى القلعة الحتوف ؛ أم كروجر فى بلدان الغرب ، لا فى ميدان الحرب ، يظن أن الأقوام منقذوه من الكرب ؛ أو أحد سفراء الدول فى بكين ، منذ اتفقوا على الثقة بالصين ؛ أم من هؤلاء المهوسين فى البلاد ، الذين يطلبون حق السلطان «مراد» وآونة يبايعون من شاءوا من العباد ، ويريدون من «عبد الحميد» وهو الذى لا يجرى فى ملكه إلا ما أراد ، أن يصبح كهذا الذى قال عن نفسه وأجاد :

أليس من العجائب أن مثلى ... يرى ما قلَّ مُمتنعا عليه

وتُؤخذ باسمه الدنيا جميعًا ... وما من ذاك شىء فى يديه[2]

قال الهدهد :

ولو أردت أن أحصى عمى البصائر ، على ذكر الأعمى بسادر ، لما استطعت أن أحصى نصف الناس ، على اختلاف الأصناف والأجناس ؛ فبينما أنا مفكر حائر ، ماض فى الجو طائر ، إذ طاف بى من الجوارح طائف ، فلم أدر إلا وأنا بين جناحَىْ خاطف وهو ينظر إلىّ مبتسما ويقول : لقد أتعبنا الهدهد بالانتظار . قلت : وبذلك الأعمى فى تلك الدار ! قال : أما الأعمى فرمسيس رب هذا الملك ، وبانى هذه الدولة ؛ عمى إذ بلغ به الكبر ، فكانت هذه أبلغ العبر ؛ وأما «بسادر» فمن الأسماء الدائرة ، وإنما رميت باستعارته له إلى أن الدهر قد حكم فيه فصار كبعض الناس . قلت : يا أسفا على ذلك الوعد ، ويا حسرتا على تلك الأمنية ! لقد أخطأنى ما أمّلت من القدوم عليه ، وفاتنى ما رجوت من النظر إليه ! قال : ستجده أبصر فى العمى وأسمع

---

(١) يعنى بالغز : المماليك .

(٢) ينسب هذا الشعر إلى «المعتمد» أول من سلبت سلطته من خلفاء العباسيين ! ويشير المؤلف إلى حركة المطالبين بالدستور فى الدولة العثمانية .

فى الصمم ، وتلفيه متلبساً بلباس الفتوة فى الهرم ؛ فتعلم أنى استأذنت لك عليه وهو على عظمة من قوة الوجدان ، تعدل ما بلغ إليه من عظمة الملك والسلطان .

وصـــاحب لى أعـــمى فـــداؤه المبـــصـــرونا

يـريك فى كل قـــول وكل فـــعل عـــيـــونا !

قال الهدهد :

فقبلت حكم النسر ، ورضيت بهذا القسم النزر ، وقلت : قد آن أن ينجز مولاى وعده ، فإنى أخاف ألا أرى رمسيس بعده ؛ إذ ما بعد العمى والصمم ، وتبالغ الهرم ، إلا محتوم العدم !

فاستضحك الأستاذ ، ثم قال : الآن تقدم عليه ، فإذا أقامك فى الخطاب ، فبالغ له فى التحية ، وشبهه بكل قوى فى الأرض والسماء ، عظيم فى الغبراء والزرقاء ، واتبع فى مدحته سننا معشر الشعراء، من المصريين القدماء؛ وقل فى قاهر الأمم الأربعين ، كما قلت فى قاهر اليونانيين :

أمـــولاى غنتك الســـيـــوف فـــأطربت

فـــهل لـيـــراعى أن يغنى ويُطرب ؟

فـعندى كـــمـــا عند الظُّبى لك نغـــمـــة

ومـــخـــتلف الأنغـــام للأنس أجلب

فإن الملك وإن أشرق وجه الأرض من ثنائه ، وامتلأ فم الدنيا من مدحته ، وسيرت ذكره الأشعار ، وبزت أعماله القائلين ، وتكاثرت مناقبه على الناظمين ، فما زال يهزه المداح وما انفك يطرب للإطراء ويرتاح !

قلت : ستجدنى يا مولاى من المحسنين .

وعندئذ حملنى النسر فى القصر ، فدخلنا حجرة ليس أجمل منها فى الناظر ، ولا أجلّ منها فى الخاطر ، فى وسطها سرير فاخر ، وهو يزهو بالجواهر ، منضودة

من الخشب النادر، اضطجع فيه رجل يغضى من مهابته، ولا تثبت النفس إزاء جلالته ، حفظ الزمن الغضاضة على وجهه النقى من الشعر ، وعلا التاج منه رأسًا ملء التاج ، وهو كالتمثال له عينان ولا يبصر .

وكان النسر قد تمثل بشرا سويًا ، واستأذن فى الوصول ، فاستقدمه الملك ، فحين نقل القدم فى الحجرة العالية ، استقبل مولاه مستجمعا من الخشوع ، غاضًا من بصره من المهابة ؛ ثم قال : سلام من هوروس إليه ، سلام الآباء والأجداد عليه ! أيها الشمس المضطجعة فى سرير مجدها وضوؤها يغشى البلاد ، ويبعث حياة للعباد ؛ هذا هدهد ناطق ، انفرد فى الآخرين بتقديس ذاتك ، والتمدح بصفاتك ، والبكاء بعدك على رفاتك ؛ فاستحق أن يحسب على التفاتك .

قال الملك : لعله هدهدك السحرى يا بنتاءور !

قال : كذلك لقّبوه فى المدينة يا مولاى .

فالتفت رمسيس إلىَّ كأنه يرانى ، وقال : ماذا يقال عنا أيها الهدهد فى زمانكم النكد ، وأيامكم السُّود ، وعهدكم النُّكر ، وستّيْكم العجاف ؟ وماذا يعلم عنا ذلك الجيل الصغير ، والجمع المتفرّق ، والعقد المتمزّق ، والنسل الذى سمونا بالبناء والحجر ، ولم نَسْمُ به فى يومٍ مفتخر ؟

قال الهدهد :

فعجبت من حرص الملك على ذكره من بعده ، وكيف أنه قدّم هذا الأمر على غيره فى ابتداء الحديث ؛ وعلمت أن حب تخليد الذكر ، هو رأس المطالب العالية ، لا يتأسس بناء فى المجد إلا به، ولا تقوم شهرة ثابتة راسخة إلا عليه؛ وحرت فلم أدر كيف أجيب، أأصدق الملك فأقول له إن القوم ضيعوا عهدكم ، وأغفلوا ذكركم . وجادوا للأجانب بكثير مما تركتم ، واتخذوا منهم النبّاشين ، واستخدموا منهم الكشافين ، واستقدموا منهم العلماء الباحثين ؛ أم أكذبه فأمدحه وأطريه ، وأعلى ذكره وأغليه ؟

وكان الأستاذ قد نظر إلىّ نظرة مغضب ، كأنه ينهانى عن التردد ، فأنشدت :

رمـــــسيس ياكلّ الملو كِ ويا جـــميعَ العـــالمِ
يفـدى سليلَ الشـمس كـ ـلُّ مـــسلسلٍ من آدم !

والتفتُّ إلى النسر فرأيته يتهلل ، فعلمت أن قولى أرضاه ، وأن الألفاظ جرت على هواه ؛ فأردفت بأن قلت : علمت الأرض يا مولاى أنك خير من ملكها ، وأجرى من سلكها، وأفضل من تركها ؛ وعلم الأحياء أنك كنت كالفلك لا تسكن ، وكالمنية لا تدفع ، وكالصخرة لا تستخف ، وكالسماء لا تطاول ، وكالدهر لا تنام ، وكالنجم لا تعيا ، وكالسيف لا تروى ، وكالدنيا لا تكره ، وكالحياة لا تمل ، وكالصبح لا تخفى ، وكالشمس لا تستزاد ، وكالسهم لا ترد ، وكالبحر لا تزحم ، وكالذهب لا تراب ، وكالليث لا تهاب ، وكالطيب لا تكتم ، وكالنار لا تدنس ، وكالعارض لا تعارض ، وكالريح لا تسابق ، وكالطود لا تصادم ، وكالماء لا تعوض ، وكالهواء لا تستبدل ، وكالحق لا تغلب ، وكالسعادة لا تعادل ، وكالسلامة لا تفاضل ، وكالبذر لا تواسم ، وكالليل لا يُدرَى ما تأتى ...

قال الهدهد :

وخالست الملك وجلساءه النظر ، فوجدتهم منصتين لما أزخرف من الثناء ، ورأيت النسر يزداد تهللا ؛ فشجعنى ذلك على متابعة الخطاب ، فقلت : وعلموا يا مولاى عن صباك أنك ملكت الدنيا فى رؤيا قبل أن تولد وأن تحيا ، ثم ما جاوزت العاشرة حتى الملك بيدك ، والأيام من جندك ، والخير والشر من عندك ؛ فكنت فى ذاك الصبا الغض والعمر النضير ، وهذا الأمر النافذ والملك الكبير ، مثال الملوك المحتذى فى كرم الخلال وحسن الأخلاق ، يأخذ الكهول منك العلم ، ويتعلم الشيوخ منك الحلم وتغلب النفس على شيمتها الظلم ، وتركب الحرب إلى السلم ...

هنا أطرق الملك هنيهة ، ثم رفع رأسه وأشار بوجهه نحو أصحابه وقال : أتذكرون إذ أُزجى الجيوش وأنا طفل ، وإذ مثلونى التاج فوق رأسى وأصبعى فى فمى ألوكها

كما يفعل الصبيان ؛ أتذكرون إذ لبست التاج فى الهيكل الطيبى وأنا صبى ، كالشبل الليبى ؛ من رآنى قال : لن يكبر هذا ولن يعمى ولن يهلك أبدا ؟ أتذكرون إذ نحن صغار نصارع بالنهار وحوش القفار ، وإذ تجمعنا بالليل والعلماء المسامر ، نأخذ من علمهم وآدابهم ، ونتلقى عليهم الدروس النافعة ؟ أتذكرون إذ أسير فى الأرض فى سبعمائة ألف مقاتل ، وآونة أركب البحر فى عدد أمواجه من سفن القتال ؛ فملكت المعمور من إفريقيا ، وأخضعت المسكون من آسيا ، ونشرت أعلامى على الأمم والشعوب ، وملأت من آثارى الشعاب والدروب ؛ فلا جبل إلا لى فيه أثر ، ولا بقعة إلا لى عليها حجر ؟

قال بنتاءور : نذكر ذلك كله ، ونعلم أنه لم ينل ملك ما نلت من صنوف السعادة ، ولا أوتى بشر ما أوتيت من بسطة الملك وامتداد السيادة !

قال : لكن وددت لو خلقت ابن راع ، أو أحد الزراع ، فى بعض الضياع ، وأنى لم أعرف الملك ولم أنل من معاليه ما نلت ؛ ذلك من أجل حادثة وقعت فى حرب أمة الخيتاس ، إذا ذكرتها وأنا فى غاية السرور ، انقلب سرورى انقباضا وترحة ، وإذا خطرت على البال وأنا فى ذروة المجد وأوج العظمة ، صغرت نفسى فى عينى واحتقرت فى خاطرى واستحييت من الشمس أن ألقاها بوجهى ، وهى الملك المسوى القسم بين الأحياء ، المنعم لهم بالحياة على السواء ؛ وحديث تلك الحادثة أننى أحرجت العدو يومذاك، بعد أن أتم الآلهة لى النصرة عليه ، فانساق بين يدىّ شيوخا ونساء وأطفالا ، وأنا أطاردهم وحدى ، فأبيدهم بمركبتى تارة ، وبسهامى أخرى حتى صادفوا فى طريقهم غابة ، فاستعصموا بها ، فولجتها عليهم ، وجعلت أصطادهم فى أعالى الأشجار ، كما تصطاد الطير فى الأوكار ، غير راث لحالهم ، ولا راحم ضعفاءهم ، وكان فوق شجرة هناك رجل شيخ أعمى قد تسلقها ، وجذبه حب الحياة فعانقها ، فرميته بسهم فأصابه ، فصرخ قائلا : «أعمى أصاب أعمى يا رمسيس !» ثم سقط يتخبط فى دمه ، فامتنعت من فورى عن متابعة الفتك ومواصلة البطش ، وكانت نجاة البقية الباقية من أولئك الفارين الضعفاء ، على لسان ذلك الشيخ الأعمى ،

الذى ما وعظنى منذ كنت غيره ، ولا عرفنى قدر نفسى سواه ؛ والآن أحس كأن السهم رد إلى مرسله ، وأن ذلك الأعمى أصاب هذا الأعمى ؛ فيا أيها المعمرون بعدى ؛ لا تغرنكم الأيام ، واتقوا سهام الانتقام !

ثم حول الملك وجهه إلىّ وقال :

وأنت يا صاحب النسر ، وشيطان الشعر فى عصر غير هذا العصر ، اعلم أن المجد والعظم فى الدول والأمم ، ينهيان إلى بناة الفسطاط ، وأنهم خير من ورث النيل بعدى : ظلمت وعدلوا ، وتطرفت واعتدلوا ، وأسرت وأطلقوا ، واستعبدت وأعتقوا ، وخلدت بعدى الحجر، وخلفوا بعدهم السير ؛ ذهبت الديانات ودينهم هو الدائم ، وبادت اللغات ولسانهم فى مصر قائم ؛ وأُريبت كل أمة فى وادى النيل ، وذكرهم فيه سالم جميل؛ وشقى الغريب فيه بغيرهم ، وغمر من أول يوم بخيرهم ، واستوى السوقة والملك على عهدهم ، وما تساووا من قبلهم ولا من بعدهم ؛ وتكافأ فى مصر الخليفة والعامل ، حتى لا أدرى أيهما الرجل العادل والإنسان الكامل. وإن الذى استنزل روحى من عالم الراحة الكبرى بعد ثلاثين قرنا أو تزيد، وسلط علىّ من روحه ما يوجد العديم ويبعث الرميم ، وحاز لك الدول منذ التأسيس ، والملوك من منا إلى أمازيس ، فى منفيس ، على عهد رمسيس – لقادر على أن يريك الفسطاط وأهلها ، ويشهدك تلك الدولة وعدلها ، وأمة العرب وفضلها ، حتى إذا قستها بمن قبلها ، قضيت عليها أوْ لها .

قال الهدهد :

فخشيت أن تنقضى الرؤيا ولما أظفر من ملك الملوك بموعظة ؛ فقلت : أيها الملك ، إن بيننا لرحِما مبلولة لم تيبس ، وإنك لمجد هذه الأمة أولا وأخيرا ؛ فهل نصيحة عالية نسمعها منك ، وموعظة غالية نحفظها عنك ؟

قال : عليكم بالإقدام ، فإنه مفتاح الغنى ، والطريق المختصر إلى العلياء ، والسلاح الأمضى فى معترك الأحياء ، به سدت ، وعليه اعتمدت فيما أسست وشدت ؛ وإنه ليخرج أصحابه من غمار العامة إلى عليا مراتب الملوك ، ومن هون الخمول إلى العز والسؤدد والذكر الجميل ؛ ولو لم أكن ابن «سيتى» وعنه ورثت ملك الدنيا ، لملكتها بالإقدام !

قلت : زدنا منعما يا مولاى ؟

قال : قاوموا الظالم ولا يغرنَّكم ما ترون من قوته وبأسه ، فمثله كالأسد : لا يزال يفترس حتى تفترسه نهمته !

قلت : الثالثة يا مولاى ولا أزيد !

قال : احفظوا أنفسكم وضيعوا ما شئتم !

قال الهدهد :

وعندئذ تثاءب النسر ، فتثاءب الملك وأصحابه على أثره ، فالتفت إلى الأستاذ فرأيته يغالب الكرى ، وسمعته يقول كلمته المعتادة : إذا جاء الليل ذهبت الشياطين ؛ فإذا كان أصيل الغد فالقنى على «المعاهد» .

وعند ذلك تبدل الزمان والمكان ، فخرجت من مسك الشيطان ودخلت فى صورة إنسان ، وقد ضمنى مبيتى بحلوان .

المحادثة العاشرة

قال الهدهد جار الأثر ، ونجى الحجر ، يتطلب فيهما العبر ، ويأخذ الخبر من غبر :

ولما أصبحت أعدت أمسِ فى يومى ، كما يفعل قومى ؛ فباشرت أشغالا لا تنفع ، وأخذت بأعمال لا ترفع ؛ وأكلت كأمسى ، وشربت كالبارحة ، ولقيت الوجوه المألوفة ، وجلست المجالس المعتادة ، وقرأت جرائد مشحونة الصفحات ، أفكه ما فيها الإعلانات !

إذا أنت لم تحىَ الحياة كبيرة
ولم تُبقِ ذِكراً فى البرية خالدا ...
... وعشت تُعيد الأمس فى اليوم كاملا
فقد عشت يوما فى الحقيقة واحدا !

إلى أن سرى الأصيل، فتنقلت من شاطئ إلى شاطئ ، ولفظتنى ضفة إلى ضفة ؛ وكنت أخذت من كلمة النسر فى صرفى ، وما رسم له ربه من الوقوف بى على الفسطاط ، والإشراف بى على معالمها ، واطلاعى على مواكب دولة العرب فيها – أن بساط الرؤيا قد انطوى فيما يتعلق بمنف والدول الأولى ، وأنّا قادمان على الفسطاط ، نستقبلان وجوه العرب ، وافدانِ على هذه الدولة التى وصف الرشيد ما كانت عليه من انبساط الظل وامتداد النفوذ واتساع الملك والسلطان، فى قوله لغمامة ظللته ولم تمطر، وكان يرجو أن يستدفع الحر بمطرها : «أمطرى حيث شئت فإن خراجك سوف يُجبى لىّ !» وفى ضوء هذا الفخر سرى الإسبانيون فى أيام دولتهم ، حيث زعموا الشمس

لا تغيب عن أملاكهم ؛ ثم زالت هذه الكلمة عنهم إلى الإنكليز ؛ فهى آية ملكهم اليوم ثم ترثها أمة غيرهم ؛ سنة الله فى خلقه ، يؤتى الملك من يشاء ، وينزع الملك مم يشاء.

قال : فلما صرت فى منف ، رأيت الدهر قد جعل عاليها سافلها ، وصيره كبعض القرى ، ولم يبق عليها من أنقاض ذلك البنيان الباذخ ، وبقايا تلك العمار الكبرى ، إلا آثارها هنا وهنا ؛ منها القائم وكان قاعداً ، والقاعد وكان قائمًا وبعضها مشوه فى أحسن محاسنه ، منقوص من أطرافه ، أو مفقود تفتش عن مكان لا تجده ؛ فقعدت أعجب للدهر كيف طال على ذلك الطول ، وعلا فوق تلك العلياء وأتقصى النظر فأرى قصور الرومان موحشة مهجورة ، وكانت بالأمس آهلة معمورة أخنى عليها الذى أخنى على منازل الفراعنة من قبل ؛ وانظر أكواخ الفلاحين تموج بنسائهم وصغارهم كبيوت النمل ، وقد سكنوا إلى الدولة القائمة كما سكنوا إلى الدول من قبلها ؛ فأقول فى نفسى : هكذا الحكماء وإلا فلا ، فلو رد أمير المؤمنين على رضى الله عنه إلى الحياة ، وهو أزهد خلق الله فى الدنيا ، لما أخذ حقيقة الزهد إلا عن هذه الأمة !

وبينما أنا أنظر حولى بعين تعتبر ، وأخرى تستعبر ، إذا صوت النسر يستسيرنى إليه ، فوافيته ، وكان عند قدمى رمسيس وهو من حجر ، وعهدته بالأمس عند رأسه وهو بشر محتضَر ؛ فابتدر خطابى يقول : ما بال الهدهد يستعبر ، أيبكيه من الأيام أن تتصرف بالأنام ، ورحاها تطحن على الدوام ، وسيفها على رقاب الأقوام فى الحرب والسلام ؟

انظر يا بنىّ إلى الحسد كيف حمل الأمم على الإزراء بالقوم بعد اندثارهم ، والعيث فى ديارهم، والعبث بآثارهم ، وهدم البقية الباقية من منازلهم؛ فقاتلوا الحجر ، وحاربوا الأثر ، وسبَوا التماثيل والصور ، ودخلوا على الأموات الحفر ؛ ولو استطاعت إحداهن أن تدعى صنعًا لبعض هذه الآثار لفعلت ، ولامتلأت منها فارس ، فأتينا ، فروما؛ فقد صدر عن الرومان أنهم كانوا يستعيرون رءوس التماثيل مما ترك اليونان،

لجسام مما صنعت أيديهم ، وبالعكس ؛ ثم يوهمون أن الكل من عملهم ، وهذا عند
كر السرقة غاية . أتى على شيطانى يا بنىّ عشرون قرنا يجاور الآثار ، ويندب على
لول الديار . وهى نهب بيد البلى والدمار ، فلم أعهد أن أيدى العاثين انتفضت منها ،
كف المخربين انكفّت عنها ، إلا منذ هبط العرب أرض مصر !

قلت : إنك لتطرى القوم يا مولاى !

قال : وإنهم لأهله يا بنى ، فما حكم بين الناس أعدل من عمر ، ولا سادهم أفضل
نه؛ ولئن صدق أن فى القول شيئًا من القائل ، فعمر هو الإنسان الكامل، حيث يقول :
رأيت جميع البر فلم أر برا أفضل من الرحمة !» والرحمة فى اعتقادى أعلى مراتب
لأخلاق ، وقد جازت بعض الأنبياء فى بعض الأمر ولم تَجُز عمر فى شىء منه !

قلت : إنى إذن لسعيد يا مولاى أن أعلم من أمرهم بالمشاهدة والعيان ، ما أضيفه
ى معرفتى فى التاريخ .

قال : لا يزال فى إجلاهم ووقارهم ، والاعتناء بأمرهم ، والنظر فيما يأتون
ذرون ، والسكون إلى ظلهم فى مصر ، حتى يقتلوا عثمان ، ويفتك المصريون منهم
لوقور فى الصحابة ، الكريم فى الأصهار ، السمح فى الخلفاء ، الكبير فى الشيوخ ؛
إذا فعلوا ودعنا أيامهم ، ونبذنا جوارهم ، ووكلناهم إلى السماء تأخذهم بدمه ،
نصب عليهم المصائب ، وتنزل بهم المحن ، وتغمسهم فى الفتن ، وتبدلهم من الخلافة
حقة بالملك الباطل ، وتردهم إلى نعيم الدنيا الزائل !

قلت : لقد رضيت بما رضيت لى يا مولاى ، وحسبى أن أعيش يوما واحداً فى
لافة عمر ، وولاية عمرو !

قال : الآن نتهيأ للزيارة ، ونستعد للخروج إلى مقر الإمارة ، فسطاط الأمن
لعمارة ؛ ضالة عمرو التى طالما نشدها ، ولم يألها طلبا حتى وجدها .

قلت : أشبه الناس به مسعاة يامولاى فى الزمن الحاضر ، اللورد كتشنر ، حاكم
سودان بالأمس ، وسيف إنكلترة العامل فى جنوب إفريقيا اليوم ؛ فقد علم الخاص

والعام ، عن هذا الرجل المقدام ، أنه نظر فى أمر فتح السودان ، وهو ضابط ضئيل الشأن ، قليل المكان والإمكان ، ليس له بمثل هذا الأمر العظيم يدان ؛ فجعل يعد له الصبر ، ويعمل له فى السر، والأيام فى هذه الأثناء ترفعه ، والسعد إلى السعد يدفعه ، حتى انتهت إليه إمرة الجيش فى مصر ، وآلت إليه السلطة العسكرية فى هذا القطر ، وأصبح من رفعة المنصب بين رجال الاحتلال ، بحيث يسمع صوته فى قومه ؛ ومن علو الكلمة فى الحكومة المصرية ، بحيث لا يمانع فى أمر يحاوله ؛ فثبت عندئذ فى نفسه أمر ، وتدرج فيما يحاول من السر إلى الجهر ، وكاشف الحكومة الإنكليزية بما يريد من فتح السودان ونشر العلم البريطانى فى أرجائه ، فكانت مشيئتها ما شاء ، كدأبها بإزاء رجالها الأمناء ؛ وها قد مضى على السودان عامان[1]، يخفق على دور الحكومة فيه العلمان ، ويخفق من الحسرة عليه فؤاد «مرشان»[2] .

قال : كذلك زين عمرو لعمر فتح مصر ، وكذلك فتحها ؛ والتاريخ – كما قيل – مكرر معاد ؛ وقد حدثك رمسيس عن الإقدام ، وذكر لك فضله وشرح لك مزاياه ، وهذان دليلان قاما عرضا فى الحديث على صدق قوله ، وصواب رأيه ، وما كان رمسيس ليعرف الشوق ولا الصبابة ، لولا أنه كابدهما وقاسى ، وكان فى مقدمة رجال الإقدام ؛ فإن أردتم ببنيكم خيراً ، وضعفت قلوبكم أن تتمادوا فى الجناية عليهم ، فربوهم منذ الصغر على الإقدام ؛ فإنه – كما قال رمسيس – سعادة الأفراد وحياة الأمم .

قلت: أوشك الأصيل يا مولاى أن يفيض ذهبه ؛ فإن أمرت انتقلنا إلى الفسطاط ...

قال : تلك مقدمة لم يكن لنا عنها غنى ؛ والآن لك أن تطير معى إلى حيث الإسلام يحكم ، والأخلاق تسود .

قلت: إن أذن مولاى بدّلنا هذا الزى بغيره ، لنأمن نظر الرماة ، وزجر الجماعات .

---

(١) فى هذه العبارة ما يشير إلى التاريخ الذى أنشا فيه المؤلف كتابه ، حوالى سنة ١٩٠١ وستأتى إشارات أخر

(٢) القائد الفرنسى فى يوم «فاشودة» .

قال : الناس والطير وهذه الحجارة – وأومأ إلى الآثار – فى كلاءة رجل يتقى الله فى السماء، ويخاف عمر فى الأرض ؛ فلو نالنا أحد فى حماه بظلامة ، لفزعا بالشكوى إلى صاحب الإمامة ، ولأنشدناه «جاءت سليمان الزمان حمامة !» على أنه لا بأس بتغيير الزى ؛ فأيهما تختار : ألقبطى ، أم العربى ؟

قلت : الثانى يا مولاى ؛ لأنه لباس الفاتح ، وشعار الحاكم ، ينبئ عن عز الملك ، ويخبر عن سناء الدولة ، وقد خلفت جنود «الملك إدوارد» فى مصر يتنحى السراة لأحدهم حتى يعبر كأنه فى رداء «ولنتون» ، أو مطرف «نابليون» وإن مسّت طرف ثوبه يد مسها السيف !

قال هذا ليس شأن عمرو وأصحابه فى مصر ، فهم المؤمنون : العزة لهم ولن فى ظلهم بالسواء ؛ وقد كان الرومان قبلهم كمن ذكرت من الإدلال على هذه الأمة ، والمرح فى هذه الأرض ، على ما بينهم وبين القبط من مودة فى الدين ورحمة ؛ فكان الصليب يعلو على الصليب ، والناقوس يخرس الناقوس ، والكنيسة تزرى بالكنيسة ؛ وكان مذهب الرومان فى عبارة المسيح هو الدين كله ، وما سواه فضرب من الهذيان يسخر من أهله ويعتدى على أصحابه ؛ وكان الأمير فى القبط يحكم فيه سوقة من الرومان ، وكانت الحكومة الكبرى فى روما عمياء عن هذا الظلم المبين، صماء عن تظلم المصريين، إلى أن قدم العرب مصر ، وتم لهم على الرومان النصر ، واطمأن عمرو بالولاية ، وسكن أولئك البؤساء إلى حكومته السمحاء ، ودخلوا فى الإسلام أفواجا ، يحببه إليهم تسمُّح العرب ، وتحلُّم زعيمهم ، واجتماعهم على كلمة الإسلام ، وتساويهم فيما جاء به من الأحكام ، وكونه بينهم كالحقيقة لا تقبل الانقسام ، ولا يجادل فيها الخاص فكيف العام ، وأن سيرة العامل وأصحابه فيهم هى أقرب مما أراد المسيح عليه السلام من الناس : أن يتساوسوا ، ويتصافحوا ، ويتعاونوا ، وأن يكونوا رحماء بينهم ؛ وأبعد عما أراد القسوس بالناس منذ القدم ، من شغب التمذهب ، وفتنة الانقسام والتفرق إزاء الحقيقة الباهرة . العرب فى مصر بضعة آلاف ، وفيهم المقاتلة ؛ فكيف فتحوا ، ثم كيف أصلحوا ، ثم كيف وطدوا فيها بنيانهم ، وعلموا أهلها لسانهم ؛ ثم كيف استأصلوا الوثنية من هذا الوادى ، وزحزحوا منه النصرانية ، وأرسوا فيه الحنيفية ؟

كل ذلك فى أيامهم الأول ، بل فى حكومة ابن العاص . إذا أضفت إلى ذلك أن الدعوة إلى الإسلام لا تقوم على الحول والحيلة ، علمت أن العرب تعلموا حقيقته ثم علموها الناس ؛ فكانوا حيثما استعمروا من الأرض كالمصباح النقى ، يحمل النور البهى .

وإذا الديانة لم يصنها أهلها

خفيت خفاء النور بعد ظهور

أخفاه مصباح حواه فاسد

فالذنب للمصباح لا للنور !

قلت : أرى الحديث فتح بعضه بعضًا يا مولاى ؛ فماذا اخترت لنا من الزى ؟

قال : قد انتدبنا يا بنى للنظر والاختبار ، واستقراء أحوال العرب فى هذه الدار : فما لنا لا نتلبس بلباس المحكوم ، ونتردى ثياب المؤتمر ؛ لكى ننظر بعينيه ، ونسمع بأذنيه ؛ فإن كان شقيا بدولة القوم ، تعبا بحكومتهم ، عرفنا ذلك بالخُبر لا الخَبر ، وشفعنا له عند عمرٍ أو عُمر؛ وإن كان ناعمًا فى ظلمهم، واضى العيشة على عهدهم ، أخذنا بنصيب من حاله ، ووقفنا على حقيقة أمره ؟

قال الهدهد :

وبينما نحن فى الحديث لم نبرح المكان ، هتف هاتف بالأذان ، ودقت بالناقوس يدان ، فلم أدر إلا ونحن على الفسطاط فى زى قسيسين من الأقباط ؛ فضحكت من نفسى ، وعجبت لاختلاف يومى وأمسى ، والتفت إلى النسر فرأيته يبتسم كذلك ؛ فتمثل بهذا البيت من الشعر ، وهو من قصيدة لى فى مديح العباس :

قد بَشر الناقوسُ بالمسلم الـ

ـعادلِ من قبلِ بشير الأذانْ

قلت : هذا مما حلّيت به العباس يا مولاى، فكيف نزعته عنه وكسوته عمرًا ؟ قال : بضاعة عمرو ردت إليه ؛ فلا والنفس والخلود ، ودين الآباء والجدود ، ما فتح لأبوة العباس فى مصر إلا بسر هذه الراية ، ولا دخلوها إلا ليعزُّوا هذه الآية ؛ على أن

الشعراء كثيراً ما يمدحون زيداً ويعنون عمراً ؛ وقد صدق صاحبنا من حيث كذب فى قوله :

وإن جَرت الألفاظُ يوماً بمدحةٍ
لغيرك إنسانا فأنت الذى تعنى[1] !

قلت إنك لتزرى بأصحابك يا مولاى !

قال : ما كانوا لى أصحابا وهم ينزلون بالشعر عن رتبته ، ويجعلونه حيث لا يرضاه الأدب ، لا يمدحون محمداً ولا يهجون مذمما ، ولا ينظمون فى الطبيعة والتاريخ اللذين هما أمُّ الشعر وأبوه ؛ ويخلطون كلمة باقية ، وأخرى فانية[2]؛ هذا صاحبك الذى سير الأمثال حكما والحكم أمثالا ، وجرى فى الشعر إلى الغايات فسبق السابقين وبز القائلين يقول هذه الحكمة العالية ، ويرسل هذا المثل المحكم :

بذا قضت الأيامُ ما بين أهلها
مصائب قومٍ عند قومٍ فوائد[3]

وتراه يقول بعد ذلك :

نهبت من الأعمار ما لو حَويته
لهنئتِ الدنيا بأنك خالدُ[3] !

وما أحسن هذا الشعر وألطف هذا التصوير ، لو لم يتجرد فيه الشاعر من رقة القلب ورحمة النفس وكرم الشيمة ؛ فهو يبيح ممدوح دماء العباد ، ويملكه أعمارهم ، وينوه بسفح الدماء وسفكها ، ويتمنى له بعد ذلك الانفراد بالخلد الذى كرهه أبو العلاء لنفسه حيث قال :

---

(١) الشعر للمتنبى .
(٢) فى هذه العبارة إشارة إلى بعض مذهب المؤلف فى شعره .
(٣) الشعر للمتنبى .

ولو أنى منحت الخلد وحدى

لما آثرت فى الخلد انفرادا !

فهلا هجر أبو الطيب الصناعة إلى الروحانية التى هى حقيقة الشعر ورجاحة الموزون والمراد من المنظوم؛ والروحانية لا تقوم على مثل هذه الجفوة والقسوة والغلظة ، لكن تكون بمثل ما قال فى مثل هذا المقام :

ترفَّقْ أيها المولى عليهم فإن الرِّفق بالجانى عِقاب !

تأمل يا بنى هذين البيتين، وانظر كيف هدمت الصناعة الأول ورفعت الروحانية الثانى؛ وأقبح من بيت المتنبى فى استباحة دم الأفراد ، بيته فى استباحة جماجم الملوك :

وجنَّبنى قربَ السلاطينِ مقتُلها

وما يقتضينى من جماجمها النسر

فما قتلة «كارنو» ، و «همبرنو» ، و «أليزابيث» ، و «مكنلى» وما اقتضتهم الفوضوية من صدور الملوك والملكات وجنوبهم وأحشائهم ، بأشنع ولا أفظع ولا أبغض إلى السماوات وما أظللن ، والأرضين وما أقللن ، من نسر صاحبك ؛ وإنى لأعجب للفوضويين كيف لم يهتدوا لهذا البيت فيتخذوه شعارهم ، أو يتخذوا فيه قرارهم !

قال الهدهد :

ورأيت الناس يهرعون إلى صلاة المغرب ، فندمت على ما فاتنى من المشاهدة والعيان فى هذه الزورة الأولى، وقلت للنسر: قد كان لنا يا مولاى غنى عن أبى الطيب وحديثه ، والنظر فى طيِّبه وخبيثه ، لا سيما وهذا أول أصيل قضيناه على الفسطاط !

فأخذ النسر من عبارتى الغضب ، وقال : أحدِّثك عن شعر العرب وشاعرهم ، ونحن قادمون على دولتهم فى ابتدائها بمصر فتزعم أننى حِدتُ عن الغرض ، وخرجت من الموضوع ! وما الشعر والبيان إلا عنوان الأمم ، يستدل بهما عليها .

ثم تثاءب النسر وقال : موعدنا غداً مجلس عمرو ؛ فما هى إلا إغماءة ، ثم إذا أنا بحلوان .

المحادثة الحادية عشرة

قال الهدهد: وكان موعدى مع النسر أن نلتقى فى مجلس عمرو ؛ فلما كان الأصيل، خرجت إلى الفسطاط ، فى زى قسيس من الأقباط ، كما سبق بذلك الاشتراط ؛ فحين بلغت مدينة ابن العاص ، التى فتحها للإسلام بالرأى قبل الفتح بالسيف ، وافيت مقر الإمارة ؛ وهناك ما كان أسهل الوصل ، وأيسر الدخول ؛ رفعت الحجب بين عامل عمرو وبين الزمر ؛ واقتدى به وجوه العرب فى سلوكهم ، والناس على دين ملوكهم ؛ فاستقبلت مجلساً أليق بالوعاظ والعلماء ، منه بالملوك والأمراء ؛ وقدمت على أمير تاجه العمامة ، ومطرفه القباء ، وصولجانه السيف ، وكرسيه التراب ، وحاشيته الأصحاب ، وقصره خيمة ممدودة الأطناب يحيط به العرب وكأنه أحدهم ، وهو زعيمهم فى مصر وسيدهم ؛ وكان النسر بين يديه . قد سبقنى إليه ، وهو يبالغ للعامل فى الخطاب ، ويلقى السؤال ويأخذ الجواب ؛ فسمعته يقول له : هذه دنياكم يا ابن العاص لا تغترون بها ، ولا تحفلون بحبها ؛ وإنها لدنيا العقلاء ، وطلبة الحكماء ؛ فكيف دينكم ؟

قال : أسهل وأيسر وأسمح : الشهادة وهى كلمة ، والصلاة وهى عصمة ، والزكاة وهى رحمة ، والحج وهو حكمة ؛ وما سوى ذلك فزيادة فى العبادة ، أو بدع تأتى بها الأيام ، وأعراض لا يصدأ بها جوهر الإسلام .

قال : نعمت الدنيا لو لم تزل عن الخلفاء ، وتئول إلى الملوك والأمراء ؛ وحبذا الدين لو سلم من عبث الفقهاء ، وعيث الجهلاء !

قال : وما يمنعك أيها القسيس أن تستقبل هذه الدنيا وتدخل فى هذا الدين ؟

قال : إنى أتبع ديناً يقال فيه فى جملة الدعاء : «إيزيس لو لم تتوحدى لما كانت الأشياء ، ولن تصل إلى حواشى حجابك يد الأحياء !» فالمعبود إذن واحد ، وإن اختلفت الأسماء .

قال : أى الأديان هذا ؟

قال : دين المصريين القدماء .

قال : عجبًا ! أفى مصر بقية من القوم ؟

قال : ليس للظالم دين يا ابن العاص ، والرومان قوم ظالمون ، دخلوا هذه البلاد فأفسدوا فيها ، وهدموا ما بنى أصحاب المسيح عليه السلام بزهدهم وتجردهم وتسمُّحهم ، من بنيان للنصرانية متين ، وركن للمسيحية مكين ؛ وغادروا مصر لا تخلو من عاكف فى خاصة سريرته على دين آبائه وأجداده ؛ وأنا من هذا الفريق .

قال: الآن أنهاك عن عبادة الأصنام، وآمرك بالدخول فى الإسلام ؛ فإما أن تقبل ، وإما أن تقتل !

قال : القتل أحب إلىّ يا ابن العاص ، ولكن لى كلمة أقولها وأرجو أن تسمع لى ..

قال : هات .

قال : على التمسك بالدين قامت دولتنا القرون الطوال ، ومن شدة التمسك به أدركها الزوال ؛ فذهبت من أجل «هرر» ، وأمست إحدى العبر ، ولا أكره أنا أيضًا أن أذهب على الأثر ...

قال الهدهد :

فلم أدر بالأستاذ إلا وقد عاد سيرته الأولى ، فإذا هو نسر يطير بين أعين القوم ، وهم من أمره فى أعظم الدهش ؛ فلحقت به ؛ وما زلنا ننفذ الأفق حتى هبطنا ناحية من الفسطاط ، فتمثلنا كما كنا قسيسين من الأقباط ، وهناك التفت إلى وقال : كيف وجدتنى وصاحبك ؟ قلت : ألان لك وجه الأمر وخاشن آخره . قال : بالحق ألان ، وبالحق خاشن ؛ لأن مقاومة الوثنية فرض على نصراء العقل وحماة الحقيقة ، وقد تكفل بها الإسلام لسائر الملل ، قلت : قد كان لك غنى يا مولاى عن التكشف له ، وإطلاعه على حقيقة معتقدك . قال : أردت أن أريك كيف يحفظ القوم دينهم فى الكبيرة والصغيرة .

عجبًا لكم معشر المصريين ، أنتم أمة التاريخ وليس لكم فيه كتاب . هلا تشبهتم بآبائكم الأولين ؟ فلقد كان الواحد منا أحرص الناس على حديث بعده يؤبِّده فى حجر يشيده ؛ وذكر مع الزمن يخلده ، فى أثر ينضده ؛ وكان أحب الأعمال إلى ملوكنا وضع التاريخ وتدوين السير ، لعلمهم بأن التاريخ دليل الأمم ، ومرشد الشعوب ؛ وإن قوما لا يعرفون ماضيهم ، لا يكون لهم بحاضرهم اعتناء ، ولا فى آتيهم رجاء ؛ أليس عارًا عظيمًا على الشرقيين ، وفيهم اليوم العالم الذكى ، والكاتب الألمعى ، ألا يعلموا من سيرة «الأمير عبد الرحمن» المتوفى بالأمس ، غير ما تنقله صحف الغربيين ومجلاتهم ...

وإنى أسترعيك لقضية لا تفوت أهل النظر فى أحوال البشر ، والباحثين فى طبائع الاجتماع .

قلت : وما تلك يا مولاى ؟

قال : يدهش الناظر المتأمل ، والباحث المدقق ، لما يرى من التفاوت البين فى الأخلاق ، والتباين الظاهر فى الطباع بينكم معاشر النازلين هذا الوادى فى شمال إفريقيا ، وبين أمة البوير سكان الجنوب ؛ ويحار فلا يدرى بأى الآراء الثلاثة يأخذ ، وإلى أى المذاهب الثلاثة يرجع : أيذهب مع القائلين بفعل البيئة فى الأمم ، وتأثير الإقليم فى الشعوب ، وسلطان المقام على المقيم ؛ فيحكم أن جار الليث أسد ، وجار العير وتد ؛ أم يجارى الذاهبين إلى أن اختلاف الطبائع ليس إلا نتيجة اختلاف الأجناس ؛ أم يعتمد على رأى القائلين بأن العقل البشرى – وهو مركز القوى المدركة فى الإنسان – والنفس – وهى مهبط الفضائل أو الرذائل فيه – ليسا إلا هبتين يشترك فيهما أصناف العباد ، وإن تفرقوا فى أطراف البلاد ، وإنما يصح العقل بالتعليم الصحيح ، وتقوم النفس بالتربية الحقة ؟ على أننى إلى هذا الرأى الثالث أميل ، وعليه فى اعتقادى المعول ؛ فعليكم بالعلم ، خذوه نافعًا دافعًا ، واهجروا منه ما يميت إلى ما يحيى ، واطلبوه لدنيا تعملون لها كأنكم تعيشون أبدا ، أو لآخرة تعملون لها كأنكم تموتون غدًا ؛ وعليكم كذلك بالتربية ، فإنها باب مدينة العلم ، لا تدخل إلا منه ؛ خذوا

صحيحها ولا تأخذوا فاسدها ، واطلبوها لأنفسكم ؛ فإن كبرت عنها فلأبنائكم ؛ فإن لم تكمل لهم كملت لأبنائهم من بعدهم ؛ وكونوا الحفظة الذين تكرم عليهم بلادهم فى الشدة ، أضعاف ما تكرم عليهم فى الرخاء يبكونها بالدموع آونة ، وفى القلوب آونة ، لا يغفلون لها عن حرمة ، ولا يقصرون لها فى الخدمة ، حبها لهم العشق ، لا التفات فيه إلى ملامة ، ولا قيمة معه للسلامة .

أعمار الأفراد قصار ، والأمم طويلة الأعمار ؛ وآمال الواحد الفرد تفوت بموته وآمال الجماعة لا تفوت ، وإنما هى لهم مثل الورق للشجر : ينزعه حينا ويكساه حينا ؛ وما بنى قوم بناءهم فى المجد ولا قامت سعادة أمة، إلا على العلم والتربية ؛ وهما إنما يحصلان فى المدرسة، وليس ما يمنعكم من إنشائها؛ فإذا أنشأها غنيكم غير مسرف ، ودخلها الكهل بالليل غير مستنكف ، ولزمها الصبى بالنهار غير متكلف ، وأخذتم العلم فيها كما يريد زمانكم الذى أنتم مخلوقون له أن يؤخذ ، فقد استقبلتم الحياة من وجهها الحق ، وأخذتم فى التقدم العصرى بالسبب الأوثق .

اللغة رأس مال الأمة فى العلم والعرفان ، والدين رأس مالها فى التربية والأخلاق ؛ فاجعلوا المحل الأول فى مدارسكم لهذين ، فالثمرات إنما تأتى بقدرهما . الإنسان إذا علم كان إنسان العين، وإذا جهل كان إنسان الغابة ؛ والعلم إن لم يتأسس بالتربية كان لحامله محنة ، وللناس فتنة ؛ فاجمعوا بينهما فى الدار ، ثم فى المدرسة ، ثم فى الحياة ؛ تلك المدارس الثلاث الكبر ؛ فأما الدار فالأستاذ فيها المرأة ، وأما المدرسة فالمعلم فيها الرجل ، وأما الحياة فالمربى فيها الزمن ؛ فابدءوا بالنساء فعلموهن فى الصغر ، يعلمنكم فى الكبر ؛ وربوهن فى الطفولة يربينكم فى الكهولة ، ولا تنشئوا مدرسة واحدة للرجال ، إلا وقد أنشأتم مدرستين اثنتين للنساء .

إذا اشتغل الحليم بالسفيه شارف على السفاهة ، وإذا اشتغل العالم بالجهول شارف على الجهالة ؛ وأكثر ما ينتشر السفهاء والجهلاء ، وأشد ما يكون إفسادهم وإيذاؤهم ، فى الأمم وهى فى بداية نهضتها ؛ فمثلها عندئذ كالأنهار الكبيرة فى أزمنة الفيضان : تسوق الأقذار فتساق بتيارها ، ويختلط الخبيث بالطيب ، ثم لا تلبث أن

تلفظ الفاسد وتستبقى الصالح ، فينصلح الماء وتفيض الخيرات على البلاد والعباد ؛ فلا يثبطن لئامكم كرامكم ، ولا تلقوا للصغائر مما يحدثون بالا ، واعملوا كل بما تعلّم من علم أو صناعة ، وأتقنوا العمل فإن إتقانه يلقى عليه اليمن والبركة ، ويولد بين العاملين المنافسة والمسابقة والمزاحمة ، وعلى هذا تقوم حياة الأمم ، كما تقوم حياة الأفراد على دورة الدم . ليس بين دبيب الحياة فى الأمة وبين ظهورها كاملة الأدوات تامة الصفات ، إلا مثل ما يخفق فؤاد الجنين لأول وهلة ، ثم تمسك الحياة فيه بعضها بعضا وينمى بعضها بعضا ؛ فلا تزال به حتى تخرجه إلى الوجود فيؤدى فيه وظيفته ؛ ويستوفى فيه برهته ؛ ولا أجد مثلا لما أصف إلا أمة اليابان ، وإنها لدليل حاضر ، وشاهد معاصر ؛ على أن الحياة ربما كانت أسرع جريا بالأمم منها بالأفراد ؛ فقد جاوز اليابانيون أطوارها الأول إلى هذا الشباب المرجو المخايل ، المبشر بأبرك أعمار فى المدنية والحضارة ، فى نحو ربع قرن من الزمن ؛ وهى برهة قد لا تكفى الواحد من الأفراد ليبلغ فى الصبا أملا ، أو يحسن فى الحياة عملا ..

قال الهدهد :

كان النسر يتكلم وكأن كلامه حديث الحبيبة، تأخذه الآذان ، وهو يأخذ الوجدان ؛ بيد أنه حكم غرر ، وحقائق كبر ، تستوجب النظر ؛ حتى أمسك عن الكلام فوددت أنه لم يمسك ، وقلت له : لو خيرت يا مولاى فيما أريد لما اخترت إلا أن يبعثك الله فتمشى فى القوم خطيبًا هاديًا ، وطبيبًا مداويًا ، تتتبع أقصى الداء ، وتصف عزير الدواء .

قال : ليكوننَّ لى ولكم شأن يوم تجمعنا القاهرة .

قلت : ومتى تدخلها يا مولاى ؟

قال : يوم يقتل عثمان ، ويصير أمر العرب من الخلافة إلى الملك ؛ فهناك أنفض يدى من دولتهم ، وأصدر بك عن الفسطاط وأرد القاهرة ، عاصمة مصر الحاضرة .

ثم أخذت النسر الإغماءة المعتادة ، فتثاءب وقال كلمته المألوفة : إذا جاء الليل ذهبت الشياطين ، وموعدنا غدًا دار العجوز .

وأصابنى مثل ما أصابه ؛ فما هى إلا غمضة عين ثم انتباهة ، حتى رأيت الفسطاط اطلالها ، وحاذيت فى القطار تلالها ؛ فعجبت للحال وتحولها ، والروح وتنقلها ؛ وأخذت فى نفسى على النسر هذا الرجوع إلى الخلط فى المواعيد ، وإتعابى بدار العجوز أنشدها ولا أنشدها :

أهـــلا بـــدارٍ سَـــبَـــاكَ أَغْـــيَـــدُهَا

المحادثة الثانية عشرة

قال الهدهد :

خرجت فى أصيل الغد إلى الفسطاط، فى الحلة التى قضاها الشيخ لى واختارها، وأنا لا أعرف العجوز ولا دارها ، ولا أدرى كيف أملك مزارها ، أو أجد من يحدثنى أخبارها ؛ وأنكر على الأستاذ هذه التعمية ، وأعذله على اختياره النعت على التسمية ؛ فجعلت أمشى قلقًا فى هذا البلد ، غريبا فى ثيابى ، تزدحم شفاه العامة على يدى بالتقبيل ، ويتنحى الخواص حيث أسير ، وأنا أغبط فى نفسى رؤساء الديانات بهذه المكانة فى النفوس ، وأحسدهم على هذه المنزلة فى القلوب ، وأنظر سلطان الرغبة كيف يعلو على سلطان الرهبة ، وأرى الملك الكبير لمالك السريرة لا السرير ؛ وقد راقنى وأدهشنى أنى لم أر عربيا ظهر لقومه ، أو للمسلمين من أهل البلد ، فى مظهر رئيس روحى ، أو مسيطر دينى ، وفى الفسطاط كثير من صحابة النبى الذين يتعلم الدين فى بدايته منهم ، وتؤخذ أصوله على حقيقتها عنهم ؛ بل وجدتهم كسائر العرب فى مصر : جنود الخلافة ، وأنصار الإمامة ، وأعوان الحكومة الإسلامية ، يعزون الإسلام آونة بالجهاد ، وآونة بحسن السيرة فى العباد ؛ لا يلتمسون الكرامة ، فى تكبير العمامة ؛ ولا يوسم أحدهم بولاية ، وهم مصابيح الهداية ، وعلى عهدهم ظهرت الآية ؛ دائبون فى خدمة الدين لا يألونها صبرا ، يغتربون من أجله ، ويقاطعون الدنيا فى وصله ، ويعلقون بض الأيادى وكرائم الصنائع فى أعناق الأمم ممن يأتى بعدهم : قدم فى الشام ، وأخرى فى العراق ، ولواء فى سماء النيل خفاق ، ويدٌ لها بالأمر فى الروم انطلاق ، وحكومة تنتظم سائر الآفاق ؛ وهكذا العلماء لا يغنى عنهم علمهم ، ولا تثبت لهم هذه الصفة العالية فى نظر الجماعة ، حتى يجمعوا بين المدارك والهمم ، وتنقاد بأزمتهم الحياة العملية فى الأمم ، يرشدون الناس بالعلم مرة وبالعمل مراراً ،

ويعرفونهم كيف تطلب الدنيا بالعقل ، وتركب الحياة إلى المحيا السهل ، وتتزود النفوس من المجد والفضل .

للعلم أهل ليس يألونه ... أخذاً وردًّا فى شئون العباد
لهم مُراد لا ينالونه ... حتى ينالوا غايتى الاجتهاد
العلم فى أنواعه كلها ... والعمل الموصول فيما أفاد
فى خلفاء الله من قبلُ ما ... ينبيك أن العلم للخلق هادْ

كانت تفيض الأرض من علمهم
فى الحكم أو فى الوعظ أو فى الجهاد

فما باله أصبح يحمله ، من لا يبذله ؛ وصار يدعيه ، من ليس يعيه ؛ وما للمسلمين مختلفين فيه : فريق يرى النافع الرافع منه ما كان مقصوراً على الشريعة ، منحصراً فى فقهها ، مردوداً إلى المذاهب الأربعة فيها ؛ والتقى النقى من هذه الفئة من عادى لغات الغربيين ، وهى التى ينهى بها فينا معاشر الشرقيين ويؤمر ، واحتقر علومهم وفنونهم، وهى التى نفاضل بها فنفضل ، ونقاوم بها فنخذل ، وتقتلنا كل يوم بلا قتال ، وفريق يهجرون علوم الدين وآداب اللغة العربية إلى لغات لم تجر بها ألفاظ آبائهم ، وآدابٍ لم تقم عليها حياة أجدادهم ، ولم تؤلف بعد فى بلادهم ؛ وإن أمة لا تجتمع على لغة ، ولا ترجع إلى جامعة من الآداب القومية ، ولا رابطة من الأخلاق المِلية ، ليست على شىء من الحياة وإن جمعت فيها معانى الفضائل :

أرى جوامع الشعوب أربعا ... أمرهمُ بدونها لن يجمعا
الدينَ فى آدابه مُتَّبَعا ... والجنسَ لا حتما ولاُ مضَيَّعا
والعلم يهديك إلى ما نفعا ... ولغة يفهمها من سمعا

تكون فى الغالب والعلمَ معا

قال الهدهد :

وما زلت فى تنقل واستقراء ، وتجوُّل واستجلاء ، ومشيٍ على قلق وعناء ، حتى أعييت بضالتى طلبًا وسعيًا ، فصحت : لا نشدت تلك العجوز ولو أنها الدنيا . وهناك مرت يد على كتفى ، فالتفتّ فرأيت النسر يعتذر عذر البرىء ، وسمعته يقول : نعم هى الدنيا وأنت فى الطلب، وستراها وتسمع حديثها من كثب . فقضيت من مقالته العجب ، وقلت: إذًا أغفر لك إبطاءك، ولا أستنكر استهزاءك ؛ ومن لى أن أجتمع بفاتنة الأنام ، التى ما رؤيت إلا فى الأوهام ، ولا تمثلت إلا فى الأحلام ؟

قال : وهذه دارها . وأشار إلى خربة على الطريق من بقايا الرومان .

قلت : وما يلجئها إلى هذا الانعزال والاستتار ، ولو شاءت لسكنت الأسماع والأبصار ؟

قال : ليس لها إلا ما تسترد ، وشيمتها أن تسترد النعم ، حتى تحولها إلى نقم ، تعطى القصور عالية ، وتأخذها أطلالا بالية .

قلت : ونحن نتقدم إليها الآن يا مولاى ؟

قال : ادخل عليها هذا الأثر ، وأنا على الأثر ؛ وتدلل عليها فى الخطاب ، ولا تخشها . إنها فى سجن ابن الخطاب .

قال الهدهد :

فتقدمت وحدى حتى جئت بابا صغيراً ، فلم أطرقه بل عالجته ، فانفتح من نفسه ، فإذا أنا لدى عجوز أكل الدهر لحمها ، وأدق عظمها ، وجمع كالقوس جسمها ، وشيب كل شعرة فى بدنها ، حتى شعرات فى أذنها ، وهى تنوء بسلاسل الحديد ، وترزح فى أسر شديد ؛ فضحكت من منظرها وبادأتها بالخطاب فقلت : أيتها الأمة المضطهدة ، والعجوز المقيدة، كيف حالك وعمر ؟ لقد انتقم منك للزمر ، ونهى عليك بعد النبى وأمر ؛ لئن حبسك فطالما حبست رزق الرجل الفاضل ، وقيدت نفس الحر العاقل ، وملكت الناقص رزق الكامل .

فاستضحكت العجوز ثم قالت : من هذا الذى شمت بجدة الناس ، وأُم الكل فى الأجناس ، إلا اثنين : ابن الخطاب صاحب هذا الأمر ، وابن عبد العزيز عذر بنى أمية لو قام لهم عذر ؟

قلت : ولا ناس إلا من ذكرت ، ولا أناسى إلا من سميت !

قالت : لا يغرنك أيها الفتى أن الذل شعارى ، وأنى عاجزة عن فك إسارى ؛ فوالذى سلطنى على عباده ليبلوهم أيهم أصدق عزمًا ، وأجمل صبرًا ، وأقصد إليه سرًا وجهرًا ، ما ملك عمر إلا الظواهر ، ولى التسلط على السرائر ، والسيطرة على الضمائر ؛ وليس هذا الذى ترى فى ملك ابن الخطاب من زهد فىّ ، وتجن علىّ ، وإساءة إلىّ، إلا غاية وتنقضى، وحال من أُكرِه لا من رضِى؛ عمال فى مداراة الخليفة ، يوجسون منه خيفة؛ ورجال يلبسون لكل دولة لبوسها، يأخذون نعيمها ويذرون بؤسها ؛ زهاد فى دولة الزاهد ، شياطين فى زمان الفاسد .

وبينما نحن فى الكلام ، دخل النسر فوقف بين المهابة للعجوز والإكبار ؛ ثم خاطبها فقال : أيتها الحاكمة فى البشر ، من غبر منهم ومن حضر ، والآتى منهم والمنتظر ، ما لقيت من عمر فى ظلمات هذا الأسر ؟

قالت : أضيق الأمر ، وأعظم الأسر ؛ لكنها حال تحول ، ونازلة عما قريب تزول ؛ ثم أفتك فى هذه الأمة فتكا ، وأصيّر هذا الأمر ملكا ، تقتتل عليه القبائل ، وتتلاعن من أجله البطون ، وتتفانى فى طلبه الشعوب ؛ ولا أزال كذلك حتى أشقى مرة أخرى فى زمن ابن عبد العزيز ، ثم يخلو لى الجو إلى الأبد ، وأحكم فى المسلمين على الأمد .

قال : بحق عمر عليك إلا ما وصفت لى الأربعة الخلفاء.

قالت : أما أبو بكر فأخذنى كما تؤخذ الإماء ، وخرج منى خروج الأنبياء ، ضرب على يدى أن أفسد هذا الأمر حين الفرصة سانحة ، والصفقة رابحة ، والأمة جامحة إلى الفتنة جانحة . وأما هذا الذى أعذب فى أسره ، وأبلو المر من معاملته ، فأشدهم إعراضا عنى ، وأكثرهم فراراً منى ، لم يرضنى أمة تشرى ، ولا قبل بى طريقا إلى الأخرى، ولا يزال حتى يخرج منى خروج الأنبياء. وأما ابن عفان فأتقرب إليه بقرابته ،

وأمهد للفتنة تمهيداً فى خلافته؛ ولا أزال به أتنازعه أنا ودينه حتى أزول عنه إلى علىّ ، أزهد الناس فى ، وأكثرهم إساءة إلىّ ، يفضحنى فى كلمة ويقبحنى فى حكمه ، ولا يرضى بى لنفسه قسما ، ولا للغير غنما ؛ ينافس فى معاوية ، ونفسه عنى راغبة سالية ؛ ولا يزال يجعل همه فى جمع أمر الأمة ، وحفظ إمرة المسلمين فى بيت النبوة ، وأنا أروغ بالنفوس منه، وأحيد بالقلوب عنه، حتى يخرج منى وليس فى يده منى هباء ، كما خرج من قبل الأنبياء .

قال النسر : فكيف أنت بمعاوية ؟

قالت :

فطن داهية ، مختلف فى السر والعلانية ، لا يزال يهجرنى إلى الدين ويهجر الدين إلىّ ، وهو فى خاصة نفسه أحرص الناس علىّ ، يتسع من نعيمى لنفسه ، ولذريته من بعده ، ويتخذ الآخرة طريقًا إلىّ وكنت طريق السلف إليها ، حتى أجتمع له ولآله وأعوانه ، ثم أزول عنه وقد استرقّنى لبنى أمية يصيبون بى خيراً كثيراً ، ويتوارثوننى ملكا فى الأرض كبيرا .

قال : وأنت ظل الملك حيث كان كنت ، وأين سكن سكنت ...

قالت : أنا الملك والملك أنا ، وما نهض به فى الأرض من آذانى بشامل عدله ، وساءنى بحسن سيرته ، إلا زلت عنه على عهده ، أو قاطعت ذريته من بعده ؛ وهذا هو السر فى كون الملوك الصالحين العادلين فى التاريخ لم تستقم لأكثرهم الحال فى أواخر حكمهم ، ولم يقم من عقبهم من أحسن السلوك ، أو سار سيرة تليق بالملوك .

قال الهدهد :

ثم التفت النسر إلى وقال : دونك أيها الهدهد هذه الصحيفة الناطقة ، وهذا التاريخ المتكلم ؛ فسل ما شئت ، واستفسر عما شئت ، من فائدة تستجلبها ، أو حكمة تأخذها .

فاستقبلت العجوز وأنا أعجب من حفاوة الأستاذ بها ، وأستغرب منه هذه المبالغة فى خطابها ، ثم قلت : صفحا أيتها الدنيا عن هفوتى ، وانسى لى جفوتى . وخبرينى أى الناس أحب إليك وأيهم أبغض عليك ؟

قالت : أحب الناس إلىّ أبغضهم إلى الله ، وأبغض الناس إلىّ أحبهم إلى الله !

قلت : ومن أبغضهم إلى الله ومن أحبهم إليه ؟

قالت : أبغضهم إلى الله العالم المفتون ، وذو الصنع الممنون ، ومؤتمن يخون ؛ وأحبهم إليه العامل عن علم ، المتواضع فى رفعة ، العافى على مقدرة ، الذاكر الموت المستعد له ؛ فهذا الذى يرجى لعظيم الأعمال فى الدنيا ، ولصالحها فى الآخرة .

قالت : عظينى أيتها العجوز .

قالت : خلقت أُضِل ولا أَدُل ، وأفسد ولا أرشِد ؛ وما مثلى إلا كالنار تهدى الناظر من بعد إليها ، وتحرق المتهافت عليها .

قلت : أى الأمم بك أعلم ، وأى الحكماء فى وصفك أحكم ؟

قالت : الأمة التى جاء فىّ كتابها المنزل بلسانها فى جملة وصفى «إنما الحياة الدنيا لعب ولهو» والتى يقول فى شاعرها :

وما الناس إلا هالك وابن هالك

وذو نسب فى الهالكين عريق

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت

له عن عدوٍّ فى ثياب صديق

قلت : عرفينى بعض صفاتك ، وصفى لى شيئًا من آفاتك .

قالت : أنا المانحة المانعة ، الواصلة القاطعة ؛ أقْبِل لا شاملة ولا كاملة ، وأُدبِر لا منذرة ولا معذرة ؛ صفوى عند كدرى ، وكدرى عند صفوى ؛ أونس الملك فيشقى ،

وأمنِّى السوقة فترضى ، وآتِى الآمن المطمئن من حيث لا يتقى ، وأصيب اللاهى الناعم فيما يؤنسه فى خاصة نفسه ، لا ما يُظهر للناس من أنسه ؛ ألسنة الناس فى سبّى ، وقلوبهم مملوءة من حبى ، يغالط بعضهم فىّ بعضا وما أضمر أحدهم لى كراهة ولا بغضا ؛ من زلت عنه استعاد ، ومن اتسع منى استزاد ، ولا حى إلا له فىّ مراد ؛ العاقل من أخذنى أخذًا ، أو نبذنى نبذًا ، ولم يقف فى طلبى بين التقنع والجهاد ؛ فمن أخذنى فبالمراد الغزير ، والجهاد الكثير ؛ ومن نبذنى فبالاعتقاد المستقر ، والسلوان المستمر ، لا يرغب مع الآخرة فى ثمين ؛ ولا يؤثر عليها المال والبنين ، ومتى كان ذلك فله لا للمتنبى أن يقول :

كـــذا أنا يا دنيـــا إذا شـــئت فـــاذهبى

ويا نفس زيدى فى كـــراهتـــهـــا قـــدمـــا

قال الهدهد :

وكنت أصوّب النظر فى العجوز وأصعده ، فأراها تلبس حالا عن حال ، وتصير من غايات القبح إلى نهاية الجمال ؛ ثم نهضت من السلاسل والأغلال ، وتمثلت لى وللنسر غادة كالمثال ؛ فلما رآها الأستاذ دق يدًا على يد وقال : قضى الأمر ، وقتل عمر ، واستقبل العرب الدنيا واقتتلوا على الملك ، وجاءتهم الفتنة من كل مكان . قالت : كذلك هم مُذ الآن ، ولا أزال حتى أجمعهم على سب بيت منه خرجوا ، وفى ظله دبُّوا ودرجوا ، وبه ظهر عزهم ، وعليه بنى ملكهم ؛ ثم لا أزال حتى يحكم فيهم من يزرى بالقرآن ، ثم لا أزال حتى يغلبهم الهمل من العجم على أمرهم ، ويسلبوهم ما بأيديهم ؛ ثم لا أزال حتى يتفرقوا فى البلاد، ثم لا أزال حتى يمسوا كأن لم يكونوا شيئًا مذكورا، ويبقى قرآنهم ولسانهم خالدين على الزم ، منشورين إلى الأبد ..

قال الهدهد :

ثم انطلقت الدنيا من أسرها ، وتركتنا نقضى العجب من أمرها ؛ فالتفت النسر إلىّ وقال : لا خير فى هذا الأمر بعد عمر ، ولا مقام لنا فى ملك هذا الذى يموت عن

عبيد وإماء ، وضياع وثراء ، وأثاث وكساء ، بعد ما ظلم أبا الزهراء ، وآثر على الخليفة الخلفاء ، وأراق ما شاء من دماء ، ثم ألقى المعذرة والدنيا مدبرة ، وطلب المغفرة حال الغرغرة .

قلت : ومن تعنى يا مولاى ؟

قال : ابن العاص .

قلت : ذاك الذى أبلى بالأمس فى الجهاد ، وجلس للحكم بين الناس مجلس الزهاد ؟

قال : كانت نفسه إلى الدنيا مغلولة إلى حين ، ثم فكت بموت أمير المؤمنين .

وتثاءب النسر عند ذلك ، فخشيت أن تكون هذه النومة الكبرى ، وأن لا أراه مرة أخرى ؛ فسألته عن الملتقى ، فقال : بمصر بين الجزيرة والجسر . فسررت بالموعد ، وبشرت نفسى بآصال مستعادة ، أقضيها مع النسر فى استقراء واستفادة .

المحادثة الثالثة عشرة

قال الهدهد :

لما كان الغد ، خرجت إلى الموعد ألاقى النسر فى مصر ، بين الجزيرة والجسر ؛ وأنا مسرور بلقائه فى وطنى، والاجتماع به بين قومى ؛ لعله ينفعنى بالتنبيه والإرشاد ، ويفيدنى الملاحظة والانتقاد ، فيما خفى علىّ من خلائق الرجال ، وما غاب عنى من حقائق الأحوال ؛ لأن الغريب حريص على الصغيرة والكبيرة ، يرى من كل بلد يحله ، ما لا يراه أهله ، كالتمساح لا يبصر فى الماء وهو موطنه الذى يعيش فيه ، فإذا خرج منه كان أحد الحيوان لحاظا ؛ فكيف به مثل الأستاذ واسع العلم والدراية ، متقادم العهد على صحبة الزمان وأهله ؛ فبلغت النهر وكان الأصيل على سمائه ذهبا ، والريح على مائه لعبا ، والمنظر على فضائه عجبا ؛ وكان الناس يخرجون إليه موكبا موكبا ، تجرى بهم المركبات من كل طراز وشكل ، فمن (بسكليت) كبساط الريح لا تراها ، وتنظر من أجراها ؛ تمرق كالسهم مروقا ، وتخفق كالريح خفوقا ، وتنساب فوق طريق الناس ، فتصوت كالأفاعى ذات الأجراس ؛ ومن (أتوموبيل) كجنى عنيف ، ذى هبوب وعزيف ، صوتها أنكر الأصوات ، وفيها جمعت المزعجات ، وراكبها لا فى الأحياء ولا الأموات ؛ ومن (ترامواى) تنقل الأقوام من شاطئ النهر إلى الأهرام ، وهى تمضى بصاحبها ثم تمضى عليه ، بخلاف الأيام فيما ذهب الشاعر إليه :

ما أسرع الأيام فى طيّنا تمضى علينا ثم تمضى بنا

ومن مركبات تنقاد بأعنة الجياد ، منها ما لا تسمع لها حسًّا ولا جرسًا ، كأنما يهمس فى أذن الأرض همسا؛ وبعضها كالدار طبقات ، تتبوأ مقاعدها فيه الجماعات ؛ وبعضها قليل الحجم يجره فرد ويركب فيه فرد؛ وبالجملة وجدت منازه الجزيرة والجيزة ،

حافلة بصنوف المحدثات ، جامعة لأنواع المخترعات ، كأنها غاب «بولونيا» الشهير فى باريس ، لولا أن القوم عليها كشكول ملل ونحل وأجناس وأزياء وألوان ، وقد ذهبت أيام الحمير ، وتصرمت دولة البغال ، فنسى الشيخ فى مركبته ذكر بغلته ، وكانت مجلى زينته ، فى ذهابه وجيئته ؛ وهجر السيد الحمار ، إلى (الدوكار) ، وبرز الكبراء للناس فى (الأتوموبيل) ، وكانوا ينكمشون وقارا فى (الكوبيل) ، وألهت (البسكليت) الخصىّ ، عن جواده العربى ، وسرجه الفضى ، وكانا زينته بالغداة والعشى ، وركبت السيدات فى مشكوف المركبات ، تجرى بهن بين أعين الجماعات ، وكن فى مثل هذه الأحوال لا يملن حيث يميل الرجال ؛ عادات بدلت ، وأحوال تحولت ، وآية للغرب فى الشرق علت ، وألقاب حضارة ومدنية ، لا شرقية ولا غربية ...

قال : فلما صرت على الجزيرة ، تقصيت النظر أنشد النسر عليها ، فرأيت من بعد درويشا قد خلا بنفسه فى ناحية ، وهو يستقبل النيل ويديم النظر إليه . فوجدت ريح النسر لأول وهلة ، وتقدمت إليه فقلت : سعد النيل بشاعره فى الزمان الأول يا مولاى. قال : وسعدنا به يا بنى؛ إنه سموأل الأنهار ، الوافى على الأدهار ، الجارى بالليل والنهار؛ عُبِد قديما وأُلّه وقدس وجه الدهر ونُزِّه، وآوى النبيين فى المهد صبيين ، فجرى التابوت فيه بموسى، وبلغ الفطام لديه عيسى ؛ ولا يعلم إلا مجريه كيف انفجر ، ثم جرى وانحدر، ثم كفلته الشمس والمطر، وكم قرية عمر ، وأخرى دمر ، وهيكل نثر ، وديانة قبر ؛ وكم أفنى من زمر ، ممن نهى وأمر ، وتكهن وسحر ، وفتح وانتصر ؛ ألا وإنه المنهل العذب ، اقتتل عليه القاهرون فوق البشر ، فانتهى إليه قمبيز بغاراته ، فالإسكندر بفتوحاته ، فقيصر بانتصاراته ، فابن الخطاب بغزواته ، فسليم بحملته ، فنابليون بتجريدته ؛ هذا يا بنى حظه من التاريخ ، لا ينافسه فيه نهر ، ولا يزاحمه عليه بحر ؛ على أن حظه من الطبيعة أوفر ، وقسطه من نعمائها أكبر ، شمس تزهر وأفق أنضر ، وواد أخضر ؛ وجو لا يستعر ولا يخصر ، ونسيم يخطر ، ومطر يندر ، ورزق بأيسر السعى يحضر ، وسهل صعب على العدو ، ولجة تستعصى عليه على ما بها من هدو، لو وجد من يمنعه من الدنو، وفوق هذا وذاك هو القائم على هذا الناس بالأقوات ، إذا فاض أحيا وإذا غاض أمات ؛ ولا يزال يأخذ من البر للبحر ، فتتسع مصر بفضله من سهل وواد ، وقرى وبلاد .

قال الهدهد :

فشفتنى هذه الكلمة فى النيل، وودت لو لم يختصر النسر من هذا البحث الجليل ، وإن يك أتى بالكثير فى القليل ؛ وكان قد التفت فرأى المراكب تموج ، على تلك المروج ؛ فسألنى : لعل هذه مصر القديمة ونحن على نقراطيس .

قلت : وما نقراطيس يا مولاى ؟

قال : ثغر كان لنا على البحر ، قامت «فوة» مكانه اليوم ، وكانت للأجانب ، لا يؤذن لهم أن يسكنوا سواه ، ولا يسامحون فى الخروج منه إلى غيره من نواحى القطر .

قلت : بل نحن فى عاصمة البلاد يا مولاى ، وهؤلاء مترفوها من أهلين وأجانب .

قال : وما هذه المطايا التى لا تجوع ولا تظمأ ، وكيف تسمونها ؟

قلت : هذه محدثات الغربيين ، تجلب إلى مصر فيتهافت الأغنياء على اقتنائها ، ولم يتفق علماء اللغة على تسميتها حتى الآن ، ولعلهم لا يتفقون ، فإن القوم اخترعوا (الأتوموبيل) من كل حجم وشكل ، واتخذوا منها دوارع فى البر ، ونحن لا نرضى عمن سماها السيارة ، ولا عمن دعاها بالجوالة .

قال النسر: اللسان يا بنى من حيث هو مضغة، مرآة الصحة؛ ومن حيث هو لغة ، مرآة الأمة ؛ ولا غرابة فى أن تقعد بكم اللغة وتخونكم فى ميسور الأمر وعسيره ؛ فهى إنما تأخذ بنصيب من هذا النقص العام ، وتتأثر بهذا العجز الشامل ، لأنها للعلم مثل الظل للشبح ، يتضاءل بتضاؤله ، ويطول بطوله ؛ والعلم فى التجارة وفى الصناعة وفى الزراعة ، مثل ما هو فى الشروح والمتون ، وفيما يسمونه الفنون الجميلة ؛ فكلما ظهرت آثاره على هذه الأشياء فى مجموعها ، اتسعت اللغة من مادة ، وازدادت من حياة ، وتهذبت على الزمن ، وحسبت على ناموس الارتقاء ، يقتادها بأزمّته ، ويجرى بها فى أعنّته . هذه يا بنى هى الحياة الحقيقية للغات ، وما سواها فتوهم ، ووجود أشبه بوجود الأجسام المحنطة : يُظن بها حفظ وهى وإن طال المدى ستبيد .

قلت : إنك لتنعى يا مولاى !

قال : ومن أنعى ؟

قلت : اللغة العربية ؛ فقد حيل فى التعليم بينها وبين العلم الذى تزعم أنه للغات كالروح للجسم .

قال : وماذا يحول بينهما ؟

قلت : الحكومة فى مدارسها ، والكتاب فى منشآتهم ، والعلماء فى مؤلفاتهم ، والجرائد فيما تنشر كل يوم ؛ فأما الحكومة فقد استقر عند القابضين على أزمّة التعليم من رجالها فى السنين الأخيرة ، أن اللغة العربية لحقت باللغات الغابرة ، وأنها فى واد وعلوم هذا العصر فى واد ، ولا يزالون على هذا الرأى وفى هذا السعى ، حتى ييبس ما بين اللغة العربية وبين العلم ، ولا يكون بعيد حتى تعدم من يعلم قواعد الحساب فيها أو يعلمها الناس بها ؛ وأما الكتاب فقل من جمع منهم بين العلم والبيان ، وهمُ المشهورين منهم بالإجادة فى الوصف والتصوير ، انتقاء اللفظ والاحتيال على المعنى ، واتباع الشعراء فى الهيام ، ومزاحمتهم على الخيال ؛ حتى ضاع محل الكتابة العلمية بين منشآت الكتاب ، وخلا أكثرها من حقيقة التاريخ وروح الفلسفة ، ونبذت فيه العلوم الطبيعية ؛ وهجر الطب والفلك وغير ذلك مما له فى اللغة العربية أساس طال عليها الأبد وغيّرها التَّرك والإغفال[1]؛ وأما العلماء فى مصر فأبعد الناس عن معرفة فى اللغة، أو تمكن من أدبها ، يمتلئ دماغ أحدهم من العلم ، ويتغرب فى سبيله ، وينفق الأيام فى تحصيله ؛ وإذا ألف بعد ذلك لم يؤلف فيما يعرض على أبناء العربية بين صحة التقرير وسلامة التحرير ؛ ولا أستحى يا مولاى أن أختص بالذكر فى هذا المقام أولئك الألوف ممن خرج أو يخرج من الأزهر ، وهم علماء الدين المتفقهون فيه ، أحوج ما كان الخواص والعوام إلى كتاب منهم مجيدين ، يبينون للأمة مواضع الحكمة فى أحكام الدين ، ليقروها فى أذهان الخاصة ، ويقربوها من عقول العامة ؛ ومع ذلك لم يقم من بينهم حتى الآن إلا ثلاثة أو أربعة يُرجَون لمثل هذا النفع ، ومن البلية أنهم بهذا الفضل

---

(١) قلت : كان ذلك حال الكتابة فى أول هذا القرن ، أما اليوم فالأمر غير ما يصف المؤلف .

محسودون ، ومن أجله ممقوتون . رب مدرس يا مولاى تقلب على أعمدة الأزهر، وأفنى الطلبة طبقة بعد طبقة ، وإذا أراد أن يكتب إلى ولده فى بعض الشئون خانه القلم ، وكتب ما لا يفهم ، وكان فى رسالته أنكر خطا وأكثر خطأ من شاب أرسل إلى الغرب فى أول الصبا، كلما دعاه داع ليكتب إلى أبيه بالعربية؛ وأما الجرائد يا مولاى فمشغولة فى الغالب بسفاسف السياسة عن كل شغل ، منصرفة عن وجوه الخدمة الحقيقية ، لا يهمها إحياء اللغة، ولا يعنيها نشر العلم باللغة ؛ وشتان ما بينها فى ذلك وبين الصحف الغربية ، التى هى من التمكن وكثرة الانتشار بحيث تلحظ أحوال الزمن كل يوم ، وتنظر فى سياسة العلم بأسره، ومع ذلك فالأهم عندها ، المقدم من واجبات الصحافة ، إنما هو ترقية الآداب ، ونشر العلم بين الجماعة ، والبحث فيما يجد منه ويكتشف فيه بحثا مدققا ربما كانت فيه من قرائها بمنزل الأساتذة من تلاميذهم .

قال : الآن علمت أن الفاس فى الأساس . ثم التفت والتفت ، فبدا له وراء النهر قصر عليه بهاء ورونق ، وإن لم يكن بالسدير ولا الخورنق ، فأومأ إليه وسألنى : لمن الدار ؟ قلت : لزعيم الاحتلال ، والرقيب على جماعة الرجال ، يعده الإنكليز فى جملة عظمائهم ، ويختلفون إلا فيه ، ويرمقون بناء لهم فى الاستعمار يبنيه ؛ تخير هذه البقعة ثم بنى فوقها تلك الدار ، فبنى الكثيرون على الآثار ، حتى جاورها من ليس لها بجار ، وكثر عليها فى الزيارة من كان يجادل فيها الزوار ، وأصبحت هذه الناحية وفيها اعتبار ؛ ههنا الفلاح المصرى وهنا المستشار !

فلم يكن من النسر إلا أن تبسم ثم قال : لا احتلال ..!

فدهشت من هذا الجواب وقلت : أمازح يا مولاى أم أنت لم تفهم مقالى ؟

قال : بل أنت الذى لم تفهم ، فلا تجادلنى حتى تعلم .

وفى هذه الأثناء مرت مركبة صغيرة ، يجرها جواد واحد ، يمسك عنانه شاب من الإنكليز ، لا أبهة على ركابه ، ولا زخرف على ثيابه ، فيه حشمة ووقار ، وعليه للتواضع آثار ، حمل على إحدى عينيه زجاجة فأبرقت تحتها ، وترك الأخرى تتمثل بقول المتنبى :

* هو الجد حتى تفضل العين أختها *

فجعلت أنظر إليه ، فسألنى النسر : من هذا الذى شغلتك رؤيته ؟

قلت : هذا مستشار المالية يا مولاى ، له المحل الثانى فى الاحتلال ، وهو على خزائن مصر يدبر المال ، ويشرف على الجليل والحقير من الأعمال .

فتبسم النسر ثم قال : لا احتلال ..!

فقضيت العجب من هذا الإصرار على الإنكار ، وقلت : أتريد يا مولاى أن آتيك بدليل على النهار ؟

قال : لا ، بل أريد أن تصبر معى .

وهناك اقتربت منا مركبة فيها ضابطان ، كأنهما ساريتان ، عليهما حلتان حمراوان ، وهما يشيران بوجهيهما نحو السماء تعاظما وعزة ؛ فسألنى النسر : ممن الجند ؟

قلت : وما انتفاعك يا مولاى بسؤالى إذا كان الجواب لا يقنعك ؟

قال : لعلهما من جيش غريب !

قلت : وهو جيش الاحتلال ، له فى كل ناحية من القاهرة معسكر ، وكل واحد من جنوده علم إنكلترا الذى لا يمس ، وسيفها الذى لا يجس ، وقد بولغ لهم فى الرعاية والحيطة ، فجعلوا فوق القوانين كلها فى البلاد ، وأنشئت من أجلهم محكمة مخصوصة يحاكم المعتدون عليهم أمامها ...

فتبسم النسر كعادته ، ثم قال : لا احتلال ..!

فكتمت غيظى، وغلبت النفس على غضبها، وقلت : لا سبيل يا مولاى إلى الجحود، بعد ما رأيت الجنود .

قال : مثل البلاد تراها أنت بعين ، وأنظرها أنا بعين ، كالمريض بين العائد والطبيب : ينظر الأول إلى جسمه الناحل ، وقوته الواهنة ، وعينه الغائرة ، وشفته الذابلة ، وعرقه المتصبب ، ويسمع زفراته المتصاعدة ، وأناته المتتابعة ، فيرق له ويرثى

ويتوجع ، ثم يخرج من عنده وليس المرض فى اعتقاده إلا ما رأى بعينه وسمع بأذنه ، فإذا سأله سائل : ماذا بصاحبك ؟ قال : بجسمه نحول ، وبشفته ذبول ... ووصف سائر ما شاهد من الأغراض ؛ ويكون الطبيب فى هذه الأثناء قد نظر لسان المريض ، ثم جس نبضه ، ثم قعد يقرع ويتسمع ، ثم انصرف يقول فى نفسه : داؤه كذا ، ودواؤه كذا ؛ وقد كنا يا بنى أمة تسعد يوما وتشقى يوما ، وكانت لنا دولة تعلو حينا وتسفل حينا ؛ حكم الأجانب فيها مرارا ، فلا أذكر أنهم حكمونا يوما ونحن أمة كملت فيها أدوات الحياة ، أو سلبونا دولتنا وهى فى منعة وإمكان ، قائمة على حقيقة الملك والسلطان ؛ فعلل الأمم إذًا باطنية ، لا يرجى فيها الشفاء حتى تعالج فى مواطنها ؛ وما قام هذا العالم منذ قام إلا على هذه القاعدة «كل ضعيف الركن مضطهد» وهى تسرى على الجماد والنبات ، كما تسرى على الإنسان والحيوان ؛ فالجبل يجذب إليه الذر ولا يجذب هذا إليه الجبل ، والسرحة تزهق الحشائش ولا تزهقها هذه ، والذئب يفترس الحمل ولن يكون له فريسة ؛ وكذلك الناس ، جهلاؤهم لعقلائهم تبع ، وضعفاؤهم لأقويائهم خدم ؛ سنة الدهر فى بنيه ، وشيمة قديمة فيه ، فالأولى بالذين يتصدون لفك الأمم المسترقة ، وتحرير الشعوب المملوكة ، أن يعلموها أن قيود الحديد لا تعالج إلا بمبارد الحديد ، فالعقل لا يقاوم إلا بالعقل ، والقوة لا تستدفع إلا بالقوة ، والناس مذ وجدوا رأس وذنب ، والدنيا مذ كانت لمن غلب .

قلت : أفدت يا مولاى وأرشدت ، ولكن هذا كله لا ينفى وجود احتلال أجنبى فى البلاد ، أريتك آثاره فأنكرتها ولم تذكر السبب فى الإنكار .

قال الهدهد :

فجعل الأستاذ يتثاءب ويدخل فى السنة المعهودة ، ثم قال كلمته المألوفة : إذا جاء الليل ذهبت الشياطين . وسألنى بعد ذلك : أين الملتقى غدًا ؟ قلت : على الأزبكية يا مولاى . قال : الآن لك وكر ولى وكر ، فلن يجمع الليل الهدهد والنسر . ثم احتجب عيانه ، وذهب شيطانه ، فانثنيت فيمن انثنى من الجزيرة ، وأنا أذكر ما كان ،

وأخشى أن يكون فى البلاد احتلال ثان ، من روس أو ألمان ، أو صين أو يابان ، وهى بحمد الله مذ كانت لا تضيق بنازل ، ولا تبكى على راحل ؛ ولكن قلت فى نفسى : ليس بعد خفى الإشارة ، إلا جلى العبارة ؛ وما تجاهل النسر إلا وفى نفسه أمر ، فقد عودنى منذ انعقدت بين شيطانينا الألفة ، أن يجد فأحسبه يهزل ، ويهزل فأخاله يجد ؛ وأن يتوضح آونة ويتكتم آونة ، ويقتضب تارة ويسترسل تارة ، ويعلم حينا ويتجاهل حينا ؛ وأنا إنما أتأدب بأدبه ، وأذهب بالمحادثة فى مذهبه ، وأصبر على مرافقته وموافقته ، لأنه عالم يصحب على علاته ، وحكيم يحب فى جميع حالاته ؛ وإذا نقلت إلى الناس أحاديثه فإنما أنقلها كما هى ، ليأخذوا الدر ويذروا المخشلَب ، ويدخلوا ظلمات المعدن على الذهب، على أنى أنبه من تهمهم هذه المحادثات من القراء إلى أيام النسر فى مصر، لأنها إنما تتناول الحالة الحاضرة ، ولا مستقبل لقوم لا يهمهم حاضرهم .

المحادثة الرابعة عشرة

قال الهدهد :

لما كان الغد قصدت الأزبكية لملاقاة النسر، وإذا هى كما عهدت بهجة هذا البلد ، لها المحل الأول فيه، ولا تناظر بناحية من نواحيه، ابتسمت أرجاؤها بالمنظر الضاحى ، وانتضدت عليها الدور العالية ، تحتها بيوت التجارة من الطراز الأول ، تتخللها الأندية العمومية تموج بالخلق الكثير ؛ وكانت قد أخذت كعادتها لليل أهبته ، وبرزت لأهل ودها مرموقة بعين الرضا ، كريمة الثناء فى الخواطر ؛ فبعد أن كانت دار الماجن والخليع ، وقرارة المدمن الصريع، ومسلك التهم فى اعتقاد الجميع؛ وكانت مراح الفاجر ومغداه ، ومصبح المقامر وممساه ، وسامر المنكت ومن راعاه ؛ وبعد أن كان الخروج إليها خروجا من الحشمة والوقار ، حتى مات أناس من أهل الكمال ما عرفوها ، وبقيت منهم بقية لم ينظروها ، أمست مسحب ذيل الوزير ، ومستقر أتومبيل الأمير ، ومجلس القاضى والمدير ، ومسامر الكتاب والشعراء ، ومنتدى العلماء والفقهاء ؛ وأصبحت مقعد المتقاعدين، ومستودع المستودعين، ومدرسة الناشئين، ورواق المجاورين، وديوان الموظفين ؛ تجمع الكبير والصغير ، وتخلط الرفيع والوضيع ، وتحل محل (المندرة) ، وتقوم مقام (السلاملك) ، وتغنى عن (الديوان) ، وتغص الأندية العمومية فيها بالجموع من كل الطبقات ، وكافة الأجناس ؛ فترى عليها كبار الموظفين ، عند (الذوات) المتقاعدين ، يليهم ألاّف الجرائد ينتهبونها كمال اليتيم ، ويقرأونها عارية بالمليم ، فالزاجرون الشاة الآكلون الفيل من عشاق الشطرنج ، فأصحاب النارجيلة تفنيهم على الزمن كما يفنونها نفسًا فى نفس ؛ وتمر هناك على أركان الغيبة والاعتراض ، من أهل الفراغ والبطالة ، وبجماعة المقاولين من كل ذى لقب ، أو عاطل يذم الرتب ، وتلوى على عصبة المحررين والمكاتبين فى الجرائد اليومية ، أدرك أصحابها

النشب ، وأدركت أصحابنا حرفة الأدب ؛ وتعثر فيها كذلك على أعضاء الجمعية العمومية ومجلس الشورى ، آتين من أقاصى البلاد لزيارة المستشارين ، وبعمد الأقاليم وأعيانها كثروا على الأزبكية فى هذه السنين الأخيرة زيارة وانتيابا ، وجيئة وذهابا ، وكانوا إذا ظفر أهل الكسب فيها بواحد منهم أحلوه بين السمع والبصر ، وأجلوه كأنه المهدى المنتظر ؛ وبالجملة يتعاقب على هذه الناحية ما بين حاشيتى النهار وطرفى الليل عدا هؤلاء خلق كثير من حساة الراح ، وعباد الميسر ، والأغرار من أهل الثروة الموروثة ، والناصبين لهم الحبائل من أهل عِشرتهم . ومما يبكى منه ويضحك ، ولا يُرى له مثيل فى مدينة من مدائن الأرض ، أن هذا العالم المنصب فى الأزبكية بالليل والنهار ، الباذل فيها قليل المال وكثيره كل يوم ، إنما يلقى أساس الثروة ، ويرفع عماد البيوت لهذه الأمة الصغيرة الكبيرة المجتهدة المقتصدة ، أمة اليونان فى مصر ، لا فى تجارة تحتاج إلى عظيم مهارة ، ولا فى صناعة تستلزم كبير براعة ، لكن فى تجارة للهو والطرب ...

قال : وكان النسر قد سبقنى إليها ، فاعترضنى فى هيئة وزى هو فيها أشبه بسائح أمريكانى ، أو إنكليزى : قامة طويلة ، لكنها ضئيلة ، وعارضان كثيفان ، لكن لا يلتقيان ، وثياب لا يشتكى منها طول ولا قصر ، ولا ضيق ولا سعة ، وهو يتشمخ بأنفه ، ويختال فى مشيته ؛ فضحكت حال رؤيته ، وقلت بعد تحيته : قد كان لك غنى عن هذا الزى يا مولاى .

قال : ولم ذا ؟

قلت : لأن فى طباعى النفار من صحبة أهله ، لا عن حقارة ولا كراهية ، ولكن أربأ بنفسى أن أحتقر ، وأن أصحب من لا يعدنى من البشر .

قال : ومتى احترم القوى الضعيف ؟ إنك يا بنى تحاول من النفس غير شيمتها ، وتكلفها ضد طباعها ؛ وأنا ما اتخذت هذا الشعار إلا لعلمى أن فيه السلامة ، ومعه الكرامة ، فى بلد ليس لى بدار إقامة . ثم التفت حوله وسألنى : بأى مكان نحن ؟

قلت : على الأزبكية يا مولاى ، وهى قسم من القاهرة ليس كسائر الأقسام ؛ كان وجه القرن الماضى مجرّ عوالى الحوادث، ومجرى سوابقها؛ أقام به نابليون ومن معه ، ولا يزال منزله عليه قائم الجدار ، معدودا فى جملة الآثار ؛ وفيه ألبس محمد على ثياب الولاية ، واتخذ عليه بعد ذلك مسكنا يتردد إليه فى تراوحه بين شبرا إيوانه ، والقلعة ديوانه ؛ وما زال الأجانب يكثرون على الأزبكية فى السكنى ، وهى تأخذ من سعودهم ، وتشاطرهم دنياهم المقبلة ، حتى أكرمها فيهم الخديوى إسماعيل فى زمن اهتمامه بهذه العاصمة واعتنائه بأمر إصلاحها وتحسينها ؛ ففتح فيها الشوارع ، وأنشأ فيها الميادين ، وآثرها بالأوبرا الخديوية ، دار التمثيل الكبرى فى البلاد ؛ ثم ما زالت حتى أصبحت كما تراها تضارع كثيراً من مشهورات النواحى فى الغرب ، حركة وتجارة ، ورونقا ونضارة ، وعمارة ويسارة .

قال : وما هذا السوق القائم ، والدولاب الدائر ؟ ولمن هذه التجارة الواسعة ، وتلك الدور الرفيعة ؟ ومن هؤلاء الشامخون بالأنوف فوق سلم النزل ، كأنهم الفراعنة فى بهو الإمارة وعند رفرف الملك ؟

قلت : أبديت لك يا مولاى أن هذه الناحية من القاهرة تكاد تكون للأجانب بأرضها وسمائها ، فهذا السوق القائم سوقهم ، وهذا الدولاب إنما يدور بهم ، وهذه التجارة الرابحة لهم ، وتلك الدور الرفيعة مساكنهم وعقارهم ؛ وهؤلاء المدلون المختالون هم السيّاح من الأوروبيين ، يأتون مصر رحلة الشتاء فى كل عام ، فيقضون بها ما شاءوا من أيام ، مثل الملوك فى مشاتيهم من ممالكهم وبلادهم ، وبين إجلال الخاصة ، ومهابة العامة . استأثر الأجانب بفوائد التجارة ، واختصوا بمنافعها ، وقبضوا على أزمتها ، حتى أصبحت هذه الحوانيت الكبيرة وتلك المخازن المشحونة ولا منصرف عنها لمصرى يحيا حياة سهلة ، من أقصى الريف إلى أقصى الصعيد ؛ فما من بيت فى الأرياف أهله على شىء من الثروة إلا ومن الأزبكية زيتهم ودقيقهم ، وكأسهم ورحيقهم ، وطستهم وإبريقهم ؛ وإذا بنى أحدهم بالغ فى البنيان ، ومثل فى القرية الحقيرة الإيوان ، لكى يقال أتى بما لم يستطعه فلان ؛ ثم لا تسل عن الأثاث والرياش ، وما يجلب منه من القاهرة لائقا لشاهقة القصور ، ضافيا على وسيع الدور ، صالحا

لجلوس المدير والمأمور ؛ حتى ليجد الإنسان فى كثير من مدائن الأقاليم وقراها ، من هذه المساكن من الطراز الأول ، ما لا يجد له مثيلا فى ضياع أصحاب الملايين من الفرنساويين ، بالرغم مما عهدت القوم عليه فى تلك البلاد ، خصوصا كبار الزراع منهم ، من الميل إلى المعيشة السهلة فى المكان الطيب ، ولكنهم لا يسرفون فى البناء إذا بنوا ، ويختصرون من الأثاث والرياش إذا اقتنوا ، ويعتمدون فى تشييد الدور وتزيينها على سلامة الذوق وحسن الاختيار ، وبحيث ترى المغنى الصغير فتأخذه عيناك على قلة حجمه ، كأنه بيت من الشِّعر أو بيت من الشَّعر ، وليس ذلك إلا من حب الاقتصاد الذى لا تقوم حياة الزراع إلا عليه ؛ وقد تدرج الأجانب يا مولاى من الاستئثار بتجارة القطر ، ما جل منها وما قل ، والانفراد بالصناعة فيه ، ما علا منها وما سفل ، إلى مزاحمة الوطنيين على تجارات وحرف لم يكن يخطر على بال أنها تخرج من أيديهم يوما ؛ ولا أستحى أن أضرب لك مثلا هؤلاء الأطفال من اليونان والأرمن ، منتشرين فى الشوارع والأندية العمومية ، يسابقون فقراء الغلمان من المصريين والبرابرة إلى النعال يمسحونها ، والأحذية ينظفونها ؛ ثم أرتقى عن هذا المثل الأدنى إلى آخر أعلى ، فأبدى لك أنه لا يقام فى مصر عظيم احتفال ، ولا تحيا فيها بالأفراح ليال ، إلا رأيت المحل الأول للأجانب ، ووجدت الربح من وراء ذلك لهم ، فالآنية من «جيس» ، والطعام من «فلوران» ، والشراب من «ووكر» ، والحلوى من «ماتيو» ، والغلمان من «الكونتيننتال» ، والنور من معامل الكهرباء ، والصدر فى المهرجان لمن حضر من القوم ولو بغير دعوة ، والقدم السابقة إلى المائدة قدمهم ، والغناء مناوبة ومطارحة ، تخت لهم وتخت لنا ، ومغنية منهم ومغن منا ، يزهقون صنعة الطاهى ، ويبيرون تجارة الفراش ، ويرخصون أسعار المغنى ؛ وقد عاشت هذه الحرف الأهلية زمنا طويلا فى مأمن من منافسة المنافسين ، ومزاحمة المزاحمين ، إلى أن قتلها سراة مصر فى هذه الأيام ، وأصبحنا نخشى أن يتكفل لنا القوم بالمآتم والأتراح ، كما دخلوا علينا البيوت فى الأعراس والأفراح ؛ والقوم يا مولاى فوق هذه البقعة وغيرها من نواحى القطر ، فى شعب من حمى كليب عزًا ومنعة ، تسهر المحاكم المختلطة على حفظ حقوقهم ، وتلاحظ عيون الامتيازات كرامتهم ، ويشفق القناصل

عليهم فى المهمات ؛ فكأنهم وراء هذه المعاقل والحصون أسود الغاب فى الغاب ، لم يكفها تلك القوة وذلك الإقدام ، فاستعصمت بالآجام ؛ وفوق هذا وذاك تراهم قد ألقى عليهم للخواص محبة ، وملئ العوام منهم مهابة ، وصح فى الأذهان أن العقل لا يجوزهم ، والذكاء لا يحل دونهم ، والهمة لا تتعداهم ؛ واستقر عند الذين يرجون للنهوض بهذه الأمة من عثرتها ، ويطلب منهم أن ينفخوا فيها من كل روح جديد ، من أهل الحل والعقد وناس الأحلام والأقلام ، أن أوان العمل قد فات فلا يستدرك ، وبرهة الزمل قد ولت فلا تعود ، وأنه لم يبق للمصريين إلا أن يودعوا أيام الحياة وداعا . ومن عجيب أمر هذا الفريق العالى فى الأمة يا مولاى ، أنهم متحزبون متفرقون ، يعتقدون ذلك فى أنفسهم ، ويقولونه بألسنتهم ، ثم ينتدبون لقيادة الأفكار متباغضين متحاسدين متخاذلين ، كل له أمل يسعى ليدركه ، من وراء سكرة الخاصة ، وغفلة العامة ، فى هذا البلد الأسيف؛ أولئك هم القواد فيما زعموا، لكن لا تراهم إلا فى ظل القصور الشاهقة، ولدى الأبواب العالية ؛ ولا تلقى بهم إلا فى مجالس اللغو والغرور والنفاق والرياء ، لا يجولون فى الصفوف جولة ، ولا يعيرون الجنود نظرة ؛ وإذا مر أحدهم على جيشه الموهوم ، وفيلقه المزعوم ، كان فى خيلائه وكبريائه كالملك الصغير المتوج ، ورث لقب القائد العام فيما ورث من ألقاب المملكة ، فتكلف طلعة على جيوش لا تعرف له فضلا ، ولا تذكر له بلاء ، وإن هتفت بتحيته واصطفت بين المهابة فيه والإعظام ...

قال الهدهد :

كنت أتكلم والنسر مطرق يصغى لما أقول ؛ فلما انتهيت رفع رأسه ثم قال : هذا يا بنى هو الاحتلال ...

ففهمت عندئذ معنى إشارته ، فى سالف عبارته ؛ وقلت : لكم معشر النسور كيد لا يبور ، ونظر بعيد فى الأمور .

قال : دع عنك يا بنى ما تسميه المحاكم المختلطة ، وما تدعوه الامتيازات ؛ ودع القناصل وما تزعم لهم من حول وطول ، واسحب ذلك على أولئك القواد من أهل العبث وطلبة المظهر الكذب والشهرة الباطلة ؛ وهب أن الملك إدوارد وقيصر والملوك الآخرين

ملكوا عليكم البحر بالأساطيل ، ثم ملكوا عليكم البر بالجيوش زاحفة ، أكانوا قادريز على إذلالكم إن كان لكم من أنفسكم عزة ، أو تفريق كلمتكم إن كان لها منكم جامع ، أو تضييع حقكم إن كان له منكم طالب ؛ أم كانوا ضاربين على أيديكم أن لا تتداولوا أشياءكم فيما بينكم ، تنشطون الصانع منكم بالإقبال ، وتشجعون التاجر بالتهافت على بضاعته .

إن علمتم على أهل الصناعات منكم نقصا فتجملوا بنقصهم حتى يزول فتتجملوا بكمالهم ؛ فإنكم لا تزالون عراة حتى تلبسوا مما حكتم وخطتم ، ولا تزالون حفاة حتى تنعل أيديكم أرجلكم، ولا تزالوان مشاة حتى تركبوا فيما صنعتم، ولا تزالون تتوسدون الثرى حتى تسكنوا ما بنيتم؛ وليس هذا الذى ترى يا بنى، من ثياب يزهو بها الجماعة، ومواكب يختالون بها ، وقصور ينعمون فيها ، وما هى من صناعة البلاد فى شىء ، إلا مقابح ترى على الأمة فى مجموعها وإن توهمها بعض الأفراد محاسن ؛ إذ جملة ما يقال عنها : أمة عارية ، كل أشيائها عارية !

واعلم يا بنى أن الاحتلال الذى تستعظم أمره وتقول وجوده حقيقة وأقول وجوده توهم ، لا يضيق ذرعا بمن ذكرت من قادة الأفكار ، ولا يتأثر بسحبان لو رد إلى الحياة فحطب ، ولا بعبد الحميد لو بعث بعد ممات فكتب ؛ ولا يتعب بمعارضٍ قوال ، ولا يشقى بمعاكس فعال ، عشر معشار ما يقيمه ويقعده ، ويضايقه ويحرجه ، أخذكم بالصناعة والتجارة أخذ الأمم الناهضة الراقية ؛ لأن الإنكليز وغيرهم من أمم الحضارة الحاضرة ، يذهبون من التملك والاستعمار فى غير المذهب القديم ، فلا يدخلون البلاد فاتحين يقبضون نفوس أهلها ويسلبون من ذوى الأملاك أملاكهم ، لكن كما يدخل التجار الأسواق، همهم الاستكثار من الثروة، والاتساع فى التجارة ، والتقدم على سائر الأمم فى هذا السبيل بحق الحكم وفضل الاستعمار ؛ فكل بلاد يحكمها الأجنبى فى هذا الزمن إنما يحكمها فى الحقيقة بذراع مرتفعة من الصناعة ، ويدٍ قوية من التجارة ، بحيث يصح أن يقال عن عصركم هذا : لو كان رجلا لكان تاجرا .

قلت : أفدت يا مولاى وإن لم تزدنى علما بزمنى وأشيائه ، لكن من أين لك هذه النظرات وأنت غريب فى هذا الزمن ، أجنب عن أهله ، نكرة فى هذه الثياب ؟

قال النسر وهو يبتسم : ما غرك بشيطان بنتاءور فأنكرت عليه بعد النظرة ، واستغربت منه صدق الخطرة ، وقد كنا يا بنى نمشى فى البلاد المحكومة ، ونخطر بين الأمم المقهورة، فلا نرى إلا معسكرات مشحونة ، ولا ننظر من مظاهر الدولة الحاكمة ، ودلائل الحكومة القائمة ، غير الجنود الفاتحة ، يحمل الناس كبرياءهم فى كل مكان ، ويصبرون لاعتدائهم فى كل آونة ؛ أما اليوم فليست المعسكرات إلا هذه الحوانيت ، وليس الجند إلا هؤلاء التجار ؛ فإن قالوا إن الهند مثلا يحكمها سبعون ألفا من جنود الملك إدوارد ، فقل إنما ناصيتها بيد سبعة من ملوك التجارة فى لندرة . ولقد أتى لكم معشر المصريين أن تؤمنوا فيمن آمن بهذه الآية ، وتعتقدوا أن العز فى هذا الزمن قبة لا تضرب على قوم حتى يمدوا لها الطنبين : الصناعة والتجارة ، ويرفعوا لها عمودا من الهمة والإقدام .

قلت : كل ذلك قيل للأمة يا مولاى ، ودعيت إليه بألسنة قائلة ، وأصوات مرتفعة ؛ ولكنها لم تر فيه رأيا ، ولم تدبر لها أمرًا حتى الآن ؛ على أن ذلك لا يثنى مولاى عن الاشتراك مع الناصحين فى مقالة يقولها ربما نجحت فى رجل واحد ممن تصل إليهم ، فتكون قد غنمت أجرًا ، وبلغت عذرا .

قال : لا رأى لى يا بنى حتى أرى ، ولا حكم لى حتى أنظر وأخبر ، وستكون لى معك خطبة وداع حافلة بالنصائح والعظات .

قال الهدهد :

ثم تثاءب النسر كعادته ، وقال كلمته المعهودة : إذا جاء الليل ذهبت الشياطين . فسألته : وأين الملتقى غدا يا مولاى ؟ فأشار إلى الكونتيننتال وقال : فى هذا المنزل .

المحادثة الخامسة عشرة

قال الهدهد :

لما كان اليوم التالى ، أتيت نزل الكونتيننتال ، فجلست فوق ذلك البهو العظيم ، رقب طلعة النسر من بين صفوف المارة ؛ وكان السياح قد خرجوا إليه من غرفهم ، جلسوا كل جماعة فى ناحية ، يستمتعون بالشتاء تحت سماء القاهرة ، وينظرون حديقة وهى تتحلى بذهب الأصيل ، وتتجلى بالمنظر الجميل ؛ وكان يخالطهم هناك نفر ن شبان أبناء الكبراء فى العاصمة ، تدل عليهم طرابيشهم ، وما سواها من الأشياء هم والقوم فيه سواء ؛ وما هو إلا أن اطمأن بى المجلس ، حتى تراءى النسر يصعد سلم مبدياً عزة شماء، ومشيراً بأنفه نحو السماء، كأنه روزفلت يستعرض فى البحر ، ل غليوم يستعرض فى البر ، أو هو المتنبى فى هذا البيت من الشعر :

تغـرَّبَ لا مُسْـتـعظِمًـا غـيـرَ نفـسـه

ولا قـــابلا إلا لخـــالقِـــه حُكمـــا

فلما لمحنى أقبل نحوى بتهلل ، وأنا أضحك من هيئته ، وأستعظم كيد شيطانه ، قدمت له كرسيا ، فجلس جلسة استكبار واستخفاف ، كأن لم يقدم على أحد ؛ ازددت ضحكا من سيرته ، وقلت : هلا تواضع الحكيم ، وتأدب الرجل العليم !

قال: وهلا تلطفت فى الخطاب ، فما كنت أستوجب هذا العتاب . انظر إلى القوم ، ل جلست إلا كما يجلسون ، أو فعلت غير ما يفعلون ؟

قلت : صدقت يا مولاى ، ولكن القوم فى موقف احتقار لما حولهم ، ومن احتقر ستهتر ، فهم لا يعلمون من أمر هذه الأمة إلا أنها أشبه شىء بهؤلاء الحمّارة !

قال : إذن فما عمل هؤلاء الشبان ، وهم فيما أظن من المصريين ؟

قلت: هؤلاء أبناء كبراء القطر يا مولاى، صار لهم عادة فى هذه الأيام، أن يتنافسو فى معرفة السياح ، ويتهافتوا على صحبتهم ، ويستبقوا مرضاتهم !

قال : فما بالهم لا يشرفون أقداركم عند أصحابهم ؟

قلت : وكيف وهم إنما يتعرفون إليهم بالتبرؤ منا ، ثم لا يرونهم من أشيائنا إلا ما يغرهم بهذه الأمة ويخرجهم من وقارهم ؛ فإذا كان النهار أنشأوا لهم النزهة ، حوالى الأهرام يوما ، وعلى النيل يوما ، من مثل ما اعتادوا فى بلادهم ، وألفوا فى ديارهم ، من مركب ومأكل ، ولهو وقصف ؛ وإذا كان الليل دلوهم على عورة العاصمة ، وخرجوا بهم إلى كل مكان ، يصان عن ذكره اللسان ؛ ولو كانوا على شىء من الأدب أو قليل من العقل ، لوجدوا فى هذا البلد القديم ، العظيم من محاسن الآداب ، وغرر المناقب ، وكرائم الأشياء ، ونفائس المآثر ، وكثيراً من الحياة الشرقية تجلى بها فى أحسن صورها وأجمل معانيها ، مما تسر السياح رؤيته ، وتهمهم معرفته ، وتنفى به التهمة عن أدب المصريين ، ويحمل هؤلاء الأجانب على العدول عن البغض والحقارة ، إلى الحب والكرامة . انظر يا مولاى إلى هذه القبعة بين تلك الطرابيش . هذا شاب من نوابغ الفرنساويين فى الأدب ، قدم مصر فى هذا العام سائحا ، وهو يراسل الصحف السيارة فى بلاده ، وينشئ لقومه الروايات التى لا تفرغ الملاعب من تمثيلها ، عرفنى به أحد هؤلاء الشبان عفوا فى هذا النزل ، فجلست معه برهة ، ثم تركته ولقيت صاحبى بعد ذلك فقلت له : ألا تجمع هذا الشاب الفرنساوى بأبيك الباشا فى معاهد عزه ويساره ، ومجالس جلاله ووقاره ؛ فإنه أحوج إلى الوقوف على شىء من مظاهر الحياة الشرقية ، منه إلى إنكليزيتك وفرنساويتك وأتوموبيلك ؛ فاستضحك ثم لم يزد فى الجواب على أن قال: وماذا فى أبى بما يروق أو يسر؟ أتريد أن تضحك الإفرنج منها ؟ مع أن الباشا المشار إليه ممن امتد بهم الزمن فى خدمة هذا الملك ، ومعاشرة كبار الموظفين من الأجانب ، ومخالطة السفراء سفيرا بعد سفير ؛ وبيته فى مصر رفيع العماد ، يصلح ليقصده الملوك فى جملة القصاد .

قال الهدهد :

فما كدت أستتم حتى نهض النسر مغضبا ، ثم قال : هذا يا بنى هو الاحتلال ، فاخرج بنا من هذا المكان ، فللضر أهون منظرا عندى من هؤلاء الشبان .

فبرحنا النزل على هذه الصورة ، وجعلنا نتمشى حتى مررنا بتجارة واسعة على الأزبكية ، لمصرى من ذوى اليسار ، عظيم القدر بين التجار ، فدللت النسر عليها ، وحدثته حديث صاحبها ، فتهلل واهتز، ورغب فى الدخول فدخلنا ؛ وكان رب هذا البيت التجارى العظيم جالسا فى ناحية ، لا يلقى بالاً لمن دخل ، ولا يهمه من خرج ، اتكالاً على من معه من ذويه وغلمانه ؛ فحولت نظر النسر إليه ، فغضب غضبة فرعونية وقال : متى جلس التاجر لأهل الرغبة فى بضاعته جلوس الملك والحاشية قيام ؟

قلت : لعل له على هؤلاء الشبان اتكالاً يا مولاى .

قال : بل هو يدعوهم بهذا الربوض إلى الكسل ، ويعديهم منه الخمول ؛ ألا ترى المحل على سعة أطرافه ، وكثرة مشتملاته ، خلواً من الحركة العظيمة ، عطلاً من الحياة الكبيرة ؟

قلت : لا أزال أمهد عذراً للرجل يا مولاى ؛ فقد كان محله صغيرا فكبره ، وكان ماله قليلا فكثره ، وكان ذكره خاملا فأظهره ؛ ثم أقصر دون التناهى ؛ وهكذا تعود المصريون من دهرهم: يكتفى أحدهم بسبب من الغنى عن سائر الأسباب، وتهيئ السعادة له دارا فيقف دون الباب؛ وليس ما ترى فى صاحبنا من الانقباض والانكماش والتثاقل عن إظهار تجارته ، وإدارة هذا المحل العظيم حق إدارته ، إلا دلائل الإقصار ، وعلامات الاستغناء ؛ وتلك خلة يشاركه فيها سائر الموفقين السعداء من المصريين فى الزمن الحاضر .

قال : بئست الخلة ، ولا بد لى أن أتقدم إلى الرجل ببعض النصح والإرشاد فى هذا ومثله من شئون عمله .

قلت : وأين تعلمت التجارة يا مولاى حتى تعلمها رجالها ؟

قال : التاجر يا بنى تلميذ فى محله ، كل الواردين أساتذته ، تعلمه المرأة البلهاء إذا تقدمت إليه فى شراء إبرة ، ويؤدبه الطفل الصغير إذا تعلق به فى طلب لعبة فكيف لا يرشده الرجال ، وهم فى شغل مع التجار بالليل والنهار ، يرون من أحوالهم وسيرتهم فى محالهم ما لا يرى التاجر من أخيه ، ولو كان جاره الذى يليه .

قلت : إن كان لا بد يا مولاى ، فهذا الشاب المتوقد ذكاء ، المتدفق حياة ، الممتلئ من حب التجارة ، أولى بغالى نصحك ، وأحق بثمين إرشادك ؛ لأنه من جهة من أول الشباب ، وإنما يستثمر غرس التعليم فى هذا العمر النضير ، ومن جهة أخرى هو مخلوق لزمنٍ خلق هذا الشيخ لما قبله .

قال : صدقت ، فتوجه بى إليه ، وأعد ما أقوله لك بلسان الشياطين عليه .

قال الهدهد :

فقصدنا قصد الفتى ، وكان جالسا فنهض نشطا ينتظر الإشارة ، فقال له النسر بلسانى وهو هش به بش : اعلم يا بنى أن التاجر الحق يدخل الحانوت ليباشر عمله ، فلا يزال فيه على قدم حتى يخرج منه ليرتدى لباس الليل؛ لأنه فى هذا الموقف بين يدى الرازق ، وهو يحب المتأدبين ، وينفخ من روحه فى الناشطين ؛ فإن كان المشتغل بالتجارة صاحبها ، وجده المعامل حاضرا ، ووجده العامل ساهرا ، ووجد نفسه صابرا على العمل قادرا ؛ وإن كان من الأجراء فيها ، بلغ عند رئيسه منزلة فى الحب والثقة ، وتحبب إلى الناس بأدبه ، وتقرب إليهم بنشاطه ؛ فإذا وفق يوما ما لإنشاء محل وتأسيس تجارة ، مال الناس إليه ، وأقبلوا عليه ، وكانت سيرته المعلومة عندهم ، وأخلاقه المعروفة لديهم ، خير ما يعلن به أمره ، مهما كثرت أساليب الإعلان فى هذا الزمان .

قال الفتى : أعتذر إليك يا سيدى ، وأشكرك على هذه النصيحة ؛ والآن ماذا تأمر ؟

قال النسر : أريد دواة ، ولا أكتمك أننى كثير الكتابة ، فلا أصبر على دواة واحدة .

فجاءه الفتى بها غالية ، من صنعة عالية ؛ فقلبها ثم ردها إليه وتبسم فقال : لو استوصفتنى يا بنى كيف أريدها ، وبأى ثمن ، لكفيت نفسك تعب الرجوع بها من حيث ئت ؛ وإنه لأجلب لراحة المشترى أن يكثر عليه التاجر فى الأسئلة حال الطلب ، من ن يملأ الحانوت بين يديه بضاعة، ويضيع عليه جانبا عظيما من زمنه فى بحث وتنقيب، أمل وتقليب ؛ على أننى عرفتك بخفى الإشارة ماذا أريد ، إذ قلت لك إنى كثير الكتابة أصبر على دواة واحدة ، ومن كان كذلك لا يقتنى هذه الأداة من ذهب ولا فضة ، ربما استكثرها لنفسه من الخشب والنحاس .

قال الفتى : أشكرك يا سيدى على هذه النصيحة بعد النصيحة. ثم إنه عرض على أستاذ دواة كبيرة الحجم قليلة الثمن ، فرغب عنها ، فجاءه بأخرى أقل حجما وثمنا ، قلبها ثم دفعها ، فأتاه بثالثة فردها كذلك ، ثم ما زال حتى بدا عليه الملل ، وظهر عليه غضب ؛ وأحس الأستاذ ذلك منه ، فقال يخاطبه : لعلك من الملائكة يا بنى ، فقد صبرت لنصيحتين ، وأراك على استعداد لقبول الثالثة بالرغم مما بدا عليك من دلائل ضجر ؛ وقل من صبر من الناس لنصيحة واحدة . فاعلم يا بنى أن بيوت التجارة لا عمر ولا يرفع لها عماد ، حتى تكون أوسع من صدر الحليم ، وأرحب من فناء الكريم ، خف بالثقلاء ، ويدارى فيها السفهاء ، ويعالج البخلاء ، ويصبر للأغبياء ، ويتهافت فى الغلظاء ، ويحمل فيها الكبرياء ؛ والتاجر يا بنى قد يساوم ساعة فى الخرزة ثم لا يبيع ، وقد لا يساوم لحظة فى درة يبيعها ؛ وفى هذه الحالة يكون قد خسر فى الأولى أضعاف ما ربح فى الثانية ؛ إذ جملة ما يقال عنه : ليس فى حانوته خرزة تشترى ! ثم ناقش هو نفسه فيقول فى خاصتها : عجزت عن بيع خرزة ألذ الجدال يا بنى وأطيب مناقشة وأشهى المغالطة ، ما كان بين البائع والشارى ؛ لأنهما فى الحقيقة خداع تجاه خداع ، يصدم الحرص بينهما بالحرص ، ويحارب الطمع بالطمع ، ويقاتل الغش بالغش ؛ ولا ينفع التاجر فى هذا الموقف ولا يظهره على قرنه إلا الصبر ؛ فلعلك بعد هذه النصيحة من التجار الصابرين .

قال: سأصبر يا مولاى حتى ترانى أرضى المريض والأفين، والشحيح الضنين .

قال : بورك فيك يا بنى ؛ والآن عندى نصـائح أخر ربما نفعتك فى عملك هذا ؛ فهل لك فيها ؟

قال الفتى : هات يا مولاى فإنى مستمع إن شاء الله متبع .

قال : التجارة يا بنى آية عصركم هذا الكبرى ، أعلى الممالك ما قام عليها ، وأوسع الدول ما اتسع منها ، وما من ملك ولا أمير ولا حاكم ولا وزير عرف الغنى فى هذا الزمن إلا عرفه من طريق التجارة ؛ فهى صيد يطلبه الجميع غير أن الشباك مختلفات . أغنياء هذا العالم يتاجرون بمالهم فى السر ، وأنتم معاشر العمال تتاجرون بعملكم فى الجهر ؛ أنت تعمل لمستأجرك هذا ، وهو يعمل لأناس هم أوسع منه تجارة ، وهؤلاء يعملون لبيوت التجارة من الطراز الأول فى العالم ، وتلك تعمل لأصحاب الملايين من بيوت الملك والإمارة وأسر المجد والشرف وجماعة الساسة والقواد وسائر عظماء الرجال ، سواء اشتهر عنهم أنهم من أصحاب الأموال أو خفى أمرهم على الناس ؛ إذا عملت ذلك يا بنى عرفت نفسك قدرها ، إذ يرسخ فى اعتقادك أن الملك والتاجر ربما كانا شريكين فى تجارة ولا يعلم أحدهما بالآخر ، هذا يؤسس الشركة بماله وسلطانه فى الخفاء ، وهذا يقيمها بعمله وأمانته فى الجهر ؛ ومتى احترم الإنسان عمله تولد عن هذا الاحترام حب العمل ، وهو سر النجاح ؛ فأحبب يا بنى التجارة تجد عناءها مع الحب راحة ، وتُلفِ صعبها معه سهلا ؛ واجعل الأمانة فيها رأس مالك ، ولو كان لك شم الجبال من رءوس الأموال ؛ لأن دولاب التجارة يدور بالمال مرة ، ويدور بالأمانة والذمة ألف مرة ؛ وكن يا بنى فى هذا المحل كأنه لك فى اعتقاد ، وكأنك تمر به مرا فى اعتقاد آخر ، وبعبارة أصرح : كن كثير العمل ، كبير الأمل ، لا تقف فى الغنى عند نهاية ، ولا تتمهل فى المجد عند غاية ؛ واعلم أن كل ما يفيض عن قدر الإنسان وشخصه من سعة الثروة ورفعة الذكر ، إنما يفيض على وطنه وقومه ؛ وإن طالبتنى بمثال حاضر فهذا «كارنجى» الأمريكى ، جمع بالأمس سفن التجارة فى لجج الغرب وبحار الشرق تحت راية أمريكا التجارية ، مع أن المجد والثراء من أن يستزاد هذا الرجل براء ؛ وإذا ذكر التوفيق يا بنى أو خطرت السعادة على بالك ، أو حدثوك عن قيام الجد ويمن الأمر وإقبال الدنيا ، فقل : ذلك فضل السماء تؤتيه من تشاء ؛ كن كربان الباخرة :

ملأها فحما واستوثق من استقامة إبرتها وسلامة آلاتها وكمال أدواتها ، ثم خرج بها إلى عالم الماء غير آخذ موثقًا على الرياح والأنواء، ولا فى يده صك بالوصول من القضاء .

قال الهدهد :

وبينما الأستاذ ينثر من حلى نصائحه ودرر وصاياه على سمع الغلام ، وهو يصغى لما يقول ويفهمه فهم ذكى فى طباعه حب الاستفادة ، انسلخ رب التجارة من كرسيه ثم تقدم نحونا وسأل الغلام : من هذا الذى شغلك ساعة زمان وماذا يريد ؟ قال : يريد دواة ولا يكاد يجد طلبته. فاستحوذ على التاجر الغضب وقال يعنف الفتى : أمن أجل دواة تؤخر شغلك ساعة ، وتنقطع لهذين دون الجماعة ؟ فعبس الأستاذ وتولى ، وهمس فى أذنى بأن قال : هذا يا بنى هو الاحتلال !

ثم خرجنا فاندفعنا نمشى حتى مررنا بمجلد كتب على الأزبكية أيضا ، فاستوقف النسر حقارة حانوته ومنظره الزرى؛ فسألنى: لمن الحانوت؟ قلت : لرجل منا يا مولاى . قال : ما يصنع فيها ؟ قلت : تجليد الكتب وتغليف (الرسائل) لكى تحفظ زمنا طويلا ، وتكون للمكاتب زينة . قال : هل لك فى الدخول ؟ قلت : انظر ماذا تأمر يا مولاى .

قال : انظر إلى الشمس كيف مالت ، وإلى دولة النهار كيف زالت . ثم تمطى كعادته وتثاءب ، وقال كلمته المألوفة إذا جاء الليل ذهبت الشياطين فإذا كان الغد فالقنى فى أصيله على باب هذا الحانوت .

* * *

قال الهدهد :

ثم لم أر لذلك الشبح أثرا ، فمضيت فى سبيلى وأنا أذكر التاجر والغلام ، وروحانية ذلك الكلام ، وأشتهى على العناية أن تستخر لعوام هذه الأمة من خواصها مرشدين ، وتبعث لجهلائها المصابيح من العلماء الهادين ، وأسأل الله أن يخرج عباده من الظلمات إلى النور .

المحتـــويات

تمهـيد – محمد سعيد العريان 433
مقـدمة – خليل مطران 437
إهداء الرسالة 439
المحـــادثة الأولى 440
المحـادثة الثانيـة 447
المحـادثة الثـالثـة 457
المحـادثة الرابعـة 465
المحادثة الخامسة 473
المحادثة السادسة 481
المحـادثة السابعـة 489
المحـــادثة الثـامنة 497
المحادثة التـاسعة 505
المحادثة العـاشرة 513
المحادثة الحادية عشرة 521
المحادثة الثانية عشرة 527
المحادثة الثالثة عشرة 535
المحادثة الرابعة عشرة 543
المحادثة الخامسة عشرة 551

استلهام التراث العربى

ورقة الآس

قصة تاريخية

تعريف

بقلم : محمد سعيد العريان

هذه قصة من التاريخ .....

أنشأها الشاعر أحمد شوقى فى مطلع هذا القرن ، وهو فى الثلاثين من عمره أو حوالى ذلك ، ولم أقرأها مطبوعة من قبل ، وإنما كان أول عهدى بها ورقات مخطوطة فى كراسات . وقد نشر لشوقى فى التاريخ الذى أنشأ فيه هذه القصة قصص مثلها ، منها "لادياس" و"عذراء الهند" ، ومحاولات فنية أخرى تشبه القصة ، منها "محاورات بنتاءور" ، فلعله حين أنشأ هذه القصة فى ذلك التاريخ أرادها حلقة من تلك السلسلة ، ولكنى - كما قدمت - لم أقرأها منشورة قبل أن تقع لى مخطوطة فى تلك الورقات ...

وأستطيع أن أزعم - كما زعمت فى التعريف بقصة أخرى لشوقى من تلك السلسلة - أن شوقى حين أنشأ قصته هذه كان يعيش فى جو بلاده، فقد كانت مصر - فى ذلك التاريخ فى مرحلة كفاح تفرض على المكافحين الحذر من الخيانة ، ومن الدسيسة ، ومن أصحاب المطامع الذين يتراءون فى مجال الكفاح كأبطال ونفوسهم ملوثة بإثم الخيانة ؛ فهى قصة تسجيل وقصة توجيه فى وقت معًا ...

هى قصة تسجيل من حيث هى تاريخ يروى على وجهه أو على وجه قريب من وجهه ؛ ليسجل الواقع الذى كان فى يوم ما حادثة من حوادث التاريخ كما وقع أو كما تخيله المؤلف ...

وهى قصة توجيه من حيث هى عرض لصورة بشعة من صور الخيانة والغدر يمكن أن يعتبر بها أهل الصلاح وأهل الخيانة على السواء ؛ أما أهل الصلاح فيحذرون ويتشددون فى الحذر ليتوقوا أسباب الكيد ، وأما أهل الخيانة فيعرفون كيف يمكن أن يصير إليه أمرهم وأمر من يحبونهم من قومهم إن استرسلوا فيما هم فيه من إثم وشر، فلعل المعرفة أن تهب لهم الموعظة فتردهم إلى يقظة الضمير وإلى التوبة مما هم فيه من إثم وشر ...

* * *

وقد قدمت القول إن هذه قصة من التاريخ ...

عنيت تاريخ العرب فى الجاهلية قبل أن يوحدهم الإسلام ويطهرهم مما كانوا فيه من آثام ويردهم إلى الإنسانية ويحدد لهم مثلهم العليا ...

هذا زمانها ...

أما مكانها ففى مملكة "الحضر" من أرض العرب المتاخمة لبلاد فارس ، وكان لفارس قبل الإسلام مطامع فى بلاد العرب ومجال استعمارى ...

فى ذلك الزمان، فى ذلك المكان، يروى المؤرخون القدماء قصة "النضيرة" بنت ملك الحضر . كيف خانت أباها وقومها حين دهمتهم خيل فارس وحاصرت قلعتهم حصاراً يفرض على أهلها الاستسلام أو يموتوا جوعا ...

قال أهل التاريخ : وكانت النضيرة واحدة أبيها ، وعزيزة قومها ، وموضع الكرامة والتقدير فى نفس كل حضرى ؛ ولكن ذلك لم يمنعها أن تستسلم لبعض وساوس الأنثى، فخانت أباها ، وخانت قومها ، ويسرت للعدو أن يطأ بلادها ويستذل أهلها ، لتكون من بعد زوجة لسيد فارس ؛ ثم كانت خاتمتها ؛ وكانت بداية هذه الخاتمة ورقة آس فى فراشها شاكتها وأقضت مضجعها فأرقتها ... لأن أباها الذى خانته وأعانت عليه العدو نشأها منذ الطفولة نشأة ناعمة مترفة تبلغ الغاية من النعيم والترف بحيث تكون ورقة آس فى فراشها حدثًا خطيراً فى حياتها يؤرق ويقض المضجع !...

ولا أريد أن أصف ماذا كان بعد ذلك ، لتبقى للقصة طرافتها وجدتها ، فلا يعرف قارئها آخرتها من أولها ...

هذه القصة التى ذكرها المؤرخون القدماء فى بضعة أسطر ، كانت نواة هذه القصة التى كتبها شوقى فى مطلع هذا القرن للتسجيل الفنى أو للتوجيه القومى .

والقصص التاريخى فنون ومذاهب ، ولشوقى فى هذه القصة فنه ومذهبه . لقد اخترع أحداثًا وأشخاصًا لم يذكرها أهل التاريخ ، ولكنه لم يخرج فى القصة بجملتها عما رواه المؤرخون القدماء ؛ فهو قد ملأ بعض الفجوات ولكنه لم يهدم الربى ، ولم ينكر شيئًا أثبته المؤرخون القدماء ...

* * *

ولشوقى فنون فى التعبير فى الشعر وفى النثر ؛ وقد عرف قراء العربية فنونًا من نثره العالى ، فى بعض ما أنشأ بعد الخمسين من ألوان النثر الفنى ؛ ولكنّ فى نثر هذه القصة فنًا غير ذلك الفن ، وهو فن يستحق الدراسة ، لا لذاته ، بل لأنه حلقة من سلسلة التطور فى التعبير الفنى عند شوقى ، منذ بدأ يقص أمثال هذه القصة فى الثلاثين من عمره ، إلى أن بلغ غايته فى المرحلة الأخيرة من مراحل كفاحه الأدبى ...

قلت مرة فى بعض حديثى إلى طائفة من طلاب الأدب: إن الأدب يصنع التاريخ!..

قال بعض من سمع حديثى : أتعنى أن الأديب يمكن أن يغير بفنه حوادث التاريخ الذى مضى ؟

قلت : لست أعنى هذا ... إنما عنيت أن الأديب الحق هو الذى ينشئ أدبًا يحدث الانفعال العام ، فيكون من أثر هذا الانفعال انتفاضات يمكن أن تصنع تاريخًا جديدًا ، أو لا بد أن تصنع تاريخًا جديدًا .

الآن أقول : لقد كان شوقى أديبًا يصنع التاريخ ... تاريخ الماضى وتاريخًا فى المستقبل .

فى هذه القصة ، صنع شوقى بعض تاريخ الماضى صنعة جديدة ...

وهو – إلى ذلك – حين أنشأها ، كان يحاول أن يصنع لأمته تاريخًا جديدًا ، ولعله قد صنع .

إن بعض الدروس التى نتعلمها من مثل هذه القصة ، يمكن أن تكون قوة من قوى التوجيه للشعب نحو مثل عليا يتأثر بها مستقبل الشعب ...

ومهما يكن من أمر ، فقد كان شوقى من أدباء عصرنا الذين شاركوا بتوجيههم الأدبى فى بناء النهضة التى نسعى اليوم لاستكمال أسبابها لتحقيق مكانة الأمة العربية المتحدة .

محمد سعيد العريان

الفصل الأول

كان من عادة "النضيرة" بنت الضيزن ملك الحضر ، منذ حاصر سابور وجنوده بلاد أبيها ، أن تخرج فى الصباح إلى ربض المدينة ، فتلبث برهة فى بعض البروج ، ترافقها وصيفتان لها تدعى إحداهما "أسماء" وكانت على منادمتها ؛ وتسمى الأخرى "هند" . وكانت على لباسها وحليها ؛ ويسير فى خدمتها من الرجال تابع من قدماء الخدم فى القصر ، يقال له "قصير الفارسى" ولد فى الحضر من أب فارسى فجاء مشوه الخلقة ، قصير القامة ، مع قليل حدب ؛ وكان مضحك الزى والإشارة ، مزاحًا فاكهًا لطيف العبارة ، انتدب لإضحاك الأميرة صغيرة ، ثم انقطع لخدمتها كبيرة .

وكان البرج الذى اعتادته النضيرة ينعت بعقاب ، لأنه أسمى مواقع الحصن وأجلها ، وأعزها على العدو وأطولها ؛ وكان من فوق الباب الشرقى يحميه ، ويمنع الخندق الذى يليه .

فبينما الأميرة ذات يوم هناك ، تطل آونة على الديار ، وهى فى ضيقة الحصار ، وشدة الأسار ، يملك عليها الأبواب والأسوار ، جيش من الفرس جرار ، وتنظر آونة إلى الجيش المحاصر يموج كأنه النمل ، فى مضارب تبدو من بعد كأنها القطار ، إذ مثل حامى الموقع لديها ، فحياها ودعا لها ، ثم أنهى إليها أن سابور شوهد من الباب الغربى خارجًا فى موكبه ، يتعهد مضارب جيشه فى الظاهر ، ويخبر حال الخنادق فى الباطن ، وأنه لا يلبث أن يمر من تحت "عقاب" فتبصره الأميرة من قرب .

وكان الوقت ضحى، ولا بد للأميرة أن تعود إلى القصر ، حيث الملك فى انتظارها، وهى واحدته التى لا يستطيع عنها صبرًا فهمّت ، فتشبثت بها الوصيفتان ألا تبرح

البرج قبل أن يمر سابور ، وأخذت أسماء على نفسها أن تمهد عند الملك عذرهن فى التأخير ، فقبلت النضيرة ...

ودخلت الفتيات الثلاث فى الحديث ، فقالت أسماء لهند: ما أعظم حذقك ، وأحسن ذوقك ، وأعرفك بالأجمل من الزى ، والأزين من الحلى ؛ لقد أخرجت الأميرة اليوم لأهل الحضر كما تخرج السماء البدر ، أو الرياض بديع الزهر ؛ فلو رفع سابور الطرف فرأى هذا الجمال الفائق ، فى هذا الزى الشائق ، لأتاه هواها قبل أن يرتد إليه طرفه.

هند : لو نيط بإحدى نساء البدو أن تزين الأميرة لما زادتها فى حسنها هذا ولا تنقصها منه .

أسماء : تجمع الزينة المحاسن فى بنات الملوك . كما تجمع اللآلئ السلوك ؛ وهى فى الحالين كريمة ، لا يزيدها النظام قيمة ؛ على أن للملك جلالا لا بد أن يمثل للناس ، وما مثل عز هذا الملك بأفخر من هذا التاج ، ولا أبهى من هذه الحلة ؛ وكأنى بسابور قد لمح هذا المثال ، فى الجمال والجلال ، فافتتن فى الحال !

هند : لا يسمعنك "ابن بكر" إذ تذكرين سابور عند الأميرة فى موضع العشق والغرام ، فيروى سيفه من دمك ، إلا أن تشفع لك الأميرة لأنه لا يرد لها شفاعة ولا يعصى لها أمرًا .

أسماء : أما ورأس الملك لما قلت إلا الحق ، ولا تمنيت لسيدتى النضيرة إلا ما تستحق إذ أين من البازى العصفور ، وأين ابن بكر من سابور !

هند : لقد أزريت ببطل الحضر وحاميها الذى من حقه أن يكرم ، فهو الجرىء الجميل ، الحامل الأمر عن الملك ، الساهر على حفظ الحضر منذ حولين لا يذوق الغمض ولا يستريح ...

فدخلت النضيرة فى الحديث فقالت : إن لابن بكر لحرمة نرعاها ، وهمة فى الدفاع عن الحضر يذكرها أبى ولا ينكرها أحد ، وإنه لأعظم أهل الحضر مقداراً ، ولا أرى أسماء إلا مازحة كدأبها فلا يغضبك حديثها يا هند .

أسماء : هذا شأن يا سيدتى وما نحن فيه شأن آخر ؛ إنى أراك بعين ما رأيت بها إنسية فى الأرض ، وعندى أنه قد فاتك ظلماً أن تكونى بنت سابور، على تأخر ميلاده ؛ فمن العدل مثلاً أن تكونى زوجة التى تمثل فى بابها الملكات ، وتقبل الأرض بين يديها الأميرات ؛ وإذا صدق ما يهمس به فى المدينة منذ شارفها هذا الجيش الجرار ، من أن سابور ما قدم لفتح الحضر إلا من أجلك ، فأنت له لا محالة ؛ لأن الحضر وإن طال المدى ستقع فى قبضة الفرس ، ولا ينقذها من يدهم العسراء يومئذ سواك!

هند : وما الذى منع سابور من مكاشفة الملك بذلك من أول يوم ؟

أسماء : ما هذا الجهل بالأمور يا هند ، وأنت جارية الضيزن المقربة ، ووصيفة النضيرة المقدمة ؛ ألم تعلمى أن سابور طلب من الملك فى أول مجيئه أن يبيحه الحضر يدخلها من غير قتال ، وهو يستعمله عليها ولا يسومه إلا الجزية ...

ولولا أن ابن بكر غالط وغالظ ، وعارض وغايظ . وحمل الملك على المخاشنة وأدخل فى اعتقاده أن العرب لا يسلمون بما عرض سابور عليه ، لانتهى الأمر فى نهاية الحصار بما فيه حقن الدماء وبقاء الحضر آمنة من الجوع والخوف، وانتهاء ملك الممالك الوسيعة والبلاد الكثر إلى سيدتنا النضيرة، تحكم فيها من أقاصيها إلى أقاصيها .

ثم أمسكت الوصيفة عن الكلام وهى تقول فى نفسها : الآن كدت لك أيها القاسى القلب ، الجافى الفعال ، البخيل علىّ بالنظرة المشغول عنى بالنضيرة ؟ وإنها مثلك فى عنادك واستكبارك ، وقد أخرجت حبك من فؤادها فلن يدخله مرّة ثانية !

ما انتهت أسماء من الكلام حتى أطرقت النضيرة تفكر فى أبيها وقد صغر فى عينيها ، وفى ملك الحضر وقد قل لديها ، وفى ابن بكر وقد بغض إليها وكان قصير الفارسى فى ناحية مشتغلاً عن سيدته وصاحبتيها وما هن فيه من جد الحديث ينظر إلى جانب الحصن وانتظار ظهور سابور فى مواكبه ، ليرى ملكه وسيده الفارس لأول مرة، وينظر قومه الفرس ، فحين لمح طليعة الموكب التفت إلى النضيرة ووصيفتها وصاح بهن يقول : ها سابور قد أقبل فلا تفتكن رؤيته!

وعندئذ تقصى الفتيات نظرهن ، فكشفن حالاً ، ورأين جمالاً وجلالاً : رأين خيلاً تركض ، وجيوشًا تزجى ، وبيضًا تلمع ، وأسنة تزهر ، وموكبًا ينحسر فيه الطرف ، يزينه سابور وهو من خيله وفوارسها فى أعز هالة ، يحيط بهم الأجناد ونخب القواد .

ومازال الموكب يتقدم وتتبين وجوهه وتتوضح أشباحه ، حتى صار دون عقاب ينظر إليه من قرب ، وهناك عرفت البنات سابور بخوذة الملك ، وهى كقرص الشمس أو أشرق ، ثم ميزن سائر زيه وحققن ذاته ، فقالت أسماء : هكذا العز وإلا فلا ... انظرى يا مولاتى إلى هذا الشاب فى بدايته ، وهذا الجمال عند غايته ، وهذا الملك فى كمال أبهته ، وهذا السلطان فى تمام عظمته ... ليس هذا بشرًا ، إن هذا إلا الجوزاء ، وهذا الأدهم من تحته قطعة من الظلماء ... أين ابن بكر من هذا يا هند ؟ أعلمت أن صاحبك أصغر من أن يركب فى مثل هذا الموكب ! أرأيت كيف يكون الملوك والقواد ؟

هند : القوم كما تصفين يا أسماء ، وقد دهشت مثلك لما رأيت ؛ لكن للناس فيما يعشقون مذاهب، فلصعلوك من أهل الحضر أحب إلىّ من هؤلاء...

قال قصير الفارسى : إن الفرس تمهلوا يا مولاتى، وأراهم يرفعون إلينا الأبصار.

أســـمـــاء : بل قد وقفوا يا مولاتى ، وهذا سابور يشير نحوك بوجهه ، ويحدق إليك ويحادث القائد الذى عن يمينه فى أمرك !

هـــنـــد : إن هـذا الـذى عـن يمينـه ليساويه فى جمـاله ، ولم تر عينى قط أجمل منهما .

أســـمـــاء : أراك ترجعين إلى الحق فى أمر القوم ، فاشتهى على مولاتنا النضيرة إن هى حكمت فى قصر سابور أن تزوجك من هذا الذى أكبرت ؛ أما أنا فلا أرضى بغير أخى الملك قسما !

هـــنـــد : وأين هو ؟ إنى لا أراه فى الموكب !

أســـمـــاء : إنه فى حلقة وراء الملك ينظر إلينا ، وقد عرفته بشعار الإمارة ، ولعله أخوه الأصغر الذى يقال إنه لا يفارقه فى غزواته وفتوحاته .

هـــنـــد : الآن أبصرته ، وإنه ليانع تستكثر له العشرون عمراً، وهو أكثر من الملك بشاشة وإن لم يكن أقل منه جمالاً .

أســـمـــاء : وأنا لا أحب فى الرجال إلا الصبا والبشاشة !

وكانت نساء العرب فى هذه الأثناء فى مكامن أزواجهن وأقاربهن من الحصن ينشدون أشعار الحماسة ، ويرمين ناس الموكب بالحجارة فلا تصيبهم ويضحكون من ذلك ؛ ولو علمن أن بنت الضيزن وأترابها يتعشقن الفرس ويتخيرن الأزواج فى المستقبل منهم ويتذاكرن فى سقوط الحضر قبل أوانه . لما رضين لرجالهن بالقتل ولصبيتهن بالجوع فداء للضيزن وملكه وأهله ؛ لكن على هذا مضت الأيام منذ القدم : عبث الملوك وغفلة الأمم !

أما النضيرة فظلت مطروفة العين بسابور لا تنظر إلا إليه ، وقد استرق حسنه حواسها وجمعها فى البصر فلم تنبس ولم تسمع ولم تبد حراكا، إلى أن ماج الموكب للمسير ، فلم تزد على أن قالت : (ما أجمله) ثم انثنت آيبة إلى القصر تتبعها وصيفتاها ومضحكها قصير .

الفصل الثانى

أسفر الصبح ، وإذا قصر الضيزن فى الحضر على ما به من جمال ضربت به الأمثال ، ونفاسة سارت بذكرها الأنباء وتنافس فى وصفها الشعراء - مسلوب الرونق مفقود البهجة عطل من البشاشة ، تبدو عليه الكآبة ، وتملأ جوانبه وقبابه ، كأنما خلا من أهله وهو منهم آهل ، وكأن الملك زال عنهم وهو إلى حين غير زائل ؛ وهكذا حاله منذ حاصر سابور المدينة فأذلها وضيّق عليها المذاهب كلها ...

وكان القصر يشرف على المعاقل والحصون ، إشراف الحواجب على العيون ؛ وكانت له قباب تناغى السحاب ، تحتها أركان مشيدة ، ودعائم موصدة ، ومقاصير مربعة منضدة ، محصورة فيها الطرائف ، مقصورة عليها الزخارف ، من محاسن النقوش وأحاسن الخطوط وبهى الخز والديباج ، ونقى المرمر والعاج وكان يطل من هذه المقاصير الفاخرة على الرياض الناضرة ، والحدائق الزاهية الزاهرة ، تتلاقى فيها الغدران والجداول ، وتجيب القمارى بها البلابل ، وكأنما تتناغى بقول القائل :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل !

وكان فى انتظار خروج الملك فى إحدى تلك الغرف العالية ، والحجرات الكريمة الغالية ، صاحبه المقرب ، وحاجبه المحبب ، أبو سعد القضاعى ؛ وكان رجلا يناهز الخمسين ؛ بين الطويل والقصير ، والسمين والضئيل ، مليح الطلعة حسن الزى ، لطيف الحديث ؛ بلغ تلك المكانة فى القصر ، وتلك المنزلة فى القرب عند الملك بالمسايرة والمجازاة والتأمين ، فإذا قال له الملك : هذا الصبح ليل . قال : نعم ، وفيه بدر التم طالع ! وإذا قال له : هذا الليل صبح قال : نعم ، والشمس فيه بازغة ! ...

ولعل الناس على الحق فى إجماعهم على أن هذا الخلق أحب شىء إلى الكبراء مهما رزقوا من الحجا وأوتوا من العقل !

وكان القضاعى يتمشى فى الردهة التى يجتازها الملك خارجًا من مقاصير النساء إلى مقاصير الرجال ، وقد خلا هناك فجعل يحدث نفسه وهى تحدثه ، فقال : ويحك ساطرون ! زال ملكك، وولت دولتك ، ولئن بقيت على إبائك مصرًا ما حييت على الدفاع، فأنت مقتول ، وبك أصحابك يلحقون ولن نجد لنا عند سابور شفيعًا ؛ فما علىّ إذا أضعتك فى إحياء نفسى ، وخنتك ووفيت لها ، وبدلت دولة بدولة ، وتعوضت عن سيد بخير منه جنابًا وأوسع نعمة ؟ أنفذتنى إليه فى بداية الحرب وأول زمن الحصار ، ثم أرسلتنى إليه والحصار قد امتد والدفاع قد طال عليه الأمد ، فالتقانى أحسن ما يلتقى الملوك سفراء المذاكرة ورسلاء المفاوضة ولما أديت إليه رسالة النضيرة التى هى أرجح منك عقلاً وأحسن نظرًا فى العواقب وعرضت عليه أنها تخفى هوى له فى الضلوع وأنه شغفها حبًا حملنى إليها رسالة يقابل فيها ذكر الحب بالحب ، ويظهر العطف عليها ويعدها خيرًا إذا هى استطاعت حقن الدماء بلطف الحيلة وحسن الدهاء . فأصبحت لا أخشى ضيرًا فى الحال ، ولا يوجسنى سوء المآل ؛ إذ بينما أنا معك فى إبائك العقيم ، إذا أنا مع النضيرة فى سعيها الخفى ، إذا أنا مع سابور قبل الفتح وبعده ، وسوف أحل عنده مكانًا تحسدنى عليه فارس والحضر !

وبينما أبو سعد على هذه الحال ، يعلل النفس بالآمال ، وهى تمده فى الضلال ، إذ أقبل حسان بن بكر وزير الضيزن وزعيم جيوش الحضر ؛ وكان فتى فى الثلاثين لم يجاوز حدها ، وكان زينة الشباب خُلقًا وخَلقًا ، إذا أقبل كان أجلّ من البدر ، وإذا هم كان أجلّ من الدهر ، وإذا حدث فدون بيانه السحر ؛ وكان رجل صدق سليم النية ، يخادع فيخدع ، ويدفع فيندفع ؛ وهذه الصفة وإن كانت مما ينكر على الوزراء ؛ ولا يتنفع كثيرًا فى خدمة الملوك والأمراء إلا أن إقبال ابن بكر وقيام جده ذللا له على الدوام الصعاب ، وصيرا منصبه فى القصر أمنع من عقاب .

وبالجد تخوض البحر إن شئت بلا فلك

به صار ابن يعقوب من الجب إلى الملك !

وكان الوزير مملوء القلب من حبين ، متورع النفس بين غرامين : هوى الديار التى رقى فى خدمتها تلك المنزلة العليا وتقلب فى نعمائها ، وهوى النضيرة بنت ساطرون ملك الحضر .

أما الديار فكانت فى شدة الحصار ، وعلى خطر السقوط أو الدمار ، وكان وحده المنتدب لتحريرها ، المسئول عن مصيرها فمثله كالطبيب الماهر يبلى ابنه بين عينيه وليس له فيه حيلة .

وأما بنت الضيزن فقد عرفها الوزير صغيرة ، فلما كبرت كثر اجتماعه بها فى حضرة الملك ، وطال نظره إليها وسماعه حديثها ، لأنها كانت واحدة أبيها وكل ما أبقى الدهر من عقبه وكان يهيئها لملك الحضر من بعده ، ويرفع الحجب بينها وبين سوّاس الملك وعظماء الدولة وحماة الديار ؛ فما زال ابن بكر يدنو إليها وهى تدنيه ، حتى تدرجا من التودد إلى أوائل العشق المكتوم : يسكت عنه اللسان ، وتنطق به العينان ؛ فلبثا على ذلك برهة من الزمن قبل الحصار وبعده ، إلى أن غير الأميرة شىء ، فغفلت عن الحب وحالت ، وأعرضت عن ابن بكر ومالت ، فى وقت هو فيه محتاج إلى ابتسامة تملؤه أملاً وقوة ، وعطفة ممن يهوى تزيده فتوة على فتوة ؛ وهكذا قلب العذراء قلب هواء ...

فحين رآه أبو سعد مقبلاً قال فى نفسه ما لى لا أخادع هذا أيضًا فإن لم يصبنى منه خير فلا ينالنى شره ، فإن نفوس أهل الحضر بيده حتى سقوط الحصن ، ولا آمنه فى هذه الأثناء أن يعلم على آثار الخيانة ، فأذهب غير بالغ دنيا ولا مدرك آخرة .

ثم سارع إلى لقائه ، فابتدر الوزير خطابه فقال : عم صباحًا أبا سعد .

أبو سعد : نعم صباحك يا مولاى ، عشت للحضر تحميها !

الوزير : ما بال الملك لم يخرج إليكم ، وما عودكم مثل هذا البطء عنكم؟

أبو سعد : علمت يا مولاى أن الأميرة باتت ليلها مسهدة تتضور فى فراشها ، وأن الملك ساهرها حتى زال عنها الألم وأخذها النوم ، ثم انثنى إلى مضاجعه فلعله الآن يستوفى قسطه من الرقاد .

الوزير : ما عهدنا الملك تؤرقه النضيرة ولا تؤرقه الحضر . أهذا وقت النوم إلى الضحى يا أبا سعد ؟

أبو سعد : من كان على مثل الوزير اعتماده نام ليله ونهاره على أنك يا مولاى أعرف الناس بوجد الملك على النضيرة ومقدار حنوه عليها نمى إليه من أيام أن الغزال ندر فى المدينة منذ حاصرها العدو ، ولا بد للأميرة أن تطعم مخه كما تعودت ، فدخل فى الغضب ، وكنت حاضراً يا مولاى ، فخيل إلى أن سيأمر بعظامى فينزع المخ منها ثم يقدمه للأميرة ... فاستضحك الوزير وقال : ما كان الملك يبلغ به الغضب حتى يتشابه عليه الغزال وأبو سعد ... دخلت عليه يوم ذاك فخبرنى الخبر وسألنى : هل من بأس فى أن نرسل إلى سابور نطلب منه شيئًا من الغزال للتداوى ؟ فقلت له : أمر سهل ، لأن مثل هذا التجامل جائز بين الملوك فى زمن الحرب ، فاختارك على الفور لهذه المهمة ، ووافقته عى ذلك ، لأنك من الحجاب لا القواد ، فلا نخشى منك خيانة ولا يظن سابور بك التجسس .

أبو سعد : لقد دخلت عليه يومئذ وأنا موقن بالخروج من الدنيا ، وخرجت من عنده وكأنما بعثت ؛ إذ قيل لى إنه فى جلد نمر من الغضب ؛ وأشار على أصحابه ألا أطيل الجلوس ، وأن أختصر فى شرح ما جئت فيه ...

الوزير : وكيف وجدته يا أبا سعد ؟

أبو سعد : أقبح منظراً من ضبع يا مولاى ؛ ليس له منك الرونق ولا المهابة !

الـــوزيـــر : ظلمت كسرى يا أبا سعد ؛ إن الإجماع أنه من أجمل الرجال ، وقد نظرت إليه بين حراسه وكبار عسكره فكان أحسنهم جميعًا .

بو ســعــد : لقد رأيته وهو فى حال الغضب ، فلعله قبح بعينى ؛ وأنت تغضب فلا تنقص بشراً ولا تزيد مهابة !

الـــوزيـــر : وما هذا المرض الذى طال على الأميرة ؟ فقد حدثنى الملك من أيام مضت أنها قضت ليلتين متواليتين لم تذق النوم .

بو ســعــد : رآها الطبيب يا مولاى فقال بها الأرق ؛ ورأتها العجائز فقلن بها سحر ويقال همسا فى القصر ...

ثم سكت وتلفت ، فارتاب الوزير بهذا السكوت بغته وقال : ما أرابك منى يا أبا سعد حتى قطعت الحديث بعد ما بدأت ؟

بو ســعــد : بل أنا أستوثق من خلوتنا يا مولاى . يتناقل ناس القصر همسا أن النضيرة عاشقة ...

فكاد ابن بكر يجن من هذا الخبر ، وقال : عاشقة ! ومن ترى تعشق ؟

بو ســعــد : لم يذكر أحد حتى الآن ، إلا أن الظنون مجمعة على أنها تعشق ...

وسكت مطرقا يبتسم ؛ فازداد الوزير جنونًا على جنون ، وأقبل على أبى سعد مغضبًا يقول : تعشق من يا أبا سعد ؟ أخبرنى !

بو ســعــد : مولانا الوزير !

ففعل هذا الجواب بغضب الوزير ما يفعل الماء بجذوة النار ، وقال : يا حبذا لو صدقت الظنون يا أبا سعد !

الفصل الثالث

وفى هذه الأثناء أقبل الضيزن مضطرب المشية كاسف البال ، تبدو عليه علامات الأرق والكلال ؛ فمشى الوزير إليه فقبّل يده ، وحذا أبو سعد حذوه ؛ فالتفت الملك إلى ابن بكر وقال : لقد أبطأت عنك يا ابن بكر ، فكيف حالنا والحوادث ؟

ابن بكر : جعلت فداء الملك . الحال كما هى ، والحوادث لم تحرجنا إلى الآن ؛ فالأقوات عندنا موفورة ، والرعية طال عليهم الحصار فسكنوا إليه ، كما يطول المرض على المريض فيصبر عليه ؛ والعرب يزدادون صبراً ورباطة جأش ، والحصن ممتنع بهم امتناع الآجام بالأسود .

الملك : إذن لنا يا ابن بكر أن نرقب الفرج ونرجو أن تحول الحال إلى خير مما نحن فيه وأصلح لنا وللحضر .

ابن بكر : فى استطاعة العرب يا مولاى أن يصبروا على الحصار عاما آخر ، وأن يستميتوا فى الدفاع بعد ذلك عاماً مثله ؛ فكيف لا نرجو أن يحدث فى غضون هذه البرهة أمر يضطر سابور إلى فك الحصار والرحيل عن هذه الديار ؟

فالتفت الملك إلى أبى سعد وقال : ماذا يرى أبو سعد ؟

أبو سعد : ما يرى الملك أفضل ؛ ولا أظن الوزير ابن بكر إلا مصيباً فيما قال ، لأنه أعلم بمجرى الأحوال ، وأعرف بحلو التسليم ومر القتال !

فتبسم الملك ضاحكًا من هذا الجواب ، ثم التفت إلى ابن بكر وقال : بالأمس كان أبو سعد مع صاحبك زياد عليك ، واليوم هو معك عليه ؛ زعم زياد أن السلامة فى التسليم ، وأنه يرجى لدى سابور أن يحفظ

لى الكرامة وولاية بعض الأعمال فى ملكه الواسع ؛ فاسترجح أبو سعد هذا الرأى وأشار علىّ باتباعه ...

أبو سعد : رأيت الملك يقبل على الوزير زياد وهو يحدثه ، وما أقبل الملك على محدث إلا كان رأيه الحكمة وقوله الصواب ؛ وبالجملة فأنا نديم الملك لا نديم الوزراء !

ابن بكر : لكلٍّ عذره يا مولاى ، فأما الوزير زياد ففى طباعه كراهية الحرب والقتال ، وإيثار السلم على كل حال ؛ وأما أبو سعد فكما وصف نفسه عليه ، من مجاراة الملك فى اللحظة واللفظة ؛ وأما عبدك ابن بكر فقد خرج أمر التسليم وعدمه من يده ودخل فى يد العرب ، فهم مصرون على أن يقبلوا حكم الموت فيهم عن آخرهم ولا يقبلوا بحكومة الفرس عليهم ؛ ولا يغضبن الملك أن أذكر له أنى دخلت على شرذمة منهم البرج وكانوا يتحادثون ، فتواريت عنهم أسمع ما يقولون ولا يروننى ، حتى قام صعلوك منهم فخطب فيهم فقال : لنفدينّ الملك بدمائنا ما دام معنا على مداومة القتال ؛ فإذا جنح إلى التسليم سلمناه قتيلاً إلى سابور ثم نولى النضيرة مكانه على أن تموت معنا أو تحيا معنا ...

فصادفت هذه العبارة هوى فى فؤاد الضيزن ؛ فتهلل واهتز اهتزاز المهند ، وقال : بلغ الصعلوك يا ابن بكر أنى جعلته من حراسى وأقطعته شيعة تبقى على ذريته من بعده ؟

ابن بكر : أما الضيعة فقد صارت له بنعمة الملك ، وأما الحراسة فقد رأيت له ما هو أنفع للملك وأصلح للجيش منها .

الملك : وما ذاك ؟

ابن بكر : جعلته يا مولاى على عمل تجفل عنه الأسود .

الملك : وأين جعلت الأسد يا ابن بكر ؟

ابن بكر : اتخذته كشافًا دائمًا ، وجاسوسًا على العدو ؛ وليس أحب من هذا العمل إلى الجند البسلاء .

الملـــك : أحسنت يا ابن بكر ؛ وما اسم الرجل ؟

ابـن بـكـر : ليث بن عبيد يا مولاى .

الملـــك : اذكره عندى بعد هذه لعلّى أطلب رؤيته .

ابـن بـكـر : سمعًا للملك وطاعة .

وكان الضيزن قد أمر بالركائب أن تهيأ فهيئت ، فقال لابن بكر : قد آن أن نذهب فنتعهد الحصن ونظهر لأهل الحضر ، فإن لى يومين لم أخرج إليهم ، وأخاف أن يريبونى ؛ إذ ما أسرع ما يريب الأمم ملوكهم ، خصوصاً فى مثل ما نحن فيه من الأحوال .

ثم التفت إلى أبى سعد وقال : استأذن على النضيرة يا أبا سعد ولازمها حتى أعود ، لعلك تدخل عليها بعض السرور بألاعيبك المضحكة ونوادرك المستملحة :

قال : سمعًا للملك وطاعة .

ثم ركب الضيزن وابن بكر فى موكب حافل بالحراس والقواد يقصدان الحصن .

الفصل الرابع

تقضت أيام ومضت ليال، والنضيرة مريضة ولا مرض، معتلة ولا علة، لا تبرح القصر ولا تخرج كعادتها لأهل الحضر ، حتى قامت المدينة لخطبها على ساق ، وبلغ بأبيها البث والحزن ، ولم يبق طبيب فى العرب ولا منجم ولا كاهن ولا ساحر إلا قدّم للملك خدمته وعرض عليه صنعته ، وهو حيران لا يدرى من ينتقى ، لكثرة المتقدمين إليه فى هذا الأمر ؛ أما النضيرة فكانت تأذن لمن تشاء وتقصى من تشاء وتتفنن فى طى الدواء كفعلها فى نشر الداء ، والحقيقة هى أن استعصاء الحيل عليها وعلى رجالها بعد حيلة الغزال التى دبرها أبو سعد بيده ودهائه ، ويقظة العرب ، وما كان يبدو كل يوم من تعلق الجنود بالملك وغيرتهم على الديار واستعدادهم للموت فى سبيلها وصبرهم على الحصار ، ومنعة الحصن ، وتعب الفرس به على كثرة عدتهم وعديدهم ؛ كل ذلك ذهب بصبر النضيرة وأدناها إلى اليأس وأسلمها إلى الشوق والوجد والتبريح والأشجان ؛ فرأت من الحكمة أن تتقى فراسة الأعين ولا تتعرض لظنون الناس ، ولزمت مقصورتها تكتم الوجد والأسى، وتدعى الضعف والسقم؛ وكان أبو سعد كلما اجتمع بها للمنادمة والتسلية يوصيها بالتجلد والصبر، ويعدها حيلة ألطف من الأولى تكون هى القاضية على الحضر إلى أن سنحت له الفرصة ودبر شيطانه فبينما هو ذات مرة بين يدى الضيزن وقد دار الحديث بينهما على مرض الأميرة كالعادة، قال للملك: لقد عرفت يا مولاى السبب فيما أصاب النضيرة وعلمت أصل هذا البلاء ، ولكن أخاف أن أكاشفك به فتغضب ؛ فتأمر بنفس فتقتل ؛ وأنا على خلق مولاى أكره قتل الأنفس ولا أحب إراقة الدماء ؛ فإن وعدتنى يا مولاى أنك فاعل بالجانى ما شئت إلا القتل دللتك عليه !

فاستحوذ الغضب على الضيزن من فوره وقال : أغيرك جان يا أبا سعد وأنت تزعم أن هناك جناية تعلمها وقد كتمت خبرها عنى حتى الآن ؟

قال أبو سعد : عفواً يا مولاى وارفق بالجانى ، فستعلم أنه من نخب رجالك وأنفعهم لملكك وأوفاهم بعهدك وإنه اجترم ما اجترم طيشاً ولم يتعمد ..

قـــــال : ومن ذاك ؟ هات الخبر يا أبا سعد ...

قـــــال : على أن تأخذ لغضبك من حلمك فى أمر الرجل يا مولاى ، وإلا كتمتك الأمر ولو كان فى الكتمان موتى !

قـــــال : أعاهدك أنى لا أقتله .

قـــــال : هو الحارث يا مولاى جعلته على حماية "عقاب" فاتفق أن الأميرة خرجت إلى البرج مرة ، فبينما هى تطل منه بين وصيفتيها أخبرها أن سابور سيمر من تحت عقاب فى خيله ومواكبه ، وسألها أن تستأخر قليلاً لتنظر ففعلت فلما مر الجيش الجرار بين عينيها أخذ الرعب مأخذه منها واستولى عليها اليأس فى خلاص الحضر ، ووقعت فيما هى فيه الآن من الاضطراب والضعف والسقم . وقد أوجست الوصيفتان مخافتك فكتمتا عنك الخبر !

قـــال الملك : ويل للحارث ثم ويل له ! فليلقين من العقاب ما هو أشد من القتل !

وفى هذه الأثناء دخل حاجب فقال للملك : بالباب يا مولاى رجل يزعم أنه طبيب روحانى ، وقد علم بعلة الأميرة ، فانتدب لمعالجتها وبذل للملك رأسه يأمر بقطعه إذا هو لم يشفها فى أيام قلائل ...

قـــــال : ائتنى به .

فجىء برجل رث الثياب منكر الخلقة تزدرى العين منظره لأول وهلة، فلما رآه الملك التفت مغضباً إلى أبى سعد وقال: ما جزاء هذا المجترئ المتعرض؟

قـــــال : القتل فى ملتى واعتقادى يا مولاى !

فارتعدت فرائص الطبيب وجثا دون قدمى الملك ، ثم قال : لقد عرضت نفسى يا مولاى للقتل إن أنا لم أشف الأميرة من دائها العضال ؛ فإن أنت قتلتنى قبل أن أنظرها وأتتبع داءها فقد عرضتها للموت لا محالة !

ثم إن الرجل نظر إلى أبى سعد نظرة ملؤها إشارات ، ففهم لأول وهلة،

فـــقـــال : يا مولاى ما ضرنا لو جربناه قبل معاقبته ، فإن كان ما يدعيه صدقًا ونالت الأميرة الشفاء على يده بلغ مناه وغناه ، وإن كان جاهلاً دجالاً لقى حتفه ورداه !

قـــال الملك : هذا هو العدل يا أبا سعد ، فقم فاجمعه بالنضيرة وانظر ماذا يفعل .

قـــــــال : سمعًا وطاعة .

ونهض أبو سعد فاستأذن على الأميرة والرجل معه ، فحين رأته استنكرت حاله وازدرت لباسه الرث ، وقالت متى وصل الصعاليك إلينا يا أبا سعد ؟

أبو ســعــد : هذا طبيب روحانى يا مولاتى، انتدب لمعالجتك فأمر الملك أن يصل إليك.

فقلب الرجل طرفه فى الحجرة ثم قال : انظرى يا مولاتى ، هل نحن فى خلوة ؟

فاندهشت النضيرة من هذا السؤال ، وقالت : ما تريد أيها الرجل بهذا الاستفهام ؟

الـــرجـــل : إنه لا يشفيك غيرى يا سيدتى ، ولا بد من خلوة إلا من كان من رجالك مثل أبى سعد .

فأخذ النضيرة قلق من هذا التلميح ، فدعت بأسماء فحضرت ، فقالت لها : اخرجى فاجعلينا فى مأمن ، ثم عودى لتكونى معنا .

فخرجت أسماء ، وكانت النضيرة مضطجعة فى سريرها ، فنزلت عنه وأقبلت على الرجل ناشطة باشة تقول : ها نحن فى خلوة أيها الطبيب، فماذا عندك لنا ؟

الـــرجـــل : ما أنا بطبيب يا مولاتى ، لكنى رسول سابور إليك ...

فطربت النضيرة لهذا الخبر وطابت به نفسها وازدادت إقبالاً على الرجل ثم قالت : إنى أراك من الحضر أيها الرجل ، فما اسمك ؟ وما جمعك بسابور ؟ وكيف أصبحت من رسلائه ؟

الـــرجـــل : أنا ليث بن عبيد ، سمعنى ابن بكر ذات يوم أخطب فى رفقة من العرب خطبة حماسية ، فظنها عن حمية وبسالة وأنا فى الحقيقة أهذى بها فاستعملنى عينا على العدو وكشافًا دائمًا ، ومثل هذا العمل لا يناط إلا بالرجال الأبطال ؛ فحملت الأمر يا مولاتى واصطبرت له ، ولم يمض يومان على انتدابى له حتى وقعت فى قبضة الفرس أسيراً ، فساقونى إلى كسرى ، فسئلت فى حضرته فحدثته حديثى وأنا لا أشك فى الموت، فأعجبه صدقى وراقه ، وأمر بى أن يحقن دمى ، وغمرنى بإحسانه ، ووعدنى إذا أنا صدقت فى ولائه وأخلصت فى خدمته أن يديم علىّ رعايته ويعلى محلى فى الحضر بعد الفتح فقبلت الأرض بين يديه ، وسألته ماذا ينتظر منى أن أؤدى من الخدم ؟ فرسم لى أن آخذ بما أنا فيه من التجسس للحضر فى الظاهر حتى يجربنى ، فإن وثق بى استخدمنى فيما يشاء ، فلبثت يا سيدتى مدة أكتم السر ولا أذيعه ، وأوافى حجّاب سابور بما أستطيع من الأخبار ، وهم ينقلون ذلك إليه إلى أن كان أمس ، فدعانى ، فلما مثلت بين يديه – وكان وحده – ناولنى هذا الخاتم الذى يسوى الحضر ...

وأخرج ابن عبيد من جيبه خاتمًا يقتتل على مثله الملوك : فأقبلت عليه النضيرة ومن معها يتأملونه وقد بهر أبصارهم ...

... ثم قال : تحتال يا ابن عبيد حتى تصل إلى النضيرة ، فتدفع إليها هذا الخاتم وتقول لها إنى مشتاق ، وإلى لقياها تهتزنى الأشواق ، ولا بد لنا أن نجتمع فى القريب الممكن من الزمن ، للتشاور فى أمر الفتح وتعجيله ؛ فإن لى فى ممالكى أشغالاً ربما اضطرتنى إلى ترك الحصار والرحيل عن هذه الديار ؛ فلتنظر الأميرة فى أمر خروجها إلىّ بالليل ، وهى صاحبة الحضر ، ومالكة النهى والأمر ، فلا يتعذر عليها ذلك ؛ وليس عليها إلا أن تحمل الخاتم معها ، فإنه ليس بين الفرس من لم يره أو يسمع به ؛ فإذا أطلعت العسس عليه أباحوها الطريق وجاءوا

بها إلى خيمتى ...

فلما فرغ ابن عبيد من رسالته أطرقت الأميرة هنيهة تفكر فى هذا الأمر الجلل ، وتستعرض فى خاطرها لتحقيقه صنوف الحيل ، ثم رفعت طرفها إلى الرسول وقالت لقد كلفنى الملك ما لا أطيق يا ابن عبيد ، وإن كنت التى تركب العار وتخوض النار فى سبيل الوصول إليه، والاجتماع ولو مرة عليه ؛ لكنى أخاف ألا أصل !

قال ابن عبيد : الأمر دون ما تصفينه عليه من الصعوبة يا مولاتى . ولا تعدمين بين الرجال والنساء ممن معك من تنفيذ حيلته وينفع رأيه ...

وعندئذ دخلت أسماء فى الحديث فقالت : الأمر سهل يا مولاتى تلبسين ثياب بن عبيد التى يترداها فى العمل ، وتتعلمين منه سر الليل ، ثم تخرجين إلى سابور تحت مدارع الظلماء ، وما سوى ذلك من معدات التوقى والاحتراس يوكل لى الأخذ به وتدبيره منذ الساعة ، وأنا الكفيلة بالنجاح .

ثم التفتت إلى ابن عبيد وقالت : انصرف الآن يا ابن عبيد ، فإذا كان الليل انتظرنا فوق طريق الذئب ، بالقرب من الغابة .

فهمّ الطبيب بالانصراف ، فاقترب أبو سعد منه وقال : وأنا أيضًا لى كلمة أقولها لك يا ابن عبيد ...

قـــــال : ماذا تأمر ؟

قـــــال : اعلم أن الإمرة على جنود الحصن لا تلبث أن تسلب اليوم أو غدًا من الحارث ، فاجتهد ألا يعطاها سواك ، لأن على ذلك يتوقف سقوط الحضر !

قـــــال : سأنظر فى الأمر يا مولاى

ثم انصرف وانفض المجلس على أثر ذلك .

الفصل الخامس

هجم الليل على حصون الحضر وهى ضيقة الحصار ، وأحاط الظلام بها من كل جانب ، إحاطة العدو بها فى المضارب ، فامتنعت الطرق فى المدينة ، وسدت السبل ، وتربص العرب فى مكامنهم من الحصن ، وسهر الحراس على حفظ المواقع ، ونام من فى المدينة من غير الجند إلا الجبان أرقه الخوف فبات ليلة لا يلتقى له جفنان ، ولا يهدأ له جنان ، إذا سكن الليل خيل له أن الجيشين يستجمعان للوثوب ، وإذا خفقت الرياح فى جوانب الحصون خفق فؤاده من ذكر الهجوم ، وإذا رأى البروق اللامعة ، خالها السيوف القاطعة ، وإذا صاحت ذوات الأطواق ، فى الأوراق ، ذكرته صيحة الأبواق ، فى ساعة التلاق ؛ وإذا آنس أنه حسبها من جريح ، وإذا سمع نواحًا ظنه على قتيل ...

وما جبان الحضر ليلتئذ إلا جواس الحضرى، وكان موكلا بطرق الغابة من جهة المدينة ، يقابله على موقع آخر فى أقصى الغابة رجل من العرب شجاع شديد البأس يقال له زياد بن الأجيدع وكان من الحراس كذلك ...

فلم يكن الثلث الأول من الليل حتى اقترب من طريق الذئب فارسان متلثمان ، هما الفتاتان تجاورتا فى السير ، فقالت أسماء لسيدتها : ذهب الصعب وبقى السهل يا مولاتى ، فدعى عنك هذا الاضطراب ، ولا يرين سابور عليك دلائل الخوف والجزع !

النضيرة : وكيف يا أسماء ونحن لم نقدم على الغابة ، حيث تتهددنا أخطار ثلاث : الوحوش ، والحراس ، والضلال فى الغابة فى هذه الأدغال !

أسماء : لقد أخرجتك من القصر على هذه الحال، وهو كله عين ساهرة، إلينا ناظرة؛ فلا يصعب على مولاتى أن أحميك من كلاب الوحش وصعاليك العرب !

ثم دخلت الفتاتان فى طريق الذئب ، فلمحتا عليه شبح رجلين ، فاضطربت الأميرة وسألت أسماء : من الرجلان ؟ وما هذا الضوء ؟

قالت : لعلهما بعض المارة يا مولاتى ، فلا يأخذك من أمرهما قلق ...

وبعد ذلك استمر الفارسان أو الفتاتان حتى بلغا مدخل الغابة ، فوجدا عنده حارسًا مستندًا إلى سارية ، فلم يتعرض لهما ولم ينبس ؛ فاستغربا أمره ، واقتربا من الرجل فى دخولهما ، فتأملته أسماء ، فإذا هو مرتعد الفرائص من الذعر ، وقد أخذ منه سلاحه ثم ألصق بالسارية إلصاقًا من شدة ما ارتبط فيها فحين رأته أسماء على هذه الحال تبسمت ثم استمرت فى سيرها فأغضب ذلك الأميرة وقالت : ليس المقام مقام تبسم واستخفاف يا أسماء ؛ قد أدهشتنى حتى صرت لا أستطيع معك صبرًا ...

قالت : سينكشف لك الغطاء يا مولاتى ، فتعلمين أنى أبذل نفسى وأهلى فى خدمتك وحمايتك .

فحين صارت الفتاتان فى الغابة اشتعل بين أيديهما مصباح ضئيل الضوء يسير به حامله إلى بعد ، فسارتا فى ضوئه حتى أوغلتا فى الغابة ، فسألت الأميرة أسماء : لمن المصباح ؟

قالت : لعله لأحد الجنود يا مولاتى ونحن نراه ولا يرانا ، ونهتدى به ولا يعلم أنه يهدينا الطريق !

وبعد برهة يسيرة انطفأ المصباح بغتة ، فأوقد مصباح غيره فى ناحية من الغابة ، فتوجهت الفتاتان وجهته ، وكان عنده رجل من العرب ، وكان مدججًا بالسلاح قائمًا عند سارية يكاد يبلغها طولاً ؛ فحين لمحته الأميرة قالت لوصيفتها : من الرجل يا أسماء ؟ إنه ليحمى الموقع ويمنع الطريق ، وإنى أخاف ألا ننجح فيما نحاول منه ؛ أما ترينه يقظان كالدهر ثابتًا كالصخر ، يدل منظره الرهيب على أنه عالم بالواجب كيف يقضيه ، وبحق الديار كيف يؤديه !

أسـمـاء : لا يوجسنك يا مولاتى ما ترينه من ظاهر حاله ، وأمهليه ريثما يلمع الذهب بين عينيه ؛ فهناك تعلمين أن المال ينسى الواجب ، ويذهل عن الحق ، ويذهب العفة ، ويزحزح من الفضيلة ؛ هذا إذا سلط على الأغنياء والكبراء ، فكيف على أمثال هذا من التعساء الفقراء ؟

الأميرة : لكنى أراه يسهر على حفظ النقطة وهى غرض العدو ، كما يسهر الوالد على ولده الصغير وهو عرضة للمنية ؛ وإن فرائصى لترتعد فى هذا الموقف ، فإن كان ولا بد فابدئى أنت بخطابه .

وكان الرجل قد أحس دبيبهما على المكان ورأى شبحيهما ، فحين اقتربتا منه صاح بهما يقول : من الماشيان على هذا الطريق المحمى ، أجهلا أنه لا يقرب ولا يدب عليه ؟

فتقدمت أسماء والنضيرة خلفها توجسها مخافة الجندى ، فقالت : من أهل الحضر أيها الفارس . جئناك ندعوك لأمر إن أنت سلمت به أصبت خيرًا كثيرًا ...

الحـارس : وما ذاك ؟ ادعوانى لما شئتما إلا الخيانة والغدر !

أسـمـاء : أنت أيها الرجل فقير ، والغنى منك قريب ؛ وضيع ، والرفعة لك مهيأة ؛ تَعِب بهذه الحراسة التى لا تأمن معها أن تصبح وأنت على قيد الحياة ، والراحة فى يدك إن شئت أمسكتها ، وإذا شئت أفلتّها ؛ فانظر فى مصلحة نفسك واعلم أنك لا تقف هذا الموقف إلا إلى حين ، لأن النصر للمحاصرين ، والحصن وإن طال المدى سيقع فى قبضتهم ، وملك الحضر آيل لسابور لا محالة !

الحـارس : النصر والملك بيد الله يؤتيها من يشاء وإنى أرجو أن سيبقيان علينا وعلى الضيزن ، وقد حرمتكما أن تخوضا فى حديث الغدر والخيانة ، فعلام هذا التعريض ؟ وفيم هذا التلميح ؟

أســـمـــاء : قدمنا أيها الرجل أننا لم نجئك فى غدر ولا خيانة، فانف عنا ظنك هذا، واعلم أن مساعينا التى نطلب معونتك فيها ربما نفعت الوطن ، وأفادت الملك والعرب أعظم فائدة ، فهل تقسم بذمة العرب أنك إن أجبتنا إلى ما نطلب تخلص فى خدمتنا وتخدم إشارتنا فى كل مقترح ، فإن لم تجب كتمت الخبر وحافظت على السر ؟

الحـــارس : أقسم ...

فأخرجت الفتاة عندئذ قلادة من ثمين الحلى وفاخره ، ثم عرضتها على الحارس وهى تقول : إذن فهذه القلادة لك ، وهى ثمن القسم وحده ، فخذها واعلم أنها القطر ثم ينهمر الغيث !

فتردد الحارس هنيهة، ثم تناول القلادة بيد مرتجفة وقال تعلم أيها السيد...

أســـمـــاء : لست بالسيد أيها الحارس ، وليس رفيقى هذا ذكرًا ، بل نحن أنثيان ، وأنت الساعة فى حضرة مولاتنا النضيرة بنت الضيزن ملك الحضر!...

فاندهش الحضرى من هذا التصريح وصاح: الأميرة! ... الأميرة هنا؟

أســـمـــاء : نعم ؛ هى بالذات ، وأنا إحدى جواريها ، ولا بد لنا أن نلتقى بسابور خارج الحصن فى هذه الليلة .

الحـــارس : تلتقيان بسابور خارج الحصن فى هذه الليلة !... ما هذا الكلام أيتها السيدة ؟

أســـمـــاء : هذا ما جئنا فيه ، والذى يراد منك أن تبيحنا الطريق كلما دعت الحاجة للخروج إلى سابور .

الحـــارس : وهل أمر الملك بهذه المقابلة المدهشة ، أم هل علم بها قائد الجيوش ؟ فإن علىّ أن أطيعهما كليهما أو أحدهما ، وليس لى أن أطيع غيرهما !

فدخلت الأميرة عندئذ فى الحديث مندفعة من الغضب فقالت : ألست بنت الملك ... لى أن آمر وعليك أن تطيع ؟

الحـــارس : بنت الملك لا تخرج يا مولاتى فى مثل هذا الوقت، ولا تأتى لمثل هذا الشأن!

الأمـــيـــرة : هذا لا يعنيك أيها الرجل ، ولا بد لنا من الخروج !

الحـــارس : لا فائدة من الإطالة أيتها الأميرة ، فخذى هذا الطريق إلى القصر فإنه أستر لك وأليق ببنات الملوك فى الليل ، ولا تقربى هذا الجسر ؛ فمثل بنت الضيزن عندى نازلة إليه كمثل بنت سابور صاعدة منه ، كلتاهما فى الحالين عدو مبين ؛ فأما هذه القلادة فها أنا ذا أمزقها بيد الأمانة ، كما تمزق النضيرة تاج أبيها بيد الخيانة !

قال الحضرى ذلك ورمى بالقلادة إلى الأرض بقوة فتمزقت وانتثرت، فحين رأت الأميرة منه ذلك وأيقنت أن بين جنبيه نفسًا حرة لا تباع ولا تشترى، يئست من أمرها وخافت العاقبة، فهمت بالرجوع وفى هذه الأثناء صرخ الحضرى صرخة واحدة ثم لم يئن، وسقط على الفور يتخبط فى دمائه ، وظهر من خلف السارية رجلان ميزتهما الأميرة لأول وهلة ، فضحكت إليهما وأثنت عليهما ، ثم نظرت حولها فرأت رجلاً ثالثًا وقد أقبل ببطنه على الأرض يتلقط ما انتثر من حبات القلادة ؛ أما الجانيان فهما أبو سعد وخادم له شديد البأس أسد الفؤاد ، وأما لص القلادة وكلب هذا الصيد البشرى فهو «قصير الفارسى» ... اشترك الثلاثة مع أسماء فيما دبرت لخروج الأميرة ليلاً إلى مضارب الأعداء وما اتخذت من الحيطة لذلك ؛ وليس الضوء الذى أبصرته الأميرة وهى قادمة على الغابة إلا مصباحهم كان يضىء لها دجى الليل من حيث تدرى ولا تدرى ، وقد وقوها شر الحارسين على طرفى الغابة، فصلبوا الأول كما وصفنا الأمر عليه ، وفتكوا بالثانى ...

خلا الطريق إلى سابور ، فاتفق الخونة فيما بينهم على أن يسير أبو سعد مع النضيرة إلى مضارب الفرس ، وتتخلف أسماء والخادمان فيرتدون إلى مدخل الغابة من طريق الذئب ، حيث ينظرون الأميرة عائدة بعد ما قابلت سابور ؛ وعلى ذلك سارت الأميرة وأبا سعد وهى تقول له فى الطريق: ما كان ضرنا يا أبا سعد لو عملت بإشارة أسماء، فلبست ثياب ابن عبيد وتعلمت منه سر الليل ثم خرجت وحدى إلى لقاء الملك تحت مدارع الظلماء، فلم أسمكم هذه المواقف وأحملكم هذا التعب؟

أبو سعد : إن من نشأ يا مولاتى على الشهد ومخ الغزال، لا يقتحم وحده الأهوال، ولا يقف بمفرده موقف الأبطال ؛ وقد رأيت فى الأمر الرأى الذى هو أحمد عاقبة ، فأنت تعلمين يا مولاتى أن الذهب والحيلة إذا اجتمعا أديا إلى المستحيل ، وقد سخرا لخدمتنا فى هذا وغيره من المواقف ، منك الذهب ومنى الحيلة ، فثقى إذن بالنجاح فى سائر ما تحاولين .

النضيرة : لكنى أرى فرائصى ترتعد ومفاصلى تسترخى كلما ذكرت ذلك الدم الذى أهرقناه من هنيهة غدرًا وبغيًا .

أبو سعد : هونى عليك يا مولاتى، إن الدم – منذ كان – مطية الناس إلى أطماعهم المتنوعة ، وقنطرة البشر إلى أهوائهم المختلفة : هذا يسفكه فى سبيل المجد ، وهذا يريقه فى سبيل الحب ، وهذا يسيله فى سبيل المال ، إلى آخر مآرب النفس ومطامعها ؛ على أننا لم نقتل إلا نفسًا واحدة ، حين هذا سابور أمامنا وذاك الضيزن وراءنا يستعدان كلاهما لحرب عوان يذهب فيها آلاف من الأنفس الأول ليتسع بفتح الحضر من ملك وسلطان ، والثانى ليحفظ ملك الحضر على نفسه فأى فرق إذن بيننا وبينهما ، اللهم إلا أن يقال عنا سفكنا من الدماء قطرا ويقال عنهما : سفكا منها بحرًا !

وبينما النضيرة وأبو سعد فى سُراهما يتحادثان ، إذا اعترضهما العسس من الفرس ، فاستوقفوهما يكشفون حالهما ويسألونهما عن أمرهما . فأظهرت الأميرة لهم الخاتم ، فعرفوه حال النظر ، وانتدبوا لخدمتها فيما تأمر ؛ فطلبت منهم أن يسيروا بها إلى الملك ، فانبرى اثنان منهم يمشيان وهى على أثرهما ، يرافقها أبو سعد حتى بلغا إلى خيمة سابور ...

(ونحن نعتذر إلى القراء من الخوض فى هذا الحديث عن خيانة النضيرة التى لم تقف فى الخيانة عند حد ...)

ونذكر ما كان من أمر أسماء ورفيقها فنقول : رجعت الفتاة والخادمان منقلبين إلى مدخل الغابة ، بعد ما بلغوا غايتها ؛ وهناك وقف الثلاثة بالقرب من الحارس ، وكان لا يزال مصلوبًا على السارية يذوق أليم العذاب ، فتقدم إليه خادم أبى سعد يقول : كيف كان فعلى بك أيها الجندى ؟

جـــــواس : كما ترانى يا مولاى ، سليب الحول والرمق ؛ فهل تمن علىّ بالحياة فتفك وثاقى ؟ أم هل تنعم لى بالراحة فتجهز علىّ ؟

الخـــــادم : لا آتى هذا ولا ذاك حتى يرجع إلينا سائر الرفاق ، فننظر جميعًا فى أمرك ، إن شئنا قضينا عليك ، وإن شئنا رددنا الحياة إليك!

جـــــواس : لكنى أخاف على نفسى وعليكم أن يفاجئنا ابن بكر فى حرسه الشديد الكثير ، فيحل بنا من العقاب ما يحل !

الخـــــادم : وهل عودك ابن بكر أن يمر بك كل ليلة ؟

جـــــواس : جواس : نعم يا مولاى ، وعودنى إذا تأخر ليلة أن ينوب عنه الأشداء الأقوياء من الحرس أو العسس ، مع أن الغابة كما رأيتها فى غنى عن بعض هذه المبالغة فى التحرز والزيادة فى التحرس ، فهى بشجرها المتكاثف ، ومسالكها الوعرة ، حصن طبيعى يستحيل على الجنود أن يغشوه ، وإن فعلوا وقعوا فى شرك وتعرضوا للذبح فرداً فرداً .

الخـــــادم : وما يدرينا إنك إن فككنا وثاقك وأطلقنا سراحك لا تفشى السر ولا تخون ؟

جـــــواس : لقد دفعت إليكم بوقى وسلاحى لأول طلب ، وسألتكم الأمان ؛ والآن لا أسألكم إلا أن تتخذونى خادمًا لكم أمينًا أكون معكم على من شئتم وفيما تشاءون !

وفى هذه الأثناء سمع صوت بوق يتردد آتيا من أقصى الغابة ، فانذعرت الفتاة وتفزع رفيقاها ، وسأل خادم أبى سعد جواس قائلاً : ما هذا الصوت أيها الحارس ؟ ومن النافخ فى البوق الساعة ؟

جـــــواس : هو يا مولاى الحارس الموكل بالطرف الآخر من الغابة يحميه: جرت العادة أن ينبه أحدنا الآخر كلما أردنا ، فأجيبه أو يجيبنى ، ليطمئن القلب ويهدأ البال .

الخـــــادم : ولكننا تركنا صاحبك قتيلاً مضرجًا بدمائه ، فكيف أخذ البوق ثم كيف نفخ فيه ؟

جـــــواس : إن كان الأمر كما تصف يا مولاى فلا يكون النافخ الساعة إلا الحارس الثالث الذى يقابله على الطرف الشرقى من الغابة ، ولعل هذا هو السبب فى وصول الصوت إلينا ضعيفًا كما سمعتموه .

الخـــــادم : أنتم إذن أربعة حراس ؟

جـــــواس : نعم يا مولاى ، على كل طرف من أطراف الغابة الأربعة منا واحد .
فاستمر الصوت على ضعفه ، واتصل النفخ فى البوق إلى حد راع أسماء ورفيقها وهالهم، فسألت الحارس قائلة: ما بال الصوت لا ينقطع أيها الجندى ؟

جـــــواس : لا ينقطع يا مولاتى إلا إذا أجبت وأخاف إن استمر أن ينبه العسس فنقع فى مكروه !

أســـمـــاء : ويلاه! ما للأميرة أبطأت؟ ماذا أخرها؟ لم لم تعد؟ هل أصابها مكروه؟

جـــــواس : مرى يا مولاتى أحد صاحبيك هذين أن يتناول البوق فيجيب بمثل هذا الصوت ، أو أدنيه من فمى فأنفخ فيه ، فيكف الحارس ؛ إلا استمر فعرضنا لأعظم بلاء وأكبر شقاء !
فتناولت أسماء البوق من الأرض ، وكان تحت قدميه مع سائر سلاحه ، ثم أدنته من فم الحارس قائلة بل خذ أنت فجاوب صاحبك لعله يكف.
فنفخ الجندى فى البوق طويلاً ، وما هى إلا هنيهة حتى امتلأ المكان على أسماء ورفيقها من الجند متكاثرين محيطين بهم من كل جانب ، فطارت قلوبهم شعاعًا وعلموا يقينًا أنهم هالكون . فلم يكن من خادم أبى سعد فى هذا الموقف الحرج إلا أن بدر الحارس بضربة سيف

فلقت هامته وغادرته فى الهالكين ، ثم سارع فهمس فى أذن أسماء بأن قال : الرجال فداء النساء يا مولاتى فى كل حال ، فاذهبى أنت وقصير فاختفيا ناحية فى الغابة ولا تخرجا منها حتى أجيئكما أو ترجع إليكما الأميرة ومن معها .

فدار العسس على مدخل الغابة وليس لديهم إلا هذا البهيمة البهمة ، خادم أبى سعد ، قد وقف بجانب فريسته رابط الجأش حاضر الوجدان يستعد لشأن له وللجند ، فإما يستدفع أذاهم بالحيلة ، وإما يجاور على طريق الذئب قتيله فتقدم زعيمهم إليه وسأله : من الرجل ؟

قـــــال : من عبيد الضيزن وخادم نديمه وصاحبه المقرب مولاى أبى سعد...

فحين سمع الزعيم ورجاله للرجل ، وهو فى الملك يحتمى ، وإلى أوجه الحاشية ينتمى ، خفضوا من حدتهم ، وأخذ الأمر فى نفوسهم شكلاً غير شكله الطبيعى فى مثل هذا الموقف ؛ فسأله الزعيم : وما اسمك أيها الخادم ؟

قـــــال : أبو حمالة...

قـــــال : نسمع بك ونعلم أنك من شجعان الحضر وأبطالها ؛ فما جرأك على صلب هذا الفارس ثم على قتله وهو فى خدمة الملك ؟

قـــــال : صلبته وقتلته وأنا أيضًا فى خدمة الملك . ولو أنى فعلت عن هوى فى النفس أو ابتغاء انتقام لما نفخت فى البوق ولا نبهتكم لمكانى ولا أمهلتكم حتى تحيطوا بى ، مع أننى من هذا الطريق وهذه الظلماء فى أوسع فضاء !

قال الزعيم : إذن فأنت مكلف من قبل الملك بقتل هذا الحارس ؟

قـــــال : فيما صرحت به الكفاية أيها الزعيم ، وما سوى ذلك فلا أذكره لك ، بل تسأل عنه ابن عبيد ، عضد ابن بكر وساعده ، فهو الذى أمرنى فامتثلت فى مصلحة الدفاع وخدمة الجيش ، وقد رسم لى كذلك أن أقوم مكان هذا الخائن بعد قتله؛ فإن شئت فاتركنى وشأنى والحراسة،

وإلا فأشرك معى أحد هؤلاء الجند يلازمنى حتى يحضر ابن عبيد فنعرض الأمر عليه ، ثم يختار هو لحماية الموقع من يشاء !

قـــــــال : لا يكون إلا ما ذكرت ، فهو أنفى للظن عنك ، وأذهب بالتبعة عنى ؛ ولكن ماذا نصنع بهذه الجثة الآن ؟

قـــــــال : نتركها كذلك لابن عبيد يصنع بها ما يشاء ...

وعلى أثر ذلك دعا الزعيم برجل من أشجع العسكر وأشدهم بأسًا ، فرسم له أن يبقى فى ملازمة أبى حمالة إلى أن يحضر ابن عبيد فيرى فى الأمر رأيه ، ثم انصرف هو فى سائر رجاله ...

ولم تمض ساعة زمان على وقوع هذه الحادثة حتى عادت الأميرة بعدما قابلت سابور ، يصحبها أبو سعد ، ويسير ابن عبيد فى خدمتها ؛ فقابلتها أسماء فى الطريق ومعها قصير هائمين فى ظلمات الغابة ، وجلين مضطربين ، فقصّا على النضيرة الخبر وما كان من كيد جواس لهما ولأبى حمالة ، ونفخه فى البوق ، ومجىء العسكر على أثر ذلك ، وما أشار أبو حمالة به عليهما من الاختفاء فى الغابة وترك الأمر لاحتياله وبأسه ؛ فاضطربت النضيرة عند سماع الخبر ، وأشفقت من عواقب الأمر ، والتفتت إلى صاحبيها حيرانة مستفهمة؛ فقال أبو سعد: لا تخافى يا مولاتى ولا تنزعجى ، إن أبا حمالة جمع بين الرأى والسيف، وقد تعود فى خدمتى أن يأخذ بأحدهما ما لا يمكن له أخذه بالآخر ، ولا أجد الحادثة إلا من أهون ما مر عليه فى حياته ، فلا بد أن يكون حسم الأمر بأحد حساميه الدهاء والبأس!

قال ابن عبيد : مهما يكن من الأمر يا مولاتى فلا بد لى أن أسبقكم فى الخروج فإن مهمتى تبيحنى كل مذهب فى الحضر ، وليس تحت سمائها من يعرف علاقتى بكم ، فأنا فى فضاء من أمرى ؛ وليس عليكم الآن إلا أن تنتظروا هنا حتى أرجع إليكم بنفسى أو أبعث إليكم رسولاً .

قالت الأميرة : بل تحضر بنفسك يا ابن عبيد ، فهو أدنى إلى الأمن وأجلب للطمأنينة؛ لكن هبك عاقتك العوائق فلم تحضر ؟

قـــــــال : أمر سهل يا مولاتى ، الطريق وراءكم مأمونة ، وضيافة سابور لكم مضمونة .

قال هذا ومشى مستعجل الخطو حتى خرج من الغابة ، فوجد أبا حمالة وجنديًا آخر فى موقف الحراسة يكتنفان جثة المصلوب ، فحين رآه الرجلان صاحا به يقولان : من القادم من الغابة ؟

فألقى من فوره سر الليل ، ثم قال : أنا ابن عبيد ، فمن تكونان ؟ إنى أراكما غريبين فى هذا المركز ...

فعندئذ اقترب أبو حمالة منه فحدثه الحديث همسًا ، فسر بحسن تدبيره ولطف احتياله ، والتفت إلى الجندى الذى يلازمه فقال : اذهب الآن أيها الحضرى إلى رئيسك فقل له إن ابن عبيد مصدق لما قال أبو حمالة ، وإنى أكتفى به للسهر على حفظ الموقع !

قال الجندى : سمعًا وطاعة .

وانطلق من فوره ، فأمهله ابن عبيد ريثما توارى عيانه ، ثم قال لأبى حمالة: أما أنت فتنتظرنا حتى نرجع إليك .

ودخل بعد ذلك الغابة فعاد منها بالنضيرة ومن معها من حزب الخيانة ، حتى إذا صار الكل فى مأمن ولم يبق إلا التفرق إلى حين ، أخذ ابن عبيد سبيلاً إلى ابن بكر ، وقصد أبو سعد منزله فى الحضر ، واندفعت الفتاتان وقصير راجعين إلى القصر. وبقى أبو حمالة فى مركزه لأمر...

الفصل السادس

أصبح أهل الحضر أنعم ما أصبحوا بالا منذ ابتلوا بهذا الحصار الطويل ؛ إذ لم يطلع الفجر حتى شاع فى المدينة وذاع وملأ الأسماع من جهة أن الفرس حاولوا الهجوم على عقاب وأخذه عنوة فصدتهم جنود الحضر وحملتهم خسائر جمة ، وأن الفضل فى اكتشاف مكيدتهم وتنبيه ابن بكر إليها فى وقتها راجع لابن عبيد الذى كافأه الملك فجعله حامى عقاب ، وثانى ابن بكر فى الزعامة على الأجناد والدفاع عن حوزة البلاد ؛ ومن جهة أخرى أن ذلك الهجوم هو من قبل الفرس آخر تجربة فى معالجة الفتح ، وأنه قد جد فى ممالك كسرى وبلاده من المشاكل والقلاقل ما سيضطره إلى المسارعة بالأوبة ، بعد طول الغيبة ، وعلى الخصوص بعد تلك الخيبة !

على هذا ومثله من باطل الأوهام ، وكاذب الأمانى والأحلام انقضى النهار فى الحضر بسلام ، ومضى بعد ذلك ثلاثة أيام ، لم يقع فيها شر ولم يحدث أمر ، إلا حادثة خفيفة لم يكد خبرها يجاوز القصر ؛ وذلك أن الملك استيقظ ثلاث ليال متواليات على ترنم شاد ينشد فى أواخر السحر من كل ليلة بهذين البيتين :

لا تخدعنا النساء يا ملك فكم رجال بكيدها هلكوا

للدهر فيكم مشيئة سبقت فليس يجرى بغيرها الفلك !

إلا أنهم بحثوا طويلاً عن المنشد فلم يقفوا له على أثر ، ولم يعلموا فى أمره ما الخبر ، وإن كان فيه ما يشوب صفو الملك ببعض الكدر !

فلما كانت الليلة الرابعة ، بات الملك ناعم البال ، كأن فى يمينه ميثاقًا من الحوادث ألا تأتى على عجل ، وقد استقر عنده من إجماع الروايات وتواتر الأخبار أن سابور

وجنوده منفضون بعد يوم أو يومين من حول المدينة ، لا تطلع الشمس منهم هناك على عين ولا تغرب على أثر ، وأن أبواب الحضر ستفتح بعد حين للمتاجر والأرزاق ...

وبات ابن بكر قريراً كذلك ، وقد قام فى أمانيه وأحلامه أن النضيرة له وحده ، وأن الضيزن لا يجد فى خزائن ملكه ما يكافئه به على خِدَمه الجلائل وسهره حولين كاملين على حفظ الحضر ومنعها من الوقوع فى قبضة الأعداء إلا تلك اللؤلؤة المكنونة والجوهرة المصونة التى لم تك تصلح إلا له ولم يك يصلح إلا لها !

وباتت النضيرة تتمنى أن ترى فلقا من الصباح، وآخر من جبين سابور الوضاح ، ولا تنام مع هذا الرجاء الليل – من خوف الفضيحة . وخشية التعرض لانتقام الضيزن والعرب إذا علموا بخيانتها قبل أن تبلغ جنود سابور القصر !

وبات الجنود واثقين بالغد ، يستعدون لراحة طويلة بعد ذلك التعب الطويل ولا يخطر لهم على بال أن الصبح آت بالشدائد والأهوال ...

وبات سائر أهل المدينة ليلهم مسرورين ، يحلمون بالرى والشبع ، وبالأمن وقد رجع ، والعدو وقد أقلع ، والشدة وقد تحولت لرخاء ، وزال عن الحضر العناء والبلاء !

وكان عقاب – وهو كما يعلم القراء ذلك الحصن المنيع الذى دفعت الثقة العمياء بالضيزن إلى تولية ليث بن عبيد حراسته – قد مسخ حانة من أول الليل ، وأقبل جميع من فيه على الخمر يشربونها بغير حساب ...

وتفصيل الخبر أنه لما كان الغروب وفد على ليث ابن عبيد رسول من القصر يحمل إليه بضع قرب مملوءة من عتيق النبيذ ، وكانت تلك حيلة اتفق هو والأميرة عليها من قبل ؛ فدخل عليه الرسول وهو فى جماعة من جنود الحصن ، فحياه ثم أخبره أن الملك يحبه ، وأنه ذكره فى مجلس شرابه فأمر أن يُحمَل إليه شىء من هذا النبيذ الذى لا يوجد فى خوابيه ؛ فأثنى على الملك ودعا له ، ثم جعل القرب فى ناحية وانتظر...

ولم يلبث خبر هذه الهبة أن انتشر بين جنود الحصن وعلموا به جميعًا وكانت شرذمة من نخبهم وأشدائهم ساهرين يتسامرون ، وكان بينهم رجل جهورى الصوت ماضى الجناب يقال له شهاب الحضرى؛ فقال أحدهم: يقولون إن الفرس راحلون عنا غداً لأن الأمر اضطرب فى ممالك سابور حتى أصبح له شغل عنا بذلك .

قـــال جندى : هذا نبأ ملأ المدينة وسر به أهل الحضر ، لأنهم ذاقوا الجوع وأصبحوا لا يطيقون الحصار .

قـــال آخـــر : قبح الحصار ! لقد تركنا كالآساد فى القيود تنظر الكلاب محيطة بها وتسمعها إذ تنبحها ولا تملك إليها سبيلاً ، فهلا قذف بنا الملك فى تلك الصفوف ليرى كيف نخرقها ، وفى تلك الجموع لينظر كيف نمزقها ؟

قال شهاب كبير الجماعة وأشدهم بأسًا وأعظمهم على الوطن غيرة : مضى علينا حولان كاملان والعدو يقتل رجالنا بلا قتال ، ويغزو بالجوع النساء والأطفال ، فهلا تركونا نموت فى ظل السيوف كالليوث الغضاب ، ولا نموت جوعا فى الطرقات كبعض الكلاب !

قال بعضهم : لعل العناية شاءت أن تحقن الدماء ، وأن تبقى الحضر على أهلها ؛ إذ ما يدرينا أن سابور وجنوده ينفضّون غدًا من حول المدينة كما شاع فلا تطلع الشمس منهم على عين هناك ولا تغرب على أثر .

فسأله شهاب : وماذا ادخرت لنفسك من الطرب برحيلهم ؟

قـــــــال : قربة من النبيذ المعتق أشربها وحدى؛ فلقد طال بالراح عهدى !

قال شـهاب : وأنا أيضًا شيق إليها ولِع ، فقد حرمت نفسى أن أذوقها منذ الحصار وكنت لا أُعطَى عنها صبرًا ، وما حسدت قط أحدًا كما حسدت ابن عبيد اليوم بما حمل إليه الملك من نبيذه الذى لا يوجد إلا فى خوابيه ؛ وكأنى به الساعة يشرب وحده ولا يذكرنا ، ونحن نسهر عنه على حفظ الحصن !

قال بعضهم : وبماذا استوجب ابن عبيد هذا النوال منذ جعله على الحصن وعلينا ؟ فقد طالما اجترأت عليه فلم يعتب ، وأغضبته فلم يغضب ، وما هكذا الشجاع !

قـــال جندى : إنه يفرق من رؤيتك ويخشى بأسك يا شهاب ، فما ضرك لو جاملتنا فاستأذنت عليه وطلبت لنا منه شيئًا من ذلك النبيذ نشربه فننتعش بعض الشىء ؟

قال شهاب : أأشرب الخمر ونار الحرب مشبوبة ، وخيام العدو خارج المدينة مضروبة ؟ إنى إذن لجان على الحضر مضياع للذمار !

قال آخر : الحضر الليلة فى سرور يا شهاب ، ولا يضرها أن نذوق من نبيذ الملك، وهو ما بعث به إلى ابن عبيد إلا ليشكرنا فيه معشر جنوده المخلصين !

شهاب : لعله كذلك ؛ فإن القرب ثمان مملوءات ، ولا يعقل أن بطن ابن عبيد يسعها جمعاء ! لكن هبونى طلبت لكم منه ما تسألون فأبى وامتنع ، فما يكون شأنى معه عندئذ ؟

قال أحدهم : نعلم أنه جبان بخيل !

فدخل شهاب فى الغضب ونهض فقال : بل أمسك بكتفه فلا أتركها إلا وقد اختلطت أضلاعه بعضها ببعض ، ثم أقول له : كذبت الشجاعة والكرم يا ابن عبيد !...

وفى هذه الأثناء أقبل ابن عبيد ، فانذعر من ذكر شهاب اسمه وهو على هذه الحالة من الغضب ، لكنه تشجع ثم دنا منه ، وتلطف له فى الخطاب فقال : ما يغضبك يا شهاب ؟ إن لك لدماً يثور لغير سبب !

قال : بل الأمر كيت وكيت ....

ثم حدثه الحديث بجملته لم ينقص ولم يزد ، فاستضحك ابن عبيد ثم قال له: ما أجمل هذا الصدق يا شهاب!.. لكن ما ثأرك عندى حتى تمزق أضلاعى، ولو صبرت قليلاً لعلمت أنى ما جئتكم إلا لأعرض عليكم ما كنتم تشتهون ... إن القرب ثمان ، لكم منها سبع ، ولى واحدة لا أشربها وحدى لكن معك يا شهاب؛ فهل تعفو عن أضلاعى؟!...

فتردد الجندى هنيهة ثم قال : الآن نفى الظن عن كرمك يا ابن عبيد ، لكن أواثق أنت بالغد ، وأن لا خوف على الحضر من حادث تلده الليلة ؟

قال : لقد رأيت ابن بكر عندى من ساعة ، وقد بلغ من ثقته بالغد أنه لم يتعهد هذه الليلة سائر الحصون كدأبه فى ماضى الليال !

قـــــــال : إذن فمر لنا بما ذكرت .

فالتفت ابن عبيد إلى الجندى الذى فى خدمته وقال له : اذهب فائتنا بالقرب واجمع ما فى الحصن من أقداح !

فاستصحب الجندى معه اثنين من رفاقه ، وتغيبوا هنيهة ، ثم حضروا بالراح والأقداح ؛ فأمر ابن عبيد بذلك فجعل بين أيدى العرب ، ثم دعاهم ليشربوا غير محتشمين فى حضرته ، فأقبلوا على القرب يفضون أفواهها ، ويشربون بغير حساب ، وجلس ابن عبيد وشهاب فى ناحية يتحادثان ويشربان على ذكر الضيزن وعدله ، وابن بكر وفضله ، والحصار وأهواله ، والدفاع وأحواله ؛ وكانت السقاية لشهاب ، فما لبث أن استبد فجعل يناول صاحبه بمقدار ويسرف هو على نفسه فى الشرب ، وكان يرفع صوته فوق صوت ابن عبيد ، فسأله هذا : كيف وجدت النبيذ يا شهاب ؟

شـــهـــاب : أشهى من دم الفرس يا ابن عبيد، لو خيرنى الملك فيما أريد لما اخترت إلا أن أكون أمين شرابه ، لأتمتع من عرائس أكوابه !

فالتفت ابن عبيد إلى العرب وسألهم : وأنتم يا رجال الحصن ، كيف تجدون هذا النبيذ ؟

فقال أحدهم : نبيذ الملك ملك النبيذ ، ولو شرب سائر أهل الحضر من هذا ثم خرجوا إلى الفرس لكان الواحد منا بمقام ألف !

قـــال آخـــر : لا أظن الملك يموت أبداً ما دام هذا شرابه !

وبينما القوم على هذا الحال من الطرب والسرور وشرب الراح ، التفت ابن عبيد إلى اثنين منهم وسماهما ، ثم قال لهما : هذا أوان تغيير الحرس ، فانزلا وتوليا الحراسة بدل زميليكما .

وأومأ بعد ذلك إلى اثنين آخرين وسماهما ، ثم قال لهما : اخرجا أنتما فاكشفا لنا حال العدو ، وانظرا هل يستعد للرحيل ؟

والتفت بعد ذلك إلى الجندى الذى فى خدمته وقال له : خذ مفتاح الحصن وافتح لصاحبيك وانتظرهما حتى يرجعا .

قـــــــال : سمعًا وطاعة .

ثم نزل يتبعه الرجال الأربعة ، فأقام الحارسان الجديدان مكان أخويهما ، وصعد هذان إلى البرج ، فاشتركا على الفور مع رفاقهما فيما هم فيه ، وكانت الخمر قد لعبت برأس شهاب فتحمس وتهوس وأخذ يغنى القوم هذا الشعر :

نحن أسد الحضر جند الضيزن بالدما والمال نفدى ساطرون
لا نرى العيشة بعد الوطن كل عيش بعد عيش الحضر دون
يا حصون الحضر إن خنت الديار نحن للحضر حصون لا نخون
إلزمى الصبر إذا طال الحصار كل خطب ، وإن اشتد ، يهون
أنت صخر ، ولنا أيضًا صدور من صخور وحديد لا يلين
كلما قوض سور قام سور فى سبيل الحضر رحب بالمنون

ولم يدخل الليل فى الثلث الثالث إلا وقد انقلبت الخمر سكرًا ، فتحول نشاط العرب فتورًا ، وثورتهم سكونًا ، وقيامهم قعودًا ، وحماستهم هذيانًا ؛ وعندئذ مالت الرءوس ، وانعقدت الألسنة ، وخر الجند صرعى واحدًا بعد واحد ...

وفى هذه الأثناء سمعت ضجة ارتجت لها الأبراج ، وتفزعت المدينة ونفر أهلها ذاهلين منذعرين ؛ ذلك أن البرج امتلأ على جماعة الحراس ، صرعى الطاس والكاس ، من الفرس الذين أخذوا للهجوم أهبته طول الليل ، فغشوه كعباب البحر لا يعد موجه ، ولا يصد لجه ؛ فاستفاق شهاب من سكره ، وقد طار عقله عن رأسه ، وخرج أمره من يده فى هذا الموقف المهول ، فجعل يستصرخ العرب ويجمعهم حوله ، ثم خطب فيهم فقال : نحن الساعة بين عدوين شرهم هذا الذى منا ، فهو ناصب الحبالة ، وأداة الخيانة ، انتقموا منه للحضر انتقاما ثم موتوا تحت ظلال السيوف كراما !

قال ذلك ودلهم على ابن عبيد ، وكان قد اختلط بجنود العدو وعلامة الأمان له منهم فوق رأسه ، فما وقعت عيون العرب عليه حتى اندفعوا نحوه اندفاع السيل ، فقتل أكثرهم قبل أن يصلوا إليه ، وبلغه بضعة منهم فنثروا لحمه وشربوا من دمه ، ثم وقعوا قتلى تحت أقدام الفرس المتكاثرين .

وهكذا انتقم الله من الخائن ابن عبيد قبل أن يجنى ثمر جنايته ، ويتمتع بنعم سابور مكافأة له على خيانته !

وكان هذا الخبر المشئوم قد بلغ ابن بكر وهو فى مبيته بدار الجند بالقرب من الحصن ، فخرج كالليث يستصرخ كل شجاع فى الحضر من الجنود وغيرهم فاجتمع حوله الألوف من العرب مستقتلين مستعدين للموت ، فوقف بهم للعدو فى طريقه وهو يتكاثر ويضاغط كالعارض الهطل ، فكانت واقعة مشهودة ، جرت فيها الدماء أنهاراً ، وظهرت البسالة فيها على الكثرة مراراً ، وكان بجانب ابن بكر فى القتال رجل ملثّم ، وكأنما يقاتل عنه وعن نفسه وعن سائر العرب لكثرة ما قتل من الفرس يوم ذاك ...

واستمر القتال مدة من النهار حتى هلك أكثر العرب بعدما قتلوا عدداً لا يحصى من العدو ، إلا أن الكثرة لم تلبث أن غلبت – كعادتها – على الشجاعة ، وترجحت مخايل النصر للفرس وبدت أعلام فوزهم ، وفى هذه الأثناء أصيب ابن بكر بجرح أوهى قواه وزلزل قدمه فلم يكن من الحضرى الذى بجانبه إلا أن حمله كما يحمل الطفل ، ثم رجع به القهقرى والعرب يتنحون له فى رجوعه ، حتى صار فى مأمن ، فذهب مسرعًا فأخفى الجريح الكريم فى بعض نواحى المدينة ، وعلى هذه الصورة انتهت المعركة ...

وتداولت الأيام فانتقل ملك الحضر من ساطرون إلى سابور...

هذا ما كان من أمر ابن بكر والعرب وما فاجأهم به الفجر من الكوارث، وما زال الفجر أبا الحوادث !...

أما ما كان من أمر الملك فإنه انتبه فى أخريات الليل على صوت ذلك الطائف حول القصر ، الهاتف بهذا الشعر :

لا تخدعنا النساء يا ملكُ فكم رجال بكيدها هلكوا
للدهر فيكم مشيئة سبقت فليس يجرى بغيرها الفلَكُ !

فنزل عن فراشه مغضباً عاجزاً لا حول له فى أمر الهاتف ولا قوة ، ثم جعل يتمشى وهو يتهم الهواجس آونة ، ويسىء الظن بالشياطين آونة ، وبينما هو كذلك إذ جاءه رسول من ابن بكر فخبره الخبر ، وسأله بلسانه الدعاء له وللجنود ، لعل السماء تنصرهم فى المعركة الفاصلة ، ثم انصرف الرسول ، فأطرق الضيزن طويلاً ثم رفع رأسه وقال : صبراً ساطرون ! خرج من يدك الأمر، وزال عنك ملك الحضر ، وقديماً حكم فى الملوك الدهر!

ولم يكد يستتم حتى استأذن عليه رسول من قبل سابور أمنه العرب حتى وصل ، فلما مثل فى حضرته عرض عليه أن الملك سابور يرجو منه أن يحتفظ بحياته وحياة النضيرة ، ويؤكد له أنه هو والأميرة فى ذمة منه وأمان ، وسينزلان عنده فى أعلى منازل الحفاوة والكرامة...

فشغل الضيزن هذا البلاغ ، واستغرب الأمر وساءت ظنونه ، وسوء الظن فى طباع الملوك والأمراء، فكان جوابه أن قال : أبلغ الملك أيها الرسول أن حياتى لا تهمنى أكثر مما تهمه فى الحقيقة ، أما النضيرة فإنى أحتفظ بحياتها وأجعلها فى ذمته وأوصيه بها خيراً .

فانطلق الرسول من فوره ، يحمل من الضيزن علامة الأمان ...

ودخلت بعد ذلك النضيرة على أبيها وهى فى ثياب النوم ، فحين رآها لم يتمالك أن اغرورقت عيناه بالدمع ، ثم اقترب منها وخاطبها فقال :

حكم الدهر فى أبيك يا ابنة الضيزن فخرجت الحضر من يده وزال ملكها ، وأنا بين رزءين لا أدرى أيهما أعظم . مصابى بالحضر ، أم فكرتى فيك وفيما تلقين بعدى من حوادث الأيام ، على أننى أوصيك بالصبر ، فهو العدة فى الشدة ، وبالعفاف ، فهو ملك بنات الملوك إذا ذهب عنهم الملك .

قال هذا وتأمل الفتاة فإذا هى كالصخرة الصماء ، لم تحركها تلك الكلم ، ولا شجاها ذلك الدمع المنسجم ، فقال : ما بال النضيرة جامدة العينين ساكنة الوجدان ، ألا تبكين الحضر وعهدها ... ألا تندبين عزًا ذهب، وعيشًا انقضى ، وملكًا زال ؟..

قـــــالت : وما يجدى البكاء يا أبتاه ، ولسنا أول بيت هدمه الدهر وكان رفيعا ، ولا أول نعيم حل الدهر نظامه ، فلا تعلمنى الصبر بالقول ، وعلمنى الصبر بالعمل ...

وكانت أسماء وهند حاضرتين هذا المجلس ، تنظران وتسمعان ، فالتفتت الأولى إلى الأميرة وقالت : ليس هذا اللباس يا مولاتى لباس الساعة القريبة والعاقبة المريبة ، فاذهبى فالبسى ثياب عزك وحشمتك ، لكيلا يفاجئنا سابور وجنوده وأنت فى ثياب النوم !

قال الضيزن : نعم الرأى يا أسماء ، فخذى مولاتك فألبسيها أفخر الثياب ، وبالغى لها فى التسلية والوصية بالصبر .

فخرجت الفتاتان ، وانتظر الضيزن ريثما ابتعدتا وخلت الحجرة له ولهند ، ثم أقبل على هذه الجارية يقول بصوت منخفض . هند ! هند ! تعالى اسمعى : إننى منذ آويتك لم أتمثلك إلا الوفاء المجسم والأمانة المصورة ، فهل تفين لى بوقت خاننى الدهر ، وهل آتمنك على سر لم أستودعه أحدًا قبلك ؟

قـــــالت : أنا فى خدمتك يا مولاى ، ولو أمرتنى أن أرمى بنفسى من هذه النافذة فى النهر لما ترددت لحظة !

قـــــــال : إذن فاتبعينى ...

ثم مشى والفتاة على أثره ، وهو يتنقل من حجرة إلى حجرة فى مقاصيره ، حتى بلغ عتبة فعالجها حتى رفعها ، ثم التفت إلى الجارية وقال : هذا يا هند قبر ملوك الحضر يدخلونه أحياء إذا خافوا الوقوع فى قبضة الأعداء ، ولا يعلم سره إلا أنا ؛ أخذته عن أبى . كما أخذه هو عن أبيه ، وأنا نازل إليه الآن ، حيث خزائن الحضر ولا تتصورين ما هى ، حيث جميع ما يحتاج إليه المرء من ضرورات الحياة معد حاضر ؛ فاكتمى السر ، وإذا ضاق بك العيش أو تهددك خطر فاحتالى حتى تنزلى إلىّ من هذا السلم ؛ والآن أطلب منك أن تذيعى فى القصر أننى دخلت فى شبه جنون ثم ألقيت بنفسى من بعض النوافذ فى النهر.

قـــــــال : لا يكون إلا ما أمرت يا مولاى ، فانزل بسلام ، وإنى لأرجو أن تستجمعنا الأيام .

فقبلها الضيزن فوق جبينها ثم نزل ، فعادت الفتاة إلى حيث كانت النضيرة وأسماء .

الفصل السابع

كان مع سابور قبل فتح الحضر وبعده أصغر إخوته الأمير أزدشير ، وكان أجمل شبان أهل زمانه ، لا يذكر حسن سابور فى جنب حسنه ؛ وكان أكثر من أخيه الملك بشاشة وأقدر على جذب القلوب بحلاوة الحديث والتلطف فى الخطاب ، يحبه أخوه كثيراً ويعتمد عليه فى المهمات ويستصحبه معه فى فتوحاته ، فلما ملك الحضر ووجدها طليق لأزدشير عملا وتصلح له ، ولأنه صمم فى خاصة نفسه على أن يترك له ملكها ويسامحه فى خراجها فعلا ، أخذ الملك يرشح أخاه الأصغر لهذا الأمر العظيم ؛ فاشترك معه بادئ بدء فى إنشاء حكومة للحضر تكفل لها البقاء الطويل فى قبضة ملوك الفرس وتحت رعايتهم ، ثم أشركه معه مدة فى تدبير هذه الحكومة الجديدة ، يرجع فى كل إلى رأيه ولا يستبد بأمر من دونه .

وكان الأمير فتى عاقلا حكيما ، وحاكما عادلا رحيما ، فكانت دولته فى الحضر بالاشتراك مع الملك دولة تسمح وفضل ، وأيامه فيها أيام رخاء ويسر ، حتى استمال إليه الأنفس واستهوى إلى ولائه الأفئدة .

وكانت النضيرة قد ملكت فؤاد سابور بحيث لم يبق فيه موضع لغير هواها ، فقدمها على سائر زوجاته ، وفيهن أخته لأمه وأبيه ؛ وألقى إليها مقاليد الأمور فى القصر ، فقربت ناسها من حضرته ، وقدمتهم فى خدمته ، فجعلت لأسماء الكلمة النافذة بعدها فى نساء المملكة، تنهى فيهن وتأمر ؛ وحكمت أبا سعد كذلك فى الرجال ، الرأى فيهم ما رأى ، والقول فيهم ما قال .

* * *

مضى على الحضر شهران أو ثلاثة والحال فيهم على هذا المنوال ، لم يقع ما يخل بالأمن أو يكدر الصفو ، إلا أمران صغيران تعب الملك والحاشية بهما كثيراً ولم ينفع فيهما حول ولا حيلة : أمر ذلك الهاتف بعينه ، فقد استمر ينشد سابور فى الأسحار ، بيتيه فى الإيعاد والإنذار ، كفعله مع الضيزن قبيل ضياع الديار ؛ وأمر ابن بكر ، فقد علمت الحكومة الجديدة أنه جرح فى المعركة الأخيرة ولم يقتل ، وكانت تشفق من بقائه حيًا مختفيًا فى بعض نواحى الحضر ، لاعتقادها أن العرب يحبونه ملء قلوبهم ، ويخشى إن هو خرج يومًا إليهم أن يجمع أمرهم ثم يخرج بهم على الحكومة فيحدث لها مشاكل وقلاقل ...

وكان الملك كلما أغضبه العجز والإعياء فى خطب الهاتف وأمر ابن بكر ، كلم أخاه الصغير فى ذلك فلا يجده إلا باشًا هادئًا موفور السكينة ، يقول له : أما الهاتف يا مولاى فعظة مستمرة لا بأس بها ، ونذير دائم لا ضرر منه ، وأحوج ما يكون الملوك إلى المزعجات والمبكيات فى إدبار الملك ، كما كانت حال الهاتف مع الضيزن وفى إقبال الدولة ، كما هى حاله اليوم معنا ؛ وأما ابن بكر فلا خوف على الحضر منه ، ما دمنا على سنن العدل فيها نملك الرقاب والقلوب معا ، لأن الإنسان أبعد الحيوان عن الثورة لا يأتيها إلا إذا بلغ ظلم الحكام له إلى منتهاه .

فكان الجواب المحكم يخرج سابور من غضبه ، ولا يزيده إلا تعلقا بأخيه ومبالغة فى قيمته ، إلا أن صبر الملك عيل أخيراً لهذين الأمرين الهامين ، والحادثين الشاغلين ؛ وكانت النضيرة أعظم منه اهتمامًا وأشد قلقًا واضطرابًا ، وكانت تكثر من حضه وتبالغ فى تحريضه ، وتعيره أنه لا يليق به وهو القاهر فوق ملوك الزمان أن يخرج من يده أمران صغيران ؛ فلم يكن منه إلا أن عقد مجلسًا حافلا بكبراء الدولة وأهل الرأى فى المملكة ، ثم استدعى أزدشير وخاطبه على أسماع الملأ فقال : اعلم يا أعز الإخوة أن لى فى ممالكى الكثيرة وتدبير أمرها الواسع ما يدعونى إلى الخروج من الحضر ، وقد هيأتها لك ملكا لا أسألك عليه جزية ؛ وأنت تعرف ما الحضر ؛ عروس الممالك وجنة الأرض إلا انى اشترط لإنجاز وعدى أن ترينى دليلا على حسن تدبيرك ، وتشهدنى آية

جديدة من آيات دهائك وليس ذاك الدليل ولا هذه الآية إلا أن تكشف لى السر فى أمر الهاتف وابن بكر ؛ وإنى ممهلك سبعة أيام كاملة ، فإن فعلت تركت لك الحضر وخرجت لى العاصمة الفارسية ، وإلا برئت منك وغادرتك تهيم فى ممالكى كبعض السوقة .

فأطرق أزدشير هنيهة ثم رفع رأسه وقال : أمر الملك ممتثل على كل حال !

فلما انفض المجلس كان أبو سعد أول من اجتمع بالأمير ، وأظهر له الاهتمام بأمره والاستعداد لإمداده بالرأى ومشاركته فى التدبير ، بعد ما سمع الملك وقد وعده ملك الحضر ، وهو مع كل من ملك الحضر ، ولو أنه الضيزن منبعثا من مدفنه ، أو ابن بكر خارجا من مكمنه !.

ولم يلبث هذا الخبر أن ملأ المدينة وصار حديث الناس فى غدوهم ورواحهم وإمسائهم وإصباحهم ، فنحن نترك أهل الحضر فى قيلهم وقالهم ، وندع الأمير وأبا سعد فى عملهما وتدبيرهما ، ونخوض فى حديث آخر من أحاديث الرواية ...

الفصل الثامن

كان فى بعض ضواحى الحضر ناحية يقال لها ناحية الجان ، اشتهرت بذلك حديثا وعرفت به فى زمن الحصار . هجرها أكثر السكان ، وانقطع عنها المارة ، وأصبحت يشفق من انتيابها الرجال ، ويرعب من ذكرها النساء والأطفال ؛ وسبب ذلك أن الأهالى كانوا إذا جنّهم الليل فرقدوا ، دخل عليهم المساكن شبح لم يألفوه من قبل ، فى زى لم يعتادوا رؤية مثله ، فمن تركه منهم وشأنه تركه هو أيضًا وشأنه ، ثم فتش البيت عن الطعام والشراب فلم يأخذ منهما إلا كفايته ، ومن تعرض له أو نفر فى وجهه شد وثاقه بحيث يعيا بفكه أشداء الرجال ، ثم يقلب المسكن عن الزاد والماء فلا يأخذ منهما إلا القليل !...

فلما تعددت هذه الوقائع فى الناحية ولم يبق منزل عليها إلا سطا عليه المارد وفعل فيه ما وصفنا ، هجر أكثر الناس مساكنهم ولم يبق إلا القليل من المسالمين الذين يتألفون حتى الشياطين ، وقد تخلصوا من الشر بحيلة سهلة معقولة ، ذلك أنهم تداعوا وتراعوا فاتفقوا فيما بينهم على التناوب فى تقديم الضريبة إلى هذا الضيف الثقيل ، فاختص كل واحد منهم بعشاء ليله يجعله على الباب ، فيمر المارد فيأخذه ، وحيث وجده عدل عن الزيارة ...

وكان فى أقصى هذه الناحية رجل اعتاد الأهالى أن يمروا فوق طريقهم وهو متربع منكفئ فى جلسته ، متلفف فى عباءته ، متلثم من شعر رأسه إلى شعر لحيته ، وهو يتكهن ويكشف عن خطوط الرمل حالا ويجيب كل سائل على مسألته ؛ وكان أول من أنذر سكان الناحية جوار المارد وحذرهم مناوأته والتعرض له بأذى ، وكان لا يأخذ على أجوبته أجرًا ولا يخالط أحدًا ولا يعرف القوم من حاله سوى أنه منجم يظهر فى الصباح إذا بدا ، ويختفى فى الظلام إذا جن ...

وما لبث أمر هذا الرجل أن اشتهر بين الناس ، وعلم به الخاص والعام من أهل الحضر ، فبينما هو ذات يوم فى مقعده فوق الطريق ، إذ وقف به رجلان أحدهما كهل جمع فى هيئته بين دلائل الظرف وآثار الوقار ، والآخر شاب له من سيما النعيم ، فى الوجه الوسيم . ما يدل على أنه من لباب الخواص وإن ظهر هو وصاحبه فى زى عامة الحضر ، فابتدر الأكبر خطابه فقال : لنا غريم أيها الرجل ننشده من زمن ولا نجده ، فهل تنبئنا أين هو وكيف السبيل إليه ؟

فجعل المنجم ينظر فى الأرض ويكتب على الرمل ، ثم يقرأ فى ضميره ما يكتب وهو يخالس الرجلين فى هذه الأثناء النظر ، ثم أجاب : ليس الغريم الذى تنشدانه واحداً يا سيدى ، بل هما غريمان اثنان ...

فالتفت أبو سعد إلى الأمير أزدشير مندهشًا من كلام المنجم ، فما وجده إلا أعظم منه اندهاشا ، ثم استمر فسأله : وأين هما الآن وبأى بلاد أيها المنجم ؟

المنجم : فى بلد واحد وتحت سقف واحد يا سيدى ؟

أبو سعد : أفى الحضر هما أم برحاها إلى غيرها من البدان ؟

المنجم : فى الحضر لم يزايلاها ساعة زمان !

أبو سعد : وفى أى ناحية من الحضر يختبئان ؟

المنجم : نحن إنما نجمل ولا نفصل يا سيدى . ولنا فى العلم مبالغ لا يكون الإنباء إلا بقدرها !

الأمير : لكن يمكن لك أيها الرجل أن تصفهما لنا ولو وصفًا سطحيًا ؟

المنجم : الرجلان يا سيدى فارسان شديدا البأس، وبطلان صعبا المراس ، وكأنى أراهما يصارعان أبطال هذا البلد فيصرعانهم ولا يصرعهما منهم أحد !

فملئ أبو سعد رعبًا من هذا التنبؤ وسأل المنجم : وهل يتهدد حياتهما شىء فى زمن قريب ؟

المنجم : لا يا سيدى ، بل لهما السعادة المستقبلة والهناء العاجل الطويل ، إلا أن حياة أحدهما مرهونة بحياتك أنت ، وهو غاد على خطر قتل إن نجا منه فأنت ناج كذلك ، وإذا قتل هلكت بعده بيوم أو بعض يوم !

فما سمع أبو سعد هذا الكلام حتى لمس بطنه من شدة الخوف ، والتفت إلى الأمير فوجده ضاحكا يتبسم ، فهمس فى أذنه بأن قال : فيم التبسم يا مولاى وأنا ذا مهدد بالقتل منذ الآن ، وأنت مهدد بعد أيام بالنفى والحرمان ؟

ثم أقبل على المنجم مكتئبًا جزعًا فسأله : وهل نلتقى بغريمنا فى هذه الأيام القريبة أيها المنجم ؟

المنجم : لا أملك جواب هذا السؤال ، لأن الغطاء لم يكشف لى أكثر مما بينت ، وهكذا نحن فى علمنا هذا درجات، ولكن على طريق الذئب طاحونًا موحشًا خربًا ، يتردد إليه كل ليلة شيخى فى التنجيم، وأستاذى فى التعليم، حيث يأخذ عن الأرواح السارية، ويستمد من الشياطين المؤاخية، فإن كان أمر الرجلين يهمك كثيراً فاقصده لعلك تنتفع بعلومه!

انتهت بهذا الجواب الشافى مقابلة أبى سعد والأمير للمنجم ، فتركاه وانطلقا آيبين إلى القصر، وقد عقدا العزم من جهة على كتمان أمرهما، ومن جهة أخرى على الخروج بالليل إلى طريق الذئب للاجتماع عليه بالمنجم الأكبر فى الطاحون !...

وفى الواقع لم يمض جزء من الليل حتى خرج أبو سعد وأزدشير إلى طريق الذئب ، وقد أخذا للطوارئ الأهبة ، وحملا ما يحتاجان إليه من السلاح ، فبلغا ذلك الطريق الموحش المخوف ، وهناك أخذا يفتشان فى الظلام الحالك عن مكان الطاحون ، حتى عثرا عليه ، فتأمله أبو سعد فطار لبه وانهلع فؤاده من الخوف ، فلم يزل صاحبه به ملحًا ومشجعًا ومتوسلاً ومتشفعًا حتى أذعن ، فدخل الأمير وأبو سعد على أثره ، لا يدرى من شدة الاضطراب كيف ينقل القدم ، ولا أين يضعها ،

وهناك قلب الأمير بصدره الحديد فى جنبات الطاحون المدلهمة ، فلم ير على المكان من ينبس أو يتنفس ، فقال لأبى سعد : إن الرجل لم يحضر بعد ، ولا بد لنا من انتظاره حتى يجىء.

قـــــال : رحماك يا مولاى ! الموت ولا الانتظار هنيهة على هذا المكان، بين الظلم الداجية ، والأرواح السارية، والشياطين المؤاخية، والذئاب العاوية!..

قـــــال : أما الانتظار فلا بد منه ، وأما جلوسنا فيقضى الحزم أن يكون فوق هذا البنيان المرتفع عند هذه الزاوية ، فهو موضع استعصام وامتناع ، واستعداد عند الحاجة للدفاع .

قال ذلك وصعد إلى حيث أشار ثم مد إلى أبى سعد يده فرفعه إليه ، وجلس الصاحبان ينتظران مجىء المنجّم ، وما ينتظر أبو سعد فى نفسه الجائشة إلا الموت الأحمر !

وبينما هما كذلك لم يشعرا إلا وقد امتلأ عليهما الطاحون من الذئاب ، جاءته من كل مكان بإناثها وصغارها ودخلته مستأنسة ، فلما أحست أنفاس الآدميين ووجدت ريح الإنسيين ، ذعرت واستنفرت ، وقذفت أحداقها بالشرر ، وملأ عواؤها الجهات ، وقد أعماها الذعر فلم تنظر فى خروجها ، ولم تهد للخلاص سبيلا ...

ودهى أبو سعد فالتصق بالجدار ، يكاد يندك فيه كالمسمار ، من شدة الخوف والانذعار !

استمر الحال كذلك حتى منتصف الليل ، والوحوش على وثبة واحدة ، ونغمة واحدة ، حتى فقدت القوى فسقط بعضها سليب الحراك ، وهلك البعض وأشرف على الهلاك ، ثم تلا ذلك الضجيج وتلك الحركة سكون رائع ، ومشهد أهوال وفظائع ، وكانت لأبى سعد طول هذه الساعات كلمات يرددها فى نفسه ولا يحرك بها لسانه المنعقد خوفًا وذعرًا : إلىَّ أبا حمالة !؟... أين أبو حمالة ؟ من لى بأبى حمالة ؟...

وأبو حمالة هو خادم أبى سعد المعروف عند القارئ وكان ظل سيده الذى لا يفارقه ، وطالما نفعه فى الملمات برأيه وبأسه ؛ وكان قد أسر إليه أمر خروجه فى هذه الليلة الليلاء إلى الطاحون مع الأمير ، وأوعز إليه أن يلحق بهما ويتبعهما من بعيد ، ويسهر على حفظ حياتهما إن تهددها خطر ؛ فخرج الرجل بعد سيده بيسير زمان إلى طريق الذئب ، فمشى عليه يفتش عن الطاحون الذى وصفه له مولاه فلا يجده ، إلى أن دله ضجيج الذئاب المتعالى عن المكان ، فجعل يحوم حوله بين الإقدام والإحجام ، لا عن جبن أو إشفاق ، لكن لاعتقاده أن الجبن فى طباع سيده فلا يعقل أنه يخاطر بنفسه إلى الدخول حيث تدخل الذئاب والمبيت حيث تنام !

فبينما هو فى التردد إذا فاجأه رجلان ملثمان مدججان بالسلاح ، كأنهما شيطانان طردا من السماء أو ماردان يهيمان فى الظلماء ، فاستوقفاه ، ثم سأله أحدهما : من الرجل وإلى أين ؟.

أبو حمالة : إن كنتما أيها الرجلان من رعية الملك الذين يرجون له وقاراً فأنا أحد الخدم فى قصره ، ولا يليق أن يوقف لخدام الملك فى طريقهم ؛ وإن كنتما لصين شريرين فإنى أنا أبو حمالة ، شجاع الحضر وبطلها المقدام !.

الرجل : متى علم الغدر والخيانة على الأبطال يا أبا حمالة ، أنت خائن الوطن غادر حاميه : طعنت بطلاً من أبطاله وهو على قدم الإخلاص للحضر فى السر والجهر ، طعنته فى ظهره وهو واقف لجيوش العدو فى طريقها بصدره ، طعنته كما يطعن أصغر اللصوص الأدنياء أكبر قواد الجيوش وهو فى أسر المنام، ورق الأحلام ، يضاجعه الرمح والحسام ، فمالك عندى يا أبا حمالة غير هذه الطعنة فى صدرك ، فخذها من يد يطعن الخنجر بها فلا يخطئ ، لا كيَدِك التى تطعن بالخنجر فهى أمضى وأشد من مدية جزار اليهود .

فسقط لا حراك به ولا روح فيه ، ثم التفت إلى صاحبه وقال: الآن هوى ركن من أقوى أركان الخيانة ، وعما قريب يهوى ركن أقوى وأشد .

ثم قصد الرجلان الطاحون وفى يد أحدهما مصباحه ، فالتقيا على مدخله بالأمير وأبى سعد خارجين بعد ما كان لهما وللذئاب شأن ، وقد عيل صبرهما لإبطاء المنجم ويئسا من لقائه ، فما راعهما إلا هذان المفاجئان وقد خاطب أحدهما الأمير فقال: مكانك يا مولاى ، فأنت منذ الساعة أسير الرعاية والكرامة، لا يفك أحد إلا بإذننا ولو أنه أخو الملك!

الأمير مندهشًا مغضبًا : أنا أزدشير أخو الملك سابور ، يأسرنى لصان شقيان ! إنك لمجنون أيها الرجل !

الـــرجـــل : إليك أيها الأمير ، فما نحن لصان شقيان ، بل نحن بطلان شريفان وسيدان من سراة الحضر . وإنما نحن مسوقان إلى هذا الموقف ، وقديمًا ألجأت الضرورات الكرام !

الأمـــيـــر : وما تبتغيان من أسرى ؟

الـــرجـــل : لنا فى هذا مآرب يا مولاى ، بعد ما يكون هذا الخائن تحت الأرض يحمله بطنها كرهًا كما طالما حمله ظهرها كرهًا !

الأمـــيـــر : تقتلان رفيقى ثم تأسراننى؟.. ما هذا الكلام أيها الرجل؟.. أجلهت أن ورائى ملك ملوك الأرض، وهو أخى الذى شرفى شرفه وثاراتى ثاراته !

الـــرجـــل : كل هذا معلوم يا مولاى ، إلا أن أسرك وقتل هذا الخائن أمران لا بد منهما اليوم ، ثم يكون غداً ما يكون ..

الأمـــيـــر : وكيف يقتل رفيقى بين عينى ولا أذود عنه ؟.. أنا لا أزال مطمئن اليد بالسلاح ولى بأس وفىّ إباء ؟

الـــرجـــل : لا تضحِّ حياتك الغالية يا مولاى من أجل هذا الخائن الغادر الذى لو رآكم فى الشدة لما وجدتموه إلا مع عدوكم عليكم ؛ واعلم يا مولاى من جهة أن الصعلوك لا يرافق الملوك ، ومن جهة ثانية أنك بين يدى بطلين لا طاقة لمائة من أبطال أخيك بأحدهما ، والحياة أهون ما نبذل فى الانتقام من هذا الجبان الخائن !

الأمـــيـــر : ومن تكونان فى الأبطال أيها الرجل ؟

الـــرجـــل : أما أنا أيها الأمير فالهاتف ...

الأمير – فى نهاية الدهش – : الهاتف ؟!... أنت الهاتف ؟...

الـــرجـــل : نعم يا مولاى ، وأنا أيضا ممزق القلادة الذى يعرفه أبو سعد ويحسب أنه مات وفات !

أبو سعد بصوت منخفض يقطعه الدهش والذعر : الحارس ؟

الـــرجـــل : نعم ، الحارس الذى طعنه خادمك فى ظهره ، وهو ما خلق إلا ليطعن فى صدره !

أبو سـعـد : وستكون الثانية هى القاضية إذا أنت قتلت مولاى !

الـــرجـــل مستضحكا : لقد سبقك إلى عذاب النار ، وها هو على خطوات منك مضرجا بدمائه النجسة !

ثم رجع الرجل خطوة إلى الوراء والتفت إلى رفيقه فقال : دنس خنجرك لأول مرة يا ابن بكر بدم هذا الخائن !

فما كاد يستتم حتى جمع ابن بكر فى طعنة واحدة بين صدر الوزير وظهره وهو يقول : اذهب فداء للحضر وصغر الفدى !

ثم التفت الحارس إلى الأمير وقال : عرفت يا مولاى أن صاحبى هذا هو ابن بكر ، قائد جيوش الحضر قبل الحصار وفى أيامه ، وقد كان لنا أعداء أربعة : قُتِل منهم الآن اثنان ، وبقى اثنان آخران هما أشد عدواة ، ولكن خناجر الرجال لم تخلق لما بين النهود يا مولاى !

الأمـــيـــر : ومن تعنى أيها الحارس ؟

الحـــارس : أعنى النضيرة وأسماء ، وقد وكلنا الانتقام منهما للسماء ، والآن أنت يا مولاى حر آمن من الأسر إن أقسمت برأس أخيك الملك أن تأتى بهند إلى هذا المكان فى الليلة الآتية لا يراكما أحد ولا يعلم بأمركما إنسان ، فتدفعها إلينا ثم تنصرف بأمان !

فاستغرب أزدشير الأمر ، وسأل الحارس : وما علاقتكما بهند ؟

قـــــــال : إن ابن بكر يا مولاى يحبها ، وقد كان فؤاده قبل مصيبة الحضر يجمع بين هواها وهوى النضيرة ، ولكنه كان إلى هذه الأخيرة أميل ، فلما خانت ديارها وغدرت قومها وعقت أباها لم يبق فى قلبه لها إلا الحقد ، وامتلأ حبًا ووجدًا على هند ...

فلما سمع الأمير عبارة الحارس وقع فى أعظم حيرة ، وأطرق هنيهة يفكر ، ثم رفع رأسه والتفت إلى ابن بكر فقال : اعلم أيها البطل أنى أنا أيضا أحب هندًا وأنها مضطهدة من أجلى ، يضطهدها عدو فى القصر قادر ، وضد لها فيه غالب قاهر ...

فقاطع ابن بكر مغضبًا فقال : ومن يا ترى يضطهدها ، وهى الحافظة الود الكريمة العهد ، الضعيفة الركن فى قصر الدسائس والخبائث ؟..

قال أزدشير : هذا يا ابن بكر سرى الذى لا يذاع ولا يعنيك فى شىء، وإنما الذى يهمك من الأمر هو أننى أرق لحالك، وأذكر مصائب صبّتها عليك الأيام فأنزع حب هند من فؤادى بيد المروءة ، بعد ما أشرح لها الحال ؛ وأترك لها الخيار، فإن فضلتنى عليك رجعت إليكما فى مساء الغد وأسلمت نفسى إليكما تفعلان بى ما شئتما ، وإن آثرتك علىّ بفؤادها فإنى لا أفعل ما أشرتما به ، ولكن أجمع بينك وبينها على أسماع الحضر وأبصارها وجملة القول فإنى أقسم بمجد آبائى وأجدادى أن أفعل ما قلت ، فهل تقسمان أنتما أيضًا بأن تكونا على الولاء للحكومة القائمة فى الحضر؟

قـال ابن بكر والحارس بلسان واحد : نقسم ، ولا نستثنى إلا النضيرة !

قـــــــال : إذن فإنى آمركما منذ الآن بصفتى صاحب هذه الحكومة أن تتقدما إلى أخى الملك فى صبيحة اليوم الثالث من اجتماعنا هذا ، ولكما علىّ العهود والمواثيق ألا تسقط من رأس أحدكما شعرة قبل أن يسقط رأسى هذا عن سائر البدن !

قال ابن بكر : كذلك أنا يا مولاى ، تركت لهند الخيار فى أمرها ، لأن قلب المرأة كالسعادة ، قد تؤخذ عفواً ولكن لا تؤخذ عنوة .

قـــــال : إذن فلا بد من قدومكما على الملك وعلى كل حال فى الموعد الذى ضربته والآن أودعكما وأنطلق آيباً إلى القصر .

قـــــالا : بل نسير فى ركابك يا مولاى فلا نفترق إلا فى قلب المدينة .

ثم مشى الأمير والرجلان بجانبيه حتى بلغوا مواطن الأمن من الحضر، وهناك أذن لهما فى الرجوع فرجعا إلى مخبئهما فى ضواحى الحضر، واستمر هو فى السير حتى دخل القصر ...

الفصل التاسع

النساء أشد عشقا من الرجال ، إلا أن عشقهن لا يدوم ولا يطول ...

أحبت النضيرة سابور على أثر نظرة نظرتها إليه من مكان عال ومن بعيد ، فخرجت من برها وعفافها ، وأسلمت ملكها وديارها إلى العدو ، حتى إذا بلغت الأمل وفازت من كسرى بأنها صارت له وصار لها هدأت اللوعة وكانت لا تهدأ وتراخى القلب فى الهوى وجاءه السلوان من كل مكان ...

أما سابور فأول ما كان الحب عنده مجانة ومجاراة وفى مصلحته الخاصة ومصلحة الفرس العامة ، إلا أنه اجتمع بالنضيرة بعد تلك النظرة فكانت منه إلى جمالها الفاتن نظرات أوقعن القلب فى أوائل الحب ، حتى إذا فاز بقربها وخلصت إليه وخلص إليها جد الهوى بعد ما كان هازلا ، وصار شغلا شاغلا ، فلم يكن الملك يصبر عن النضيرة ساعة زمن أو يعد من عمره يوما مر به ولم يرها فيه !

إلا أن الملكة لم تقف فى معاملة الملك عند حد السلوان ، ولم تلزم الموقف الطبيعى فى الزواج ، وهو الألفة والاحترام ، بل انتدب فؤادها القلب للغرام مرة ثانية ؛ فأحبت فى الأيام الأول من سقوط الحضر من هو من سابور وسابور منه وإن كان يقل فى كل شىء إلا الملك عنه ، أعنى أخا الملك الأمير أزدشير ...

كان الأمير حلو الشمائل ، يوسفى الجمال ، كريم الخلال ، شريف الخصال ، يعاف الدنايا ويجتنب الصغائر ؛ وكان فوق ذلك على ذكاء عظيم ، فانكشفت له سريرة النضيرة لأول وهلة ، وعرف دبيب الحب من لحظاتها ، فهاله الأمر ، وكره أن يسكن

هذا القلب الذى لا عماد له من العفة والوفاء ، فمثله كالأساس الفاسد ، كلما بنى عليه سقط البنيان من نفسه . وعاف من جهة أخرى أن يبنى له هوى فيه على أنقاض هوى أخيه ، وهو العاشق الوفى ، والزوج الصالح ؛ فكان كلما زادته إشارة وتلميحًا زادها تغاضيًا وتجاهلا ، وهو يبالغ مع ذلك لها فى المداراة من أجل هند ، وإشفاقا عليها أن يدفع الحسد والغيرة بالنضيرة إلى الكيد لها ، وهى قادرة على كل كيد عظيم . أعجب الأمير من أول يوم بأدب هند وكمالها اللذين يزيدانها فى حسنها وجمالها ، فأقبل عليها وأظهر لها العطف ، وخبر نفسها وامتحن قلبها ، فوجدها على سكون وتؤدة ، لا تخرج من حشمتها ، ولا يزايلها وقار ، ولا تقصر فى أدب ولا واجب مما تدعوها إليه وظيفتها فى القصر ، وبالجملة وجد الفتاة قد جمعت بين الخلق الوسيم والخلق العظيم .

أما النضيرة ففطنت للأمر فى أوله ، وكاشفت به أسماء وقد بلغ بها الغيظ وأخذ منها الحقد ، فشددت على الفتاة المراقبة ، ووكلت بها أسماء تحرجها وتضايقها وتحول بينها وبين أزدشير ما أمكن لها أن تحول، ثم ما زال الغرام بالملكة حتى بلغ حداً يتاخم الجنون ، ولم يعد قلبها يقوى على الكتمان ، فصممت على التصريح للأمير بالشكوى مما تقاسى فى حبه وتذوق من إعراضه ، لعلها تؤثر عليه بالسحرين لحظها ولفظها ، وتستدرجه إلى الوقوع فى غرامها ...

فبينما هو ذات ليلة فى مقاصيره الخاصة من قصر أخيه الملك يستعد للنوم ، إذ انفتح الباب فالتفت فنظر عنده النضيرة فى أجمل وأفخر ما ترتدى من ثياب النوم وهى تتبسم قائلة : أيأذن لى الأمير إن دخلت حجرته للسمر برهة ؟.

فاندهش أزدشير وحار فى أمره ، وأجاب بعد تردد : أعظم به من شرف أيتها الملكة لو أن هذا وقته !

فدخلت النضيرة فى سكون وتؤدة وتبسم تقول : ولم لا يكون هذا وقت الأنس بحديثك يا أزدشير ؟

الأمـــيـــر مضطربًا : وأين الملك الساعة أيتها الملكة ؟

النضـيـرة : فى مضاجع زوجته الثانية ، وقد آرقتنى الوحدة فجئت لأسامرك قليلاً ، على أنه ليس هناك موجب لهذا السؤال ولا باعث على هذا الاضطراب ؛ إذ ثقة الملك بى وبك عند غايتها ، فلو رآنا متعانقين على فـراش واحد لما اتهمنا فى جهره ولا سره !

الأمـــيـــر : لكل شىء حد أيتها الملكة ، ولا أظن هذه الثقة العمياء فى طباع الملك ، فهو أعز نفسًا وأشد غيرة وأعظم إباء مما تصفين .

فساء النضيرة هذا الجواب الذى يبشر بالخيبة ، وقالت : وكيف يقف الملك فى الثقة بنا عند حد ، وهو يعتقد أننى لك بمثابة الأخت ، وأنك منى بمنزل الأخ ...

ثم تبسمت وأردفت بأن قالت : وإن كانت الديانة الفارسية – التى هى أيضًا ديانتى الجديدة – تبيح زواج الأخ بأخته والأخت بأخيها !...

فنفد صبر الأمير لهذه الإشارات وقال : أليس للحديث عندنا مجرى غير هذا أيتها الملكة ؟

فكادت النضيرة تهلك غمًا من هذه المعاملة ؛ إلا أنها تجلدت وحملت على النفس الضيم ، ونظرت فى باب آخر من أبواب الحيل تطرقه مع هذا العشيق الجافى ؛ وكانت قد استقبلت فى جلوسها النوافذ المطلة على النهر ، فتكلفت التنهد ثم قالت : مسكين أبى ! من إحدى هذه النوافذ ألقى بنفسه فى اليم !

الأمـــيـــر : حسنًا فعل ؛ إذ الحياة بعد هذا الملك الواسع وهذا العز الممتع ضيعة وهون لا تصير عليهما النفس الأبية العالية !

فسرت النضيرة فى نفسها بهذا الجواب، وأيقنت أن للأمير الشاب نفسًا طامعة إلى المعالى طامحة ، يؤخذ منها بقوة الآمال ما لا يؤخذ بحول الجمال ، فأقبلت عليه تقول : أراك تستعظم ملك الحضر أيها الأمير !

أزدشـــيـــر : وهو حقيقة كبير أيتها الملكة .

النضـــيـــرة : فكيف إذا ضمت إليه الممالك الصغيرة مما حوله من عرب ويمن . ثم كيف بهذا الملك الواسع إذا ألحق بممالك فارس وهى كما هى الآن كثرة وعظمة تحت راية سابور ؟

أزدشـــيـــر : هذا هو ملك الأرض يا مولاتى .

النضـــيـــرة : فكيف بعد ذلك إذا اجتمع لإنسان ملك الأرض فى الصبا الغض ألا يكون أسعد الأوائل وأنعم الأواخر ؟

أزدشـــيـــر : وأنا من ذكرت يا مولاتى .

النضـــيـــرة : كيف ومتى ملكت فارس والحضر وما يليها وأنت فيما أعلم لم ترشح إلا للولاية على الحضر ، وهى وديعة لا تأمنها أن تخرج من يديك ؟

أزدشـــيـــر : أليس أخى ملك الملوك ، الذى مظهره مظهرى ونسبه نسبى وميلاده ميلادى ؟ فأى شىء يفوتنى من ملك الأرض ، اللهم إلا عناء الأمر وتعب السياسة !

فاندهشت النضيرة من هذا الجواب وأيقنت أنها إنما تحارب الفضيلة وتعاوم الأخلاق وتزحزح نفسًا كبيرة من كبرها وإبائها ؛ إلا أنها أرادت أن تجرى فى الخداع للغاية ، فقالت : كان اعتقادى فيك يا أزدشير أنك من عظماء الرجال وكبار الأمراء، الذين لا يفخرون بالتيجان فوق رءوس الغير ، ولا يعرفون من الملك إلا ما كان لهم خالصًا إلى نفوسهم الكبيرة ، ولا أضرب لك مثلا النضيرة فقد ضحيت أبى والحضر وملكها لأصبح ملكة فارس وملحقاته وفيها الحضر ، وقد بلغت أملى وأصبحت أنهى وآمر على فؤاد سابور، أضعاف ما كنت أحكم فى قلب الضيزن... وأين الأخ من الأب يا أزدشير ؟ فإنك لا تأمن سابور فى وقت من أوقات غضبه أن يطير هامتك عن رأسك بحد سيفه ؛ أما الضيزن فعهدته لو رآنى والخنجر فى يدى وأنا أقترب من فراشه لأطعنه لما توهمنى فاعلة ولا تحرك من مكانه يقاوم القاتلة !

فما انتهت النضيرة حتى غلب الغضب أزدشير على حلمه ، فالتفت إلى النضيرة وقال إنى لا أفهم ما تقولين أيتها الملكة ، ولا أجد محلا لكل هذه الرموز والإشارات ...

النضـــيـــرة مغضبة ثائرة : لم أرمز ولا أشرت، وإنما صرحت وبحت وإن استزدتنى قلت لك يا أزدشير إن شقائى أوقعنى فى حبك !....

أزدشـــيـــر : حبى ؟ ما هذا الكلام أيتها الملكة ؟ أليس للحديث آخر ؟

فعلمت النضيرة أن الأمير يختم الحديث بهذه العبارة ، ويطردها من حضرته بهذه الإشارة ، فقامت بسكون وتؤدة ، ورجعت إلى الوراء خطوات متمهلة متثاقلة ، تنظر إلى أزدشير نظرة استغراب واستنكار ، وترمقه بعين مقت واحتقار ، ثم قالت : اعلم يا أزدشير أنك جرحت اللبؤة وتركتها ، وتحرشت بأفعى لا طاقة لك بها ، وأن التى أخرجتها من حجرتك على هذه الصورة قادرة على أن تخرج نفسك الأبية من إبائها ، فإن عيت أخرجتها من هذا الهيكل الجميل لم ترحم له شبابا ولم تحسب لجماله حسابًا ...

ثم التفتت عرضًا وهى منصرفة ، فوقع نظرها على شىء هالها وفزعها وأنساها ذكر ما هى فيه من موقف حرج ، فصرخت قائلة : ويلاه ! ماذا أرى ؟.. خيال أبى عند هذا الباب يرى ويسمع !...

فاندهش أزدشير من هذه الحركة الفجائية وهذا الكلام الغريب ، فوجه البصر وجهة الزاوية فلم ير شيئًا ، وكان الباب قد أغلق بعد ما انفتح وتوارى خلفه ذلك الشبح ، فقال للنضيرة : ليس ما رأيت أيتها الملكة إلا روح الضيزن الطاهرة هائمة فى الوجود تشهد عليك فى الدنيا وفى الآخرة !

قـــــالت : لا ضرر ولا ضرار ، إن هذا إلا خيال سار ، وسيلحق به كل غر أحمق يهين النضيرة !

ثم خرجت من الحجرة تدب وتنفث كالأفعى الثائرة القائمة على ذنب ، وتركت أزدشير مطمئن النفس ناعم البال مستريح الضمير ، فاستعاذ من شيطان المرأة ثم نام .

مضت على هذه الحادثة أيام ، والأمير لا يلقى لها بالاً ، والنضيرة تتظاهر بنسيانها وتبالغ فى حفظ الظواهر بكتمانها ، إلى أن حدث ذات ليلة ، وهى الليلة التى هلك فيها أبو سعد وخادمه وجرى بين الأمير وبين بطلى الحضر ما جرى مما تقدم ذكره ... أن الأميرة دعت إليها هنداً وخلت بها فقالت لها : اعلمى يا هند أن لى عيناً لا تنام ، وأننى أعلم كل صغيرة وكبيرة مما يجرى فى هذا القصر ، بل مما يقع تحت سماء الحضر ، وقد عرفت من أول يوم علاقة أزدشير بك فى الخفية ، وأنه يجتمع بك ، وكثيراً ما دخل عليك حجرتك ودعاك إلى مقاصيره الخاصة ، والآن أسألك ولا خوف عليك من قول الصدق ، بل الخوف عليك كل الخوف من الكذب : هل تحبين الأمير بقدر ما يحبك ؟

وكانت هند فتاة طاهرة القلب سليمة النية ، فأغضت حياء ثم رفعت الطرف وقالت : لا أحبه حب الهوى يا مولاتى ، لكن لأنه أهل للحب ، فهو شريف الأخلاق ، كريم الطباع ، عفيف اللفظة واللحظة ، يحادثنى فلا يخرج من حشمته ولا يحيد عن الأدب فى حديثه معى ، ويتحيل حتى نجتمع على خلوة فلا يزداد إلا احتشاماً وعفافاً .

النضيرة : إذن فأنت لم تبلغى فى الميل إليه إلى العشق ؟

الجارية : لا أكتمك يا مولاتى أننى أريد لأجزى الأمير عن عشق بعشق ، ولكن قلبى لا يطاوعنى على ذلك .

فتبسمت النضيرة ثم قالت : من النساء يا هند من لا تعشق إلا مرة وإذا عشقت ماتت بالحسرة ، وأنا أعرف من عشقت فى الزمن ، ومن أنت على عهده حتى الساعة ...

فاعترت الفتاة هزة لهذا التلميح واغرورقت عيناها بالدموع ولم تنبس ، ووصلت النضيرة الحديث فقالت : كنت تخفين هوى لابن بكر يا هند ، وكانت أسماء مثلك تكاد تموت عشقًا ، وكنتما ترجوان وقارى فيه وتعلمان أنى أحبه وأنه يحبنى فلا تزاحمانى عليه ، وكنت ألاحظ أنه أشد إليك ميلا منه إلى أسماء ، بالرغم مما يتملك مهجته من عشقى وغرامى ؛ والآن يا هند أكلفك بأمر وأرجو أن ستقومين به على قدم الطاعة ...

قالت الفتاة : ماذا تأمرين يا مولاتى ؟

قـــــالت : إذا كان قبيل وقت النوم فانتظرى الأمير فى حجرتك ، فإن لم يدخلها عليك فادخلى أنت عليه حجرته ، ثم البثى معه إلى أن تأتيك منى إشارة بالخروج، وفى هذه الأثناء أخرجيه من عزته وكبريائه بكل قوى الجمال، واستعملى معه نهاية سلطان النساء على الرجال ، لحمله على طلب الاقتران بك من الملك ومنى ؛ لأن الحضر تعتز بكل مصاهرة من هذا القبيل ، ولا أخالك تكرهين لها المزيد فى العز ؛ وهذا الذى أراه لك أراه كذلك لأسماء ، فقد عقدت العزم على أن أسعى فى تزويجها من الأخ الثانى للملك ، وهو الآن فى عاصمة فارس يحمل الأمر عن أخيه ويقوم مقامه فى سياسة المملكة ، فإذا تم لها ذلك كذلك تحول الحال وانعكس الأمر ، فتصبح فارس فى قبضة الحضر بعد أن كانت الحضر فى قبضتها ، فاتبعى يا هند نصحى وانظرى فى مصلحة الحضر عموما ومصلحة نفسك خصوصاً، ودعى عنك ابن بكر وانسى ذكره ، ولا تعديه إلا فى الأموات ولو كان حيًا يرزق ، واعلمى أن الغرام حال يحول ، وجنون يزول ، ثم تندم الأنفس إذا ثابت العقول !

قالت الفتاة : أمرك يا مولاتى ممتثل ، وما ترين لجواريك أفضل .

وعندئذ أذنت لها الملكة فى الانصراف ، فانصرفت منقلبة إلى حجرتها ، وهناك لبثت فى انتظار أزدشير أن يزورها بالليل كعادته فلم يفعل ،

فقصدت مقاصيره وترددت إليها مراراً فلم تجده لديها ، فراعها ذلك واستغربت الأمر ، لا سيما أنه لم يكن من عادة الأمير أن يتغيب عن القصر ويحتجب عنها معظم ساعات الليل ، فلما ملت الانتظار لزمت حجرتها آيسة من لقاء الأمير فى تلك الليلة ...

وبينما هى تلبس للنوم لباسه وتستقبل المضاجع إذ دق باب الحجرة دقًا خفيفًا فابتدرت فتحه، وإذا هى بأزدشير فى زى ليس بالمألوف عندها ، تبدو عليه دلائل التعب ، وترى عليه آثار الجهد والنصب ، فرحبت به وبالغت له فى الملاقاة وسألته : ما هذه الهيئة يا مولاى ؟ وما أخرك عنا حتى الساعة ؟

الأمـــيـــر : أنسيت يا هنـد أن الملك أمـرنى بأمـر ورهن بتحققه أو عدمه سعادتى أو شقائى ؟...

هـــنـــد : لعلك كنت فى البحث عن ابن بكر والهاتف ؟

الأمـــيـــر : نعم ، ويا ليتنى مت قبل هذا ، فلا أرانى على الحالين إلا كالباحث عن حتفه بظلفه، إذا وجدت ابن بكر فقدت حبيبة القلب، وإذا لم أجده فقدت ثقة الملك ومحبته ورضاه ، وكلا الشيئين عندى من أنفس الأعلاق !

هند مبتسمة : ومن تعنى بحبيبة القلب يا مولاى ؟

أزدشـــيـــر : أعنى التى تتجاهل ، والتى لا تجزينى عن حب بحب ، حتى خفت أن أكون مشوه الخلقة ولا أدرى أو غليظ القلب ولا أعلم !

الجـــاريـة : ولم لا يا مولاى ، وهذا جمالك يسير كالأمثال ، وهذه أخلاقك تسترق لك القلوب ، وأنت من ملك الملوك بمكان تحسدك عليه الشمس فى كبد السماء ، فكيف تجسر جارية مثلى على التأخير عن هواك ، بله جفائك وقلاك ؟...

أزدشـــيـــر : إذن فأنت تحبيننى يا هند !

الجـــاريـة : ولم لا يا مولاى، وأنت كل يوم تأسرنى بهذه الشمائل اللطيفة، ولا تزداد إلا عطفًا علىّ وإحسانًا إلىّ .

أزدشـــيـــر : لكن قلبى لك وحدك ، فهل قلبك لى وحدى ؟

الجـــــارية : لعله كذاك يا مولاى !

أزدشـــيـــر : وأين ابن بكر يا هند ؟

الجـــــارية : مولاى أدرى منى بأنه مفقود منشود ، لا يدرى أفى الموتى هو أم فى الأحياء .

أزدشـــيـــر : هبى أنه حى يرزق يا هند، وأن السبيل إليه ميسر، هل تخفين للقائه ؟...

الجـــــارية : لو أمكن لطرت إليه الساعة يا مولاى !

فكاد هـــذا الجواب يخرج الأمير مـــن صـــوابه ، فقال : ليس لمخلوق من قلبين ولا جمع قلباً بين حبيبين ، بحت لى بالحب من هنيهة ، فكيف لا تزالين تحفلين بابن بكر وتتحدثين بالطيران إليه، لو استدللت ولو بعد منتصف الليل عليه ؟...

الجـــــارية : ذلك لأنك يا مولاى مثاله ، حسنك حسنه وخلالك خلاله ، إلا أنه حضرى كما أنا حضرية ، فكلانا لصاحبه أهل وبه أحق .

أزدشـــيـــر : هبى يا هند أن ابن بكر واقف بجانبى الساعة، وأنّا كلينا فى الغرام بك سيـان ، ثم عرض عليك كلانا أن تكونى له صـاحبـة ، فـأى المحـبين تفضلين ، وأى الزوجين تختارين ؟

الجـــــارية : اعلم يا مولاى أن منزلتك فى الحب عندى تعدل منزلة ابن بكر ، بل ربما كنت للنفس أملك ، فقـد رأيت مـن عطفـك والتفاتك وجميـل مواساتك ما لم أر عشر معشاره من ابن بكر ، ولكنه كما تعلم يا مولاى منكوب رمـاه الدهر بالأرزاء ، وضـاقت عليه الأرض والسـمـاء ، وأصـبح لا فى الموتى ولا فى الأحيـاء ، كل هذا بعد مـا أبلى فى الدفـاع عن الحضـر أحسن بلاء ، وما كان أسهل مركب الخيانة يا مولاى لو شاء ابن بكر وشاءت له نفسـه الشريفة العاليـة ، وما كان الملك يبخل عليه بالوزارة لو دله على عورات الحصون فى أوائل الحصار ، وكفاه مشقة الاغتراب ومـرارة الانتظـار ، إلا أن ابن بكر وفى للحضـر حتى خانه الزمن ،

فإن كان قد مات يا مولاى فذكره فى قلب كل حضرى كريم حى لم يمت ، وإن كان لا يزال حيا يرزق فحق على كل حضرى شريف أو حضرية حرة محبته على البعد وحفظ عهده وإتباعه الكرامة حيث وجد وبأية حال كان ، وحبذا يا مولاى لو تحقق ما فرضت من ظهوره بعد الخفاء وإظهاره الحب لى، وطلبه الاقتران بى ، فإن هذه تكون أثمن فرصة تهيئها العناية لحضرية مثلى لكى تكافئ ذاك الذى حمى الأوطان حولين كاملين ثم خرج من نضر الشباب ورخى الحال ، وعزيز الآمال ، صفر اليدين !...

ختمت هند عبارتها واغرورقت عيناها بالدمع ، فتركت الأمير بين المهابة فيها والإعجاب ، وفى أعظم الحيرة لا يدرى كيف يحل محل ابن بكر فى فؤاد هذا الملك الطاهر ، إلا أنه واصل الحديث فقال : لكن هبى ابن بكر يا هند بلغ به سوء الحال إلى منتهاه ، فاندلح فى سلك قطاع الطرق ، وبات طريد الحكومة والناس ، لا يصبر على مكان واحد ، ولا يجسر أحد أن يأويه ، ثم خيرت بين أن تكونى لى أو تصيرى له ، هل تفضلينه علىَّ وهو على تلك الحالة ؟

هند : لو رأيت ابن بكر يا مولاى بعينى رأسى وهو يعترض السابلة ويقطع الطرق لما صدقت عينى ، إذ عهدى به بطلا شريفا ، وأميراً كريماً عفيفًا ، يركب المنايا ولا يقرب الدنايا ، ولا أخالك إلا أردت أن تقول إن الشقاء بلغ به والبؤس أخذ منه ، ونكد الدنيا صب عليه ففى هذه الحالة يكون موقع المكافأة أجمل ، ويكون حق ابن بكر قبلى أكبر وأعظم ، وإنى لأتمثله كما وصف فلا أزنه بسابور وأزدشير ، وكل ذى ملك فى الأرض كبير !

فلم يكن من الأمير على أثر هذا الجواب إلا أن أمسك رأس الفتاة بكلتا يديه وقبلها فوق جبينها، ثم قال : قد آن يا هند أن يبر القسم، فاعلمى أننى قد نزعت حبك من فؤادى بيد المروءة والعفاف ، وأنى وهبتك منذ

الساعة – وأنت منى بمنزلة الروح التى لا توهب – لصاحبك ابن بكر الذى يحبك فوق ما تحبين ويرقب لأجلك الفرص مثل ما ترقبين...

فاندهشت الفتاة من هذا الكلام واستغربت الأمر وسألت أزدشير : لعلك تمزح يا مولاى، أو عساك تسخر منى ، وإلا فمتى لقيت ابن بكر ؟ وكيف ؟ وأنى ؟ وهو إما متقادم العهد على الممات ، وإما حى شارد يطارد الوحوش وتطارده على بعض الفلوات ؟

أزدشير : المقام مقام جد يا هند ...

وأمسك الأمير موجها أذنه إلى الباب يستمع ، وقال : إنى أسمع نقل أقدام خارج الباب ، فمن ترى يسترق السمع ويحصى علينا ما نقول ؟

هند : لا تخلو القصور من مثل ذلك يا مولاى ، فلعل بين الجوارى من لا تزال تؤدى الخِدَم من هذه الساعة من الليل ؛ أما أنا فقد فرغت من عملى وحملت إلى حجرة الملك شرابه الذى يتعاطاه كل ليلة قبل النوم ، والذى اتخذنى أمينة عليه من أول يوم ...

أزدشير : فلندعه الآن يشرب شرابه ، وأنت فاسمعى يا هند : قلت لك إن المقام مقام جد ، وأنت أكرم وأطهر من أن يسخر منك ؛ فاعلمى أننى لقيت ابن بكر وعرفته وعرفنى ، فلم يزدنى اللقاء علمًا بمكانه بين كبراء الأبطال وكرماء الرجال ، وقد وعدته بك ، ولا يمضى القليل حتى تزفى إليه بمرأى من الحضر ومسمع ، فيكون قد كوفئ بذلك آخر الأمر ، وتجزين أنت أيضًا عن صدقك وأمانتك وجميل صبرك ...

فى هذه الأثناء كان إنسان خلف باب الحجرة يسترق السمع ويقول همسًا لمن حوله : ويلاه ! ماذا أسمع ؟ «لندعه الآن يشرب شرابه ...» «لقيت ابن بكر وعرفته وعرفنى وسأكافئه وسأجزيك...» ما هذا الحديث؟ ماذا يدبر الخائنان ؟ لقد ثبت عندى أنهما أرادا قتلى ، ولكن النار نجتنى فلها الحمد والتقديس !...

ثم لم يدر أزدشير وهند إلا بالباب وقد انفتح عنوة ودخل الملك تتبعه النضيرة وأسماء ورجال من حراسه بالليل ، وهو مغضب محنق ثائر الوجدان ، فالتفت إلى أزدشير يقول : ماذا تدبر أيها الخائن الغادر ؟ لقد بطل كيدك يا كافر النعمة ، ويا قابيل زمانه أبا السم الزعاف تريد أن تجزيني عن حبي ورعايتي وعطفي وحنوي ؟...

فدخل الأمير في أشد الدهش ، وهند كذلك ، فجعلا ينظر أحدهما إلى الآخر ولا يدريان كيف يجيبان ، إلا أن السكينة لم تزايلهما ، ودلائل البراءة كانت تبدو على وجهيهما الطلقين الكريمين ، فخطا أزدشير خطوات نحو أخيه وقال : أتدرى أيها الملك من تتهم ... تتهم أخاك لأمك وأبيك ... تتهم دمك الذى فى عروقك ... تتهم أجدادك وآبائك بأنهم حملوا الغدر والخيانة والسفالة والدناءة فى أصلابهم دهراً طويلا ... إنها لمكيدة يا مولاى ، ولا يدبر مثلها إلا امرأة ، ولا تكون هذه المرأة إلا تلك التى كادت لأبيها ووطنها وقومها من قبل !

كان الأمير يتكلم والسكينة والهدوء وروح الحق ملء محياه كما هى ملء خطابه حتى خشعت العيون فلم تثبت فى وجهه ، وتحول غضب الملك وكان فى نهايته إلى انذهال ، وتخبل فجعل ينظر إلى أزدشير مرة وإلى النضيرة أخرى ، لا يدرى أى الحبيبين يتهم ، ثم قال : لكنى رأيت السم بعينى وسمعت حديث الخيانة بأذنى!...

أزدشير : بل بعينها رأيت يا مولاى وبأذنها سمعت !

الملك : ويحك! ألم تدس لى هذه الخائنة – وأشار إلى هند – السم فى شرابى؟

أزدشير : على رسلك أيها الملك ولا تتهم فتظلم ... ليس هنا إلا خائنة واحدة ، وليس تحت سماء الحضر من أثر للخيانة إلا ما تضاجع كل ليلة !

الملك : أتدرى يا أزدشير قدر من تتهم ؟

أزدشير : لا قدر لخائنة أبيها وزوجها يا مولاى !...

وفى هذه الأثناء لم يرع الحضور إلا خروج قصير الفارسى من خلف ستار فى الحجرة كان قد كمن وراءه وهو يتقدم بين يدى الملك كأنما يريد أن يؤدى الشهادة ، فحدقت الأبصار ، وطالت الأعناق ، واندهش الملك ، فابتدر خطاباً قصيراً يقول : من أين يا قصير ؟

قصير : من حيث كنت أرى وأسمع يا مولاى ، فى سبيل خدمتك ، وسهرا على حفظ حياتك الغالية !

الملك : وهل كان يتهدد حياتى خطر يا قصير ؟

قصير : نعم ، خطر عظيم يا مولاى ، فإنى رأيت الأمير وهنداً يكثران من الاجتماع على خلوة فى هذه الأيام الأخيرة ، ويطيلان التحادث فى الخفية ، فارتبت بالأمر ، وجعلت أتجسس حتى أيقنت أن هناك سراً عظيما وأمراً جسيماً ولكيلا أنقل إلى الملك شيئًا لم أستوفه خبراً وخبراً، كمنت لهما مرات ، ليلة فى حجرته وليلة فى حجرتها ، إلى أن كانت الليلة ، فسمعت الحديث كما جرى ، وإنه لمهول يا مولاى يكاد لسانى لا ينطلق به !

الملك : ماذا سمعت؟ قل ولا تخف، وإياك أن تكذب، واذكر أن عقابى شديد !...

قصير : علمت يا مولاى أن هناك ملأ مؤتمرين على قتلك ونزع الملك منك وليس زعماء هذه الفتنة إلا أخاك الأمير وجاريتك هند وابن بكر الذى سمعت الأمير يقول إنه يجتمع به كل ليلة ، وأنه لا يكون الصبح حتى يستوزره على جيوش الحضر !

الملك : ألم يجر للسم ذكر فى خلال الحديث ؟

قصير : لم أسمع يا مولاى غير ذكر الشراب وأن هنداً حملته إلى حجرتك الشريفة وأن جرعة منه كافية لتسلب الفيل الحياة على الفور !...

فالتفت الملك إلى أزدشير وقال : ماذا تقول أيها الخائن ، وما جوابك على هذه الشهادة الخالصة ؟

فلم يزد الأمير إلا سكونا وتؤدة ، وقال : إن السم قد دس لى لا لك يا مولاى ، ولكنه لا يضيرنى ؛ فقد كان منه الكثير القتال فى أنياب النضيرة ، إلا أنها نفثته كله فى أبيها ووطنها وقومها ؛ وليس هذا الرجل الذى خدم الضيزن فى عزه ، ثم خدمنا فى دولتنا ، إلا نابا من تلك الأنياب الكليلة التى لا ضرر منها ولا ضرار .

فالتفت الملك عندئذ إلى من حوله من الحراس وأمرهم بأن يسوقوا الأمير والجارية إلى سجن القصر ليبيتا فيه ، إلى أن يرى فيهما رأيه !

الفصل العاشر

الحوادث بنات الليل ، إذا سكن تحركت ، وإذا رقد الراقدون استيقظت ، وقد تتجنب الذى توقعها واستعد لها فبات غير موسد من قلة القرار وفرط الرقبة والحذار ، وتفاجئ الذى لم تخطر له على بال والذى اضطجع فى سرير عزته ومجده وعلى فراش نعيمه ، وترفه مسروراً بأول الليل واثقًا بآخره ...

يا راقد الليل مسروراً بأوله

إن الحوادث قد يطرقن أسحارا !

ضم سابور والنضيرة الفراش ، ثالثهما الحب ، رابع الثلاثة الأمن ، خامس الأربعة الملك الذى يصرفان به الأقدار ويأمنان معه الحوادث أن تطرق فى الأسحار فما ذهب من الليل ثلثاه أو نحو ذلك حتى انتهت النضيرة من نومها على خلاف العادة ، فجعلت تتضور ويجد بها القلق والأرق ، حتى استيقظ الملك من اهتزاز المضاجع ، فقال لها وهو مشفق واجد متلطف فى الخطاب : ماذا نبه الملكة من منامها فى السحر ، وعاداتها أن تطلع مع الشمس على هذا الوجود فيسرق بنورهما للناظرين ؟ لعلك مفكرة وهذا من فعل الفكر ، أو هذه نزوات ألم ؟

النضيرة : لا فكر يا مولاى ، ولا ألم ، ولكنه جسم غريب التصق بجسمى فآذاه ولا يزال ، ولقد التمسته طويلا فلم أجده ، ولولا أننى أشفقت عليك من حركتى أن تخرجك من رقادك لنزلت عن الفراش أول الأمر ونفضت جسمى من هذا الذى دب إليه .

ســـــابور : وماذا عسى أن يكون دب إلى مضاجع سابور وهى لا ترقى إليه الحادثات فكيف تدب إليها الحشرات ؟

النضـــيـرة : لكن أتأذن يا مولاى فننزل لعلنى أخلص من عناء ما أنا فيه ؟

ســـــابور : انزلى، فإن كان ذا جناح ملكت عليه الجو أن يطير فيه اقتصاصًا منه وإن كان دبابا حميت الأرض فلن يدب عليها عقوبة له !

فهبط سابور الأرض والنضيرة على أثره ، وعمدا إلى مصباح كبير فى زاوية من الحجرة السلطانية ، ذلك المصباح الذى كانت النضيرة تتناول عنده طعام العشاء بحضرة الضيزن بين عينيه ، فوقفا فى ضوئه ، وهناك نفضت الأميرة غلائلها نفضا ثم طرحت بعضها أرضا وهى تتلفت حولها والملك ينظر تحت قدميها ، فإذا هو بشىء قد سقط على الأرض لا تكاد العين تميـزه مما على الطنافس من بديع النقـوش ودقيقها ، للطافته ودقة حجمه ، فتناوله الملك وتأمله ، فاستضحك ثم التفت إلى النضيرة وقال: أتدرى الملكة ماذا أرقها طويلا وآذاها طويلا؟

النضـــيـرة : ما ذاك يا مولاى ؟

المـــلـــك : شىء لو دب إلى القماط لما تألم الرضيع ولا بكى ، ولو وقع على جرح فى مقتل لما تأذى الجريح ولا اشتكى ... هو هذا ... شىء ورقة آس ! ثم عرض الورقة عليها ...

النضـــيـرة : قد يكون ذلك يا مولاى ...

المـــلـــك : خبرينى أيتها الملكة ، كيف كان طعامك على عهد الضيزن ؟

النضـــيـرة : كان طعامى الشهد ومخ الغزال لا غير ، وكان أبى لا يطيب له الرقاد إلا إذا تناولت ذلك بين عينيه فى هذه الحجرة فى ضوء هذا المصباح...

المـــلـــك : الشهد ومخ الغزال!... فى هذه الحجرة!... فى ضوء هذا المصباح!...

ثم قـــال فى نفسه : إلى الضيزن ينتهى بر الوالد ، وإلى هذه الغادرة ينتهى عقوق الولد !...

ثم إنه جعل يكرر هذه الكلمات والغضب يستحوذ عليه قليلا قليلا ، حتى تملك نفسه وغلب عليها ، وعندئذ خرج من صورة الأنام ، ودخل فى جلد أسد به جرح دام ، أو سغب نام ، فاستقبل النضيرة كأنه القضاء إذا نظر ، أو الموت إذا حضر ، وقال : تشهد عليك هذه الحجرة . ويشهد هذا المصباح ، أنك الخيانة مجسمة والغدر مصوراً واللؤم جميعاً فى ثياب امرأة ، وأنك أسأت إلى أب كان باعترافك مثال الآباء ، فلن تكونى أكثر إحسانا إلىّ ولا أكرم عهداً معى، فلأنبذنك نبذ النواة ، ولأجعلنك المحتقرة المنفية بين الجوارى والإماء !

عند ذلك ترامت النضيرة على قدمى الملك ، وسبقتها إلى ذلك غدائرها المرسلة الفتانة . فكادت تغلب الملك على أمره بالشفيعين : الجمال ، ودمع الدلال ، لولا أن عناية المنتقم الجبار ساقت الهاتف فى تلك الساعة الرهيبة فرفع صوته مترنما بالبيت المألوف ، وهو يرن فى قلب النضيرة كالقوس الهتوف :

لا تخدعنك النساء يا ملك فكم رجال بكيدها هلكوا
للدهر فيكم مشيئة سبقت وليس يجرى بغيرها الفلك !

فأطرق الملك هنيهة يفكر وقد خطر أزدشير على باله ، ثم رفع رأسه واقترب من نافذة تطل على ساحة القصر . وأومأ إلى النضيرة أن تدنو فدنت ، فقال لها : انظرى أيتها الملكة ، ما هذه النار الساطعة الذوائب وفيم أوقدت ولمن ؟

النضيرة : علمها عند الملك !

سابور : إذن فاعلمى أنها أعدت لأزدشير ، ولا يسفر الصبح حتى يكون لها حطبًا ، وأنت تدرين من أزدشير ... أخى الذى كان منى بمنزلة الولد الصغير الواحد ، فحلت بينى وبينه ، بل حلت بينه وبين الحياة فى ريعان الصبا ، والآن أستحلفك بما عبدت أولا وما عبدت أخيراً من آلهة

الحضر وفارس . أن تردى على نفسى الطمأنينة فى أمر أزدشير ، ولا خوف عليك على كل حال ، فإن كان حقيقة أراد قتلى وخرج علىّ فى الخفاء فإن الصبح قريب وهذه النار حاضرة ، وإن كنت قد كدت له كما يقول وأوقعته فى مصيدة فاعترفى أعف عنك من فورى وأذكر لك بنجاة أزدشير أعظم جميل !

النضيرة : أقسم يا مولاى أنه خان عهدك ، وأصرح الآن بخيانة أكبر وجناية أعظم ، وذلك أنه أراد أن يخونك فى عرضك فلم ينجح فيما حاول ! فكاد الملك يجن من هذا التصريح المهول ، وصاح بالنضيرة يقول : أزدشير تهدد عرضى ؟... أزدشير رام منك خطة سوء ؟... وأين ؟ ومتى ؟ صرحى أيتها الملكة !

النضيرة : منذ أيام يا مولاى ، وفى مقصورته ، بينما كنت أحادثه كما تحادث الأخت الحضرية أخاها ...

الملك : وأين هذه المقصورة ، وعلى أى مكان منها هم الخائن بزوجة أخيه ؟... أرينى ذلك كله الآن ...

وفى هذه الأثناء كان الفجر قد طلع ، وكانت ساحة القصر قد غصت بالجماهير من حضريين وفرس ، أتوا من كل مكان ليشهدوا قتل أزدشير الذى امتلأت الحضر من أحاديثه وأخباره ، وكان فى جملة الجمع فارسان ملتثمان مدججان بالسلاح ممتطيان جوادين من أكرم الجياد ، وكان أحدهما يقول للآخر همسًا : أيدخل أزدشير وهند النار وفى عروقك قطرة دم يا ابن بكر ؟ فأجابه : بل نخرج روح سابور من جسده قبل أن تسمهما هذه النار ! قال : إذن فالوداع الوادع من الآن، وتكفل أنت بالملك والنضيرة، وأنا على هذه الجموع أكيلهم بالسيف كيل السندرة ...

مشى الملك والنضيرة تتبعه حتى دخل مقصورة أزدشير ، فجعلت الملكة تصف له كيف كان جلوسهما ، وتشرح له كيف هم الأمير بها ، وهو لا يزداد إلا غضبًا حتى إذا فرغت من كلامها صاح بالحراس والجند ، فامتلأت منهم الحجرة ، فأمر بأزدشير وهند أن يؤتى بهما على الفور ، فلم يكن كلمح البصر حتى جيء بهما ، فحين وقع نظر سابور على أخيه ابتدر خطابه فقال : النار يا أزدشير فى انتظارك فاعترف قبل أن تلقى فيها، ففى اعترافك لى بعض راحة للخاطر ، وقل لى كيف اجترأت على عرضى فحاولت أن تدنسه وأنت حفيظه الطبيعى بصلة القرابة ؟

لم يزد أزدشير فى الجواب على أن تبسم ثم قال : عرض الملك لم يتعد زوجاته الفارسيات ، ولا أجد هذه الخائنة إلا قد سخرت من الملك فنسبت إلىّ ما صدر عنها، إذ حقيقة الأمر أنها بذلت لى نفسها فصنت عنها نفسى؟

الملك : لقد ظهر كذبك أيها الخائن وثبتت جنايتك ، فلو كانت دعواك صادقة لحملتك المروءة وغيرة القرابة على مكاشفتى بالأمر حال وقوعه ، فاستعد الآن للعقاب !

ثم التفت حوله وقال : خذوا أيها الجند هذين الخائنين فألقوهما فى النار !

فدار الحراس بهند وأزدشير وخرجوا بهما وهما لا يزدادان إلا سكوتا وتؤدة إلا أنهما لم يجاوزا الباب حتى أتاهما أمر الملك بالرجوع ، فرجعا ، فإذا هما بمشهد عجاب ، وموقف لم يكن فى الحساب ، وذلك أن بابًا للحجرة انفتح ، ثم أقبل منه الضيزن فى ثوب أبيض وهو يجرجر أذياله ويتقدم نحو الملك فى سكون ووقار ، فتفزع سابور ومن معه ، وصرخت النضيرة قائلة : ويلاه ما ذى أرى ؟. خياله ...

الضيزن : بل حقيقته يا عدو السماء ، وعار بنات حواء !

ثم التفت إلى سابور وقال : لا تجفل أيها الملك ولا ترع ، إنى أنا الضيزن ، خرجت من مكمنى لا من قبر ، وكأنما استبقتنى العناية

لأنقذ نفساً طاهرة، وأزكى سيرة عاطرة، فمر بأخيك وهند أن يحضرا وإياك أن يمسهما ضر فتكون من الظالمين !...

فأمر الملك بهما فارجعا كما قدمنا ، وعندئذ واصل الضيزن خطابه للمك فقال: أشهد وأنا الأب الذى لا تدفع شهادته، والشيخ الفانى الذى يخاف الآخرة ، أنى رأيت وسمعت ابنتى ووحيدتى هذه تراود أخاك هذا عن نفسها ، فى هذا المكان وهو يلوذ بالإباء ويستعصم بالعفاف ، إلى أن عيل صبره لفجورها وتهتكها ، فطردها من حجرته ، وفى هذه الأثناء تراءيت لهما ، فصرخت النضيرة وقالت عبارتها التى قالتها حال ظهورى اليوم ...

ثم التفت إلى الفتاة وقال : أليس كذلك أيتها الملكة !

فترامت النضيرة على قدمى والدها تقبلهما وتبلهما بدموعها وتقول : هب لى عفوك يا مولاى ، فلا يسهل علىّ الموت سواه !...

فكاد الملك الشيخ يسقط على الأرض من هول الموقف ، وقال بلسان يعقده البكاء : لا عفو ما دمت فى الدنيا فإذا فارقتها عفوت !

قالت : وهذا كل ما أبغى يا مولاى !

قال سابور : وأنا أقرب لها عفوك ما أمكن !

ثم التفت إلى حراسه وقال : أريد فرسين قويين يمتطيهما فارسان قويان كذلك !...

قال بعض الحضور : بالقرب من النار يا مولاى ، على ساحة القصر ، الرجلان اللذان تطلبهما ؛ وهما ملتثمان مدججان بالسلاح ، وقد شغل أمرهما الجمهور منذ الفجر ، واستقر عند الجميع أنهما ما وقفا هذا الموقف إلا وفى نفسيهما أمر ...

فدخل أزدشير فى الحديث فقال : إن صدق ظنى يا مولاى فالفارسان هما الهاتف وابن بكر ...

سابور والضيزن بلسان واحد : الهاتف وابن بكر ، ما هذه الأحلام ؟

زدشـــيـــر : نعم ، هما يا مولاى، وما حضرا إلا لينقذانى، وهما قادران على ذلك !

ـــال الملك : علىّ بهما أيها الجند ولهما الأمان والكرامة !

فما هى إلا هنيهة حتى مثل الهاتف وابن بكر فى حضرة الملك ، فأقبل عليهما وتلطف لهما فى الخطاب، وقال لهما : ليتكفل كل منكما بخائنة ، فتأخذ أنت يا ابن بكر النضيرة ، ويأخذ الهاتف أسماء ؛ ثم تنزلان بهما إلى ميدان القصر ، وهناك يشد كل منكما فريسته إلى ذنب فرسه بأمتن الحبال ، ثم لا تزالان تركضان فرسيكما جيئة وذهابًا بمشهد من الحضر ، حتى لا يبقى من الخائنتين لحم فوق عظم !

ال الفارسان : سمعًا للملك وطاعة .

وأخذ كل منهما بذراع فريسته وخرجا بالخائنتين بين حرس كثير من الجند .

وأطرق الملك هنيهة يفكر ، ثم رفع رأسه وقال : أتدرون فيم كنت أفكر ؟ أفكر فى تلك النار التى أوقدت لمن هو أعز علىّ من نفسى ثم نجاه الآلهة منها ، ولا أريد أن تذهب سدى ، وإنى لا أجد لها حطبًا تصلح له ويصلح لها إلا قصير الفارسى الذى شهد على أخى الكريم زورًا ، فخذوه فألقوه فيها !

فأخذه الجند أخذًا وبيلا وألقوه فى النار ...

ثم كانت برهة ساد فيها السكون وخشعت الأبصار من هيبة الإعدام ، إلى أن أتى النعاة فعرضوا أن حكم الملك نفذ فى الفتاتين وفى قصير الفارسى ؛ فالتفت الملك عندئذ إلى الضيزن وقال : أترضى أيها الشيخ الأمير الكريم أن تكون مرشدى الحكيم وجليسى الموقر حيثما سرت وأينما أقمت ، فإنى أرى شبابى هذا فى حاجة إلى هذا المشيب الحافل بالتجارب ؟

ال الضيزن : وهذا المشيب يا مولاى لا يكمل إلا بصحبة هذا الشباب المكتمل الذكاء، الحافل بالمزايا السامية من هبات السماء .

قـــال الملك : وأنت يا أزدشير ، أعتذر إليك ، وأهب لك الحضر وأجعل مستقبا صاحبيك بين يديك ...

فتقدم الأمير فقبل يد الملك وقال : إن أذن لى مولاى جعلت ابن بكر وحسانا هذ الهاتف وزيرىّ فى الحضر ، وزوجت الأول من هند ، كما سبق له بذلا منى الوعد !

قـــــــال : ليكن ما أردت .

تأملات الشاعر الناثر

أسواق الذهب

مقدمة

الحمد لله الذى علم بالقلم، وألهم نوابغ الكلم، وجعل الأمثال والحكم، أحسن أدب الأمم. وصلى الله وسلم على محمد ديمة البيان المنسجمة[1]، وعلى موسى الكليم وعيسى الكلمة[2].

وبعد. فهذه فصول من النثر، ما زعمت أنها غرر زياد[3]، أو فِقَر الفصيح من إياد[4]، أو سجع المطوّقة على فرع غصنها المياد[5]، ولا توهمت حين أنشأتها أنى صنعت (أطواق الذهب)، للزمخشرى[6]، أو طبعت (أطباق الذهب)، للأصفهانى، وإن سميت هذا الكتاب بما يشبه اسميهما، ووسمته[7] بما يقرب فى الحسن من وسميهما، وإنما هى كلمات اشتملت على معان شتى الصور، وأغراض مختلفة الخبر، جليلة الخطر؛ منها ما طال عليه القدم، وشاب على تناوله القلم، وألم به الغفل[8] من الكتاب

---

(١) الديمة مطر يدوم فى سكون بلا رعد ولا برق والمنسجم السائل المنصب .

(٢) الكليم لقب موسى لأنه كلم الله والكلمة لقب عيسى عليهما السلام .

(٣) زياد بن أبيه من أشهر خطباء الدولة الأموية .

(٤) هو قس بن ساعدة الإيادى ويكاد يكون أخطب خطباء الجاهلية والفِقَر جمع فقرة وهى من النثر بمنزلة البيت من الشعر .

(٥) المياد الكثير الميد والميد الميل والتحرك .

(٦) أطواق الذهب وأطباق الذهب كتابان من كتب المقامات فى الوعظ والإرشاد وكلاهما فى عليا مراتب البلاغة. الأول لجار الله الزمخشرى والثانى للعلامة الأصفهانى عليهما رحمة الله .

(٧) وسم الشىء جعل فيه أثرًا والوسم الأثر والعلامة .

(٨) الغفل المجهول .

والعَلَم[1]. ومنها ما كثر على الألسنة فى هذه الأيام، وأصبح يعرض فى طرق الأقلام، وتجرى به الألفاظ فى أعنة[2] الكلام؛ من مثل : الحرية، والوطن، والأمة، والدستورية، والإنسانية، وكثير غير ذلك من شئون المجتمع وأحواله، وصفات الإنسان وأفعاله، أو ما له علاقة بأشياء الزمن ورجاله ؛ يكتنف ذلك أو يمتزج به حكم عن الأيام تلقيتها، ومن التجاريب استملَيتها، وفى قوالب العربية وعيتها[3]، وعلى أساليبها حبرتها ووشيتها[4] وبعض هذه الخواطر قد نبع من القلب وهو عند استجمام عفوه[5] وطلع فى الذهن وهو عند تمام صحوه وصفوه ؛ وغيره - ولعله الأكثر - قد قيل والأكدار سارية، والأقدار بالمكاره جارية، والدار نائية، وحكومة السيف عابثة عاتية، فأنا أستقيل القارئ فيه السقطات، وأستوهبه[6] التجاوز عن الفرطات[7] .

اللهم غير وجهك ما ابتغيت، وسوى النفع لخلقك ما نويت، وعليك رجائى ألقيت. وإليك بذُلّى وضعفى انتهيت .

---

(١) العلم المقدم .

(٢) أعنة جمع عنان .

(٣) وعى حفظ .

(٤) حبر الكلام ووشاه حسنه وزينه .

(٥) استجم الماء استجمامًا كثر واجتمع. والعفو من الماء ما فضل عن الشاربة وأخذ من غير كلفة ولا مزاحمة .

(٦) استوهبه سأله الهبة .

(٧) الفرطات جمع فرطة وهى ما فرط من الشخص من تقصير .

الحقيقة الواحدة[1]

يا متابع الملاحدة، مشايع العصبة الجاحدة، منكر الحقيقة الواحدة : ما للأعمى والمرآة، وما للمقعد[2] والمرقاة[3]، وما لك والبحث عن الله ؟

قم إلى السماء تَقَصَّ[4] النظر، وقُصّ الأثر[5]، واجمع الخبر والخبر[6]. كيف ترى ائتلاف الفلَك، واختلاف النور والحلَك[7]، وهذا الهواء المشترك، وكيف ترى الطير تحسبه تُرك، وهو فى شرَك[8]، استهدف فما نجا حتى هلك[9]، تعالى الله دلَّ المُلك على الملِك !. وقف بالأرض سلها من زمّ[10] السحاب وأجراها، ورحل[11] الرياح

---

(١) الحقيقة الواحدة وجود الله سبحانه وتعالى. ولعل المؤلف يشير إلى قول لبيد «ألا كل شىء ما خلا الله باطل ».

(٢) المقعد الذى يشكو القعاد وهو داء يقعد المصاب به عن المشى .

(٣) المرقاة السلم .

(٤) أرسله إلى أقصاه .

(٥) قص الأثر اقتفاه .

(٦) الخبر الاختبار بالمشاهدة والخبر الرواية بالسماع .

(٧) الحلك الظلام .

(٨) تظنه حرًا طليقًا وهو أينما حل فى متناول قبضة الصياد.

(٩) استهدف أصبح غرض السهام. والمراد أنه لا يكاد ينجو من سهم مصوب إليه حتى يدركه الموت من سهم آخر .

(١٠) زم الناقة خطمها .

(١١) رحل البعير شد على ظهره الرحل تمهيدًا للمسير .

وعراها[١]، ومن أقعد الجبال وأنهض ذراها[٢]، ومن الذى يحل حباها[٣]، فتخر له فى غد جباها أليس الذى بدأها غبرات[٤]، ثم جمعها صخرات، ثم فرقها مشمخرات[٥]؟، ثم سل النمل من أدقها خلقا[٦]، وملأها خلقا[٧]، وسلكها طرقا[٨]، تبتغى رزقا؟ وسلّ النحل من ألبسها الحبر[٩]، وقلدها[١٠] الإبر، وأطعمها صفو الزهر، وسخّرها طاهية[١١] للبشر ؟ لقد نبذت الذلول[١٢] المسعفة[١٣]، وأخذت فى معامى[١٤] الفلسفة، على عشواء من الضلال معسفة[١٥]. أولا فخبّرنى: الطبيعة من طبعها[١٦]، والنظم[١٧] المتقادمة من وضعها، والحياة الصانعة من صنعها، والحركة الدافعة من

---

(١) عراها جردها مما فيها من أمطار .

(٢) أقعد الجبال ثبت قواعدها فى الأرض. وأنهض ذراها أى رفع عاليها شامخة فى السماء .

(٣) يحل حباها أى يفكها من حبوتها وينهضها من ربضتها .

(٤) غبرات جمع غبرة (بتسكين الباء) وهى ذرة الغبار .

(٥) فرقها فى الأرض ومشمخرات أى باذخات .

(٦) أدقها صيرها دقيقة .

(٧) خلق النمل تلك النظم المتسقة التى يوحى لها بها الإلهام .

(٨) سلكها طرقًا جعل لها طرقًا تسلكها .

(٩) الحبر جمع حبرة كعنبة وهى برود يمنية ملونة وقد شبه بها المؤلف تلك الألوان الزاهية التى يتخايل بها النحل تحت أشعة الشمس .

(١٠) قلده السيف وضع حمالته فى عنقه .

(١١) طاهية طابخة تطبخ للناس فى بطونها عسلاً .

(١٢) الذلول من الدواب ما كانت سهلة القياد والمراد بها هنا الشريعة السمحة .

(١٣) المسعفة التى تسعف أبناءها باليقين والإيمان .

(١٤) المعامى المجاهل .

(١٥) العشواء العمياء وأعسف خبط فى السير .

(١٦) طبعها خلقها وهنا يبدأ المؤلف فى تعجيز الملحدين .

(١٧) النظم المتقادمة والحياة الصانعة والقوة الدافعة وكل هذه قوى يظن الملحدون كفرًا أنها هى الأصل فى الكائنات .

الذى دفعها ؟! عرفنا كما عرفت المادة ، ولكن هدينا وضللتَ الجادّة[١]، وقلنا مثلك بالهيولى[٢]، ولكن لم نجحد اليد الطولى[٣]، ولا أنكرنا الحقيقة الأولى[٤]. أتينا العناصر من عنصرها[٥]، ورددنا الجواهر إلى جوهرها[٦] ؛ اطرحنا[٧] فاسترحنا، وسلّمنا فسلمنا، وآمنا فأمنا ؛ وما الفرق بيننا وبينك إلا أنك قد عجزت فقلت : سرٌّ من الأسرار. وعجزنا نحن فقلنا : الله وراء كل ستار !!

---

(١) الجادة الطريق القويم .

(٢) الهيولى مادة وشبّه الأوائل طينة العالم بها .

(٣) اليد الطولى يد الله التى أبدعت هذه الطينة ونفخت فيها الروح .

(٤) الحقيقة الأولى وجود الله .

(٥) العناصر جمع عنصر وهو أولاً بمعنى المادة البسيطة وثانيًا بمعنى الأصل وأتيناها أى بحثنا فيها .

(٦) الجواهر جمع جوهر وهو الحجر يستخرج منه شىء ينتفع به والجوهر ثانيًا بمعنى الأصل والجبلة .

(٧) اطّرح الحمل ألقاه عن عاتقه والمقصود من هذه الجملة وما بعدها آمنّا بالله وتركنا ما دون هذا من التفكير العقيم الذى لا نهاية له والبحث الضال الذى لا يؤمن فيه العثار ...

الوطن

"حب الوطن والتفانى فى سبيله سجية كل نفس كبيرة. وقد أوحت هذه العاطفة بأعظم ما حفظه لنا التاريخ من المآثر وجليل الأعمال وأبلغ ما جادت به القرائح من روائع الآيات والأقوال .

ولقد طالما أشاد «المؤلف» فى شعره بذكر الوطن وتغنّى بوصف آثاره الخالدة بقصائد تضمن لها بلاغتها من الخلود ما لتلك الآثار. ولطالما استخلص من بيانه سحراً أحيا مفاخر الآباء والأجداد فبعثها من لحود الأجيال الغابرة تتمثل عظمتها وروعتها للأبناء والأحفاد .

لم يقف «المؤلف» من آثار وطنه وقوف العرب على الطلول يبكيها ويرثيها بل مسحها بدموع قلبه ليحييها ويستوحيها. فجعل من تغنيه بما كان من المفاخر للوطن فى الغابر من الزمن حداءً منه للخلف لاحتذاء آثار السلف .

ولو جمع جامع ما قال المؤلف فى مفاخر الوطن من يوم قال منذ ثلاثين سنة :

وبنينا فلم نُخَلِّ لبـــان وعلونا فلم يجُــزْنَا عــلاءُ

لاجتمع لديه خير سفر شامل للدروس الوطنية .

وهذه القطعة من الشعر المنثور أنشودة عذبة للوطن جمع فيها كاتبها جميع الأنغام التى يثيرها ضرب الوطنية الصادقة على أوتار القلوب كما سنبينه فى ما نعلقه عليها من الحواشى :

"الوطن موضع الميلاد، ومجمع أوطار الفؤاد، ومضجع الآباء والأجداد[1]، الدنيا الصغرى، وعتبة الدار الأخرى، الموروث الوارث، الزائل عن حارث إلى حارث، مؤسس لبان، وغارس لجان، وحى من فان، دواليك حتى يكسف القمران، وتسكن هذى الأرض من دوران .

أول هواء حرك المروحتين[2]، وأول تراب مس الراحتين، وشعاع شمس اغترق العين، مجرى الصبا وملعبه، وعرس الشباب وموكبه. ومراد الرزق ومطلبه، وسماء النبوغ وكوكبه، وطريق المجد ومركبه، أبو الآباء مدت له الحياة فخلد، وقضى الله ألا يبقى له ولد، فإن فاتك منه فائت فاذهب كما ذهب أبو العلاء عن ذكر لا يفوت. وحديث لا يموت .

مدرسة الحق والواجب، يقضى العمر فيها الطالب، ويقضى وشيء منهما عنه غائب، حق الله وما أقدسه وأقدمه، وحق الوالدين وما أعظمه، وحق النفس وما ألزمه، إلى أخ تنصفه، أو جار تسعفه، أو رفيق فى رحال الحياة تتألّفُه، أو فضل للرجال تزيِّنه، ولا تزيِّفه[3]

---

(١) جاء فى مقدمة الجزء الأول من الشوقيات : "إنها (مصر) بلادى، وهى منشئى ومهادى، ومقبرة أجدادى ؛ ولد لى بها أبوان، ولى فى ثراها أب وجدان، وببعض هذا تحبب إلى الرجال الأوطان" والوطر الحاجة والغرض – والحارث الزارع ودواليك أى مداولة بعد مداولة .

تناول الكاتب فى هاتين الفقرتين وصف الوطن عن طريق التحديد وهو كما حدده ابن سينا فى رسائله : الحد الجامع المانع ، أى الوصف المحيط بمعنى المعرف المميز له عن غيره. فوصف الوطن بالمؤسس للبانى، والغارس للجانى! وبمجرى الصبا وملعبه، وعرس الشباب وموكبه ... إلى غير ذلك من الأوصاف، كما وصفه بموضع الميلاد. ومضجع الآباء والأجداد، وأول هواء حرك المروحتين، وأول تراب مس الراحتين، إلى غير ذلك من الأوصاف المانعة المميزة له عن سواه. وهكذا جاء بخواص المعرف وأوصافه وأعراضه التى من شأنها أن تبين حقيقته .

(٢) المروحتان الرئتان. والراحتان الكفان. واغترق العين أى شغلها عن النظر إلى غيره .

(٣) زيّف الرجل صغّر به وحقّر. الضنانة بالشيء، كالضن به، البخل والحرص عليه .

تناول الكاتب فى هذه الفقرة حقوق الوطن على أبنائه أو واجبات الوطنيين نحو وطنهم ففصلها أجمل تفصيل دون أن يفوته وصف كل حق بوصفه الملازم من حق الله وحق الوالدين وحق النفس إلى حق الإخوان وسائر أبناء الوطن. مجموعة حقوق يتألف منها حق الوطن على كل إنسان ولو أدى القيام بهذا الحق إلى التضحية بالنفس دفاعًا عن الوطن. ثم قال إن هذه الواجبات ينبغى للإنسان القيام بها فى جميع أدوار الحياة فلا ينعتق منها الا بالممات .

فما فوق ذلك من مصالح الوطن المقدمة، وأعباء أماناته المعظمة، صيانة بنائه، والضنانة بأشيائه، والنصيحة لأبنائه، والموت دون لوائه، قيود فى الحياة بلا عدد. يكسرها الموت وهو قيد الأبد رأس مال الأمم فيه من كل ثمر كريم، وأثر ضئيل أو عظيم، ومدخر حديث أو قديم، ينمو على الدرهم كما ينمو على الدينار، ويربو على الرذاذ كما يربو على الوابل المدرار، بحر يتقبل من السحب ويتقبل من الأنهار. فيا خادم الوطن ماذا أعددت للبناء من حجر، أو زدت فى الغناء من شجر ؟ عليك أن تبلغ الجهد، وليس عليك أن تبنى السد. فإنما الوطن كالبنيان فقير إلى الرأس العاقل، والساعد العامل، وإلى العتب الوضيعة، والسقوف الرفيعة، وكالروض محتاج إلى رخيص الشجر وثمينه، ونجيب النبات وهجينه، إذا كان ائتلافه فى اختلاف رياحينه، فكل ما كان منها لطيفًا موقعه، غيرَ ناب به موضعه، فهو من نوابغ الزهر قريب، وإن لم يكن فى البديع ولا الغريب[1].

حظيرة[2] الأعراض والعروض، ومحراب السنن والفروض، سيد الأديم، صفحاته التاريخ الكريم، وبوغاؤه عِظَم الأبوة وإنه لعظيم. وعلى جوانبه الدولة وهى حسب الأمم

---

(١) الرذاذ المطر الضعيف والمال القليل. والوابل المدرار المطر الشديد الضخم القطر. والنجيب الكريم الحسيب من الإنسان والحيوان. والهجين من أبوه خير من أمه. وناب أى نافر .

يريد أن كل إنسان مهما ارتفع شأنه أو اتضع مكانه قادر على خدمة الوطن بل هو مطالب بتلك الخدمة. فعمد موفقًا إلى التشبيه والاستعارة فقال إن البناء محتاج إلى العتب الوضيعة والسقوف العالية وأن الروض لا يتم بهاؤه وجماله إلا بمختلف الأزاهير والرياحين .

وقد انتقل من الأخبار إلى الخطاب فقال : فيها خادم الوطن ماذا أعددت ... وهو التفات بليغ .

(٢) الحظيرة فى الأصل مأوى الإبل والغنم والأعراض جمع عرض وهو المتاع والعروض جمع عرض وهو الشرف. البوغاء ما يثور من الغبار ودقاق التراب والضنائن جمع ضنينة وهو ما يُضَنّ به. والحجال جمع حجلة وهى ستر العروس داخل بيتها .

يفند الكاتب مزاعم أصحاب مذهب اللاوطنية القائلين بأن الأرض جميعها وطن للناس جميعًا. وضرب السمك فى البحر مثلاً لضرر الشيوعية فى الوطن قرى النمل وخلايا النحل وأوكار الطير وأحجار السباع أماكنها ومنازلها .

الصميم ؛ وثم كرائم الأموال والأنفس وهى غوال ؛ وثم ثمرات الرجال ؛ وضنائنهم اللاتى خلف الحجال. فيا عجبا كيف يجحد الأوطان الجاحد، أو يزعم أن الأرض كلها وطن واحد ؛ قضية تضحك النمل فى قراها ؛ والنحل فى خلاياها، وتستبهم على الطير فى أوكارها ؛ وعلى السباع فى أحجارها ؛ وينبئك عنها السمك إذ اتخذ من البحر وطنًا شائعا ؛ فولد مهدوراً وعاش ضائعا ؛ صغاره طرائد ؛ وكباره موائد ؛ ويتصيد بعضه بعضًا إن أبطأ الصائد .

والوطن شركة[1] بين الأول والآخر، وبين الحاضر والغابر لا يرث لها عقد، وإن تطاول العهد، مؤسسة بالمهد حينًا وباللحد ؛ يدخلك فيها الميلاد، ولا يخرجك منها النفاد، فقد تضرم النار وأنت هامد كالرماد، وقد تحيا بك الديار وأنت بواد والحياة بواد، والوطن مستودع المفاخر، وصوان المآثر، وخزانة الأعلاق والذخائر، لكل متقن منها موقعه، ولاينبو بصالح فيها موضعه، الهرمان لديها معظّمان، (وشيخ البلد) شيخ الصناعة على الزمان، وعندها سيف (على) ومغارسه، وقناة (إسماعيل) ومدارسه، وفيها القصائد البارودية، وليس فيها الخطب النديمية، تلك لقربها من كلام الحكمة، وهذى لبعدها عن الإتقان والحشمة. فيالَك خزانة تميز الصحاح من الزيوف، وتعرف الضّيفَن من الضيوف. وتحجب العِصِيّ وتأذن للسيوف[2] .

---

(١) كنى عن ارتباط حاضر الوطن بماضيه بشركة معقودة بين السلف والخلف. يرث يبلى. ويريد بإضرامك النار وأنت هامد كالرماد وبإحيائك الديار بعد خروجك من الحياة أن الأموات كثيراً ما يكونون بمثل حياتهم العالى أكبر حامل للأحياء على حميد الفعال. وبهذا المعنى قال أحد فلاسفة الفرنجة : يتألف الوطن من الأموات أكثر مما يتألف من الأحياء .

(٢) صوان الشيء وعاؤه. وأعلاق الأشياء نفاسها. والزيوف الدراهم المغشوشة. والضيفن من يجيء مع الضيف متطفلاً .

والمراد أن الوطن يحفظ مآثر الرجال. وقد ضرب ما تراه فى المتن من الأمثال عما يحفظه الوطن المصرى للمصريين ثم انتقل فى الفقرة التالية من التخصيص إلى التعميم. شيخ البلد آية من آيات فن النحت عند قدماء المصريين يجده الناظر فى دار الآثار. وقناة إسماعيل قناة السويس. البارودية نسبة إلى محمود سامى باشا البارودى. والنديمية نسبة إلى عبد الله نديم .

صحيفة الأخبار، وكتاب الأبرار، وسجل الهمم الكبار؛ أسماء المحسنين فيه مرفوعة، وأفعالهم مثل للخلف منصوبة، وحروف بماء الذهب مكتوبة. فإذا أتت السنون، ودارت على الرجال المنون، ولحِقَت بالمشايع الشِّيَع، وذهب المتبوع والتبع، ونامت الحرابىُّ[1] عن الشموس، وحيل بين النار وبين المجوس، انفتح كتاب الوطن من نفسه وإذا الحسنات ثَمّ على الصدق محصاة، فلا الحصاة درة ولا الدرة حصاة، وإذا الرجال يعظمون على الأفعال، وإذا الوقائع قد نُحِتَ منها الأبطال، على قدر العمل يأتى الجزاء، وبقدر جمال الأثر يكون حسن الثناء .

وليس أحدٌ أولى بالوطن من أحد، فما (باستور)[2] والشفاء فى مصله، ولا (كمال) والحياة فى نصله، أولى بأصل الوطن وفصله، من الأجير المحسن إلى عيال. الكاسب على أطفاله، الفادى الوطن بأشباله، وهم رأس ماله. فلا تتحمد[3] على الأوطان بآثار كرم، وإن حملت عليها الهرم، أو نقلت اليها إرم؛ فإنك لم تزد على أن أقمت جدارك، وحسنت دارك ؛ ولا تنس أنها الآلة التى رفعتك، والهالة التى أطلعتك ؛ ولا تحجب ذات الوطن بذاتك، أو تطرف العيون عن وجهه بقذاتك، ولا تكن كالسرح العظيم إذ نسى خلقه إذ علا على الأرض وهى أمه، ماؤها عصارة عوده، وطينها جرثومة وجوده، حتى إذا ترعرع وكبر أخفاها وظهر، وحجب عنها الشمس والقمر ؛ خلعت عليه ما نضر ورفّ. وألقى عليها ما يبس من الورق وجف .

---

(١) الحرابى جمع حرباء حيوان معروف يستقبل الشمس ويدور معها كيفما دارت ويتلون ألوانا .

(٢) «باستور» عالم كيماوى فرنسى (١٨٢٢-١٨٩٥) صاحب مباحث نظرية الميكروبات فى الأمراض المعدية ومخترع المصل الواقى والشافى وهو من أكبر الرجال الذين خدموا الإنسانية بعلمهم . «وكمال» هو الغازى مصطفى كمال باشا أسد أنقرة وبطل تركيا المشهور. القذاة ما يقع فى العين ويوجعها. السرح شجر. وقد أبدع فى تشبيه من يمن على الوطن بخدمته بالشجرة التى ترتفع عن الأرض وتتعاظم عليها وهى إنما تمص منها مادة الحياة .

(٣) تتحمد تمتن. وحمل عليه الشىء ألحقه به. والهالة دارة القمر. وطرف البصر عنه صرفه .

والوطن لا يتم تمامه. ولا يخلص لأهله زمامه، ولا يكون الدار المستقلة، ولا الضيعة الخالصة الغلة، ولا يقال له البلد السيد المالك، وإن تحلى بألقاب الدول والممالك، حتى يجيل العلم فيه يد العمارة. ويجمع له بين دولاب الصناعة وسوق التجارة[1].

فيا جيل المستقبل، وقبيل الغد المؤمل، حاربوا الأمية فإنها كسح الأمم وسرطانها، والثغرة التى تؤتى منها أوطانها، ظلمات يعربد فيها خفاش الاستبداد، وقبور كل ما فيها لضبعه غنيمة وزاد. وتذرعوا[2] بذرائع العلم الصحيح، اطلبوه فى مدارس الزمان وحلقاته، وخذوه عن جهابذته وثقاته، واعلموا أن أنصاف الجهال لا الجهل دفعوا، ولا بقليل العلم انتفعوا، وبنو الوطن الواحد إخوة وإن ذهب كل فريق بكتاب، ووصلت كل طائفة من باب، واتبع أناس الإنجيل، وأناس اتبعوا التنزيل. وكل بلاد تسوسها حكومة فاضلة، وتقيدها القوانين العادلة، وتعمرها جماعة عاقلة عاملة. إنما يفرق فيها بين الوطن الذى هو الحياة وشئونها، والدنيا وشجونها، والحكومة نظمها وقانونها، والمملكة سهولها وحزونها، والدولة أطرافها وحصونها، وبين الدين الذى هو السماء الرفيعة، والذروة المنيعة، ولاية الضمائر. وسياسة السرائر[3].

وما وطن المحسنين إلا الأسرة الكبرى، والسقف الواحد، والمنزل الحاشد، القوم فى ظلاله ، على البر وخلاله، إخوان متصافون، وأهل متناصفون، وجيران متآلفون،

---

(١) رف النبات اهتز. والكسح داء فى اليدين والرجلين يثقلها عن الحركة. والدولاب الآلة .

وقد انتقل الكاتب من الوصف والتحديد البيانى إلى ذكر الدعائم التى تبنى عليها عظمة الوطن ويشاد عليها صرح استقلاله وهى العلم والتجارة والصناعة وحذر بنوع خاص من أنصاف الجهال أو أنصاف المتعلمين كما حذر من الجهل. وبمناسبة ذكر باستور فى الفقرة السابقة نذكر أن هذا الرجل العظيم كان يقول «قليل من العلم يبعد عن الله وكثير من العلم يعيد إلى الله» .

(٢) تذرعوا . أى توسلوا .

(٣) ألا يكون الدين داعية تفرقة فى الوطن ولله در المؤلف حيث يقول شعرًا كما يقول هنا نثرًا :

الدين لله من شـــاء الإله هدى لكل نفس هدى فى الدين يعنيها

التنزيل القرآن . الحزن من الأرض ما غلظ

قصد فى البغضاء، وبعد عن الشحناء، ألسنة عفيفة العذَبَات[1]، وصدور نظيفة الجنبات، تراهم كالنحل أن سولت عملت العسل، أو حوربت أعملت الأسل، فاطبع اللهم كنانتك على هذا الغرار، وأعدها كما بدأتها محلة الأبرار. واجعل أبناءنا أحراراً ولا تجعلهم أنصاف أحرار .

ربنا وأنزلهم على أحكام العقول وقضايا الأخلاق، ولا تخلهم من العواطف، وإن كنّ عواصف. ولا تكلهم للأهواء، فإنها هواء. وخذهم بروح العصر وسنة الزمان، واجعلهم حفظة العرش وحرسة البرلمان[2]" .

(١) العذابات الأطراف. والأسل الرماح. وهنا بمعنى الإبر. الغرار المثال الذى تضرب عليه النصال .

(٢) ونعم ما ختم به من الدعوة إلى الوئام والتصافى حتى تعود الكنانة إلى سابق مجدها. ولم يكن يسعه أن يختم نشيد الوطن هذا دون النقر على وتر الأخلاق وهو الذى طالما دعا إلى الاخلاق بل هو القائل ذلك البيت المشهور الذى لا نعرف بيتًا كان أكثر منه موضوع استشهاد للكتاب والادباء فى ربع القرن الماضى :

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هموا ذهبت أخلاقهم ذهبوا

الجندى المجهول

«تكريم الجندى المجهول : فكرة أوحت بها الرغبة فى تمجيد البطولة الصامتة، البطولة التى تعمل فى الخفاء. ولعل هذه الفكرة أجمل ما ولدته الحرب الكبرى من الأفكار .

من هو الجندى المجهول ؟ وما هى حكايته ؟

اسمع تلك الحكاية ففيها عبرة وذكرى :

أودت الحرب العالمية الأخيرة بآلاف الآلاف من الجنود البسل وكل منهم يدافع عن قومه وبلاده فسجلت أسماؤهم على ألواح البرونز وقطع المرمر تخليداً لذكرهم. ولكن هناك من بينهم مئات الألوف ماتوا كذلك ميتة الأبطال ولكن أسماءهم ضاعت لأن جثثهم الممزقة اختلطت بجثث رفاقهم فلم يكن من سبيل إلى تبين شخصهم أو تحقيق هويتهم. لذلك أرادت فرنسا - وحذت سائر الدول حذوها - أن تتخير واحداً من هؤلاء الأبطال المجهولين ترفعه إلى ذروة المجد وتقيم له من معالم التكريم ما لم تقمه لأكبر الغزاة الفاتحين فتكرم فى شخصه المجهول مئات الألوف من الأبطال الذين تنكرت جثثهم على الناس .

هذا منشأ تلك الفكرة النبيلة. فاسمع الآن كيف كان تنفيذها فرنسا :

كانت موقعة «فردان» أعظم موقعة دارت رحاها بين أعظم جيشين فى العالم ، دامت شهوراً طوالاً وسالت فيها مهج مئات الألوف على شظايا القنابل وظبى السيوف حتى أصبحت أرجاؤها جبانة مترامية الأطراف .

ومن القتلى الراقدين فى ثراها تقرر اختيار الجندى المجهول فأخذوا من أنحاء ذلك الميدان العظيم ثمانى جثث لم تعرف لمن هى. اختاروا ثمانية من بين خمسمائة ألف قتيل ووضعت كل جثة فى نعش ونقلت النعوش الثمانية فى ليل ١٠ نوفمبر سنة ١٩٢٠ إلى حصن «قو» حيث أوقدت حولها الشموع وقامت الجنود تحرسها. ثم تقدم القائد وأشار إلى أحد جنود الفرقة ١٣٢ فخرج الجندى من الصف ودفع إليه القائد باقة من زهر القرنفل الأبيض والأحمر وقال له أن يدور دورتين حول النعوش الثمانية فيلقى بالباقة على نعش منها. ففعل وما كاد يلقى زهرات القرنفل على أحد النعوش حتى عزفت الموسيقى بنشيد المرسلييز ورفع الضباط سيوفهم للتحية. ومن تلك الدقيقة أصبح الراقد فى ذلك النعش مثال التضحية والتفانى وصار تكريمه تكريمًا للمليون ونصف المليون من الجنود الذين قتلوا فى الحرب دفاعًا عن فرنسا وطنهم .

ثم نقل ليلاً إلى باريس وفى اليوم التالى أقيم له احتفال ندر أن شهدت تلك العاصمة العظيمة ما يضارعه فخامة وأبهة وتأثيرًا فى النفوس. مشى فى موكبه الوزراء والقواد ورجال الدولة وعشرات الألوف من الناس تتقدمهم ٨٠٠ راية من رايات فرق الجيش المختلفة حتى وصلوا به إلى «قوس النصر» حيث قام ضريحه. وعلى أثر ذلك أصبح الآباء والأمهات والأزواج والأخوات يحجون إلى هذا الضريح وكل يعتقد أن فيه ابنا أو زوجًا أو أخًا. وما زار باريس ملك أو وزير أو كبير إلا عد من أول فروض المجاملة زيارة قبر الجندى المجهول وتحيته ووضع الزهر عليه .

وما كان للمؤلف أن يترك مثل هذا الموضوع بلا جولة لخيالة فيه وقد أراد أيضًا أن يضع زهرة من زهر أدبه الرائع على ضريح الجندى المجهول فكتب هذا الفصل :

ذلك الغفل فى الدمم، صار نارًا على علم، جمع ضحايا الأمم كما جمع الكتابة القلم، أو الكتيبة العلم[١] .

---

(١) الغفل : ما لا علامة ولا سمة فيه وهو أيضًا الشاعر المجهول أو الكتاب الذى لم يسم واضعه. الرمة جمعها رمم ورمام العظام البالية أى أن هذه الجثة المجهولة بين الجثث قد أصبحت عنوان الشهرة ورمز التضحية كما فصل ذلك فى الفقرة التالية .

تمثال من إنكار الذات، والفناء فى بقاء الجماعات، وصورة من التضحية المبرأة من الآفات، المنزهة عن انتظار المكافأة، وهيكل على الواجب من عظام أو رفات، تقرأ على صفحاته العجب العاجب، تفسير الجلالين من موت وواجب. وتتنقل من آية إلى آية، وترى كيف جرى الإيثار للغاية. وكيف سالت النفوس على جنبات الراية .

ولا يعلم إلا الله لمن الجيفة المحظوظة، أو تلك البقايا المصونة المحفوظة، ألرعديد، أم لصنديد ؟ ولبطل مشوق، أم لمكره مسوق؟ ولشيطان استعمارى، أم هى لربى حوارى؟ ولمغمور من سواد الجند؟ أم لمأثور من بيض الهند ؟ وهل كانت لبدة أسامة ، أم كانت جلدة النعامة ؟ وهل هى هيكل المتنبى أم وعاء أبى دلامة[١] .

وكيف تعرف جثة نكرتها الأيام، وسارت الأرض فيها سنتها فى الرمام، إلى أن وقعت عليها يد فى الرجام، كما تقع على النصيب الرابح يد الغلام، فخرجت بها من غمرة الرمم، وحفرة الأمم، وبؤرة العدم[٢] .

وإذا هى تنفصل عن سواد الهامدين، وتتصل بالأفراد الخالدين، تهجر مغمورات الكفور، وتعمر مشهورات القبور، وبين ذلك جنازة للعصر حولها ضجة، وللأرض تحتها رجة، ومواكبها ملء اليبس واللجة ، أعلام منكوسة، وقناصم، وكتائب خرس، وأنغام محزونة، ودموع مذروفة، وملوك أو رسل ملوك، وبرق يروح ويغدو فى السلوك، وينعى الزاجلية والألوك، فهل شيعت نابليون، أو ولنجتون، وهل بلغت هوجو البانثيون، سوى

---

(١) المحظوظة من حظ كان ذا حظ. والرعديد الجبان الكثير الارتعاد. والصنديد السيد الشجاع. المغمور المجهول الخامل النسب وغمره القوم علوه شرفًا. والربى واحد الربيين وهم الجماعة من الناس. والحوارى ناصر الأنبياء. وأسامة الأسد وهو مضرب المثل فى الشجاعة كما أن النعامة مضربه فى الجبن. أى أن الله وحده يعرف لمن هذه الجثة التى كان لها كل هذا الحظ فى التكريم أهى جثة رجل كريم عظيم أم جثة واحد من سواد الناس .

(٢) الرمام جمع رمة كما تقدم. والرجام جمع رجم القبر. والغمرة المزدحم أى أن الحظ أصابه حين اختاروه من بين الألوف من الجثث كما تقدم فى وصف الحفلة التى أقيمت لاختيار الجندى المجهول .

الحظ بين هؤلاء، وبين ذلك النكرة فى الأشلاء، وأجزل للقيط الموتى من العطاء، كما يجزل أحيانًا للقطاء[1] .

اسأل العصر فيم نبش القبور، وقلب الهامدين البور، ومن أجل هذا الشلو المتبور، حتى التقطه بيد الحظ الوهوب، أو يد السيارة المباركة على ابن يعقوب، (يجبك) : أليس كل من شهد النفير العام فهو ذائد الوطن وحاميه، وكل من وجد فى الحفير الجامع فهو مشتريه بمهجته وفاديه، مجهول بذلك المجهود، وجاد بالنفس وذلك أقصى الجود، فى موطن سوى بين القائد والمقود، والسائد والمسود، توحدت النار وتشابه الوقود، وما حمل أعباء الجهاد مثل الميت، كالأساس دفن فكان قوام البيت .

كل حى يموت، وكل ذخيرة تفوت، وكل راحل عن قومه وإن وحدهم بالأمس شىء فألف، أو نكرات فعرف، وخلف فيهم من فضل ما خلف، لا يسلم على الموت من حاسد يزور فى الصحيفة، أو حاقد يتشفى بالجيفة، فيا لك مضغة تقرض الكفن الجديد، وتسبق الدود إلى الصديد، إلا هذا الجندى المجهول فقد خلت جنازته من الهامس والهامز، والغامط والغامز، فقل لمن لم يعرفه الناس : طوبى لك ، ما أنعم بالك ، وما أنقى كفنك وسر بالك[2] .

---

(١) ملء البيس واللجة أى تسير برًا وبحرًا . الكتيبة الخرساء الفرقة من الجند لا يسمع لها صوت لوقار أهلها فى الحرب. البرق الذى يغدو ويروح فى السلوك هو الرسائل التلغرافية. الزاجلية الحمام الزاجل حمام الرسل. الألوك والألوكة الرسالة. وهذا وصف المواكب التى أشرنا إليها يوم نقل رفات الجندى المجهول إلى قوس النصر. نابليون بطل فرنسا الكبير وأشهر القواد العسكريين. ولنجتون من مشهورى قواد الإنجليز اكتسب شهرة بعيدة بانتصاره على نابليون فى موقعه واترلو. فيكتور هوجو هو أشهر شعراء فرنسا فى القرن التاسع عشر. البانثيون اسم هيكل أقيم فى روما القديمة لتكريم «جميع الآلهة» والبانثيون المعنى به هنا هو الصرح العظيم المشيد فى باريس الذى يضم رفات مشهورى الرجال. والأشلاء جمع شلو وهى الأعضاء بعد البلى .

(٢) أى كل ميت عم فضله لا يخلو من حاسد أو حاقد يعمل على انتقاص قدره إلا هذا الجندى المجهول فقد كان بمأمن من الغمز والهمز .

قبر بين (حنية النصر)، وبنية النسر، وفوق طريق العصر ، ولو كان لعيسى ضريح، لقلت قبر المسيح، كل جريح إليه يستريح، يقف به المحزون المتهالك يقول «هذا كله قبر مالك»، وكأن كل أخت حوله الخنساء، وتحت ذلك الحجر صخر ؛ وكل أم ذات النطاقين أسماء، وعبد الله فى ذلك القبر[١] دروس عالية تلقى على الشباب تعلمهم كيف جعل آباؤهم حماية الغاب، فوق تفاتن الأحزاب وفتنة الأسماء والألقاب، حتى قرب تقديس الوطن الكريم، من عبادة العلى العظيم، وحتى تقربوا إلى الأوطان، بالذبح المنكر، كما ذكر اسم الله على القربان، واسم القربان لم يذكر .

والمجد أبعد أسفار الرجال، وله أزواد وله رحال[٢]. جهاد طويل، وصبر جميل، وعقبات بكل سبيل، والجندى المجهول ما سار من لحد إلى لحد، حتى رقى أسوار المجد، ودخل مملكة الخلد، وكان الطريق نقيًا من الشوك وكله ورد، ذهب رحمه الله لا عن ولد يرمينا بجنادل أبيه، ولا أخ يسحب علينا أكفان أخيه، وكفانا تجنى الشيعة، وإدلال الصنيعة، وكل حرباء يتسلق الناس شجرًا إلى الشمس، يعبدها على مناكبهم من المهد إلى الرمس .

---

(١) حنية النصر أو قوس النصر هو أفخم بناء من نوعه قام فى وسط ميدان من ميادين باريس يتشعب منه اثنا عشر شارعًا. وقد أمر ببناء هذا الصرح نابليون الملقب بالنسر ولهذا سماه المؤلف بنية النسر. وكان ذلك فى فبراير سنة ١٨٠٦ ولم يتم فتحه إلا فى يوليو سنة ١٨٣٦ . وعلو هذا البناء ٥٠ مترًا بعرض ٤٥ مترًا وسمك ٢٢ مترًا. وهو مزين بأهى النقوش وأجمل الرموز وقد حفرت عليها أسماء مشهورى القواد والمواقع الكبيرة. وذات النطاقين أسماء بنت أبى بكر الصديق وقصة عبد الله بن الزبير حينما نصحته أمه أسماء بالمضى فى الحرب بعد أن خذله أنصاره وخاف من أن يمثل به الأعداء، معروفة .

(٢) الأزواد جمع زاد. والرحال جمع رحل وهو مركب البعير أو ما تحمله فى سفرك من متاع .

قناة السويس

« كتب المؤلف هذه القطعة بمناسبة اجتيازه قناة السويس فى طريقه إلى الأندلس التى اتخذها محل إقامة له إبان الحرب. وهى درس جميل بليغ فى تاريخ مصر منذ أقدم العصور نسج فيها نثراً على المنوال الذى نسج عليه شعراً فى قصيدته الهمزية المشهورة التى قدمها إلى المؤتمر الشرقى الدولى الذى عقد فى مدينة جنيفا فى سبتمبر سنة ١٨٩٤ . ولئن أشار فيها أكثر من مرة إلى إسماعيل فلأن فتح هذه القناة تم على عهد ذلك الأمير العظيم بعد تذليل صعاب كثيرة. وكان افتتاحها فى ١٧ نوفمبر سنة ١٨٦٩م = ١٢٨٦هـ . وقد دعا الخديوى إسماعيل إلى هذا الافتتاح جميع ملوك أوروبة وألوفًا من الأمراء والسفراء وأقطاب السياسة وحملة الأقلام وأرباب الفنون والصنائع والتجارة حتى ضاقت بهم القصور فنصب لهم فى الصحراء ألف سرادق وأنزل الإمبراطورة أوجينى (عقيلة الإمبراطور نابليون الثالث) وسائر الملوك وأمراء الأسرات الملكية فى قصر منيف شاده خصيصاً لهم. وفى ١٦ نوفمبر أقيمت حفلة دينية اشترك فيها مشايخ الإسلام وأساقفة النصارى وكهنة اليهود. وفى الصباح التالى ابتدأ الاحتفال بإطلاق المدافع ثم تقدم يخت الإمبراطورة أوجينى فى القناة وتبعه يخت فرنسوى جوزيف إمبراطور النمسة ويخت فردريك غليوم أمير بروسية فيخوت سائر الملوك والأمراء فالسفن المقلة للمدعوين والمتفرجين وعددها ٦٨ سفينة. ولما بلغ اليخت الإمبراطورى بحيرة التمساح حيته ثلاثة مراكب حربية مصرية بإطلاق المدافع فجاوبتها مدافع البر وعزفت الموسيقى وهتفت الجماهير المحتشدة على الشاطئ من القبائل والأقوام المختلفى الجنسيات. وكان الخديوى إسماعيل قد جمعهم فى الإسماعيلية من كل أنحاء مصر والصحراء والسودان ومعهم نساؤهم وأولادهم

ونوقهم ومواشيهم وغزلانهم. فكان منظر تلك الألوف من بدو وحضر ودراويش ومغاربة وسودانيين إلخ بأزيائهم وألوانهم المختلفة مشهداً فريداً فى بابه قلما أتيح للعين أن تقع على مثله. وفى ١٩ خرجت السفن من بحيرة التمساح إلى البحيرات المرة. وفى اليوم التالى بلغت البحر الأحمر قبيل الظهر بعد أن اجتازت القنال. ومن ذلك العهد فتحت هذه الطريق للمراكب» .

تلكما يا ابنى القنانة، لقومكما فيها حياة، ذكرى إسماعيل وريّاه، وعليا مفاخر دنياه، دولة الشرق المرجاة، وسلطانه الواسع الجاه، طريق التجارة، والوسيلة والمنارة، ومشرع الحضارة[١] .

تعبرانها اليوم على مزجاة، كأنها فلك النجاة ؛ خرجت بنا بين طوفان الحوادث، وطغيان الكوارث، تفارق برا مغتصبه مضرى الغضبة، قد أخذ الأهبة، واستجمع كالأسد للوثبة، وتلاقى بحراً جنت جواريه، ونزت بالشر نوازيه، وتمثلت بكل سبيل عواديه، مملوءا ببغتات الماء، مترعاً بفجاءات السماء، من نون ينسف الدوارع، أو طير يقذف البيض مصارع[٢] .

فقلت : سيرى عوذتك بوديعة التابوت، وبصاحب الحوت، وبالحى الذى لا يموت، وأسرى يا ابنة اليم زمامك الروح، وربانك نوح. فكم عليك من منكوب ومجروح[٣] .

إن للنفى لروعة، وإن للنأى للوعة، وقد جرت أحكام القضاء، بأن نعبر هذا الماء، حين الشر مضطرم، واليأس محتدم، والعدو منتقم، والخصم محتكم، وحين الشامت

---

(١) ذكرى إسماعيل : راجع ما ذكرناه فى التوطئة. المشرع المورد .

(٢) المزجاة السفينة من أزجى الفلك ساقه وأجراه. ونزّت وثبت. طوفان الحوادث وطغيان الكوارث يكنى بها عن ويلات الحرب الكبرى. الغضبة المضرية نسبة إلى مضر بن نزار أبو القبيلة المعروفة باسمه. الجوارى السفن. النون الحوت ويقصد به الغواصة. أى اننا نغادر اليوم برا تحكم فيه الغاصب لنلاقى بحراً بدت الويلات فى كل جنباته من غواصات تغرق السفن وطيارات تلقى بالقذائف فيكون منها الموت .

(٣) وديعة التابوت هو موسى. وصاحب الحوت يونس .

جذلان مبتسم، يهزأ بالدمع وإن لم ينسجم، نفانا حكام عجم، أعوان العدوان والظلم، خلفناهم يفرحون بذهب اللجم، ويمرحون فى أرسان يسمونها الحكم[١] .

ضربونا بسيف لم يطبعوه، ولم يملكوا أن يرفعوه أو يضعوه، سامحهم فى حقوق الأفراد، وسامحوه فى حقوق البلاد، وما ذنب السيف إذا لم يستحِ الجلاد[٢] .

ماذا تهمسان، كأنى أسمعكما تقولان، أى شىء بدا له، على هذه الضاحية؟ وماذا شجا خياله، من هذه الناحية ؟ وأى حسن أو طيب، لمح يتصبب فى كثيب ؟ ماء عكر، فى رمل كدر، قناة حمئة، كأنها قناة صدئة، بل كأنها وعَبرَيها رمال، بعضها متماسك وبعضها منهال، وكأن راكب البحر مصحر، وكأن صاحب البر مبحر[٣] .

رويدكما ليس الكتاب بزينة جلده، وليس السيف بحلية غمده، تلك التنائف، من تاريخكم صحائف، وهذه القفار، كتب منه وأسفار، وهذا المجاز هو حقيقة السيادة، ووثيقة الشقاء أو السعادة، خيط الرقبة، من اغتصبه اختص بالغلبة، ووقف للأعقاب عقبة، ولو سكت لنطقت العبر، وأين العيان وأين الخبر، انظرا تريا على العبرين عبرة

---

(١) انسجم الدمع سال. وكنى بذهب اللجم وأرسان الحكم عن ذل الحكومة تحت الحماية .

(٢) طبع السيف عمله وصاغه. والمراد أنهم اتخذوا الحكومة ذريعة فى يدهم لإلحاق الاذى بنا. وتركوا هذه الحكومة تفعل ما تشاء بحقوق الأفراد لأنها أباحت لهم حقوق البلاد .

(٣) شجا حزن. الكثيب التل من الرمل. القناة الأولى الترعة. والثانية الرمح. وحمئة من حمئ الماء أى خالطته الحمأة فكدر والحمأة والحمأ الطين الأسود ومنه فى الآية الشريفة «ولَقَدْ خلَقنَا الإنسَانَ من صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَأٍ مَّسْنُونٍ». وصدئة من صدئ الحديد أى ركبه الطبع والوسخ. عبر الوادى وعبره شاطئه وناحيته قال النابغة فى القرات «ترمى أواذيه العبرين بالزبد» وأواذيه أمواجه. مصحر سائر فى الصحراء .

وصف القناة على لسان ولديه كما تبدو للعين فهى فى الظاهر لا شىء سوى ماء ملح يسيل بين الرمال أو كأنها بمائها العكر رمح علاه الصدأ ملقى على الرمل. ولكن يجب أن لا نأخذ بالظواهر كما بين الكاتب ذلك فى الفقرة التالية التى رد فيها على ولديه .

الأيام، حصون وخيام، وجنود قعود وقيام، جيش غيرنا فرسانه وقواده، ونحن بعرانه وعلينا أزواده، ديك على غير جداره، خلا له الجو فصاح، وكلب فى غير داره، انفرد وراء الدار بالنباح[1] .

القناة وما أدراكما ما القناة، حظ البلاد الأغبر، من التقاء الأبيض والأحمر، بيد أنها أحلام الأول، وأمانى الممالك والدول، الفراعنة حاولوها، والبطالسة زاولوها، والقياصرة تناولوها، والعرب لأمر ما تجاهلوها، إلى أن جرى القدر لغايته، وأتى إسماعيل بآيته. فانفتح البرزخ بعنايته، والتقى البحران تحت رايته، فى جمع مع التيجان لم يشهده إكليله، قد كان يتوج فيهه لو شهدته جيوشه وأساطيله، وما إسماعيل إلا قيصر، لو أنه وفق ؛ والإسكندر، ولو لم يخفق، ترك لكم عز الغد، وكنز الأبد، والمنجم الأحد، والوقف الذى إن فات الوالد فلن يفوت الولد[2] .

---

(١) التنائف جمع تنوفة وهى المفازة أو الأرض الواسعة التى لا أنيس بها. المجاز المعبر والمسلك. وهى فى البيان اللفظ المنقول من معناه الحقيقى إلى معنى يلابسه وفى قوله : «وهذا المجاز حقيقة السعادة» تورية لطيفة. خيط الرقبة نخاعها يقال دافع عن خيط رقبته أى عن دمه .

رد على ولديه فقال لا تأخذا بالظواهر فما قيمة الكتاب بغلافه ولا قيمة الحسام بقرابه. وهذه القناة الكدرة هى خلاصة تاريخ مصر. ومن استولى عليها فقد ضمن النصر لما لموقعها من الخطر. وقد عنى بمن ذكر من الجنود جيش الأجنبى المحتل .

(٢) التقاء الأبيض والأحمر أى التقاء البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر بواسطة قناة السويس وقد سبق المؤلف فنظم هذا المعنى شعرًا فى همزيته المشهورة قال :

جمع الزاخرين كرهًا فلا كا نا ولا كان ذلك الإلتقاء
أحمر عند أبيض للبرايا حصة القطر منهما سوداء

البرزخ قطعة أرض بين بحرين. قيصر هو يوليوس قيصر الرومانى الذى أحرز مجدًا عظيمًا بانتصاراته وإصلاحاته. والإسكندر هو إسكندر المقدونى الملقب عن العرب بذى القرنين وهو مؤسس مدينة الإسكندرية المنسوبة إليه ويعد من أعظم الفاتحين .

كثيرون حاولوا نقض برزخ السويس من أيام الفراعنة ولو كان فتح القناة لم يتم إلا على عهد إسماعيل فى جمع من التيجان كما مر بك وصف الاحتفال فى المقدمة .

ماذا على هذه الرمال[1]، من لمحات جلال وجمال؟ ارجعا القهقرى بالخيال، إلى العصر الخال، واعرضا فى حداثتها الأجيال، تريا على هذا المكان وجوهًا تتمثل، وركابًا تتنقل، وتريا النبوة تهلل، والآيات تتنزل، وتريا الملك[2] يترجل، حى كأنكما بالزمان الأول، فها هنا وضع للنبوة المهد، وابتدأ بها العهد، فأقبل صاحب المقام، ومحطم الأصنام، وبنّاء البيت الحرام، خليل ذى الجلال والإكرام. هاجر إلى مصر أكرم من هاجر. ثم انقلب منها بأم العرب هاجر .

ومن هذه الثنيات طلع يوسف يرسف فى القيد، وهو للسيارة[3] صيد يسير من كيد إلى كيد، قلب جرحته الإخوة، وجنب قرحته النسوة، فيا لك يوسف من أسوة، عز بعد هون، ودولة بعد المنزل الدون، وشئون أقدار وشجون ، وسهول حياة وحزون وسجوف القصور بعد السجون. إلى سجود الشمس لك والقمر، والكواكب الأخر .

وإلى هذا الفضاء فرج موسى حين زيل زويله[4] وطلبه قتيله، وزين له الفرار خليله، فحوته هذه الرمال فإذا الأمن سبيله، واليمن دليله، والسلامة زاملته[5] والسلم زميله، ولو أطلعه الله على غيبه، للمس النبوة بين يده وجيبه، إلى أن رفع له المنار، واكتحل بالنور واقتبس من النار، وقيل له كن من الأحرار الأحبار، وارجع فسلط الحق على فرعون الجبار، فكان عليه السلام أول من اقتحم على الفرد جبروته، وهتك على المستبد طاغوته، وخطم[6] المتأله وحطم عظموته، ماء الحق على لطفه، ظفر بنار الباطل على عنفه، ظهر العدل على الحيف. وكسرت العصا السيف .

---

(١) أخذ المؤلف يروى لوليديه تاريخ تلك البقاع. وهو درس تاريخى جميل بليغ جمع إلى سرد الوقائع والحوداث شيئًا كثيراً من فلسفة التاريخ وعبر الأيام .

(٢) الملك الملائكة .

(٣) السيارة القافلة .

(٤) زيل زويله أى زال جانبه ذعراً وفرقًا .

(٥) زاملته رافقته. وأصل زامله عادله على البعير فى الحمل أى كان هو فى جانب وصاحبه فى آخر .

(٦) خطمه ضربه على أنفه .

وعلى هذه الأرض مشت السماء الطاهرة، والنيرة الزاهرة، والآية المتظاهرة، أم الكلمة[١]، وطريدة الظلمة، سر حوافى عرضها، فأخرجوها من أرضها، فضربت فى طول الأرض وعرضها، يوسف حاديها، وجبريل هاديها، والقدس ناديها، والطهارة أرجاء واديها، وعلى ذراعها مصباح الحكمة، وجناح الرحمة، والإصباح من الظلمة، حتى هبطت به أكرم الأديم، فنشأ بين الحكيم والعليم. وترعرع حيث ترعرع بالأمس الكليم .

فيا لك من دار، لعبت على عرصاتها الأقدار، ناويت موسى، القريب، وآويت عيسى، الغريب، نبوت بالنبى، وحبوت الأمن عيسى وهو صبى، عذرك لا تنضى إليه المطى، فإنما غضبت لابنك القبطى[٢] .

ثم انظرا تريا إبلاً صعابا، وخيلا عرابا[٣]، وتريا الرعاة[٤] انقضوا على الوادى ذئابا، فأخافوا القرى الآمنة، وأخرجوا من مصر الفراعنة. واستبدوا بالملك فيها آونة .

وتريا الوحوش الضارة، والجوارح الكاسرة، يقودها شر الأكاسرة[٥]، ملأت هذه الفجاج[٦]، وكأنها حرجات[٧] الساج، أو حركات الأمواج، ثم تدفقت تكتسح الديار، باغية السيف طاغية النار، تدك الهياكل والمعاقل، وتهتك العقائد والعقائل .

---

(١) السيدة مريم .

(٢) إشارة إلى القبطى الذى قتله موسى وغضبت له مصر فلم تقبل فيه من عذر .

(٣) العراب الكرائم .

(٤) الهكسوس أو الملوك الرعاة .

(٥) هو قمبيز أحد ملوك الفرس حكم من ٥٢٩ إلى ٥٢٢ قبل المسيح وهو ابن قورش فتح مصر واستبد بأهلها وقد ذكره المؤلف فى قصيدة المؤتمر فقال :

لا رعاك التاريخ يا يوم قمبـ ـيز ولا طنطنت بك الأنباء

دارت الدائرات فيك ونالت هذه الأمة اليد العسراء

(٦) مفردها فج وهو الطريق الواسع بين جبلين .

(٧) حرجات جمع حرجة وهى مجتمع الشجر. والساج شجر يعظم جداً وخشبة أسود .

وتريا الإسكندر الكريم، قد لمع كالصارم من هذا الصريم[1]، يحمل الحملات النجائب. ويفتح بالكتب وبالكتائب .

وتريا ابن العاص والصحابة، مروا من هذه الأرجاء مر السحابة، يفتحون للحق، ويفتكون بالرق، حتى أخلوا لقصور من القياصرة. وأراحو مصر الصابرة. من صلف الجبابرة .

وتريا صلاح الدين يخفى كالبدر ويبدو، ويروح كالغيث ويغدو، بعوث بلا عدد، ومدد إثر مدد، وذخائر وعدد، وبشرى كل يوم بفتوح جدد .

وتريا نابليون قد ركب طيشه. وأركب الغرر[2] جيشه .

وتريا إبراهيم بن على مشهور الجراز[3]، موفور الجهاز، ملك سوريا وضبط الحجاز .

وتريا إسماعيل بعث الحاشرين، وحشد الحافرين، وقرب المسافة للمسافرين، غير وجه السفر، فقيل بلغ غاية الظفر، وقيل وقع الحافر فيما حفر .

ثم انظرا اليوم تريا القناة فى يد القوم إن أمنوا ركزوها[4]، وإن خافوا هزوها .

---

(١) الصارم السيف القاطع والصريم الرمل .

(٢) الخطر .

(٣) السيف .

(٤) ركز الرمح غرسه فى الأرض وفى القناة هنا تورية إذ تحتمل معنى الرمح وقناة السويس .

الذكرى

«هذه قصيدة من الشعر المنثور تغزل فيها المؤلف بالحرية وأهداها إلى روح صديقه المرحوم مصطفى كامل باشا بمناسبة ذكرى وفاته» :

قل لا أعرف الرق، وتقيد بالواجب وتقيد بالحق، الحرية وما هيه، (الحميراء)[١] الغالية، فتنة القرون الخالية، وطلبة النفوس العالية، غذاء الطبائع، ومادة الشرائع، وأم الوسائل والذرائع، بنت العلم إذا عمّ، والخلق إذا تمّ، وربيبة الصبر الجميل والعمل الجمّ، الجهل يئدها[٢] والصغائر تفسدها، والفرقة تبعدها، تكبيرة الوجود، فى أذن المولود، وتحية الدنيا له إذا وصل، وصيحة الحياة به إذا نصل[٣]، هاتف من السماء يقول له : يا ابن آدم، حسبك من الأسماء عبد الله وسيد العالم[٤]، وهى القابلة التى تستقبله، ثم تسره[٥]، وتسربله[٦]، وهى المهد والتميمة[٧]، والمرضع الكريمة المنجبة (كحليمة)[٨]

---

(١) الحميراء يريد أنها حمراء كالدم وصغرها للتعظيم. وقد تكون إشارة إلى الروح التى يعبرون عنها بسريان الدم فى الجسم .

(٢) يئدها أى يدفنها حية .

(٣) نصل السهم خرج نصله والمراد خروج الولد من بطن أمه كخروج السيف من غمده .

(٤) عبد الله. معناه أن الإنسان وهو فى الدنيا لا يكون عبداً إلا لله وهو سيد العالم المنتفع بكل شىء فيه .

(٥) تسره تقطع سرره والسر ما تقطعه القابلة من سرة الصبى ولا تقل سرته لأن السرة لا تقطع. وإنما هى الموضع الذى قطع منه السر .

(٦) تسربله تلبسه السربال وهو القميص .

(٧) التميمة عوذة تعلق على الإنسان.

(٨) حليمة هى مرضع رسول الله وهى من قبيلة بنى سعد .

ألبانها حياة، وأحضانها جنات، وأنفاسها طيبات، العزيز من ولد بين سحرها[١] ونحرها[٢]، وتعلق بصدرها، ولعب على كتفها وحجرها، وترعرع بين خدرها وسترها، ضجيعة موسى فى التابوت[٣]، وجارته فى دار الطاغوت[٤]، والعصا[٥] التى توكأ عليها، والنار التى عشا إليها[٦]، جبلة المسيح، السيد المسيح، وإنجيله، الذى حاربه جيله[٧]، وسبيله، الذى جانبه قبيله، طينة[٨] محمد، عن نفسه ، عن قومه، عن أمسه، عن يومه، أنساب عالية، وأحساب زاكية، وملوك بادية، لم يدنهم طاغية، وهى روح بيانه،

---

(١) السحر الرئة والمراد ما فوقها .

(٢) النحر موضع القلادة من الصدر .

(٣) ضجيعة موسى فى التابوت. حكاية التابوت أن المنجمين أخبروا فرعون مصر أن مولوداً من بنى إسرائيل قد أظله زمانه الذى يولد فيه يسلبه ملكه ويخرجه من أرضه ويبدل دينه فأمر بقتل كل مولود يولد من بنى إسرائيل من الغلمان ولما قيل له أفنيت الناس وقطعت النسل وهم خولك وعمالك أمر أن يقتل الغلمان عاماً ويستحيوا عاماً فولد هارون فى السنة التى يستحيا فيها الغلمان وولد موسى فى السنة التى فيها يقتلون فحزنت أمه فأوحى الله إليها أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم وهو النيل ولا تخافى ولا تحزنى إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين فلما وضعته أرضعته ثم دعت نجاراً فجعل له تابوتًا وجعلته فيه وألقته فى اليم فاقبل الموج بالتابوت يرفعه مرة ويخفضه أخرى حتى أدخله بين أشجار عند بيت فرعون فخرج جوارى آسية امرأته يغتسلن فوجدن التابوت فأدخلنه إلى آسية فأحبته وحالت بينه وبين الذبح فلما بلغ أشده وأصبح فى المدينة خائفًا يترقب قال ربى نجنى من القوم الظالمين ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل ثم كانت رسالته فالحرية التى اضطجعت مع موسى فى التابوت وجاورته فى دار الطاغوت هى التى اعتمد عليها فى إنقاذ قومه من ظلم فرعون .

(٤) الطاغوت الكفر .

(٥) العصا هى عصا موسى وهى معجزته التى كانت إذا ألقاها انقلبت حية تسعى وأراد أن يثبت لفرعون مصر أنه مرسل من عند الله لتحرير أمته بنى إسرائيل من الرق والعبودية. فعصا موسى هى عصا الحرية لأن الله حرر أمته على يده .

(٦) عشاها قصدها ليلا يوم سار بأهله فآنس من جانب الطور نارًا فكانت رسالته بذلك الوادى المقدس إلى فرعون لينقذ بنى إسرائيل من رق الفراعنة إلى بحبوحة الحرية .

(٧) جيله قومه. وقد أبوا أن يتبعوه إلا قليلا منهم وهم الحواريون .

(٨) طينة محمد عن نفسه إلخ أى أن محمداً خلق من الحرية وقبل أن يخلق كان سارحًا فى فضائها ولما بعث محمد دعا الناس جميعًا إلى الحرية .

ومنحدر السور على لسانه. الحرية، عقد الملك، وعهد الملك ، وسكان الفلك، يد القلم، على الأمم، ومنحة الفكر، ونفحة الشعر، وقصيدة الدهر، لا يستعظم فيها قربان، ولو كان الخليفة عثمان بن عفان، جنين يحمل به فى أيام المحنة، وتحت أفياء[1] الفتنة، وحين البغى سيرة السامة[2]، والعدوان وتيرة العامة، وعند تناهى غفلة السواد، وتفاقم عبث القواد، وبين الدم المطلول، والسيف المسلول، والنظم المحلول، وكذلك كان الرسل يولدون عند عموم الجهالة، ويبعثون حين طموم الضلالة، فإذا كملت مدته، وطلعت غرته، وسطعت أسرته، وصحت فى المعهد إمرته، بدلت الحال غير الحال، وجاء رجال بعد الرجال، دين ينفسح للصادق والمنافق، وسوق يتسع للكاسد والنافق[3]، مولود حمله قرون، ووضعه سنون، وحداثته أشغال وشئون، وأهوال وشجون، فرحم الله كل من وطأ ومهد، وهيأ وتعهد، ثم استشهد قبل أن يشهد .

إذا أحرزت الأمم الحرية، أتت السيادة من نفسها، وسعت الأمارة على رأسها، وبنيت الحضارة من أسها، فهى الآمر الوازع، القليل المنازع، النبيل المشارب والمنازع، الذى لا يتخذ شيعة، ولا صنيعة، ولا يزدهى بخديعة، خازن ساهر وحاسب ماهر، دانق الجماعة بذمة منه وأمان، ودرهمهم فى حرزه درهمان .

(فياليلى)[4] ماذا من أتراب، واريت التراب ؟ وأخدان، أسلمت للديدان ؟ عمال للحق عمار، كانوا الشموس والأقمار، فأصبحوا على أفواه الركاب والسمار، وأين قيسك المعول ؟ ومجنونك الأول ؟ حائط الحق الأطول ؛ وفارس الحقيقة الأجول ؛ أين مصطفى ؟ زين الشباب ؛ وريحان الأحباب ؛ وأول من دفع الباب ؛ وأبرز الناب. وزأر دون الغاب ؟

---

(١) الأفياء هى الظلال .

(٢) السامة الخاصة .

(٣) النافق الرائج .

(٤) يناجى الحرية باسم ليلى ويسألها عن (قيسها) و(مجنونها)

الشمس

سل الشمس من رفعها نارا، ونصبها[١] منارا، وضربها دينارا[٢] ؟ ومن علقها في الجو ساعة[٣]، يدب عقرباها إلى يوم الساعة[٤] ؟ ومن الذى آتاها معراجها[٥]، وهداها أدراجها[٦]، وأحلها أبراجها، ونقل فى سماء الدنيا سراجها ؟ ومن الذى وكلها بهذه الكرة، وشغلها بهذه الدسكرة[٧]، حتى اتخذتها مجر ذيلها[٨]، وتصرفت بنهارها وليلها، تنهض فى السماء مستملحة، وتمشى على الأرض مصلحة، وتغدو منجحة[٩]، وتروح مرجحة[١٠]، كل إياة[١١]، حياة أو ائتناف[١٢] حياة، وكل شعاع صانع صناع،

---

(١) نصبها أقامها .

(٢) أى كالدينار صفرة واستدارة .

(٣) أى كالساعة التى يعرف بها الوقت .

(٤) عقربا الشمس هما الليل والنهار تشبيهًا لهما بعقربى الساعة .

(٥) المعراج السلم .

(٦) جمع درج وهو الطريق .

(٧) الدسكرة القرية العظيمة والمراد بها هنا الدنيا .

(٨) المراد بالذيل الأشعة أى أنها اتخذت الدنيا مكانًا تجر عليه أشعتها .

(٩) غدو الشمس إشراقها .

(١٠) الرواح الغروب ومرجحه أى يجزل العطاء .

(١١) الإياة والشعاع والرائد كلها بمعنى واحد .

(١٢) ائتناف أى تجديد .

وكل رائد، مال فائد[١]، وخير زائد، هى المصباح الأنور، والمغزل الأدور[٢]، والمرجل الأزهر[٣]، والصباغ الأمهر[٤]، والراووق[٥] الأطهر، والطبيب الأقدر الأشهر .

الزمان هى سبب حصوله[٦]، ومنشعب[٧] فروعه وأصوله، وكتابه بأجزائه وفصوله، ولد على ظهرها، ولعب على حجرها، وشاب فى طاعتها وبرها، لولاها ما اتسقت[٨] أيامه، ولا انتظمت شهوره وأعوامه، ولا اختلف نوره وظلامه، ذهب الأصيل من مناجمها[٩]، والشفق يسيل من محاجمها[١٠]، تحطمت القرون على قرنها[١١]، ولم يعل تطاول السنين[١٢]، ولم يمح التقادم[١٣] لمحة حسنها، أتت دونها الأيام وهى كعاب[١٤]، فى[١٥] غرب الشباب، تصبح تبرز من حجاب ، وتمسى تتوارى بحاجاب، طالما ردت

---

(١) المال الفائد الثابت على الزيادة والربح .

(٢) الأدور شديد الدوران وتشبيه الشمس بالمغزل لأنها تفتل الأشعة وترسلها بسرعة .

(٣) المرجل القدر والأزهر النير المشرق وشبه الشمس بالمرجل بجامع الإنضاج فى كل .

(٤) تصبغ النبات فتجعله أخضر وتحبو الحيوان ألوانه المختلفة ثم تعطى بأشعتها كل شىء لونا .

(٥) الراووق المصفاة والغرض أنها مطهرة .

(٥) الليل والنهار والفصول الأربعة هى مظهر الزمان ولولا الشمس ما كنت ولا كان الزمان .

(٧) المنشعب المفترق .

(٨) اتسقت أى انتظمت .

(٩) المنجم المعدن والمؤلف يشبه الأصيل بالذهب بجامع الصفرة فى كل .

(١٠) المحجم مكان الحجامة وهى أخذ الدم من الجسم والمؤلف يشبه الشفق بالنسبة إلى الشمس بالدم بالنسبة إلى شخص يحتجم بجامع الحمرة فى كل .

(١١) قرن الشمس أعلاها وقيل أول ما يبدو من أشعتها .

(١٢) السن العمر والمعنى أن طول الزمن لم يؤثر فيها شيئًا .

(١٣) التقادم القدم .

(١٤) كعبت الجارية نهد ثديها فهى كعاب .

(١٥) غرب الشباب حدته ونشاطه .

الغربا حمائم[1]، ونسجت الثلاث العمائم[2]، وغزلت الأكفان، لحى فان، وطلعت على عزب[3] وغربت على بان[4]، قامت على غير قدم، حتى طال عليها القدم، وقيل ما لهذه عدم، كلا، لتخرن عمادا[5]، ولتذهبن رمادا، وليبعثن الله جمادا[6].

(١) أى تحيل الشباب شيبا .

(٢) العمائم الثلاث كناية عن شعر الشباب الأسود واختلاط السواد بالبياض فى الأشمط والبياض فى الشيوخ .

(٣) العزب الذى لم يتزوج .

(٤) البانى المتزوج .

(٥) لتسقطن .

(٦) أى يبعث على أثرها من العظام أحياء ويشير بهذا إلى أن الشمس تبقى ولا تفنى إلا قبيل الساعة حتى إذا ما فنيت نشرت الخلائق بعد ذلك «ونُفِخَ في الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ » .

الموت

راكب الأعواد[١] إلى أين ؟ يا بعد غاية البين[٢]، ويا قرب الميلاد من الحين[٣]، ويح قومك، هل انتبهوا من نومك[٤]، ولسوا عبرة الدهر بيومك[٥]، حملوك على حدباء[٦]، يقعد الأبناء منها مقعد الآباء، هى أعدل - إذ تضع[٧] - من حواء، تلقى حملها فإذا الملك والسوقة سواء، حقيبة المنية[٨] كل يوم فى ركاب، من مناكب[٩] ورقاب، تحمل الشيب والشباب، إلى رحى البلى فى اليباب[١٠]، فيدور عليهم الدولاب[١١]، فإذا هم حصى وتراب، ومن عجب يدلونها بك إلى السبيل[١٢]، وما هى لعمر أبيك إلا الدليل، فى موكب غير ذى صوت، أضفى[١٣] عليه جلاله الموت، أنت فيه جد فى لعب، وصدق فى

---

(١) الأعواد كناية عن النعش والخطاب للميت .

(٢) البين الفراق وهذه الجملة إشارة إلى بعد الزمن ما بين الموت والنشور .

(٣) الحين الموت وهنا إشارة إلى قصر الحياة .

(٤) أى اتعظوا به .

(٥) العبرة العظة ويومك أى يوم موتك .

(٦) نعش .

(٧) أى تلد والمراد إذ تسلم الأموات إلى القبور .

(٨) كناية عن النعش .

(٩) المناكب الأكناف .

(١٠) اليباب القفر والخراب والمراد برحى البلى هنا القبر إذ فيه يتم الفناء .

(١١) الدولاب الآلة الدائرة والمراد بها هنا دولاب الفناء .

(١٢) يسيرونها كيفما شاءوا مع أنها هى التى تقودهم إلى طريق الحق .

(١٣) أفاض.

كذب[١]، لك فيه علو المتبوع فى التبع[٢]، واللواء فى الخميس[٣] والخطيب فى الجمع، بيد أن ذلك لا يمنعك من الأرض[٤]، ولا ينفعك يوم العرض[٥]، لست والله صاحب الآخرة[٦]، وإن كنت صاحب الجنازة الفاخرة، حتى تشيع بيتهم بعدك مضيع، أو بائس من ورائك يائس، أو وطن يبكيك عقلاؤه، ويضج عليك فضلاؤه، ويمشى بنورك أبناؤه، ويضيء حفرتك ثناؤه. انظر - رحمك الله - هل ترى غير باك كضاحك المزن[٧]، ليس وراء دمعه حزن، أو وارث مشغول بما ملك، أو فضولى يسأل كم ترك، زخرف جنازة، وينفض دون المفازة[٨]، وضجة الخروج من الدنيا وزورها، وآخر عهدك بباطل الحياة وغرورها. ولو أطللت على فان طالما حملك[٩]، وباطل بالأمس شغلك، وقليل متاع قتلك، ثم لم يبق لك : لم تر غير حلم بُتِر[١٠]، وملعب سُتِر، وماء عُبِر[١١]، وظل هُجِر، ومال خُسِر، ووارث منشمِر[١٢]، يسيرون بك إلى

---

(١) الآخرة جد والدنيا لعب وهى صدق والدنيا كذب. فهو بينهم ميت فى وسط أحياء فوصفه بأوصاف الآخرة كما وصفهم باوصاف الدنيا .

(٢) التابعين .

(٣) اللواء العلم والخميس الجيش .

(٤) الأرض القبر .

(٥) القيامة .

(٦) أى صاحب الجزاء الحسن فيها. والمراد بهذه الجملة وما يليها أنك لن تنال ما ترجوه من نعيم الله حتى تشهد لك دموع اليتامى من بعدك وبكاء البائسين على قبرك، وعبرات الفضلاء يوم مصرعك، وأحزان الوطن لفراقك .

(٧) المزن السحاب الغزير الماء. والغرض أنك لا تجد حولك إلا دمعًا كذبًا وحزنًا كله رياء .

(٨) المفازة الفلاة المهلكة لعدم وجود الماء والمراد بها هنا موضع المقابر. يقول كل ما خرجت به من الدنيا موكب مزين ينفض قبل أن يواروك التراب .

(٩) جواب (لو) قوله «لم تر غير حلم بتر» .

(١٠) قطع .

(١١) عبر الماء قطع من شاطئه إلى شاطئه .

(١٢) انشمر مر جادًا أو مختالا .

المنفرق[١]، وسواء الطرق، ويأخذون بك ناحية الحق، وسبيل الخلق، وقصبة السبق هوة البلى، وغمرة الفلا[٢]، والميعاد، ومدينة عاد ؟ وعرصات المعاد[٣]، والبلد الذى ابيضت فيه الأكباد[٤]، وخلفت بظاهره الأحقاد، وصحا الفؤاد، عن الأموال والأولاد، كل مكان فيه مضجع، وكل زمان فيه رقاد[٥]، ثم إذا أنت ببيت[٦]، لا ينزله إلا ميت، اختطه الباطل وبناه، لنزول الحق وسكناه[٧]، كل حجر فيه من جدار، مشاع[٨] بين الدار والدار، حتى إذا أطرق[٩] الجمع، وأطلق الدمع، وفرق البصر والسمع[١٠]، قذف ما فى السرير[١١]، فتلقفه الحفير[١٢]، ووكلت لمنكر ونكير، لا بل لرحمة الملك القدير .

فيا عبد المال، أضرك أنك عتقت[١٣]؟ ويا أسير الآمال، أما سرك أنك أطلقت[١٤]؟ ويا كثير التحول والتقلب، قلّب إن استطعت جنبيك ! ويا مديم التطلع والتطلب، اطلب من

---

(١) مكان الفصل بين الدنيا والآخرة والمراد بهذا وما بعده أوصاف للمقابر عامة أما وصف القبر خاصة فسيأتيك بعد قليل .

(٢) الفلا الأرض الفضاء الموحشة والغمرة المزدحم والمراد أن المقابر هوة يكون فيها الفناء وأرض يزدحم فيها الأموات .

(٣) العرصات الفضاء بين الدور والمعاد موضوع العود والنشور .

(٤) سواد الكبد كناية عن الحقد والحسد وبياضه طهره من كل هذه الأرجاس .

(٥) يقضى الميت مدته فيه كلها فى رقاد طويل .

(٦) القبر .

(٧) الإنسان الموجود فى الدنيا دار الباطل والغرور يحفر القبر ليسكنه الميت الذاهب إلى دار الحق والرشاد .

(٨) مشاع مشترك .

(٩) أطرق برأسه أماله إلى الأرض حزنًا .

(١٠) فرق فزع وخاف .

(١١) السرير النعش .

(١٢) الحفير القبر .

(١٣) الاستفهام هنا إنكارى .

(١٤) الاستفهام هنا تقرير يقرر ما بعده .

البلى نور عينيك ! ويا مزحزح الصم[1] الصلاب، زحزح عن رأسك هذه الظلمة ! ويا فاتح المغالق الصعاب، افتح لك اليوم ثلمة[2] ! كأنى والله بالدهر وقد خلا، وبالمحزون وقد سلا[3]، وكأنى بك وقد فرغ منك الثرى وقامت عنك الرحى[4]. فإذا أنت عظام، كما اخترط العنقود[5]. ثم إذا أنت رغم[6]، جف الماء وذهب العود .

(١) الصم الحجارة الصماء .

(٢) ثلمة فتحة وكل ما تقدم الغرض منه إظهار نهاية عجز الإنسان بعد الموت وكأنما يقول «وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ» .

(٣) سلا أى تعزى وترك .

(٤) أى لم يبق منك ما يصلح للطحن كناية عن تمام الفناء .

(٥) اخترط الرجل العنقود وضعه فى فيه وأخرج عوده عاريًا .

(٦) الرغام التراب .

دعاء الصلاة العامة

«فى سنة ١٩١٩ هبت البلاد فى ثورة عامة تطلب استقلالها المغصوب. وأوفدت لذلك وفداً ليرفع هذا الصوت فى مؤتمر (فرساى)، فأوصد الباب فى وجهه، واضطر إلى أن يلبث فى فرنسا سنة كاملة بين تعب ناصب، وجهاد طويل. ثم تلقى دعوة إلى المفاوضة مع الإنكليز فى عاصمة بلادهم. يومئذ وضع المؤلف هذا الدعاء البليغ، فاجمع الناس من كل دين على أن يتوسلوا إلى الله أن يعز به نواب البلاد. وعقب صلاة الجمعة من يوم ١٧ رمضان سنة ١٣٣٨ (٤ يونيو سنة ١٩٢٠) ارتفعت أصوات المسلمين من كل مسجد فى كل بلد من بلاد القطر تهتف بهذا الدعاء الحار، وملء القلوب أمل، وملء الأنفاس توسل ورجاء» :

اللهم قاهر القياصر، ومذل الجبابر، وناصر من لا له ناصر، ركن الضعيف ومادة قواه، وملهم القوى خشيته وتقواه، ومن لا يحكم بين عباده سواه، هذه كنانتك فزع[١] إليك بنوها، وهرع إليك ساكنوها، هلالاً وصليبا[٢]، بعيداً وقريبا، شبانا وشيبا، نجيبة ونجيبا[٣]، مستبقين[٤] كنائسك المكرمة، التى رفعتها لقدسك أعتابا، ميممين مساجدك المعظمة، التى شرعتها لكرمك أبوابا، نسألك فيها بعيسى روح الحق، ومحمد نبى

---

(١) فزع إليه استغاثه .

(٢) أى من يحمل الهلال ومن يحمل الصليب .

(٣) النجيب الكريم الحسب والنجيبة مؤنثه .

(٤) استبقوا أى تسابقوا إلى .

الصدق، وبموسى الهارب من الرق، كما نسألك بالشهر الأبر والصائميه[١]، وليله الأغر والقائميه، وبهذه الصلاة العامة من أقباط الوادى ومسلميه، أن تعزنا بالعتق[٢] إلا من ولائك، ولا تذلنا بالرق لغير آلائك، ولا تحملنا على غير حكمك واستعلائك[٣]. اللهم إن الملأ[٤] منا ومنهم قد تداعوا[٥] إلى الخطة الفاضلة، والكلمة الفاصلة، فى قضيتنا العادلة، فآتنا اللهم حقوقنا كاملة، واجعل وفدنا فى دارهم هو وفدك، وجندنا الأعزل إلاّ من الحق جندك، وقلده[٦] اللهم التوفيق والتسديد، واعصمه فى ركنك الشديد، أقم نوابنا المقام المحمود، وظللهم بظلك الممدود، وكن أنت الوكيل عنا توكيلاً غير محدود، سبحانك لا يحد لك كرم ولا جود، ويرد إليك الأمر كله وأمرك غير مردود. واجعل القوم محالفينا، ولا تجعلهم مخالفينا، واحمل أهل الرأى فيهم على رأيك فينا. اللهم تاجنا منك نطلبه، وعرشنا إليك نخطبه، واستقلالنا التام بك نستوجبه، فقلدنا زمامنا، وولنا أحكامنا، واجعل الحق إمامنا، وتمم لنا الفرح، بالتى ما بعدها مقترح، ولا وراءها مطرح[٧]، ولا تجعلنا اللهم باغين ولا عادين، واكتبنا فى الأرض من المصلحين، غير المفسدين فيها ولا الضالين، آمين .

---

(١) أى الذين يصومون فيه وكذلك القائميه وهنا (أل) موصولة .

(٢) العتق التحرير من الرق .

(٣) الاستعلاء الغلبة .

(٤) الملأ هنا بمعنى أشرف الناس .

(٥) اجتمعوا .

(٦) قلده السيف وضع حمالته فى عنقه .

(٧) اطّرح الشىء أبعده وطرحه .

الشباب

الشباب أيام آذار[١]، ودولة العذار[٢]، وأعنة الأوطار[٣] وليلة العرس فى هذه الدار. سنة كالطيف سراها[٤]، وكقبلة الخلس[٥] حلم كراها، ونشوة يتلفت المستفيق لا يراها، وجنة لو خير المقبل[٦] بالعقل اشتراها. العشق فى غير جناحه[٧]، طائر لا ينهض به جناح، والكأس من غير راحه، غبية الساقى بليدة الراح[٨]. والمال فى غير خزانته غريب، ويتحول عن قريب. رؤيا الوارث فى نومه، وشغله فى يومه. وملك يده، فى غده. السلطان والدولة، والإمكان والصولة، والملك وكل ما حوله، نعم إذا لم تحرز فى الشباب فما هى فى الحرز الحريز[٩]، ودول إذا لم تعتز به فليست فى الذرا[١٠] العزيز. ولذات إذا لم يشهدها غادتها حسرة الفوت ، وراوحتها فكرة الموت .

---

(١) آذار فى الشهور العبرية يقابل (مارس) فى الشهور الإفرنجية، وهو مستهل الربيع.

(٢) العذار جانب اللحية .

(٣) الأوطار الأغراض .

(٤) السنة الغفلة أو فتور يتقدم النوم والسرى السير فى الليل .

(٥) الخلس من خلس الشىء أخذه فى مخاتلة .

(٦) الجنة الجنون والمقبل المجنون يشفى من جنونه .

(٧) فى غير كنفه .

(٨) غباوة الساقى وبلادة الراح كناية عن ضآلة فرحها وضعف نشوتها .

(٩) الحرز الحريز الحصن المنيع .

(١٠) الذرا الكنف والملجأ .

أروع الشهرة ما طار فى سمائه، وأمتع الصيت ما سار تحت لوائه، وأحسن الثناء ما أتى فى أثنائه، ورف على قشيب ردائه[١]. فى مطالعه يروع النبوغ، كما تروع الشمس فى البزوغ، أو الهلال الغلام[٢] فى البلوغ فيا ناهب شبابه، قاعداً للتجر[٣] ببابه، يسرف فى الرحيق وحبابه[٤]، ويتلف الصبابين صبابته وأحبابه، ... أفق ! تلك ذنان[٥]، لا تقوى على الإدمان[٦]، ولا يملؤها مرتين الزمان، كرم لا يوجد فى الجنان، ولا ينبت فى «مالقة» ولا «شمبان»[٧]. عناقيده مختضرة[٨] الثمار، مختصرة الأعمار، بريئة الخمر من الخمار[٩]. حلبها[١٠] الأفراح، وجلبها المراح، وهى فارضية[١١] الراح، لم تطأها الأقدام ولم تمسسها الراح[١٢]. فلا تعب الراقود[١٣]، واشربه نغبة نغبة[١٤]، ولا تخترط[١٥] العنقود، وكله حبة حبة .

---

(١) الرداء القشيب الجديد النظيف .

(٢) أى الصغير .

(٣) التجر بائع الخمر .

(٤) الرحيق الخمر والحباب الحب .

(٥) جمع دون وهو إناء الخمر .

(٦) الإدمان مداومة الشراب .

(٧) شمبان مقاطعة فى فرنسا اشتهرت بجودة الخمور. ومالقة مدينة فى إسبانيا فى ضواحيها كروم يستخرج منها نبيذ (ملقا) المشهور. وقد استعاض المؤلف بهذين البلدين عن (بابل) وأندرين وعما اعتاد العرب أن يذكروا من البلاد إذا ذكروا الخمور .

(٨) اختضر الكلام قطع وهو أخضر .

(٩) الخمار صداع الخمر وأذاها .

(١٠) الحلب اللبن المحلوب .

(١١) فارضية نسبة إلى ابن الفارض .

(١٢) الأكف .

(١٣) عب الماء شربه بلا تنفس والراقود دن الخمر .

(١٤) جرعة جرعة .

(١٥) اخترط العنقود وضعه فى فمه ثم أخرج عوده عاريًا .

الخير

شجرة مرآها جميل، وظلها مقيل[١]، وأعاليها هديل[٢]، وهى مذللة السبيل، الطير على جوانبها تميل، والناس فى ظلها الظليل. فأما الطير فتنزل مجملات[٣]، وترحل غير محملات، تسقط مشفقات، وتلقط مترفقات، وتشدو بشكر الصنيع منطلقات. وأما الناس فلا يتئدون فى الثمرة[٤]، ولا يرفهون عن الشجرة[٥]. يهزون أصولها بعنف، وينفضون فروعها بغير لطف. يساقطون الجنى[٦]، بطرف العصا، ويستنزلون الثمر برمى الحجر، يلمون ويلومون[٧] ويطعمون ويطعنون، ويلعقون[٨] ويلعنون. يجنون الثمر، ويلحون[٩] الشجر .

---

(١) المقيل الذى يئوى إليه عند الظهيرة .

(٢) الهديل صوت الحمام .

(٣) أجمل فى الطلب رفق .

(٤) لا يتمهلون فى جنيها .

(٥) رفه عنه نفس وخفف .

(٦) يساقطونه أى يتابعون إسقاطه والجنى ما يجنى من الشجر ما دام غضا .

(٧) يلمون الثمر ويلومون الشجر لأنه لم يشبع نهمهم .

(٨) لعق العسل لحسه والمراد التمتع بحلاوة الثمر .

(٩) لحا الشجرة قشرها ولحاه أيضاً سبه وعابه .

الظلم

قليل المدة، كليل العدة[١]، وإن تظاهر بالشدة، وتناهى فى الحدة. عقرب بشولتها[٢] مختالة، لا تعدم نعلا قتالة. ريح هوجاء لا تلبث أن تتمزق فى البيد[٣] أو تتحطم على أطراف الجلاميد[٤]، فتبيد. جامح[٥] راكب رأسه، مخايل ببأسه. غايته صخرة يوافيها، أو حفرة يتردى فيها. سيل طاغ لا يعدم هضابا تقف فى طريقه، أو وهاداً[٦] تجتمع على تفريقه. جدار متداع أكثر ما يتهدد[٧]، حين يهم أن يهدد[٨]. هو غداً خراب، وكومة من تراب. نار منقطعة المدد، وإن سدت الجدد[٩]، وملأت البلد، يأكل بعضها بعضاً كنار الجسد .

---

(١) السيف الكليل الذى لا يقطع .

(٢) الشولة ما ترفع العقرب من ذنبها .

(٣) جمع بيداء هى الفلاة .

(٤) جمع جلمود هو الصخر .

(٥) أى فرس جامح .

(٦) جمع وهدة وهى الهوة فى الأرض .

(٧) أى أكثر ما يخاف منه .

(٨) يسقط .

(٩) الطريق الواسع .

القلب

يا طبيب الجماعة : قم ألق السماعة، وسل هذه الساعة[١]، من أدق اللحم صناعة، ومنح الدم المناعة ؟ مضغة[٢] إذا فترت[٣] سلبت البراعة، ولبست العجز والضراعة[٤]، تدابيرك عندئذ مضاعة، وعقاقيرك مزجاة[٥] بضاعة .

---

(١) المراد بالساعة هنا القلب، شبه بها بجامع الدق المنتظم فى كل .

(٢) قطعة لحم .

(٣) فتر سكن بعد حدته .

(٤) الضراعة الضعف .

(٥) البضاعة المزجاة أى الرديئة .

المقدمة

الذكرى

من البر يا قلب أن ندّكر[١] فمل بى على الفائت المندثر ولا تألّ[٢] ذكرى ولا تدخر .

هلم ننشر مطوى الصفحات، ونقرب نازح[٣] اللذات، ونئوب من سفر الأيام بغائب اللبانات[٤]، أعد علىّ من دقات ناقوسك ترنيما[٥]، كان لذيذ الحواشى رخيما ؛ ومن دقائق ساعتك ما رن فى أذنى قديما. فما زلت يا قلب تقضى الحقوق، وتذكر العهود فتجزيها التلفت[٦] والخفوق، حتى كأنك قلبان، اثنان، قلب مع الماضى متخلف العنان، وقلب يساير ركب[٧] الزمان. بعيشك قل لى : من علمك رد الأحلام؟، ورجوع القهقرى فى نواحى الأيام ؟ ، ومن رسم لك الإلمام[٨]، بدمنة عيش أو برسم غرام[٩]؟. ومن علّم الدم وصل الحبل[١٠] ، وحمل اللحم ما يوهن الجبال، من الحنين إلى سالف خال، أو البكاء

---

(١) ادّكر الشىء ذكره .

(٢) ألا فى الأمر يألو قصر فيه وأبطأ .

(٣) النازح البعيد .

(٤) آب يئوب رجع واللبانات الحاجات .

(٥) الترنيم تطريب الصوت .

(٦) تلفت القلب كناية عن الشوق .

(٧) الركب ركاب الخيل أو الإبل .

(٨) رسم له كذا أمره به وألم بالقوم إلمامًا زارهم زيارة قصيرة .

(٩) الدمنة آثار الدار والرسم ما كان لاحقًا بالأرض من هذه الآثار .

(١٠) المراد بالحبال هنا العهود .

على دارس بال؟ وما سلطانك يا قلب حتى تدنى الممعن[١] فى بعده، وتجده وإن تطاول لعهد على فقده. ؟ ومن علمك أن تتحدث، وتقلب الأقدم والأحدث[٢]. وتذكر الصبا وأيامه، ووياديه وآرامه[٣]، وبساطه ومدامه؟

هو الله الذى صورك فأدقك، وقدر خفوقك ودقك، ومهدك وزقك[٤]، وكتب عليك فى الضلوع رقك[٥]. وما أنت لولا التذكر والفكر، إلا كبعض القلوب إذ هى حجر، ينفجر بالعذب ولا يعلم كيف انفجر، ولا متى نبع ولا أين انحدر، أو كالأرض يذهب شجر ويأتى شجر. فلا تذكر ما غاب ولا تشعر بما حضر .

---

(١) الممعن المبالغ .

(٢) مبالغة فى القديم والحديث .

(٣) الآرام جمع رئم وهو الظبى الخالص البياض .

(٤) زق الطائر فرخه أطعمه بمنقاره

(٥) إشارة إلى سجنه تحت الضلوع من يوم الميلاد إلى يوم الوفاة .

شاهد الزور

يا شاهد الزور، أنت شر موزور[1]، ضللت القضاة، وحلفت كاذبًا بالله، ونلت
رياء بأذاة[2]، وحلت بين القصاص والجناة، والله يقول : «وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ»

---

١) الموزور الذى يحمل الإثم

٢) المكروه

الصبر

بعض الصبر تجلد، ثم الحزم والرضاء ؛ وبعضه تبلد[1]، وهنا العجز لاستخذاء[2]. ليس الصبر غلظة القلب، وبلادة اللب ؛ أو الجهل على الأقدار، وإنكار لايراد عليها والإصدار ؛ ولا هو اكتظاظ الأندية[3]، وألفاظ تجرى بالتعزية، ورجل حدثك بالصبر، وإذا أصيب تمنى القبر. إنما الصبر استرجاعك[4] فى النفس الحزينة، تى تفيء[5] إلى السكينة، وتجيء[6] من نفسها إلى الطمانينة. إيمان يزع[7]، عند جزع ؛ وعقل يزن، إذا القلب حزن ؛ ومقابلة الأحكام بالحكمة، والعلم بأن النعمة، نذير نقمة، وبأن الدهر حالتان، والدنيا حلتان ؛ وأن من لم ينتفع بالضجر رضى ، وأن لكل ىء غاية وينقضى .

) التبلد الحيرة والتلهف .

) الاستخذاء الخضوع .

) امتلاء المجامع بأخلاط المعزين .

) قولك «إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ» .

) ترجع .

) تلتجئ .

) يمنع من الحزن .

شهادة الدراسة وشهادة الحياة

ما بال الناشئ وصل اجتهاده، حتى حصل على الشهادة. فلما كحل بأحرفها عينيه، وظفرت بزخرفها كلتا يديه، هجر العالم وربوعه، وبعث إلى معاهده بأقطوعة[١]، طوى الدفاتر، وترك المحابر، وذهب يخايل[٢] ويفاخر، ويدعى علم الأول والآخر؟

فمن ينبيه[٣]، بارك الله فيه، لأبيه، وجزى سعى معلمه ومربيه: أن الشهادة طرف السبب[٤]، وفاتحة الطلب، والجواز[٥] إلى أقطار العلم والأدب. وأن العلم لا يملك بالصكوك والرقاع[٦]، وأن المعرفة عند الثقات غير وثائق الإقطاع[٧]. ومن يقول له رشده الله : إن شهادة المدرسة غير شهادة الحياة ؟

فيا ناشئ القوم بلغت الشباب، ودفعت على الحياة الباب. فهل تأهبت للمعمعة[٨]، وجهزت النفس للموقعة، ووطنتها[٩] على الضيق بعد السعة، وعلى شظف العيش بعد

---

(١) الأقطوعة شيء تبعث به الجارية إلى الأخرى علامة المقاطعة والخصام .

(٢) خايل زميله باراه وفاخره .

(٣) أى يخبره .

(٤) السبب هو الحبل وطرف السبب يراد به مبدأ الحياة .

(٥) الجواز علامة المرور وصك المسافر .

(٦) الصك الكتاب والجمع صكوك. والرقاع جمع رقعة وهى القطعة المكتوبة من الورق .

(٧) الإقطاع أن يجعل الأمير غلة البلد للجند .

(٨) المعمعة صوت الأبطال فى الحرب .

(٩) وطن نفسه على الأمر وله مهدها لفعله وحملها عليه .

الدعة؟ دعت الحياة نزال[١]، فهلم اقتحم المجال، وتورد[٢] القتال، أعانك الله على الحياة، إنها حرب فجاءات وغدر وبيات[٣]، وخداع من الناس من الحادثات. فطوبى[٤] لمن شهدها كامل الأدوات، موفور المعدات؛ سلاحة، صلاحة ؛ وترسه، درسه ؛ ويلبه[٥]، أدبه ؛ وصمصامته[٦] استقامته ؛ وكنانته[٧] أمانته ؛ وحربته، دربته[٨] .

(١) اسم فعل أمر بمعنى انزل .

(٢) تورد الماء ورد.

(٣) البيات الإيقاع بالعدو ليلاً .

(٤) شجرة فى الجنة كما يقال. وهى الجنة عند الهنود .

(٥) اليلب الدروع اليمانية .

(٦) الصمصام والصمصامة السيف الذى لا ينثنى .

(٧) الكنانة جعبة السهام .

(٨) الدربة الاختبار والتجربة .

الحياة

القبس[1]، والنفس، والروح القدس. ظاهرها هذه الجيفة[2]، وباطنها النفس الشريفة. تبعة الذنب القديم[3]، وأثر آدم على الأديم[4]. فيا طريد القدر[5]، ونفى الحظر[6]، وأبا البشر، ما أطول ذماءك[7]، وأدوم ماءك، وما أكثر بناتك وأبناءك، وأقل اهتمامك بهم واعتناءك! ولدت للموت، وأوجدت للفوت. تقسم القبس نفوسًا بلا عدد. وتفرق النفس فى شتى الولد. فليت شعرى كيف استقلهما صلصالك[8]، وكيف قويت عليهما أوصالك[9]؟ آمنا بأنك الجد، فهل لهذا التدفق حد، أم ما لأمر الله مرد ؟

الحياة كعهدك بها معصية، عن الحصيرة مقصية. وخلوة، حلوة، عواقبها نغص[10]، ومشاربها غصص. أفعى خداعة، ولدة لذاعة. شوك بغض الورد، وقذى

---

(١) شعلة تؤخذ من معظم النار .

(٢) المراد بالجيفة الجسم الذى لا يلبث أن يموت حتى يجيف .

(٣) ذنب آدم يوم أكل فى الجنة من الشجرة التى نهى عن أكل ثمرها .

(٤) الأديم وجه الأرض .

(٥) الخطاب لآدم .

(٦) النفى ما جفأت به القدرة عند الغليان والحظر جمع حظيرة والمراد بها هنا الجنة .

(٧) الذماء بقية النفس .

(٨) استقل الشىء حمله والصلصال الطين الحر خلط بالرمل .

(٩) الأوصال الأعضاء .

(١٠) نغص الرجل نغصًا لم يتم مراده فهو قلق حزين .

نغص الورد[١]. أمور شتى الأعنة، وحوادث وقع وأجنة[٢]. فقل لمن أطال التفكير، وبالغ فى النكير[٣]، وكد باله، ومد بلباله[٤]، واحترق احتراق الذبالة !

خل اهتمامك ناحية وخذ الحياة كما هيه !

(١) الورد الإشراف على الماء للاستقاء .

(٢) الوقع جمع واقع وهو الحاصل والأجنة جمع جنين وهو المستور من كل شيء .

(٣) النكير الإنكار .

(٥) البلبال الهم ووسواس الصدر.

الحياة أيضا

أحق أنها هى الدم حتى يجمد؟ وأنها هى الحرارة حتى تبرد ؟ وأنها هى الحركة حتى يقطعها السكون، وأنها هى الجاران[١] حتى تفرق بينهما المنون ؟

الحق أن افتئات[٢] الفلسفة، على ضنائن[٣] الله سفه. وأن علم الحياة عند الذى يهبها ويستردها، والذى يقصرها[٤] ويمدها، والذى يخلقها[٥] ويستجدها، والذى كل حى سواه يموت، وكل شىء ما خلاه يفوت .

---

(١) الجاران الروح والجسد والمتنبى يقول : ومفترق جاران دارهما العمر .

(٢) افتأت عليه اختلق عليه الباطل .

(٣) ضنائن الله عز وجل ما اختص ذاته بعلمه من الأمور .

(٤) قصر الشىء يقصره جعله قصيراً .

(٥) يبليها .

الحياة أيضا

ماذا أقول فى ابنة الموت وأمه، وعلة حكمه، ونبعة[١] سهمه، ومنقعة[٢] سمه ؟ وكيف القول فى صاحبة[٣]، لم تملك عن خطبة[٤]، ولم يبن بها[٥] عن رغبة، ولم تبين[٦] لملال صحبة، أو بغضة[٧] بعد محبة، تسىء ولا تفرك[٨]، ولولا الموت لم تترك ؟

---

(١) النبعة القوس .

(٢) منقعة السم الإناء الذى يوضع فيه .

(٣) المراد بالصاحبة هنا الزوجة والمقصود بها الحياة. وقد شبه المؤلف الجسم والروح فى هذه الجملة وما بعدها، ثم مضى فى التشبيه يبين وجوه الخلاف .

(٤) أى لم تزوج للجسم بعد طلب يدها كالعادة فى كل زواج .

(٥) بنى الرجل على أهله زُفّت إليه .

(٦) بانت المرأة عن الرجل انفصلت عنه بطلاق .

(٧) البغضة شدة البغض .

(٨) أى لا تبغض والفرك خاص ببغضة الزوجين .

اللسان

مضغة[1] لحم، فى عظم، سماها الناس اللسان، وعظموها لفضيلة البيان، فقوموها بنصف الإنسان. عضل نبت من الحلقوم وقناته، وثبت فى أصل لهاته[2]، ولبث فى السجن ظمأ[3] حياته، لا يتحرك منه سوى شباته[4]. وسول العقل، فى النقل ؛ وأداة الدماغ، فى البلاغ، وترجمان النفس فى رواية العاطفة، وحكاية الصحو والعاصفة. الوحى على عذباته[5] ظهر، ومن جنباته انحدر، فكان أول من سفر[6]، بين الخالق وبين البشر، ثم فجر بالحكمة فانفجر، ثم علّم الشعر فشعر، فسبحان الذى خلقه، وعلقه، والذى قيده وأطلقه، والذى أسكته وأنطقه، والذى يميته فيندثر، والذى هو على بعثه مقتدر .

---

(١) المضغة القطعة .

(٢) اللهاة اللحمة المشرفة على الحلق فى أقصى سقف الفم أو ما بين منقطع أصل اللسان إلى منقطع القلب من أعلى الفم .

(٣) ظمأ الحياة من الولادة إلى وقت الموت .

(٤) الشباة الطرف .

(٥) العذبات الأطراف من كل شىء .

(٦) سفر الرجل خرج إلى السفر .

البيان

رحيق النبيين[١]، وإبريق العبقريين[٢]، وحظ المرزوقين، ونصيب الموفقين، وذرا الجمال[٣]، وذرا الكمال[٤]، والتوفيق الذى لا ينال، بسلطان ولا مال، والخلد[٥] الذى يؤخذ باليمين وغيره يؤخذ بالشمال. صديق البشرية، وعدو الجبرية[٦]. حادى الإنسانية، السائق بالمطية، حتى تبلغ الطية[٧]، يمر بها على الخير وربوعه، والبر وينبوعه، ويقبل بها على الحق وقبيله[٨]، ويعدلها إلى العدل وسبيله، ويلم بها على الجمال ومغناه، وغُرَف لفظه تحت حور معناه[٩]، ويلج بها على العواطف، حنايا الضلوع اللواطف[١٠]. وهو الملك على كل اللغات، قد انتظم سلطانه أقطار البلاغات، إذا

---

(١) الرحيق الخمر وقد شبه بها المؤلف بلاغة الأنبياء بجامع التأثير فى كل، هذا فى العقول وهذه فى الأرواح .

(٢) أى الإبريق الذى يشرب منه العبقريون فيمطرون الناس روائع الحكمة وفصل الخطاب .

(٣) الذرا الملجأ .

(٤) الذرا جمع ذروة وهى القمة .

(٥) دوام البقاء والمقصود به هنا الذكر الخالد .

(٦) الجبروت .

(٧) الجهة التى إليها تطوى البلاد .

(٨) القبيل الجماعة من أقوام شتى .

(٩) يقال هذا البيت تحت ساكنه فلان وعلى هذا القياس يكون اللفظ تحت معناه .

(١٠) اللواطف من الأضلاع ما دنا من الصدر .

انتقل من لسان إلى لسان، فى أمانة من الناقل وإحسان، أسرع فى مضاهاته[1]، وتمكن فى جهاته، تمكن اللسان من لهاته[2] ؛ فكأنه التغريد أو البغام[3]، أو منطق الأنغام، ترجع له الأمم وإن ذهبت كل أمة بكلام .

(١) أى أسرع فى مشاكلة اللسان المنقولة إليه .

(٢) اللهاة اللحمة المشرفة على الحلق فى أقصى سقف الفم .

(٣) البغام صوت الظبية .

المال

يا مال : الدنيا أنت، والناس حيث كنت، سحرت القرون، وسخرت من قارون، وسعرت النار يا نيرون[١]، تعود الحقد أن يحالفك، وأبى الحسد أن يخالفك، وكتب على الشر أن يخالطك ويؤالفك. الفتنة إن حركتها اتقدت، وإن تركتها رقدت والحرب وهى الحرب[٢]، تبعثها ذات لهب، منك الرياح ومنك الحطب. تزرى بالكرام، وتغرى بالحرام، وتضرى[٣] بالإجرام. فقدانك العر[٤] والضر، ونكد الدنيا على الحر. حالك وحال الناس عجب، تملكهم من المهد، ويقولون أصبنا وملكنا، وترثهم عند اللحد، ويقولون ورثنا وتركنا ! من عاش قوموه بما ملك، ومن هلك، تساءلوا: كم ترك؟ المحروم من أوثقك، والضائع من أطلقك، وهما فقيران من جمعك ومن فرقك. كثيرك هم، وقليلك غم. ومع التوسط الخوف والطمع، والحرص والجشع. حذر النفاد، ورغبة فى الازدياد. الملك سوقة إذا نزل إليك والسوقة ملك إذا علا عليك. أرخصت الجمال، ونقصت الكمال، وخطبت لهجن الرجال هجان ربات الحجال[٥]. صويحباتك هن المفضلات، وغيرهن المتروكات

---

(١) سعر النار أوقدها ونيرون قيصر من قياصرة الرومان أشعل النار فى روما، وأشرف عليها من جبل ليبتهج بمنظر الحريق، وقد ضرب به المثل من هذا اليوم فى القسوة والطغيان .

(٢) الحرب الهلاك .

(٣) أضرى فلانا بالشر أغراه به .

(٤) العر الجرب .

(٥) هجن جمع هجين وهو اللئيم والهجان من كل شىء خيار .

المعضلات[1]. العريان من س دونك منه سترة، والمستضعف من ليس له منك قدرة. فسبحان من قهر بك الخلق، وقهرك برجال الخلق .

(١) عضل المرأة حبسها عن الزواج .

الأهرام

ما أنت يا أهرام؟؟ أشواهق أجرام[١]، أم شواهد إجرام[٢] ؟ وأوضاح معالم[٣]، أم أشباح مظالم ؟ وجلائل أبنية وآثار، أم دلائل أنانية واستئثار[٤] ؟ وتمثال منصب من الجبرية[٥]، أم مثال ضاح[٦] من العبقرية ؟ يا كليل البصر، عن مواضع العبر، قليل البصر[٧] بمواقع الآيات الكبر : قف ناج الأحجار الدوارس، وتعلم فإن الآثار مدارس. هذه الحجارة حجور لعب عليها الأول، وهذا الصفاح صفائح ممالك ودول[٨]. وذلك الركام[٩] من الرمال، غبار أحداج[١٠] وأحمال، من كل ركب ألم ثم مال[١١]، فى

---

(١) الأجرام الأجسام والشواهق المرتفعة .

(٢) يشير المؤلف إلى ما ارتكب بانوها من ظلم وإرهاق وتسخير .

(٣) الأوضاح الغرر، والمعالم ما يستدل بها على الطريق من آثار .

(٤) استأثر بالشيء على غيره استبد به وخص به نفسه .

(٥) الجبروت .

(٦) الضاحى هنا بمعنى البارز .

(٧) البصر العلم .

(٨) الصفاح الحجارة العريضة والصفائح حجارة عراض رقاق تسقف بها القبور، والمراد بها هنا نفس القبور من تسمية الكل باسم جزئه .

(٩) الركام المتراكم .

(١٠) الأحداج جمع حدج وهو الحمل أو مركب من مراكب النساء .

(١١) الركب الخيل والإبل وألم بالقوم زارهم زيارة قصيرة وفى أجزاء هذه الفقرة استعارة شبهت فيها كل دولة بركب لا يلبث أن يحط حتى يشد الرحال، وشبهت الرمال فى أرض الأهرام بما يتخلف عن أحمال هذا الركب من غبار، ولا يخفى ما فى الفقرة بأكملها من مراعاة النظير .

هذا الحرم درج عيسى صبيا[1]، ومن هذا الهرم خرج موسى نبيا، فى هذه الهالة طلع يوسف كالقمر وضيا[2]، ووقعت بين يديه الكواكب جثيا[3]. وههنا جلال الخلق وثبوته، ونفاذ العقل وجبروته، ومطالع الفن وبيوته، وههنا تتعلم أن حسن الثناء، مرهون بإحسان البناء .

(١) يشير المؤلف إلى المدة التى أقامها السيد المسيح مع أمه وهو طفل فى المكان الذى يطلق عليه الآن «شجرة مريم» (بمطرية الزيتون) .

(٢) الوضى الوضىء وهو الحسن النظيف .

(٣) جثيا جمع جاث وهو الجالس على ركبتيه وهنا إشارة إلى حلم يوسف عليه السلام : ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾.

الأمس

أمس ما أمس ؟ خطوة إلى الرمس[١]. خرزة هوت عن السلك، أغلى من خرزات الملك[٢]. صحيفة طويت والصحف قلائل، من كتاب العمر الزائل، ثلمة[٣] فى الجدار، وهت لها الدار، وأنت غير دار. جزء من عمرك حضرت وفاته، وقبرت بيدك رفاته[٤]، لم ترق عليه عبرة ولم تشيعه بالتفاتة. وهو القاعدة[٥] التى يبنى عليها العمر، والحب الذى ينبت عليه الشجر، ويخرج منه الثمر، وهو الخبر والأثر، والكتب والسير، والأسى[٦] والعبر. وهو أبو يومك، والولد سر أبيه ؛ وجد غدك، فاجعله النبيل فى الجدود النبيه .

---

(١) الرمس القبر مستويًا مع وجه الأرض .

(٢) خرزات الملك جواهر تاجه .

(٣) الثلمة فى الجدار الخلل .

(٤) الرفات الحطام .

(٥) قاعدة البيت أساسه .

(٦) الأسى جمع أسوة وهى ما يتعزى به الحزين .

اليوم

طلعت الشمس، ونفضت الخمس[1]، من تراب أمس، وانصرف بنو الأيام من الجنازة، وقد هان عليهم اليوم الراحل، كما هان على المسافر مطوى[2] المراحل. فلا العبرة أراقوا، ولا على العبرة أفاقوا. شغلتهم دنياهم وأمنوا مناياهم، وألهاهم هواهم، فهلكوا دون مناهم، فسبحان الذى ألهى بالأمل، وشغل بالعمل، واستنهض الإنسان لأعباء اليوم فحمل، والذى جعل الأمس أحاديث، ومواريث، وجعل اليوم مجال النهاض الناهز[3] وجعل غداً يوم العاجز. فيا ابن الأيام لا تعقد مناحة الأمس، ولا تقعد تحرس الرمس، ولا تفسد شغل اليوم بالإرجاء[4] ولا تلق على غد كل الرجاء، واعمل فى يومك ما أمكن العمل، وتمتع به ما تسنى التمتع، فما تعلم ما قدامك من عوائق، ولا ما دونك من بوائق[5]، وما تدرى: أعوام حياتك أم دقائق ؟

---

(١) الخمس أصابع اليد .

(٢) طوى المرحلة قطعها .

(٣) الناهز الذى يغتنم الفرص .

(٤) الإرجاء التأخير .

(٥) البوائق المصائب .

(٤)

(٥)

الغد

غيوب محجوبة، وحجب مضروبة، وأقدار مكتوبة. أعمار موهوبة، أو منهوبة. وأرزاق مجلوبة، أو مسلوبة. بريد الملك القهار، موعده حواشى الأسحار[١]، أو غرة[٢] النهار. حملت الفجاءات نجائبه[٣]، واشتملت على المستجدات حقائبه[٤]، وبلغت مستقرها مغرباته[٥] وجوائبه[٦]. أقبل ففض المختوم، وظهر المكتوم، وانفجر المحتوم، وإذا مناعٍ وبشائر، وإذ دولات[٧] ودوائر[٨]. واعلم يا ابن الأيام أن الغد أعده الله لك خير ما أعده، ومده لك أيمن[٩] ما مده. هو الشخص الثالث، فى رواية الأيام والحوادث[١٠]، والخلف من صاحبيه والوارث، وهو معقد[١١] الآمال، وموعد استئناف الأعمال، ومرمى همة[١٢] المال، تنام الأنفس وفى إيمانها منه شك، وفى أيمانها منه

---

(١) السحر قبيل الصبح .

(٢) غرة النهار أوله .

(٣) النجائب جمع نجيبة يقال ناقة نجيبة أى كريمة الأصل .

(٤) الحقائب جمع حقيبة وهى خريطة يعلقها المسافر فى الرحل للزاد ونحوه .

(٥) و(٦) المغربات الأخبار الطارئة والجوائب كذلك .

(٧) دولات الأيام انقلابها من حال إلى حال .

(٨) الدوائر الدواهى .

(٩) أيمن من اليمن هو البركة .

(١٠) شبه الحياة برواية أبطالها ثلاثة : الأمس واليوم والغد .

(١١) معقد الآمال موضع انعقادها .

(١٢) يريد بهمة المال فوائده .

صك[1]، فاعمل له ما استطعت، وانتظره أتى أم لم يأت، وقل سبحان الذى أتى به، والذى هو قادر على طى كتابه . يوم يأتيه أمره فلا يبرز من حجابه .

(١) الصك كتاب الإقرار بالمال ونحوه يريد أنه واثق بقدومه .

المسجد الحرام

الساحة الكبرى، والدار اللموم[١]، والموسم الحاشر[٢] المنتدى والمؤتمر، ومثابة الزمر[٣]، إبرة المبحر، ونجم المصحر[٤]. قبلة البدوى فى قفره، ووجهة القروى فى كفره[٥]. حرم الله المطهر، وبيته العتيق المستر[٦]، الذى وجه إليه الوجوه، وفرض على عباده أن يحجوه، نظرت إليه المساجد فى كل خمس[٧]، وقامت إليه قيام الحرباء[٨] إلى الشمس. بناه الله بمكة على فضاء زكى لم يتنفس فيه الناس[٩]، وخلا إلا من جحر أو كناس[١٠]، فلا الدنيا سحبت عليه غرورها، ولا النفوس نقلت فيه شرورها، ولا الحياة أزرته باطلها وزورها. ولو شاء الله لبنى بيته بمصر على نهر فياض، وواد كله قطع

---

(١) اللموم التى تجمع الناس .

(٢) الحاشر الجامع .

(٣) المثاب مجتمع الناس بعد تفرقهم ومنه المثابة. قال تعالى ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ والزمر الأفواج المتفرقة بعضها فى إثر بعض .

(٤) المبحر راكب البحر والمصحر المسافر فى الصحراء، وعادة المبحر أن يهتدى إلى سبيله ببيت الإبرة (البوصلة)، وعادة المصحر أن يهتدى إلى غايته بالنجوم وقد شبه المسجد الحرام بالإبرة والنجم بجامع هداية السائر الحائر فيهما .

(٥) الكفر القرية .

(٦) المستر المغطى بالأستار .

(٧) الخمس هنا الصلوات .

(٨) الحرباء حيوان يستقبل الشمس ويدور معها ويتلون بلونها .

(٩) الفضاء الزكى الصالح وتنفس الناس كناية عن وجودهم .

(١٠) الكناس بيت الظبى فى الشجر .

الرياض، ولو شاء الله لاتخذ بيته بالشام بين الجداول المظللة، والربى المكللة[١] والغصون المهدلة، والقطوف المذللة[٢]. ولو شاء الله جلت قدرته لرفع بيته على أنوف الجبابرة، ملوك الأعصر الغابرة، وفوق هام آلهتهم وهى ممهدة منضدة[٣]، فى الغرف المشيدة، والقباب الممردة[٤]، ولكنه تعالى نظر إلى أم القرى[٥] ؛ فرأى بها ذلاً لعز سلطانه، وافتقاراً إلى غناه وإحسانه، ورأى خشوعًا يستأنس به الإيمان، وتجرداً تسكن إليه العبادة. ورأى انفراداً يجرى فى معنى التوحيد، فأمر إبراهيم حواريه[٦]، ونبيه، وخليله وصفيه، أن يرفع بذلك الوادى ركن بنيته[٧]، وينصب بين شعابه[٨] منار وجدانيته، بنيان قام بالضعف والقوة[٩]، ونهض على كاهل الكهولة وساعد الفتوة، واشتركت فيه الأبوة والبنوة، فكنت ترى إبراهيم يزاول[١٠]، وإسماعيل بين يديه يناول، حتى بنيا حقًا أعيا المعاول، وعجز عنه الذى دمّر تدمر وأدبلى بابل[١١]. فانظر إلى صفاح[١٢] الباطل كيف باد، وإلى آجر الحق كيف أفنى الآباد، وتأمل عجائب صنع

---

(١) الربى الأراضى المرتفعة والمكللة المتوجة والمراد أنها متوجة بالزهر والأعشاب .

(٢) القطوف الثمار والمذللة المدلاة ومنه قوله تعالى ﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً﴾.

(٣) الهام الرءوس والمنضدة المتراصفة والمراد بالآلهة هنا الأصنام .

(٤) الممردة الطويلة الملساء .

(٥) مكة المكرمة .

(٦) الحوارى الرسول .

(٧) البنية الكعبة .

(٨) الشعاب الطرق .

(٩) ضعف الكهولة وقوة الشباب الماثلان فى إبراهيم وإسماعيل .

(١٠) زاول الشىء عالجه .

(١١) تدمر قلعة مشهورة وبابل بلد بالعراق ينسب إليه السحر والخمر. والذى أهلك تدمر وأبلى بابل هو الدهر .

(١٢) الصفاح الحجر العريض والآجر ما يبنى به وهو المعروف بالطوب .

النية، وكيف ظفرت لبنة[1] التوحيد بصخرة الوثنية، بنى البيت وإذا الجلال حجبه وأستاره، والحق حائطه وجداره، والتوحيد مظهره ومناره، والمنبيون بناته وعماره[2]، والله عز وجل ربه وجاره. اطلعت به «صلاح»[3]، اطلاع المشكاة[4] بالمصباح، فزهر فأضاء البراح، وانتظم الهضاب والبطاح، أضوأ من الشمس ذبالة، وأبهر من القمر هالة، فى منازل الشرف والجلالة. قد حاز الله له من نباهة الذكر، وفخامة الشأن، مالم يحز لقديم من معالم الحق ولا حديث - بر العبادة، وفضيلة الحج، وشرف البانى، وروعة العتق، وجلالة التاريخ. يقول الغواة: لو كانت الكعبة من ذهب أو فضة ويقولون : لو كانت كبيع النصارى فى عواصم الغرب، رفعة بناء، وديباجة فن، ووشى زخرف !. وأقول للغواة : لو تركت الكعبة على فطرتها الأولى، فلم يطُل بناؤها، ولم تُزيّن بالذهب أجزاؤها، ولم تتعدد فى الزخرف أشياؤها، لكان بعبقريتها أليق، وبروحانيتها أشبه وأخلق، وفى تقدير قدسها[5] غاية ونهاية.

---

(١) اللبنة ما يضرب من الطين للبناء .

(٢) العمار السكان .

(٣) لقب من ألقاب مكه المكرمة .

(٤) المشكلة الطاقة .

(٥) القدس الطهر .

(1) [illegible]

(2) [illegible]

(3) [illegible]

(4) [illegible]

(5) [illegible]

الشهادة

قصيدة علوية الروى، مطلعها الله ومقطعها النبى. كلمة هى الدين، وهى كنه[١] اليقين، وهى الحق المبين. أرسلها الأذان سمحة سهلة، فقرّت فى الأذهان أول وهلة. ولِمَ لا؟ وهى الحقيقة العريانة، والصبح الذى عرض عيانه[٢]، فكفى العيون برهانه وبيانه. كانت شعار[٣] الداخل فى الدين الجديد، وجواز[٤] الخارج إلى أقطار التوحيد، ولم تزل مقدمة الكتاب، وفاتحة الخطاب، ومفتاح الباب، وحافة الغاب[٥]. إذن سهل، وحجاب سمع، وساحة فضل لا تحجب مستأذنا، ولا تتصعب على معالج، ولا تضيق بنزيل، ومن عبقرية الشهادة - أماتنا الله وإياك عليها - أن حسن الظن بالله طالما أوقع فى نفوس الجماعات أنها أفضل عمل العبد عن ربه، وأنها ربما قامت مقام الأداء عن سائر الفرائض، حتى فرط المفرطون، وهم عليها يتكلون، وتكاثر من الخطايا المذنبون، وهم يرجون عندها النجاة ويأملون. إذا حضر الموت هونت لقاءه، وقللت هول ما وراءه، وجعلها الخائف أمنه ورجاءه، والقليل العزاء أسوته[٦] وعزاءه. وقدمها المقل[٧] بين يديه عملا يرجو جزاءه .

---

(١) الكنه الأصل والغاية .

(٢) العيان الشخص .

(٣) الشعار ما يعرف عند المولدين (بسر الليل) .

(٤) الجواز صك المسافر .

(٥) الحافة الجانب والمراد بالغاب هنا مأوى الحق والتوحيد .

(٦) الأسوة ما يتعزى به الحزين .

(٧) المقل قليل الحسنات والصالحات .

(١) [illegible]

(٢) [illegible]

(٣) [illegible]

(٤) [illegible]

(٥) [illegible]

(٦) [illegible]

(٧) [illegible]

الصلاة

(أ) الطهارة :

كمال أدب الصلاة، وتمام الخدمة والتعظيم لله، عند توجه العبد إلى مولاه. شرعت وسيلة، وسنة جميلة، وصالحة وفضيلة. حكم حكمته لا تتم، حتى ينتظم النفس والجسم، فإن جمعت نقاء الباطن والظاهر فأنت الذى صلى له[١] وهو طاهر. ولو قصرت الطهارة على وجوه تغسل، وأرساغ[٢] تبلل، وثياب تنظف وتجمل، لكان الميت أطهر من الحى[٣] فيا أصحاب الوضوء غسلتم الجوارح[٤]، فهل غسلتم الجوانح؟ ورحضتم[٥] الأطراف، فهل رحضتم الأجواف؟ طهرتم الراح من الأنجاس[٦]، فهل طهرتموها من أشياء الناس؟ ونظفتم من الطرق[٧] الأقدام، فهل نظفتموها من سبل الحرام ، ومسالك الإجرام؟ وتلك الوجوه الممسوحة بالماء، هل ترقرق فيها الحياء ؟ وهل نقيت من وضر[٨] الرياء؟

---

(١) الهاء ضمير الشأن .

(٢) جمع رسغ وهو المفصل ما بين الساعد والكف .

(٣) لأن غسل الميت تام وكفنه من ثياب جدد .

(٤) جمع جارحة وهى العضو المكتسب من أعضاء الإنسان .

(٥) غسلتم .

(٦) الراح جمع راحة وهى الكف .

(٧) المراد بالطرق هنا ما يعلق بالقدم من أقذارها .

(٨) الوضر الوسخ .

(ب) الصلاة :

لو لم تكن رأس العبادات، لعدت من صالحة العادات، رياضة أبدان، وطهارة أردان[1]، وتهذيب وجدان، وشتى فضائل يشب عليها الجوارى والولدان .

أصحابها هم الصابرون، والمثابرون، وعلى الواجب هم القادرون، عودتهم البكور، وهو مفتاح باب الرزق، وخير ما يعالج به العبد مناجاة الرازق، وأفضل ما يرود به المخلوق التوجه إلى الخالق. ولهم إليها بعد البكور رواح، فإذا هى تصرفهم عن دواعى الليل ومغرياته، وتعصمهم فيه من عوادى الفراغ ومغوياته، والليل خلوات وشهوات، وبيت الغوايات .

وتجزئة الوقت مع الصلاة ملحوظة، وقيمته عند الذين يقيمونها محفوظة، عودتهم أن يذكروه، ويقدروه، وأن يسوسوه فى أعمالهم ويدبروه، والوقت ميزان المصالح، وملاك الأمور، ودولاب[2] الأعمال .

انظر جلال الجُمَع، وتأمل أثرها فى المجتمع، وكيف ساوت العلية بالزمع[3]، مست الأرض الجباه، فالناس أكفاء وأشباه، الرعية والولاة، شرع[4] فى عتبة الله، خر الجمع للمناخر، فالصف الأول كالآخر، لم يرفع المتصدر تصدره، ولم يضع المتأخر تأخره .

---

(١) الردن الغزل أو الخز والجمع أردان والمراد بها هنا الثياب .

(٢) الدولاب الآلة الدائرة .

(٣) الزمع الرعاع .

(٤) أى سواء .

الصوم

حرمان مشروع، وتأديب بالجوع، وخشوع لله وخضوع. لكل فريضة حكمة، وهذا الحكم ظاهره العذاب وباطنه الرحمة، يستثير الشفقة، ويحض على الصدقة، يكسر الكبر، ويعلم الصبر، ويسن خلال البر، حتى إذا جاع من ألف الشبع، وحرم المترف أسباب المتع، عرف الحرمان كيف يقع، والجوع كيف ألمه إذا لذع .

الزكاة

حزب[١] الاشتراكية، وحزب البلشفية .

أيها الناس :

أمر الله فصليتم، ونَهَى المال فما زكيتم، فرقتم بين الخمس[٢] وكلها حكم الواحد، فلكل ألف مصل مزك واحد ! استسهلتم فأخذتم، واستصعبتم فنبذتم، فلو دخل المال في الصلاة، لأقفرت منكم مساجد الله ! ولو غرم أحدكم على الشهادة، لكان به عن نطقها زهادة[٣] ! أعلمتم أن الزكاة قروض[٤] ؟ وأنها وقاء الأعراض والعروض[٥]؟ وأنها ليست بالعبث المفروض؟ هي مال الفقير خلستموه[٦]، ورزق المحروم حبستموه، وحق العاجز في الحياة بخستموه، وحكم الله الذي أغناكم قد دستموه. تقرضون[٧] الولاة، ولا تقرضون الله، وتنفقون تملقًا لأهل الجاه، ولا تنفقون تعلقًا بالنجاة .

---

(١) الحزب النصير .

(٢) المراد بالخمس أركان الإسلام .

(٣) زهد فيه زهادة رغب عنه .

(٤) القروض جمع قرض وهو ما أسلفت من إساءة أو إحسان .

(٥) الوقاء الدرع والعروض الأمتعة والأغراض مواضع المدح والذم من الإنسان .

(٦) خلس الشيء أخذه مخاتلة .

(٧) أقرضه أعطاه قرضا .

الحج

موكب الإسلام ومظهره، ولباب حسبه وجوهره، وموسمه الحرام أشهره. مهرجانه العظيم، وعرشه الفخيم، وندية[1] الكريم، والنظم الذى قرن فيه الدنيا إلى دينه القويم، فجعله لها صلاحًا وعمارة، وملأها بيمنه نماء ويسارة[2]، وأفاض بركاته على التجارة ؛ وسخرها لخدمته، وإظهار دعوته، وجمع كلمته، وتوثيق عروته. فإذا أظلت أيام الحج المباركات نظرت إلى البلاد فرأيت أسواقًا ماجت، ومتاجر راجت، ومطايا من مرابضها اهتاجت، ورأيت الحجاز مهتز المناكب، يموج بالمواكب، مفتر المباسم، فى وجوه المواسم، أخلفه الغيث[3] فمطر الذهب، ويبس الزرع فطعم الرطب. أزواد[4] تعد، ورحال تشد، وشرع تمد، وحاجات تنشأ وتستجد، وأمم أتوا من نواحى البلاد، يضعون التحف المجلوبة، ويأخذون الأجر والمثوبة .

فيا أيها المعتزم حج البيت، المشمر لأداء الفريضة : لقد أطعت، فهل استطعت؟ وأجبت فهل تأهبت ؟ وهل علمت أن الإسلام شرعة السماحة، وأن رب البيت واسع الساحة ؟ يعفى المريض حتى يعافى، ويقيل المعدم حتى يجد، ولا يؤاخذ أخا الدين حتى يقضى دينه، ولا ينكر على الخائف القرار[5] حتى تأمن السبيل، من وباء مهتاج، أو لصوص قد أخذوا الفجاج[6]، أو حكومة جائرة تبتز الحجاج ؟ .

---

(١) الندى المجلس .

(٢) اليسارة الغنى .

(٣) الغيث المطر وأخلفه لم ينزل به .

(٤) جمع زاد وهو طعام السفر .

(٥) المكث فى داره .

(٦) الفجاج الطرق الواسعة بين الجبال .

كبرى الكبائر أن تلقى الله فى بيته وبين وفده بمال خلسته من أحد اثنين يحبهم الله حبا جما، اليتيم، وأنت تعلم أن ماله نار، وأنه نحس الدرهم نحاسى الدينار[1] والفقير، وقد فرض الله له فى مالك حصة سماها الزكاة، فتغايبت يا مخادع الله وخرجت بها تحج للتظاهر والمباهاة، وهل علمت أن الله لا يقبل منك مالا ونفقة المطلقة من مطل معلقة، وذو القربى وراءك جائع، والولد طريد المدارس ضائع، وتجارتك مختلة، وأمانتك معتلة، وجارك الضعيف يضج من حيفك، وخصيمك الأعزل يشكو سطوة سيفك. فإن لم يكن شيء من ذلك أو مما إليه فسر على اسم الله ، وحج بيت الله، وارجع برضوان من الله .

(١) المراد بالدرهم النحس أنه شؤم على كل من اغتصبه، والدينار النحاس الذى لا قيمة له لأنه حرام والحرام لا يدوم .

خطيب المساجد

يا مرشد العابد، وراد الهوى الشارد: أعلمت أى مقام أقمت، ولأى بلاء قدمت ؟ نما ندب للوعظ والإرشاد، وتعليم العلية والسواد، أدب المعاش والمعاد[1]، وخلفت لخلفاء على تلك الأعواد[2]. الآذان لك مرهفة، والأذهان إليك متشوفة، فماذا عندك للأتقياء، من الأغنياء، ولكل ممول، فى الصف الأول، من إشارة إلى الذهب المدخر، والقريب الضجر، والوارث المنتظر، وإلى الخير وجمعياته، والبر وقضياته؟ وماذا أعددت للتاجر، من الوعظ الزاجر، تحضه فيه على الأمانة، وتحذره عواقب الخيانة، وتوصيه بسمعته ضنا وصيانة ؟ أو ما الذى بذلت للعامل والصانع، من لفظ رائع ووعظ جامع، فى السلوك الحسن والدعوة إليه، وإتقان العمل والحض عليه؟ وهل ذكرت للعامة أن ضرب النسوة، ضرب من القسوة ؟ وأن البغى بالطلاق، يمقته الدين والأخلاق؟ وأن للطفل من حقه أن يهذب، لا أن يضرب ويعذب ، وأن يكسب عليه، لا أن يكسب هو على أبويه[3]؟ وأن التيس لو عقل ما اتخذ نعجتين، فكيف يتزوج الفقير العاقل اثنين ؟؟ أم أنت كما زعموا ببغاء لم تحفظ غير صوت، تردده إلى الموت، كلمات محفوظة، فى كل مكتوبة ملفوظة، سيف من خشب، وخطوب فى صورة خطب؟!

---

(١) المعاد الآخرة .

(٢) الأعواد الأخشاب والمراد بها هنا المنار .

(٣) المراد بهذه الجملة أن الآباء عليهم أن يعملوا حتى يمهدوا لأبنائهم سبيل العيش والحياة، لا أن ينتظروا السعى من أبنائهم وهم أطفال .

الطلاق

أزمة تمنع أزمات، وملمة تدفع ملمات. دواء ساء استعماله فصار هو الداء. ودرع للتوقى عادت آلة اعتداء. نظم على غير أصوله متبع، عبث به الجهل حتى انقطع، وضاعت على الشارع حكمة ما شرع. حلال عليه بشاعة الحرم، وحق يشره[١] إليه اللئام، ويكره عليه الكرام، منع الله به الظلم، رأفة بكم ورحمة ؛ فما بالكم قلبتم الحكم، وعكستم الحكمة ، تختلقون الريب، وتطلقون على غضب، وتسرحون بلا سبب ؟

أيها الناس : إن كان الكتاب تسمح[٢]، فإن الحديث قد لمح[٣]، هبوا أن الشارع أطلق الطلاق، اتكالاً على الدين والأخلاق، أليس الموقف موقف حذر، والمسألة فيها نظر ؟ أمر تبعاته على ضمائركم، وسوء استعماله على سرائركم، وفضيحة بعضكم به واقعة على سائركم[٤] أولئك أمم النصرانية أصحاب الحضارة الحاضرة، حرم الطلاق دينهم، ثم حللته قوانينهم، ولكن فى دائرة الحق ووجوه الرفق وبإشراف قضاة يحمون نظم الزواج من عبث الخاصة وجهالة العامة .

---

(١) شره إلى الطعام وعليه اشتد حرصه عليه .

(٢) تساهل .

(٣) يشير إلى الحديث الشريف « إن أبغض الحلال عند الله الطلاق» .

(٤) إذا انتشرت عادة الطلاق فى أمة فليست الفضيحة واقعة على رءوس المطلقين وحدهم، ولكن الأمة مأخوذة بها جميعًا، والسمعة السيئة لا تعرف مذنبًا من برىء .

البحر الأبيض المتوسط

سيد الماء، وملك الدأماء[١]، مهد العلية القدماء، درجت الحكمة من لججه[٢]، وخرجت العبقرية من ثبجه[٣]، ونشأت بنات الشعر فى جزره وخلجه. بدت الحقيقة للوجود من يبسه ومائه، وجرب ناهض الخيال[٤] جناحيه بين أرضه وسمائه، العلوم نزلت مهودها من ثراه، والفنون ربيت فى حجال رباه[٥]، والفلسفة ترعرعت فى ظله وذراه[٦]. (بنتاءور) ولد على عبره[٧]، و(هومير) مهد بين سحره ونحره[٨]، ونحت الإلياذة[٩] من صخره، و(هيرودوت)[١٠] دون متونه على ظهره، و(الإسكندر) انتهى إليه بفتحه ونصره .

الموسيقى دبت فى أحناء[١١] هياكله، وشبت فى أفياء خمائله[١٢]، ثم لم يزل بها ترسل[١٣] الرهبان، وترتل الأحبار والكهان، حتى جاوزت الحناجر إلى المعازف، فنزلت

---

(١) الدأماء البحر والمراد به هنا المياه .

(٢) اللجج جمع لجة وهى معظم الماء .

(٣) الثبج من كل شىء وسطه ومعظمه .

(٤) الناهض فرخ الطائر إذا نشر جناحيه وتهيأ للطيران .

(٥) ربيت الفنون أى نشأت ونمت، والحجال الخدور، والربى جمع ربوة هى ما ارتفع من الأرض .

(٦) الذرا الملجأ .

(٧) بنتاءور شاعر مصر القديم وعبر البحر شاطئه .

(٨) هومير أقدم شعراء اليونان والسحر والنحر هما الرئة وموضع القلادة على الصدر .

(٩) الإلياذة ديوان من شعر هومير جمع فيه مفاخر الأبطال القدماء .

(١٠) هيرودوت هو المؤرخ المصرى المشهور .

(١١) الأحناء الجوانب .

(١٢) الأفياء الظلال والخمائل جمع خميلة وهى مكان يلتف فيه النبات .

(١٣) الترسل الترفق .

اليراع المطرب[١] والنحاس الهاتف[٢] ؛ لم تخل ثكنة[٣] من بوق، أو طبل مدقوق ؛ ولم يخل كوخ من يراع مثقوب، ولا قصر من وتر مضروب .

وعلى أديم الأبيض المتوسط مشى المثّال الأول[٤]، وبحجارته وقف فتخيل، فلان لبنانه الحجر، ودان لمنحاته[٥] الصخر، حتى زين الزون[٦] بالبديع والغريب، ونثر الدمى على المحاريب[٧]، وجاء فى الفن بالأعاجيب. صنع أبا الهول، فجاء بالهول والزول[٨] ؛ كان ذلك حين سائر المعمور مجاهل، والناس جهال ؛ عالم غافل، يهيم فى أغفال[٩] .

فيا ناشئ الكنانة :

إذا وقفت على لجة (الرمل)، أو نقلت القدم على رملة (المكس)، فى أصيل لذت حواشيه، وحلى جلبابه بالذهب واشيه، وفضاء اصفر من نعى الشمس ضاحيه[١٠]،

---

(١) اليراع القصب الذى يزمر به الراعى والمطرب الذى يرجع الصوت ويحسنه .

(٢) هتاف النحاس ترجيع الصوت فى أبواقه .

(٣) الثكنة معسكر الجند .

(٤) أديم البحر صفحته، والمثال (بالتشديد) صانع التماثيل، ولعل المؤلف أول من نبه إلى استعمال هذا اللفظ الدفين .

(٥) المنحات آلة النحت .

(٦) الزون مجمع الأصنام .

(٧) الدمى جمع دمية وهى الصورة المزينة أو الضم المنقوض. والمحراب صدر البيت وأكرم مواضعه والجمع محاريب .

(٨) الزول العجب .

(٩) الأغفال جمع غفل، والأرض التى لم ينصب عليها علم ولم تقم عليها عمارة .

(١٠) ضاحيه ظاهره وباديه، ونعى الشمس مجاز يراد به غروبها، واصفرار الفضاء لنعى الشمس استعارة شبهت فيها الشمس بميت وشبه الفضاء بمن أصيب فيه، فانتابه من صفرة الروع ما ينتاب الثاكل المرزوء .

وقربت لها الأكفان من زعفران نواحيه[١]، فتبصر ! هل ترى غير ساحل طيب البقعة، وأديم جيد الرقعة ؟ وهل تحس غير بحر ضاحك الماء، متهلل السماء ، حلو بشاشة الفضاء، يصحب الصحو، ويسحب الزهور[٢]، ويلهو وما عرف اللهو[٣]، وخريره تسبيح وما هو بلغو[٤]؟

لآبائك عنده – منذ ماجت أمواجه، ولجت لجاجه[٥]، وهدر عجاجه[٦] وأنشى للرياح شراعه وساجه[٧] – جواره الأكرمين، وصحبة المحسنين، وكنف السماح الخيرين. شمس متوقدة، وطبيعة متوددة، ولجة غير متمردة، وغيره من البحار ذميم الجوار، لئيم النجار[٨]، ضباب مخيم، وسحاب مديم[٩]، أعاصير مرسلة، وصواعق منزلة، زمن مضطرب الفصول، وطبيعة تختلف وتحول، كما تلون فى أثوابها الغول[١٠] .

تلك اللجة – أيها الناشئ – هى من أوطانك عنوان الكتاب، ومصراع الباب، ووجه الخميلة، وظاهر المدينة، وعورة الحصن، وإن قومًا لهم على البحر ، وليس لهم فيه فك، لقوم دولتهم واهية السلك، وسلطانهم وإن طال المدى إلى هلك !

---

(١) الأكفان من زعفران كناية عن صفرتها، ولا يزال المؤلف مستمرًا فى مجازه الذى ابتدأه فى الجملة السابقة .

(٢) الزهو العجب والتخايل .

(٣) لهو البحر تلاعبه بما على صفحته من السفن .

(٤) اللغو من الحديث الباطل، والمراد بتسبيح الخرير ما يلقى فى النفس من أثر اليقين فى صوته العجيب .

(٥) اللجاج جمع لجة وهى معظم الماء .

(٦) العجاج من الماء ما سمع له عجيج .

(٧) الساج شجر عظيم ينبت فى الهند وخشبه رزين أسود لا تكاد الأرض تبليه . والمراد به هنا ما يصنع منه من سفين .

(٨) الأصل .

(٩) أى ممطر .

(١٠) تلون أصلها تتلون ثم حذفت التاء للتخفيف والغول من يتلون ألوانًا مختلفة من الجن والسحرة .

ويأيها الأبيض الأغر سلام، وإن أنزلتنا عن صهوتك الأيام، وأبدلتنا من سلطانك الخافق الأعلام، وبممالك من كلام، ودول من أمانى وأحلام! ويا عرش الأبوة ثناء، وإن ثلك الأبناء، ثم لم يحسنوا البناء، أين دول كانت مطالع أنوارك ومعاصم سوارك، وما الذى نأى بجواريها[١] عن جوارك، وهوى بسواريها[٢] فى أغوارك؟ أين الفراعنة وما جدفوا من بروج مشيدة[٣]، والبطالسة وما مدوا من شرع كالصروح الممردة[٤]؟ وأين الشونات الأيوبية[٥]، والبوارج العلوية[٦] ؟ هيهات ! أزرى الدهر بالإسكندرية، فحجب ذلك المنار[٧]، ونصب هذا الفنار. وأين الليل والنهار، وأين الظلمات من الأنوار ؟ ذلك كان أضوأ هالة[٨]، وأسطع على التمكن فى الأرض دلالة، وأضفى على مناكب البر والبحر جلالة، يهتدى به الداخل والخارج، ويستأمن الداب فى حماه والدارج، وتنيف[٩] عليه البروج وتطيف به البوارج ؛ وهذا[١٠] سراج بيت، وذبالة زيت، وشعاع كنفس المحتضر حى ميت !

ملكنا الواسع من ورائه باب ولا بواب، وسدة ولا حجاب ؛ غاب ولا ناب[١١] ، ووكر ولا عقاب ! تعاقبت عليه حكومات ألقت السلاح، وألغت الإصلاح، تقوم فتجد وتعمل فتهزل، ولا تحسن من سياسة الملك غير أن تولى وتعزل، وتجب القطن ولا تفكر فى المغزل ! تخايل بالبحرية والوزير ؛ وتأتى قبل الماء بالزير !!

---

(١) الجوارى السفن .

(٢) السوارى عمد ينصب عليها الشراع .

(٣) البروج المشيدة هنا يراد بها السفن الضخمة والتجديف تسيير السفن بالمجداف .

(٤) الشرع القلوع وتمريد البناء تمليسه وتسويته .

(٥) الشونات هى سفن الحرب وقد كان لبنى أيوب منها أسطول عظيم .

(٦) التى أنشأها محمد على باشا جد الأسرة المالكة .

(٧) المنار الذى أقامه البطالسة فى الإسكندرية فكان سراجها الوهاج .

(٨) هالة القمر دارته والإشارة هنا للمنارة .

(٩) تشرف .

(١٠) الإشارة للفنار الموجود الآن .

(١١) الناب يطلق على الأسد من تسمية الكل باسم جزئه .

صفة الظبى

عروس البيد، الفاتن كالغيد، بالمقلة والجيد، الفروقة الرعديد[1] وصفته فقلت : عينان سوادهما داج، وبياضهما عاج، وإنسانهما حائر ساج، فى رأس كأنه قدم الكعاب، أو كأنه خزفى من الأكواب، ركب فى عنق كإبريق الشراب، وله روقان، كأنهما نصلان صدئان، وكأن إبرتيهما مرود[2] انتشر عليه الأثمد[3] وكأن قوائمه السمر الخفاف وكأن زجاج أرماحها الأظلاف. كل ذلك فى إهاب أغبر اللون كدر، كأنه الثوب السوى المنقدر، ليس بفضفاض ولا بالمنحسر، وإذا عدا فسهم، وإذا أخذه المدى فوهم، وثبات تنظيم الربوة والحفرة، وتثبت وجود الطفرة، وإذا قام على ظلفيه، وأرهف للرياح[4] حريته، وشرع فى السماء روقيه خلته دمية محراب ، أو شجيرة عليها تراب .

---

(١) الفروقة الرعديد : الشديد الفزع الجبان .

(٢) المرود الميل : الذى يكتحل به .

(٣) مسحوق الكحل .

(٤) أى أذنيه .

صفة الأسد

طاغية الصحراء، وجبار العراء، وأجرأ من وطئ الغبراء، عرشه غابته، وحجابه مهابته، والوحدة مجلسه وصحابته ؛ ابن الصحراء البكر نحتت أجلاده من صخرها، واستوقدت بأسه من حرها، وطبعته على انقباضها وكبرها، وكأن[١] الصور حنجرته، وكأن نفخة الصور زمجرته، إذا سمعت خفتت[٢] العقائر[٣] ولاذت الهوام بالحفائر، وطار الواقع ووقع الطائر. وصفته فقلت : هامة من أضخم القمم[٤] جلست على المنكب العمم[٥] ولبست تاج الشهرة فى الأمم. وراء الهامة غفرة[٦] كأنها اللامة[٧] هى اللبدة وهى عمامة أسامة[٨] دارت على وجه كوجه الموت بادى الشرة، منقبض الأسرة ؛ ذى جبهة مغبرة ؛ كجبهة القتال مكفهرة ؛ وكأنها صفحة السيف ؛ تلقى الحتف دون الحيف. فى الجبهة عينان كاللهب، فى حجاجين[٩] كالحطب ؛ بينهما أنف غليظ القصبة

---

(١) الصور : القرن الذى ينفخ فيه يوم البعث .

(٢) خفتت : سكنت .

(٣) العقائر : الأصوات .

(٤) القمم : واحدها قمة وهى أعلى الرأس .

(٥) العمم : التام الهيئة .

(٦) غفرة : اللبدة .

(٧) اللامة : الدرع .

(٨) أسامة : علم جنس على الأسد .

(٩) الحجاجين : عظما الحاجبين .

منتشر الأرنبة ؛ كأنه الأفعوان افترش الحجر ؛ أو اضطجع فى هشيم الشجر. حول الأنف كلحة[1] كأنها خزانة أسلحة، إذا انطبقت فعلى كوامن الغيوب، وإذا انفتحت فعن القضاء بارز النيوب. ومن عجب الخلق رأس كأنه صخرة، أو كأنه أرومة يابسه نخرة، ينهض به ساعد جدل[2] لا هزيل ولا عبل، كما تنهض أسطوانة الحديد على قلتها بالكثير الضخم من البناء. وللأسد كف كأنها المدجج[3] أو كأنها الحجر المدمج «إذا مست قفار الفرس قطعت نظمه ونثرت لحمه وعظمه»[4] كل ذلك فى إهاب أغبر، وجلباب أكدر، كأنما صنعا من القفر أو قطعا من الصخر، أو كأنما كسى الون الصحراء كما تكسى البوارج لون البحر، وإذا قام على برثنه[5] فتمثال، وإذا انقض فهضب منهال. وإذا تراءى بالسهل فدعامة، وإذا طلع من الخزن فغمامة .

---

(١) الكلحة : الفم وما حواليه .

(٢) الجدل : الحسن النفل :

(٣) المدجج : القنفذ .

(٤) هذه الجملة عن (لاروس ليكبير) .

(٥) البرثن : المخلب .

الأسد فى حديقة الحيوانات

يا جار الجيزة وأسير الحديقة. سرت الهموم فلم ننم. أرقتنى شئون وشجون، وذكريات مما تركت السنون، وأرقك حزّ القيد، وضغط الحديد. وأثارك ذكرى الصيد والحنين للبيد، سبحان المعز بالحرية المذل بالرق، ما أرّقك بالأسحار، وكان غطيطك أرّق الصحار[١] وفرق[٢] السمار[٣] فى الأكوار، وما بال زئيرك ينام عليه الطير ملء جفونه، ولا يتحرك له ليل الجيزة من سكونه، أصبح أقل من النباح وأذل من النياح، وكان بالأمس يرعد البطاح. ويسقط من يد البطل السلاح. وأين أبا لِبْدَة طلعة كانت تعقل الفرس والفارس، فأصبحت يدعو العيون إليها الحارس. يطيف بها النشء[٤] ولا تخيف الرشأ. عزاء ملك البيد، ابن الفاتك الصنديد. وأبا الخالة[٥] الصّيد. وإن لم تزدنى علمًا بالدولة كيف تزول. ولا بما عند الناس للنعمة المنكوبة، والبطولة المقهورة، والأخلاق المخذولة، والعروش المثلولة. فقبلك ضاقت (أغمات) على سجينها. وأخنت (أميرجون)[٦] على قطينها[٧] وأضرت (القديسة هيلانة) برهينها[٨] أجوَاد نزل بهم

---

(١) الصحار : واحدها صحراء .

(٢) الفرق : الخوف .

(٣) السمار : أى المتسامرين فى الرحال .

(٤) النشء : الأحداث .

(٥) الخالة المتخايلون من الخيلاء .

(٦) أمير جون : قصر الخديو إسماعيل فى منفاه بالاستانة .

(٧) القطين : القاطن .

(٨) رهينها : يعنى به نابليون .

الدهر، وأحرار أناخ عليهم الأسد، وأملاك[1] جرى عليهم النهى والأمر. وأنت فى صحارك أطول فى الملك بنيانًا، وأعرض فى الأرض سلطانًا، وأوسع شهرة وأنبه مكانًا. عرشك أبا الأشبال، على السهل والجبال، وكل داب[2] على الرمال، رعية لك أو مال. تمثال القوة، ومثال المروة. نفس بهيمة، وأخلاق عظيمة. ألست أبا لبدة تحمى العرينة، وتحسن عشرة القرينة، وتبنى الذرية المتينة، وتعف عند الشبع، وتفضل على التبع، وتذهب مذهب الأقمار، فتطلع بالليل وتستسر بالنهار، ولك قبل البطش جلجلة[3] منذرة، وبهنسة[4] محذرة، وغيرك فى السبع ختل[5] وختر، وجاء القرن[6] على خمر[7] من أجل هذا ومثله فى الأخلاق ضربت الأمم بك الأمثال، ونحتوا على صورتك التمثال، واستعاروا أسماءك للأبطال وأشباه الأبطال. حتى قيل للإخشيدى[8] أسد القلب، وقيل للصليبى[9] قلب الأسد، شبه بك كل شجاع ولم تشبه من الشجعان بأحد، عطف بقلبى على صغارك أبا الأشبال، أنهم كصغارى ولدوا فى الرق وشبوا على مس هوانه، كلا النشأين مغلوب على دياره، مرزوء بالشريك فى وجاره[10]. مغامر فى صحراء الحياة بغيره أظفاره. وألان لك فؤادى أبا لبدة هذا الذل بعد العز. وهذا الرسف[11] فى الضيق

---

(١) الأملاك : جمع ملك .

(٢) داب : ساع .

(٣) الجلجلة : الزئير .

(٤) البهنسة : التبختر .

(٥) ختل وختر : أى غدر .

(٦) القرن : الخصم .

(٧) على خمر : على غفلة .

(٨) الإخشيدى : هو كافور وقوله أسد الملقب هو من قول المتنبى : أسد القلب آدمى الرواء .

(٩) الصليبى : هو ريتشارد ملك إنكلترا الملقب بقلب الأسد .

(١٠) الوجار : جحر السبع والمراد به هنا الوطن .

(١١) الرسف : مشى المقيد .

بعد المرح فى السعة. واستأوانى قيد الحديد، بعد تاج البيد. وما أسفى والله على ظفرك المقلوم، ولا على نابك المحطوم، فإنى وجدت البغى ليس يدوم. ولست أنكر عليك شدة لم ينكرها الناس على الحضارة وهم يرون ظفرها يقطر من دم الجبل[١] ويرون نابها يقطر من دم[٢] الريف. وإنما أسفى أبا الأشبال على تلك الشخصية المتظاهرة، وتلك الروحية القاهرة وعلى حضرة كأنها مجلس الحكم، ونظرة كأنها الأمر النافذ، وعلى صيحة تأتيك بالصيد مشكولاً، متهيئًا من نفسه مأكولاً. أدوات زعامة، وآلات سيادة، مما يهب الله لأفراد البشر أحيانًا، ويلقى على آحاد الرجال آنا فآنا، فإذا هم القامة والسادة، وإذا الأمم تأتيهم منقادة. وقد زادك الله عليهم رعية سلبت منها العقول، فاسترحت من الرأى وصراحته، والفكر وشجاعته، والمبدأ وصلابته. وكفيت سيوفًا بينا هى لك، إذا هى عليك، وأقلامًا مأجورها أسيرك، وطليقها أنت أسيره. أعلمت أبا الأشبال إلى أى الآجام نقلت، وفى أى الآطام اعتقلت، أسمعت عن أسد نجم[٣] فى هذا الأجم، وضرغامة غاب ، عن هذا الغاب، أذلت الحوادث بالأمس عرنينه، واحتلت الخطوب عرينه. وعطلت نكبته الدنيا من زينة، وغادرتها بعد فرح حزينة. وكان أكثر من آبائك أسماء وأطول من عشيرتك فى العز سماء، وأمنع واديًا وأعز ماء، منعكم القرار بالصحراء صهيله[٤] وخلف زئيركم عليه صليله[٥] وغلبكم على أطرافها فكل ماء بها ماؤه، وكل يبس غيله. وكانت هذه الحرجات[٦] تحته أجمة الأغلب الهصور، وكانت

---

(١) الجبل : هو جبل الدروز .

(٢) الريف : هو وطن عبد الكريم وقومه .

(٣) نجم : ظهر والمراد بالأسد هنا الخديوى إسماعيل .

(٤) صهيله : أى صهيل خيله .

(٥) صليله : أى صليل سيوفه .

(٦) الحرجات : الخمائل .

نظماً من قصور، لم تر أمثاله العصور. فلا (الجعفرى)[1] حكاه ولا (الزهراء)[2] أعطيت حلاه، ولا الإيوان سواه، فى شرفه وعلاه وكانت هذه الجنات وشى دوره، وحلى قصوره، وكانت هذه العيون محاجر العين من حوره، ومعاصم ريمه ويعفوره[3] وكانت هذه الساحة سماء الندى وأرض السماحة جنات وقصور، ونعيم وحبور، وعين حور يطأن المسك والكافور، مرمر راع مسنونه بلقيس[4] الزمان. فكشفت عن ساقيها بين يدى سليمان .

(١) الجعفرى : قصر المتوكل .

(٢) الزهراء : قصر الخليفة الاموى بالأندلس .

(٣) اليعفور : الظبى .

(٤) يشير ببلقيس : إلى الأمبراطورة أو جينى نزيلة هذه القصور بالأمس .

الجمال

جمعت الطبيعة عبقريتها فكانت الجمال، وكان أحسنه وأشرفه ما حل فى الهيكل الآدمى، وجاور العقل الشريف والنفس اللطيفة والحياة الشاعرة. فالجمال البشرى سيد الجمال كله... لا المثال البارع. استطاع أن يخلعه على الدمى الحسان، ولا للنيرات الزهر فى ليالى الصحراء ما له من لمحة وبهاء، ولا لبديع الزهر وغريبه فى شباب الربيع ما له من بشاشة وطيبة. وليس الجمال بلمحة العيون، ولا ببريق الثغور، ولا هيف القدود، ولا أسالة الخدود، ولا لؤلؤ الثنايا وراء عقيق الشفاه، ولكن شعاع علوى يبسطه الجميل البديع على بعض الهياكل البشرية يكسوها روعة ويجعلها سحراً وفتنة للناس .

الأمومة

الأمومة هى رسالة المرأة على هذه الأرض وشأنها الأول فى الحياة، وهى حجر الأساس فى الأسرة، وقواعد المجتمع وأركانه منذ قام إلى يوم ينفض. وفى الأمومة اجتمعت خلال البر ونوائب الحق وتبعات الواجب، وصور البطولة وفضائل الإيثار، ومواطن الصبر الجميل. وكأن الأمومة فى البيت الملكة فى الخلية أو العذراء فى البيعة فيا أيتها الفتاة المدلة بصباها المزهوة بحسنها المترقبة من ورائهما لذة الحب وفيض السعادة اذكرى أن الجمال حر طليق إلا من قيدين كلاهما أجمل منه : الشرف والعفاف، إذا انسل منهما عثر فى خطاه الأول وذوى فى إبان النضرة، وسلى ذوات الشعر الأبيض ممن حولك من غوانى أمس : هل دولة الحسن إلا كدولة الزهر، وهل عمر الصبا إلا أصيل أو سحر، وهل غير الأمومة تاج للمرأة تلبسه من مختلف الشعر ألوانًا .

جمال الأمومة لمحة من جمال الحياة، وشعاع من عبقريتها وهو أحفل أيامًا وأطول مقامًا وأصدق أحلامًا .

حب الأمومة أشهر وسنون، وبنات وبنون، وأشغال وشئون ويبقى مع الثكل، ويتقدم عند حشرجة الصدر ولا ينطفئ إلا بانطفاء القلب .

لذة الأمومة معنى قدسى وسرٌّ خفىٌّ وحالٌ كمناعم الخلد ولذاته ليس منا إلا من قرأه فى تلك العيون التى رعتنا فى المهود صغارًا، وسهرت علينا فى فراش المرض كبارًا .

الكاتب العمومى

تمثالٌ من الجهل العام صنعته القرون والأجيال، حفّاره عبث الحاكم وطينته غفلة المحكوم، وهو الأمية على قارعة الطريق لا يجمعه والحضارة مكان .

الحياة وهم ولعب

الحياة توهّم، عشنا بالوهم الزمن الرغد، وعشنا بالوهم الزمن النكد، طاف بنا الوهم على السعادة أحياناً، ومر بنا على الشقاء آنا فآنا، وبالوهم عادينا وبالوهم والينا، وبالوهم مرضنا وبالوهم تداوينا، حتى إذا جاءت سكرة الموت كان ذلك أول العهد بالحقيقة. والحياة لعب، قضينا الطفولة باللعب، وقطعنا الشباب ملاهى وملاعب، ولعبنا فى ظل المشيب، حتى إذا جاءت سكرة الموت كان ذلك أول العهد بالجد .

ببعاع جمع قليظ!

العلَم

شعار الأمم وفخارهم، اتخذ الناس فى شباب الدول الأعلام ولا يزالون فى ظل هذه الحضارة الكبرى يبلغون فى محبة العلم وإجلاله إلى التقديس، فهو حيث يخطر وحيث يخفق شبح الوطن المنظور، وماضيه المنشور، وتاج الرءوس كلها، وقبلة الوجوه جميعًا ؛ إذا نشر فى السلم خلع على أيامها الجمال، وكسا مواكبها المهابة والجلال، وإذا رفع فى الحرب كان نظم الصفوف وألفة القلوب ومثار الحماس وداعى التضحية، وسحب النسيان على الأحقاد وحسم ما اشتهته الأعاد. منديل طالما رفع على أيدى الآباء فكفكفوا به دمع الحزن، وتلقوا فيه دمع الفرح، ضحكوا وراءه كثيرًا فى نصيبين وقعدوا حوله فى عرس، وبكوا حوله كثيرًا فى التل الكبير وقاموا وراءه فى مأتم .

فيا أيها العلم الأخضر كديباجة السلم، أو كظلال الخصب، المستعير الهلال غرة، المفصل بنجوم السعد، الموسوم بالحضارة من عهد خوفو ومنا، المحلى بالفتح من زمن ابن العاص ، النابه الأيام . والوقائع بين يدى إبراهيم، لا زلت ترفع لمجد، ولا زالت الأجيال تتلقاك يمينًا، ولا نشرت إلا فى حق، ولا طويت إلا على حق ويا ابن مصر على قدم حى العلم !

السجع

السجع شعر العربية الثانى، وقواف مرنة ريّضة خصت بها الفصحى، يستريح إليها الشاعر المطبوع، ويرسل فيها الكاتب المتفنن خياله ويسلو بها أحيانًا عما فاته من القدرة على صياغة الشعر، وكل موضوع للشعر الرصين محل للسجع، وكل قرار لموسيقاه قرار كذلك للسجع، فإنما يوضع السجع النابغ فيما يصلح مواضع للشعر الرصين، من حكمة تخترع أو مثل يضرب أو وصف يساق، وربما وشيت به الطوال من رسائل الأدب الخالص ورصعت به القصار من فقر البيان المحض، وقد ظلم العربية رجال قبّحوا السجع وعدوا عيبًا فيها، وخلطوا الجميل المتفرد بالقبيح المرذول منه يوضع عنونًا لكتاب أو دلالة على باب أو حشوًا فى رسائل السياسة أو ثرثرة فى المقالات العلمية، فيا نشء العربية إن لغتكم لسريّة مُثرية ولن يضيرها عائب ينكر حلاوة الفواصل فى الكتاب الكريم، ولا سجع الحمام فى الحديث الشريف، ولا كل مأثور خالد من كلام السلف الصالح .

النقد

فن قديم كريم وتالد من رأس مال الحضارة فى علوم الأدب وفنونه توارثه الأواخر عن الأوائل فأخذته حضارتهم فحسنته على عادتها وضخمت كتابه ووسعت أبوابه وهذبت أصوله ووضعت قيوده، حتى صار من دعائم الصحافة وأضحى ظل التأليف ومعرض العبقريات ومرآة آثارها فى مسائل الأدب وشتى مطالبه، والنقد حارس الأدب ومكمل الكتاب والكتب، وهو آلة إنشاء وعدة بناء، وليس كما يزعمه الزاعمون معول هدم ولا أداة تحطيم .

والناقد مستهدف يعرض عقله وبضاعته وخلقه وحكمه على الناس وربما ارتد معوله إليه كما يرتد سلاح البغى إلى صاحبه فهدمه على المكان والناس يرون وهو لا يرى من سكرة الغرور، ومن نقد على غضب أسخط الحق، ومن نقد على حقد احترق وإن ظن أنه حرق، ومن نقد على حسد لم يخف بغيه على أحد، ومن نقد على حب حابى وجمح به التشيع .

الزهرة

صورة الرقة ورمز العاطفة وهيكل الخير والحب والجمال. قديمًا أولع بها الناس وقديمًا ظلموها. أما هى فطالما ملأت حدائقهم بهاء وحسنًا، وحجراتهم زينة وطيبًا. وجمّلت عرى ثيابهم، وحسنت أعراسهم وولائمهم. فكانت منصة للعروس وإكليلاً، وشارة للمائدة ومنديلاً، وسفرت بين العشاق فحسنت رسالة ورسولاً.. وأما هم فما أشد ما جنوا عليها ! فطموها عن عصارة العود، وفجعوها فى وثير المهود، وأبدلوها من طول الفضاء وعرضه بالبواطى الضيقة، ومن سماء الروض وأرضه بالجدران المزهقة، ومن ماء العيون بماء الجرار، ومن شعاع الفضاء الطلق بشعاع النافذة والكوة .. ظلم عبقرى، وإحسان جزى بغير إحسان .

الساقية

أصوات السواقى فى سماء الليل وعلى فضاء الريف أم تنغيم الملائكة فى الأراغيل؟ أم خوار الثور خرج من الأرض وقد أخذه الضجر وناء قرناه بذنوب البشر ؟

نغم كالنفخ فى الغاب، طبيعة قادرة ساحرة لها فى كل شىء موسيقى حتى فى الليف والخشب، فيا قينة الأجيال ما هذه الدموع الفواجر التى لم تغرف من شئون ولم ترسلها محاجر؟ وما هذه الضلوع الهاتفة بالشكوى، الصارخة من البلوى، وما عرفت الهوى، ولا باتت ليلة على الجوى؟ حدثينا عن القرون الأولى، قرون خوفو ومينا ..

الشيخ المهندم

أيها الشيخ المهندم المقذّذ: ما غرك بالسن حتى لبست للصبا ثيابه، ونازعت حفيدك شبابه. إنما مثلك فى هذا البريق المزور، وهذه النضارة المصطنعة، كمثل الضرس المحشو المكسو، نزع منه العصب، وخلع عليه الذهب .

ومنها الحبشة

خواطر

من بَغَى بسلاح الحق بُغِى عليه بسلاح الباطل .

*

قبح الدين نطق ففضح وسكت ففدح .

*

يستريح النائم من قيود الحياة كما يتروح السجين ساعة فى فناء السجن .

*

ما نبّه على الفضل الكاذب مثل الثناء الكاذب .

*

نخوة الكلب من الراعى ومنعة الديك من السطح .

*

إذا بالغ الناس استعاروا للهرب شوارب النمر .

*

قضاء السماء بقضاء الأرض اختلط، وهذا معصوم وهذا عرضة للغلط .

*

الفضائل حلائل والرذائل خلائل .

هلكت أمة تحيا بفرد وتموت بفرد .

*

فى الغمر تستوى الأعماق .

*

فراش المتعب وطىء، وطعام الجائع هنىء .

*

تغطى الشهرة على العيوب كالشمس غطى نورها على نارها .

*

للرياسات أذناب فلا يكن ذنبك كذنب الطاووس فيذهب ببهائك كله لنفسه، ولا كذنب الفأر فينقطع عنك عند العسل، ولا كذنب النجم فيصبغك بنحسه .

*

من عجز عف، ومن يئس كف، ومن جاع أسف .

*

الأمم بنيان الهمم .

*

الصالحون يبنون أنفسهم، والمصلحون يبنون الجماعات .

*

المدرسة تعلّم ولا تحلّم، والحياة تحلّم وتعلّم .

المتحيّز لا يميّز .

*

عاش العالم فمات، ونفق الجاهل كالسائمات .

*

الخاصة أذوق لحكمة البيان، والعامة أذوق لحكمة الألحان .

*

المال عرضة للآفات فلا تتعجلوها بالسرف .

*

ولد البخيل مرحوم، وولد المبذر محروم .

*

الثقيل جبل إذا تلطف سقط .

*

يد القاتل حمراء تنم عليه فى الدنيا وتشهد عليه فى الآخرة .

*

آس ثم انصح .

*

ربما تقتضيك الشجاعة أن تجبن ساعة .

*

الخير فيه ثوابه وإن أبطأ ، والشر فيه عقابه وقلما أخطأ .

الخير تنفحك جوازيه، والشر تلفحك نوازيه .

*

عليك أن تلبس الناس على أخلاقها، وليس عليك ترقيع أخلاقها .

*

العتاب رفاء الود .

*

لا سلطان على الذوق فيما يحب ويكره .

*

ذنب الطاووس رفع له رأسًا، وذنب النجم جر له نحسًا .

*

الغنى مع الفقير فى كبد إذا منعه حسد وإذا أعطاه حقد

*

النصح ثقيل فلا تجعله جدلاً، ولا ترسله جبلاً .

*

الروح اللطيفة تستشف، والنفس الشريفة تستشرف، والضمير النقى مرآة لو التمس فيها المرء وجه الغيب لرآه .

*

رب قارض للأعراض، وعرضه بين شقّى المقراض .

الحكمة قوام الخير الخاص ودعامة الخير العام .

*

البصائر كالأبصار إذا توجهت فى وجه ثم لم تتحول عنه رجعت حولى .

*

أكثر الفضائل اصطلاح، وجوهرها كلها الصلاح .

*

الذليل بغير قيد متقيد، كالكلب لو لم يسد بحث عن سيد .

*

تحسن المرأة نصف عليمة، ويقبح الرجل نصف جاهل .

*

من أثرى أو ساد، فلا يعدّنّ الحساد .

*

إذا خدع الطبيب المريض أعان الدواء، وإذا خدع المريض الطبيب أعان الداء .

*

العامة أذناب من يمسح رءوسهم .

*

يهدم الصدر الضيق ما يبنى العقل الواسع .

*

العاقل من ذكر الموت ولم ينس الحياة .

يستأذن الموت على العاقل، ويدفع الباب على الغافل .

*

قد يداويك من المرض اتقاؤه ولا ينجيك من الموت إلا لقاؤه .

*

الغلط إذا أدرك تبدد، وإذا ترك تعدد .

*

المسيح بكر الحكمة .

*

على كتب السماء تهجى الحكمة الحكماء .

*

كل غائب يسلى إلا غائب الثكلى .

*

قلما طار اسم الشاعر فى حياته فوقع بعد مماته .

*

إذا كثر الشعراء قل الشعر .

*

أكثر الشعراء هتافا بشعره أقلهم راوية .

*

الحقيقة ثقيلة فاستعيروا لحقائق العلم خفة البيان .

ما راع البيض الرعابيب مثل رواعى المشيب .

*

تحمل المليحة ثكل الجمال كما يحمل البخيل ثكل المال .

*

الشباب أعراس الجمال، والمشيب مأتمه .

*

عند الكمال يبتدئ الجمال .

*

للجمال حين يزول جلالة الملك المعزول .

*

العلماء أشباه إلا من زاد فى العلم حرفا .

*

السقى بعد الغرس، والتربية قبل الدرس .

*

اجتنب التفريط والإفراط، تستغن عن بقراط .

*

بغّض الكبر إلى النفس الكبيرة، وحببت الصغائر إلى النفس الصغيرة .

يا أخا العزلة أنت لو طرت عن الناس ما وقعت إلا عليهم .

من استقام استدام .

*

الكسل فالجُ النفس .

*

الوقت مصارع لا يزال بك حتى يصيرّك أجلاداً رثة، ولا يدعك إلا وأنت جثة .

*

فى شهوة النفس شقوة الجسد .

*

العادة شهوة لازمة قاهرة .

*

تهرم القلوب كما تهرم الأبدان، إلا قلوب الشعراء والشجعان .

*

الشعر فكر وأسلوب وخيال لعوب وروح موهوب .

*

من ذهب يستقصى سرائر النفوس لم يرجع .

*

رب استحياء تحته رياء .

*

من عرف نفسه بعد جهل وجدها ؛ ومن جهل نفسه بعد معرفة فقدها .

من ظن أنه يُرضى أبداً يوشك أن لا يرضى أحداً .

*

من ذهب بنفسه فقدها، ومن ذهب بولده ضيعه .

*

السجون إذا امتلأت انفجرت .

*

للنفس على كل ما عملت علل من هواها .

*

ربما منعتك الحقوق الكلام وألجمت العهود فاك بلجام .

*

البلشفية قيصرية، لها جبروت الملك وسرفه ، وليس لها جلاله ولا شرفه .

*

الوقت عدو مجتهد، لا يدافعه إلا مجتهد .

*

الولد ثقل إذا فسد، ثكل إذا فُقِد .

*

لو لم يرقص الدينار فى النار، ما رقص على الأظفار .

*

قيد الحديد عسر، وقيد الحرير لا ينكسر، لعن الله القيد كله .

لا يقع الملق إلا فى نفس غرير أو مغرور .

*

قادة الثورة مقودون بها كالجلاميد تقدمت السيل تحسبها تقوده وهى به مندفعة .

*

الثورة جنون طرفاه عقل .

*

من استقل بنفسه استوحش، ومن استقل برأيه ضل .

*

خطة العاقل فى رأسه، وخطة الجاهل فى نفسه .

*

عادة السوء شهد آخره علقم، وورد فى أصوله أرقم .

*

الحظ طير يقع غير مستأذن، ويطير غير مؤذن .

*

من أحب المال تعب بجمعه، ومن أحبه المال تعب بتبديده .

*

أبى الله أن يتساوى عباده إلا فى النوم والموت .

*

الأميّة شلل الأمم، الناس معها مقعدون وإن خيل إليك أنهم يعدون .

الرأى المسيرّ إن قعدت عنه تغير .

*

العامة تدع صاحبها عند باب التاريخ .

*

الحق ملك وإن ملك عزيز وإن أهين ديّان وإن دين .

*

صبر الحازم تجلد وصبر العاجز تبلد .

*

القدم إلى جارى المقدور، أسرع من الماء إلى الحدور .

*

الماضى يسل عليك يومًا .

*

اخدع من شئت إلا التاريخ .

*

ما مات الحق فى قوم وفيهم رجل حى .

*

أصدقاء السياسة أعداء عند الرياسة .

*

حيل العقول تجرى فى وجوه المنفعة، وحيل النفوس فى وجوه المضرة .

التاجر فى حانوته بين يدى الرازق، فلا ينازع ولا ينازق .

*

من لم يتحرك جمد، ومن جمد همد .

*

محاسن وجه الدار الخميلة، ومحاسن وجه البلد الفنون الجميلة .

*

خلقت المرأة تنبل بالجمال، فإن فاتها التمست ما ينبل به الرجال .

*

عجبت من الصدر يسع الحادث الجليل، ويضيق بحديث الثقيل .

*

الحكمة مصباح يهديك حتى فى وضح الصباح .

*

حببت إلى الشيوخ أحاديث الشباب حنين الرجل فى علته إلى أيام صحته .

*

خدع العقل الأمم ويخدع الهوى العقل .

*

رب حسن سمت أتى الرجال من الصمت .

*

حب القلوب يزول، ويبقى حب العقول .

مجد السياسة عرضة للأحداث، وقد ينهدم على أهله فى الأجداث .

*

إذا طال البنيان عن أسه انهدم من نفسه .

*

سلطان الفضيلة أعز من سلطان العشق، سل عذرة[1] عن العفاف كيف قتلها، وسل الأديرة عمن دخلها .

*

من فقد الضمير لم يجد مس التحقير .

*

ارحم نفسك من الحقد فإنه عطب، نار وأنت الحطب .

*

كل نار طاهرة مطهرة إلا نار الحقد .

*

كاد صفح الوالد يسبق ذنب الولد.

*

لو حطمت السن المرأة ما حطمت مرآتها .

*

إنما المرء مروءته .

---

(١) بنو عذرة قبيلة اشتهر بها الهوى العذرى .

لا رعد مع صحو، ولا كوعيد العاجز لغو .

*

القمّل فى لبدة الأسد وهو مطلق ؛ أعز من الأسد وهو وراء الحديد .

*

الحق المسلح أسد عرينه، والحق الأعزل أسد زينة .

*

لا يبحث عن القتلى والقتال دائر .

*

الحق كبير فلا تصغروه بالصغائر .

*

من حمل نوائب الحق حمل الأمانة كلها .

*

العالم فى كل زمان بلد المال فيه أمير آخر الأبد .

*

الأعمى من يرى بغير عينه، والأصم من يسمع بغير أذنه .

*

التواضع المتكلف زهر مصطنع، لا فى العيون نضر ولا فى الأنوف عطر .

*

كل بنيان يهدم من رأسه، وبنيان الأوهام يهدم من أسه .

يؤذى العاقل المفتون، كما يؤذى المجنون .

*

الحكمة أن تحسن قولاً وفعلاً .

*

زواج العشق ورد ساعة، وزواج المال ورد صناعة، والبركة فى زواج موفق يكون لعمارة البلد، وفى سبيل الولد.

*

ثلاثة مسخرون لثلاثة آخر الأبد : الفقير للغنى ، والضعيف للقوى ، والبليد للذكى .

*

قلما رفعت رجلاً نفسه فوضع ، وقلما وضعت رجلاً نفسه فرفع .

*

من ساء خلقه اجتمع عليه نكد الدنيا .

*

ضيق الرزق من ضيق الخلق .

*

نسج القلوب من شهوات .

*

دود الحرير أخرق، هلك تاركًا للناس خير ما لبسوا فما تركوا له منه كفنًا، والنحل حكيم طعم من كل الثمرات ثم أطعم .

الشباب ملاوة كلها حلاوة .

*

لا أعلم لك منصفًا إلا عملك، إذا أحسنته جملك، وإذا أتقنته كملك .

*

إذا رأيت ساعيا مجتهدًا تمطله الأسباب، وتطاوله الغايات فاعلم أن حظه قاعد .

*

القوى من قوى على نفسه .

*

العقول الكبار درر كبار، لا تخلو واحدة من خدش يظهره الخلق أو يخفيه .

*

جلائل الرغائب مخبوءة فى كبار الهمم .

*

يتقى الناس بعضهم بعضًا فى الصغائر، ولا يتقون الله فى الكبائر .

*

من علم من نفسه الكرم ربأ بها عن مواقف اللؤم .

*

كفى بزوال الألم لذة، وكفى بفطام اللذة ألما .

*

من لم يكن فى عنان لذة أو تحت مهماز ألم، فليس على ميدان الحياة .

من عاش وعاشر أملّ محبًا أو ملّ محبوبًا .

*

الجماعات مطايا أهل المطامع تبلغهم إلى منازل الشهرة .

*

فى الثورة لا يقبل الرأى من أهل المشورة على أصالة رأيهم وصدق نصيحتهم ولكن على أسمائهم فى الألسنة وموقعهم فى القلوب .

*

الناس فى الألم والموت سواء، لم تسلم من الدمع جفون ولم يمتنع على الصديد مدفون .

*

الفتيات نائمات فإذا تزوجن انتبهن، والفتيان سكارى فإذا تزوجوا صحوا .

*

شبح الفقر غاد رائح على اثنين : زوج المضيعة وامرأة المقامر .

*

بانى نفسه لا يبالى ما هدم .

*

رب باك كضاحك المزن، ودمع ولا حزن .

*

من قعد به المال لم يقم به شىء .

ثورة النفوس تقطع الحبال، وثورة العقول تقلع الجبال .

*

المقعد خير من القاعد، والكسيح خير من الكسلان .

*

إذا صدقت النية فكل مذهب جميل، وكل رأى أصيل .

*

عجز المغتاب أن يكن سبعًا، فرضى لنفسه أن يكون ضبعًا

*

رأى الجماعات بعضه من بعض، وكله من الفرد كموج البحر بعضه من بعض وكله من الريح .

*

من رفع شراع العلم بلغ ساحل الحياة وهو فى أول اللجة .

*

الجميل إلى الجميل يميل، والحكمة تحب الفن الجميل .

*

مثل الشاعر لم يرزق الحكمة كالمغنى : صناعة ولا صوت .

*

العاقل يكلم أناسًا ببعض عقله، وأناسًا بعقله كله .

*

ذكروا للبخل مائة علة، لا أعرف منها غير الجبلة .

الاعتراف أوجه الشفعاء .

*

اعتراف الخاطئات استبسال، وفرار من الاسترسال، فانتشلوهن بعفوكم من الهوة، وأحيطوا ضعفهن من حلمكم بقوة .

*

الحكمة فى أفواه العلماء، وعلى شفاه الدهماء، كالدر يكون فى قاع البحور، ويكون فى نواعم النحور، وكشعاع الشمس يقع على الوحل كما يقع على الزهر.

*

الموت أول المخاوف وآخرها .

*

من نقض موثقه، نفض عنه الثقة .

*

إذا ذهبت الأمم بقيت الرمم .

*

إذا زاد تواضع الكبراء كان تلطفًا فى الكبر .

*

لا يزال الشعر عاطلاً حتى تزينه الحكمة، ولا تزال الحكمة شاردة حتى يؤويها بيت من الشعر .

*

الوقف من حرص النفوس ويراد به المال لا البنون .

بين الحلم والخوَر جسر أدق من الصراط .

*

ثلاثة لثلاثة بالمرصاد : الموت للحياة ، والشقاء للذكاء، والحسد للفضل .

*

خف اليأس فإنه لا يخاف .

*

كبر الصغير قبيح كتواضعه، كلاهما فى غير موضعه .

*

حظ النفس من الحرص حظ المقاتل من السلاح، إذا زاد عن حاجته تخبل، وناء بما حمل، وإذا قصر عنها تقهقر وانخذل .

*

اثنان فى النار دنيا وأخرى : الحاقد والحاسد .

*

الدين السمح فى الرجل السمح، والجنس الكريم فى الرجل الكريم، فأحبب من ليس من دينك تحبب دينك إليه، وأكرم من ليس من جنسك يكرم جنسك عليه .

*

آفة النصح أن يكون جدالاً وأذاه أن يكون جهاراً .

*

فى الدنيا مزيد من العقل للعاقل، ومتمادى فى الجهل للجاهل .

اثنان معاديهما فى خسر : القوى المغلب، والرجل المحبب .

*

شرف الكبراء كالورد فى إبان غضاضته، إذا نزعت منه ورقه انحل وانتثر، وانتقض جميعه على الأثر .

*

تجمع اللغات على اختلافها الحكمة ، كما تجمع شتى المعازف النغمة .

*

لا يكن تلطفك مذالا، ولا تحببك ابتذالاً فإن الطفيليين أعذب الناس كلاماً، وأكثرهم ابتساماً .

*

أساطين البيان أربعة : شاعر سار بيته، ومصور نطق زيته، وموسيقى بكى وتره، ومثّال ضحك حجره .

*

من الأمهات تبنى الأمم .

*

الأمية فى العقلاء شكائم، تتأسى بها البهائم .

*

الشباب من الموت خطوة أو ما فوقها، والمشيب من الموت خطوة أو ما دونها .

*

الطير لا تقرب أفقًا فسد فضاؤه، والحرية تهرب من بلد اختل قضاؤه .

إذا ضغط على قاضى الأرض فى بلد ضغط عليه قاضى السماء .

*

شورى من الحجاج وزياد خير من الفرد ولو كان عمر .

*

خذ من مال الناس ما شئت فإن وارثك راده إليهم .

*

ليس العلم لك بسفر، حتى يكون لك فيه سطر، وليس الأدب لك كتاباً، حتى تزيد فيه بابا .

*

الإنسان لولا العقل عجماء، ولولا القلب صخرة صماء .

*

من وضع نفسه قصر عن فضيلة التواضع .

*

المرء كلف بما ألف .

*

المغرور من يظن الناس لا يستغنون عنه، والمخدوع من يظن أحداً من الناس لا يستغنى الناس عنه .

*

من أخل بنفسه فى السر أخلت به فى العلانية .

إذا رأيت المرأة لا تدع صلاتها فلا تثق بها كل الثقة، وإذا رأيتها لا تضع مرآتها فلا تتهمها كل الاتهام .

*

العاقل لا يثق حتى يجرب، ولا يتهم حتى يتبين .

*

ثقة العاطفة شهر، وثقة العقل دهر .

*

الثقة وثاق الأحرار .

*

الثقة مراتب، فلا ترفع لعليا مراتبها إلا الشريك فى المر المعين على الضر، الأمين على السر .

*

من أحسن الثقة بنفسه، فليثق بعدها بمن شاء .

*

الوقت آلة الرزق إذا استعمل، وآفة الرزق إذا أهمل .

*

يا عدو الزواج: لو كنت العزب القدسى عيسى ابن مريم ما استطعت أن تقطع له نظماً، أو تعطل له سنة .

*

ليس للدنيا ببعل من خطبها بلا عمل، وصحبها بلا أمل .

الحق نبى قليل التبع، والباطل مشعوذ كثير الشيع .

*

جئنى بالنمر العاقل ، أجئك بالمستبد العادل .

*

لو طلب إلى الناس أن يحذفوا اللغو وفضول القول من كلامهم لكاد السكوت فى مجالسهم يحل محل الكلام. ولو طلب إليهم أن ينقوا مكاتبهم من تافه الكتب وعقيمها، وألا يدخروا فيها إلا القيم العبقرى من الأسفار، لما بقى لهم من كل ألف رف إلا رف .

المحتويات

مقدمة 653
الحقيقة 655
الوطن 659
الجندى المجهول 667
قناة السويس 673
الذكرى 681
الشمس 685
الموت 689
دعاء الصلاة العامة 693
الشباب 695
الخير 697
الظلم 699
القلب 701
الذكرى 703
شاهد الزور 705
الصبر 707
شهادة الدراسة وشهادة الحياة 709

الحـــيـــاة 711
الحـيـاة أيضًـا 713
الحـيـاة أيضًـا 715
اللســـــان 717
البـــيـــان 719
المـــــال 721
الأهـــــرام 723
الأمـــــس 725
اليـــــوم 727
الـغـــــد 729
المسجد الحرام 731
الشـــهـــادة 735
الصـــــلاة 737
الـصـــــوم 739
الـزكـــــاة 741
الحـــــج 743
خطيب المساجد 745
الـــطـــلاق 747
البحر الأبيض المتوسط 749
صـــفـــة الظبى 753
صـفـة الأسـد 755

الأسد فى حديقة الحيوانات 757
الجـــمـــال 761
الأمـــومـــة 763
الكاتب العمومى 765
الحياة وهم ولعب 767
الـــعـــلـــم 769
الســـــجع 771
الـنـقـــــد 773
الـــزهـــرة 775
الســـاقـــيـــة 777
الشـيخ المهندم 779
خـــــواطـر 781

المسرح النثرى

مسرحية

أميرة الأندلس

تمهيد

(١) زمن الرواية : عصر ملوك الطوائف .

(٢) مكان الرواية : أشبيلية ، أغمات .

(٣) أشخاص الرواية :

المعتمد بن عباد : ملك أشبيلية .

الرميكية : الملكة .

العبادية : أم المعتمد .

بثينة : بنته .

القاضى ابن أدهم : قاضى القضاة .

الأمير حريز : من أبطال الأندلس .

الأمير بولس : شقيق ملك الإسبان .

أبو الحسن : تاجر بأشبيلية .

حسون : ابنه .

ابن حيون : من الأدباء .

أبو القاسم : من الأدباء .

مقلاص : مضحك الملك .

لؤلؤ : من حجاب الملك .

جوهر : من حجاب الملك .

ابن شاليب : رسول ملك الإسبان

الباذ ابن الأشهب : لص شهير

أمراء .

جند

إلخ ...

مقدمة

جرت حوادثُ هذه القصة فى زمن كان قطعة من ليل الملمات ، أخذت الأندلس فى جنحها الحالك ثم تركته نظما منحلاّ وركنًا مضمحلاّ ، وشمسًا من دول الإسلام سقمت فألح عليها السقم فاحتضرت ، فكانت لها فى الغرب هدّة وكانت عليها فى الشرق ضجّة ؛ وخلال تلك القطعة من ليل الملمات كان الأندلُس تحت ملوك الطوائف، وكان هؤلاء الملوكُ على شرَف بيوتهم وتميز شخصياتهم ونبوغهم فى كل علم وأدب أصحابَ بذخ وترف ، وأخدانَ صبوةٍ وخلاعة ، لا حظّ لهم من همة الملك ولا نصيب من مراشد السلطان ، وإنك لتعجب من انغماسهم فى اللذات ونسيانهم لذكر العواقب ، وهم أتعبُ خلق الله وأكثر الملوك ركوبًا للغَرر ، واستهدافًا للخطر ، ومشيًا على الحبائل والحفر ، فأما فى داخل دويلاتهم فكيد وائتمار ، وفتنة نومها غِرار ، وسيفها فى الغمد قليل الفرار ، حتى لا تكاد الشمس تطلع إلا على ملك مخلوع ، ولا تغرب إلا على ملك مقتول ؛ وأما فى الخارج فكنت ترى هؤلاء الملوك بين نارين تتواعدان ، وبين سيلين يتهدران : فملك الإسبان ألفونس يتجنى ويعتدى ، ويضرب الجزية ويفرض الإتاوات ، ويبعث لأخذ الأموال جباةً أهل غلظة وقحة ؛ وصاحبُ مُراكش يوسفُ بن تاشفين هو وقُوّاده ووزراؤه مشغوفون بالأندلس يمطرونه الرسل والرسائل إلى قضاته وفقهائه ، مهيئين بذلك لفتح بنوا عليه الرجاء وعلقوا به الآمال ، وكان ملوكُ الطوائف يخافون جارهم هذا المسلح المتوثبَ سلطان المغرب ويرجونه ، فكان تملقهم له لا ينقطع ، وكانت الأموال تحمل إليه فى صورة المعونة ، وكانت الرِّشى تقدم لوزرائه ورؤساء دولته فى صورة الهدايا والألطاف ؛ وكل هذا المال إنما كان يجمع من المكوس والمغارم ! فتخيل كيف كان بؤس الرعية ، وتأمل كيف تذهب معالم البلاد بين عبث الفرد وغفلة الجماعة . ولقد كان على قرطبة وهى حاضرة الملك أن تحمل شطر هذا البلاء، فلم تلبث أن انحطت عن ذلك المكان العالى الذى كانت فيه دار الخلافة ومطلع القصرين الدمشق والرصافة[1] فصارت كرسى إقليم وقاعدة دويلة وعرشَ ملك صغير يؤدى الجزية ولا يحس لها ذلة ولا هوانا .

(١) قصور الخلفاء الأول من بنى أمية فى قرطبة .

الفصل الأول

المنظر الأول

مقصورة من مقاصير البديع (قصر المعتمد بن عباد) فى أشبيلية وإلى يمينها مصلى وفى مؤخرها ستار كبير يحتجب ، وقد وقف على بابها جوهر حاجب ابن عباد ، ولؤلؤ ساقيه ، ومقلاص مضحكه .

جـــــوهـــر : (إلى لؤلؤ) كيف وجدت وجه الملك اليوم يا لؤلؤ ؟

لـــــؤلـــــؤ : كسنته ، يفيض من البشاشة والبشر .

جـــــوهـــر : بل أنت واهم يا لؤلؤ ! إن وجه الملك تغير فى هذه الأيام وبدا عليه التغضن وأثّرت فيه الهموم أثرها الظاهَر المبين .

مـــــقـــــلاص : كان الله عون الملك ، إنه ليحمل من هموم الملك وأكدار السياسة ما تنوء به الجبال ، لعن الله السياسة وقبّح الولاية ، ولا جعل لى من أشغالها نصيبًا .

جـــــوهـــر : (يضرب بيده على حدبة مقلاص) وأىّ نصيب كنت تؤمل من أمور الدولة يا مقلاص حتى سألت الله أن يحرمك منه ؟

مـــــقـــــلاص : (ملتفتًا) دعنى من هذيانك يا جوهر وانظر : هذه الأميرة أقبلتْ كأنها البدرُ فى الليلة الظلماء ، أو كأنها الظبىُ يتخطر على الحصباء .

(تدخل الأميرة بثينة)

بثـــــــينـة : يا بشراى ما هذا الحظ العظيم ، أصدقائى الثلاثة ههنا ، يجمعهم باب الملك ! جوهر حاجب الملك ، ولؤلؤ ساقى الملك ، ومقلاص .

ومـــــقـــــلاص : (مقاطعًا) مقلاص المهرجُ الساقطُ والمضحكُ الوضيع .

الأمـــيـــرة بثـــينة : لا تقل هذا يا مقلاص ! ولكن قل نديم الملك وصديق بنته بثينة .

مـــــقـــــلاص : أنا مقلاص المهرجُ صديقك أنت يا أميرة أشبيلية ، بل يا ملكة الأندلس ، بل يا شريكة الشمس فى عرش الوجود ؟!

الأمـــيـــرة : أعرفت الآن مكانك ؟

مـــــقـــــلاص : عرفته يا سيدتى وإنى به لمزهوٌّ فخور .

الأمـــيـــرة : إذًا فاعلم أن هذا الحاجب جوهر قد يأذن على الملك لرجال يكره لقاءهم ويغمه رؤيتهم وسماعهم .

مـــــقـــــلاص : أما أنا يا سيدتى فما وقفتُ على باب الملك مرة إلا حجبت عنه الفكر والغمّ .

الأمـــيـــرة : وهذا الساقى يا مقلاص .

مـــــقـــــلاص : هذا الساقى يا مولاتى يقبض كل يوم من دماغ الملك شعاعًا ، ولولا أن دماغه الشريف كالشمس التى لا تنفَدُ أشعَّتها لكان اليوم جمجمة لا عقل فيها كأكثر هذه الرءوس التى نراها فى الطرقات .

الأمـــيـــرة : وأما أنتَ يا مقلاص فتسقى الملك كل ساعةٍ من رحيق مَزْحك ودُعابتك ما يملؤه غبطَةً وعافيةً وسرورًا .

جـــــــــوهـــر : (مقاطعًا - متداخلاً) لقد استأثرتَ يا نديم الملك ويا صديق الأميرة .

مـــــقـــــلاص : (مغضبًا) بالرغم من أنفك !

جـــــــــوهـــر : لقد استأثرت يا مقلاصُ بحديث الأميرة فتنحَّ ساعةً واترك لنَا فضلة من الشهد .

جـــــــــوهـــر : (للأميرة) مولاتى ، سيدتى ، بثينة ، أيةَ وحشة خلفتِ فى القصر يا مولاتى .

الأمـــــيـــــرة : أوأبدًا تبالغ ؟

جـــــــــوهـــر : كلا يا مولاتى ! هى كلمةٌ طافتْ بالقصر منذ افتقدناك هذا الدهرَ الطويل .

الأمـــــيـــــرة : أتعدُّ الثلاثة الأيام دهرًا يا جوهر ؟ ألم أقل لك إنك تبالغ كثيرًا ، لِمَ لَمْ تسألنى يا جوهر أين كنت ؟

جـــــــــوهـــر : أعلم أنك كنت فى قرطبة يا مولاتى .

الأمـــــيـــــرة : (وتبتسم ابتسامة سخر) أجل كنْتُ فى ملكنا الجديد يا جوهر .

جـــــــــوهـــر : وكيف وجدته ؟

الأمـــــيـــــرة : العنوانُ قبة ، والكتاب حَبة .

جـــــــــوهـــر : أرجو ألا يكون غرامُ الأميرة بأشبيلية وطنها الغالى ومهدها العالى ، قَد أنساها ذِكر الفضل لقرْطبة دارة الملك الأولى ومهد الفتح والعمران و ..

الأميـــــرة : أجل ، وسماء الرعود والعواصف ، ووكر الفتن والقلاقل . آهٍ من قرطبة وفجاءاتها يا جوهر ، وويلى على أخى الظّافر من هذه الولاية الحمراءِ التى لم يقلدها أميرٌ إلا قتل أو عزل .. عرش يضطرب تحت كلِّ جالس ، وتاجٌ لا يستقر على رأس كلِّ لابس .

مقـــــلاص : مَوْلاتى !

الأميـــــرة : مقلاص ، أشبيلية وأبى وأنت ، كانت ذكراكم ملء خاطرى فى قرطبة ، هل من دُعابةٍ جديدة يا مقلاص تُنسينى ما لقيت من الغم والكدر على تلك العاصمة الثانية لملكنا السعيد ؟

مقـــــلاص : لا تقولى هذا يا مولاتى فيغضبَ القرطبيون ؛ إنهم لا يقدِّمون على مدينتهم حاضرة من حواضر الدنيا ولو كانت دمشق أو بغداد ، فكيف يرضون أن تكون الثانية لأشبيلية ، وما مدينتنا فى زعمهم إلا بلدُ الخلاعةِ والمجون .

الأميـــــرة : (ضاحكة) وأين قرطبة منا الآن ، وأين القرطبيون يا مقلاص ، وبيننا وبينهم سَفْر شاق طويل ؟ ترى من علمك كل هذا الحرص ، ومن أين لك كل هذا الدهاء ؟

مقـــــلاص : هى الأيَّامُ يا أميرتى ، هى الأيام . وهذا السيف .. ماذا كنت تصنعين به يا مولاتى ؟

الأميـــــرة : كنتُ أتقى به عوادى الفجاءات .

مقـــــلاص : وهذا اللثام ؟

الأميـــــرة : كنت أذود به عنى العيونَ والظنونَ فى بلد ضيق الصدر مبلد العقل ، شتان بينه وبين أشبيلية ذات العقل الواسع والصدر الرحيب .

الأميـــــرة : (لجوهر) لقد نسيتُ يا جوهر ذكر واجب كان علىَّ أن أقدمه قبل كل شىء .

جـــــوهـر : وما ذاك يا سيِّدتى ؟

الأميـــــرة : السؤالُ عن الملك .

جـــــوهـر : هو يا مولاتى بخير أبدًا يسأل عنك .

الأميـــــرة : وأين هو الآن ؟

جـــــوهـر : هو فى الصلاة يا سيدتى .

الأميـــــرة : (تطرق فى تأثر ثم تقول) يا ويحَ أبى ! لقد نظرت إليه وهو فى قصر السوسان الضيق الصغير بقرطبة ، فوجدته كثيبًا متململا كأنَّ تلك السقوفَ المنخفضة لم تكن تليق برأسه العالى ، وكأنَّ تلك الحجرات الضيقة لم تصنع لعينه السامية الطماحة ، وكأنما كان يرى الزهراء أولى بأن تقله ، وأجدر بأن تظله . وهناك دنوتُ حتى صرتُ خلفه بحيث أسمعه ولا يرانى ، فسمعته يقول وكانَ وحده فى الحجرة مطلا من نافذة يلقى نَظرة على قرطبة .

جـــــوهـر : (باهتمام) وماذا كان يقول يا مولاتى ؟

الأميـــــرة : كان يقول : قرطبة ،، مُلك جديد أضيف إلى ملك أشبيلية ، ما

أصغر المضاف والمضاف إليه . انظر ابن عباد إلى العرش كيف صغر ، وإلى الصولجان كيف قصُر ، وإلى الملك كيف اختصر ، وتأمل مكان الحكم فى قرطبة كيف سد اليوم بالمعتمد ، ومجلس الناصر كيف شغل بابن عباد .

جـــــــوهـــر : نحن بانتظار القاضى ابن أدهم يا مولاتى .

مـــــقـــــلاص : (متدخلا) لعله هذه الكرنبة التى تتدحرج من بعيد منحدرة إلينا .

الأمـــــيـــــرة : (مستضحكة لجوهر) استقبل أنت يا جوهر القاضى وأدخله على أبى ، فإن قضاة الأندلس لا يستأذن لهم على ملوكه .

(ثم لمقلاص) وأنت يا مقلاص ، أعرفت أنى وجدته ؟

مـــــقـــــلاص : وما ذاك يا مولاتى ومن هو ؟

الأمـــــيـــــرة : أنسيت يا مقلاص حين تقول لأبى بمسمع منى ، إن الزوجَ الكفء لبثينة لم يخلق بعد لا فى الأندلس ولا فى غيره .

مـــــقـــــلاص : لا لم أنس يا مولاتى . قلتُ هذا ولا أزال أعيده .

الأمـــــيـــــرة : إذًا فاعلم أن الزوج الذى يصلح لى قد خُلق .

مـــــقـــــلاص : ومن ذاك ؟ ما اسمه وأين هو الآن ؟

الأمـــــيـــــرة : كل هذا تعلمه بعد حين يا مقلاص ، تعالَ معى الآن ، اتبعنى ودعْ جوهر ولؤلؤ يستقبلان القاضى الجليل ...

الأمـــــيـــــرة : (إلى جوهر) فى حفظ الله يا جوهر .

(إلى لؤلؤ) فى حفظه يا لؤلؤ .

جـوهر (ولؤلؤ معًـا) : فى ذمة الله وكلاءته يا مولاتى .

الأمـــيـــــرة : لا تنسيا أن تذكرانى عند الملك ، وأنى رهن إشارته .

(تخرج الأميرة مع مقلاص)

جـــــــوهـــر : أشكر الله أن أخّر مجىء القاضى .

لـــــؤلـــــؤ : كذلك كنتُ أحدّث نفسى ، وأخشى على مولاتى فى زيها هذا من عين الشيخ ولسانه .

(يظهر الملك)

المـــــلـــــك : هل جاء القاضى ابنُ أدهم يا جوهر ؟

جـــــــوهـــر : أجل يا مولاى رأيتُه فى ساحة القصر .

لـــــؤلـــــؤ : وقد عادت الأميرة من قرطبة يا مولاى .

المـــــلـــــك : أوَعادت الآن ؟

لـــــؤلـــــؤ : أجل يا مولاى .

المـــــلـــــك : أهى بخير ؟

لـــــؤلـــــؤ : بأتم عافية يا مولاى .

المـــــلـــــك : إذا انتهى ابن أدهم من زيارته فأت بها إلىَّ .

لـــــؤلـــــؤ : أمرُك يا مولاى .

(يخرج لؤلؤ)

المـــــلـــــك : وعليك يا جوهر أن تستقبل ابنَ أدهم وتأتينى فى أوفر بشاشة وتعظيم .

(يخـرج جـوهر ثم يرجع . يتـقدم القـاضى ابن أدهم وينادى من باب الحجرة)

جـــــــوهـــر : (منادياً من الباب) القاضى ابن أدهم .

الـقـــــــاضـى : السلام على الملك ورحمة الله وبركاته .

المـــــلـــــك : وعليكم السلام أيها القاضى ومقدم الخير ، فقد علمتُ أنك كنْتَ نزيل المغرب فى الأيام الأخيرة ، وكنتَ به ضيفًا على أمير المسلمين يوسف بن تاشفين .

الـقـــــــاضـى : هو ذاك يا مولاى .

المـــــلـــــك : فكيف الحوادثُ والأحوالُ هناك ؟

الـقـــــــاضـى : عندى من ذلك الشىءُ الكثير وسأذكره فى مجلس تال يأمر به الملك ، ولا أذكر الآن إلا رسالة حملنيها الأمير سيرى بن أبى بكر .

المـــــلـــــك : وما هى أيها القاضى ؟

الـقـــــــاضـى : أوَ يعرف الملكُ الأمير سيرى ؟

المـــــلـــــك : كيف لا أعرفه ! هو كافل الدولة المغربية ، وكبيرُ وزراء السلطان وقائدُ جيوشه الأكبر ، وما يبتغى منى الأميرُ أيها القاضى ؟

الـقـــــــاضـى : إنه يخطب إليك الأميرة بثينة .

المـــــلـــــك : ألشخصه يخطبها أم لواحد من أولاده ، فهم فيما أعلم كثُر ، وأصغرهم فيما أذكر يوافق ميلادَه ميلادُ بثينة !

الـقـــــــاضـى : بل يخطبها لنفسه أيها الملك .

المـــــلـــــك : إن هذا عجيبٌ أيها القاضى ، وما كان جوابك ؟

القـــــاضى : قلت لهُ إن الملك ابنَ عبادَ يذهب ببنته بثينة كلَّ مذهب ، ولا أظنّ قلبه يطاوعه على تزويجها فى الغربة وإخراجها إلى بلاد بعيدة .

المـــلـــك : أحسنت أيها القاضى ؛ فما هذا زواج .. إنْ هذا إلا قبرٌ أخطُّهُ بيدى لبثينة ، على أننى مُحضر إليك بثينة لتحدثها وتسمع منها .

المـــلـــك : (إلى جوهر) جوهر ، جئنا بالأميرة يا جوهر .

(يختفى جوهر لحظة ثم يعود بالأميرة)

الأمـــيـــرة : أبى !

المـــلـــك : بنيتى !

الأمـــيـــرة : أطلبتنى يا أبى ؟

المـــلـــك : تعالىْ بثينةُ حيى عمك القاضى ابنَ أدهم .

الأمـــيـــرة : السلام عليك يا مولانا القاضى ورحمة الله وبركاته .

القـــــاضى : وعليك السلام يا بنتَ أكرم الملوك . تعالىْ خذى مجلَسكِ بين أبيكِ وعمكِ .

المـــلـــك : مع من عدتِ من قرطبة ؟

الأمـــيـــرة : مع لثامى وجوادى .

المـــلـــك : وكيف وجدت قرطبة ؟

الأمـــيـــرة : وجدتُ طرقاتها تموج بالفقهاءِ يعرفهم الناظر بزيهم ، فذكرتُ عندئذ شُهْرَةَ هذا البلد بالفتنةِ والتشغيب وجرأة أهله على

أمرائهم وحكامهم ، وأشفقتُ منه على أخى الظافر ، وإن كنتُ واثقة بحزمه وعزْمه .

القـــــاضـــى : ومن أنبأك أيتها الأميرة أن الفتنة والشغب يجيئان من ناحية الفقهاء ؟

الأمـــيـــرة : لم يبق سرًا يا سيدى القاضى أن الفقهاء يُعلقون سعادة الأندلس وخلاصه ، بإلقائه فى أحضان جيرانه سلاطين المغرب .

القـــــاضـــى : وأنتِ يا بنت ملوكِ المسلمين ، أما تجدين ما يطلبه الفقهاءُ فى قرطبة ، أجدى على الأندلس من بقائه على الحال التى هو فيها مُشرفًا على التلف والضياع ؟

الأمـــيـــرة : لا يا سيدى القاضى ، ليس فى الحق أن يغتصب جماعة من المسلمين أوطانَ غيرهم من المسلمين ، فإن الوطنَ هو كالبيت فى قداسته ، وكالضيعة فى حرمتها .

المـــلـــك : (متدخلا فى الحديث) : لقد بعثت يا بثينة فى طلبك لغير هذا الشأن ، وفى أمر ذى بال ، وإنى أترك القاضى التحدُّث معك فيه .

الأمـــيـــرة : (ملتفتة إلى القاضى) : تكَلَّمْ يا عمُّ فكلى إصغاء !

القـــــاضـــى : لقد خطبك إلى أبيك رجل من عظماء الإسلام فى هذا الوقت ، هو الأمير سيرى بن أبى بكر وزير الدولة المغربية .

الأمـــيـــرة : أفارغ هو أم مشغول يا سيدى القاضى !

القـــــــاضـى : (فى حـيـرة) بل له من الأزواج ثلاث وسـتكونين الرابعـة ، وستكونين المدللة الممهدَة من بين أزواجه .

الأمـــــيـــــرة : (فى غضب) : إنك يا سيدى القاضى تدعو إلى خطة لا أنا مضطرة فأحمل نفسى الكارهة على قبولها ، ولا الأمير ابن أبى بكر معطل البيت من الربة الصالحة فيتشبث بها ويصر عليها ، بل تلك خطة لم أجد أبوىَّ عليها ، ولم آلف رؤية مثلها فى حياة أسرتى . فهذا أبى جعلنى الله فداءه لم يتخذ على أمى ضرة ولم يكسر قلبها بالشريكة فى قلبه ، فجاءت بنا أولاد أعيان ، نجتمع فى جناح الأبوة ولا نفترق فى عاطفة الأمومة ، لو شاء أبى لكان له كنظرائه الملوك والأمراء نساء كثير ، ولكان له منهن بنو العلاّت تحسبهم إخوة وهم أنصاف إخوة ، من كل دجاجة بيضة ، ومن كل شاة حمل .

القـــــــاضـى : (متلطفًا) شهد الله لقد أحسنت يا ابنتى ، ولكن مصلحة الملك أنسيتـها ، ونصرة الوالد أغفلتِ عنها ، وسلامة الأندلس أأهْملَتِ شأنها ؟

الأمـــــيـــــرة : لا يا سيدى القاضى ، كل ذلك فى المحل الأول من نفسى واهتمامى ، ولكننا مختلفان فى النظر، فأنت ترى أن الأندلس لا ينهض من كبوته إلا إذا مدّ السلطان إليه يده ، وأنا أتخيلها يَد الذئب يمدّها إلى الحمل . وأنت يا سيدى القاضى قد أخذك اليأس فى أمر الأندلس، وأنا كلى رجاء، ولا أستبعد

أن تتهيأ لأبى وهو كهف الأندلس وملاذه الفرصة ، لجمع الكلمة وضرب الإفرنج ضربة تريح العرب منهم السنين الطوال . وأنت تعلم أن تاريخ الأندلس مفعم بالفجاءات السعيدة من هذا الطراز .

القاضى : يُريد الله بكم اليسرَ ولا يريد بكم العسر ، ولقد رددتُ عنك أيتها الأميرة وعن أبيك الملك ، وأحسب أنى أحسنتُ الرد .

الملك : كل الإحسان أيها القاضى .

القاضى : الآن لم يبق لى إلا أن أنصرف .

الملك : مشيعًا بحفظ الله ورعايته .

(ينصرف القاضى ويشيعه الملك)

الملك : (للقاضى) كيف تجد بثينة يا بنَ أدهم ؟

القاضى : بورك لك فيها ، وبورك للأندلس فى عقيلته ! إنى أجدُها روحَ الوالد ، وأرى عليها طبعة الزمن وحضارة الجيل .

(يعود الملك ومعه مقلاص بعد أن يودع القاضي)

الملك : أعلمتَ يا مقلاص ! أسمعتَ أن سيرى بن أبى بكر يخطب إلىَّ بثينة ؟

مقلاص : (ملتفتا إلى بثينة بصوت خافت) أهذا الذى وجدته يا سيدتى ؟ إنى لا أهنيك بتيس المغرب .

الأميرة : لا يا مقلاص ، إن الذى وجدتُه هو غزال الأندلس لا تيس المغرب .

الملـــــــك : خبريني يا بثينة ماذا وجدت فى قرطبة ؟

الأمـــــيـــــرة : حال من القذارة تتنزه عن مثله أشبيلية .

الملـــــــك : هذا من توالى الفتنة والاضطراب على الناس ، حتى شغلوا عن تنظيف مدينتهم التى كانت المثال المحتذى بين المدن نظافة ونظامًا .. ثم ماذا ؟

الأمـــــيـــــرة : راعتنى قصورها المهجورة والموحشة كأنها الأطلال .

الملـــــــك : هذا من انقراض الوارثين أو ضيق نعمتهم عن سكنى الدور الواسعة ، وصغر أقدارهم عن نزول المنازل الرفيعة .

(يظهر على بثينة التأثر والاهتمام)

الملـــــــك : ماذا غمك يا بثينة ؟

الأمـــــيـــــرة : تذكرتُ يا أبى قصورنا فجزعت ، وقلتُ : الزاهى ترى ما نصيبه ، والتاج ماذا غدًا يصيبه ، والبديعُ ما يكون مصيره ، والمؤنس هل توحش مقاصيره ؟

الملـــــــك : بنيتى ؟ خلى عنك هذه الهواجس ، ولا تحملى على الشباب العبوس والهم فإنه لم يخلق لهما . اصرفى الشبابَ إلى الضحك والغبطة فإنهما طبيعته وديدنه . ألا نعود لحديث قرطبة ؟ خبريني كيف وجدت أسواقها ؟

الأمـــــيـــــرة : وجدتها دون أسواق أشبيلية حركة ونشاطًا ، إلا سوق الكتب فلا أحسب بغداد أقامت مثلها . دخلتها يا أبى فلبثتُ فيها ساعة أتأمل ما يقع فى جوانبها ، وأشهد النداء على نفائس

الكتب وذخائر المخطوطات وهى فى أيدى الناس ، يقلبونها فى اعتناء وإشفاق كأنها كرائم الحجارة فى أسواق الجوهر .

الملـــــــــك : وهلى كنت تهتمين بكتاب هناك ؟

الأمـــــيـــــرة : أجل يا أبى ، نودى على رسالة المنجم الضبى التى سماها : هل القمر مسكون ؟ وكنتُ سمعت بها وكنت أريد إحرازَها فسرنى الظفر بها ، وكان بالقرب منى فتى حسنُ الهيئة ظريف الشياب وهو لا شك من بنى البيوتات ، وكان ينازعنى الرغبة فى الرسالة . فلم يزل يزيد فيها وأنا أحرجه فأزيد حتى بلغها إلى خمسمائة دينار ، فقبضتُ يدى فرجع إليهِ المنادى فأخذَ المال وناوله الرسالة .

الملـــــــــك : لا أظن حِرص الشاب على الرسالة إلا للمباهاة ، ولكى يقال عنده خزانة حوت كل ثمين ونادر حتى رسالةَ المنجم الضبى ، فإن الشهرة فى قرطبة من قديم الزمان أن يتنافس الناس فى اتخاذ الخزائن للكتب ، حتى الذين لا علم لهم بها فيها .

الأمـــــيـــــرة : ظلمت يا أبى غريمى الشاب . فقد كنتُ ألحظ عليه الحرص على الرسالة والسعى لإحرازها حتى ما بقى فى نفسى شك أن الفتى من أهل المعرفة والاطلاع .

الملـــــــــك : وكيف هو يا بثينة ؟ وما شكله ؟ وما صفته ؟

الأمـــــيـــــرة : شاب يناهز الثلاثين ، جميل ، وقور ، يشبهك يا أبى أو كأنه أخى الظافر ؛ وما كان أعظم أدَبه ومروءتَه فإنه حين غلبنى

على الرسالة بادر فقال : أيها الفتى الملثم ! إن كان اعتناؤك بهذه الرسالة شديداً كما رأيتُ فعرِّفنى بموضع إقامتك ، وأنا أستصنع منها نسخة وأبعث بها إليك . فشكرتُ واعتذرتُ بكثرة أسفارى فى الأندلس ، فانطلق شديد الفرح بما نال . وكان جواده بانتظاره فاعتلاه ، فو الله يا أبى ما رأيت قط بعدَك وبعد أخى الظافر أرشق وثوباً على جواد ، ولا أحسنَ قياماً فى صهوة من غريمى الشاب .

الملـــــــــك : (مبتسما وهو يضع يده على كتفها) أخشى يا بثينة أن يكون غريمك الشاب أعرف بتصيد القلوب منه باعتلاء الجياد .

مـــــقـــــلاص : الآن عرفته ، هو فتى السوق هو فتى الرسالة .

(يدخل لؤلؤ ويقول)

الجماعة يتواردون على مجلس الشراب أيها الملك ، فانظر ماذا تأمر ؟

بثـــــــــينة : وأنا أيضاً ذاهبة لبعض شأنى إن أذنت .

الملـــــــــك : فى كلاءة الله يا بثينة .

(تخرج بثينة)

المنظر الثانى

ترفع الستارة الخلفية عن مجلس شراب إلى جانبه ستر مسدل وفى وسطه مائدة حولها الملك وجماعة من حاشيته ، وتطل هذه المنظرة على الوادى الكبير حيث للملك زورق.

الملك : ما عندكَ من الشراب لأصحابنا يا لؤلؤ ؟

لؤلؤ : خمورٌ مالقة وزبيبى أشبيلية .

الملك : وماذا هيأتَ لهم من نقل وطعام .

لؤلؤ : الجوز واللوز من وادى الطلح .

الملك : (يرفع عقيرته ويغنى) الجوز اللوزُ . يا ربِّ الفوز !

أحد الحاضرين : (إلى جاره) هذا لحنُ الملك الذى يحبه ويهتف به حتى فى الحمام .

مقلاص : ولحنى أيها الملك ، أتسمعه ؟

الملك : قل ، هات يا مقلاص .

مقلاص : (يغنى) الجوز اللوز بوادى الحوز[1] .

الملك : مرحى ! مرحى !

الحاضرون : (جميعًا) مرحى ! مرحى !

الملك : (لمقلاص) تعالَ قِفْ خلفى يا مقلاص وقم عند رأسى .

مقلاص : ها أنا قائم عند رأسك الشريف .. هل أفليه ؟

---

(١) متنزه مشهور بالأندلس .

الملـــــــــك : تأدبْ يا وَقَاح ، القمل لا يوجدُ فى رءوس الملوك .

مـــــقـــــلاص : مـا أدرى يا مـولاى ، ولكنى أعلم أن القـملَ يوجـد فى لبـدة الأسد ، وأنت أسد الأندلس الذى يعنو له الملوك .

الملـــــــــك : لله ما أمر لسانك وما أحلاه ، فهو كمشرط الجراح الماهر ، جمَع مرارةَ القطع وحلاوة الشفاء .

الملـــــــــك : (إلى لؤلؤ) ثم ماذا يا لؤلؤ ؟

لـــــؤلـــــؤ : كلُّ ما لذَّ وطاب من السمك .. بعضه مجلوب من بحر الزقاق وبعض من صيد الوادى الكبير .

الملـــــــــك : (يغنى) الجوزُ اللوزُ يا رب الفوز .

الملـــــــــك : (إلى وزيره ابن سعيد) ماذا يقولون فى المدينة يا بنَ سعيد ؟

الـــــوزيـــــر : لا حديثَ اليومَ لأهل أشبيلية إلا تلك النكبة التى حلت بأبى الحسن التاجر .

الملـــــــــك : واهًا لأبى الحســـن وويح الأندلـس ! مـــا أعظـم مصيبتـه فى تاجره العامل الموفق الأمين !

الملـــــــــك : (إلى ابن سعيد) وكيف وقعت الكارثة يا بن سعيد ؟

الـــــوزيـــــر : كانت لأبى الحسن التاجر فى لجج البحار ثلاثُ بوارج، وهى : الزُّهرة ، والثريا ، والجوزاء . خرجت الزهرة إلى الإسكندرية تحمل إليها مقداراً عظيما من الزيت الأشبيلى ، فأخذها عاصفٌ فغرقَتْ فى الطريق . وأقلعت الثريا بعد ذلك بأيام مشحونة بالمتاجر المتنوعة إلى ثغور الأندلس ، فصادفها

أسطولٌ للفرنجة كان يتجوّل على الشواطئ فأخذها مَغنما باردا . وكانت الجوزاء قد سبقت أختيها إلى عرض البحر تقصد سواحلَ المغرب محملة بالشيء الكثير من مصنوعات الأندلس ومتاجره ، فشبت فيها النار فأعيا إطفاؤها فسقطت شعلة فى الماء .

الملـــــك : ويح لأبى الحسن ويح !!

الـــوزيـــر : إن أبا الحسن أيها الملك شيخ كبير قد فرغ من الدنيا وفرغت الدنيا منه ، فمصيبته أقصر عمرًا وأهونُ وقعًا من مصيبة ابنه الواحد وولده النابه الشاب حسون .

الملـــــك : قد ذكر لى اسمه وسمعتُ الثناء عليه من كثير من الناس .

الـــوزيـــر : وإنه لكما نعتوه أيها الملك وفوق ما نعتوه : شابٌ جميل وقور جرىء ، وافرُ القسط من العلم والأدب ، تعلم لغة الإسبان حتى أجادها حديثًا وكتابة ، يجرى بها لسانه كما يجرى بها قلمه .

الملـــــك : إن شابًا هذا شأنه وهذه همته فى الحياة لا يتركُ نبوغه سدى ، ولا يوكلُ إلى اليأس القاتل ، بل يجملُ بنا أن نأخذ بيده فنهون عليه عثرة أبيه البرىء .

الجـــماعـــة : (يتهامسون) ما هذا الستر ؟

آخـــــر : (همسًا) ترى ماذا يخفى هذا الستر ؟

ثـــالـــث : (همسًا) ماذا خبأ الملك وراءه ؟

الملـــــــــك : فيم تتهامسون ؟ لعلكم تذكرون الستر . اشربوا الآن ما بدا لكم واطربوا ، وأما الستر فستعلمون نبأه بعد حين . لقد وزعت عليكم من أيام وفد النصارى من نبلاء الإسبان فماذا صنعتم بهم ، وكيف أنصبتكم ؟

الملـــــــــك : (ملتفتا إلى وزيره دانى) .

الـــوزيـــر دانـــى : كانت حصتى يا مولاى أطيب الحصص ، فضيفى شابٌ نبيل طروبٌ لطيفُ الأذن ، مولع بالقيثارة لا يضعها من يده ، وله عليها ضربٌ يأخذ بالألباب .

الملـــــــــك : (مبتسما : يسأل آخر من الجلساء) وأنت يا بن الصائغ كيف ضيفك ؟

ابن الصـــــائغ : أنا أقل الإخوان حظًا أيها الملك ، فضيفى رجل كهل قسيس يقطع الليل بالصلاة وقراءة الإنجيل .

الملـــــــــك : بل لعلك أعظم الجماعة حظًا ولا تدرى .

ثـالـثٌ : (من الجلساء – مخاطبًا الملك) أما أنا أيها الملك فقد ابتليتُ برجل شيخ شريب خمر لا يرويه فى اليوم دن ولا دنان ، فإذا كان قبل كل طعام قدمتُ له زبيبى أشبيلية ، فأقبل يعبه عبًا كما يقع الظمآن على الماء الزلال . وقد شرب من خمر مالقة فى ثلاث ليال أقامها عندى ما يكفينى أنا شهرًا ، وأنا الذى يعرف الملك ولعى بالخمر المالقى .

الملـــــــــك : وأنت يا لؤلؤ كيف ضيفك وما حاله ؟

لـــــؤلـــــؤ : إنه شاب يا مولاى خفيف الظل والروح ، مولعٌ بالرقص ، وأنا أتلقى عليه كل ليلة دروسًا فى الرقص الإسبانى حتى كدت أحسنه .

الملـــــك : وأنت يا مقلاص ، وكيف ضيفك وماذا يصنع معك ؟

مـــقـــلاص : ضيفى يا مولاى رجل كهل بادن ضخمُ الجثة كالخنزير المتدلى البطن من تراكب الشحم واللحم . إذا جاء فى البيت وراح ارتجت الجدران واهتز ما على الرفوف من آنية ، وإذا نام خرج الغطيط والنخير من حلقه ومن أنفه ومن كل موضع فيه ، ولو نام فى جبانة لأيقظ غطيطه الأموات .

الملـــــك : وكيف طعامه يا مقلاص ، وما أحبُّ الألوان إليه ؟

مـــقـــلاص : هو يا مولاى مجنون المعدة بالإوز . له كل صباح على الريق إوزة . وغداؤه إوزة ، وعشاؤه ...

الحـــضـــور : (جميعًا) إوزة .

الملـــــك : (ملتفتًا لوزيره دانى) وما عندك أنت يا دانى مما يقولون فى المدينة ؟

دانـــــى : يتهامسون فى المدينة بأن الفتنة قد تحركت شياطينها فى قرطبة ، وأن القادرَ صاحبَ طُليطلة يسعى لأخذها من ولدك الأمير الظافر ، وأنه يستعين فى دسه وكيده وتدميره بالبطل حريز وصاحبه ابن لاطون .

الملـــــك : الولاياتُ يا دانى كخلايا النحل ، فيها العسل وفيها الأسل ،

وأنا واثقٌ بحزم الظافر وعزمه ، والله يفعل بعد ذلك ما يشاء ، إن ضيوفكم النبلاء أيها الأصحاب سيكونون هنا بعد ساعة .

الملـــــــك : (إلى جوهر) وأنت يا جوهر انظر أين الجنديان ؟

جـــــوهـــر : بالباب يا مولاى .

الملـــــــك : أدخلهما .

جـــــوهـــر : يدخل الجنديان .

الملـــــــك : (إلى الجنديين) أين الكلب ؟ أجئتما به ؟

الجـــنـــديـــان : هو بالباب يا مولاى يرسف فى قيوده .

الملـــــــك : أدخلاه .

(يدخل ابن شاليب اليهودى يجر قيوده)

ابـن شـــــاليب : التحية والإجلال للملك .

الملـــــــك : تحية لا نتقبلها من رجل شتمنا بالأمس بمسمع من رجالنا وأعواننا .

ابـن شـــــاليب : معاذ الله أيها الملك ، ما شتمتُ ولا تهجمتُ ولا نسيت أنى نزيل هذه المملكة ، يجب علىّ لصاحبها التوقير والإكبار .

الملـــــــك : بل أنت تكذب يا بن شَاليب .

ابـن شـــــاليب : على رسلك أيها الملك ، أنسيت أن ورائى ملكًا عظيمًا يسأل عن أمرى ، وأنا سفيرهُ عندك ورسوله إليك ، وقد يغضب لى إن أنت نلتنى بسوء .

الملـــــــك : فإن كان السفير وقاحًا قليلَ الأدب ؟

ابن شـــــاليب : هذا كثير أيها الملك ، فاجعل للإهانة حداً ولا تنس لى مكانى .

الملـــــك : ستعلم مكانك بعد قليل .

(إلى ابن وهب)

أعد يا بن وهب على هذا الكلب ما لهث به حين عرضت عليه مال الجزية .

ابـــن وهـــب : لقد همَّ يا مولاى برد المال معتلا بسوء العيار ونقصان الإتاوة عن السنة الماضية ، وقال بلغ سيدَك أنه لا يحول الحول حتى آتى فآخذ عينيه .

ابن شـــــاليب : هذا كذب واختلاق .

الملـــــك : بل أنت الكذاب ! فـمـا أنا بالملك الذى يكذب عليـه وزراؤه وأعوانه ، ومـا شرفُ الأندلس وجلاله إلا عدلُ قضاته وقلة شاهد الزور فيه .

ابن شـــــاليب : (يمرغ خديه على البساط ويقول) ألا تعفو أيها الملك الكريم ، فهم يقولون إن العفو شيمتكم معشر العرب .

الملـــــك : إلا ما مس الشرف والكرامة .

ابن شـــــاليب : أتقتلنى أيها الملك من أجل كلمة سبق بها لسانى ، وأعمانى الغضب فلم أزنها ولم أقدر عواقبها ؟

الملـــــك : عجبًا يا وزير ألفونس ! أنت تزن القناطير المقنطرة من الذهب والفضة فلا يفلت من حسابك بُرادة مثقال ثم لا تحسن أن تزن كلمة تخرج من فيك !

ابن شـــــاليب : اعف عنى واستبقنى أيها الملك ، وأنا أشترى منك حياتى بوزن جسمى ذهبًا .

المـــــلـــــك : لا والله بثقله لآلئ ويواقيت ، وأنا أعلم أن وراءك ملكًا عظيمًا هو عبد المال ، أما أنا ابن شاليب فعبد الله .

المـــــلـــــك : (للجنديين) أيها الجنديين خذا هذا المجرم فأمضيا أمرى فيه .

(الجنديان ينقضـان عـلى ابن شاليب فيأخذانه إلى ما وراء الستر المسدل)

الحـــــاجب : (يدخل) نبلاءُ الإسبان بالباب يا مولاى ..

المـــــلـــــك : يدخلون .

كـبـيـر النبـلاء : التحياتُ للملك .

المـــــلـــــك : مرحبًا بضيوفنا النبلاء . تفضلوا وخذوا مجلسكم واطرحوا الكلفة .

كـبـيـر النبـلاء : شكرًا يا مولاى ؛ هذه الحفاوة بالضيف لا تستغرب من ملكِ العربِ الكريم .

المـــــلـــــك : تعال اجلس بجانبى أيها النبيل .

(يجلس كبير الإسبان حيث أشار الملك . يطوف لؤلؤ على القادمين بالشراب والنقل)

لـــــؤلـــــؤ : ماذا تشتهى من الشراب ؟

كـبـيـر الإسـبـان : ما دمنا فى أشبيلية يا فتى الملك ، فإنى لا أقدّم على زبيبها الصافى المعطر شيئًا .

أحد الحاشية : (فى أذن جاره) انظر السكير يا أخى كيف تجاهل خمر مالقة ، وكيف نسى أنه أنفد ذخيرتى منها فى ثلاث ليال أقامها عندى .

(ضجة وشراب وأحاديث همس)

الملك : (إلى لؤلؤ) دلنا يا لؤلؤ على ضيفك الرقاص .

لؤلؤ : (يشير إلى أحدهم) هو هذا النبيل يا مولاى .

الملك : (إلى الإسبانى) إن فتاى لؤلؤ أيها النبيل مغتبط بما تعلّم عليك من أصول الرقص .

الإسبانى : وأنا يا مولاى ما رأيتُ أسرع خاطراً ، ولا أرشقَ حركات ، ولا أحسن حفظًا لما يلقى عليه فى فنون الرقص من صاحبى لؤلؤ .

الملك : إن مطربى هذا ابنُ حزم يحسن الضرب على القيثارة ، وقد تعلم فى صغره الكثير من ألحانكم ونغمات رقصكم .

الملك : (إلى لؤلؤ) فليرقص لؤلؤ على إيقاعه .

الملك : (إلى الإسبانى) وأنت ترسم له أيها النبيل النغمة التى تصلح للرقصة .

(لؤلؤ وصاحبه الإسبانى يرقصان ، ويعزف لهما ابن حزم ويصفق لهما الملك والجماعة ، ثم يجلس الثلاثة بين الاستحسان والإعجاب) .

الملك : (فى جد إلى جليسه الإسبانى) أيها الضيف النبيل . أمرٌ يَشغُل بالى ويهتمُّ به أصحابى وينتظرون حكمى فيه . وقد

رأيتُ أن أنتهز فرصة الأنس بحضوركم لأسيرَ على ضوءِ رأيك فى تصريفه .

النبيل الإسبانى : ليس أحبّ إلىّ أيها الملك ، ولا أزيدَ فى شرفى من مشورة خالصة نافعة ألقيها إلى جلالتك .

الملك : إذن فاعلم أيها النبيل أن أحد جيراننا الملوك أوفد إلىّ رسولا فى مهمة معلومة ، فنسى الرسول مكانى حتى سبّنى بمسمع من رجالى وأوعد وتهدّد ، فما الذى يقضى به عُرفكم على رجل هذا فعله ؟

النبيل الإسبانى : مثل هذا جزاؤه القتل يا مولاى .

الملك : (إلى النبلاء) أسمعتم يا معشر النبلاء ؟

النبلاء : سمعنا أيها الملك وقد أفتى كبيرنا وهو العدل والصواب .

الملك : إذن فانظروا .

الملك : (ثم لأحد الجند) أيها الجندى ارفع الستر .

(يرفع الستر عن جثة ابن شاليب جثة هامدة معلقة على عود)

الجماعة : (صائحين) ابن شاليب

الملك : هذا صاحبكم ابن شاليب قد رمانى أنا ووزيرى هذا ابن وهب بتزوير العيار والغش فى الميزان ، وقال لرجالى وأعوانى : بلّغوا سيدكم أننى آتٍ فى العام القابل فآخذ عينيه من رأسه .

أحد الجماعة : (مستنكرًا) وما ذنبنا نحن أيها الملك حتى عاقبتنا بهذا المنظر ؟

الملك : لقد ترددت بين أن أقتله بأعينكم وبين أن أعرضه عليكم وهو

كـمـا ترون جـثـة بلا روح ، ولكنى وجـدت فى الرأى الثـانى تخفيفًا على ضيوفى فعملت به .

(ثم ينهض الملك علامـة الإذن فى الانصـراف ، ويخـتلط بهم وهو يشيعهم) .

الـمـلـك : انقلوا أيها النبلاء إلى الملك ألفونس ما سمعتم ، وصفوا له ما رأيتم ، وتحدثوا به فى طول بلادكم وعرضـهـا ؛ ليعلم الناس هناك أن الأسد العربى لا يُشتم فى عرينه ، وأنه لو غلب على غـابتـه حـتى لم يبق له منهـا إلا قـاب شـبـر من الأرض لما اسـتطاعت قـوى الإنس والجن أن تنفذ إلى كـرامـته من قـاب هذا الشبر .

(ينسلّ النبلاء الإسبان من المنظرة وهم يجرّون سيقانهم جزًا من الرعب) .

الـمـلـك : (إلى حاشيته) الآن يا نبلاء العرب نطوى هذا البساط ، ويبقى هذان الجنديان حـتى إذا خلت منا المنظرة رفـعـا السـتـر عن جثة ابن شاليب ، ليعلم أهل أشبيلية كيف يحل العقاب بمن يجترئ على شرفِ أميرهم الذى هو شرفهم الرفيع .

المنظر الثالث

الملك نشوان ومعه مضحكه مقلاص يدنو من زورق على الوادى الكبير فيثب فيه ويقول :

الملك : انظر يا مقلاص إلى هذا الزورق ما ألطفه ، صدق القول : كل صغير لطيف .

مقلاص : إلا وظيفتى فى قصرك فإنها لا لطيفة ولا شريفة ، وإن هذا الزورق قد ينقلب فيأخذ شكل النعش ، ولن يكون النعشُ لطيفًا أبدًا .

الملك : هبه انقلب يا مقلاص فصار نعشًا ، أليس النعشُ مركبَ كل حى وإن طالتْ سلامته !

مقلاص : أما أنا فيعفينى الملك .

الملك : لا يا مقلاص لا أعفيك ، ولا أحسبك تدعنى أسير فى لجة النهر وحدى وأنا كما ترانى نشوان .

مقلاص : وإن كان ولا بد أيها الملك فإنى أقترح ..

الملك : وما تقترح ؟

مقلاص : أن أكون أنا المجدِّفَ وحدى .

الملك : ولماذا ؟

مقلاص : الأمر بيِّن ! التيار مجنون ، والسكر مجنون ، وأنت سلطان وكل سلطان مجنون . وهذا الزورق خشبة لا عقل لها فهو أيضًا مجنون ؛ وإنى أربأ بحياتى أيها الملك أن أجمع عليها مجانين أربعة .

الملـــــــــك : (مستضحكًا) لا يكون إلا ما اقترحت يا مقلاص ، تعال اركب وجدّف وحدك واترك لى أنا الدفة .

مـــــقـــــلاص : أما هذا فنعم . وإنى أرجو أن تكون دفة هذا المركب الصغير أحسن مصيراً فى يدك من دفة المملكة .

الملـــــــــك : (مستضحكًا) تعال ثب ؛ هات يدك .

(مقلاص ينزل إلى الزورق ويأخذ المجدافين)

الملـــــــــك : انظر يا مقلاص وراءك ، إنى أرى قارباً يندفع نحونا مسرعًا كأنه حوت مطارد مذعور .

مـــــقـــــلاص : هو ذا قد دنا منا يا مولاى ، فأحسن مسك الدفة واجتنب الصدمة ، وأنا أذوده عنا بمجدافى هذا وأضربه ضربة تقذف به إلى الشاطئ الآخر من النهر .

الملـــــــــك : إياك أن تفعل ، بل ائسره ، فلا بد لنا أن نؤدب هذا الشاب المغرور ، فإنى أرى الملاح فتى كريم الهيئة فهو لا شك من أبناء أعيان أشبيلية .

(يصطدم الزورقان ويظهر مقلاص ارتباكًا وجبنًا ، فيقبض الملك على الزورق المهاجم بيد قوية ويقول لمقلاص) .

الملـــــــــك : اقذف الآن به إن استطعت إلى الشاطئ الآخر من النهر (ثم يلتفت إلى الشاب الملاح ويقول) مكانك أيها الغلام الوقاح، ما هذه الجرأة على التيار وعلى شبابك هذا الغض النضير ! وما غرّك بالملك حتى قربت عودك من عوده تريد أن تأخذ عليه الطريق .

الملاح : مولاى إن الرعية يهفون ، إن الملوك يعفون ، وزورقى إنما اندفع بقوة التيار القاهر فوافق مرور مركبك المحروس ، فكان ما كان مما أعتذر للملك منه .

الملك : (بصوت منخفض) ويح أذنى ماذا تسمع؟ هذا الصوت أعرفه؟ (ثم يلتفت إلى الملاح قائلا) : قد عرفت أيها الفتى من نحن ، فعرفنا بنفسك .

(يرفع الملاح قناعه)

الملك : (صائحًا) بثينة !

الأميرة : (الملاح) أجل أيها الملك ابنتك وأمتك بثينة .

الملك : عجبًا ! أأنت هنا بين العبب والتيار ، وعلى هذا العود الذى يشفق أبوك من ركوبه ، وأبوك من تعلمين أشجع العرب قلبًا ؟ ولم لا تكون ابنة الملك شجاعة القلب مثله ! إن الأسد لا يلد إلا اللباة .

الملك : (يهدأ غضبه) ومن أين مجيئك الساعة يا بثينة ؟

للأميرة : من الموضع الذى أحبه كما أحبّ الحجرة التى ولدتُ فيها ، ومن ناحية السرحة التى أحنُّ لها كحنينى للمقاصيرِ التى ضمتنى طفلة ممهدة ، ومن بقعة مباركة ، وقفت السعادة بك فى ظلها على أمى الرميكية فرأيتها فأحببتها أولَ وهلة .

ولم تكن إلا غسالة مغمورة فتزوجتها فرفعتها أعلى ذرى الشرفِ ، ومن هذا الزواج الموفق السعيد ولدتُ أنا لأب قصر

الآباء عن بِره ، وملك جل عن النظراء والأمثال . أليس ذلك المكان الذى هو مهد حبكما الأول من حقه أن يحنَّ إليه أحيانًا ، بل من حقه أن يُحج أنًا فأنا !

الملك : (متأثرًا) بنفسى وروحى أنتِ يا بثينة ! لقد عظمتِ المهدَ وقضيتِ الحقَّ ؛ والآن ألا ترجعينَ إلى القصر بسلام ، فلا أحسب القصر إلا قائمًا لغيبتك على ساق ، حتى لكأنى بأمك تسأل عن أمرك ، وبجدتك أشغلُ وأشدُّ قلقًا .

الأميرة : لقد كنت يا مولاى فى طريقى إلى القصر ، لولا هذا الاتفاق السعيد الذى صدم عودى بعودك ، والآن إذا أمرت فإنى أنطلق فى سبيلى ، وأستودعك الله يا مولاى .

الملك : اذهبى يا بنيتى فى كلاءة الله ، وإياك والمجازفة فيما تفعلين ، فإن الحياة أعز وأنفس من أن تُعرَّض للتهلكة ، وأنهاك عن الخروج بعد اليوم إلا مصحوبة بلؤلؤ أو جوهر ، فإنهما لا يألوانك خدمة وحراسة .

الأميرة : لا يكون يا مولاى إلا كما أشرت .

(تندفع بثينة بالزورق وتغادر الملك ، وقد أطرق مليًا إلى أن بدا لمقلاص أن ينبهه من هذه السنة) .

مقلاص : مولاى إن الشط قريب ، وإن الأرض أصلح مجلسًا لمثل ما أنت فيه من الهم والتفكير .

الملك : كيف رأيتَ بثينة ، وكيف وجدت جرأتها يا مقلاص ؟

مـــــقـــــلاص : تلك اللباة من هذا الأسد يا مولاى .

المـــــلـــــك : ما كل جرىء فطن ، وهذه الفتاة جمعت الحجا والشجاعة . إنها تعلم أننى رجل رقيق القلب مجيب العاطفة ؛ وتعلم كذلك أن شيئًا من النفور قد دخلنى نحو أمها منذ حين ؛ فانظر كيف تحيلت حتى ذكرتنى العهدَ القديم ، فو الله ما أنا الساعة بأقلَّ حبًا للرميكية ولا عطفًا عليها .. منى منذ عشرين سنة . جدّف يا مقلاص جدِّف . سبحانك اللهم ، جعلت الولد سفير المودة والرحمة بين الوالدين .

(يندفع الزورق)

المـــــلـــــك : (يغنى) الجوز اللوز ، يا رب الفوز .

مـــــقـــــلاص : (يجيب) الجوزُ اللوز ، بوادى الحوز .

(ستار)

الفصل الثانى

خان التميمى فى أشبيلية حيث صفت الموائد والأرائك وجلس إليها قوم يتحدثون ويحتسون الشراب . ابن حيون منفرد وحده إلى مائدة ، أبو القاسم قادم عليه من باب الخان . حريز يجلس إلى مائدة أخرى وأمام ابن حيون ، ورجال هنا وهناك يلعبون النرد والشطرنج أو يطالعون بعض الرسائل ..... .

أبو القاسم : ابن حيون ؟ ما أطيب هذا اللقاء !

ابن حيون : سيدى أبو القاسم ؟ يا مرحبا يا مرحبا ، ها هنا صُدفة لينة ومجلس كريم فلو جلسنا نتحدَّث . أزائرى أنت أبا القاسم أم جئت الخان فى شأن يعنيك ؟

أبو القاسم : بل إياك قصدت يا بن حيون ، وإن الشوقَ إليك لشديد .

ابن حيون : شوق بعضه من بعض يا أبا القاسم ، ولكن من أنبأك أنى مقيم بخان التميمى ؟

أبو القاسم : لقد عرفناك كالرواد الرحّل ، لا ترى إلا فى خان أو عند دوارس الأحجار .

ابن حيون : الخان والسوق يا أبا القاسم مدرستان من مدارس الحياة ، ينتفع بهما الرجل الأريب . ألستُ فى هذا الخان كل يوم أبدل أهلاً بأهل وجيرانًا بجيران ، وأستعرضُ صورًا متحركة من الخلائق كلما احتجبت صورة خلفتها صورة . وكيف حال

أشبيلية يا أبا القاسم ، وهل من حوادثَ هناك ؟

أبو القـــــاسم : الحالُ إن لم يصلحها الله فما لها من صـــلاح ، والحوادث يا ابن حيون تتوالى ولا تتولى ، واليومُ مغبر والغد مكفهر .

ابن حـــــيـــــون : ابنُ عباد فى غوايته مستمر !

أبو القـــــاسم : خل ابن عباد يا أخى ، لا تجر ذكره بسوء فإنه السيف الذى يرجوه العرب ، والحصن الذى يحتمون غداً فيه .

ابن حـــــيـــــون : لم تنصفْ يا أبا القاسم ، طبعتَ للعرب من الخشب سيفًا ، وبنيت لهم من الشفير الهائر حصنًا .

أبو القـــــاسم : اتق الله يا بن حيون .. بعض هذا البغى . للمعتمد من المحاسن ما يغطى على مساويه ؛ أجهلت إحسانه على أهل العلم وعطفه على أهل الأدب ؟ أجهلت كيف يربى أولاده تربية لم نعرفها من الأمراء والملوك ؟ أجهلت كيف يعامل الرميكية زوجته الفاضلة معاملة تحسدها عليها عقائل الأندلس .

ابن حـــــيـــــون : آه يا أبا القاسم ، من ههنا دائى وههنا ثأرى عند صاحبك ابن عباد !

أبو القـــــاسم : يا عجبًا كلّ العجب ! ما هذا الثأر ؟ ما حديثه ؟

ابن حـــــيـــــون : اسمع أبا القاسم وأنصفنى ..

أبو القـــــاسم : تكلم يا بن حيون فكلّى مسامع .

ابن حـــــيـــــون : كنت فى صدر شبابى صيادًا شابًا مليحًا، رأس مالى شبكة ، وقوام معيشتى سمكة ؛ وكانت تختلف إلى المواضع التى

اختلف إليها من النهر للصيد وابتغاء الرزق صبية غسالة حلوة الدلال بارعة الجمال ، كأن حديثها السحر الحلال ، فانعقدت بيننا ألفة ؛ وكانت لنا مجالس على الماء كأنها أعراسُ النهر ، ولقاءات على الوادى الكبير كأنها أعيادُ الدهر ، أحببت الصبية وأحبتنى ، وتكلمنا فى الزواج وشرعنا نأخذ له أهبته .

أبو القـــــاسم : (مقاطعًا) وبينما أنتما على ذلك طلع عليكما من النهر فلك عليه شارة الملك ، يحمل ملكًا شابا جميلا ، فنظر الصبية فراعه حسنها ، وكلمها فأعجبه أدبها ، وارتجلت الشعر بين أذنيه فبلغ إعجابه بها الغاية ، فتزوجها من يومه فملأت قصورَه غبطة وبهجة ، وولدت له الشموس والأقمار . هذا حديث الرميكية يا بن حيون ، وهذا خبر زواجها يعلمه كل من فى الأندلس ويتناقلونه بالإعجاب ، ويتحدثون أن بنت الشعب نزلت قصور الملك من أول يوم نزول الأقمار فى هالاتها من عشرين عامًا إلى اليوم ، قدوة عقائل الأندلس والمثال الأعلى بين أميراته وملكاته ! ..

ابن حـــيـــون : وما كان ذنبى يا أبا القاسم حتى احتقرتْ حبى واستهانت بخطبتى ؟ وكيف تريد منى بعد ذلك أن أكون لصاحبك المعتمد من المخلصين ؟

أبو القـــــاسم : هب الأمر كان معكوسًا يا بن حيون ، وهب الفلك الذى وقف

يومئذ بكما كان للملكة شابة فاتنة الجمال ، بيمينها الجاه ، وفى شمالها المال ، فنظرتك فأحبتك ودعتك لتبنى بها وتشاطرها عزة الملك وثراء المال - أتراك كنت تعرض عن الملكة وفاء بعهد الغسالة ؟ لا والله يا بن حيون ، ما كنتَ فاعلا ذلك . وهذا ما فعلت الرميكية : رأت ملكًا كبيرًا وشبابًا نضيرًا وفضلا وأدبًا غزيرًا ، فحلت نفسها من ذلك الوداد ، وفضلت أصيد على صياد . عرفت يا ابن حيون أن ذنب الرميكية ليس بالعظيم كما توهمت ! بقى المعتمد ، وأنا لا أجده اقترف إليك ذنبًا أو أراد لك ضرًا ، أنا أقسم لو علم ابنُ عباد يومئذ بما كان بينكما من الحب ، وما صرتما إليه من الخطبة ووشك الزواج ، لأخذكما فى كنفه ، وتكفلت لكما نعمته بالزواج ونفقته ، وبالبيت وجهازه ، وبالضيعة التى تغل عليكما وتبقى بعدكما على الأولاد .

(ابن حيون مطرقًا)

أبو القاسم : ابن حيون ! ما بالك مطرقا لا تنبس ! ما بال عينيك تمتلئان ؟ استرح يا أخى للبكاء واسكب دموع الندم .

ابن حيون : الآن استرحتُ يا أبا القاسم ، وانطرح عن صدرى أتونٌ من الحقد حملته عشرين عامًا حتى حنى الظهرَ ، وأكل الصدرَ ، وأدنى من القبر .

أبو القاسم : مسكين أنت يا ابن حيون ! إن حقد عشرين عامًا لو جمع وقذف به فى جهنم ، لكان لها منه وقود لا ينفد .

ابن حـــيـــون : لقد شفيتنى أبا القاسم من ضلالى القديم ، فأرشدنى كيف أعتذر إلى الرميكية عن سوء ظننت ، وبغض أسررتُ وأعلنتُ . وكيف أكفر عما سلف منى فى ذات المعتمد من جهر السوء وهمسه ؟

أبـو القـــاسـم : يغفر الله لك يا ابن حيون . إن الحقد ما خرج من قلب إلا دخلته الرحمة ، وإنى لأرجو أن ستحبُّ صاحبيك وترحمهما وتحسن إليهما ، كلما وجدت إلى الإحسان سبيلا .

(يطوف قيم الخان على الجالسين حتى يقف به الطواف على المائدة التى جلس إليها حريز وابن لاطون)

قـــيم الخـــان : لعل السيدين قد وجدا الراحة فى هذا الخان الصغير ببنائه ، الكبير بأقدار رواده ونزلائه ؟

حـــــريـز : ومن السيد ؟

ابـــن لاطـــون: هذا الأديب التميمى صاحبُ الخان وقيمه .

قـــيم الخـــان : لعلى أيها السيدان بحضرة الأمير حريز أسد الأندلس ، وصديقه ابن لاطون فى الجزيرة .

ابـــن لاطـــون: هو ذاك يا أخا تميم ؛ هذا الأمير حريز بطل الأندلس وواحده ، وأنا ابن لاطون خادمه وكاتب ديوانه .

قـــيم الخـــان : يا طيب هذه الزيارة ، وما أعظم شرفى بها ، لقد مر بنا أيها السيدان منذ ساعة ، ركبان حدثونا العجب عن ذلك السباق الذى أقامه ملك الفرنجة ألفونس فى معسكره ، إكرامًا لك

وحفاوة بك ، وخبرونا كيف احتلتَ على الطاغية فمرقت من ذلك الجيش الجرار ناجيًا بجوادك الصاعقة ، وظافرًا بالأمير بطرس شقيق الطاغية .

حـــــــــريـز : وكلاهما الساعة تحت سقف خانك هذا ؛ ففى بعض غرفة بطرس أمير الإسبان يأخذ قسطه من الراحة ، وفى الإسطبل الصاعقة أمير الجياد يُعلف ويستجم .

قـــيم الخـــان : يا فرحا يا شرفا ! أخو الطاغية أسيرٌ فى خانى ! نبأ والله عظيم ، لا تطلع شمس الغد حتى ينتشرَ فى الأندلس ، فتشتغل الدنيا بالتميمى ويهتم بخانه الناس .

حـــــــــريـز : والصاعقة أمير الجياد ، أنسيته يا رجل ؟ إن إسطبلك ليتيه به على مغانى الفرنجة وقصورهم . فاذهب فمر رجالك أن يعتنوا به ، وليأتوا بما كان عليه من الأمتعة والأسباب فيضعوا ذلك كله فى هذه الزاوية من الخان .

قـــيم الخـــان : سيكون ما أمرت يا سيدى .

(يخرج الأمير بطرس من غرفة الخان ، فينهض حريز وابن لاطون حفاوة به.)

الأمـــيـــر حـــريز : الأمير بطرس ؟ لعلك أخذت قسطك من الراحة .

الأمـــيـــر بطرس : أجل قد استرحت يا حريز ، والآن خبرنى ما أنت صانع بى ، لقد أصابت الحبالة فما أنت صانع بالصيد ؟

حـــــــــريـز : إنها أيها الأمير حبالة كريم .

بـــــطـــــرس : ولكنى على كل حال أسيرُك يا حريز .

حـــــــــريـز : أجل ، ولكنك الحاكم فى الأسر .

بـــــطـــــرس : لم تنصف أخى الملك يا حريز ، اطمأن عليك فخدعته ، ووثقَ بك وخنته ، وأطلق لك جوادَك الصاعقة وأسرت أخاه !

حـــــــــريـز : نحن فى حرب معكم أيها الأمير ، والحرب لا تسأل عما تفعل ، وأنا صاحب حصن للعرب يحاصره أخوك ، وفى الحصن أبطال لا يعرفونَ الخوف ولكنهم بشر يعرفونَ الجوع ، ومنهم المرأة والصغير والشيخ الفانى الكبير ؛ وحصنى يوشك أن يسقط بعد طول الحصار وضيقه .

بـــــطـــــرس : إذن يهمك أن يخرج النساء والأطفال والشيوخ من الحصن ؟

حـــــــــريـز : أراك فهمت أيها الأمير .

بـــــطـــــرس : إذن فاعلم يا حريز أنك إن خليتَ الآن سبيلى فرجعت الليلة إلى معسكرى وقومى ، فإنه لا يُصبحُ الصبح حتى يطلق سراح كل من فى حصن رباح ، وينالهم من بر أخى وعطفه ما ينسيهم جراحهم ، ولا ينزع من رجالك سلاحهم بل تترك للأسد أظفارها .

حـــــــــريـز : هذا ما أبغى أيها الأمير .

بـــــطـــــرس : وأى الأقسام تريد أن أعطيك عليه ؟

حـــــــــريـز : إن الرجل الشريفَ كلمته قسم وإشارته يمين ، فأنا أكتفى بما سمعتُ من وعدك ، فانطلق الآن محروسًا بعناية الله ، وعد

لأخيك الملك فبلغه تحيتى وإجلالى ، وخبره بأن ربحى من ذلك السباق كان عظيماً ، فقد غنمت صحبة أخيه الأمير النبيل الكريم ، وغنمتُ أيضًا خلاص رجالى فى الحصن ، وخرجت فوق ذلك من الميدان بكنوز طُليطلة وجواهر ملوكها بنى ذى النون .

الأمير بطرس : كنوز طُليطلة ؟ خرجتَ بها بين عين الجيش وأذنه ! يا لك من داهية عنيد ! أكانت هذه الكنوز معك حين أتيت للمعسكر ؟

حريز : (ضاحكًا) كلا أيها الأمير ، بل كانت فى طليطلة وفى خزائن ملوكها بنى ذى النون ، وإنما احتلتُ حتى حُملت إلىّ مع الصاعقة ، إذ أمر أخوك الملك أن يذهب إلى المدينة المحصورة من رجاله ورجالى من يأتى بالصاعقة .

بطرس : عجبًا ! لقد رأيتُ الصاعقة حين جىء به من طليطلة فلم أرَ عليه شيئًا من الأحمال والأثقال ، فهل كان يحمل فى بطنه الكنوز ؟

حريز : (ضاحكًا) ولم لا تقول إنها كانت على ظهره أيها الأمير ... (مناديا) يا تميمى .

التميمى : مولاى .

حريز : ادفع إلى الأمير جَوادَه قيصر ، وشيعه بفارسين من أشد رجالك يرافقانه حتى يبلغ خطوط الفرنجة .

بـــــطـــــرس : فى حفظ الله يا حريز .

حـــــــــريـــز : بذمة الله أيها الأمير .

(يخرج حريز مشيعًا الأمير بطرس إلى باب الخان ، ويعود فيجلس على مائدة مع ابن لاطون) .

ابـــــن لاطـــــون: (يسأل حريز همسًا) لقد ذكرت أيها المولى كنوز طليطلة للأمير الإسبانى ، فأين هى منا الآن !

حـــــــــريـــز : هى معنا يا ابن لاطون بين أعيننا وفى حفاوة سيفينا ، ولكنك لا تراها ولا يقع فى وهم واهم بأى موضع هى من الخان .

(يسمع من خارج الخان مناد ينادى متغنيًا) .

مـــــنـــــادى : أنـا ذا طـاه أتـاكـم من شريش بقطائـف

من يذق حلواى يبرز لحـريـز غير خـائـف

حـــــــــريـــز : لله ما ألذ الصوت وما أحسن الشعر !

ابـــــن لاطـــــون: وإنا نرجو ألا تكون القطائف دونهما لذة وجودة .

(حريز متجهًا إلى باب الخان)

حـــــــــريـــز : تعال يا صاحبَ القطائف . أتعرف أيها الرجل حريزًا الذى أشدتَ بذكره فيما أشدت ؟

الـبـــــــائـع : أو تجهله أنت كائنًا من كنتَ ، وهو عنترة البيد وحيدرةُ الحمى ونادرة الزمان ؟ أعرفه بأمسه ويومه كما يعرفه سائر الناس .

حـــــــــريـــز : وكيف صفته ؟

الـبـــــــائـع : رجل عملاقٌ أشمُّ طويلُ الساعدين عبل شَمردل .

حـــــــــريـز : كفى يا شريشى كفى ؛ اكشف عن بضاعتك لنرى أين المنادَى عليه من النداء .

(البائع يعرض الصينية مكشوفة)

صـــــــــوت : (من الحاضرين) تعال الله ما أشهى !

صـــــــــوت : (آخر) تعال الله ما أطيب !

حـــــــــريـز : بكم تبيعنى هذه الصينية يا رجل ؟

الـبـــــــائـع : كل ما أعطيت مقبول أيها السيدُ الكريم .

حـــــــــريـز : (ويلقى إليه صرة دنانير) خذ هذه الصرة مباركًا لك فيها .

الـبـــــــائـع : ولكم فى القطائف أيها الطاعم الكريم .

حـــــــــريـز : (للحاضرين) تعالوا أيها الإخوان نتقاسم هذه اللقمة الطيبة . تفضلوا أقبلوا . ذوقوا معنا هذا اللون الذى ذاعت شهرته فى البلاد حتى قيل إن من دخل الأندلس ولم يذق من مجبنات شريش فما عرف من متاع الأندلس شيئًا .

أحـد الحـاضـرين : إن لهذه القطائف لطيبًا يسكر من بعيد .

(الجميع يأكلون)

أحـــــــــدهـم : ما ألذ .

ثـــــــــانٍ : ما أطيب .

حـــــــــريـز : (وهو يأكل ملتفتًا إلى ابن حيون) ما بالُ الأديب لا يجيب الدعوة ؟

ابن حـــــيـــــون : إنى صائم أيها الأمير .

حـــــــــريـز : تقبل الله منك وإن أنتَ لم تقبل منا .

أحـد الحـاضـرين : **(على المائدة وهو يأكل)** وهذه المائدة جـمـعت العلفَ والشرفَ فوالله ما كان أحدكم يحلم أن يؤاكل أسد الأندلس .

آخـــــــــــر : حق إن هذا لهو الشرف العظيم .

(يفرغون من الأكل)

حـــــــــريـز : يا الله ما هذا الدوار ؟ ابن لاطو ... ... ن .

ابـــن لاطـــون : وأنا أيضًا كأنى داخل فى غيبو ... ...بة .

رجـــــــــل : (لصاحبه) كيف تجد الدنيا فى عينك يا ضبى ؟ .

الـضـــــــبى : مظلمة صاعدة نازلة .

الـــــرجـــــل : وأنا أيضًا أجد الدنـ ... .. يا .

أبـو الـقـــــاسـم : لقد رُحمتَ بصيامك يا بن حيون فإنى أظن القطائف طبخت بالبنج وأخذت تصرعنى ..

ابن حـــيـــون : **(مذعورًا)** يا ويح للجماعة غودروا صرعى ، وويح لك أبا القاسم سقطتَ سليبَ العقل والحَراك .

(يظهر صاحب القطائف ويصفر فيدخل جماعة من اللصوص)

ابن حـــيـــون : (وقد امتلأ المكان باللصوص) يا الله ! امتلأ المكان باللصوص . الآن تبينت أن القطائف كانت مصيدة لم يعصمنى منها إلا الصيام . **(ثم لنفسه همسًا)** تناوم يا ابن حيون (ويتناوم على مقعده) .

صـــاحب القطائف : يا أصحاب الباز ، غداً يتحدثُ الأندلس أن صاحبكم صرع الأسد وأخذ الصاعقة من فارسه الجبار ، وقد خصصت نفسى بأمير الخيل الصاعقة فهو حصتى من غنائم اليوم ، ففتشوها ، وعليكم بالحقائب فانبشوها ، وخذوا أثاث الخان وعروضه ، كل ما خفت زينته وعظمت قيمته .

أحـــد اللصـــوص : ولكن الصاعقة عريان لا سرج عليه أيها الزعيم .

البـــــــــاز : بجياد الأندلس جميعًا هو كاسيًا كان أو عريانًا ...

لـص آخـــــــر : لقد لمحت أيها الزعيم فى زوايا الإسطبل سرجًا محلى بالذهب والفضة .

البـــــــــاز : أوَ أنتم تاركين لى السرجَ المذهب المفضضَ أيها الأصحاب ! نحن وما نملك للزعيم .

البـــــــاز للـص : إذن فاسبقنى يا شهابُ فضع السرْجَ المذهبَ على الصاعقة وانتظرنى هناك .

(يأخذ اللصوص فى السلب والنهب وينسلون واحدًا إثر واحـد بما حـوت أيديهم، ويبـقى رجل منهم فينحنى على سرج عاطل يتأمله ، ويظن ابن حيون المكان قد خلا فيستوى فى مجلسه ، ويقع نظر اللصوص عليه فيومى السرج العاطل عليه قائلا) .

أحـــد اللصـــوص : (لابن حيون ويرمى عليه السرج العاطل) خذ يا شيخ السوء هذه الخشبة ، لعل فيها العوض عما أفاتك الصيامُ من القطائف .

(ويخرج اللص)

ابن حـــيـــون : (لنفسه) شلت يد اللص ؛ لقد قذف السرج بقوة حتى كسره ، ولو أصابنى به لتركنى جثة بلا روح ، يا الله ! ترى أىُّ شىء فى فروج هذا السرج .

(يدنو منه ويمسك به ثم يتأمله ويدس فيه يده)

رب ما هذا الحصى ! أى مجنون يملأ سرجه بهذه الأحجار !

(ثم يستخرج عدداً من الأحجار البارقة ويقبلها بين يديه مذهولا قائلا ..) لآلئ ! يواقيت ! أبا القاسم قم فانظر ، إن الذى حشا رأسك بالعلم والفقة ، قد حشا رُدنى باللآلئ واليواقيت . (ثم لنفسه) يا ابن حيون أين يُذهبُ بك ! هذا كنز ملك عظيم من أقيال الروم ، جدَّ به الحرص وخاف امتدادَ الفتنة إلى كنزه فاختار له هذا السرج البالى وفى نفسه أن يصونه أو يموتَ دونه ، فأخلف الدهر ظنونه .

ابن حـــيـــون : (يجمع اللآلئ بين الدهشة والاضطراب) :

(وينظر إلى اللآلئ ويقول) لآلئ ! يواقيت ! ماس ! زمرد ! رباه هذا عجل الذهب ، هذا هو معبود الناس بعدك ! هذا هو المال

(ستار)

الفصل الثالث

«بستان أمام دار أبى الحسن . إلى يمينه باب الدار ومن ورائه شاطئ الوادى الكبير - أبو الحسن جالس فى هذه الساحة وبين يديه تابع له هو «سعيد» وجماعة بالقرب منه من السماسرة يتهامسون» .

أبو الحسن : ما هذا ؟ ما أرى ؟ إنى لا أعرف هذه الوجوه ، فمن الرجال يا سعيد وما يبتغون ؟

سعيد : هذه الوجوه تحومُ على الدار منذ حين يا مولاى ، وتسأل عن أجزائها وتستفهمُ عن مشتملاتها ، وتتحدث عن المكتبةِ خاصة وما عسى تضم من نفائس الأسفار .

أبو الحسن : (رافعًا وجهه إلى السماء) لطفك اللهم ! لقد لهج الناس بالنكبة واشتغلوا بالمنكوب ، وما أولع الناس بالناس ! (ثم إلى الرجال) أيها الرجال تعالوا ، فإن كنتم ضيوفًا فيا مرحبا بكم ، وإن كانتْ لكم حاجات تريدون قضاءها فهاتوا اذكروا .

أحدهم : إيذن لى يا سيدى التاجر أن أصارحك القول ، فليس مركزك بسر ، والدارُ معروضة لا محالة فلنبعها اليوم ، فقد تغبن جدًا فى الغد .

أبو الحسن : أتشفق على الدار أن يكسد سوقها فى غد ؟ أم تشفق على نفسك أن يكون السمسار غيرك ؟ .. بكم قومتم الدارَ أيها الوسيط المجتهد ؟ وأى ثمن تعطون ؟

أحـــــــدهـم : عندى المشترى لها بخمسين ألف دينار يا سيدى التاجر ، تحمل إليك فى الصباح إن قبلت .

أبـو الحـــــسـن : (إلى الثانى) وأنت فماذا عندك ؟

الـثـــــانـى : (من السماسرة) عندى الراغب الذى يزيد خمسة آلاف دينار .

أبـو الحـــــسـن : (مشيرًا إلى الثالث) وهذا الثالث ماذا عنده ؟

الـثـــــالـث : عندى أيها السيد صديقًا لك لا أسميه ، يريد أن يشترى مكتبتكَ بالثمن الربيح ، فهل أنت بائع ؟

أبـو الحـــــسـن : (فى غضب) والمكتبة أيضًا أخذوا يتحدثون فى شرائها ! ووسادتى وفرش نومى أما لهما عندك من طالب أيها الرجل ؟ اغرُب عنى ! اغرُب وخذ صاحبيك معك وانطلقوا ، إن النكبة لم تبلغ بعد تمامها ولم تبلغ إلى اليأس .

(يقترب شيخ غريب الثياب ملتفتًا إلى الرجال الثلاثة قائلا)

المغـــربى الشـــيخ : تلك والله وقاحة !

أحـد السـمـاسـرة : حجلت فيها يا وجه النحس !

(ينصرف السماسرة)

أبـو الحـــــسـن : (يناجى نفسه) ظهر فيكِ السمسارُ يا دار ! اللهم أنت أعطيت وأنت أخذت وأنت تعلم أنى لستُ التاجرَ اللص ولا المحتال ، فالطف بى فيما قضيتَ ، وأعن ولدى حسون على ما يواجه من فرار النعمة وانتقال الأيام (ثم يشعر براحة ويقبل على الشيخ المغربى قائلا) وأنت يا شيخ البربر ما وراءك ؟

المـغـــــــربـى : أنا زائر يا سيدى التاجر . وربما كلمتك فى شأن يكون فيه

ارتياحك ورضاك .

أبو الحسن : مرحبًا بالزائر . تعالَ يا سيدى نتحدث على هذا الفضاء الطلق ، وفى ظل هذا الروض الكريم .

(يسيران قليلا ثم يجلسان)

المغربى : أنا يا سيدى التاجر رجل من أغنياء المغرب ، حبب الله إلىَّ السياحة فى أرضه ، أجوب مذ كنت البر وأرفع شراع البحر ، إلى أن دفعتنى الأسفارُ منذ أيام إلى مدينتكم هذه أشبيلية الغناء ، وكنت فى مواضعها وخرجتُ ملأت نفسى وشغلت خاطرى ، فاعتزمت أن أجعلها قرارى وملقى عصاى فى رحلة الأيام .

أبو الحسن : ما أسعد أشبيلية يا سيدى بابنها الجديد البار .

المغربى : مهلا يا سيدى وخذ الحديث إلى آخره ، لم يبق فى نفسى من هوى الأسفار إلا جولة أجولها فيما وراء هذا الأندلس من ممالك للفرنجة وديار ، فإذا كتب الله لى السلامة أتيت هذه المدينة فاتخذتها وطنًا وديارًا .

التاجر أبو الحسن : مشيعًا بالسلامة والكرامة .

المغربى : ولكنى مزمع سفرًا ، وما يدرى المسافر ما وراء الغربة من الفجاءات ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت ، ومعى يا سيدى من كريم الجوهر ونادره ما أخشى عليه السرقة أو الضياع ، وأنا منقطعُ الوارث لا أهل ينتظروننى ولا ولد ، ولقد مررتُ بدارك هذه مرارًا فكنت كلما زدتها تأملا زادتنى بهجة وروعة ،

حتى حدثتنى النفسُ بشرائها .

أبو الحسن : (فى غضب) أأنت أيضًا يا سيدى أتيتَ تساومُنى فى الدار .

المغربى : دعنى أستتمُّ يا أبا الحسن فإنى جاد ! ما أنا بالمساوم ولا بالرجل الذى يلتمس الفوائدَ لنفسه من مصائب الناس ، ولكننى جئت أخطب إليك الدارَ وأجعلُ مهرها ما أقدّر أنا لا ما تقدّر أنت ولا الناس .

أبو الحسن : ماذا تريد يا سيدى ؟ بينّ ! صرّح ! إنى لا أفهم ما تقول :

الشيخ المغربى : (ويخرج عقد لؤلؤ من كمه) هذا عقد من كبير اللؤلؤ وخالصه قيمته زهاء المائة ألف دينار ، فخذه يا سيدى ثمنًا لدارك وابق فيها واحرسها لى حراسة القيّم الرفيق ، فإن لقيتك سالمًا بعد ثلاثة شهور تمضى من يومنا هذا نزلت فى دارى ، إن مضت هذه المدة ولم أعد ، بقيت عليك الدار مباركًا فيها ولولدك .

أبو الحسن : ولكن يا سيدى هذا الثمن كثير جدًا لدار يشتغل بها الآن السمسار والدلال .

المغربى : بربك أيها السيد لا تعرض عن خير ساقه الله إليك ، ولا تقف لأهل المروآت فى سبيلهم ، لا تستنكر على رجل قدْ زاد ماله حتى ما يدرى ما يصنع به ، أن يعين بفضله منه كريمًا مثلك طالما آسى الجرُوح وأقال عثرات الكرام ، فأجز الصفقة يا سيدى أجزْها .

أبو الحسن : (ينظر إلى العقد قائلا) أمائة ألف دينار !

المغربى : أجل يا سيدى فى أقل تقدير .

(أبو الحسن يأخذ العقد ويتأمله ويقلبه ، وفى هذه اللحظة يرسو شراع فتنزل منه بثينة متنكرة فى ثياب شاب ومعها جوهر ولؤلؤ) .

أبو الحسن : ماذا أرى ! ما هذا الشراع ؟ مَن الفتية يا ترى ! إيذن لى أيها الزائر الكريم ، وانتظرنى فإنى عائد إليك من فورى .

(يتجه أبو الحسن نحو القادمين من الشراع . المغربى يزيل تنكره فإذا هو بابن حيون . حسون يلمح ابن حيون من داخل الكشك فيناديه من وراء مجلسه) .

حسون : تعال يا ابن حيون ألاعبك الشطرنج .

ابن حيون : لبيك يا سيدى حسون .

(ويدخل ابن حيون إلى حسون . عند اقتراب أبى الحسن من القادمين يسارع إليه ابن غصين ولؤلؤ وجوهر) .

ابن غصين : (بثينة) السلام عليكم يا عم .

أبو الحسن : وعليكم السلام يا بنى .

ابن غصين : لمن يا عمُّ هذا القصر المنيف وهذه الربوة الغناء ؟

أبو الحسن : هذا الكوخ يا بنى لخادمكم أبى الحسن التاجر .

ابن غصين : تسمى غرفة الفردوس كوخًا ! هذا منتهى التواضع يا سيدى التاجر .

أبو الحسن : ومن السيد ؟

ابن غصين : ولدك ابن غصين . من أبناء أعيان قرطبة ، وهذان جوهر ولؤلؤ صاحباى ورفيقا سفرى .

أبو الحسن : مرحبًا بشباب قرطبة النابه . إنى أرى الدار قد أعجبتكم يا بنى ، وإنه ليسرُّنى ويشرف قدرى أن تدخلوا فتقضوا ساعة مع ولدى حسون . فإنى أرى عليكم الفضل والأدَبَ والمجادة ، وحسون لا يصاحب ولا يجالس إلا أهل الفضل والنُّبل ، فتفضلوا أيها الأدباء وشرِّفُوا أخاكم بزورة ، وأنتم واجدون عند حسون كل ما يشتْهى النشء المثقف ، ففى خزانته ما قدم وما حدث من آلات الطرب حتى عود زرياب .

جوهر : (يصيح) عود زرياب !

أبو الحسن : أجل يا بنى ، ذلك العود الذى على أوتاره كان عواد الأندلس يسمع الخلفاء ما توحى إليه الجن من روائع الألحان ، وتجدون كذلك عند حسون مكتبة لم يجمع مثلها فى البلاد ، قدْ حوت الذخائر فى كل علم وفن .

ابن غصين : وكيف ولع فتاك يا سيدى بعلم الفلك ؟

أبو الحسن : أشد الولع يا بنى ، وقد جمع الكثير من نفائس المخطوطات فيه ، وفى أولها رسائل المنجم الضبى .

ابن غصين : المنجم الضبى ؟

أبو الحسن : أجل يا بنى ، أذكر أنه من شهرين أو أكثر أو أقل ، وقد انتهت إلى حسون رسالة مما وضع الضبى فدخله من ذلك فرح يشبه الجنون .

ابن غصين : (لنفسه) رسالة للضبى من شهرين أو أكثر أو أقل ؟ بشراك يا قلب إنه هو ، وبشراك يا عين ستكتحلين به الساعة (ثم إلى

أبى الحسن) لقد شقتنا إلى ولدك الفاضل أيها السيد ، فأين من يستأذن لنا عليه ؟

أبو الحسن : يا مرحبا ! يا مرحبا ! ما أعظم حظ حسون . اتبعونى يا سادة ، اتبعونى ، فإنى دليلكم إلى ناديه ، وإنى أرجو أن سيعجبكم ، إن حسون شاب قد ألقى الله عليه محبة الناس .

(أبو الحسن مع ابن غصين ورفاقه يقفون أمام كشك حسون . ابن غصين يلحظ لعبة الشطرنج) .

أبو الحسن : (لابن غصين) هو ذا حسون يا سيدى يلعب الشطرنج مع صديق لنا قديم كريم ، لا تخلو منه الدار ساعة ..

(أبو الحسن ينادى ابنه)

أبو الحسن : حسون يا ولدى .

حسون : لبيك .

أبو الحسن : هذا ابن غصين من نبلاء فتيان قرطبة ومعه صاحباه ورفيقا سفره ، يريدون أن يجتمعوا بك ساعة .

حسون : يا مرحبًا ! يا مرحبا ! أهلا وسهلا بالسادة .

أبو الحسن : لقد جمعتك بضيفانك الكرام يا حسون ، والآن أترككم فى حراسة الله لأعود إلى زائرى المغربى فإنه بانتظارى ، وأخاف أن يأخذه القلق .

(أبو الحسن يرجع يفتش على المغربى فلا يجده) .

أبو الحسن : يا لله ! أين الشيخ ؟ أين ذهب (مناديًا) سعيد .

الخادم : لبيك يا مولاى .

أبـو الحـــــــسـن : ما صنع الله بالشيخ المغربى الذى كان ههنا منذ لحظة ؟

ســـــعـــيـــــد : لا أدرى أين ذهب يا مولاى .

أبـو الحـــــــسـن : (ينظر فى يده وكان قد نسى فيها عقد اللؤلؤ) .
(لنفسه) ويحى ماذا أرى ! هذا عقد اللؤلؤ فى يدى نسيته فيها . يا خجلا ! ماذا يقول الرجل عنى ؟

ابـن حـــيـــــون : (من داخل الكشك) سيدى أبا الحسن ، لقد لمحت زائرك المغربى خارجًا من الدار يُهرول فعبثًا تبحثُ عنه .
(حسون مع ابن غصين ورفاقه وابن حيون) .

ابـن غـــــــصـين : (لنفسه) إلهى ، صدقنى القلب ما حدّث ، وقلما تكذب القلوب ، هذا هو شاب قرطبة الذى لم يخل منه القلب دقة (ثم إلى حسون) الآن صدقتنى الذاكرة ، فنحن يا سيدى قد تعارفنا قبل اليوم .

حـــــســـــــون : وأين كان ذلك ؟ وكيف نلت هذا الشرف ؟

ابـن غـــــــصـين : فى سوق الكتب بقرطبة من نحو شهرين أو أقل أو أكثر .

حـــــســـــــون : لله ما أعظم حظى ! أنت والله يا سيدى ذلك الفتى الملثم الذى نازعته رسالة الضبى ونازعتها حتى غلبته عليها . نعم أنت هو ، وهذا صوته ، وهذه شمائله ، فكيف اهتديت إلى كوخى أيها السيد العزيز ! يا مرحبا ! يا مرحبا ! جعلها الله بيننا صداقة الدهر .

ابـن غـــــــصـين : ولكن أنت يا سيدى تلاعب صاحبك الشطرنج ، وأخشى أن أقطع عليكما لذة اللعب .

حـــــســـــــون : لا يا سـيـدى ، هذه لذة نجـدهـا فى كل وقت ، وأمـا لقـاؤكم والأنس بكم فلذةُ الدهر وخلسة الأيام ، تفضلوا يا سادة .

ابـن غـــــــصـين : (لجوهر همساً) اجتهد يا جوهر أن تلاعب هذا الشيخ وشغله ، حتى يخلو لى وجه حسون .

ابـن غـــــــصـين : (إلى لؤلؤ) وأنت يا لؤلؤ إذا أخـــذا فى اللعب ، فـــقم عند رأسيهما ولا تدعهما تى أهم بالانصراف .

جـــــــــوهـــر : (إلى ابن حيون) أتأذن يا سيدى أن أحل محل السيد حسون فى ملاعبتك ؟

ابـن حـــــيـــــون : تفضل يا سيدى خذ مكان حسون وأرحنى من قدرته العجيبة على الظفر بالملاعبين ، ومن حظه الذى هو أعجب من قدرته .

ابـن حـــــيـــــون : (إلى لؤلؤ) وأنت يا سيدى أتحب أن تكون من النظارة ؟

لـــــــؤلـــــــؤ : يا حبذا لو أذنت يا سيدى .

(يتأبط ابن غصين ذراع حسون ويبتعدان ناحية) .

ابـن غـــــــصـين : أحق أننا التقينا يا حسون ؟

حـــــســـــــون : أجل ! وكنا نظن ألا نلتقى .

ابـن غـــــــصـين : عناية ولطف وتوفيق أقدار لأقدار .

حـــــســـــــون : وقديماً جمع الله الشتيتين ، وطوى الأرض للبعيدين .

(يجلسان)

ابـن غـــــــصـين : أتذكر يا حسون قرطبة وسوق الكتب ؟

حـــــســـــــون : أجل ، وأذكر رسالة الضبى وكيف كنا نتنافس فيها ، وكيف غلبتك عليها .

ابن غـــــصين : (مبتسماً) وأين هى الآن يا أخى ؟

حـــسـون : هى ها هنا يا بن غصين بالقرب منك وفى متناول يدك ، إن شئت انتقلنا إلى المكتبة فأخذتها .

ابن غـــــصين : لا يا أخى بل دعها فى موضعها من خزانتك ، فإنها عندك فى الحفظ والصون وكأنها عندى . ويكفينى نظرة ألقيها على الرسالة من حين لحين ، كلما جئتُ دارك زائرة ؟

حـــسـون : (فى دهش) زائرة ؟

ابن غـــــصين : (لنفسه) ويح لسانى قد عثر ، وكشف السرَّ القدر ! .

حـــسـون : (مبتسما) كيف تأنثت أخى أما أنت الفتى الذكر ؟ أما كفاك هذا الصوت الساحر الرنة اللذيذة النبرة ، حتى جمعتَ إليه أنوثة اللفظ ولين الكلام ؟

ابن غـــــصين : (فى تلجلج وغضب) عثرة لسان يا شاب ، فمر عليها مرّ الكرام .

حـــسـون : وما أثارك يا أخى وليس فيما قلت ما يغضب ؟

ابن غـــــصين : لنطو هذا الحديث ولنرجع لما كنا فيه .. أما يسرك يا حسون أن أخلق لزيارتك العلل والأسباب ، أن أجعل رسالة الضبى سلماً إلى دارك كلما اشتقت إليك !

حـــسـون : كلَّ السرور يا ابن غصين ، أنا واحد أبى لم أعرف عاطفة الأخوَّة ، ولم أجد لها حناناً ولا رقة ، ويخيَّل إلىَّ منذ عرفتك أن قلبى يفيض منها وأن وجدانى بها مترع ، فهل ترضانى أخاً لك شقيقاً ، براً بك شفيقاً ؟

ابن غـــــصين : (ويتنهد) يا مرحبا ، وإن كنت حللت من قلبى محل أخى الظافر منك ؟

حـــسـون : ويح أذنى ما أسمع ! وما أنت من الظافر يا ابن غصين ! وما الظافر منك ؟

ابن غـــــصين : (ويتلجلج فى الجواب) عثرة أخرى ، ويح لسانى اختلَّ عصبه واختلط عضله ، اغفر لى هذه أيضًا وانسها يا حسون .

(وكان ابن غصين ينظر إلى رباط حسون ، فوثب فى الحديث وقال) :

ابن غـــــصين : وقى الله ذراعك بيمينه يا أخى ، ما هذا المنديل ؟ ما وراءه ؟

حـــسـون : جرح اندمل أكثره وبقى أثره .

ابن غـــــصين : بعد عنك الشرُّ يا أخى ، من جرحك ؟

حـــسـون : هذا واحد من جراح لم يكن يرجى أن أقوم منها ، لو لم تلق عليها العناية يدَها الآسية الشافية .

ابن غـــــصين : بالله إلا حدثنى حديثك . أطلع عليك اللصوص يا أخى فى مكان خال من الناس فأبليت فيهم وأبلوا فيك ؟

أفاجأتكَ عصابة الباز بن الأشهب فجر حتَ رجالها وجرحوك ؟

حـــسـون : لا يا سيدى ، إن القتال الذى شهدت أعظم شأنًا وأنبل أقرانًا مما ذهبت إليه ظنونك .

ابن غـــــصين : وما خبره ، وأين كان وكيف ؟

حـــسـون : كان ذلك فى قرطبة .

ابن غـــــصين : قبل تلاقينا فى سوق الكتب أو بعده ؟

حـــــســـــــون : بل بعد ذلك بأسابيع ، وكنت نزيلا على بعض خانات المدينة ، فكان من عجائب القدر أنِّى اكتشفت مؤامرة تدبَّر فى الخان لاغتيال الأمير الظافر وإزالة إمارته عن قرطبة ، وكان شيطان الفتنة ورأس أفعاها هو الأمير حريز بطل الأندلس المشهور ؛ فما اطلعت على سر المؤامرة وخطط أصحابها حتى ثار ثائرى وغضبتُ لوطنى ولقومى ، فانسللتُ من الخان ليلا ، وركبتُ جواداً كان معداً ليركبه بوق الثورة والفتنة ، فعدوتُ حتى أتيت قصر السوسان فنهبت الأمير وحاشيته وحرسه ، ولم أكن إلى تلك الساعة رأيتُ الظافر وجهًا لوجه ولا حضرت له مجلسًا ، وتأهبَ الجميع للقتال ، وما لبث الثوار أن طلعوا علينا آتين منْ نواحى المدينة يقودهم بطل الأندلس حريز ، فتلقيناهم بصدور قد رحبتْ بالموت ، ونفوس قد هشت إليه ، وذكرنا إذ ذاك الوطنَ وحقه ، وأشبيلية ومكانها فى الأعناق ، فَحملنا حملة تحيد عنها الجبال ، وكان الظافر طيب الله ثراه ..

ابـن غـــــــصـين : (منزعجًا) حدثنى يا سيدى عن الظافر ، قل لى كيف قاتل ، وكيف قتله الغادرون ؟

حـــــســـــــون : تسألنى عن الظافر كيف قاتل ؟ سل حريزًا عنه فهو ينبئك أنه الأسد .

ابـن غـــــــصـين : وأين كنت من الأمير فى ساعة اليأس يا سيدى ؟

حـــــســـــــون : كنتُ حوله أحمى ظهره ويشد سيفى سيفه ، إلى أن ناءت به جراحاته فسقط عن جواده ، وكنتُ أنا أيضًا قد أثخنتُ

بالجروح ، فسقطت إلى جنبه ، حتى إذا أفقت من غشيتى نظرت حولى فرأيت عند رأس الظافر هذا الصديق الذى تراه يلاعبك الشطرنج الآن .

ابن غصين : وما اسمه يا سيدى ؟

حسون : ابن حيون وهو من رجال العلم والأدب .

ابن غصين : وماذا كان من اهتمامه بالقتيل ؟

حسون : طبعَ على جبينه قبلة وبكاه ورحم ، ثم ألقى عليه رداءه .

(ابن غصين يدخل فى الإغماء)

حسون : ما هذا ؟ ماذا أرى ؟ ما أصابك يا أخى ؟ ما لعينيك تغمضان ! وما بال رأسك يميل ؟ ويحى ماذا جنيت على الشاب ؟ قد كان عن حديث الظافر لى غنى ؛ رب أصاح أنا أم حالم ؟

(وعندما يميل ابن غصين في الإغماءة تقع القلنسوة)

حسون : هذه ضفائر فتاة قد هوت عنها القلنسوة فانسدلت كجنح الليل على جبين كغرة الصباح . أيها الملك الكريم ، لقد عبثت بى إذ كنت تتنكّر وتترجل فاعبث اليوم بقلبى ما بدا لك فقد دبَّ لك الهوى فيه ، إن شئتَ فتنكر ، وإن شئت فاظهر ، فلأكتمن حديثك ولأقدسنَّ سر هواك أن يذاع ، ويلاه إن الإغماءة قد طالت . ابن حيون .. ابن حيون .

ابن حيون : لبيك يا سيدى .

حسون : أنا فى حاجة إليك .. تعال وحدك أسرع .

(يحضر ابن حيون)

حـــــســـــــون : ابن حيون انظر ماذا ترى . لقد أغمى على ابن غصين فإذا الظبى مهاة ، وإذا البدر يا ابن حيون شمس .

ابن حـــــيـــــون : (بعد تأمل عميق) يالغرائب القدر ، هذا الوجه عرفته وعشقته قبل عشرين عامًا من هذه الأيام ، وقد لقيت بعشقه الدواهى .

حـــــســـــــون : (مندهشًا) قبل عشرين عامًا من هذه الأيام ! هازل أنت يا عم ؟

ابن حـــــيـــــون : بل جـاد كل الجـد يا ابن أخى . اسـمع حسـون . هذه بنت الرميكية ، هذه أخت الظافر ، هذه بنت ابن عباد .

(ستار)

الفصل الرابع

«بإحدى مقاصير قصر الزاهى . العبادية والدة الملك ابن عباد مع بثينة» .

العبادية : لقد علمت يا بثينة ما كان من زيارتك لدار التاجر أبى الحسن وجلوسك ساعة مع ولده حسون ، وأنك كنت فى زى الغلام وكان معك لؤلؤ وجوهر .

بثينة : ومن خبرَك الخبر يا جدَّة ؟

العبادية : عينٌ من الحب و كلتها بك ترعى خُطاك وتحرسُ حركاتك وسكناتك ، وإن كنتُ عظيمةَ الثقة بنفسك الأبية العالية ، وخُلقك الفاضل الشريف .

بثينة : أنت إذن يا جدَّة كالمنصور بن أبى عامر ، لك فى كل ناد عين ، وفى كل سامر أذن .

العبادية : لا بل أنا عجوز يا بثينة ، والعجائزُ يتلمسنَ الأخبار ، وأنا أرملُ ملك وأم ملك يتجسس لى من لم أندبْه للتجسس ، ويجيئنى بالأخبار من لم أزود . ومهما يكن من الأمر يا بثينة فلا تنسى أننا ما أرخينا لك الحبلَ إلا ونحن نعلم أنها الفرس النجيبةُ ، التى إذا أرخى لها الرسنُ لم يخشَ لها جماح ولا شُرود .

بثينة : جعلنى الله عند ظنكم يا جدة . وببغاؤك نادر يا جدة ، أنسيته ؟

العبادية : كيف أنساه يا بثينة ، وقد كان لدىّ كريمًا وكان سيد الطير ،

وكان .خفها ظلا وأبينها حكاية ونقلا .

بثينة : أتذكرين يا جدة كيف أشفقت عليه فلم ترضَى أن يُنزعَ من ريش جناحيه ، كما يصنع الناس بالطير الكريم فيأمنون طيرانه وفراره ، وإنما اكتفيت بوضع حلقة صغيرة من الذهب فى رجله اليمنى تمنعه من النهوض وتقيده ، وإن كان فى الظاهر حرًا يتنقل فى نواحى القصر .

العبادية : (مندهشة) وماذا أخطر ببغائى نادر على بالك يا بثينة ، وماذا تريدين بذكر الحلقة ؟

بثينة : أريد أن أقول لك يا جدة ، إن حالى كحال المرحوم نادر . قيدتمونى بجوهر ولؤلؤ ومقلاص وبالعيون والأرصاد ، ثم زعمتم أنى حرة طليقة أفعل ما أشاء .

العبادية : (مبتسمة) ولكن لا أظن حلقة الذهب تثقل رجلك يا بثينة ، فإنى أرى خدم أبيك الملك لا يقصرون فى صحبتك عن خدمة ولا طاعة . على أن كل هذا لا يهمنى ، إنما يهمنى أن أعلم رأيك فى الشاب وكيف وجدته . وهل هو على جانب من الفضل والعقل يتميز به عن اللدات ويسمو به على الأتراب ؟

بثينة : أما هذا يا جدة فنعم ، حسون فتى جم العلم غزيرُ الأدب عظيم الحظ من الفنون جميعًا ، إلى ما وهب له الله من الشجاعة التى لا يضارعه فيها اليوم إلا أبى الملك ، وإلا شابٌّ كان زين الشباب طاح بالأمس شهيد الكرامة والواجب .

العبادية : أو أبدًا تذكرين الظافر يا بثينة ، دعيه يا ابنتى فى أعراس

نعيمة بين شباب الجنة ، خبريني هل فى شبان أمراء الديار اليوم من هو الكفء لأميرة الأندلس وعروسه ؟

بثينة : (فى حياء) هبى الكفء موجوداً حاضراً يا جدة أهذا وقتُ الفكر فى زواجى والاهتمام به ، وأنت ترين الحوادث يجد جدّها والأمور تسوء مسايرها ؟ مسكينٌ أبى الملك أصبح لا يدرى من أين يتلقى البلاء . المغاربة وسلطانهم ابن تاشفين يطلعون من البحر ، والإسبان وعاهلهم ألفونس يزحفون من البر ، والملك بينهما كالصيد المطارد من جانبيه إن تلفت عن يمينه قتل ، وإن تلفت عن شماله أكل ، والأندلس فى هذه الأثناء كالأسد الواقع فى الحفرة إن سكن لم ينفعه ، وإن تحرك لم يرفعه . وحدة ممزقة ، وكلمة متفرقة ، وآمال بالعدوّ معلقة .

العبادية : إن بنات الملوك إذا بلغن إلى مثل سنك يا بثينة ، كان الزواج أزكى بسترهن وأليق بجلالهن ، وأما ما ذكرت من إظلام الجو وجهامة الحوادث ، فتلك حال اختلفت علينا بها السنون حتى ألفناها ، وقد تصير إلى الأردأ الأسوأ . وقد يبعث الله برياح اللطف فتعصم السفينة من الصخرة وتقيها كارثة الاصطدام . بثينة ! بنيتى أنا الجدة ولدتك مرتين . استريحى إلىّ بسرك ، وبوحى إلىّ بمكنونه فلن تجدى أرحبَ بسرك ولا أرحم لك من هذا الصدر . خبرينى يا بثينة أتعرفين بين أبناء سروات أشبيلية اليوم فتى يتوسم فيه الخير ويرجى فى أمره الصلاح ،

ويقول الناس عنه : فلان كفء لبنات الملوك ؟ بثينة ، لقد مررت باسم حسون مراً ولم تصفيه لى . فما شكله ... وما أوصافه ؟

بثينة : هو يا جدَّةُ فى أواخر العقد الثالث من عمره ، ورشيقُ القامة فى طول ، أسمر اللون فاحمُ الشعر جعدُه ، ساحرُ النظرة ، إذا تبسم جذب ، وإذا تكلم خلب .

العبادية : (تبتسم) هو إذن فتى جميل يا بثينة ؟

بثينة : جداً وخفيف الظل فوق ذلك .

العبادية : (بعد إطراق) ولكن ..

(فأجفلت الفتاة ولاحظت الجدة ذلك)

العبادية : لا تغضبى يا بثينة ، فليس وراء «ولكن» شىء أقوله يحط من شأن حسون وينزل به من مرتبة الفتيان الأمجاد ، بل كل ما هناك أن الناس يتحدثون اليوم فى همسهم عن نكبة نزلت بالتاجر أبى الحسن ، فذهبت بمعظم ماله .

بثينة : وما يعيبه من هذا يا جدة ! أليس أبو الحسن تاجراً والتجارة جزر ومد ، وحرمان وجد ، ونحس وسعد ، فكم من تاجر بمنزلة أبى الحسن قد نكب فذهب عنه كل شىء إلا الخُلُق ، ثم لم تمض مدة من الشهور أو الأعوام حتى سمع الناس وتحدثوا أن التاجر فلاناً المنكوب تغلب بالخُلُق على نكبته ، فعاد دولابُ تجارته كأمس عظيم الحركة عميم البركة ، ومثل أبى الحسن فى خُلقه وأمانته وشرف اسمه فى الأسواق لا

يبعد أن يقوم من هذه السقطة ورجلاه فى عافية .

بثينة : (مصغية ثم قائلة) أسمعت يا جدة ؟

العبادية : أجل ! سمعت تنفساً .

بثينة : ترى من الطارق .

(يدخل عليهما الملك)

الملك : صفحاً يا أم وعذراً يا بثينة ، إذ كدرتُ عليكما الخلوة وقطعت عليكما الحديث ، فوالله ما دفعنى إليكما الساعة إلا همٌّ سار وشاغل جليل .

العبادية : لا بأس عليك يا بنى ، وعافاك الله أيها الملك . تفضل اجلس .

بثينة : خذ مكانك بيننا يا أبت واسترح إلينا من همومك ، فها هنا الرحمة قد بسطت جناحيها : ها هنا الأم والبنت .

(الملك يضع جبينه على كتف بثينة باكيًا)

بثينة : (باكية) هون عليك يا أبتِ ، وتجملْ أيها الملك فقبلك لم تبك الآساد ، ولا اشتكت الأطواد ، ولا ضاقَ البحر عن الأعاصير الشداد . تحدثْ إلينا يا أبت ولا تيأس من روح الله . وعليك بهذه الجدَّة الشفيقةِ والأم البرَّة فائتمنها على سرك .

الملك : الملك ألفونس منذ سقطت طليطلة وقضاها الله له ، أصبح لا يعرفُ لى منزلةً ولا يألونى تحقيراً وإهانة ، ويطلب المَال باستكلاب وشره ، والبلادَ باستطالة ولؤم ، ومن عجيب أمره من أخرى فيلومنى على الاستغاثة بيوسف بن تاشفين واستنجاد جنوده ، ويدّعى الطاغية أنه أوفى لى منه عهداً

وذمة ، وأصفى صداقة ومودة ، وأننى إن حالفت سلطان المغرب كانت محالفة الذئب للحمل ، وأن بربر المغرب إذا دخلوا الأندلس طغوا فى البلاد وهدموا بنيان الحضارة فيها ، ومن نكد الدنيا أن تصدُق فينا نبوءة هذا الناصح الغاش ، فقد طمع ضيفنا ابن تاشفين فى مُلكنا وسلطاننا ، وتطلعت نفسه إلى خيراتنا وأرزاقنا ، واستنصرناه على ألفونس فإذا نحن الآن نخشى منه بطش النصير ، وإذا أشبيلية قد تضمنت منى ومنه العجب ، النمر فى قصرك هناك وراء الضفة يجتمع به أعدائى وأعداء الأندلس من أبنائه الأندلسيين وصغار العقول من الفقهاء ومن يلتف عليهم ، وهؤلاء يحسنون له البقاء فى الأندلس واغتنام الفرصة لضمه إلى سلطته ، ويقيمون عنده الحجج على فساد ملوك الطوائف ويحملوننى الهدف الأول . وهنا فى هذا القصر أسد مقلم الأظفار مغلوبٌ على العرين وحيد من الأنصار والأعوان .

الحـــــــاجب : شيخ يدعى ابن حيون بالباب يا مولاى .

بثـــــــينة : أدخله يا أبى وبالغ فى إكرامه ، فقد سلف للرجل إحسانٌ إلينا لا ينبغى لنا أن ننساه أبد الدهر .

المـــــلـــــك : أدخله أيها الحاجب ..

(يخرج الحاجب من الباب)

خبرينى يا بثينة ما إحسان ابن حيون إلينا ؟

بثـــــــينة : لقد حدّثنى من لا شك فى صدق روايته ، أن هذا الرجل صلى

على أخى الظافر وبكاه وألقى عليه رداءه .

(يدخل ابن حيون فتسدل العبادية وبثينة كلتاهما على وجهها القناع) .

ابن حيون : السلام على الملك ورحمة الله .

الملك : وعليكم السلام أيها الوالى الشفيق الحميم .

ابن حيون : لو أذن لى الملك فى خلوة (وقد رأى السيدتين) .

الملك : لا تخش شيئًا يا ابن حيون ، فهذه العبادية أمى وهذه بثينة ، فحديثك لن يساق إلا إلىّ وسرّك لن يجاوز أذنىّ .

ابن حيون : أيها الملك نحن اليوم أخوف ما كنا على هذه الأوطان ، وفى مثل ما نحن فيه تجبُ على الأمةِ النصيحةُ للملك ، وقد انتهى إلى أذنىَّ من بعض الفقهاء والمختلفين إلى ضيفك هذا يوسفَ بن تاشفين ، أنه أصبح يرى نفسه أحقَّ بهذا الملك منكَ . وقد رأيتُ رأيًا فإن أذن الملك رفعتُه إليه .

الملك : وماذا رأيتَ أديبَ الأندلس ؟

ابن حيون : اعلم أيها الملك أن هذا الضيف الذى نصرتَه ونصرَك ، وحالفته وحالفك ، وقاتلت معه قتالا يبقى حديثَ الدهر وهو أهل لأن يغدركَ ، وفى غدرِك ضياعُ الأندلس جميعًا ووقوعه فى قبضته البربرية الغاشمة ، وقديما كان هذا سلوكه مع غير واحد من أمراء المغرب فنزعَ ملكهم وسلطانهم وشرَّدهم فى الصحارى والقفار ، فلا تفوتنك يا مولاى خُطة الحزم والعزم فى أمر هذا النمر ذى العمامة والمسبحة .

الملـــــــك : وماذا تنصح لى أن أصنع ؟

ابن حـــيـــون : ألا توطئ الأرْقم سريرك ، وأن تقطعَ السيف قبل أن يقطعك ، وأن تقبض من فورك على ضيفك هذا فتسجنه ولا تطلقه حتى يأمر جنوده بمغادرة الأندلس برّه وبحره ، ثم يحرُس أسطولك البحر من كل سفينة مغربية تجرى فيه ، فإذا تم لك ذلك أخذت على ابن تاشفين الأقسام ألا يعود إلى الأندلس بعدها أبداً . وخذ منه الرهائن فإن نفس الرجل أعزُّ عليه من ملك الأندلس والمغرب مجتمعين ، وله أعداءٌ ببلاده يخشى تحركهم وانتقاضهم ، ويخاف أن ينتهزوا الفرصة للاستيلاء على مُلكه .

العـــبـــادية : أيها المتكلم المحسن والناصح الصادق ، لم يخف علىّ مكان مشورتك ، ولكنها خطة أولها لؤمٌ وآخرها شؤم ، فإن الملك أكرمُ وأعظم من أن يغدر ضيفه أو يخونَ جاره أو أن يحفر الحفرة لمن أقال عثرته .

الملـــــــك : (لابن حيون وقد رآه يضطرب) لا ترع أيها الرجل الصادق ، فقد كنا حين نبئنا بوصولك نخوض فى هذا الحديث ، وكان رأيى كرأيك أما ابنتى بثينة فلم تكن أبدت رأيها بعد .

بـثـــــيـنـة : مولاى ، كلا الصوتين نبرةُ حق ، وصحة صدق ، إلا أننى أميل إلى الأخذ برأى الأديب ابن حيون .

الملـــــــك : بورك فيك يا عقيلة الأندلس ! مثل هذا السمو فى الرأى وهذا الحرص على حقيقة الملك لا يستغربان من بنات الملوك المنشآت بين أعباء الدولة ومهام السلطان .

عبادية : (معترضة) ونحنُ بناتِ الشعب ألا يقام لرأينا وزن يا مولاى ؟

الملك : (مبتسمًا) أنتنَّ تلدن الأجسام الصحيحة والقلوب الجريئة وتحسّن تدبير البيوت ، ولكن لا تصلحن لسياسة الممالك .

الملك : (لابن حيون) لو تيقنتُ يا ابن حيون أن جمهورَ شبان الأندلس يشاطرونك أنت وبثينة الرأى لما تأخرتُ ساعة عن العمل بما تشيران به على .

(يدخل مقلاص)

الملك : كيف قضيت ليلتك عند ضيفنا أمير المسلمين يوسف ابن تاشفين ؟

مقلاص : كانت ليلتى يا مولاى ، ونحن كما تعلم فى آذار فى إبان القمر ، طويلة مظلمة باردةَ ، لم أضحك فيها السلطان مرة ولكن بكيت مراراً ، ولم أجلب له السرور ولكن جلبت لنفسى الغم .

الملك : (متعجبًا) ما هذا الخبر يا مقلاص ؟

مقلاص : وجدتُ يا مولاى بحضرة أمير للمسلمين لا يفهم كلامَ العربِ ، وعند رأسه ترجمان من كتابه يفسر له كل ما نقوله يا معشر العرب فى مجلسه ، ويشرح لكل منا ما يشرِّفه به السلطان من الخطاب .

الملك : ثم ماذا ؟

مقلاص : رأيتُ يا مولاى ملوك الأندلس وقوفًا بباب السلطان متنافسين فى إذانه .

الملك : (ملتفتًا إلى زائره قائلا) أسمعت يا ابن حيون .. ؟ أعرفت ؟

ثم ماذا يا مقلاص ؟

مقلاص : ورأيتُ ثمَّ فقهاء الأندلس بعمائمهم المكبرة وجببهم الموسعة ، يتمسحون بالأعتاب .

الملك : أسمعتَ يا ابن حيون ! أعرفت ؟

ثم ماذا يا مقلاص ؟ قل لنا كيف وجدت السلطان ؟

مقلاص : بوق عليه طيلسان ، وبُومة فى يدها صولجان .

الملك : وماذا قال لك حين وقعت عينه عليك ؟

مقلاص : أدخلتُ إليه يا مولاى فحققنى من رأسى لقدمى ثم قال لى : أأنت الرجل الذى عمله إضحاك الملك ابن عباد وتلهية أسرته ؟

الملك : فما كان جوابك ؟

مقلاص : قلت له أجل أيها السلطان أنا نديمُ الملك وسميره .

الملك : فماذا قال لك ؟

مقلاص : قال لى إذن فأضحكنا نحن أيضًا .. عجل أضحكنا .

الملك : فماذا صنعت ؟

مقلاص : دخلنى خجلٌ شديد ، ووقفت ساعة أنظر فى ثيابى ، ولم يفتح علىّ بشىء يضحك منه ضيفك الكريم ، فهممت بأن أقبض على السلطان بكلتا يدىّ وأقذف به من النافذة .

الملك : وماذا منعك يا مقلاص ؟

مقلاص : سيفه المعروض على حجره ، والزبانية القائمون عند رأسه وبجانبه كأنهم العفاريت ، إلا أن السلطان لحظ حرج موقفى فأشار بإخراجى ، فحضرَ من رجاله من صرفنى فى وقاحة

وإذلال ، فخرجت وأنا لا أدرى فيم طلبنى الرجل ، وأحمد الله على أن لم يجعلنى فى خدمة سلطان مثله له وجه كوجه الأسد ، لا يعرفُ التبسم ولا البشاشة .

(مقلاص يريد أن ينقذ الملك من تأثره)

مقلاص : لقد وجدت ضالتى يا مولاى .

الملك : وما ضالتك التى وجدت ؟ وقد عدت تهذى يا مقلاص ؟

مقلاص : لا يا مولاى .. ألا تذكر أننى كنت من الإعجاب بجمال الأميرة بثينة وكمالها وسمو منزلتها بين عقائل الشرق والغرب ، بحيث لا أعتقد أن بين فتيان الدنيا من هو أهل لأن يخطيها إليك .

الملك : (مبتسمًا) والآن هل وجدته يا مقلاص .. ومن ترى يكون ؟

مقلاص : فتى جرىء جميل رأيته يوم الزلاقة يحمى ظهرك هو وحريز وابنُ لاطون ، فظل سحابة نهاره معلنًا بالسيف دونك حاميًا لخوذتك ، حتى لقى البطلان حريز وابن لاطون حتفيهما وحمل هو إلى داره مُثخنًا بالجراح .

الملك : ومن الفتى يا مقلاص ؟

مقلاص : هو يا مولاى أجملُ فتيان الأندلس وأشجعهم ، وهو الآن طريح الفراش ما يزال يشكو من جراحِه .

الملك : ومن يكون ؟ وما اسمه ؟

مقلاص : هو حسون ابن التاجر أبى الحسن .

ابن حيون : لقد صدقَ فتاك يا مولاى ، فإنى كنتُ عند حسون الليلة البارحة أعودُه وقد أفاق من جراحه وقص علىَّ حديث بلائه

يوم الزلاقة حين اشتدَّ القتال بينك وبين الإفرنج ، فأخبرنى أنه رأى يومئذ جوادك وقد ضعف وخار من شدة الجراح ، فقدم لك الصاعقة أمير الجياد ، ركبته وكان تحت الباز بن الأشهب لص الأندلس فخرّ عنه قتيلا .

الملـــــــــك : (مندهشًا) أوَكان الباز بن الأشهب بجانبى يقاتل معى أعداء البلاد !

ابن حـــيـــون : نعم يا مولاى ، ويقول حسون إنه أبلى يومئذ بلاءً عظيمًا .

الملـــــــــك : يا الله ! أيكون اللصوص أوفى للأندلس من أمرائه وفقهائه ، وأبذل للأرواح دون لوائه ... وأين حسون الآن ؟

ابن حـــيـــون : هو كما ذكرت يا مولاى ما يزال طريحَ الفراش ، ولكن لا خطر على حياته .

الملـــــــــك : الآن تذهب أنت ومقلاص فتنوبان عنى فى عيادته والسؤال عن أمره ، وإبلاغه تحيتى وشكرى وما أعدُّ له من جليل المكافأة .

بثـــــــينة : وأنا أيضًا أبلغ حسون تحيتى وشكرى يا سيدى ابن حيون ، وأرجو أن يعلم أن أخت الظافر لم تنسه ساعة ، وأنها قد جمعت له هذه الأزهار بيدها فاحملها إليه ، وقل له لو كنت الملك لبعثت له بالغار فى الأزهار ، وبالصولجان مع الريحان .

(وفى هذه الأثناء يدخل جوهر)

جـــــــوهـــر : مولاى لقد وقع ما كنا نحاذر وحل بأشبيلية البلاء .

المعـــتـــمـــد : البلاء ! تريد أن الصديقَ قد انقلب وأن الحليف قد عاد حربًا . هذا ما خفت أن يكون وقد كان .

(يدخل لؤلؤ)

لـــــــؤلـــــــؤ : أغث أيها الملك المدينة ، أدركها فقد خلفتها وجنود السلطان يندفعون فيها كالسيل بعدما اشتد ضغطهم على باب الفرج ، وأقاموا ساعة يدفعونه حتى ناءت به الكثرةُ فانفتح فنفذوا منه إلى كل مكان ، فاخرج يا مولاى فقاتل حتى تستنقذ الوطن أو تموت دونه ، وإلا فالنجاء النجاء .

المـــــلـــــك : (مغضباً) تدعونى يا شابُّ للفرار ! هيهاتَ هيهات . الأسد لا يهرب ولا يخاف الموت . (ملتفتا إلى جوهر) خبرنى يا جوهر أين كان فتيان أشبيلية وأين هم الآن !

جـــــــوهـــر : قبعَ الفتيان فى البيوت يا مولاى ، إلاَّ مائة أو ما دون المائة شهدوا معك يوم الزلاَّقة وتعلموا منك الكَّر والإقدام ، واليوم قد لبسوا السلاح وخرجوا يلاقون الموت وهم بانتظارك ليجعلوك اللواء الذى تسيل نفوسهم عليه .

المـــــلـــــك : يا بشراى ! مائةُ شاب وطنوا النفس على الموت ، أما والله لو صدقت يا جوهر لكان لى من مائة قلب مجتمعة مؤتلفةٍ متواصية بالحق وبالموت قوة أرمى بها فى العباب فيمحى ، وأقذفُ لوقتك فضعْ بيدك السرْجَ على الصاعقة والقنى به على الباب .

جوهر (بصوت عال) : أبشرى أشبيلية ، هذا الليث قد تحرك لنصرةِ العرين .

المـــــلـــــك : فى ذمة الله وفى حفظه يا بنات المعتمد .

بـثـــــــينـة : فى درع من وقاية يا أبى ، فإنى أراك أخذت سيفك ونسيت

درعك .

(المعتمد وهو منطلق والسيف مسلول في يده ولا درع عليه)

المـــــــــــــــــــــــــك :

إن يسلب القـــومُ العـــدا مُلكي وتسلمني الجمـــوح
فـــالقلبُ بين ضلوعـــه لم تسلم القلبَ الضلوع
قـــــد رمتُ يوم نزالهم ألا تحـــــــصنني الدروع
وبرزت ليسى سوى القميـ ـص على الحشا شيء دَفوع
مـا سـرتُ قط إلى القتـا ل وكـان من أملى الرجـوع
شـــــيمُ الآلى أنا منهم والأصل تتبعهُ الفروع

(ستار)

الفصل الخامس

المنظر الأول

«فى دار أبى الحسن فى غرفة حسون ، حسون راقد على سريره مريضًا وأبوه أبو الحسن داخل عليه» .

أبو الحسن : قم يا حسون انهض ، إن العناية بلغتك مناك ، وشفت بعودك للحياة أباك .

(ينتقض حسون من رقدته جالسًا)

أوشكُ يا بنى أن أهتدى لموضع بثينة . فهل تساعدُنى وهل تخف معى لعلنا نجد الكنز الضائعَ ، وتظفرُ بالأمنية المنشودة ؟

حسون : ماذا حدث يا أبى ؟ ماذا رأيتَ أو سمعتَ حتى امتلأت تفاؤلا واستبشارا ؟

أبو الحسن : أتذكر يا بنى خاتمَ الزُّمرد الذى كانت تطوف علينا به فى سوق الجوهر ، سيدة كهلة من وصائف القصر ، وهى تبحث عن توأم للفص وتلتمسه فلا تجده ؟

حسون : نعم يا أبى ! وأذكر أنها كانت تنسب الخاتم للأميرة بثينة ، وتصفُ رغبة الأميرة فى الحصول على فص يكون فى حجمه وصفاء لونه وسلامته من العيب ، ليكون لها من الجوهرتين قرط عزيز المثال .

أبو الحسن : فاعلم إذن يا بنىَّ أننى كنت منذ حين فى سوق الجوهر ، فما راعنى إلا رجل قوىٌّ من قواد المغاربة قد جعل يطوف على التجار يعرض عليهم حلية ، فأخذتها عينى فإذا هى خاتَم

الأميرة بفصه . فتريثتُ إلى أن كف المساومون وكان آخرها ثمن بذل فى الخاتم ثلاث مائة دينار ، وكان التجار يقولون للرجل لو جئتنا بصنو هذا الحجر لنقدناك فيها الألف أو زدنا . وهنا أومأت إلى الرجل أن يتبعنى فتبعنى ، فانتبذت به ناحية وقلت له : أنا آخذ الخاتم بالثلاث مئة وأزيدك عليها مئة ، إن أنت أصدقتنى الخبر عن مصدره وكيف وصل إليك ومن أى المعادن التقطته ؟ فانبسط الرجل وتهلل وقال : هذه الحلية يا سيدى لجارية من قصر ابن عباد وقعت لى سبية يوم هجومنا على أشبيلية ، فنقلتها إلى دارى فلم أجد عليها غير هذه الحلية ، وكانت فى يدها فأخذتها ، وأما الجارية فلم أجدها مغنما بل مغرمًا فإنها سقيمة مستسلمة للأحزان ، طعامها قليل ، ونومها غرار ، ودمعها لا يرقأ حزنًا على سادتها . ونحن لا نحب من النساء إلا القويات الصحيحات الأبدان ، ولا أكتمك يا سيدى أنى بأمر الجارية تعب وبودى لو تخلصت منها . فقلت له : خذ الآن الأربع مئة دينار مباركًا لك فيها . واعلم أننى طيب مولع بالمشاهدة والتجريب ، كثير الاعتناء بالمريض البائس ، فلو مضيت بى إلى بيتك لعلنى أنظر الجارية فأعرف علتها وأصف لها دواءها أو أخفف آلامها ، فقمنا فمضينا حتى انتهينا إلى داره ، وهناك أدخلنى على الجارية المريضة فدنوت منها وقلت لها : عوفيت يا جارية ولا خوف عليك إن شاء الله تعالى .

حـــــســـــــون : والنونة يا أبت ؟

أبـو الحـــــــسـن : رأيتها يا حسون فوجدتها فوق ما كنتَ تصفُ لى لطفًا وجمالا . والتفت إلى القائد البربرى فقلت له : أوَتعطينى هذه الصبية أيضًا وأنا أتمها لكَ خمس مائة ؟ فتهلل الرجل وارتاحَ وقال : خذها يا سيدى وأرحنى منها وداوها أنت فعساها تصحُّ على يديك ، فنقدته المائة الخامسة وحملتُ الصبية فوق ذراعى وخرجت بها فركبت جوادى وأركبتها خلفى وانطلقتُ حتى بلغت الدار .

حـــــســـــــون : (صائحا) وأين هى يا أبت ؟ أتراها هى بنونتها ؟ ربى اجعلها هى .. وأين تركتها يا أبى ؟ وفى أى موضع من الدار ؟

(يفتح باب غرفة مجاورة فإذا بثينة من وراء الباب ، فيندفع إليها حسون صائحا ..) .

حـــــســـــــون : بثينة ! حبيبتى ! أميرتى .

بـثـــــــيـنـة : حسون ! أخى ! صديقى !

أبـو الحـــــــسـن : (قاطعًا عليهما لذة اللقاء والحديث) الآن وقد جمعتكِ يا أميرة بصديقكِ وخادمك حسون ، أستأذن فى الخروج إلى بعض شأنى ساعة .

بـثـــــــيـنـة : لا يا عم بل ابق ، البث ، إن وجودَك معنا يزيد الموقف بهجة وطيبا .

أبـو الحـــــــسـن : إن أذنت يا أميرة فإن احتجابى عنكما لن يطول .

حـــــســـــــون : بل ابق معنا يا أبى .

أبو الحسن : سأعود يا بنى ، سأرجع (ويخرج أبو الحسن) .

حسون : (إلى بثينة) ماذا أقول يا أميرتى ؟ وكيف أقول فى هذه الساعة التى هى العمر ؟

بثينة : انظر حسون كيف جعل الله هذا اللقاء الذى لم يكن فى الحسبان ، عوضًا لما فاتنا من نعيم الحياة ومتاعها ، حتى كدت أنسى ذلك الملك المنزوع والسلطان الذاهب ، وأسلو القصور وضجتها والدولة وأعراسها .

حسون : وأنا أيضًا يا بثينة غفرت هفوات الدهر لهذه الساعة المحسنة الطيبة ، وإن لم أخل ولن أخلو ما عشت من تفجع الوطن العزيز ، وتوجع لرزئه الجليل .

بثينة : (متنهدة بعد انبساط) آه من الدهر ماذا صنع ! لطف الله بك يا أشبيلية فيما حل عليك من قضائه ، وجعل وطأة المغاربة خفيفة عليك وعلى جاراتك من حواضر الأندلس .

حسون : (مطرقًا متنهدًا) دهر ببنيه يا بثينة قلّب ، ودنيا ترتجل العجائب ، وملِك فى السماء يفعل بعباده على الأرض ما يشاء ، ولكن .. بثينة حبيبتى ، أميرتى ! أحقٌ أننا التقينا فى يقظة أم نحن خيالان فى رؤيا من الأحلام ؟ أتذكرين يا بثينة يوم السوق ؟ أتذكرين قرطبة ؟ أتذكرين رسالة الضبى ؟ لله ما كان أحلاك يومئذٍ وراء اللثام .

بثينة : وأنت يا حسون ، لله ما كان أجملك وأكملك ، وكأنك يومئذ ملك كنت تنتقل فى السوق فتخرج من مكتبة وتدخل غيرها ،

وتدع كتابًا وتأخذ كتابًا ، والكتب حلية الشباب النابه ، وجمال الفتوة النابغة .

حسـون : أتذكرين كل ذلك يا بثينة ؟ .

بثينة : أجل ! كل ما كان من حركاتك وسكناتك يومئذ ، ومن عباراتك وإشاراتك ما يزال مرتسما فى ذهنى لم تمحه الشهور ، ولا أحسب الموت يمحوه .

حسـون : (يمد يده إلى ذقنها ويقول) بحياتى نونة ، كالدرة المكنونة .

بثينة : (فى شىء من الغضب) نح يدك يا ابن أبى الحسن ، لا تمدها إلى ما لم تملك بعد .

حسـون : (فى انكسار واستحياء) اغفريها للحب والشوق يا أميرة . شلتْ يدى إن كنت أضمرت سوءًا أو هممت بريبة .

(يدخل أبو الحسن)

حسـون : أبى ! أبى ! لم تبطئ يا أبى .

أبو الحسن : كنت مشغولا يا بنى بتهيئة طعام الأميرة .

بثينة : جزاك الله خيرًا يا عم ومد لنا عمرك .

أبو الحسن : (يأخذ مجلسه ويقول) الحمد لله يا ولدى على هذا التلاقى الذى هو من توفيق الأقدار ، فاليوم جمعكما هذا البيت على أثر الكارثة وفى أعقاب النكبة ، كما يجمع الشاطئ الغريقين سالمين بالرمق ، من انكسار الفلك ومن ثورة الريح وطغيان الماء ، لقد تعارفتما بالأمس فنشأت بينكما الألفة وأنست الروح الروح ، وانعطف القلب على القلب ، وقديما يا أميرة

صاهرت الملوك الرعية ، وأبوك لطف الله به وبنا جميعًا فيما حل علينا من قضائه وقدره ، أسمح من سن هذه السنة ، فرفع على عرش أشبيلية امرأة من رعاياه الرميكية خيرة الملكات ، وأم العقائل من البنين والبنات .

بثينة : أراك يا عم قد بالغت فى مواساتى حتى أنكرت يد الدهر وما نالت منا ، وإلا فأين أبى منى اليوم ؟ وأين من أبى ملكه ؟ وهل نحن اليوم إلا سوقة نتنصف !

أبو الحسن : هوِّنى عليك يا أميرة ! إن أباك لم يخلعه قومه ولكن خلعه المغيرون ، فهو فى نفوسنا معشر الأشبيليين حاضر الجلالة ماثل المهابة مرتسمُ الكرامة ، يومه كأمسه وغده كيومه ، وإن اختلف به اليوم والغد وتصرفت به الأيام . وأنت أيتها الأميرة فما زلت بنت الملك المعتمد بن عباد ، فهل تنزلين إلى القبول بابنى هذا حسون زوجًا ؟

حسون : وخادمًا أمينًا .

بثينة : هذا كثير من المجاملة والمواساة يا عمُّ ، إن حسونًا كفء ويشهد الله أنى أحبه وأجلّه ، وكأنى بأبى فى غيابة سجنه ينظر إليه كما أنظره ، ويشعر نحوه بمثل ما أشعر ، ولكنى كما علمت ، مفجوعة بأب منكوب ، وملكٍ معزول ، أخذ فغلّ ، ثم سربل الذُّل ، وبأم ثكلى وإخوة قتلى ، وأخوات أميراتٍ يتعذبن من الخلع ، ويتكسبن من غزل أيديهن .

حسون : قد قلت حقًا يا أميرة ، وأنا لا أتخيل الجميع هناك إلا

مشغولين بك فوق منفاهم ، يفتشون عن مكانك بعين حيرّها الدمع ، ويد قصرها العجز ، وقدم أعجزها القيد .

بثينة : إذن فأنت ترى أنه ليس من الحق ولا من البر أن أوجد ولا يعلمون أنى وجدتُ ، وأن أتزوج ولا يعلمون كيف وبمن تزوجت ، وماذا يقولون إذا هم علموا أنى اتخذت من مأتمهم عرسًا ؟

ابن حيون : (يدخل ويقول بعد أن رأى بثينة ، مندهشًا) :

سيدتى بثينة هنا ؟ الأميرة بخير ؟ ما أعظم منّتك يا رب !

(ويحاول تقبيل يد الأميرة فتمنعها منه)

بثينة : لا تفعل يا عم . أهلا بك يا ابن حيون ، وما أعظم سرورى بلقائك .

أبو الحسن : انظر ابن حيون نعمة الله علينا بهذا الكنز الغالى الثمين .

حسون : انظر ابن حيون كيف رد الله علىّ راحتى وروحى ، وأعاد لى الحياة والآمال .

ابن حيون : الحمد لله الذى جعلك فى حفظه وفى ذمته ، والذى ردك إلينا سالمة يا سيدتى ؛ والذى هو قادر على أن يجمعك بأهلك كأمس على جاه الأمور ، وفى ظل شاهقة القصور .

بثينة : لقد رأينا يا عم كيف تنتقل الأمور ، وعرفنا كيف تبدل أهلها القصور ، وأصبحت لا أطمع من دهرى إلا بالعيش فى ظل الأمن والخمول ، وبين قلب يحنو ونفس تعطف .

ابن حيون : طيبى إذن يا سيدتى نفسًا ، إن الذى تشتهين قد اجتمع لك ، فالأمن والسكون لا تعدمينهما فى جناح من هذه الدار ،

أو فى جنة بعيدة عن الناس من جنات هذا الإقليم ، وإنى أشهد أن هذا الفتى يحبك ، وأنك ملء قلبه ملء نفسه ، فاقرنى يا سيدتى حياتك بحياته تجدى حقيقة السعادة فى ظل الحب المشترك الصحيح .

حسون : كان هذا حديثنا يا عم قبل حضورك ولكن لم نكن فرغنا منه بعد ، وقد رأت الأميرة برًا بوالديها وقضاء لحقهما أن يكون زواجنا بعين أبيها ومعه ، وبقبول أمها ورضاها وكل زوج رضيه الأبوان وارتاحا إليه سيقت فيه البركة وطافت به الرحمة .

ابن حيون : لقد رأيتم صوابًا واتفقتم على واجب كان لا بد من قضائه ، ولا أظن هذا المقترح لقى منك اعتراضا يا أبا الحسن .

أبو الحسن : معاذ الله يا ابن حيون ، ولكن ألا ترى معى أن حسون والأميرة محتاجان إلى الراحة واسترداد العافية ؟

ابن حيون : أما هذا فنعم ، ولم لا يقضى حسون والأميرة هذا الأسبوع فى هذه الدار ، حتى تثوب إليهما القوة والعافية .

حسون : (مقاطعًا) أتأذن لى يا أبى إن رأيت غير رأيك ورأى ابن حيون ؟

أبو الحسن : تكلم يا بنى فأنت حر .

ابن حيون : الكلام حر فى الأندلس يا حسون فتكلم .

حسون : أرى يا أبى أن نسافر من ليلتنا بل من ساعتنا إلى أغمات منفى الملك .

أبو الحسن : نسافر ؟ نسافر الساعة ؟ وأنت والأميرة على هذه الحال من

الضعف والسقام .

حـــســـــون : أبى ، أبى ذكرت الوالدين المنكوبين فخيل إلىّ أنهما على جمر لا يهدأ من اللوعة ، لاحتجاب الأميرة والشك المعذب فى مصيرها ، وليس ما ذكرتما أنت وابن حيون من ضعفى وضعف الأميرة وأثر السقم والهم فينا إلا حالا لا يلبث الشباب أن يتغلب عليه ، فالمروءة تأمرنا جميعًا ألا نؤخر الرحيل ساعة ، إذ لا معنى للإسعاف إذا هو لم يعجل ولم يأت فى أوانه .

ابن حـــيـــون : هو ذاك .

أبـو الحـــســن : نعم الرأى .

الأمـــيـــرة : ليكن كما أشار حسون .

حـــســـون : إذن فهلم أبى ، هلم ابن حيون ، هلمى يا أميرة و الساعة نسافر فنقضى الواجب .

الأمـــيـــرة : ويقضى الله ما يشاء .

(يدخل الغلمان الخدم صائحين)

الـغـلـمـــان : سيدى أبا الحسن ، سيدى حسون ، سيدى ابن حيون ، خذوا حذركم ، أدركوا الدار .

حـــســـون : ما يزعجكم أيها الغلمان ، وماذا حول الدار ؟ إنى أسمع ضجة ، أما تسمع يا ابن حيون ، أما تسمع ضجة يا أبى ؟

بـثـــيـنـة : حول الدار ضجة .

خـادم من الغلمـان : أولئك جنود المغاربة يا سيدى .

الثـــــــلاثـة : (بصوت واحد) جنود المغاربة حول الدار !؟

الخـــــــــادم : أجل ، أتوا يسألوننا عن بنت الملك هل رأيناها وهل آويناها ، وهم يقولون إنها دخلت الدار منذ ساعة ، وأنها طريدة الأمير سيرى بن أبى بكر قائد جيش الفتح .

حـــــســـــون : (مغضبًا) بل قل جيش الفضح يا غلام ، فقد باء الغادرون بفضيحة الأبد .

بـثـــــــــينـة : الآن فهمت يا حسون ، الآن أدركت يا عم أن سيرى بن أبى بكر كان قد خطبنى إلى أبى ، وكان رسوله يومئذ القاضى ابن أدهم ، فلا أبى أجاب ، ولا أنا قبلت ، ولعله تذكرنى اليوم فهو يريد أن يأخذنى عنوة .

حـــــســـــون : لا والله يا بنت الملك لا تسقط من رأسك شعرة وأنا حى ، ساعدى معى وسيفى بيدى مسلول .

(وبعد إطراق يستأنف ويقول)

حـــــســـــون : لا بأس عليك يا أميرة ، ولا علينا يا أبى من طلعة البربر ، ولا من اجتماعهم بنا فى هذه الحجرة أو غيرها من الدار ، ولا خوف علينا من فتشهم ونبشهم .

التـــــاجـــــر : وكيف يا حسون ؟ وماذا اعتزمت أن تصنع لتدفع عنا هذا البلاء ؟

حـــــســـــون : (بعد فكرة طويلة) اسمع يا أبى ! فى هذه الغرفة صندوق مملوء من ثياب المغاربة وتزيوا بزى القوم ثم نخرج فنختلط بهم أو ندعهم وسبيلهم ونأخذ سبيلا غيره .

ابن حـــــيـــــون : هو لا شك سبيل الفرار .

حـــــســـــون : (مبتسما) هو ذاك يا ابن حيون ، السرعة السرعة .

(ثم ملتفتاً إلى الأميرة) :

ادخلى يا أميرة ، أسرعى ، أسرعى ، ليضيعن الوقت ، فإن الجنود فى طلبنا .

(يدخل الأربعة الحجرة ثم يخرجون فى الزى المغربى ويكون الجنود قد دخلوا وهم يقولون) .

الجـــــنـــــود : (داخل المنزل لبعضهم) فتشوا ، انبشوا .

الأربـعـــــــــة : (خارجين قائلين) فتشوا . انبشوا ،

(ويكررون ذلك ثم ينسلون من المكان)

المنظر الثانى

تحت أسـوار السجن فى أغمات حيث ترى بثينة وحسون وأبو الحسن وابن حيون على مقربة من حارس السجن .

ابن حـــيـــون : ها نحن أولاء شارفنا أغمات ، وهذه أيها الرفاق هى القلعة التى شاءت الأقدار أن يسجن فيها الملك العظيم .

حـــســـون : يا لعجائب القدر ! قرية ظلت القرون الطوال مجهولة مغمورة ، أصبحت اليوم تسافر إليها الظنونُ من كل مكان ، وتستغلُ ممالك العرب بها وبنزيلها العظيم ، وتشرف الأسماع لمطالع قوافيه ، وينتظر الرواة ما يقول فيه الشعراء من كلمات التوجع ونفثات الحنين !

بـثـــيـنـة : (وبعد إطراق واستعبار) يا لقسوة القدر ! أهذا قفص الأسد يا ابن حيون ؟ أههنا منفى الملائك من عقائل بنى عباد ؟ تبًا لك يا ابن تاشفين ، ما كان أبخل جاهك على الكرام ، وما كان أكثرك فى القيود على الأحرار !

ابن حـــيـــون : صه أيتها الأميرة ، فهذا السجان ينظر إلينا ، وقد يُدخل الريبة فى نفسه أن يسمعَ منك هذا الكلام .

حـــســـون : كفكفى الدمع يا بثينة وأقلى الجزعَ ، ولا تنسى أن وراء هذه الجدران جروحًا من الدهر لم يبق لها بلسم سواك ، فكونى المفاجأة الشافية ، واطلعى عليها بابتسامتك الحلوة العافية .

الســـجـــان : من الرجال ؟ ما تبتغون ؟ متى كان حرمُ السجن موضع

وقوف وهمس ؟

حـــــســـــون : نحن أيها السجان طائفة من آل الْملكِ السجين وحاشيته ، قد هزَّنا الشوقُ إلى زيارته والسؤال عن أمره ، فادخل فأستأذن لنا عليه .

الســـــجـــــان : أنسيت أيها الفتى أن هذه القلعة هى من السجون التى يعيرها السلطان اهتمامه . فلا يدخلها داخل إلا بإذنه ، ولا يخرج منها خارج إلا بإذنه ، فهل بأيديكم جوازٌ يبيح لكم زيارة السجين ؟

ابن حـــيـــون : أنت تعلم يا أخى أن مولانا السلطان يعطف على أسيره الكريم .

الســـــجـــــان : (متهكما) كل العطف يا سيدى .

ابن حـــيـــون : وأنت تعلم أن الملك المعتمد قد رُخّص له من أول يوم فى استصحاب من يشاء من خواصه وذوى قرباه .

الســـــجـــــان : أعلم هذا أيها السيد .

ابن حـــيـــون : فكر إذن فى الأمر قليلا ، فليس يضرك أن تدخلنا إلى الملك وتتركنا عنده ساعة ، لعلنا نشفى برؤيته وحديثه الشوق والصبابة (ويلقى للحارس صرة ويقول) ومع ذلك فإليك هذه الصرة خذها وبلغنا الأرب .

الســـــجـــــان : (وهو يضع الصرة فى كمه) ما هذا أيها السيد ؟

ابن حـــيـــون : هذا قد لمسته يدك ، هذا قد سمعت رنينه بأذنك ، هذا يا أخى هو الذهب مفتاحُ الأبواب كلها إلا باب الجنة .

السـجـان : هذا كثير يا سيدى .

ابن حـيـون : بل هو قليل يا أخى ، ولك مثله عند خروجنا من حضرة الملك .

السـجـان : لقد سألتمونى أمرًا صعبًا أيها السيد ... ومع ذلك .. فما فى دخولكم من بأس . تفضلوا يا سادة ادخلوا .

المنظر الثالث

فى سجن أغمات حيث يرى ابن عباد بين أمه وزوجه وسائر أولاده وحاشيته ، وقد شاعت آية البؤس والتعاسة وجوه الجميع ، واليوم يوم عيد ، وقد جلس ابن عباد يتلقى تحية العيد وكلهم صامت خاشع .

ابن عبـــاد : (مناجيًا نفسه)

فيما مضى كنتَ بالأعياد مسرورا
فساءك العيدُ فى «أغمات» مأسورا

ترى بناتك فى الأطمارِ جائعةً
يَغزلنَ للناس ، ما يملكن قِطميرا

برزن نحوك للتسليم خاشعة
أبصارهنَّ حسيرات مكاسيرا

يطأن فى الطين والأقدامُ حافية
كأنها لم تطأ مسكًا وكافورا

من عاش بعدك فى مُلك يسرّ به
فإنما عاش بالأحلام مغرورا

الرميكية : (للملك) الأميراتُ بين يديك أيها الملك أتين يهنئنك بالعيد .

الملك : يا مرحبا بهن ، ولا مرحبا بالعيد ولا أهلا به ... عيد ! بأية حال عدت يا عيد ! اذهب فأنت على السجين حرام .

الملـــــــــك : (لنفسه) لكن يا ابن عباد ! بعض هذا الجزع ، وتجلد رحمة بهذه الحمائم الموثقة ، ورفقًا بهذه الملائكة المسجونة ..

الملـــــــــك : (إلى بناته) العيد يا أخوات بثينة ، يوم يجمعنا بأختكن .

إحـدى الأمـيـرات : والعيـدُ أيضًـا أيهـا الملك يوم يرد الله عليك ملكك ، فـتـدخل أشبيلية عليك التاجُ مؤتلقًا .

أمـيـرة أخـرى : بل العيد يا أبى يوم تدخل الأندلس فتنتقل فى ربوعه وممالكه ، تنقل الشمس من دار إلى دار .

الملـــــــــك : تقبّل الله منكن يا عباديات ورحِمَنى .

إحـدى الأمـيـرات : هوّن عليك يا أبى فلم يدم فى النعيم والبؤس قوم .

الملـــــــــك : لقد هون الصبرُ الحوادث عندى يا بنتاه ، إلا حادثة أصبح القلب جريحًا لا يقوى على حملها .

الأمـــيـــرة : وما تلك يا أبتى ؟

الملـــــــــك : أختك بثينة واحتجابها الذى طال ، وانقطاع الأخبار عن مصيرها .

الرمـــيكيـــة : لا تيأس من رحمة الله أيها الملك ، وانتظر فرجًا يأتى به فضله وكرمه ، فهذا قلبى يحدثنى ، وقلما كذبت قلوبُ الأمهات ، أن بثينة قد وجدت ، وأنها بخير وأمان .

الملـــــــــك : (باكيا متضرعًا) اللهم اسمع من أمتِك الرميكية وتقبل منها وأدخل علينا السرور ولو ساعة ، فإن عهدنا به عهد طويل .

(الأميرات يتنصتن)

الرمـــيكيـــة : ضجة ؟

أمـــيـــرة : حركة !

أخـــــــــرى : نقل أقدام !

المـــــلـــــك : انظرى يا رميكية من الداخلون ! فإن عينى أصبحت لا تحقق الأشباح .

الرمـــيكيـــة : سلم الله عينيك يا مولاى وأقرهما بلقاء بثينة .

(وفى هذه الأثناء يثب مقلاص إلى الباب ويرجع مع القادمين يقبل ثوب الأميرة بحرارة قائلا ..)

مـــقـــلاص : سيدتى بثينة ! أميرتى ، يا طربًا ، يا فرحًا !

المـــلـــك : رب ما أرحمك ! ماذا أرى ؟ ماذا أسمع ؟ ما هذا الطيب الزكى ؟ إنى أجد ريح بثينة !

الرمـــيكيـــة : بشراك يا قلب هذه فلذتك ردت إليك (وملتفتة إلى الملك) سيدى ، ملكى ، انظر كيف استجاب الله لنا ، هذه بثينة مقبلة .

المـــلـــك : أجل أيتها الملكة ، أقبلت الدنيا وعاد الزمان .

إحـدى الأمـيـرات : بثينة ! أختى ! ما أعظم إحسانك يا رب !

المـــلـــك : بنيتى ، بنيتى ، تعالى املئى ذراعىّ كما كنت تختبئين فيهما طفلة صغيرة .

(تنطرح بثينة على صدر والدها) .

بـثـــيـنـة : أبى ، سيدى ، ملكى ، لا بأس عليك يا ملك العرب .

المـــلـــك : ولا عليك يا ابنتى ، ثقى بالله وأملى وجهه الكريم .

بـثـــيـنـة : الصبر منك تعلمناه يا ملك الصابرين .

المـــلـــك : والجدة يا بثينة أنسيتها ؟ أما بك إليها شوق ؟ أمالها منك قبلة ؟

بـثـــيـنـة : (وتقوم لجدتها) جدّتى ، سيدتى ، ملكتى ، شهد الله ما خلا

القلب منك ساعةً ، وما وجدتُ فى مضيق فذكرتك إلا انقلب فضاءً ، ولا أظن الله سبحانه وتعالى أنقذنى من البلاء ، وردنى إلى أسرتى وردّ أسرتى إلىّ إلا ببركة رضاك ، أطال الله عمرك يا جدّة .

(ثم ترتمى فى أحضان العبادية جدتها ، وهى محاطة بأخواتها الأميرات تقبلهن ويقبلنها حتى اطردت اللوع وأخذها أبوها بينهما ، وانتظمت من الأسرة الملكية حلقة ، وهناك أقبل الملك على ابنته بالحديث فقال)

الملك : خبرينى كيف اختطفت يا بثينة وما حديث اختفائك ؟ حدّثينيه ليطمئن قلبى ، فقد كان احتجابك فى غليان الفتنة ، وعند احتدام الفتن يُذال المصونُ ويهون العزيز وتقع الفجاءات .

بثينة : ولكن الله سلّم يا أكرم الآباء .

الملك : حدثينا إذن حديثك يا بثينة .

بثينة : حديثى يا أبت عجيبٌ ، محزن سار ، مبك مضحك ؛ حافل بعجائب القدر ومدهشات القضاء .

الأميرات : حدثينا إياهُ يا أختُ أسرعى .

الرميكية : قصّى علينا يا بنتاه قصتك .

الملك : خبرينى يا بثينة .

بثينة : نظرت إليك يا أبى يومَ هجوم المغاربة على أشبيلية ، فرأيتك تقاتل وحيدًا قليل العون والمساعد ، وكأن أشبيلية تحتك العرين ، وكأنك الأسد يحمى عرينه شِبرًا شبرا ، فقلت فى نفسى : علام تعلمت الضرب بالسيف ، وعلام كنت أركض جيادَ الخيل

فى سهول الأندلس وحزونه ، إذا أنا لم أقض حقّ وطنى ، ولم أحم ظهرَ أبى فى هذا اليوم العصيب ؟ ثم جعلتُ على وجهى لثامًا وتقلدت سيفًا وامتطيت جوادًا وخرجت من القصر فلحقت بك ، فلم أزلْ أقاتل بجانبك وأحامى عنْك حتى امتدت إلىّ يد من حديد فاقتلعتنى من سرجى ، فأغمى علىّ ، ثم انتبهت فإذا أنا فى دار رجل من قواد المغرب .

الملك : (مغضبًا) وماذا لقيت من المغربى الخشن ؟

بثينة : لم ألق إلا خيرًا يا أبى ، فقد كان الرجل دينًا وتقيًا ، أخذَ ما علىّ من الحلى .

الملك : يا له من دَيِّن تقى .

بثينة : وتركنى ، فلبثت فى داره أيامًا طريحة الفراش لا أذوق طعامًا ولا أطعم رقادًا ! إلا ما كان من سكرات الحمّى ، إلى أن سخّرت لى العناية هذا الشيخ الجليل (وتشير إلى أبى الحسن) فلم أدر كيف نقلت إلى داره ، وهى لا تقلُّ رفعة عن قديم دورنا ، ولا تقصر بَشاشة نعمة عن زائل قصورنا .

الملك : (فى قلق وغضب ، مشيرًا إلى حسون) وهذا الشابُّ من يكون يا بثينة ؟

بثينة : هذا حسون ابن هذا الشيخ الجليل ، التاجر أبى الحسن ، وله عندنا أياد يذكرُها مثلك فى الكرام ، فقد قاتل الثوارَ فى قرطبة مع أخى الظافر رحمة الله عليه ، وأبلى فى وقعة الزلاقة بلاءً كان له خطره وأثره فى ذلك الفتح المبين .

ابن حيون : (متدخلا فى الحديث) وقد جُرح حسون يومئذ جرحًا بليغًا

فحمل إلى داره ، فما بلغها حتى بعث إليك أيها الملك بالصاعقة ، ذلك الجوادُ الأشقر ، فركبته والوطيسُ حام والحرب مجنونة ، فكان ميمون الناصية ، من صوته نصرت ، وفى ركابه غلبت وظهرت .

الملك : (مفكرًا مهتمًا) الصاعقة ؟ فرس الباز بن الأشهب لصٌ الأندلس ؟

ابن حيون : أجل أيها الملك ، وقد كان تحتك فى وقعة الدهر بين الفرنجة والمسلمين ، وكان رابع فرس قدم لك يومئذ وأنت كلما هلك تحتك فرس ركبت غيره .

العبادية : أعرفتَ محدثكَ هذا يا مولاى ؟

الملك : كيف أجهله أو أنساه ، هذا ابن حيون الذى زارنا فى أشبيلية ونصح لنا فلم نسمع منه ، فالحمد لله الذى جمعنا به حتى نستأنف شكر إحسانه .

ابن حيون : أطال الله بقاءك يا مولاى وأعانك على هذه الشدة ، وردّك إلى ديارك وردّ ديارك إليك .

الملك : وأنت يا حسون ، فقد ذكر لى بلاؤك ، ووصفتَ عندى كثيرًا بمحاسن الصفات ومكارم الأخلاق .

حسون : مدّ الله حياتك يا مولاى ، وظللك برعايته وأمانه .

بثينة : إيذن لى يا أبى أن أعترف فى مجلسك بأنى كنت فى بعض أيام تنكرى أجتمع بهذا الشاب النبيل ، فلا أجد إلا أدبًا حسنًا ، وعلمًا جمًا وخلقًا فاضلا ، وشمائل قد لا توجد فى أبناء الملوك .

الملـــــــــك : أتذكرين يا بثينة كيف كنتُ معك ضد القاضى ابن أدهم ، حين جاء يخطبك للأمير سيرى بن أبى بكر ؟

بثـــــــينة : أذكر ذلك يا أبى ولا أنسى لك فضلك ما حييت .

الملـــــــك : اعلمى إذن يا بنية أن الأوان قد آن ، وأن الإسلام لا دير فيه ولا رهبانية ، وأن السجن قد يحتمله الطفل وقد يطيقه الكهل ، ولكنه يرهق الشباب ويزهقه ، فلن نرضى لك أن تشاطرينا هذا المنزل الخشن وهذه العيشة الجافية ، وإن قلبى ليحدثنى بأن ألفة روحية قد انعقدت بينك وبين هذا الشاب النبيل .

حســـــون : (متدخلا) أيأذن لى الملك إن عرضت أن قوله الكريم إنما يُعرب عما أكن لسيدتى الأميرة من الحبُ والإجلال ، إنى أجد أقصى التشريف وغاية السعادة أن يأذن لى الملك فى أن أخطب سيدتى بثينة إليه .

الملـــــــك : (ملتفتا إلى بثينة) وأنت ماذا تقولين يا بثينة ؟

(الأميرة تغضى حياء وتسكت)

الملـــــــك : منَ الصمت كلام .

الملـــــــك : (إلى أبى الحسن) وأنت يا أبا الحسن ماذا ترى ؟

أبـو الحســـــن : ما يرى الملك أفضل ، فبما شئت فمرنا يا مولاى .

الملـــــــك : (إلى الرميكية) والملكة ما رأيها ؟

الملـــــكـــة : قد أمرتَ يا مولاى بما فيه الخيرُ ، جعله الله زواجًا مقرونًا بالسعادة واليمن .

ابن حـــيـــون : أيأذنُ الملك لى أنا الآخر بالكلام ؟

الملـــــــك : تكلم يا ابن حيون . فقد عرفت مودتك وإخلاصك ، وتبينت

نُصحك واهتمامك ، ولو لم يكن من إحساسك إلىّ وإلى أسرتى إلا تجشم هذه الرحلة من أشبيلية إلى أغمات ، لكفى فى باب المروءة والوفاء .

ابن حيون : لا شكر على واجب يا مولاى ، وقد طوقتنى الساعة منة لا ينزعها من عُنقى الموتُ ، بما رسمتَ من بناء هذا الفتى الماجد الباسل بهذه الأميرة التى لم يلد الملوكُ أجمل ولا أكمل منها ؛ والآن بقى لى ملتمسٌ أرجو أن يجيبنى الملك إليه .

الملك : اقترح يا ابن حيون تجد ملبيًا مجيبًا فيما تبلغه قدرة ملك مخلوع .

(يخرج ابن حيون جراباً كان قد شده على وسطه ثم يفتحه وينثره عند قدمى الملك فتنتثر اللآلئ واليواقيت)

الملكة : جواهر !

الأميرات : لآلئ ! يواقيت !

مقلاص : يا لك من كنز ثمين غال .

الملك : (وهو ينحنى على الكنز) ومن أين لك يا ابن حيون كلُ هذا المال ؟ فمثل هذا الكنز لا يكون إلا ذخيرة ملك وابن ملوك .

ابن حيون : هو كما تقول يا مولاى . فهذا الكنز كان لملك ووارث ملوك فساقته العناية إلىّ ، واليوم قد هلك أصحابه وبادوا فأصبح لى وحدى أتصرف به كيف أشاء ، وبالأمس قوّمت هذه الجواهر بما يقرب من ألف ألف دينار ، وأنا مقسّم هذا المال ثلاثة أقسام : ثلثٌ تأخذه أنت يا مولاى فتستعين به على ما أنت فيه من الشدّة ، وثلث يأخذه حسون وزوجته فيعيشان به

رغداً ، والثلث الثالث يكون لى ولأبى الحسن التاجر هذا (مشيراً إلى أبى الحسن) نؤسسُ به تجارتنا ونعقد بيننا شركة نتحدى بها تجارات الفرنجة فى الأندلس .

أبو الحسن : الله أكبر ! أنت والله هو المغربى الذى دخل علىّ دارى ، وما كنت يومئذ إلا متنكراً محسناً للتنكر ، فأسوت جرحى وحفظت علىّ دارى واستنقذتنى من عوادى البؤس والفاقة ، والآن تردُّ علىَّ تجارتى وتشاطرنى كرائم مالك ، فبأى لسان أؤدى شكر إحسانك .

ابن حيون : بل اشكر الله يا أخى ، فإنى لم أعنك بمالى ولكن أعنتك بماله ، ولا أجدنى صنعتُ يومئذ إلا واجبًا ولا قضيت إلا ديناً علىّ للصداقة القديمة وللود الصحيح .

الملك : ولكن ما عساى أصنع يا ابن حيون بهذه الثروة ، وأنا كما ترانى .. صيد فى قيد ، وأسدٌ فى صفد ، وحى فى قبر ، ودنيا فى شبر ؛ إنها لهبة مشكورة وإن كانت هى والحرمان سواء .

ابن حيون : لقد أراح الله بالك من هذه الناحية يا مولاى ، وأذهب عنك الحزن .. ألا يسرُّك يا مولاى أن تنتقل من هذه القلعة المظلمة الرطبة إلى منزل بظاهر المدينة جديد البناء ، حسن الأثاث ، تحيط به الأشجار من كل جانب ، فتنزل وقد طرحت هذه القيود فتستقبل الراحة والحرية ، وتتمتع بالعزلة التى هام بها العقلاء فى كل زمان ؟

الملك : ومن لى بهذا الذى تصف يا ابن حيون ؟

ابن حـــيـــون : بل هو أمرٌ قد تم يا مولاى ، فقد فرغ من شرائه وتأثيثه وتهيئته لنزولك به فى أهلك وعيالك ، وأما النقلة فغداً أو بعد غد إن شاء الله .

المـــلـــك : وابن تاشفين ... ؟

ابن حـــيـــون : هو الذى أمر أن يكون كلُّ ذلك ، وقد تذكر كلمتك المشهورة التى سارت مثلا فى فم الأندلس ، إذ سئلت أى المفزعين أحبُّ إليك : ملك الإسبان أم سلطان المغرب ؟ فأجبتَ : «رعى الجمال ولا رعى الخنازير» ! فأمر أن يحمل إليك فى المنزل بعيران من نجائب إبله لترعاهما له فى خميلة الدار الجديدة .

المـــلـــك : (فى إطراق) الآن تذكرت . لقد سئلت مرة فى مجلس الحكم إن كان لا بد لى أن أخضع لسلطان أو أدينَ لملك بالطاعة ، فأى الملكين أفضل وأى السلطانين أختار : سلطان المغرب أم ملك الإسبان ؟ فأجبتُ «أرعى الجمال عند أمير المسلمين ، ولا أرعى الخنازير لملك الإسبان» وأظن أن عبارتى هذه نقلت يومذاك إلى ابن تاشفين فأعجبته ووجدها شريفة .

بـثـيـنـة : ولكن المكافأة كانت غير شريفة يا أبى .

المـــلـــك : تريدين يا بثينة أن تقولى إن مروءة السلطان لم تزد على أن جعلنى راعيًا لجماله ، بعد ما سلب نعمتى واغتصب مُلكى ونفانى أنا أوسرتى فى أغمات .

الرمـــيـكيـــة : هذا جهد الرجل فى المروءة يا مولاى ، وهذه غاية كرمه ، فلا تكلفة فوق قدرة باعه ، ولا تسأله ما ليس فى طباعه .

المـــلـــك : (لابن حيون) ولكن قل لى يا ابن حيون ، من أخذ لنا هذا

التافه القليل من ذلك السلطان الشحيح ؟ ومن ذا الذى اجتهد لنا وصنع كل هذا ، حتى غير رأىَ السلطان ، وصرفه عن العنف إلى اللطف .

بثينة : هو لا شك ابن حيون يا مولاى .

ابن حيون : ما اجتهدتُ ولا صنعت شيئًا ولكن المال صنع .
(ويشير إلى الجواهر)

الملك : ستذكر لك هذه الهمة الكبرى يا ابن حيون .

بثينة : وتلك الهمة الصغرى أتذكرها للسلطان يا مولاى ؟
فقد تسمح فنقلك من هذه القلعة إلى دار غيرها فى أغمات .

الملك : (ويبتسم ابتسامة تهكم) أعيشُ فيها حرًا طليقًا بين أربعة جدران ، وأرعى له فيها الجمال .

بثينة : أنت الذى رعيت الله فى أشبيلية قومًا شيدوا حضارة الإسلام ، وشعبًا عزيزًا كريمًا طالما ناضل دون عرينه ، وصبر على عداوة الفرنجة وتألبهم عليه القرون الطوال .

(ستار)

المراجعة اللغوية : آمال الديب
الإشراف الفنى : إنچى چورچ